فرجينيا وولف
سيرة حياة

كوينتين بيل

ترجمة : عطا عبد الوهاب

الجزء الأول

فرجينيا ستيفن : V. Stephen

١٨٨٢ - ١٩١٢

١٩١٢ - ١٩٤١




فرجينيا وولف
سيرة حياة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨٠٧٩٠٨
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٣

المؤلف

أستاذ التاريخ ونظرية الفن في جامعة سايكس في انكلترا منذ ١٩٦٧. وهو رسام ونحات وخزّاف ومؤلف وناقد فني. شغل مناصب أكادمية متعددة لتدريس الثقافة الفنية والفنون الجميلة في عدد من الجامعات البريطانية بضمنها جامعة أوكسفورد. وله أعمال مختلفة منشورة منها:

On Human Finery
The Schools of Design
Ruskin
Victorian Artists
Bloomsbury

ولد كوينتين سنة ١٩١٠، وهو إبن ڤانيسّا، شقيقة فرجينيا.

الفصل الأول

١٨٨٢

فرجينيا وولف هي الآنسة ستيفن Stephenچ برز آل ستيفن من العدم في أواسط القرن الثامن عشر. كانوا مزارعين وتجاراً ومتسلّمي بضائع مهربة في مقاطعة أبردينشاير Aberdeenshire. ولا يعرف عن جيمز ستيفن James Stephen، الذي عاش في أردنبروت Ardenbraught، سوى أنه مات قرابة سنة ١٧٥٠ تاركاً وراءه سبعة أبناء وبنتين. وجرياً على التقليد الذي كان يسير عليه أمثالهم هام أغلبية الأبناء خارج البلاد طلباً لموارد العيش. إستقر أحدهم، وهو وليم ستيفن William Stephen، في جزر الهند الغربية فازدهرت أحواله من تجارةٍ تعيسة في شراء العبيد المرضى ثم مداواتهم إلى حدٍ يليق بعرضهم للبيع في الأسواق. وأصبح إبن آخر، إسمه جيمز أيضاً الذي درس القانون، تاجراً، فتحطمت به سفينته على شاطىء دورسيت Dorset. كان رجلاً هرقليّ القوام فأنقذ نفسه وأربعة من رفاقه غير متّكلٍ إلا على جهوده الشخصية وعلى برميلٍ من البراندي كان معهم. كان الظلام حالكاً والعاصفة هوجاء؛ لكنهم درجوا صعبداً على

منحدرات شعابٍ سحيقة «لا يمكن لقطةٍ أن تتسلقهـا» فوجـدوا أنفسهم في جزيرة پوربيك Isle Of Purbeck. وهناك مدّ السيد ميلنير Milner، مدير الكمارك في الجزيرة، يد الإنقاذ لجيمز أولاً ومن ثم احتفىٰ به؛ واستطاع جيمز هذا تدبير الأمور تدبيراً حسناً جداً فتمكن أن يحصل لنفسه لا على الجانب الأعظم من حمولة السفينة المحطمة فقط بل أن يكسب كذلك قلب الآنسة سيبيلا ميلنير Sibella Milner فتزوج منها سراً.

لم تكن الحياة الزوجية للسيد والسيـدة جيمز ستيفن حيـاة سعيدة. فقد خاب هو في أعماله وغرق إلى ذقنه في الديون حتى وجد نفسه سجيناً في سجن الدولة الذي يزج فيه بالمدينين. في هذه المحنة تصرف جيمز ستيفن على شاكلةٍ ستكون مثلاً يحتذيه أحفاده. فقد تناول قلمه وأخذ يفنّد قضيته بالحجة الدامغة. وكان (على قدر ما أعرف) أول فرد من آل ستيفن يكتب كتاباً، ومنذ ذلك الحين يندر أن نجد أحداً منهم لم ينشر شيئاً أو نجد جيلاً منهم إلا وأضاف شيئاً إلى إنجازات الأسرة الأدبية.

بدأ جيمز ستيفن كذلك تقليداً عائليـاً بأن بلغ بحجتـه إلى المحاكم. والواقع أنه بلغ بها إلى أكثر من ذلك فنظم شغباً في السجن كاد ينتهي بتمرد.

أعلن جيمز أن عقوبة السجن عن دين هو أمر بربري، وأنه بالإضافة إلى ذلك شيء تمجه روح القانون العام والماغناكـارتا والشرع المكتوب والعدالة والإنسانية والسياسة. تلك كانت أشياء جديرة بأن تقال، ولكنها لم تعد عليه بأثر عملي، وفي النهاية لم يطلق سراحـه إلا بفضل دائنـه. كانت معـارك ستيفن القانـونية

والسياسية قد أقنعته بأن مواهبه إنما تكمن باتجاه المحاماة أكثر من اتجاه التجارة. فدخل مدرسةً للقانون، ولكن الوسط القانوني الإنكليزي رفضه، وهو الوسط الذي سيحتضن عدداً كبيراً من أحفاده من بعده. كانت احتجاجاته قد كوّنت له كثيراً من الأعداء فحرم من الممارسة القضائية «لنقصٍ في شرف ميلاده، ونقصٍ في خطّه المالي، ونقصٍ في ثقافته، ونقصٍ في طباعه».

ولكنْ كانت هناك بوّابة خلفية للمهنة القانونية فدخل ستيفن عن طريقها إلى هذه المهنة. أصبح شريكاً لمحامٍ كي يستطيع بواسطته وتحت اسمه مزاولة العمل. غير أنه لم يكن عملاً يمكن أن ينعم عليه بالذكر الحسن. فزبائنه من النوع المشبوه. وهو يقوم بعمله في الحانات العامة. لم يجلب ذلك له إلا القليل من السمعة والأقل من المال. أما زوجته المسكينة، وقد اعتقدت أن هذه المتاعب إنما ينزلها بها العليّ القدير ليعاقبها على موافقتها على زواجٍ سرّي، فقد ماتت سنة ١٧٧٥. وتبعها هو بعد أربع سنوات. لم يكن قد جاوز السادسة والأربعين؛ وترك ستة أطفال وما يكفي من النقد لسداد ديونه.

من هؤلاء الستة «الصبيّ جيمز» وهو يهمنا أكثر من سواه. فقد أثبت بعد أن نُشّيء في جو العوز والمقاضاة، أنه إبن أبيه. كان هذا أيضاً كاتب كراريس سياسية وداعياً لقضايا؛ ولكنْ، فيما كان الأب معنياً بشؤونه الخاصة فإن الفتىٰ جيمز استخدم مواهبه في المحاججة من أجل أغراض أعظم. كان له أن يتزعم قضية الحرية لصالح الوطنية والإنسانية وأن يبدأ حرباً بين أمتين عظيمتين.

على أن حملته الأولى كانت وفق التقليد الأبوي إلى حدٍ كبير. فقد اقتحم جيمز، بتعليمه الرسمي البسيط، طريقه لدخول كلية ماريشال Marischal في أبردين Aberdeen وواصل رغم سوء صحته دراسته فيها. درس ما كان يسمّىٰ آنئذٍ بالفلسفة الطبيعية (أي العلوم) وبنجاح؛ لكنه وجد طريقه عندئذٍ مسدوداً بامتحانٍ يجرىٰ باللاتينية. كان يعرف أنه لا مناص راسب في هذا، وكان يعرف أيضاً، هذا أنكىٰ، أنه سيؤول إلى شخصٍ مستسخف (كان رجلاً حساساً جداً).

«فما العمل إذن؟ قد يُظن أنه أمر استثنائي أن يجد شاب في السابعة عشرة في نفسه الشجاعة لتصور خطة تغطي عيوبه وتوفر نقوده، مع الحذق اللازم لإنجازها، وذلك بتغيير التطبيق الثابت لجامعة عريقة تغييراً جديداً. مع ذلك فإن هذا هو ما تصورته وما نفذته».

بعبارة أخرى استطاع ذلك الشاب أن يغيّر الأنظمة المتبعة لكي تلائم حاجاته. والمقطع المنقول هنا هو من «مذكرات جيمز ستيفن» التي كتبها بنفسه لفائدة أبنائه. وهي وثيقة ممتعة وتزداد إمتاعاً لما في الكاتب من سجيّة القناعة. شعر ستيفن أن بوسعه أن يهنىء نفسه على هذا النصر وعلى إنتصارات أخرى، على مجهوداته التي مكّنته من تخطي عقبات كأداء ليصبح بعد ذلك عضواً في البرلمان وخبيراً في المحاكم وفرداً محترماً جداً في المجتمع، لأن بوسعه أن ينسب الفضل في ما يجري إلى قوةٍ أعلى.

إن الله يجيب دعاءه، والله يرعىٰ شؤونه، والله يسدّد خطاه. ثمة لحظات كانت تبدو فيها العلاقة بين جيمز ستيفن وخالقه كأنها علاقة تآمرية. كان يضع ثقته بالعناية الإلهية ببساطة تامة، فهو إذ يوجّه عنايته لإحدى الفتيات يتصل بأخرى فتحمل منه. لم توضع هذه الثقة في غير موضعها، فقد تدبّر هؤلاء الأمور فيما بينهم بصورة مرضية تماماً. تزوج هو من الفتاة الأولى ووجدت الأخرى زوجاً لها. أما إبنهما النغل فقد أصبح كاهناً محترماً جداً.

أصبح السيد جيمز، كرجلٍ عام، وثيق الصلة بقضيتين كبرنين. وكلتاهما نشأت عن إقامةٍ له في جزر الهند الغربية. كانت له هناك علاقة عائلية أصلاً بدأها عمه وليم؛ وهناك زاول ستيفن مهنة المحاماة، كما وجد أن الحصار البريطاني يكسر من التجار الفرنسيين والأمريكيين بسهولة تامة. فاستشاط غيضاً هو الذي كان في شبابه نصيراً غيوراً لجورج واشنطن. أثاره ذلك إلى كتابة كراس بعنوان «الحرب بزيّ متنكر»، وهو كراس أدى إلى صدور «أوامر المجلس»، وإلى الحصار القاري، وكذلك إلى حرب سنة ١٨١٢ مما أثار في نفس ستيفن الضغينة والدهشة.

ولكن جيمز، منذ وصوله الأول إلى نصف الكرة الغربي، كرّس نفسه لقضية أخرى أنبل بكثير. فقد أدرك إبتداءً شناعة الرق حين رأى الوحشية التي يعامل بها الزنجي في محاكم جزر الهند الغربية. ما أن تمثل الظلم في هذا حتى صار صديقاً للمضطهدين، صديقاً دائب العون لا تعرف نفسه السكينة. وعند عودته إلى انكلترا أصبح الحليف الموثوق لويلبيرفورس Wilberforce الذي اشتهر بمطالبته بتحرير العبيد وإنهاء الرق إلى

الأبد، ثم تزوج من شقيقته الأرملة بعد وفاة زوجته الأولى. أما في مجلس العموم فهو إن لم يكن مدافعاً عن «أوامر المجلس» فهو مهاجم للرق؛ وكان رفض الحكومة إتخاذ إجراء ما حول هذه المسألة هو الذي حدا به إلى الانسحاب من البرلمان.

كان هناك بجوار بلدة كلابام Clapham مجموعة من الأصدقاء: رجال ميسورون من ذوي المكانة يتميزون بالتقوى، وبدرجة معتدلة من الثراء، وباهتمام مشبوب العاطفة بتنوير الوثنيين وتحرير العبيد، وكان من بينهم ويلبيرفورس. هؤلاء كانوا يدعون بـ «قدّيسي طائفة كلاپام». لم تكن آراء جيمز الدينية هي التي جذبته إلى هذه الجماعة البيروتستانتية، الإنجيلية، بقدر ما جذبته إليها آراؤه السياسية، وإن كان بالتأكيد ممن يتخذ اللون الروحاني لمحيطه. لكن طائفة كلاپام كانت على العموم معنية بالعمل أكثر من العقيدة، وبالسياسات أكثر من الأحزاب. وكان إلغاء تجارة الرقيق أولاً ثم إلغاء الرق نفسه هو دافعها الأعظم. لهذا فقد كانت مضطرة إلى أن تكافح من أجل معتقداتها في مراكز الحملات الإنتخابية وفي مجلس العموم. لم يكن زعماؤها من رجال الدين بل أفراداً من ذوي الحس السياسي من الطبقات الوسطى، فهم بالتالي رجال يعرفون أن عليهم، لكي يبلغوا غاياتهم، أن يتعاونوا مع أشخاص يختلف منشأ مذهبهم الإنساني عن منشأ مذهبهم. إنهم وهم من حزب المحافظين ومن أتباع كنيسة انكلترا الأنگليكانية قد وجدوا أنفسهم حلفاء للراديكاليين وأبناء طائفة الكويكرز وأتباع الفيلسوف بنثام Bentham ـ وكان هؤلاء في مناسبات أخرى من مناهضيهم ـ في حين كان على السياسي پيت Pitt، الصديق الحميم والحليف السياسي

لويلبيرفورس، أن يكون أحياناً عدواً لهم. ولهذا فقد كان على هؤلاء الرجال المخلصين وذوي البلاغة والنفوذ أن يتعلموا الدروس السياسية في التسامح والحل الوسط وذلك في خضم العمل العظيم لتأسيس اللجان وكتابة النشرات وإثارة مشاعر الناس. وهكذا فإن مسيحية ستيفن وأصدقائه من بلدة كلاپام، على ما كانت عليه من حماسة، لم تبلغ قط تلك الثقة الدغماوية، وتلك الحمية اللادنيوية، الاضطهادية، التي اتصفت بها بعض الطوائف الأخرى.

ولا بد أن إنجيليي كلاپام قد شعروا أنهم هم ضمير الطبقات الوسطى البريطانية، كما كانوا فعلاً، وشعروا بالتالي أنهم قوة سياسية كبيرة. ولهذا السبب دون غيره عنوا قبل كل شيء بالمسائل الأخلاقية، وحين انهارت في أجيال لاحقة البنية الفوقية لغاياتهم الفلسفية ظل النسيج الأخلاقي باقياً. إن هذا الدأب على العنصر الأخلاقي، بإزاء العنصر اللاهوتي، في معتقدات الأجداد سيكون له تأثير هام جداً على جيل لاحق.

توفي السيد جيمز في سنة ١٨٣٢، قبيل الإلغاء النهائي للرق في الأمبراطورية البريطانية. وأصبح أولاده الشرعيون جميعهم من رجال القانون؛ كانت أسرته حقاً أسرة جدال ومناظرة بشكل أكيد. ولا بد أن الابن الثالث، وهو جيمز آخر، قد أظهر موهبة فائقة في القضاء (وقد أظهروها جميعاً) ذلك أنه سرعان ما أخذ يكسب ثلاثة آلاف جنيه استرليني سنوياً - وهو دخل طيب جداً في تلك الأيام. ولكنه انتقل، مضحياً بالكثير من دخله، إلى منصب دائم في وزارة المستعمرات. كان سببه في ذلك سبباً واضحاً جداً.

فهو لا يستطيع إلا كإداري أن يواصل على خير وجه حملة أهليه العظيمة ضد الرق. كان يعرف في مقر الحكومة بـ «ستيفن ما فوق الوزير»، ذلك أنه لم يكن مجرد موظف مدني من أولئك الموظفين الذين ينقضون بلطف حازم رغبات الوزراء الذين يكونون، إسمياً، أعلى منهم منصباً. كان موظفاً ذا سياسة؛ وكانت في الحقيقة أكثر من سياسة، كانت رسالة، وكان لا بد لها أن تفرض، بصورة أو بأخرى، على وزارة المستعمرات، وعلى المستعمرات نفسها، وعلى الحكومة التي في السلطة بصرف النظر عن لونها الحزبي.

كانت تلك السياسة، بالطبع، هي سياسة الإنعتاق، فمع أن مسائل أخرى كمنح الحكم الذاتي لكندا كانت تشغل شيئاً من وقته، لكن العمل الأعظم لدائرته كان هو حماية الزنوج. أما هدف المستعمرات نفسها، وأعني بها بالطبع الأقلية البيضاء الحاكمة في المستعمرات، فكان هدفها معارضة تلك السياسة وتأخيرها وإحباطها وإبطالها. أما المستوطنون المستعمرون فكانت تجري معاضدتهم على نحوٍ قدير، كما هو الأمر دائماً، من لدن أصدقاء متنفذين في لندن. فلا بد إذن من قرع حجة هؤلاء بالحجة، والتفوق على ذكائهم بذكاءٍ أحدّ وأمضىٰ، وكذلك تسفيههم، وكان الرجل الذي عليه أن يقوم بذلك هو «السيد ستيفن ما فوق الوزير».

كان السير جيمز ستيفن، كما أصبح فيما بعد، إدارياً شجاعاً وذكياً ومقتدراً. وكان كذلك، كما اعترف هو شخصياً، ليس سوى رجل بسيط. لقد ورث إقدام أبيه وجده؛ كان فظيعاً لا هوادة فيه،

فهو يأخذ الآخرين بالشدة نفسها التي يأخذ بها نفسه، مشتغلاً الساعات الطوال في وزارة المستعمرات وجاعلاً غيره يشتغل جاهداً مثله، ويجد مع ذلك من الوقت ما يكفي للكتابة في مجلة «أدنبره ريڤيو» فيملي ثلاثة آلاف كلمة قبل تناول طعام الإفطار. إنه، وهو عربيد الحيوية المنتجة وصنديد العلم والفهم، كان كذلك رجلاً مكشوفاً للأذى وتعيساً. لم تبلغ إنجازاته مبلغ مثله العليا. ووجِّه إليه اللوم عن إجراءات كان قد عارضها وعن إجراءات أخرى أيدها؛ وكان شديد الحساسية لمثل هذا النقد على نحوٍ عميق، خاصة لأنه لا يستطيع الرد عليه بصفته موظفاً مدنياً. كان خجولاً حدّ القنوط وكثير التشاؤم. وكان على درجة من الاقتناع بدمامته بحيث لا يسمح بوجود مرآة في غرفته. كان يفضل أن يغلق عينيه على أن يواجه مخاطباً له. وتمنّىٰ لو أنه كان رجلاً من رجال الدين أو راهباً متنسكاً بعيداً عن الأنظار، تمنّىٰ لو كان أي إنسان إلا ما كان عليه. وكان يفزعه كونه مرتاح البال، ومع أنه لم يكن يحرّم المتعة على الآخرين فقد كان تواقاً لتحريمها على نفسه. ذاق ذات مرة سيگاراً وأحبه كثيراً فآلى على نفسه ألا يذوق لفافة أخرى أبداً. وخطر له أنه يود تنشّق السعوط فأفرغ فوراً علبته من المسحوق خارج النافذة.

ذات مرة سألت الليدي ستيفن إبنها فتزجيمز Fitzjames: «هل رأيت أباك يفعل شيئاً ما لأنه لطيف»؟ فكان جوابه: «نعم، مرة واحدة، حين تزوجك». وكان هذا جواباً سريع البديهة يفوه به ستيفن آخر هو أيضاً جدلي رائع.

لكن زواج جيمز ستيفن لم يكن شيئاً لطيفاً فحسب، بل كان

شيئاً حصيناً من أعلى مرتبة. فبزواجه من جين كاترين ڤين Jane Catherine Venn تحالف ستيفن تحالفاً تاماً مع كلاپام، ذلك أن آل ڤين كانوا قلب الطائفة ذاته. كان آل ڤين من رجال الدين دائماً؛ ويرجعون بماضيهم في تسلسل لا ينقطع من المطارنة إلى الزمن الذي أخذ يصبح فيه شيئاً محترماً أن يكون جدك الأعلى قسيساً؛ وكانت علاقتهم بأبرشية كلاپام علاقة مديدة، كما أن كتاب «الواجب الكلّي للإنسان» من وضع جدّ جين ڤين هو الذي مهّد إلى عقيدة كلاپام، إذا كان للمرء أن يتكلم هنا عن عقيدةٍ ما.

قد يقال إن إبنة قسيس إنجيلي ليست هي التي يمكنها أن تزيل ميل ستيفن الطبيعي نحو الكآبة والحرمان الذاتي. فقدِّيسو كلاپام لم يكونوا من مؤيدي التقشف المفرط، كما أن آل ڤين على الخصوص كانوا من جنسٍ مرح مفطور على الإدراك السليم، جنسٍ يحب الفكاهة ولا يجد بأساً في المتع البريئة. كان ثمة شيء مأفون في حرمان ستيفن الذاتي؛ أما جين كاترين ڤين فقد كانت إمرأة رشيدة لم تخلق إمرأة بمثل عقلها قط. كانت كذلك وسيمة الطلعة، رقيقة الحاشية، ذات نزعة قوية لكي ترى دائماً الجانب الحسن في أي أمر من الأمور. لقد هيأت لزوجها بيتاً يستطيع أن ينسىٰ فيه سكرات العذاب من الحياة العامة. كان ذلك البيت وفق المقاييس العصرية بيتاً طهوراً على نحوٍ متزمت؛ ما كان يسمح لأولادهم أن يذهبوا إلى حفلة راقصة أو إلى مسرح، لكنهم لم يكونوا يندّدون بالذين يتمتعون بمثل هذه التسليات؛ كان البيت مكاناً جاداً ولكنه سعيد، يضيئه بذل الوالد لذات نفسه وإطلاق الوالدة لضحكاتها.

ثمة شيء آخر ينبغي أن نقوله بشأن بيت السير جيمز ستيفن. إنه بيت يحترم الفن، وأعني به الفن الأدبي (فالرسم والموسيقىٰ كانا مهملين، على ما خلصت إليه). كانت الليدي ستيفن معجبة بكـوبـر Cowper و وردزورث Wordsworth وسكـوت Scott وكامبيل Campbell. أما السير جيمز فيتجه نحـو الكتاب الأكثـر جديةً من ذوي الأسوة النافعة، لكن بوسعه كذلك أن يقدر فولتير Voltaire ومونتانيه Montaigne؛ كان من بين أصدقائـه القليلين جون ستوارت ميـل J.S. Mill وآل ڤين وآل دايسي Dicey وآل غارات Garratt، وهذه جماعة جادة ومتنورة.

كان للسير جيمز خمسة أبناء، توفي أحدهم في طفولته وتوفي الآخر في شبابه؛ أما الثلاثة الآخرون الذين عاشوا فقد صار لهم أهميتهم لأولاد الجيل التالي. وهم: جيمز فيتزجيمـز، وكارولين أميليا Caroline Emelia ولزلي Leslie والد فرجينيا.

ستعود كارولين أميليا إلى الظهور في هذه الحكاية فيما بعد؛ كـانت إمرأة ذكيـة ولكنها مـع ذلـك آلت إلى تلبّس دور الأنثىٰ الفكتورية المغفلة. فقد أحبت تلميذاً وكان لديها من الأسباب ما دعاها إلى أن تفترض أن الوداد متبـادل بينهما؛ أمـا الفتىٰ فلم يفصح عن مشاعره قط. ذهب إلى الهند ولم يسمع عنه شيء. تحطم قلبها وتدهورت صحتها؛ وفي سن الثالثة والعشرين إنتهىٰ بها المطاف إلى أن تصبح عازبة مقعدة. فقدت إيمانها ومضت تبحث بدأبٍ عظيم عن إيمانٍ آخر؛ وبعـد عددٍ من التجـاريب إكتشفت منـزلاً روحانيـاً ينسجم مع ميـولها وذلـك في «جمعيـة الأصدقاء» .Society of Friends

وللمرء أن يخمن أن فتزجيمز إبتسم بفظاظة لما تحياه شقيقته من حياة المعاناة السلبية واللطف المعتدل؛ ولكنْ لعل المرء يجد في الحياة المكرسة للدين وأعمال الخير حياةً مناسبة للمرأة. غير أن فتزجيمز كان رجلاً بمعنىٰ الكلمة. فلا بد لحياته إذن أن تكون أكثر إيجابيةً وأكثر تقحّماً وأكثر قساوةً. حين دخل مدرسة إيتون هو ولـزلي كتلميذين نهاريين تعرض الشقيقان للمضايقات الخبيثة بشكل شنيع. ظل يشعر بالمهانة من ذلك دائماً لأنه يحس بعدم مقاومة الإضطهاد بقوة كافية. بيد أن هذا الإقرار المهين بالقوة المتفوقة للآخرين بلغ نهايته أخيراً. فقد شبّ فبتزجيمز ليصير فتىٰ ضخماً عريض المنكبين يُعرف عند رفاق اللعب باسم «العبوس العملاق»، فتىٰ قادراً على أن يرد الصاع صاعين. كان عليه، كما قال، أن يتعلم «أن المرء إذا كان ضعيفاً فسيكـون تعيساً، وأن حالة الطبيعة هي حالة حرب وأن البقاء للأقوى هو قانون الطبيعة العظيم».

أما أخوه الأصغر، لزلي، فقد كان صبياً متوتـر الأعصاب، رقيقاً، حبيب أمه، شغوفاً بالشعر فائق التأثر به، شديد الحساسية حتى أنه لا يستطيع تحمّل نهاية فاجعة لحكايةٍ ما. وقد احتاج في المدرسة للحماية التي يستطيع فيتزجيمز تقديمها له. لذا أراهما وفيتـزجيمـز العنيف، المعتمـد على نفسـه، الـذي لا يعـرف الخزعبلات وهـو يشقّ طريقـه خلال الأوضـاع الرهيبـة لمدرسـة خصوصية بريطانية ساحباً وراءه صغيراً رقيقاً فزعاً. في كيمبردج أيضاً كان فيتزجيمز هو الذي يشق الطريق، وقد أصبح يعرف في إتحـاد الطلبة «بـالأسد البـريطاني» منـاظراً مـزمجراً، كـاسحـاً،

متهوراً، ملوِّحاً في النقاش بقبضة كفٍ قاسية، ثم إختير لألمعيته العقلية وأمانته الفكرية عضواً في تلك الجمعية العقلانية الرفيعة العماد المعروفة باسم «جمعية الرسل»، فيما لم يكن لزلي قط، وهو الأرق طبعاً والأكثر استحياءً والأقل تألقاً من هؤلاء الرسل ولم يتفوق على أقرانه التلاميذ بشيء.

كان من الواضح للجميع أن الأخ الأكبر سيخلق لنفسه إسماً، وينضم إلى الأسرة الحقوقية ليصبح قاضياً وبارونيت ـ كما أصبح فعلاً؛ فيما يحتمل أن يصبح لزلي من رجال الدين لينحدر بلطف إلى نوع كريم من خمول الذكر. أما أنا فأرى أن لزلي كان يحاول طيلة حياته أن يضاهي شقيقه الرائع في كل شيء. كان فيتزجيمز قوياً جسدياً؛ لزلي سيجعل نفسه قوياً كذلك. وهو، كفيتزجيمز، سيسير أميالاً؛ بل سيقوم بأكثر من ذلك، سيركض، سيجدف، سيتسلق الجبال، والواقع أنه أمسىٰ، كما عبّر بطريقته المقللة من شأن الذات، «نحيلاً». كان في واقع الأمر مشّاءً مشهوراً، وجادف زوارق بل مدرّب مجدّفين، ومن متسلقي الجبال العظام في القرن التاسع عشر. وأظنه تبنّىٰ بالطريقة نفسها بعض عادات فيتزجيمز الفكرية النشطة، فهو لا يأبه بالفنون والآداب، ويكاد يعادي الأمور الثقافية فيكون مناوئاً للفكر. إتّبع بنثام وجون ستيوارت ميل؛ وكان من طائفة «الكنيسة المتفتحة» Broad Church، فحلاً لا يعرف الميوعة.

كان البنين والبنات من آل ستيفن يتذكرون عمّهم فيتزجيمز في سنواته الأخيرة قوياً ضخم الجثة وقد زرّر شديداً معطفه الرسمي الأسود وهو يقود الليدي ستيفن إلى الكنيسة يوم الأحد

صباحاً ليقدم هناك إحتراماته لكائن انقطع عن الإيمان به. ويقول عنه الشبان الخبثاء «إنه فقد الأمل بالجنة، لكنه يتشبث بالأمـل العريض باللعنة الأزلية».

وهذا ليس كلاماً منصفاً؛ إنما كان من الصحيح بالنسبة إليه القول بأن الشر يبدو شيئاً حقيقياً وأن الخير لا يبدو كذلك. كان انشغاله المتواصل يدور حول الرذائل التي تهـدد المجتمع؛ لم يكن يجد في نفسه مكاناً للتفاؤل أو للهذر أو للهيام أو للحماسة أو حتى للشفقة كما يبدو أحياناً. فآلات القمع ينبغي أن تدور بلا رحمـة؛ أما العـدالة، وإن وجب تـطبيقها بـإنصاف دقيق، فهي تتطلب إنزال العقوبة بروح الإنتقام المستقيم. لقـد تقبّل، رغم تشاؤمه ونزوعه إلى الشك أخلاقيات عصره مع بضعة تحفظات. كان بعيداً عن التحلل المرح للقرن الثامن عشر بعده عن تفاهته.

يمكن أن يقال الشيء ذاته عن لزلي؛ بيد أن هـذا الشقيق الأصغر ذو طبعٍ أكثر اعتدالاً وقلبٍ أكثر دفئاً؛ لكن ذلك لم يحل دونه ودون المشاركة في المحرمات نفسها وفي موارد الإمتعاض ذاتهـا، ولم يمنعه ـ كمـا يجب أن نضيف ـ من إظهار النـزاهة الفكرية الجريئة نفسها.

وفي حين ذهب فيتزجيمز إلى لندن، إلى القضاء والصحافة، كسب لزلي زمالة دراسية في كلية Trinity Hall. في ذلك الوقت كان من الضروري لزميل في أوكسفورد أو كيمبردج أن ينخرط في دراسة دينية. وقد رسّم لزلي كاهناً في سنة ١٨٥٩ وبذلك التزم بمجموعة من الفرضيات لم يكن يؤمن بها حقاً. والواقع أن من الصعب في مثل هذا السياق أن نعرف مـا هو المقصـود بكلمة

«الإيمـان». من الصعب أن نتصور لـزلي، في أيـة مـرحلة من مراحل حياته الراشدة، وهـو يصلي من أجل هـطول المطر في موسم الجفاف صلاة الإستسقاء وهو يردد بوقار:

> «أيهـا الرب العـظيم، يا من أغـرق ذات مرةٍ الدنيا كلها عدا ثمـانية، جـرّاء إثم الإنسان، ثم وعـد بـرحمتـه العـظيمـة ألا يـدمـر العـالم مـرة أخرى. . . الخ».

والـواقع أن لـزلي حزن عنـد هذه النقـطة. كان ذلـك في سنة ١٨٦٢، وهو في الثلاثين من عمره، وقد إقتنع بأن «طوفان نـوح من الخيال» وأن من الخـطأ أن يقرأ القصـة كأنهـا حقيقة مقدسة.

لم يكن لزلي متعصباً قط؛ وقد وعظ بالأناجيل كمـا فهمها إف. دي. موريس F.D. Maurice وشيعة الكنيسة المتفتحة أي بـروح الشك التقـديسي، وكان من السهـل عليه كـالآخرين أن يخوض في جرف ذلك الطوفان دون أن يغطس أبداً. ولكنّ لدى لزلي شجاعة التصرف بعـزم وفق معتقداتـه. كان يشغـل وظيفة مريحة في كيمبردج لكنها تنطوي على أن يقول ما أخذ يراه الآن بأنه من الأكاذيب، فرفض أن يفعل ذلك.

من المحتمل في الوقت عينه أن فقدان لزلي لإيمانـه ربما كانت له دوافع لا شعورية. فهو قد غدا أصلاً معلماً جامعياً لكي لا يكون عبئاً على والده؛ وقد انطوى ذلك ليس فقط على مهنةٍ من مهن الإيمان، بل على حياة متبتلة لعددٍ من السنين على أية

حالٍ. أما بعد وفاة والده في ١٨٥٩ فقد أدرك ببطء أنه أولاً من أكثر الناس بعداً عن التدين، ثم أنه من أكثر الرجال محبةً للزوجية. واكتشف بالتدريج كم كان كبيراً توقه للعالم الخارجي. وكم كان قليلاً إيمانه حقاً، وكم هو سعيد بأن يصرّح بعدم إيمانه علناً، بعد أن لم يعد من الممكن أن يؤذي هذا الإعلان أباه.

كان ترك الطمأنينة التي توفرها كيمبردج أمراً محفوفاً بالمخاطر، لا سيما أن لزلي كان على حد تعبيره ذا طبع قلق إلى حدٍ ما (وهذا من باب تضئيل القول)؛ لكنه تحمل المخاطرة بمرحٍ لا يكدره شيء الأمر الذي أدهشه بعد أن تقدمت به الحياة فجاء إلى لندن بلا نقود ولا مستقبل يتطلع إليه[1].

غير أن فيتزجيمز كان مستعداً لمساعدته في لندن. وما لبث لزلي أن خلق لنفسه اسماً بسيطاً ولكنه اسم ذو سمعة حسنة في دنيا الآداب. بدأ عمله صحفياً مدافعاً عن القضية الفدرالية في أمريكا، وهي القضية التي لم يكن لها إلاّ بضعة أصدقاء في انكلترا. وأدى تعاطفه مع الاتحاد إلى زيارة إلى الولايات المتحدة وإلى مقابلة صحفية مع لنكولن، وإلى صداقة امتدت مدى العمر مع بعض المشاهير. كانت سياساته راديكالية، يستوحيها من صديقه فاوسيت Fawcett؛ على أنها لم تكن موضع اهتمامه الرئيسي. فقد اتجه أكثر فأكثر نحو التأمل الفلسفي والنقد الأدبي.

---

(١) ثمة فقرة في ص ٤ من كتاب «الضريح» الذي كتبه لزلي بعد وفاة زوجته جوليا في ١٨٩٥ يمكن تأويلها بحيث تفيد بأن مغامرةً ما غرامية هي التي غيّرت مجرى حياته وحولته من التبتل والدين في كيمبردج إلى لندن والزوجية والغنوصية. لكن هذا التأويل هو من قبيل التخمين ليس إلا.

في عام ١٨٨٢ بدأ لزلي، بتكليف من ناشرٍ معروف، بالقيام بـوضع أداة من أعـاظم أدوات العلم في العالم: معجم السِيَـر القومية؛ فهو إنما يذكر بعرفانٍ بالغ بالجميل باعتباره محرر ذلك المعجم، كما يذكر كناقـد أدبي ومؤرخ. أما هـو فكان يفضـل شخصياً لو يذكر كفيلسوف. إن آراءه قد تشـوّهت إلى حدٍ مـا بأخلاقيات ليست بضراوة أخلاقيات فيتزجيمز إلا أنهـا مثلها في ضيق الأفق وعدم التسامح. لكنها لم تمنعه من قول أشياء صادقة وحكيمة ومؤنسة عن كتبٍ وعن كتّاب، كما لم تمنعه من اتخاذ وجهة نظر عن العالم هي في جوهرها نزيهة ومسؤولة ورشيدة. وقد بقيت شهرة لزلي ستيفن حية، فهو كشقيقه فيتزجيمز يعرف كيف يكتب بلغةٍ قوية حسنة، ولكن هنـاك مزيـداً من الصميمية والرهافة والفكاهـة، بل حتى من الفنتـزة، في عمل لـزلي. إنه باختصار فنان أكثر من أي شيء آخر.

في السنين العشـرين التي أعقبت فقد لـزلي لإيمانـه وجـد الرجل نفسه كاتباً ومفكراً؛ كما أنه وجد نفسه على نحوٍ آخر. كان الفرار من كيمبردج كما رأينا فراراً كذلك من محيط الزهد. ومع أن الأمر اقتضاه بضع سنوات ليجد زوجة له فإنه حين وجدها بعد لأي اكتشف أنه رجل يهوى الحياة المنزلية. كانت الزوجة التي وجـدها هي هـارييت ماريـان Harriet Marian، البنت الصغرى للروائي ثاكري. لقد أحب أحدهما الآخر، لكنهما لم يتزوجا إلا بعد تردد ونكوص من جانبه.

نحن لا نعرف كثيراً عن السيدة لزلي ستيفن الأولى. إنها كما يصفها زوجها لا جميلة جـداً ولا ذكية جـداً؛ طبعها من طبـاع

«الحب الهادىء»؛ وهي لطيفة ورقيقة وبسيطة بساطة الأطفال. قد يظن المرء مما سرده عنها لزلي أنها بليدة بعض الشيء، أو على أية حال شبيهة جداً بطفل. مع هذا فبين أيدينا بعض رسائلها ومنها يتضح أنها كانت ذات فكاهة لا ينقصها شيء في شخصيتها أو في تطلعها العقلي. والواقع أنها تبدو زوجة تليق جداً برجل فائق الذكاء.

كانا بالتأكيد سعيدين معاً، وإن كان زواجهما قد واجه صعوبات من نوع غير معتاد. كانت زوجته الملقبة ميني Minny مغرمة كثيراً قبل زواجها بشقيقتها آني Anny. وقد اكتشف لزلي أنه بزواجه من إحدى الشقيقتين فإنه بمعنىً ما قد تزوج من الشقيقتين معاً.

آني هذه شخصية جبارة، مذهلة. كانت روائية؛ ورواياتها رقيقة، واهية، تميل فيها الحكاية إلى الضياع ويبقى فيها شيء من شخصيتها المبهمة، الآسرة، الغريبة الأطوار. ميني كانت تعتبر شقيقتها فتاة عبقرية، وهي في هذا مخطئة كما أظن، ولكن شقيقتها كانت موهوبة وتتجلىٰ إحدى مواهبها بالمزاح. حين كان صاموئيل بطلر Samuel Butler يعمل على إنجاز كتابه «سونتات شكسبير يعاد اكتشافها» حيَّرته آني بأن قالت له: «يا سيد بطلر، هل تعرف نظريتي عن السونتات - إنها من وضع آن هاثاواي Anne Hathaway» وهذه زوجة شكسبير. لم يدرك بطلر قط أن النكتة كانت على حسابه؛ كان قد اعتاد على رواية الحكاية بأسىً وهو يهز رأسه قائلاً بعجب: «أيتها السيدة المسكينة كان ذلك شيئاً

من السخف أن تقوليه[1]».

كان بوسع العمة آني، كما يدعوها أبناء لزلي، وقد بلغت السبعين، أن تثير الإعجاب بتفاؤلها القويّ، الفتيّ، والمرن؛ حين كانت شابة، لا روحاً فقط بل سناً أيضاً، لا بد أن جيشانها كان غامراً. إن مثل هذه الطبيعة الانفعالية المرحة قد تكون مثيرة للأعصاب أحياناً. لزلي وجدها كذلك؛ فهو يحب الصمت وهي تتكلم باستمرار؛ وهو يحب النظام وهي تنتشي بالفوضىٰ؛ وهو يفخر بواقعيته وهي عاطفية على نحوٍ لا يعرف الخجل؛ وهو يقلق بشأن النقود وهي مبذرة متهورة؛ وهو يعتز بالحقائق وهي لا تكاد تنتبه إليها[2].

كتب لزلي:

> «كنا، هي وأنا، نختلف خلافات بسيطة. كنت أنا مهووساً بالهوس التعليمي أصحح به اندفاعات مخيلتها وأضبط به انطلاقاتها الذريعة. كانت آني وميني تسمياني عادةً (بالدوش) البارد لأنني كنت أُغرق مشاريع آني وتخيلاتها البسيطة بنقدٍ بارد».

---

(١) كان صاموئيل بطلر قد نشر كتابه «مؤلفة الأوديسة» في عام ١٨٩٧. والحكاية تعاد روايتها في رواية «الليل والنهار» لفرجينيا وولف (ص ٣٢٢)؛ إن السيدة هلبيري Hilbery في هذه الرواية هي نسخة من العمة آني.

(٢) قالت له ذات مرة: «هناك أربعون مليون إمرأة غير متزوجة في لندن وحدها»! فأجابها: «آني، آني، إتق الله»! (من مقال عن لزلي ستيفن لفرجينيا وولف في مجموعة مقالاتها).

لكن الزوجين كانا منقسمين على نحوٍ أشد خطورةً لما كان بينهما من ضرب من حربٍ غير معلنة لامتلاك ميني. لعل كلمة حرب قوية جداً، ذلك أن الثلاثة كانت تربطهم روابط المودة الشديدة، ومع هذا كان الأمر نوعاً من المباراة، وقد استمرت سنوات إلى أن بدأت تتجه لصالح لزلي بصورة قاطعة فقد استنتجت ميني بمرور الزمن أن زوجها يعني لها أكثر مما تعنيه حتى شقيقتها الحبيبة. لعلها شعرت ذلك الشعور الطبيعي لدى النساء بأن لزلي يعتمد عليها إعتماداً كبيراً. وعلى أية حال كانت الزوجية ناجحة جداً، وقد أغنيت بأن رزقا بإبنة هي لورا Laura التي ولدت سنة ١٨٧٠، ثم ما لبثت ميني أن حملت مرة أخرى. وفي مساء ٢٧ تشرين الثاني ١٨٧٥ ذهبت إلى فراشها وهي تشعر بالتوعك. خلال الليل إستدعي لزلي إليها.

«نهضت ووجدت حبيبتي تنتفض. جلبت الطبيب. وأذكر جيداً التفاصيل التي أعقبت ذلك؛ لكني لن أدونها. لم تستعد حبيبتي وعيها قط. ماتت في منتصف النهار، يوم ٢٨ تشرين الثاني، وهو يوم ميلادي الثالث والأربعين».

تصدّع لزلي وانحطم قلبه فاستبد به الأسى. صحيح، بقيت آني لتعتني به وبإبنته، لكن ضربة أخرى كانت على وشك النزول به. لم تعد لورا طفلة رضيعة، وكان قد إتضح لأمها سلفاً أنها طفلة متخلفة. ثم إتضح في هذه الحقبة من الشكل أنها لم تكن مجرد متخلفة؛ ثمة شيء خاطىء خطير فيها. أخذ لزلي يشك بأن جنون السيدة ثاكري قد ورثته حفيدتها. كان من السابق لأوانه

معرفة حالتها ودرجتهـا من السوء، إنمـا كان من الـواضح أنهـا تتطلب عناية خاصة. أدى هذا العذاب المنزلي إلى تفاقم التوتر بين لزلي وآني؛ أما الحاضنة لويزة Louise فقد وقفت ضد سلطة آني فـأخذ لـزلي جانبهـا. وأما المشـاجـرات التي كـانت تحت السيطرة حين كانت ميني على قيد الحياة فقد أصبحت أكثر تكراراً وأشد إيلاماً.

من ثم شُغفت آني، بصورة كانت تدعو إلى الدهشة، بحب الشاب رچموند ريتشي Richmond Ritchie، قريبها، وعرّابهـا، وكان يصغرها بسبع عشرة سنة. لقد بادلها الوداد، وأصبح الغزل الذي إعتُبر من العبث السخيف شيئاً حقيقياً. فقد عثر لزلي على آني ورچموند وهما يتبادلان القبلات في غرفة الإستقبال، فأصرّ عليهما إما أن يتزوجا أو أن ينفصلا. ومع أن زيجتهما أضحت حسنة إلا أن لزلي كره المسألة بأسرها، فقد كان غيوراً. كما أن الوضع الشبيه بالأمومة الذي يحف بالعروس أثار فيه من المشاعر ما لم يكن يفهم طبيعتها، وهكذا خسر لزلي بالطبع ربة منزله.

ولوقتٍ ما أخذت شقيقة لزلي مكان آني؛ ولكنْ إذا كـانت آني رفيقة شديدة التحمل جداً فإن كارولين أميليا كانت مرتخية كلياً.

> «أحبتني ميلي Milly طـوال حيـاتهـا؛ كـانت كـالتـوأم لي أكثـر من كـونهـا شـقـيـقـتـي الصغـرى؛ . . . مع ذلـك كـانت، كمـا شعـرت وقتئذٍ، شبيهة بي جداً بحيث لا تستطيع معونتي. فلو ذكرت قولاً لمجرد الجدال أخذته مأخذ الجد

التام حتى أظن أن جدلي ينطوي فعلاً على شيءٍ ما؛ ولو كنت أنا في شكٍ من أمرٍ ما وقعت هي ضحية حيرة مطلقة؛ وإذا حزنت أنا أجهشت هي بالبكاء - وهذا فعل يواتيها بسهولة تامة. لذا فمع كونها رفيقة ودود للغاية فإنها كانت رفيقة ينقبض منها الصدر جداً. ثم أن الجماعة التي تروق لي تبدو لها جماعة منشغلة بأمور الدنيا؛ في حين أن أصدقاءها، وإن كانوا من ذوي الإعتبار وبعضهم من الأذكياء جداً، يبدون لي أغبياء بصورة لا تطاق».

فشلت تلك المحاولة بعد تجربتها بقليل. فقد انهارت صحة ميلي على الفور وبدأ لزلي يبحث عن ربّة منزل محترفة. أوصى آل هكسلي the Huxleys بالآنسة كلاپيرت Klappert وهي ألمانية كانت مربية أطفال في منزلهم. غير أنه كان هناك حل آخر، حل كان لزلي يفكر فيه منذ زمن وهو يلائم ذوقه كثيراً.

ففي مساء ٢٧ تشرين الثاني ١٨٧٥، قبيل وقوع ميني ضحية للإنتفاضات التي أودت بها، زارت آل ستيفن صديقة مقربة من الشقيقتين ثاكري، هي الأرملة الشابة السيدة هربرت دكوورث، Herbert Duckworth. شعرت هذه الزائرة بأن حزنها المزمن يسيء إلى سعادة هؤلاء - فقد كانت أمامهم بضع ساعات من السعادة - فانسحبت عائدةً إلى بيتها الحزين. كانت الحياة بأسرها تبدو لهذه الأرملة الشابة، بعد وفاة زوجها في سنة ١٨٧٠ «كأنها سفينة محطمة». ومع أن في حضانتها ثلاثة أطفال، جورج وستيلاّ

وجيرالد (الذي ولد بعد وفاة أبيه) فقد كان قنوطها كلياً. لكنها وإن لم يعد بوسعها أن تكون سعيدة فهي بوسعها في الأقل أن تكون نافعة: قد تسرّي عن المصابين وتراعىٰ المرضىٰ (كان أقاربها في سبعينات القرن الماضي يمرضون ويموتون بأعداد كبيرة). وللمرء أن يقول إنها تخلت عن الدنيا، أو في الأقل تخلت عن سعادة الدنيا، ولئن كان من العسير نعت هذا التخلي بالصوفية فقد كان من نتائج ثكلها فقدها الدائم للإيمان. لعل هذا هو الذي مكّنها من تخفيف هلعها من لزلي ستيفن المثقف العقلاني، وذلك بإبداء إهتمام متعاطف به كرجل. وبعد وفاة ميني كان من الطبيعي أن نسرّي عنه، وأن تتوسط بينه وبين صديقتها آني، فتلومه حين لا يكون منصفاً، وتصغي لتظلماته بصبر الشقيقة الودود. وقد نمت بينهما صداقة وثيقة، على أنه كان مفهوماً منذ الإبتداء أنها ستظل صداقة أخوية؛ كان لكلٍ منهما شمعة قداس تضاء عند مذبح الموتىٰ.

ليس من الضروري وصف الأمور التي أدت إلى الكشف المباغت عند لزلي، والوحي الذي نزل عليه بالقرب من ثكنات نايتنر بريدج حين قال لنفسه «أنا مغرم بجوليا Julia»! فأدرك أنه قد يصبح سعيداً مرةً أخرى؛ وليس من الضروري وصف انتقاله التدريجي من الشعور بالعاطفة إلى إعلانها، ووصف انتقالها هي من الرفض المترفق، الحزين، الذي لم يكن رفضاً له بقدر ما هو رفض للزواج والحب والسعادة ذاتها، إلى التنويه الخافت باستسلام موقت. ذلك أنها في النهاية، وبعد كثير من النقاش، وجدت نفسها في وضعٍ كانت مستعدة في الأقل لكي تنظر في

الفرضية القائلة بأن الحياة لما تـزل تقدم إمكـانيات معينـة في الهناء.

وفي الأخير كانت الآنسة كلاپيرت هي التي حسمت المسألة. فقد شعر لزلي وجوليا كلاهما بأن وجودها في المنزل سيؤدي إلى ترتيب بعينه ينهي فصالهما. وعلى أية حال كان هناك في عرض الزواج من الحسم النهائي ما يكفي لجعل جوليا دكـوورث تنتبه إلى مشاعرها بالذات؛ فقد أدركت أنها لا يسعها الإنفصال عن لزلي. تزوجا في ٢٦ آذار ١٨٧٨.

* * *

لا بد لي الآن أن أقول شيئاً ما عن أسرة أم فرجينيا. وهنا ثمة الكثير من عدم اليقين والأسطورة والفضائح.

فحسبما يذكر المؤرخ فيشر H.A.L. Fisher، قريب فرجينيا، كان هناك في بلاط فرساي خلال السنين الأخيرة من النظام القديم شخص يدعى أنطوان دي لاتانغ de l'Etang؛ كان شخصه لطيفاً وسلوكه راقياً وأذواقه باذخة وفروسيته رائعة. كـان ملحقاً بمنـزل ماري أنطوانيت ـ وقيل كان ولعه بها فائقاً، ولهذا السبب نفي إلى پونديشيري Pondicherry حيث تزوج عام ١٧٨٨ من المدموازيل بلان دي غرانكور Blin de Grincourt.

دخل المسيو دي لاتانغ في خدمة النّوّاب عوض ومات في خـدمته؛ تـرك ثـلاث بنـات. منهن آدلين Adleine، وهي التي تهمنا، وقد تزوجت من جيمز پاتيل Pattle وهو رجل قيل إنه كان خليعاً جداً. كـان يعرف بـالكذاب الأشـر في الهند. وقـد قتله السكر؛ فنقل إلى الوطن محمولاً ببرميل من الكحـول، فانفجـر

البرميل وقذف بجثته أمام عيني أرملته، فطار صوابها، وأشعل الإنفجار النار في السفينة فجنحت في نهر هوغلي شرقي الهند.

رويت هذه الحكاية مراراً. وقد تكون بعض أجزائها صحيحة. والصحيح على وجه التأكيد أن السيدة ياتيل جاءت إلى لندن في عام ١٨٤٠ مع سرب من البنات كن يشتهرن بالجمال. وينبغي ذكر أربع منهن في هذه الصفحات: فرجينيا، ساره، جوليا، وماريا.

تزوجت فرجينيا پاتيل، أجمل الشقيقات، من تشارلس سومرز ـ كوكس Somers - Cocks فأصبحت فيما بعد الكونتيسة سومرز؛ كانت إمرأة منطلقة تحب ملذات الدنيا، إندفاعية وغريبة الأطوار، وتحيا حياة النعيم الباذخ. من بين بناتها فتاة أصبحت فيما بعد دوقة بدفورد، والأخرى أزابيل تزوجت من اللرود هنري سومرسيت Somerset. لم تكن هذه المصاهرة سعيدة قط، على فخامتها. فاللرود هنري الفاتن يمتّع الصالونات الفكتورية بقصائده الغنائية. كان على ما أظن هو الذي نظم قصيدة «قبلة واحدة أخرى هيامية»؛ لكن هذا العناق لم يكن حكراً لزوجته الحسناء بل لأحد الخدم في منزله. صبرت الليدي هنري على خياناته الزوجية فترةً من الوقت لكنها، وبعد لأيٍ، لم تعد تتحمل المزيد. أسرّت همها لأمها فأتاحت هذه لسخطها أن يسود على حصانتها فأحدثت فضيحة علنية. والنتيجة إنما هي مثيرة للإهتمام لما تعطيه من فكرة عن مجتمع العصر الفكتوري وتكوينه وعن النظام الأخلاقي الذي واجهته فيما بعد فرجينيا وولف ومعاصروها فقاموا بمعارضته.

فرّ اللورد هنري إلى إيطاليا، وهناك، في بلادٍ غلمانها على غرار منحوتات مايكل أنجيلو، عاش سعيداً إلى آخر حياته. أما زوجته فقد إكتشفت أنها أذنبت بجريمة غير محددة لكنها مريعة جداً. لقد إرتبط إسمها بفضيحة. إضطرت أن تنسحب من العالم، وقررت أن تكرس نفسها لإنقاذ النساء المدمنات على الخمر، وهي مهمة تولتها بإدراك سليم وبروح الفكاهة حتى أنها كسبت الود والإعجاب ليس فقط من رجال الإحسان بل حتى من السكّيرات اللاتي ساعدتهن.

أما سارة پاتيل فقد أقامت أمبراطوريتها في جزء من العالم كان أقل رواجاً لدى الناس لكنه أكثر إثارة للإهتمام. تزوجت هذه من ثوبي پرنسيپ Thoby Prinsep وهو إداري أنكلو - هندي على شيء من المقام، فقد بقي عضواً في مجلس إدارة شركة الهند الشرقية إلى حين حل الشركة. ثم استقر آل پرنسيپ خارج لندن في بيت ريفي قديم يدعى «بيت هولندا الصغير» في الموقع الذي يسمّى الآن شارع ملبيري Mellbury Road في حي كتزنغتون؛ كان منزلاً لطيفاً، مريحاً، يتوسع بناؤه هنا وهناك كيفما اتفق، وفي حين كانت شقيقتها تجمع أرستقراطيي الأصل كانت ساره تحتفل بأرستقراطيي العقل. كان المشاهير من رجال الأدب والفكر والسياسة، مثل الشاعر تنيسون والروائي ثاكري والسياسية غلادستون والسياسي دزرائيلي، يترددون على ذلك البيت فيستمتعون بالراحة من شكليات المجتمع الفكتوري في العصر الوسيط ومن رتابته وعنجهية الناس فيه. كانت مضيفتهم فاتنة وغريبة الأطوار معاً. فوجبات الطعام لا تقدم بانتظام، ولا تؤكل

بانتظام. كان ثمة شيء آسر على نحوٍ غريب عن المألوف، ثمة شيء مباح وسهل يحف «ببيت هولندا الصغير»، ولا بد أن الرسامين قد أضافوا إلى هذا الوسط إسهاماً مهماً. كان من أولئك الرسامين البارزين وَطْس G.F. Watts، الذي أقام في الدار عدداً من السنين إذ «إصطفته» السيدة پرنسيپ لنفسها فأقامت له مرسماً في المنزل كما كان هولمان هانت Holman Hunt وبيرن ـ جونز Burne - Jones وغيرهما من الزوار المواظبين، والظاهر أن رسكين Jhon Tuskin[1] كان من أولئك الزائرين أيضاً.

ولعل من أبرز أهل الفن الذين ترددوا على «بيت هولندا الصغير» جوليا مرغريت كاميرون Cameron، ثانية الشقيقات پاتيل، وكانت أقلهن جمالاً وأكثرهن موهبة. وجوليا، مثلها مثل ساره، تزوجت من موظف في الإدارة الهندية، وهي مثلها كذلك محبة للفنانين ورجال الأدب. وقد قيل عنها إنها «زاد كرمها على أكرم شقيقاتها ضعفين، كما زادت إنفعاليتها على أشدهن إنفعالاً ضعفين. إن كن متحمسات فهي على ضعف حماستهن. إن كن قديرات على الإقناع فهي منيعة لا تقهر».

كان سكان حي پتني Putney يرونها ـ ولنا أن نحسدهم

(١) يشير رسكين إلى السيدة پرنسيپ وشقيقتها (يحتمل أنها الليدي سومز) على أنهما «إثنتان هما بالتأكيد من أجمل النساء بالمعنى الأفخم ـ (قوامٌ كرخام التماثيل الأغريقية، مع عيون سوداء) ـ مما يمكن لكِ أن تجديه في الحياة العصرية»... وهو يعتبر السيدة الأولى صديقة قديمة. (من رسالة لرسكون إلى مرغريت بيل في ٣ ـ ٤ نيسان ١٨٥٩؛ وتحتوي هذه الرسالة على صورة حية لأمسية في «بيت هولندا الصغير».).

بحق ـ وهي تتكلم وتسير بقطيفة حمراء فضفاضة نحو محطة القطار، تحمل كوب الشاي بيد والملعقة بأخرى وإلى جانبها صديقة يتملكها الحرج وهي تحاول عبثاً أن تردّ هدية منها هي ملفح من أصواف الكشمير لا يثمّن. لقد رأوا فيها إمرأة غريبة الأطوار؛ أما نحن فنرى فيها إمرأة من النساء الخالدات؛ ليست من عظيماتهن إنما فنانة دامت وستدوم.

ليس هذا لأنها ما كانت ستحقق الخلود إلا لأن إبنتها قد أعطتها آلة للتصوير بعد أن بلغت سن الخمسين. بدأت تلتقط الصور فوراً. أصبح ذلك غرامها وحرفتها. كانت النساء الجميلات والرجال البارزون يجبرون على الجلوس، بطلب منها لأنها ذات طبيعة آمرة، مدداً طويلة مما كان ضرورياً آنئذٍ. وكان أصدقاؤها وخدمها يُنَكَّرون كملائكة أو كأبطال من عهد الملك آرثر، فيُكسَوْن بالأردية وأكاليل الغار ويقنّعون ثم يصوَّرون. ثمة أسطورة عائلية تتداولها الألسن تقول إن تنيسون وغلادستون أجلسا في وضع ما تحت شجرة، ومنعا من الحركة كيما تذهب جوليا بحثاً عن أداة ضرورية لعملها المبهم وقد تركت الشاعر والسياسي بلا حراك مدة ساعتين تحت زخات المطر.

والسيدة كاميرون، على كونها غامضة وسخيفة وعاطفية، فإنها كانت مع ذلك تتمتع بخصلة من العبقرية الصرف. كانت بحاجة إلى معوِّق يكبحها، إلى شيء يحدّ من عاطفيتها. كانت في رسائلها، وكذلك في روايتها الناقصة، تجري على رسلها ـ ولقد كان الكابوس يخيّم على السير هنري تايلر Henry Taylor إذ كان عليه أن يقرأ تلك الرواية ذات يوم. لكن طبيعة فنها، وهو فن

يتناول الحقائق على أية حال، هي التي وفرت الحاجز الذي تتوقف عنده. ثمة في الحقيقة مناسبات كانت تتجاوز فيها الواقع إلى الخيال مع نتائج مدمرة، لكنها حين يدعو الداعي إلى تصوير الشخص الجالس أمامها على حقيقته فإن ترتيبها للأشكال وإختيارها للأوضاع وفهمها الفنيسي للتظليل كان كله قوياً، دقيقاً، مرهفاً حد الإعجاز، وهي في ذلك إنما كانت تقوم بما كان الرسام وَطْس سيقوم به لو أنه كان فناناً أعظم مما كان عليه. لقد كانت أفضل مصورة لوجوه الأشخاص في العهد الفكتوري فقدمت لنا صرحاً قيّماً للمجتمع الذي عاشت فيه - الوسط «الذي لا يُسمح فيه إلا للأشياء الجميلة بأن تظهر» كما قالت إيلين تيري Ellen Terry.

وإلى ذلك المكان جلبت ماريا جاكسون، الشقيقة الرابعة من بنات پاتيل، بناتها الثلاث، أديلين وماري وجوليا. تزوجت ماريا من أنگلو - هندي أيضاً هو الدكتور جاكسون؛ كانت لدى هذا عيادة مزدهرة في كلكتا، ولكن يبدو أنه كان شخصاً لا صفة مميزة له. وهو في رسائل زوجته على أية حال لا يبدو ذا أهمية على الإطلاق. بناتها كن اللاتي يستأثرن بعنايتها؛ فهي تحبهن جميعاً، إنما كانت تؤثر جوليا عليهن على ما أظن، لأنها كانت من التعاسة بمكان ولأنها تكرس نفسها لأمها كثيراً، حتى أصبحت في النهاية طفلة أمها المعززة. والأم تكتب لها مثنىً وثلاث أحياناً في اليوم الواحد، وكثيراً ما ترسل لها أيضاً برقية إضافية معنونة إلى «حبة قلبي» أو «حملي الحبيب». موضوع رسائلها هو الصحة، أو بالأحرى العلاجات؛ فهي لم تكن زوجة طبيب عبثاً. وحين أصبحت جوليا بعد وفاة زوجها الأول ممرضة غير رسمية من نوعٍ

ما فإنها كانت توافي أمها بأعراض الأمراض فتشخصها أمها بوثوق كبير وتصف لها العلاج. وعندما لا يكون أمام هذه الأم من تكتب له من قريباتها لتملأ صفحاتها بتفاصيل طبية فإن لديها حزيناً لا ينضب من أمراضها هي: فقد كانت مصابة بالصداع والروماتـزم والدوار وسوء الهضم، فكانت تعالج أمراضها هذه بالترياق وملح الكورال المنوِّم. ولم يكن يضاهي موضوع الوقاية الصحية عندها سوى موضـوع الجمال، وفي هـذا أيضاً كـانت زاخرة بـالنصح الممتاز. على أن المرء لا يقع نظره إلا نـادراً في المراسـلات الضخمـة كلها بين السيـدة جاكسـون وإبنتها على الإهتمـامـات الجمالية والثقافية التي حفل بها بيت هولندا الصغيـر. إن المرء ليشعر عند قراءتها كأنه يصارع عبر تيهٍ من الحلاوة الـدبقة. إن السيدة جاكسون طيبة طيبة الذهب، ولكن ليس هناك في المئات الكثيرة من رسائلها كلها فكرة مبتكرة واحدة، أو شيء من الإدراك السليم، أو الحذق في استعمال اللغة مهما يكن ضئيلاً.

إن رسائل السيدة جاكسـون تكشف عن الجانب البليـد من جوانب آل پاتيل؛ جانب سخفهم، وهَـوَسهم، ولطفهم المفـرط جداً، وتطلبهم المستمر للمودة والإعجاب، مع عـاطفية مـريضة هي نوع من الشراهة الشفافة للمرض والموت. لقد قلت شيئـاً بسيطاً سلفاً عن المرسل إليها. فجوليا كانت أجمل بنات السيدة جاكسون، وأوثقهن صلة بمجموعة بيت هـولندا الصغيـر. وكان تأثيرها على أنصار المدرسة ما قبل الرفائيلية تأثيراً ملحوظاً؛ وقد قيل إنها كان بوسعها أن تتزوج إما من هولمان هانت Holman Hunt أو من وولنر Woolner؛ ففي عصرٍ يرتدي فيه عامة الناس لباساً خشناً كانت جوليا تتشح على نحوٍ «جمالي»؛ وقد استخدمها

بيرن - جونز كنموذج (موديل)، وأظن أن «طراز بيرن - جونز» في شكل المرأة مدين بشيءٍ ما لصورتها الجانبية.

كانت السيدة جاكسون تقول في العادة إن من يلتقي جوليا من الرجال يغرم بها. غير أن السيدة جاكسون غبية؛ ولكنْ قد يكون في قولها قدر من الحقيقة، فلأن الجميع كانوا مغرمين بها نجدها شخصية تراوغ الفهم. حاول كل من زوجها وإبنتها وصفها. فلزلي ستيفن رسم لها صورة قديسة، ولأنها قديسة فإن المرء لا يستطيع الإيمان بها كلياً. إنه يتكلم عن جمالها وهنا نجد دقته وقد تأيدت بعدد من تصاوير خالتها كاميرون؛ ويتكلم عن طيبتها ولقد كانت بالتأكيد إمرأة طيبة؛ وهو يقر بأن البعض يجدها صارمة مع حزن ترك فيها من الرزانة ما لم يستطع الزمن أن يمحوه؛ لكننا نتعرف من مصادر أخرى على أنها، رغم أن بوسعها أن تكون لعوباً ومرحة مع أطفالها، كانت كذلك قاسية، وأنها وإن كانت تبدو كقديسة فقد كاد ذكاؤها أن يكون مرعباً. أما شخصية السيدة رامزي Ramsay في رواية «إلى الفنار To the Lighthouse» التي كتبتها فرجينيا وولف، وإن كانت لا ترسم إلا استناداً إلى ذكريات الطفولة، فهي شخصية تبدو لي حقيقية ومقنعة أكثر من تصوير لزلي لها. إن الروعة كلها والرقة كلها موجودتان في السيدة رامزي، لكنها ليست شخصية كاملة؛ فلا هي ولا المرأة في رسوم كاميرون كانت بتلك الدرجة من «النقاء» الذي كانت عليه السيدة التي تصورها لزلي بأنها غير مدركة لجمالها. وعلاقة السيدة رامزي بزوجها ليست علاقة قديسية كلياً؛ فهي أبداً إنتقادية نوعاً ما؛ وهي أيضاً قادرة على الإستهزاء. إنها، كما لاحظ لزلي شخصياً، مرتّبة زيجات، لكنها، كما لم يلاحظ،

لم تكن دائماً مرتبة حكيمة؛ ثمة أثر من الوثوق الذاتي، وبعض الإعشاء، في تدبيرها لشؤون الآخرين. وباختصار فإن صورة فرجينيا لأمها كانت صورة أكثر إنسانيةً وأقل عصمة، وربما أكثر قابلية على أن يودها الغير من الصورة التي رسمها لزلي.

وجوليا لم تكن تعوزها الشجاعة بالتأكيد. فهي حين تزوجت من لزلي كان هذا أرملاً في متوسط العمر وبدون مال؛ ولقد رزقا بأربعة أطفال من زيجتيهما السابقتين بينهم طفلة مجنونة. ثم أضافا لهذه الأسرة طفلة خامسة في سنة ١٨٧٩، وبما أن لها أختاً غير شقيقة إسمها ستيلاّ فقد سمّيا الطفلة ڤانيسّا Vanessa[1]، [على إسم إبنتي الكاتب سويفت Swift]. وفي السنة التالية ولد لهما إبن سمّي على إسم جده لأمه الأكبر ثوبي Thoby. وهنا قررا أن يتوقفا عن الإنجاب.

لكن موانع الحمل كانت فناً غير متكامل في القرن التاسع عشر؛ وبعد ثمانية عشر شهراً ولدت لهما إبنة أخرى. سمّيت أديلين فرجينيا.

* * *

ما ان صارت فرجينيا قادرة على التأمل في مثل هذه الأمور حتى إعتقدت أنها وريثة لتقليدين مختلفين جداً، بل متعارضين؛ والواقع أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فارتأت أن هذين التيارين

---

(١) نشرت دراسة لزلي عن سويفت في سنة ١٨٨٢؛ ولعله كان يعمل على هذه الدراسة أصلاً حين سمّى إبنته بهذا الإسم الذي كان حينئذٍ إسماً غير معتاد على الإطلاق.

المتنافسين يجريان أسرع الجري معاً ويصبان في دمها مختلطين، غير منسجمين. كانت ترى في آل ستيفن عرقاً محدد الصفات جداً. كان يعتقد في روضة الأطفال أن آل ستيفن كلهم يولدون بذيول صغيرة طولها سبعة إنجات، على أنه إذا تركنا هذا التقليد جانباً (وكانوا قد إخترعوه، كما أظن، لمضايقة أبناء عمومة فرجينيا) فسيكون واضحاً أنهم ذوو نمط متميِّز جداً جداً في السلوك. كانوا كلهم كتاباً؛ كانت لديهم جميعاً موهبة ما، ويسرهم بعض الشيء إستعمال اللغة الإنكليزية. لكنهم كانوا يكتبون كرجالٍ تعودوا على طرح الحجة، واضحةً قوية؛ وكانوا يرون في الأدب وسيلةً وليس غاية.

إن عقولهم مكوّنة لتسلّم الحقائق، وما أن تكون لديهم حقيقة من الحقائق وقد بُسطت ببالغ الوضوح بحيث يستطيعون تناولها بأيديهم فيقلّبونها ويتفحّصونها، حتى ترضى نفوسهم. إنهم يتمكنون، بحقائق من هذا النوع، من وضع تركيبات مفيدة، سواءً كانت سياسية أو فقهية أو لاهوتية. أما الحواس الغريزية التي تدرك نغماً في أغنية مثلاً، أو ما أشبه، فليس لها عندهم إلا نفع قليل. لذلك فهم يواجهون جزءاً كاملاً من التجربة الإنسانية بتعثر، ويقرون هم أنفسهم صراحةً بأنهم يشعرون تجاهه بالحيرة، كما شعر لزلي في بيت هولندا الصغير، أو أنهم يطرّحونه جانباً باعتباره من الخزعبلات العاطفية.

كان آل ستيفن يتّسمون بالجرأة كما ينبغي أن يكون عليه دعاة القضايا. وكانوا يتمتعون بهذه الجرأة معنوياً وجسدياً وعقلياً. فجيمز المدين يهين اللورد مانسفيلد أو يتسلق الصخور على

شاطىء دورسيت في عاصفة، والفتىٰ جيمز يعدّل الأنظمة في جامعة عريقة، والسير جيمز يسفّه الوزراء، ولزلي يتحدى الله على جدار جبل ماترهورن الشاهق في اولب؛ هؤلاء شخصيات جريئة، وهم كمعظم أمثالهم يكونون قادرين على القسوة؛ لكنهم لم يكونوا متبلّدي الإحساس، كلا، لم يكونوا كذلك بالتأكيد. كان الفتىٰ جيمز في المحاكم رجلًا مضطرباً لعدم قدرته على تكلم اللاتينية؛ والسير جيمز، إبنه، كان مريضاً عصبياً بشكل واضح جداً؛ ولزلي، شأنه شأن فيتزجيمز، لجأ إلى الإدراك السليم ليخفي مشاعره المهزوزة. كانت قوة آل ستيفن ذاتها مجذّرة في الضعف. فالطاقة الغزيرة على العمل الشاق، والقدرة على تحمّل المخاطر، والإنجازات الرياضية، لم تكن إلا عبارة عن شيء يشبه ما تقوم به حامية عسكرية ليس لها جدران تحميها من هجمات مباغتة.

أما آل باتيل فهم عنصر أقل درجة في الثقافة العقلية من آل ستيفن؛ لم تكن لديهم موهبة للكلمات، وهم لا يذكرون إلا لحسن وجوههم. وعلى مدى التاريخ ـ ونحن نستطيع أن ننظر الآن في خمسة أجيال ـ يبدو أن هناك نمطاً معيناً من الجمال يظهر فيختفي ثم يعود إلى الظهور، غامضاً أحياناً، أو يتقمصه أحياناً أخرى جسدٌ عن جسد على نحوٍ واضح جداً. هذا النمط من الجمال يكمن سابتاً في رجال الأسرة حتى يعود إلى الظهور في بناتهم، وهن اللاتي أدخلن السرور إلى قلوب أجيال متعاقبة من الفنانين. كان الرسامون هم الذين أعجبوا أشد الإعجاب بأولئك النساء. إنه لمن الصعب النظر إلى قسماتهن دون إعجاب؛ فهي قسمات بديعة التكوين، رصينة، نبيلة، وذات

جلال، لكنها لا باللعوب ولا بـالمفتوحـة للإتصـال السهل. إن جمالهن يوحي، بل يقترن أحياناً، بفخامة خلقية، بعظمة باذخة في الشخصية. لم يكنّ من ذوات الإهتمام الأدبي والثقافي. ولن نجد بينهن رائدات عظيمات لتحرر المرأة، كما أنهن يختلفن في هذا عن نساء العائلات التي كانت قريبة إليهن في جوانب أخرى مثل عائلة ستراچي وعائلة داروين.

ولكنْ حتى إيثار الغير الغامض والسخف المبلبل والتهـريج الشاعري والبطر والعاطفية المزعجة مما يجده المرء لدى ماريـا جاكسون يمكن الإرتفاع به من مستوى الحماقة إلى الشعر، وإلى شيء أشبه بالعبقرية في حالة السيدة كاميرون.

هذان إذن هما جانبا ميراث فرجينيا، الميراث الـذي كان، على أية حال، حقيقياً جداً في مخيلتها. وليس من العسير العثور على عـلامات فـارقة لجـانب الأب وجـانب الأم فيهـا: العقـل والعاطفة، النثر والشعر، الأدب والفن، أو ببساطة أشد المذكـر والمؤنث. إن هذه العلامات الفارقة كلها لا ترضينا، لكنها تومىء إلى شيء حقيقي.

ومن الضروري أن يضاف إلى هـذا نوع آخـر من التمييز. فجوليا وأسرتها كـانوا أرقىٰ إجتمـاعياً من آل ستيفن. إن جـوليا ولزلي كلاهما ينتميان إلى الـطبقات الـوسطىٰ الأعلى، غيـر أنه يوجد في ما بين هذه الـطبقات الكثيـر من الفوارق المتـدرجة. فزوج جوليا الأول هو بالتأكيد قرين أرقىٰ كثيراً من لزلي؛ إنه من أسرةٍ من سومرسيت عريقة النشأة حتى أنها رغم أصلها التجاري تعتبر من طبقة الذوات أصحاب الأراضي؛ وقد أعطي لأبنـائهما

إسم دي لاتانغ؛ وجوليا نفسها لها علاقات أرستقراطية ذات وزن كبير؛ فدوقة بيدفورد هي إبنة عمها. وكان التماسك العائلي بين شقيقاتها وأعمامها وعماتها وأبنائهم وبناتهم تماسكاً قوياً؛ كانوا يعتمدون، بأسلوب أرستقراطي جداً، على النفوذ وعلى المحسوبية. وحين عقد أحد أقرباء جوليا زواجاً غير متكافىء أقصي الزوجان الشابان إلى المستعمرات بشكل حازم ولكنه لا يجرح المشاعر.

أما آل ستيفن فلم يخرجوا من نطاق الطبقة الوسطى الأدنى إلا حديثاً. كان جيمز المدين مغامراً أجنبياً غير ناجح، ومع أن إبنه لم يكن أجيراً سياسياً لكنه قد قام بعمل سياسي أجير، كما أنه غير مضمون الحال إجتماعياً. والسير جيمز هو أول من ثبّتهم تماماً في صفوف الطبقات المهنية؛ لكنّ أبناءه لم يكونوا بثراء آل پرنسيپ أو آل كاميرون أو آل دكوورث ولا بنفوذهم. إن إنجازاتهم قد قامت على العقل والمبادرة، وكان إكتسابهم لسمعتهم قد تم في دور المحاكم، فعزّ العائلة كان من عزّ جبة القضاء.

إذا نظرنا إلى السيد والسيدة لزلي ستيفن مجتمعين نجد أنهما ينتميان إلى ما قد يسمى بالقسم الأدنى من الطبقة الوسطى الأعلى. (أما من الناحية الأكادمية فيجب أن أضعهما على الحافة بين الأعلى والأدنى). كان في خدمة الأسرة سبع خادمات ولكن دون خادم واحد من الرجال. ربما كانوا ينتقلون أحياناً مستقلين عربة أجرة لكنهم لم يمتلكوا عربة خاصة؛ وعندما يسافرون بالقطار فسفرهم بالدرجة الثالثة. سيداتهم تخيط ملابسها لدى

خياطة جيدة نوعاً ما. وكان لزلي عضوا في نادي أثينيوم وبالطبع في نادي الألب. وبالرغم عن علاقاتهم ذات الفخامة فإنهم لم يخاطروا بدخول ما كان يسمىٰ «بالمجتمع الراقي»؛ إنهم في الواقع عاشوا عيشة هادئة جداً، وإن كان لجوليا «أمسيات الأحد» حين يتقابل الزائر مع قسم من مجتمع لندن المثقف. أما بيتهم فكان في حي محترم من المدينة.

كان من المفروغ منه أن الصبيان سيذهبون إلى مدارس خاصة ومن ثم إلى كيمبردج. أما الصبايا فسيكن بارعات، حاذقات، في فنون الحياة الإجتماعية، على شاكلة كريمة، ومن ثم يتزوجن.

الفصل الثاني

١٨٨٢ ـ ١٨٩٥

ولدت فرجينيا في ٢٥ كانون الثاني ١٨٨٢، في المنزل رقم ٢٢ في هايدپارك گيت Hyde Park Gate، ولم يزل قائماً هناك يحمل إسم أبيها. كان البناء ذا خمسة طوابق أضاف إليها آل ستيفن طابقين من تصميم فظيع. إنه بيت مرتفع، معتم، وله حديقة خلفية كبيرة نسبياً.

في أعلى هذا البيت ثمة غرفتان للصغار يسكنها أطفال لزلي من زوجته الثانية. أما لورا، طفلته من زوجته الأولى ميني، فكانت تعيش منفصلةً إلى أن نقلت إلى «دار» للمجانين، ثم إلى مصح عقلي في يورك حيث توفيت سنة ١٩٤٥. أما جورج وجيرالد وستيلاّ، أولاد جوليا من زواجها الأول، فكانوا قد جاوزوا مرحلة الروضة كثيراً حين عرفتهم فرجينيا أول مرة، وهكذا كانت غرف الصغار عبارة عن وحدة تتألف من ذرية لزلي الجديدة المكونة من أربعة أعضاء: ڤانيسّا Vanessa وثوبي Thoby وفرجينيا، ثم إنضم إليهم أدريان Adrian الذي ولد سنة ١٨٨٣، ولم يكن يفصل بينهم فارق كبير في العمر.

كانت فرجينيا طفلة غير اعتيادية من جهة واحدة، فهي لم تتعلم الكلام صحيحاً إلا بعد مدة طويلة؛ تعلمت ذلك في الثالثة من عمرها. كانت أختها، ووالداها بلا شك، قلقين جداً، أما مظهرها فهي كڤانيسا جميلة الطلعة؛ طفلة ممتلئة، مدورة الوجه، ذات أجفان وفم كأنهما لتمثال بوذي منحوت نحتاً عميقاً لكنه صقيل على نحو رهيف. كانت ذات خدين ورديتين وعينين خضراوين ـ هكذا تتذكرها أختها حين كانت تضرب على المائدة في غرفة الصغار بانفعال طلباً للإفطار، فلم تكن قد تعلمت بعد أن تطلبه بلسانها.

حين واتت فرجينيا الكلمات صارت أسلحتها المختارة منذ ذلك الحين وللبقية الباقية من حياتها. أقول «أسلحة» إذ كان هناك في تلك الروضة حب وخصام معاً. ڤانيسا، وهي لا تكبر ثوبي إلا بسنة واحدة فقط، كادت تبلغ عنايتها به حد الأمومة، فهي تصونه من الأذى وتضحي بنفسها من أجله وتحبه حباً جماً. تعلم ثوبي منذ الإبتداء أن يتلقى هذه الخدمات على أنها شيء مسلم به فيصبح الولد الأثير على نحوٍ مثير إن لم نقل يفسده الدلال. كان يوصف وهو بعد صغير بأنه صبيٌّ قوي، حازم، ومحب للسيطرة؛ إنه سيصبح ستيفن آخر أيضاً، لا رهيفاً متوتر الأعصاب كأبيه بل على سجيته مرحاً كعمة فيتزجيمز، في حين ستكون ڤانيسا من جبلّة آل پاتيل على نحوٍ موروث أصيل. وهكذا كوّن هذان الإثنان زوجاً رائعاً في غرفة الروضة، البنت يسرها أن تعطي والولد يسره أن يأخذ.

حوّلت فرجينيا هذا الثنائي المتناظر في الإعجاب المتبادل إلى

شيء ثلاثي الأطراف. ولم ينشأ عن دخول أدريان إعادة تكوين للشكل الأصلي؛ ذلك أن فرجينيا كانت تميل إلى التعلق بالصغار الأكبر سناً، وكانت أيضاً مخلصة لثوبي إخلاص ڤانيسا له. كان ثوبي أروع كثيراً من أخيه، في حين كان أدريان مرهفاً، حزيناً، وصغير الحجم. وهكذا فلا بد أن البنتين قد تنافستا على الفوز بالحظوة لدى ثوبي إلى حدٍ ما.

وبالرغم من هذه المنافسة الكامنة، التي قد تبدو لا شعورية، فإن الشقيقتين كانتا منذ أيامهما الأولى حتى نهاية حياتهما متولهتين إحداهما بالأخرى. لكن إعجابهما المتبادل إنما يجري الإحساس به، أو التعبير عنه، بطرق مختلفة، متميزة. كانت ڤانيسا تدرك ألمعية فرجينيا الباكرة وذكاءها وتمكّنها من اللغة، ولكن الذي كان يأخذها هو جمالها وحده. «كانت تذكرني دائماً بزهرة متوهجة». أما فرجينيا فكانت تتحسس بجمال ڤانيسا ولكنها تقدر فيها كذلك إستقامتها الهادئة وتوليها الرصين لمسؤولية الصغار، والإيثار الرفيق المستمر والروح العملية والإدراك السليم. كذلك فهمت فرجينيا، وهي بعد في عمر مبكر جداً، شيئاً من سحر الصداقة ومن تلك الصميمية التي تواتي المتكلمين بلغات خاصة بهم، ونكات خاصة بهم، أولئك الذين لعبوا في شفق المساء بين أرجل الكبار وذيول ملابسهم تحت الموائد. إنها لم تحب أختها فحسب بل أحبت كذلك العلاقة الودية بينهما. وهكذا كانت المظاهر بالنسبة للأخت الأكبر هي أروع ما في العالم على الدوام، فلما أحبت تمثل لها حبها على صورة مرئية. أما الأخت الأصغر فقد كان سحر المحبة الأخوية يكمن ببساطة في الوصال الحميم مع كائن آخر. وفي

الاستمتاع بشخصيته. وهكذا حسم الأمر إبتداءً على أن تصبح ڤانيسا رسامة وتصبح فرجينيا كاتبة.

كان هناك بالطبع قدر كبير من المشاجرات في غرفة اللعب؛ هذا الأمر له أهميته، لا لأنه قد حدث - فلا تكتمل غرفة يلعب فيها الصغار إلا بوقوع المشاجرات بينهم - بل نظراً للطريقة التي أديرت بها أعمال العداء. لم تكن ڤانيسا وثوبي من المبتكرين في ذلك؛ فهما يصرخان ويتبادلان الإهانات والضربات ويفضح أحدهما الآخر حين يبلغ الإستفزاز مبلغاً شنيعاً. أما فرجينيا فكانت تلجأ إلى استعمال أظافرها، وقد اكتشفت في عمر مبكر جداً أن بوسعها تعذيب أختها بحك أظافرها على جدار مدهون - الأمر الذي كانت تصطك له أسنان ڤانيسا؛ ثم تعلمت استعمال لسانها وكان ذلك أنكىٰ؛ أطلقت على ڤانيسا نعت «القديسة»؛ وكانت هذه كلمة ظالمة لصقت بها فصار حتى الكبار يبتسمون لها ويشتركون في السخرية منها، كلمة لم يكن من الممكن دحضها كما يجب.

ولكن فرجينيا لم تكن تفرّج عن امتعاضها بالكلمات وحدها. كانت تعرف دائماً كيف «تخلق جواً»، جواً من الكآبة الخانقة، المدمدمة فوق رؤوسهم، وزمهريراً من التذمر. هذا الجو تخلقه بدون كلمات؛ كان الآخرون من الصغار يحسون بصورة من الصور أن أختهم قد لبّدت فوقهم سحاباً ينذر بتفجّر نيران السماوات، وكان من العسير في هذه الحالة أيضاً العثور على ردٍ على ما يجري، جواباً له.

ومع ذلك كان هناك رد للجواب. فالذين يغمدون نصلاً

مسلولاً في نفوس خصومهم يعرفون الجواب لأنهم معرّضون له. يصدق هذا على فرجينيا. كانت هناك وسيلة تجعل لونها ينقلب «قرمزياً من الغضب». ولا نعرف ما هي هذه الوسيلة؛ لكن ثوبي وڤانيسا كانا يعرفان؛ وكانت هناك حالات مريعة يتبدل فيها لونها إلى لونٍ تصفه أختها بأنه «أجمل ألوان الأحمر الملتهب طراً». سيكون من الممتع لو عرفنا الكيفية التي يجري بها ذلك، وهل كانت تلك النوبات غير موجعة أبداً لفرجينيا ذاتها كما خلصت إلى ذلك ڤانيسا.

كان معروفاً منذ الابتداء أن من غير الممكن التنبؤ بتصرفات فرجينيا، وكان معروفاً أيضاً أنها غريبة الأطوار، وعرضة للحوادث. كان بوسعها أن تقول أشياء يضحك لها الكبار معها؛ وكانت تقوم بأشياء يضحك منها الصغار. فهل يسعنا أن ننسب إلى هذه المرحلة أم إلى مرحلة لاحقة الحادثة التي وقعت في حدائق كنزينغتون، حين فقدت لباسها الداخلي أو فقدت سيطرتها عليه؟ اختفت فرجينيا هناك وراء الشجيرات وغنت بأعلى صوتها أغنية «وردة الصيف الأخيرة» لكي تحوّل عنها إنتباه الآخرين. هذه الحادثة وأمثالها هي التي أكسبتها في غرفة اللعب لقب «العنزة» فلصق بها عدداً من السنين.

لم يجر تعميد أحد من الصغار. كان لزلي سيعتبر هذه العملية أمراً سخيفاً، بل فاضحاً، لكنهم كان لهم عرّابون من نوعٍ ما: «أشخاص علاقتهم شبه رعوية». والظاهر أن ڤانيسا وثوبي وأدريان كان لهم أولياء عاديون ولا يجزون شيئاً. أما عراب فرجينيا فهو الشاعر والدبلوماسي الأمريكي جيمز راسل لوويل James

Russell Lowell الذي احتفل بميلادها بإرسال هدية كانت كوبا فضية مع بعض الأبيات الشعرية العابرة، وهو الذي كتبت له فرجينيا رسالة حين كانت في السادسة من عمرها. وهذه هي أقدم وثيقة لدينا بخطها:

«عزيزي جدّو هل ذهبت إلى الغابة ورأيت
وحوش وطيور في العش أنت وكيح لأنك لا تأتي
عندنا مع السلامة محبتك فرجينيا».

كان لوويل، اللطيف بالسليقة، الذي أخذ الصغار يعتقدون في ما بعد بأنه كان مغرماً بأمهم، قابلاً لنشوء مثل هذه الأفكار عنه، فحين كان سفيراً إلى بلاط سان جيمز أكثر من التردد على منزل آل ستيفن، واستمر يقوم بزيارات صيفية إلى انكلترا بعد أن أبدله الرئيس كليفلاند بسفير آخر. كان يخرج من كيسه الصغير المدور قطعاً نقدية من فئة ثلاثة بنسات ويعطي لكل صغير قطعة؛ أما لفرجينيا فالقطعة النقدية هي دائماً من فئة ستة بنسات. كان ذلك امتيازاً كبيراً؛ أما حين قدم لها طيراً حقيقياً في قفص فقد نهشت الغيرة صدور الصغار الآخرين نهشاً. لقد فازت فرجينيا في المنافسة على العرابين فوزاً مبيناً.

كان الصغار ينامون في غرفة الأطفال الليلية في أعلى المنزل، وهناك كانت فرجينيا تمسي، في عمرها ذاك، قصّاصة الأسرة. ما أن تطفأ الأضواء كلها عدا الضوء الصادر عن جمر النار الخامدة، حتى تبدأ بحكايتها. كانت الحكاية تتعلق بأسرة مجاورة لهم، وتستمر من ليلة إلى أخرى فتسأل ڤانيسا أولاً بتوسل: «يا صغيرتي العزيزة كليمانتيه»... وتمطّ الجملة مطاً

متكلفاً فتبدأ فرجينيا وقد صارت كليمانتيه فتقول: سيكتشف الذهب تحت أرض غرفة الأطفال وسنشتري بهذا الكنز وجبات هائلة من اللبيض وشرائح البيكون، وكان هذا طعام الصغار المفضل في البيت، وهكذا تستمر الحكاية فيتصاعد الخيال آخذاً بالتعاظم والغموض إلى أن تنام كليمانتيه ويكون على مستعميها الانتظار حتى الليلة التالية.

وفي صلة القربى الجميلة هذه لم تكن الحكايات هي وحدها التي يتقاسمها الجميع بل كانوا يتقاسمون الأمراض كذلك. ففي ربيع ١٨٨٨ أصيب الصغار بالسعال الديكي. مرضوا مرضاً شديداً ففقدوا كثيراً من أوزانهم فأرسلوا إلى مدينة باث Bath للنقاهة والإستجمام. وسرعان ما شفي الجميع شفاءً تاماً - الجميع إلا فرجينيا. فحين رجعوا لم تكن كما كانت عليه اكتنازاً وتورداً. إتخذ جسدها، بشكلٍ مخفف ملحوظ، تلك الرشاقة النحيفة، الرائعة، المستدقة، التي إحتفظت بها طوال حياتها. لم يكن هذا كل شيء، فقد أصبحت وهي في السادسة من العمر من نمطٍ مختلف فهي أكثر تفكيراً وأكثر تأملاً.

في إحدى الأمسيات، وإذ كانت فرجينيا تقفز عاريةً في الحمام، أذهلت أختها الكبرى وأفزعتها بسؤال: مَنْ من والديها تحب أكثر من الآخر؟ ذعرت ڤانيسا من هذا السؤال؛ لكنها أجابت على الفور، ذلك أنها كانت بنتاً مستقيمة وصريحة جداً، بأنها تحب أمها أكثر. أما فرجينيا فقد قررت بعد إبطاءٍ وتبصّر بأنها تفضل أباها. بدت هذه المداولة البسيطة والغريبة معاً كأنها إشارة إلى ڤانيسا عن بدء التحول في شقيقتها. ومنذ ذلك الحين غدت

المحادثة بين الشقيقتين أكثر تفكيراً وأكثر جديةً.

من المستحيل أن نعرف هل كان هذا الانقلاب قد نشأ عند فرجينيا من جراء مرضها. لكن بوسع المرء أن يقول إن ذلك الانقلاب لم تكن له علاقة بتعليم فرجينيا الأصولي. فقد قرر لزلي وجوليا، سواءً لاعتبارات اقتصادية أو لإيمانهما بإنجازاتهما التدريسية، أن يعلّما أطفالهما شخصياً. بعبارة أخرى أن يتلقىٰ البنين تعليمهم الابتدائي، وتتلقىٰ البنات القسم الأعظم من دراستهن، في البيت. كان هناك في المنزل مربيات، سويسريات وفرنسيات (ألقت ڤانيسا وثوبي بإحداهن تحت المائدة)، لكن القسم الأعظم من التدريس جرى كما يبدو من قبل جوليا ولزلي.

قبل أن تبلغ فرجينيا السابعة من العمر كانت أمها تحاول تعليمها اللاتينية والتاريخ والفرنسية، في حين تولىٰ الأب تدريس الصغار الرياضيات؛ كان قد سبق له تدريس جورج وجيرالد فظن أن لديه بالتأكيد موهبةً ما في التدريس؛ بل حاول، بصورة تدعو إلى الرثاء، أن يخلق ذكاءً لإبنته المجنونة لورا. لكنه، وهو نفسه شخص مماحك، لم يكن قادراً على تصور الصعوبات التي يواجهها الطفل حين يقبل على عملية جمع بسيطة، فكان يتهيج بالطبع. كان الوحيد من أبنائه الذي فيه الإستعداد الكافي ليتعلم شيئاً من الرياضيات منه هو ثوبي. كانت رياضيات ڤانيسا أولية دائماً، فيما استمرت فرجينيا طوال حياتها تعدّ على أصابعها. كما أن جوليا لم تكن مدرّسة جيدة. كانت في تعاملها مع أبنائها ذات طبيعة متسرعة. ربما تعلمت فرجينيا شيئاً من اللاتينية منها، لكنها لم تكن قط طليقة اللسان في أية لغة حديثة، كما أن معرفتها

بالتاريخ، كفرنسية أختها الكلامية، إنما جرى تعلمهـا في حقبة لاحقة من العمر. لقد تعلمت الحاضنات والمربيـات الأجنبيات اللغة الإنكليزية من أولئك الصغار بدرجات مختلفة دون تعليمهم لغةً مآ بالمقابل.

لعل أحسن الدروس هو ما كان قد أعـطي خارج سـاعات الدراسة. إن بوسع لزلي، عندما لا يكون قائماً بـالتدريس، أن يكون أباً ساحراً؛ كان ذا موهبة في الرسم الذي أمتع صغاره به؛ إنه يستطيع أن يغطي صحائف كاملة بحيوانات مـرسومـة بالقلم الرصاص، أو أن يقص مخلوقات من ورق بدقة سحرية. وبوسعه أن يحكي قصصاً عن مغامرات جبلية في الألب يدور لها الرأس، وأحياناً ينشد الشعر، وفي الأمسيات قد يقرأ جهاراً، وفي الغالب من روايات السير ولتر سكوت، ثم يدعو صغاره إلى أن يتباحثوا في ما سمعوه[1].

كانت هناك مصادر أخرى لتنوير العقل. فقد عاد ثوبي إلى البيت من مـدرسته الأولى ـ مـدرسـة إيفلنـز Evelyns ـ وأخبـر فرجينيا، بطريقة غـريبة خجلىٰ، وهـو يتكلم صاعـداً نازلاً على السلم، عن اليونانيين وعن طروادة وهكتور وعن عالم جديد بأسره

---

(١) «وفي نهاية كل جزء كان أبي يسأل دائماً عنْ رأينا عن مميزات ذلك. وكان مطلوباً منا أن نقـول أي الشخصيات أحب إلينـا ولماذا. أتـذكر سخطه حين يفضل أحدنا البطل على الوغد الذي هو أكثر شبهاً بالناس الموجودين في الحياة». من قول لفرجينيا وولف في «حياة ورسائل لزلي ستيفن» بقلم كـاتب سيـرتـه ميتـلانـد F.W. Maitland المنشـور سنة ١٩٠٦، ص ٤٧٤.

فملك عليها مخيلتها. لعلها قررت وقتئذٍ أنها ستتعلم اليونانية يوماً ما مثل ثوبي؛ ولعلها أدركت وقتئذٍ أن اليونانيين يعودون إلى ثوبي على نحوٍ ما لا يعودون إليها، وأنهم يؤلفون جزءاً من إقليم الذكور العظيم في دائرة التعليم ستستثنىٰ هي وڤانيسا منه - هذه على ما أحسب كانت نظرتها للأمر.

ولم يكن اكتساب المنجزات الأنثوية بالتعويض الكبير. الرسم، الرقص، الموسيقىٰ، وأصول السلوك الكريم، كل هذا كان يجب تعلّمه، أو تعليمه في الأقل. كان الرسم من النجاحات: فقد كان الرجل الذي درّس ڤانيسا رجلاً فذاً؛ ولكن المدرسين الآخرين لم يكونوا من المتعاطفين. لم تكن كلتا الفتاتين ذات إستعداد موسيقي، ولا هما أحبتا معلمة الموسيقىٰ التي كانت تتوقع من تلميذاتها بلوغ ذلك الحذق بحيث تعزف الفتاة مقطوعة من المقطوعات وقرش النقود فوق سلاميات كفّها - فيكون القرش عندئذٍ جائزةً لهذا النُجْح، وقد أعطي ذات مرة بإزدواء ومهانة إلى ڤانيسا بعد أن أخفقت في ذلك العزف[1].

أما الغناء فكان أحسن حالاً. ولكن فرجينيا أخفقت هنا بصورة شائنة. فقد اكتشفت أن المعلمة، وكانت خبيرة معروفة في تعليم نظام النوطة الصوتي، هي إمرأة شديدة التدين؛ وجواباً عن سؤال عن معنىٰ الكرسْمس قالت فرجينيا إنه يعني الإحتفال بالصلب، ثم إنفجرت بقهقهات مستمرة من الضحك حتى إضطروا إلى إخراجها من الغرفة بالقوة. وجرى تعليم الفتاتين

(١) تأتي فرجينيا على ذكر مثل هذه الحادثة في روايتها «الأمواج»، ص ٤٧.

ركوب الخيل أيضاً، وكانت هناك دروس في الرقص؛ كانت هذه الدروس تدار من قبل السيدة ووردزورث الشهيرة يومئذٍ. كانت ترتدي الحرير الأسود وهي ذات عين زجاجية وتحمل العصا. وعلى أوامرها تقفز الفتيات الصغيرات إلى الأعلى وإلى الأسفل بنشاط محموم. رأت الآنستان ستيفن أن هذه المسألة عبارة عن ضجرٍ في ضجر، لذا كانتا تلجآن كلما أسعفتهما الجرأة إلى جلسات طويلة في «المرافق». أما دروس البيانو فكانت أدهىٰ وأمرّ، ولا يضاهيها في العذاب سوى ذلك الرعب الأكبر عند الذهاب إلى طبيب الأسنان؛ كانت الفتاتان تتخيران بالقرعة من منهما تدخل عيادته أولاً؛ ويكون من نصيب الخاسرة أن تقضي ساعة إضافية من التوقع الرهيب في غرفة الإنتظار.

على أن الشقيقتين كانتا مستعدتين لتثقيف نفسيهما شخصياً عندما تجدان ما يثير إهتمامهما. ما أن حصلت ڤانيسا على نسخة من (مبادىء الرسم) حتى عكفت على إنجاز الأهداف التي يأمر بها رسكين، وتتذكرها فرجينيا وهي تملأ ببطء وعناية المربعات بتظليلات مخططة تامة الإستقامة على النحو المذكور في (التمرين رقم ٧). أما فرجينيا فقد أصدرت جريدة. لم تكن تلك الجريدة مغامرة فردية في الإبتداء إذ كان ثوبي شريكاً في المشروع؛ لكنه كان أكثر الوقت في مدرسة داخلية، فآل الأمر بالتدريج إلى عهدتها الخاصة بصورة تكاد تكون كلية. لعل مما ينطوي على مغزى أن الصحيفة لم تنشر إلا بضعة رسوم؛ كان هذا من اختصاص ڤانيسا، لكن خجلها كان يحول دون أن تعرض إنتاجها. فرجينيا أيضاً كانت حيِيّة، لكن حياءها كان أضعف من شوقها إلى النشر. بدأت صحيفة (أخبار هايد پارك گيت) بالظهور

في سنة ١٨٩١[1] وعلى قدر ما نعلم فإنها ظهرت أسبوعياً حتى نيسان ١٨٩٥. وهكذا فحين صدر العدد الأول كانت فرجينيا في التاسعة من عمرها. كانت كغيرها من الصغار تستمتع بانتحال صفة الكبار، ولكنْ فيما يلعب الصغار هذه اللعبة عادةً باعتمار القبعات وارتداء السراويل وحمل المظلات كانت فرجينيا تلعب اللعبة بالكلمات والجمل؛ لقد قلّدت أفخم الأساليب الصحفية وهي بين الجد والهزل. مثلاً حين يعود أحد الأبناء إلى البيت ويلاقي أخاه فإنها تحتفل بالمناسبة هكذا:

«ما ألذّ رؤيته ينحني وعيناه تعبّران عن عوالم من الجذل! (وما أقدر العيون على التعبير)! فيقبّل الجبين المتورد المقدم إليه».

أو حين تبنّى أولاد ستيفن كلباً سائباً، وبعد أن لوّث السجاد بشكلٍ لا يطاق أرسل إلى (دار الكلاب الضائعة) فرفضوا قبوله هناك:

«وهكذا أطلقه الصبيّ لكي يهيم على وجهه أنّى شاء (كقطرة ماءٍ تبحث عن قرينها في المحيط الشاسع). لم يسمع عنه شيء حتى الآن».

(١) أول الأعداد الذي لدينا مؤرخ في ٦ نيسان ١٨٩١، وبما أن هذا هو العدد التاسع في سلسلة أسبوعية يمكننا الإفتراض بأن ذلك العدد الأول قد صدر في ٩ شباط ١٨٩١. وتستمر السلسلة مع فجوات حتى ١٩ كانون الأول ١٨٩٢. بعد ذلك لا توجد ملفات حتى ٧ كانون الثاني ١٨٩٥.

كانت جريدة «هايد پارك گيت نيوز» تقرأ من الكبار أيضاً، وتقرأ بالتأكيد من لزلي وجوليا وربما من آخرين؛ وقد إهتمت بها السيدة جاكسون أيضاً. وتمكنت فرجينيا من مراقبة رد الفعل العام لنشرها. صار هذا ممكناً بسبب غرفة صغيرة بهيجة في القسم الخلفي من المنزل؛ كانت تلك الغرفة كلها تقريباً من زجاج. فهي ذات نافذة سقفية ونوافذ زجاجية كبيرة تقابل الحديقة. هنا كانت تجلس الأخوات معاً فتقرأ فرجينيا لشارلوت يونج Charlotte M. Young ـ وكن يمسكن قائمة بعدد الوفيات التي تحدث في رواياتها الحاشدة بأحداث الموت ـ وبعد حين تقرأ لثاكري وجورج إليوت، ولغالبية الروائيين الفكتوريين. من هذه الغرفة تستطيع البنات رؤية غرفة الجلوس الكبيرة ذات القسمين. وعندما يتناول الوالدان العشاء في غرفة الطعام تذهب ڤانيسا فتضع العدد الأخير من الجريدة على أريكة أمها. عندئذٍ تبدأ فترة من الانتظار المتوتر.

كانت فرجينيا حساسة دائماً تجاه النقد بصورة شديدة، وحين يأتي أبواها إلى غرفة الجلوس يبلغ تهيجها حداً فائقاً. الجريدة تكون ملقاة هناك وتبقىٰ كذلك دون أن يلاحظها أحد؛ أخيراً تلتقطها جوليا وتبدأ بالقراءة. هل ستنطق بكلمةٍ ما؟ ذلك هو السؤال الفظيع؛ وحين تعلق جوليا بهدوء قائلة على وجه التحديد إلى زوجها: «شيء ذكي على ما أظن» تكون الكاتبة قد ارتقت إلى عنان السماء.

ولا غرابة، أمام مثل هذا الجمهور، أن تعتبر سياسة الصحيفة سياسة لا غبار عليها من وجهة نظر الأبوين. ففي «مقالة عن

«الصفاقة» أعلنت الصحيفة بشكل محدد تقول:

> يجب استئصال شأفة الصفاقة من نفوس الأطفال وهم في المهد، وإلا فإن الوقاحة تتنامىٰ إلى جسارة مع تقدم العمر. عندئذٍ يكون ذلك عقبة كبرى أمام الإنسانية»...

لكني أظن أن هذا كتبه ثوبي. فقد كان إخلاص فرجينيا لقضية تأديب النفس إخلاصاً له حدوده، لذلك لم يمنعها هذا الإخلاص من أن تكون ذات جسارة على طريقتها الخاصة:

> «شرّفتنا بصحبتها قريبتنا الآنسة فوغان. كانت هذه الآنسة، بصفتها أختاً تقوم بواجبها، في كندا لزيارة أختها الغائبة منذ أمدٍ طويل والمقيمة هناك. نأمل ألا تكون قد شعرت بغصة الغيرة حين رأت أختها هناك تنعم بالإرتياح مع زوجٍ لها، فآنستنا نفسها تجوب العالم الفسيح بحثاً عن زوج. لكننا نشطّ عن موضوعنا كالعجائز. لقد جاءت يوم الأحد ولما تزل مقيمة عندنا».
>
> فهي قرأت هذه الزائرة جريدة الأسرة يا ترى؟

ثم هناك الجنرال بيدل، «أمير المتكلمين». لدينا من كلامه السلطاني ما يكفي ليبين لنا أن فرجينيا كانت، وهي بعد في سن التاسعة، تميِّز الرجل الثقيل الظل عن غيره بسهولة.

وتشتمل جريدة «أخبار هايد پارك گيت» على بعض المجهودات الأولى في أدب القصة؛ لكن متعتها ليست كمتعة

قسم الأنبـاء. إن قصـة «رحلة منتصف الليـل» (الـمـوقعـة أ. ف. س. وهي الحـروف الأولى لـ: أدلين فرجينيـا ستيفن) هي قصتها الأولى الباقيـة. قالت فـرجينيا في سنـة ١٩٢٧ إنها تستطيع خلق الأوضـاع ولكنها لا تستـطيع خلق العُقَـد». وهذا يصدق بالتأكيد على قصة «رحلة منتصف الليل». فهي هنا تختلق وضعاً يضطر فيه صبيّ أن يسافر عند منتصف الليل خلال مستنقع خطر في أمريكا الشمالية ليزور شقيقه المريض في المدرسة. ما أن يذهب الصبيّ حتى تفقد الكاتبة إهتمامها بـالمغامـرة فتأخـذ الحكاية مظهراً باهتاً جداً. كانت في الجريدة سلسلة من رسائل من أناس خياليين نراها أكثر نجاحاً. إنها رسائل حب مكتوبة وفق الإعتقاد القائل بأن غراميات الكبار كلها هي بحد ذاتها مضحكة. كتب السيـد جون هـارلي إلى الآنسة كـلارا قائـلاً: «... لقد هجرتني بصورة مخجلـة جداً»، فتجيبه قائلةً: «بما أنني لم أحتفظ قط برسائلك الغرامية فأنت لا تستطيع إسترجاعها. ولهـذا فإني أعيد لك طوابعها».

ونجـد شيئاً من الإمتـاع أيضاً في (تجـاريب حقلية لـرجـل لندني)، وهذا مسلسـل أوحت به مغـامرات السيـد بريغـز Mr. Briggs في مجلة پانچ Punch. كانت هذه المجلة من المؤثرات القوية على ذلك الإنتاج المبكر.

ويرجع المرء إلى الأخبار التي في هـذه الجريـدة المنزليـة ليحاول أن يستخلص صورة لأسرة ستيفن. أول ما يجابه القارىء العصري هو العدد الكبير من الناس الذين كانوا يؤلفون بيتاً في تلك الأيام. فبالإضافة إلى ثمانية أطفـال هناك سبـع خادمـات،

كانت رئيستهن دائماً الطاهية صوفي وهي كنزهم الثمين. والكلاب تلعب دوراً هاماً في حياتهم وكانت فيما يبدو أكثر ضراوة بكثير مما هي عليه الآن؛ كان هناك أيضاً الفئران والبعوض والأقارب، خاصةً آل فيشر وآل دكوورث وآل فوغان وآل ستيفن والسيدة جاكسون والليدي سومرز والدوقة بدفورد. هناك بضعة أسماء بارزة كذلك: ميريديث Meredith، بيرن - جونز، وولتر هيدلام؛ لكن هؤلاء ليسوا من ذوي القربى.

كذلك نجد المسرات والمصائب المعتادة للحياة العائلية مسجلة هي الأخرى: مصابيح تحترق، أنابيب تنفجر، أطفال يمرضون، أخوة يذهبون إلى المدرسة، زيارات إلى السيرك وإلى حديقة الحيوانات؛ لكنّ حدث السنة الأعظم هو الذهاب صيفاً إلى كورنوول Cornwall. ففي سنة ١٨٨١، السنة التي سبقت ميلاد فرجينيا، قام لزلي بإحدى حولات المشي العديدة التي كان يقوم بها، فاكتشف سانت آيفز St Ives. «تماماً عند ظفر إبهام القدم لإنكلترا»، على حد تعبيره. في السنة التالية ابتاع منزلاً هناك هو بيت تالاند Talland House، على تلة تطل على الخليج، فكانت الأسرة تذهب إلى هناك كلّ صيف. لذلك فإن سانت آيفز هي بلا ريب من ذكريات فرجينيا المبكرة.

> «إن ذلك اليوم (الأربعاء ١١ أيار ١٨٩٢) منطبع بعمق في عقول الشبّان لسببين. الأول هو «الآيس كريم»؛ والثاني هو أن مدام ماو، ويحسن بنا أن نخبر قراءنا بأنها معلمة آل ستيفن في فن الموسيقى، ستأتي مرتين في الأسبوع!!! لكن

هــذه الصــدمــة ستخف كثيــراً لأن آل ستيفن سيذهبون إلى سانت آيفز في موعدٍ أبكر كثيراً من المعتاد. إن هذا لهـو المنتجع السمـاوي لعقول الشبـان الـذين يعشقــون سـانت آيفــز ويـرفلون بلذائذها الكثيرة». . .

إن الوعد الذي تعد به سانت آيفز سنوياً وذكرياتها الماثلة في الأذهان تجعل من لندن عند المقارنة محلاً بائساً؛ أما الزيارات إلى برايتون Brighton لرؤية السيدة جاكسون (ماتت في نيســان سنة ١٨٩٢) وإلى الأقرباء من آل فوغان وآل فيشر (الـذين لم يكونوا من المرغوب فيهم) فلا تعوّض شيئـاً. كان من الأفضـل للفتاتين، عوضاً عن ذلك، قيامهما بالتجول في حدائق كنزنغتون، وكـانت يومئـذٍ ذات طابـع بري؛ فتستلقي ڤـانيسا وفـرجينيا في الحشـائش وتأكـلان الحلوى الزهيـدة الثمن وتقـرآن نسخـة من صحيفة Tit - Bits وكانت صحيفتهما المفضلة، وقد أرسلت إليها فرجينيا نتاجاً قصصياً مبكراً ومن نافلة القول أنه لم ينشر. وفي وقت سـابق لهذه المـرحلة، وإذ كانتـا تتجـولان بين الحشـائش الطويلة المنبثة بين البركة المدورة وممشىٰ الورد سرهما أن تكتشفا جثة مهملة لكلب أسود صغير. لكنْ حتى هذا لم يكن إلا تعويضاً بسيطاً عن قِصَر الربيع والصيف في شوارع لندن. إن سانت آيفز هي الريف الحقيقي الوحيد، والصغار يتلهفون له.

في ذهني صورة حية لذلك الخروج العائلي، لكنها صورة لا تقوم إلا على دليل واهٍ: السيد والسيدة ستيفن، البنات، أدريان، (ثوبي قد يأتي فيما بعد من المدرسة)، ستيلّا وربمـا أخوتهـا،

صوفي الطاهية، إيلين وصيفة الصالون، ومربية سويسرية، مع أمتعتهم كلها في عربتين كبيرتين في أقل تقدير، والصغار تتفجر فيهم مشاعر الإنفعال وهم يشقون طريقهم إلى محطة پادنغتون ليستقلوا مثلاً قطار الساعة العاشرة والربع (قطار الساعة التاسعة كان سيّئاً جداً فهو يقف في كل محطة صغيرة تخطر على البال).
ثم تبدأ الرحلة الطويلة، وتبدأ بروح عالية إذ يمضي قطار كورنوول السريع ضاجاً بالحركة والضوضاء من پادنغتون إلى بريستول ماراً ببلدة تمپل ميدز في الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة؛ وهنا توجد فرصة للحصول على سلّة غداء إلا إذا كانوا قد جلبوا معهم «ساندويشاتهم»؛ ثم تبدأ الرحلة الطويلة، الحارة، تسودها الرطوبة ويتزايد فيها الشجار، إذ يجري التبوّل في إناء وتدعك الجرائد والكتب والمجلات فترمىٰ على المقاعد في ظهيرة حارة لا تنتهي. الساعة تقارب الرابعة حين يصل القطار إلى پليموث وبعدها تكون حركته مترددة ومتماطلة، ومنها إلى سانت إرث في الساعة السابعة إلا ربعاً، الأمر الذي لا يعطي المسافرين سوى ست دقائق بالضبط لكي ينتقلوا هم وأمتعتهم إلى قطار الخط الفرعي الصغير ليأخذهم إلى سانت آيفز. عند ذلك يكون الخمول قد أخلى سبيله للإثارة؛ فالصغار قد رأوا المحيط عند بلدة هايل، وبعدها يجري القطار بمحاذاة الساحل وهو يدور حول خليج كاربيس إلى أن يصل إلى نهاية الخط في سانت إيفز بعيد السابعة.

كانت تلك أمسية من أماسي الصيف، فلم تزل هناك ساعات من ضوء النهار. إن «بيت تالاند» غير بعيد عن المحطة حتى ليكاد المرء يركض إليه. وعند البوابة يقوم سياج النباتات المزهرة

ومن خلفه الجنينة تتدرج صعوداً ونزولاً على المنحدر مع مجمعات من المروج الخضر وشجيرات التوت هنا وهناك؛ ثمة ملعب الكريكيت حيث يلعبون «لعبة الكريكيت الصغيرة» طوال الأصيل وإلى ساعة متأخرة من المساء بحيث تطلىٰ الكرة بصبغ منير لكي يستطيعون الاستمرار في اللعب عند الظلام، ومن خلف ذلك كله البحر. في تلك الليلة الأولى من عطلتهم سيسمعون الأمواج وهي تتكسر على الشاطىء فيعرفون أنها ستكون أمواجهم أسابيع وأسابيع.

> «صباح السبت جاء الفتىٰ هيلاري والفتىٰ باسيل سميث إلى بيت تالاند ودعَوَا الفتىٰ ثوبي والآنسة فرجينيا ستيفن لمصاحبتهما إلى الفنار، إذ قال صاحب الزورق إن المد والريح ملائمان تماماً للذهاب إلى هناك. أصيب الفتىٰ أدريان بخيبة أمل كبيرة لعدم السماح له بالذهاب معهم».

هكذا قالت جريد هايد پارك گيت في ١٢ أيلول ١٨٩٢. قد يجد المؤرخ الأدبي في هذا التقرير، إن شاء، ما سماه هنري جيمز بالهبة لعمل من أشهر أعمال فرجينيا. ولا يمكن إثبات هذه النقطة، لكنّ سانت آيفز هيأت بالتأكيد خزيناً من تبر الذكريات إستمدت منه فرجينيا مراراً وتكراراً؛ نحن نجد ذلك لا في رواية «إلى الفنار» وحدها بل في رواية «غرفة يعقوب»، وأظن في رواية «الأمواج» أيضاً. كانت كورنوول بالنسبة إليها جنة شبابها وفردوساً لا ينسىٰ، وقد كانت شاكرة على الدوام لجميل والديها لاختيارهما لتلك البقعة. إنها ستحب في حياتها أماكن أخرى،

لكن أهالي كورنوول وأشياء كورنوول كانت تنطوي عندها على نوعٍ من العاطفة الوطنية؛ لكأنها أرض مخلوقة من مادةٍ ما رائعة التكوين، فهي لذلك أشد رومانسيةً وأكثر امتيازاً من أية تربة أخرى.

كانت الحياة العائلية في سانت آيفز تجري على رسلها وبدون انتظام؛ فالبيت غير مرتّب ومزدحم بالناس. وبالإضافة إلى الإسرة هناك الضيوف: أبناء وبنات الأعمام والأخوال، الأعمام والأخوال، وأبناء وبنات إخوانهم وأخواتهم بأعداد كبيرة؛ هناك مريديث الذي تعوّد الجلوس تحت شجرة ليقرأ من شعره إلى جوليا والسيدة جاكسون، وهناك السفير لوويل والروائي هنري جيمز مع عدد من الشخصيات المغمورة التي أخفقت في خلق اسم لها أو أنها لم تخلقه بعد مثل السيد وولستينهولم Wolstenholme المعروف عند الصغار «بالمشوَّش». كان رياضياً لامعاً لكن آراءه وحياته جعلت من كيمبردج مكاناً يستحيل عليه الإقامة فيه؛ لقد تزوج زواجاً فاشلاً فجاء إلى «بيت تالاند» هرباً من زوجته. كان يمزج رياضياته بالأفيون[1].

كان هناك أناس أصغر سناً وصفتهم فرجينيا بأنهم طغاة العالم الطفولي وأشباه آلهته: كأخويها غير الشقيقين جيرالد وجورج اللذين ذهبا إلى إيتون وكيمبردج؛ وأختهما ستيلّا التي شبّت وترعرعت في عالمٍ يمكن للمرء أن يبرز فيه؛ وجاك هيلز Jack

(١) من المحتمل أن فرجينيا كانت تضعه أمام تصورها حين وصفت السيد كارمايكل في رواية «إلى الفنار».

Hills المحـامي الشاب الـذي كـان يسعىٰ وراء ستيـلا؛ وكيتي لوشنغتون Kitty Lushington، الصديقة القـديمة إبنـة الصديقـة القديمة - كيتي التي وافقت وهي في الجنينة هناك أن تتزوج من ضيفٍ من الضيوف الشبان هو ليو ماكس Leo Maxse. كل هؤلاء سيلعبون دوراً مهماً في حياة فرجينيا؛ لعلهم كانوا أكثر أهميةً لها من الأصدقاء الآخرين الذين بعمرها، فمع أنهم يلتقون عدداً غير قليل من الصغار - ثمة حفلات للشاي ونزهات وغير ذلـك من المآدب - ولكنْ يبدو أن فرجينيا كانت تنظر إلى مجموعتهم فيما بعـد، وكانـوا يطلقـون عليها عبـارة «نحن الأربعة»، على أنهـا مجموعة منعزلة بعض الشيء. ولنا أن نفترض أن ألعابهم الخاصة بهم وهي ألعاب صبيانية جداً، كالجنازات التي يقيمونها للطيور والفئـران، إنمـا كـانت من الخصـوصيـات العـائليـة. أمـا لعبـة الكريكيت فكانت للكبار وهي أكثر علنيةً وذات طابـع إجتماعي بارز. والواقع أن فرجينيا عرفت أول مرة الصبي الذي إهتمت به فيما بعد وكانت تلك المعرفة الأولى في ساحة الكريكيت هناك خلال صيف ١٨٩٣، وكان ذلك الصبي الذي في السادسة من عمره هو روپيرت بروك Rupert Brooke، الشاعر الشهير، إذ كان هو وأخوه من المشاركين المتحمسين في الألعاب اليومية في «بيت تالاند». كانوا يلعبون الكريكيت بحماسة، وكانت فرجينيـا تعتبر رامية مخيفة. أما الممارسة المفضلة لدى لزلي فهي المشي؛ كان يذهب أحياناً للتسكع، على حد قوله، فيمشي مسافة ثلاثين ميلاً أو نحـو ذلك. كـان المتوقـع من صغاره أيضـاً أن يكـونـوا من المشّـائين، وكان أبـوهم يشجعهم على الاهتمام بـالنباتـات عند مشيهم؛ لكنهم لم يتقدموا في علم النبات كثيراً؛ فأولئك الصغار

يفضلون ما يسمونه «صيد الفراشات». كانت هذه عملية بدأت على نحوٍ مبسط ثم اتخذت، بمعونة جاك هيلز، شكلاً منتظماً مع جميع الأدوات اللازمة من شباك وعلب للتجميع وألواح للتثبيت وقنانٍ للسموم ومشاجب للحفظ وكتب للمراجعة. لقد قام صغار ستيفن بجمع الفراشات والهوام سنين عديدة، واستمروا في ذلك حتى كبروا.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالصيد الذي يسفك الدماء نجد أن قتل الحشرات القشرية الأجنحة كان فيه الكثير مما يغري أولئك الصغار: فمنظر ذلك القتل لا يؤذي إلا أهل الإنسانية الأميل إلى الغثيان؛ وهو ينطوي على ما في رجل الطبيعة من شغف ومهارة، وعلى فتنة الرحلات الصيفية والمطاردات المباغتة، وعلى الرضا الذاتي عند سدّ النواقص في المجموعة، والدراسة المتأنية للمصادر، وفوق كل هذا تلك المتعة الغامضة للسهر والسير برفق ليلاً إلى حيث إجتذبت خرقة منقوعة بشراب الرَمْ المخلوط بالدبس عشرات وعشرات من حشرات الأرض وديدانها مع بعض الهوام من ذوات العيون المصباحية والأجنحة المزركشة ذات التلوين الباذخ. هذا أيضاً شيء لم تنسه فرجينيا قط وعادت إليه بمحبة في كتاباتها.

لكن البحر هو الذي كان يضفي بالبهجة عليهم. كان البحر يدعوهم إلى ركوب الزوارق، إلى صيد الأسماك، وإلى السباحة. كانت السباحة في الحقيقة شيئاً تشترك فيه العائلة بأسرها. يتذكر وليم فيشر William Fisher، إبن خالتهم، الذي علمهم كيف يصنعون الزوارق ذات الدواليب المتحركة، وكانوا يسمونه

«الأدميرال» ـ وهو ما سيكونه في مستقبله حقاً ـ يتذكر هذا خالته جوليا وهي تطفو على سطح الماء بقبعة كبيرة سوداء. أما أعظم ما يقدمه البحر من أحداث وأروع ما فيه من رياض درامية فهو صيد أسماك پلچارد، وهي أسماك صغيرة من فصيلة الهرينغ وتسير زرافات قرب السواحل الأوروبية. لكن ذلك الحدث كان شيئاً تاق له الصغار وانتظره عدد كبير من سكان سانت آيفز عبثاً. المنادي في دار الحراسة الصغيرة البيضاء على قمة الجبل منتظراً ذلك الاسوداد في الأقيانوس ليدعو الزوارق للخروج لصيد تلك الأسماك وقد أتت زرافات، لا بالألوف بل بالملايين، وهي تخرج من التلاطم الفضي للأمواج. شوهد سرب السمك في سنةٍ ما فصدح بوق المنادي؛ لكن السرب مرّ خارجاً من الخليج فضاع أثره. وهكذا صار ذلك حلماً من الأحلام، وأسطورة من أساطير كورنوول التي كانوا ينتظرون حدوثها ولكنها لم تتحقق قط صيفاً إثر صيف.

كان البحر يعطيهم أكثر من ذلك بكثير: سباق الزوارق السنوي، الرمال، أحواض الصخر وفيها ما فيها من الزنابق البحرية مزهرةً تحت الأسماك المارقة، الخليج الكبير بزوارقه الشراعية وسفنه وقد غطست هياكلها في طريقها إلى بريستول أو إلى كارديف أو ربما إلى البرازيل. وهناك «كريما» كورنوول وهناك البائع البلدي المتجول منادياً عن الكعك ـ لا لأن هذا يقذفه البحر ـ والسعادة والغنى العميق الباذخ للحياة.

كان هذا هو الموسم الذي تُدلّىْ فيه سلة مشدودة بخيط من النافذة، فإذا كانت صوفي الطاهية في مزاج حسن عادت السلة

مثقلة بالطيبات من مائدة عشاء الكبار. أما إذا كانت صوفي في مزاج سيّىء فلا يعود إلا الخيط المقطوع. كان هذا هو الوقت الذي تستطيع فيه فرجينيا أن تمشي مع أبيها إلى صخرة لوغان المشهورة وإلى الأرض الساحرة حيث أشجار السرخس ترتفع فوق الرؤوس، أو إلى المستنقع وما فيه من نباتات غريبة؛ كان هذا هو الوقت الذي تجلب فيه السيدة لاثام سمك اللوبستر الأزرق حياً في جردل ماء إلى المطبخ وعواصف الخريف العاتية ترسل الأمواج وطيور البحر صارخةً نحو الشواطىء النائية.

كانت هذه أسعد الأوقات لطفولة سعيدة. لقد كانوا محظوظين بالتأكيد، وكانوا سيسعدون كذلك لو أنهم أمضوا أسبوعاً واحداً فقط في بلدة مارغيت. كان بوسع جوليا أن تخلق ما تسميه فرجينيا «أسرة ستيفن الهانئة» أينما كانوا. لقد أتيح لفرجينيا في سانت آيفز أن تحس بجمال الحياة وتشعر شعوراً غامراً بأنها تذوق طعم الجنة.

على أنها كغيرها من جنان الأرض معرضة للخطر. كانت حياة فرجينيا مهددة منذ البداية بالجنون والموت والكارثة. نحن لا نعرف هل هناك بذور خبالٍ فيها وهي بعد في تلك السنين الباكرة؟ وهل كان ذلك «الغضب الذي يحتقن وجهها به» هو من أعراض داءٍ ما نفسيّ؟ ولا كانت فرجينيا تعرف في أغلب الظن؛ لكنّ الجنون كان يجوب الشوارع. أنا أكتب هذا بإمعان؛ فالمشهد في رواية «الأعوام The Years»، حيث ترى الطفلة (روز) رجلاً يعرّي نفسه بالقرب من عمود الإضاءة في الشارع هو مشهد يقوم على تجربة حقيقية؛ كان هناك مثل هذا الرجل يتسكع

في هايد بارك گيت وقد شاهدته ڤانيسا وفرجينيا كلتاهما. وبالطبع كان الجنون في البيت؛ كانت لورا لما تزل تقيم في بيت ستيفن في سنة ١٨٩١ وكانت عبئاً كبيرةً على جوليا المسكينة. وعلى ما أعرف كانت تعتبر نوعاً من الفكاهة من أختيها غير الشقيقتين. كانتا تكتبان لها الرسائل، وتعاملانها على ما أفترض كأنها مساوية لهما؛ لكن بوسعها أن تقوم بأشياء تخلو من العقل - كأن تلقي بمقصٍ في النار بهدوء - ولا بد أن شيئاً يثير القلق بشأنها كان يحدث مع تقدم العمر. ثمة شيء أكثر إقلاقاً سيجري في المستقبل.

فقد أنزل القدر بفيتزجيمز ضربة قاصمة. كان هذا قد أنجز الكثير، إذ صار قاضياً وباروناً؛ وكان قد أنهى عمله العظيم عن تاريخ القانون الجنائي. وفي ١٨٨٩ أدى تناوله لإحدى القضايا الحساسة الشائكة إلى تهجم الصحافة عليه، فنُصح في ١٨٩١ بأن يتقاعد ففعل. في هذه الأثناء إكتنفت الكارثة إبنه الثاني جي. كي. ستيفن.

نرى هذا الشاب واقفاً، في لوحة زيتية بريشة الرسام تشارلز فيرز Charles Furse، وفي عروة سترته زهرة حمراء وهو يحدق بسكينة في معلمي كلية كنغ في صالتهم، فنجد أمامنا شخصاً ضخماً، قوياً، طليق السريرة محبباً إلى النفس. بعد أن نجح نجاحاً هائلاً في إيتون كطالب علوم وكمشارك بارز في الرياضة صار زميلاً في كليته؛ كان يكتب أشعاراً خفيفة مبتكرة جداً جلبت لبّ المدينة وقتئذٍ، ولما تزل قصيدته المعنونة Lapsus Calami غير منسية حتى الآن؛ لا بد أن فيتزجيمز كان فخوراً به جداً.

في ١٨٨٦، حين كان هذا الشاب يزور بلدة فيليكستو Felixstowe أصيب بحادث لا تعرف طبيعته بصورة مؤكدة. يقال في أوساط أسرة ستيفن أن نتوءاً من قطار متحرك ضربه. أصيب في الحادث بِرأسه، ومع أن الأذى لم يبدُ خطيراً لكنه كان في الواقع فتاكاً فقد أخذ الشاب يصاب بالجنون.

هرع ذات يوم إلى غرفة الصغار في الطابق الأعلى في منزلهم في هايد پارك گيت وسحب النصل من قائم سيف وغرزه في الخبز. وفي إحدى المناسبات حمل فرجينيا وأمها حملاً إلى شقته في حدائق دي فير؛ يجب أن تقف فرجينيا أمامه لكي يرسمها. قرر أنه صار رساماً ـ رساماً عبقرياً. كان في حالة جيشان فهو يرسم كالمأخوذ، وكان مأخوذاً حقاً. وذات مرة ساق عربة يجرها حصان واحد وظل يسوقها طوال النهار بانفعال شديد حتى أتى بها إلى منزل عمه لزلي. وجاء إليهم في يوم آخر عند تناولهم الإفطار ليعلن لهم ببساطة ومتعة أن الطبيب قد أخبره بأنه إما أن يموت أو أن يجن جنوناً مطبقاً.

لكن أصعب الأمور وأشدها إيلاماً في وضعه المختل أن هذا الجنون أدى به إلى ابتغاء ستيلا وإلى طلبها حثيثاً وبعنف. طلبوا من الصغار أن يقولوا كلما جاء إبن عمهم أن ستيلا ذهبت تزور بعض الأقارب في الريف. أما والده فيتزجيمز فقد رفض أن يقر بأن إبنه مجنون؛ فإذا كان مثيراً للمتاعب في بيت عمه فما على لزلي إلا أن يرفض استقباله دون أن يراعيه.

قالت جوليا: «لا أستطيع أن أغلق بابنا بوجه هذا الشاب». كان لدى جوليا من السطوة ما يجعلها تتحكم فيه حتى في أعتى

أطـواره، وقـد فعلت مـا في وسعهـا من أجله حتى وفـاتـه في شباط ١٨٩٢. مات أبوه بعده بسنتين محطم القلب.

كانت ستيلا، موضع هذا الهيام التعيس، شخصية من أهم الشخصيـات في حياة أختيهـا غير الشقيقتين. كـانت تنـوب في الأعمال مناب أمها وكانت هذه تعوّل عليها في ذلك ولكنها لم تكن البنت المفضلة لديها بأية حال. لم تكن ستيلا ذكيـة جداً لكنها كانت تتمتـع بحكمة أنثـوية، وهي لـطيفة ورقيقـة وهادئـة وجميلة؛ أقل جمالاً بالمعنىٰ الدقيق للكلمة من أمها لكنها كانت ذات حسن غير متمنّع خلافاً لما كان عليه حسـن أمها جوليا[1]. وقد خطبها عدد من الأشخاص اللائقين، وكان أكثرهم تصميماً جـاك هيلز Jack Hills الشاب الـذكي، اللامـع، المعتمد على نفسه. عرض عليها خطوبته خلال صيف ١٨٩٤ فرفضته لسببٍ أو آخر. كان هـذا قراراً غيـر حكيم كما ستثبت الأحـداث ولعلها شعرت قليلاً بعدم الحكمة في قرارها هذا، لأن الصغار سمعوها تلك الليلة تبكي في الغرفة المجاورة. لا بد أن هذه كانت واقعة تثير القلق، وفي ذلك الصيف حدثت لهم أمور أخرى أقلقتهم.

---

(١) لحظها الرسام هولمان هانت Holman Hunt وكانت عينه تشخّص البنت الحسناء، فجلست له ليرسم الرأس في لوحته the Lady of Shalott (المحفوظة في معرض الفن بمانشستر). ثمة دراسة تخطيطية (مجموعة إليزابيث بيرت Burt) لكنها لم تستعمل في الرسم النهائي. أنظر كتاب ماري بنيت Bennett المعنون «وليم هولمان هانت» الصادر في ١٩٦٩، ص ٥٧، وكتاب هانت نفسه المعنون «ما قبل الرفائيلية وأخوّة ما قبل الرفائيلية» الصادر في ١٩١٣، المجلد الثاني، ص ٣١٠.

إشترى أحد الأشخاص الأرض الكائنة مقابل «بيت تالانـد» وبعد قليل قام أمامه فندق صبغ بلون حساء الـزؤان وأدار ظهره نحوهم ومحا منظر البحر. فهل يجدر البقاء هناك؟ إن امتلاك بيت على هـذا البعد من لنـدن أمر ثقيـل العبء وباهظ التكـاليف؛ والنفقات تشغل بال لزلي دائماً وهي في تزايد باستمـرار. ثوبي يذهب للدراسة إلى كلفتون وأدريان يجب تعليمه كذلك. أعلنوا عن تأجير ذلك البيت، فلم يستجب أحد للإعلان، ولم يكن ذلك سوىٰ إرجاء للأمر. كانت أبواب الفردوس تنغلق.

كان هذا في سنـة ١٨٩٤، ولكننا إذا راجعنـا عدد كـانون الثاني ١٨٩٥ من جريدة أخبار هايد پارك گيت، وقد توقفت عن الصدور ثلاث سنوات، نجد أن فرجينيا لم تعد طفلة وهي على وشك الاحتفال بميلادها الثالث عشر. إن اليد التي تكتب تلك الصفحـات يدٌ أكثـر رشـداً، وإن لم يكن الخط سهـل القـراءة دائماً[١]. إن إملاءها يتبع السنـة القديمـة ولغتها صحيحـة على العموم أما مقالاتها ومحاولاتها في الأدب القصصي فتمارين جادة قائمة على نماذج معترف بها[٢].

---

(١) بعض الصفحات المنسابة، المنتظمة، هي بخط ڤانيسا بشكل واضح؛ وبما أنها نفت دائماً المساهمة في الجريدة فإنها عملت إذن كناسخة.

(٢) المقتبس التالي من رسالة كتبها أدريان لأمه في شباط ١٨٩٤ تعطي فكرة بسيطة عما كانت تقرأه فرجينيا أو في الأقل ما ظنت أنه ينبغي لأدريان قراءته حين كان هو في الحادية عشرة وهي في الثانية عشرة. «قـولي لجينيا [مختصر فرجينيا] إنني لم أبدأ بأي كتاب لتنيسون أو وردز وورث أو أي من المؤلفين الذين ذكرتهم، لكنني بدأت بكتاب عنوانه (عالم المغامرات)»...

وكما هو متوقع فإن فتنة الأعداد السابقة ومرحها قد تبددا. هناك أحياناً جملة أو مزحة أو تعبير ينبيء عن أسلوبها في الكبر؛ لكن الإنطباع العام إنطباع مسطح. إنها لم تزل تكتب لجمهور من الراشدين؛ لكنها قد بلغت الآن عمراً تشعر فيه بالحرج فتؤثر السلامة. نجدها تحاول كتابة رواية عن أصوليات السلوك؛ وتكتب مقالاً تصف فيه حلماً كانت فيه الله ذاته. هاتان المحاولتان مثيرتان للاهتمام، لكنهما تنمان كذلك بوضوح تام عن عمل فتاة تقوم بدراسة بالغة الجدية للأدب الإنكليزي.

والأنباء الصحفية هي بدورها من النوع الخاص بالكبار أكثر مما كانت عليه في الأعداد السابقة. ثمة سرد لأداء تمثيلي في مسرح ليسيوم Lyceum وتقرير عن زواج قريبة فرجينيا، ميليسنت فوغان، فقد تحقق الآن سعيها خلال «العالم الفسيح بحثاً عن زوج» فانتهى أمرها بسلام بزيجة رائعة. هناك عدد من الإشارات إلى المناخ القاسي جداً، وتقرير طويل وقدير عن اجتماع عقد في مانشون هاوس لغرض إنقاذ منزل كارلايل في چلسي من «أنياب الزمن».

في ٤ آذار نجد في تلك الجريدة «أن السيدة لزلي ستيفن طريحة الفراش في الأسبوعين الماضيين مصابة «بالأنفلونزا»، وفي ١٨ آذار نجد أنها تستمر في التحسن. أما في ٨ نيسان، وهذا العدد هو آخر أعداد جريدة «أخبار هايد پارك گيت»، فنقرأ أن جورج وجيرالد وستيلا سيسافرون إلى خارج البلاد خلال ثلاثة أيام.

كانت السيدة جاكسون قد كتبت قبل ذلك بخمس سنوات إلى

الصغار تناشدهم ألا يسببوا المتاعب لأمهم. وهذه مناشدة حكيمة، فإن أسرة مؤلفة من عشرة أفراد تجابه فيها الأم المخلصة جداً مشاكل جمة حتى في ذلك العصر الذي كانت فيه الخدمة المنزلية رخيصة الثمن. ثمة عدد من الأعباء الأخرى كانت تقع على عاتقها. ما من أحد طلب العون إلا إتجه إليها عارفاً أن طلبه لن يرد. وجدت فرجينيا على منضدة أمها بعد وفاتها الرسائل التي وردت ذات صباح إلى «بيت تالاند» فأرسلت إلى لندن للإجابة عنها. هناك رسالة من إمرأة راحت إبنتها ضحية خيانةٍ ما، ورسالة من إبنها جورج، ورسالة من أختها ماري فيشر، ورسالة من ممرضة لا تجد عملاً؛ ثمة رسائل تطلب العطاء، وهناك عدد من الصفحات من فتاة تخاصمت مع والديها. الجميع يطلبون نوعاً من العون أو التعاطف، والجميع يعرفون أنهم سيحصلون عليه منها. كانت تجد الوقت والوسيلة، بصورة من الصور، لتقديم الغوث والسلوى. كانت ستقول بارتياح مساء السبت: «شكراً لله، لا يوجد الليلة بريد»! فيجيبها لزلي محتجاً: «لا بد من نهاية لهذا، جوليا». ولكن مثل هذه الاحتجاجات، كما يعلم زوجها جيداً، كانت عبثاً، والأنكى أنه هو نفسه كان أثقل أعبائها.

كانت سعادة بيت ستيفن مستمدة أساساً من معرفة صغارهم بأن الوالدين يحب أحدهما الآخر حباً عميقاً يتسم بالهناء. تلك كانت حقاً النار الهادئة التي يستمد منها الجميع حرارة السلوان. لكنها كانت أيضاً الوسيلة التي بها يؤول البنيان إلى رماد. كانت جوليا، بالرغم عن أعمالها الخيرية وإلتزاماتها كأم تعيش بالدرجة الأولى من أجل زوجها؛ إن الجميع يحتاجون إليها لكنه يحتاجها أكثر من الجميع. ونظراً إلى مزاجه وإحتياجاته كانت هذه مهمة

أعظم من أن تقوم بها حتى أكثر الزوجات بطولةً؛ فصحته وسعادته يجب ضمانهما؛ وجوليا يجب عليها أن تصغي له وتشارك في قلقه عن المال والعمل والسمعة وتدبير أمور المنزل؛ ويتوجب تحصينه وحمايته من العالم. فقد كان، كما قال هو شخصياً، رجلاً بلا جلدٍ عليه، لذا ينبغي ألا تمسّه إلا يدها المداوية، الآسية.

كانت صحته مرتبطة بالضرورة بصحتها، وفي فترة زواجهما التي دامت سبع عشرة سنة لم تكن صحته جيدة تماماً فالجهود التي بذلها لإخراج «معجم السير القومية» قد أضنته؛ رأت فرجينيا أنها وأدريان قد حشرا فحطما في رحم تلك الأسفار المهمة. إنهار لزلي فجأةً في سنة ١٨٨٨؛ وكانت هناك نوبة أخرى في سنة ١٨٩٠، ومرض مرةً ثالثة في سنة ١٨٩١. كان يعاني من الأرق ومما كان يسميه «نوبات الفزع»؛ فكان على جوليا أن توقظه من نومه لتواسيه. وفي تلك السنة أقنعته بأن يتخلىٰ عن عمله الخاص «بالمعجم»؛ هذا العمل يحطم حياته. ولكنه كان يعاني كذلك من القلق الفظيع المستمر بشأن الأمور المالية[1] وهنا أيضاً يجب على جوليا أن تواسيه وتطمئنه بل أن تدير الأمور نيابةً عنه.

أمست جوليا، وهي بعد جميلة ولكنها مضناة ومحاصرة على

---

(١) يقال إن لزلي أخبر أدموند غوز Gosse بأنه قد تحطم كلياً؛ لم يعد هناك سوىٰ ألف باون إسترليني في الحساب. قرر غوز وآخرون من رجال الأدب القيام بشيءٍ ما؛ لكنْ كان من الضروري أولاً معرفة المزيد عن الحالة المالية لأسرة ستيفن. وقد أظهرت الإستفسارات أن الذي قصده لزلي هو أن رصيد تسهيلاته في المصرف إنخفض إلى ألف باون. أما دخله ورأسماله فلم يتغيّرا.

نحوٍ متزايد، مثقلة بمسألة الزمن. كانت دائماً على عجل، تواقةً أبداً لتوفير الوقت وذلك بالقيام بالأمور بنفسها، تواقةً أبداً لتجنيب الآخرين المشقة. هكذا إستنفدت نفسها. لقد أسرعت في جريها خلال العمر، وهي لما تزل شابة بحساب السنين، في عملٍ يتسم بإيثار الغير، وفي النهاية ذوت مقاومتها الجسدية.

كانت نوبة الأنفلونزا التي جاء ذكرها في جريدتهم قد مرت فتعافت جوليا منها، ولكنها لم تبرأ من عقابيل ذلك المرض. في أواخر نيسان هرعت ستيلا عائدة من القارة الأوربية، فحالة الأم قد ساءت كثيراً. قال الطبيب شيئاً ينذر بالخطر عن حمى الروماتزم؛ تجمّع الأقارب. في ٥ أيار ١٨٩٥ ماتت جوليا.

الفصل الثالث

١٨٩٥ ـ ١٨٩٧

قالت فرجينيا: «كان موت جوليا أعظم الكوارث التي نزلت بنا».

مع هذا فإذا كانت خسارة فرجينيا لأمها ما هي إلا ثكل غامر فإنها مع ذلك لم تكن خسارة لا تطاق. أما الفزع الحقيقي من وفاة جوليا فقد جاء مع حزن زوجها عليها. من الطبيعي، بل مما لا مناص منه، أن يكون لزلي هو الحزين الأول؛ كان أمله كبيراً، وقد بلغ الثالثة والستين، بأن تقوم بتمريضه إلى أن يودع العالم زوجة تصغره بخمس عشرة سنة (وكانت ستقوم بـذلك على مـا يرام). كان في الماضي قد تلقىٰ نصيبه من الترمّل وتحمل بذلك بصبر الرجال. فكيف يفعل به القدر هذا الآن؟ ترك لنفسه عنان الحزن أمداً طويلاً؛ كانت حياته، كورق كتابته، محـاطة بـإطارٍ أسود عميق اللون. وأخلىٰ ساعات عمله لنظم مرثيات يكيل فيها المدائح لزوجته. كتب عاطفياً دون تحفظ، مع هذا فقـد كان، كما قال شخصياً، مؤلفاً ممتهناً فلا يستطيع إلا أن يجعل ما يكتبه قابلاً للقراءة بل حتى مؤنساً؛ كان ذلك على ما أظن عزاءه الوحيد في ذلك الوقت.

لكنّ مخدّر العمل ينتهي مفعوله عند مغادرته غرفة المكتبة. قرر أن يقوم بما كانت تقوم به جوليا من تدريسٍ للبنات فتنازل عن نصف ساعات الصباح لهذا الغرض. كانت تلك تضحية كبيرة قدمها بطيبة خاطر، لكنها لم تجعله معلماً أكثر مرحاً أو أقل استعداداً للغضب. لم يؤدِ هذا الترتيب إلى إدخال شيء من الراحة في صدر أيّ فرد منهم.

أما عند تناول وجبات الطعام فكان يجلس إلى المائدة تعيساً، حائراً، وعلى شأوٍ كبير من الغم والصمم فلا يعرف ما الذي يقال، وبعد مشاجرات متتالية وقعت طوال ذلك الصيف المريع إنهار في النهاية إنهياراً تاماً فأخذ ينتحب ويئن ويتمنىٰ لو كان ميتاً، وصغاره يجلسون أمامه بحرجٍ بالغ وصمت أسيف.

نجد في الكتابات التي تركتها لنا ڤانيسا وفرجينيا عن تلك الحقبة من حياتهما أن الصورة التي تتكرر هي صورة الظلمة؛ بيوت مظلمة، جدران مظلمة، حجرات معتمة، «كآبة شرقية». أظن أنهما عنتا بذلك لا الظلمة المادية فقط بل الإطفاء العمدي للضياء الروحاني. كان الأمر بالنسبة إلى الصغار ليس أمراً مفجعاً فحسب بل غير حقيقي وتعمّه الفوضىٰ. إنهم يُدعَوْن إلى الإحساس لا بمجرد حزنهم الطبيعي بل بعاطفة زائفة، ميلو درامية، عاطفة مسرحية مستحيلة التمثيل لم يستطيعوا إحتضانها في جوانحهم.

أمسىٰ لزلي يشبه شخصاً عوّد جسده خلال أعوام طويلة من العجز ألا يتحرك إلا بعكاز ثم يجد أن سنده قد اختفىٰ فجأة. في مثل هذه الحالة الطارئة يصبح الزهد والتحفظ والنظرة الفلسفية

خارج نطاق الموضوع؛ فحين يسقط المرء يتشبث بأي شيء قد ينجيه من الكارثة كان لزلي، وهو يحاول خطف أقرب المساند إليه، قد وجد ستيلا.

كانت ستيلا حقاً سنده الشـرعي، قبلت بوضعهـا هذا دون مناقشة. كانت جاهزة للترويح والمواساة، ولطلب العشاء، وشراء الفحم أو الملابس الداخلية، ولمرافقة البنات وصيفةً لهن، وإدارة المنزل دون إنفاق مفزع، وإعداد الترتيبات الاجتماعية كلها وعلى الأخص تنظيم الموكب الطويل من الناس الحانيات اللاتي يأتين للإختلاء بلزلي، للإصغاء له، لتعزيته، ومن ثم الخروج من غرفته بعيون محمرّة دامعة وهن يثرثرن فيأتين بالمزيد من العزاء والمزيد من الدموع والمزيد من النصيحة إلى ستيلا. كل هذا كان يقدم لها على أنه واجب فتتقبله منهن بصمت؛ ولكنْ، كان مطلوباً منها في ذلك البيت، في ذلك الموسم، ما هو أكثر من هذا بكثير؛ عليها أن تصغي لإعترافات زوج أمها وتمنحه الغفران.

يقول لها: حدثت بينه وبين جوليا خـلافات، «تـافهة وغيـر تافهة»؛ يقول لها إنه لم يكن لطيفاً دائماً، ولم يكن مراعياً للغير دائماً. كان حين يتذكر أخطاءه هذه يئن ويبكي علناً. لو كان على ضميره وقرٌ كالذي عذّب كارلايل المسكين لكان أغراه بالانتحار، لكن هذا الوقـر لم يكن موجـوداً كما تستـطيع أن تشهـد ستيلا بذلك. فتشهد له ستيلا ببسالة وهي لا تعرف كثيـراً عن الحياة الزوجية للسيد والسيدة كارلايل، وتحاول بروح كريمة أن تعيـد الطمأنينة إلى نفس لزلي القلقة.

كان هذا كله صعباً على ستيلا بصورة خاصة لأن لزلي لم

يكن والدها على أية حال. إنهما لم يكونا قط متقاربين جداً، بل لعلها كانت تنظر إليه بضرب من الاستنكار. كانت محبتها كلها لأمها: فهي تريد أن تجنبها المتاعب والألم، أن تحفظ عليها صحتها، أن تحمل عنها أحياناً شيئاً من أحمالها الثقال، كانت هذه هي هموم ستيلا. أما جوليا، التي كانت تحبها أقل من الآخرين وتحب لزلي أكثر من الآخرين، فقد كانت مستعدة للتضحية بها وبالآخرين من أجل راحته، كما أنها - وهذا أنكى من وجهة نظر ستيلا - قد ضحت بنفسها وهكذا هُزمت ستيلا في النهاية في حملتها الكبيرة لإنقاذ أمها، هزمها لزلي وجوليا معاً.

في تلك الأسابيع الأخيرة، بعد أن أُرسلت ستيلا إلى خارج البلاد ممتقعة الوجه، يائسة، مترددة، وهي تعلم أن جوليا بحاجة إليها، لم تستدع إلى العودة بل إنها إستدعت نفسها وقد ساورها شك بأن رسائل أمها تخفي، وكانت تخفي حقاً، خطورة حالتها الحقيقية. وصلت متأخرة جداً فبدا لها كأنها غُبنت لا في نصيبها من حياة أمها فحسب بل في نصيبها من موتها ذاته.

مع ذلك فإنها، وهي الصبورة، المؤتمنة المعوّل عليها، غير الشاكية والراضية بالغل الحتمي لجنسها، قد تقبلت مهماتها. فرغم شحوبها الشبيه بشحوب نبتةٍ حرمت من ضياء الشمس، ورغم إخفائها للدمع الذي طالما جرى، إستطاعت أن تجد في نفسها القوة لتعين زوج أمها وأطفاله؛ على الأخص أدريان وفرجينيا. كانت هي التي تهيىء أدريان للذهاب إلى المدرسة صباحاً وتتعايش مع عادته الموروثة للجنون في فقده للقفازات والكتب والمعاطف؛ كانت هي التي صار عليها أن تعتني

بفرجينيا، تلك العناية التي أصبحت الآن، كما سنرى، عاجلةً مريعة، ومؤسية.

تفهّم إخوتها وأخواتها لأم، الذين يحبونها، هذا الوضع كله فكانوا يحاولون ما وسعهم ذلك أن يرفعوا عن كاهلها شيئاً من العبء. كانت ڤانيسا قد حصلت وهي في الخامسة عشرة على سمعة في الإدراك السليم والروح العملية. كان بوسعها أن تريح الآخرين، كما أن لـزلي نفسه قـام بمجهودات حميمـة، رائعة، لخلق المرح، لا بل لخلق إتصـال عاطفي حقيقي وصميم مـع أبنائه يمكن بواسطته إستعادة السعادة دون خيانة لذكرى زوجته، وإقامة شيء بنّاء فوق حزنهم المشترك. لذا كانت هناك لحظات يستطيع فيها لزلي، بجهدٍ عظيم، أن يكون أباً رائعاً مرةً أخرى. كانت لحظات قصيرة وقليلة. فكان على الصغار أن يعيشوا أغلب الوقت مع أبٍ هو في حالة من الكآبة المورثة لليأس والقنوط، المثقلة بالشعور بالذنب، حتى لتبدو معها تعاستهم الحادة، غير المعقدة، كأنها بإزاء ذلك ضرب من الانفراج.

كـان الأصدقـاء والأقربـاء قد اكتشفـوا، وهم يلحظون بيت ستيفن في هذا الوقت، مصدرين يشعان خيراً في شخصين كان يمكن أن يكونا على نقيض ذلك: ستيلا، وهي إبنة نموذجيـة، وجورج دكوورث، وهو أخ نموذجي. وهذا أكبر أبناء دكوورث، وهو الآن في السابعة والعشرين، شابٌ وسيم جداً، وميسور جداً، فضـلاً عن أنه لـطيف، مهذب وكـريم. كان إخـلاصـه لأختيـه الشقيقتين إخـلاصاً يحتـذىٰ. فهو يقـدم لهما الهـدايـا ويتجشم المتـاعب التي لا تنتهي لكي يرتب لهمـا المنـاسبـات المؤنسـة

والحفلات والرحلات؛ بل يذهب معهما حتى لصيد الفراشات وهذا يمثل بالنسبة إلى شاب عصري تضحية كبيرة.

لم يكن لطفه بعد وفاة أمهم يعرف حدوداً؛ كان طبعه عاطفياً، مفتوحاً، وكان منكبه جاهزاً لكي ترخي الفتاتان رأسيهما عليه، وذراعاه مفتوحتان للاحتضان تفريجاً عن كربهما.

أما متى بدأ هذا الاحتضان الأخوي المريح يتطور إلى شيء آخر أكثر راحة لجورج وإن لم يكن أخوياً تماماً فهو ما يصعب الجواب عنه. ڤانيسا تعتقد أن جورج نفسه لم يكن مدركاً تماماً إلى أن الأمر الذي إبتدأ بعطف محض قد انتهىٰ إلى مناوشة شهوانية وقحة. كانت هناك مداعبات ومغازلات ودعس ولمس علناً حين كانت فرجينيا تراجع دروسها، ثم جرى تجاوز ذلك إلى حدود أوسع - ولا أعرف في الحق إلى أية درجة من السعة - عندما نقل جورج مودته من غرفة الدرس إلى غرفة نوم الصغار[1]، وهو يتمتع، كأخ محب له امتيازاته، بالاطمئنان إليه.

أما بالنسبة إلى الأختين فقد ظهر لهما ببساطة أن أخاهما المحب قد تحول أمام عيونهما إلى غول، إلى طاغية ليس لديهما من دفاع ضده، إذ كيف يمكنهما الكلام أو اتخاذ إجراء ما ضد خيانة كان خفاؤها مستبطناً حتى من الخائن نفسه؟ وبالنظر لما

(١) «... وهذا أدى بنا إلى اكتشاف أفعال جورج الشريرة كلها»... من رسالة لفرجينيا إلى ڤانيسا في ٢٥ تموز ١٩١١. مع هذا دونت فرجينيا كذلك تأكيد جاك هيلز بأن جورج «عاش في عفة عذرية كاملة حتى زواجه»، والأمر يعتمد على ما يعنيه المرء بالعفة العذرية الكاملة. (من أوراق ليونارد وولف).
=

كانتا عليه من الدربة في المحافظة على وضعٍ من الطهر البريء فلا بد أنهما كانتا في البداية غير مدركتين أن الإعجاب ينقلب إلى شبق، ولم ينذرهما بما كان يجري إلا شعورهما المتزايد بالإشمئزاز. ولنا أن نرجح تكتم ڤانيسا وفرجينيا الطويل حول الموضوع إلى هذا وإلى خجلهما الشديد. كان جورج دائماً عاطفياً بصورة مفتوحة، باذخاً في تودده، عديم المسؤولية في معانقته؛ كان الأمر سيقضي عيناً بصيرة وحاذقة جداً لكي تدرك أن مغازلاته تتجاوز ما هو لائق حتى عند أشد المحبين من الأشقاء، لأن التودد الذي كان يبديه عند وقت النوم قد لا يبدو أكثر من امتداد لإخلاصه النهاري. كان من الصعب على أختيه غير الشقيقتين معرفة النقطة التي يرسم الحد الفاصل عندها، ومتى يمكن التصريح بالإعتراضات، والمجازفة بإثارة فضيحة أليمة ومحرجة. وكان الأصعب من ذلك هو العثور على شخصٍ ما تستطيعان التحدث معه عن الأمر بأي شكل من الأشكال. كان الجميع، ستيلا ولزلي والعمات والخالات، سيذهلون ويفزعون ويمتعضون ولا يصدقون.

بدا لهما أن السبيل الوحيد أمامهما هو سبيل التحاشي الصامت، بل حتى هذا لم يتيسر لهما؛ كان عليهما الإشتراك في مديح الشخص الذي ينغص حياتهما، ذلك أن تحرشاته كانت تجري بمصاحبة إستحسان حماسي تسمع فيه الفتاتان رجاءً متكرراً بألا يجدهما «العزيز جورج» جاحدتين لجميله وفضله.

في السنين اللاحقة كان أصدقاء فرجينيا وڤانيسا يعجبون بعض الشيء من الاستهزاء غير الرحيم والخبث القح اللذين كانتا

تذكران به أخيهما غير الشقيق. إنه شخص يبدو سخيفاً إلى حدٍ ما، حقاً، ولكنه كان على العموم الحامي غير الاعتدائي الذي كان يتولى أمورهما، ولقد كان كذلك بمعنىً ما. كان في ظاهره امرئاً تقبله النفس. لكنه بنظر أختيه غير الشقيقتين كان يمثل شيئاً فظيعاً وبذيئاً، وعبارة عن العنصر النهائي للفساد في وضعٍ كان في الأصل وضعاً مريعاً. بل أكثر من ذلك فإنه جاء ليلوث أقدس الينابيع، وليشوه أحلامهما ذاتها. إن التجربة الأولى في أن تُحِب أو تُحَب قد تكون تجربة فاتنة أو فتاكة أو محرجة أو حتى مضجرة؛ لكنها لا ينبغي أن تكون مثيرة للإشمئزاز. فقد جاء إيروس إله الحب يخفق بأجنحة غضروفية، جاء بصورة شخصٍ يمثل الشبق الجنسي الممجوج، الزاني بالمحارم. شعرت فرجينيا أن جورج قد أفسد حياتها قبل أن تبدأ. إنها، وهي الحييّة في مسائل الجنس، قد أُفزعت منذ وقت مبكر لتنطوي في المستقبل على حالٍ من الذعر الدفاعي الجامد.

إني لا أعرف الكثير عن مرض فرجينيا العقلي لكي أقول هل كان هذا الاضطراب النفسي المراهق مرتبطاً بذلك المرض بأية صورة من الصور. من المحتمل أن جورج قد جعل من نفسه شخصاً غير مستساغ بنظرها في تاريخ لاحق، حيث ضرب القدر أسرة ستيفن مرة أخرى[1]، في حين أن «الإنهيار العقلي» الأول،

(١) ثمة أقوال أدلى بها ليونارد وولف والدكتور نويل ريتشاردز تفيد بأن تحرشات جورج وقعت بعيد وفاة أمه؛ من ناحية أخرى فإن المذكرات غير المنشورة (من أوراق ليونارد وولف) تبين بصورة تكاد تكون مؤكدة أن أفعاله بدأت، أو استمرت حتى وقت متأخر جداً، أي إلى ١٩٠٣ أو =

أو أياً كان الإسم الذي سنسميه به، لا بد أن وقع بعد وفاة أمها بوقتٍ قصير جداً.

هنا نأتي إلى فجوة عظيمة من اللاشيء، إلى ضربٍ من الفناء لا يمكن وصفه ولعل فرجينيا لا تعرف عنه إلا القليل - أو لا تستطيع بعبارة أخرى أن تتذكر عنه إلا القليل - ومع هذا فهو ذو أهمية جوهرية في حكايتها. إنها من الآن فصاعداً تعرف أنها كانت قد جُنّت وأنها قد تُجن مرة أخرى.

أن تعرف أنك قد أصبت بالسرطان في بدنك وأن تعرف أن هذا السرطان قد يعود لهو أمر رهيب جداً بلا ريب؛ لكن سرطاناً في العقل، لوثةٌ في الروح وقد ضربت المرء في سن الثالثة عشرة وظلت تفعل فعلها دائماً في محلٍ ما للبقية الباقية من عمره، شيئاً لا يختفي ولا يبتر كسيفٍ معلق فوق العنق على الدوام، فهذا لا شك أمر لا يطاق. كان ذلك لا يطاق فعلاً ففي النهاية، حين عادت أصوات الجنون لتكلم فرجينيا في سنة ١٩٤١، لجأت إلى العلاج الوحيد الباقي، ألا وهو علاج الموت. لكن عقلها يمكنه أن يصنع ندبةً تشفي وتخفي جرحها الدائم إلى حدٍ ما. إنها لم

= ١٩٠٤. ولم تكن إهتمامات جورج هي وحدها التي أقلقت فرجينيا: «إني لا أزال أرتعد خزياً عند تذكري أخي غير الشقيق وهو يوقفني على دكّة الشباك وأنا في السادسة من العمر أو نحو ذلك ليستكشف عورتي». (من رسالة لفرجينيا وولف إلى أثيل سمايث Ethel Smyth في ١٢ كانون الثاني ١٩٤١). وقد أوضحت وثيقة ظهرت بعد نشر هذا الجزء في طبعته الأولى أن الأخ غير الشقيق المشار إليه هو جيرالد وليس جورج (من أوراق ليونارد وولف أيضاً).

تقر بذكريات جنونها كلها ولا تستطيع أن تقر بذلك. إن الـذي إستذكرته ما هو إلا الأعراض الجسدية؛ فهي في مذكراتهـا عن هذه الحقبة تذكر ما جرى لها من هياج في عقلها، ومع أننا نعرف أنها كانت قد سمعت أصلاً ما ستسميه هي في مـا بعد «بتلك الأصوات الرهيبة» لكنها إنما تحدثت عن أعراض أخرى، جسدية عادة: نبضها يسرع على نحوٍ لا يطاق؛ تعرضها للإنفعال والتوتر بشكل أليم ثم تحولهـا إلى كآبـة لا تحتمل. أخـذت تفزع من الناس، وإذا حدّثها أحد إحمرت خجلاً، وصارت لا تستطيع أن تواجه غريباً في الشارع.

أوقف الدكتور سيتون Seton طبيب الأسرة[1] الدروس كلها، وأمر بإتباع حياة بسيطة ووصف التريّض في الهواء الطلق؛ عليها أن تقضي أربع ساعات يومياً خارج البيت فكان أن فرضت ستيلا على نفسها أن تأخذها إلى جولات للسير أو إلى ركوب للحافلات في طوابقها العليا.

وتوقفت جريدة «أخبار هايد پارك گيت» عن الصدور نهائياً؛ وللمرة الأولى والوحيدة تفقد فرجينيا رغبتها في الكتابة، وإن كانت أمسكت في ١٨٩٦ بدفترٍ لليوميات فترةً قصيرة. لكنها كانت تقرأ

(١) الدكتور سيتون ـ «عزيزي الدكتور سيتون» كما تسميه فرجينيا في يومياتها لعام ١٨٩٧ ـ كان محبوباً من الصغار كلهم؛ كما أنه كان مفضلاً لدى أسرة وولف في حي Lexham Gardens. بعد سنين إلتقىٰ بمـريضيه السابقين ليونارد وفرجينيا وهما الآن السيد والسيدة وولف ويسكنان الحي الذي يسكنه في رچموند حيث مات في شباط ١٩١٧ وقد بلغ التسعين. كان كما قالت ليونارد وولف «عجوزاً خَرِفاً، لكنه لطيف للغاية».

بصـورة محمومـة وباستمـرار. ومرت بفتـرة انتقاد ذاتـي فـظيع، فأخذت تلم نفسها لأنها أنانية وتافهة، وقارنت نفسها، على نحوٍ يغمطها، بڤانيسا وكانت في الوقت ذاته متوترة الأعصاب جداً.

وتخلّوا عن سانت آيفز. لزلي لا يطيق الذهاب إلى هنـاك بدون جوليا، وهكذا وربما بعد شهـر من وفاتهـا ذهب جيرالـد بالقطار إلى كورنوول وقابل أحداً ما هناك وأنهى معه المسـألة. أخذ آل ستيفن يبحثون بعد ذلك سنوياً عن مقرٍ صيفي لهم.

في صيف ١٨٩٥ ذهبوا إلى Freshwater في جزيرة وايت. كـانت تلك الحقبـة هي أحلك فتـرات حـزنهم؛ في ١٨٩٦ استأجروا بيتاً يعود لأرملة العالم الفيزيائي جون تيندال J. Tyndall ويقـع على هضبة في Hindhead، وقـد أصبح هـذا البيت هـو الإطـار المسرحي لمـا سيكون عليـه الفصل الأخيـر من القصـة الغرامية بين ستيلا دكوورث وجاك هيلز.

كان جاك هيلز من خريجي مدرسة إيتون؛ وهو ينتمي إلى أسرة محترمة جداً وذات منزلة طيبة في كمبرلاند Cumberland، لكنها على ما يظهر لم تتمكن من القيام بالكثير لهذا الشاب. كان والده قاضياً ويعتبر من ظرفاء عصره. أما أمه فكانت تقتني النفائس وتحيط نفسها بالأدباء الصغار. وأما هو ذاتـه فسيصبح محـامياً؛ كانت لديه أيضاً بعض المطامح السياسية، كما كان يهوى صيد الأسماك. إنه امـرىء نزيـه، قوي الشكيمـة، وفي لسانـه تأتـأة شديدة؛ كان عليه أن يتصارع مع كل جملة ينطقها، ومع ذلك يتمكن دائماً أن يجعل كلمته هي العليا في نهاية المطاف. لم يقبل برفض ستيلا لخطوبته، وكان له في عدم قبوله حليفاً قوياً

بشخص جوليا. كانت هذه دائماً مرتبة زيجات وصديقة للعشاق الشباب؛ كانت مؤثرة إلى حدٍ كبير في إيصال الأمور إلى نهاياتها. فبعد القطيعة الأولى صممت على إصلاح ذات البين ونجحت في ذلك إلى حدٍ ما، حتى أن هذا الشاب كان أيام وفاتها من المترددين على بيتها.

خطب جاك ستيلا مرة أخرى فرفضته مرة أخرى. ولا يسعنا إلا أن نخمن أسباب هذا الرفض الثاني، فمن المحتمل، نظراً لما جرى في ما بعد، أن ستيلا إنما أحجمت لا بسبب مشاعرها نحو جاك بل من جراء شعورها بالواجب نحو زوج أمها. لعلها لا تحب لزلي أو تحبه محبة فاترة جداً؛ ولكنه رجل يطالب ضميرها بشيء ما؛ إنه وصغاره يعتمدون عليها، وهو بالذات يعوّل عليها طلباً للقليل من الراحة التي يستطيع التمتع بها الآن. إن هجره سيكون شيئاً غير إنساني. وهكذا فاتباعاً لضميرها دون هواها أقدمت ستيلا على رفض جاك للمرة الثانية.

لكنه لم يقبل بالرفض الثاني كما لم يقبل بالرفض الأول، وليس من الصعب أن نرى كيف أن الوضع ذاته الذي جعل ستيلا ترفضه يمكن أن يمثل، من وجهة نظر أخرى، أقوى الحجج في صالح الزواج. إن من المريع أن نرى فتاة بلطف ستيلا وجمالها، فتاة خلقت للزواج والأمومة، وهي تكرس نفسها لشيخٍ قد يعيش عشرون سنة أخرى. ولم تكن ستيلا وهي في السابعة والعشرين لا بقدرٍ من الشباب ولا بقدرٍ من الكهولة يمكّنها من أن تضحي بوقتها بسهولة.

لئن كانت ستيلا قد سمعت بمثل هذه الحجج فلا بد أنها

تراخت، مهما تكن استقامتها الخلقية قوية، فتأوهت في باطنها آهة تفيد القبول وتناقض تصميمها الظاهري على الإستمرار في درب الواجب المضني، الأليم، الذي وجدت نفسها ملتزمةً به. وهناك إعتبار آخر لا شك أن المحامي الشاب قد ذكره: فڤانيسا الآن في السابعة عشرة من العمر، وقد أظهرت أصلاً درجة باهرة من الهدوء والبصيرة والروح العملية. إنها وحدها من أهل المنزل لا تعتمد على ستيلا في شيء، كما أنها ملزمة بتلبية المطالب الطبيعية أكثر بكثير من ستيلا. وبصفتها إبنة لزلي سيكون من السهل عليها أن تدير شؤونه وتتعاطف معه. من المحتمل أن هذه الحجج وأمثالها كانت قد نوقشت بين جاك هيلز وستيلا دكوورث نظراً لظروف خطوبة جاك الثالثة.

ترك الحدث الذي نعنيه إنطباعاً عميقاً لدى فرجينيا وإن كان مشوشاً. ففي ٢٢ آب ١٨٩٦ جاء جاك هيلز على دراجة هوائية إلى بيتهم الصيفي في Hindhead ولبث عندهم طوال النهار. كان يوماً صيفياً دافئاً أعقبته ليلة صيفية حارة. بعد العشاء خرج جاك وستيلا إلى الحديقة ولم يرجعا. كان لدى الصغار أيضاً ما يفعلوه هناك - صيد الفراشات - لكن جاك وستيلا تحاشيا رؤيتهم. أحسوا كأن المكان حاشد برفيف الذيول وهمس الكلام. ثمة دراما صغيرة كانت تجري - شك ثوبي بمرور قاطع طريق أو ما أشبه فزجره. حين عادوا إلى الدار أرسل لزلي بالصغار إلى الطابق الأعلى؛ كان مضطرباً بوضوح. شعر الجميع بالقلق والفزع. ثمة إحساس بالتوقع، ثمة شعور بما يشبه الخوف من وقوع الواقعة؛ إجتمع الصغار في غرفة أدريان وانتظروا. أخيراً جاءت ستيلا؛ كانت متوردة، تحمرّ خجلاً. قالت إنها سعيدة جداً...

بكىٰ أدريان؛ لعله شعر بأنه يفقد أماً للمرة الثانيـة. إنتهره لزلي معزراً. قال إن عليهم جميعاً أن يكـونوا سعـداء؛ أليست ستيلا سعيدة؟ ثم إن جوليا كـانت قد تمنت هـذا دائماً. وكتب لزلي:

«جوليا كانت ستسر أكثر منا جميعاً. وموافقتها كانت ستطمئنني إن كان ثمة حاجة للإطمئنان... لا يمكنني أن أنظر إلى زواج ستيلا إلا بثقة ورضا في أي ظرف من الظروف. إذا كان لأي شيء أن يسعدني فهذا هو؛ لكن سعادتي مسـألة تتضـاءل أهميتها سريعاً».

أجل، ينبغي لهم، بل يجب عليهم، أن يبتهجـوا، ويجب على أدريان أن يمسح دموعه. ولكنْ كيف يستطيع لزلي نفسه أن يطيع أوامره هذه بأن يفرحوا؟ فالأمر بمثابة خسارة لا تعوض؛ ثمة شيء واحد يمكن أن يجعله يتوافق مع المسألة ـ ألا تغادر ستيلا المنزل.

أما كيف جرى التوصل إلى هذا الشرط فلا نعرف عنه شيئاً ـ لعل ستيلا إستلته من عشيقها، لعـل لزلي جعله الشـرط اللازم لمباركته. على أية حال رتبت الأمور على هذه الشاكلة في آب فكان ذلك نهاية المسألة بنظر لزلي.

ولكنْ ما إن كسب الشاب نقـطته الأولى حتى أخـذ يسعى لكسب نقطته الثانية. كيف سيعيشان؟ أين سيعيشان؟ من الذي سيكون سيد الدار؟ وأخذت المصاعب تتعاظم بـاستمرار؛ ظهـر

لهم أن الترتيب الجاري ليس واقعياً. أخيراً ذهبت ستيلا إلى زوج أمها وأخبرته أن من الضروري لها أن يكون لها بيتاً خاصاً بها. ولا نعرف ماذا جرى بينهما، لكننا نعرف أن انفجاراً حدث، غير أنها حصلت على ما تريد. إنما كان لا مناص من الحل الوسط. إن ستيلا لن تذهب بعيداً؛ هناك منزل آخر متيسر عبر الشارع، سيعيشان فيه. والمسافة قصيرة لا تكاد تذكر.

لكن لزلي سيتكلم من الآن فصاعداً بنبرة متزايدة من القنوط. فهو يئن ويتأوه قائلاً: «هذا الرجل نشلني؟ كيف يمكن لستيلا أن تتزوج شخصاً كهذا؟ إن إسمه وحده شبيه بضربة السوط».

إن تلك الصفقة الأليمة صارت أشد إيلاماً بدعوى الإعتبارات التي كان يتمسك بها زمنٌ يلفظ أنفاسه الأخيرة. ولم يكن بوسع لزلي أن يتفحص جيداً عواطفه الخاصة ليدرك مدى غيرته وطبيعتها. لو كان فعل ذلك لكان إنسجم مع الوضع الجديد بالتأكيد نظراً لسجيته السامية. لكنه إضطر إلى أن ينظر إلى الأمور من خلال منظاره الذي يشوّه الأشياء: كان يرى أنهم خذلوه، وغدروا برجل أرمل عجوز مستوحد أكربه الحزن وأرداه. كان هذا تصوره للمسألة، وهو تصور شاركته فيه زمرة النسوة المؤيدات اللاتي كن يرين في ستيلا إبنة نموذجية في ما مضى فاكتشفن فيها الآن إبنة أنانية بصورة مخزية. أما ستيلا فلم تضطرب؛ كانت تتمتع بقوة الشخص المحب السعيد الذي يشكل تحالفاً قوياً لا يتزعزع.

لم تكن فرجينيا تعبأ كثيراً بجاك هيلز. وقد إزدرت زواجه على نحوٍ ما. كانت خسارة الأخت بالنسبة إليها تساوي في

أهميتها خسارة البنت بالنسبة إلى لزلي؛ مع هذا إبتهجت. ومما عاونها على إعادة النظر بالتدريج ما اكتشفته أخيراً من مصدر السعادة أمامها ـ مشهد ستيلا وهي تعود إلى الحياة مرةً أخرى. ذلك أن ستيلا التي كانت شاحبة، قاحلة، يابسة العود، قد ازدهرت وتفتحت وشعت فرحاً. لم تشهد فرجينيا قط مثل هذه السعادة التي كانت تغمر الحبيبين. وقد أخذت في سنين لاحقة تستخدم ذكرى غرام ستيلا مقاساً. إذا قيل ثمة شخصان مغرمان نظرت هل يمكن أن يقارن حبهما بحب ستيلا لجاك أو حب جاك لستيلا؛ كان ذلك الحب هو الشيء الحقيقي. لم تكن تتصور أن بوسع الكائنات الإنسانية أن تعرف مثل ذلك الجذل؛ وافترضت أن هذا ما هو إلا مظهر من نوع خاص، من نوع إستثنائي، للحب. وقد أسرّت بهذا الإعتقاد على استحياء إلى ستيلا التي لم تكن أقل حياءً منها، فضحكت وقالت إن هذا ليس شيئاً نادراً بل هو شيء ستكتشفه أختاها كذلك؛ ففانيسا فتاة حسناء وسوف «تخرج على الملأ» قريباً فتعرف الحب كما ستعرفه فرجينيا.

كانت الأمور على هذه الحال في بداية سنة ١٨٩٧، بعضها سعادة رهيفة وبعضها حزن أليم. في ١ كانون الثاني قرر الصغار البدء بكتابة يوميات. إن دفتر يوميات فرجينيا ممسوك بانتظام في الشهور الستة الأولى، ثم تنقطع الكتابة فيه مدة سنة واحدة ويوم. من هذا الدفتر نستطيع الحصول على صورة دقيقة لحقبة ستكون ذات أهمية بالغة.

تبدأ اليوميات بعطلة عيد الميلاد، فتستهل بتسجيل عدد من فعاليات التسلية ـ زيارات إلى المسارح وإلى عرض إيمائي،

زيارتان إلى حديقة الحيوان، زيارات إلى الصالات الفنية، مع لمحة أولى عن طرائف العلم الجديدة: «الحاكي» و «أشعة رونتغنز»، والذهاب إلى قاعة ألبرت ببطاقات من فئة ثلاثة پنسات. كان هناك أيضاً إحتفال من نوع آخر: مسرحية «عشاق كليمانتينا» التي كتبها ثوبي ومثلها الصغار كلهم لصالح الخادمات. كان يعلن عن مثل هذه التمثيليات دائماً بواسطة نشرات يدوية تبتدىء هكذا:

يا سكان المطبخ
هيا ادخلوا بالآلاف

كان الجمهور يتألف عادةً من خادمة واحدة، أما في هذه المناسبة فقد كانتا إثنتين: أليزابيث وفلوري، بالإضافة إلى الخادمة الفرنسية پولين. صفقن عالياً، ومع أن ثوبي قد قتل شخصياته كلها في الفصل الأخير فقد ظلت پولين تتصور أن التمثيلية هي عن علاء الدين. واستمر لزلي يقرأ في المساء لصغاره بصوت مرتفع؛ في كانون الثاني ١٨٩٧ قرأ لهم رواية أزموند؛ كان أحياناً ينشد الشعر. في هذه الأثناء عاد ثوبي إلى مدرسته في كلفتون، حيث كان تلميذاً ناجحاً بمعنىٰ الكلمة، يتبارى في الألعاب الرياضية بحماس شديد ويكتب اللاتينية على نحوٍ وعر ولكنه كفوء على العموم. في هذا الوقت بالذات سُرَّ الصغار لسماعهم العمة آني تهتف: «لزلي.. لزلي.. إبنك ثوبي فتى نبيل»!.

أما أدريان فكان ينحو منحىٰ أقل فخاراً وأقل سعادةً في مدرسته في ويستمينستر. وكانت ڤانيسا تتهيأ لدخول الكلية

الملكية في مدرسه الفن التي يديرها السيد كوپ Cope، ثم استأنفت دروسها مع والدها.

ويبدو أن فرجينيا لم تتلق دروساً منذ تشرين الثاني ١٨٩٦. كتب والدها إلى العمة ماري فيشر بعد سنة يقول في رسالة لها: «آمل أنها أحسن قليلاً، ولو أن أملي هذا يرتعش». من الواضح أنها كانت لم تزل في حالة توتر عصبي شديد. لكن الدكتور سيتون سمح لها في شباط بتلقي بعض الدروس؛ نجدها في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وهي تتعلم التاريخ واللغة الألمانية؛ في آذار كانت تدرس المؤرخ ليفي Livy، وسجلت في يومياتها «درست بعض اليونانية».

في غضون ذلك كانت فرجينيا تقرأ كثيراً. تركت في يومياتها سجلاً دقيقاً تذكر فيه البداية والنهاية لكل كتاب قرأته. لقد قرأت خلال ستة أشهر (من ١ كانون الثاني إلى ٣٠ حزيران ١٨٩٧) ثلاثين كتاباً في التاريخ والأدب والسيرة والرواية والشعر. كان لزلي يقول لها: «يا صغيرتي الكريمة، ما أسرعك في إلتهام الكتب». ثم يضيف: «إذا كان الكتاب جديراً بالقراءة فينبغي أن يقرأ مرتين». ويخاطب نفسه: «إنها تزدرد الكتاب بأسرع مما أرغب».

على أنه في هذا الوقت تقريباً توقف النظام الذي سار عليه لزلي في إعطاء الكتب بنفسه إلى إبنته. منحت فرجينيا حرية إستعمال مكتبة والدها. وقد أبلغها على استحياء أن ثمة كتب معينة في رفوف مكتبته هي ليست بنظره مما يلائم الفتيات تماماً. إنما يجب على إبنته أن تقرر بنفسها ما الذي ينبغي أن تقرأه؛ من الواضح أن الأدب كان شغفها العظيم والأدب يجب أن يقبل على

علاته مع مخاطره كلها. يجب عليها أن تقرأ بتمييز، وأن تحكم على ما تقرأه دون أن تتأثر بآراء الغير، فلا تُعجب بما يعجب به الناس لمجرد إعجابهم، ولا تنتقد عملاً لمجرد نقدٍ وجهه أحد النقاد. يجب عليها أيضاً أن تتعلم التعبير عن نفسها بأقل ما يمكن من الكلمات. هذه كانت قواعده وهذه كانت الفرصة الثقافية التي أتاحها لها. قد يكون لزلي معلماً خائباً في الرياضيات؛ لكنه عوّض عن ذلك معلماً للأدب الإنكليزي.

لا أظن أن لزلي كان قد رأى شيئاً من محاولاتها المبكرة في الكتابة عدا جريدة «أخبار هايد پارك گيت» ومقالة واحدة أخرى. ولكن سيكون هناك الكثير مما تكتبه فرجينيا لكي يراه. فقبل أن تبلغ الثالثة عشرة حاولت أن تقلد روايات هوثورن Hawthorne أو أن تقلد أسلوبه على أية حال. واتبعت في ما بعد أسلوب الأليزابيثيين، وكتبت مقالة طويلة عنوانها «تاريخ المرأة» وكان ذلك عملاً ينطوي على جهد متميز. لم يبقَ من تلك المسودات المبكرة شيء على الإطلاق.

لنا أن نتصور فرجينيا في هذه المرحلة فتاةً أكبر من عمرها، فتاةً أقرب إلى طول القامة ونحافة البدن، وهي تقرأ أو تكتب في غرفة خلفية في منزل الأسرة في هايد پارك گيت. لم تكن لديها حتى زواج ستيلا غرفة خاصة بها؛ كانت تقوم بالقراءة والكتابة إما في الغرفة الخلفية أو في غرفة الصغار النهارية حيث تجلس في مقعدٍ لها. غير أنها تستحكم، أنّى استقرت، في قلعة تتحصن فيها فلا يسهل زعزعتها منها. كان عدم إستعدادها للتخلي عن المكان الذي تعمل فيه وما يوحيه لها من إرتياح رصين، أمراً مهماً

لها وهو يظهر أكثر من مرة في يومياتها.

في كانون الثاني أجرى جاك هيلز عملية جراحية - كانت مسألة بسيطة جداً، لكنها أدت إلى تأجيل الزواج. وبعد إجرائها وضع هو وستيلا خططاً للذهاب إلى بلدة بوغنور Bognor للنقاهة، فاقترح الأهل على فرجينيا أن تصحبهما، كمرافقة على ما يفترض. كتبت في يوميتها المؤرخة ١ شباط أن هذه «فكرة فظيعة»؛ في ٢ شباط كررت هذا القول ذاته على مسامع الأهل. إنها لن تذهب بمفردها لأي سبب من الأسباب في رحلة كهذه مع جاك وستيلا. ضغطوا عليها لتغيير رأيها. لم يأتِ الضغط من أبيها بل من ستيلا. إن لزلي نفسه نظر إلى الرحلة المقترحة نظرة كئيبة. رأى أن بوغنور «مكان رديء جداً، ومجاري المياه فيها سيئة كما يقال... وإذا ذهبتُ فلعلي أذهب ليلة واحدة أو ليلتين». في النهاية إستطاعت فرجينيا أن تقنع ڤانيسا بالذهاب معها. كانت الرحلة بائسة وكان المناخ فظيعاً، حتى أن جاك وستيلا إضطرا أن يقرّا بأن ذلك المكان لا يسر الناس. حين وصل لزلي قال إنه لم يرَ في حياته قط مثل هذا الريف القبيح والجو العاطل. وأضاف: أما البحر فما هو إلا طين صرف. إن إصرار لزلي على كراهية الأمر بأسره يسهل تفسيره، فهو في وضع يدعو إلى بغض كل شيء وإلى تسقط الأخطاء كذلك في كل ما يقوم به جاك وستيلا[1]. ولكن تردد فرجينيا في الانضمام إلى

(١) ثمة رسالة من لزلي إلى ثوبي كتبها في كانون الثاني تعطي مؤشراً واضحاً عن حالته الذهنية: «إن ذوبان الثلوج مستمر، في حين أن ستيلا تريد أن تصطحب معها ڤانيسا وفرجينيا إلى التزحلق في الحدائق =

السفرة أمر أصعب تفسيراً. سأرجع إلى ذلك في ما بعد. لكن إنزعاجها يرجع جزئياً إلى التوتر الناشىء عن مراسيم الزواج.

«يومية الأحد ٢٨ آذار ١٨٩٧: في الصباح ذهبنا نحن الثلاثة، أنا وڤانيسا وأدريان، إلى الكنيسة في St Mary Abbots! هذا هو آخر أحد يقرأ فيه عهد الزواج رسمياً، لذا صممنا أن نذهب. بدأ الحفل في الحادية عشرة والنصف وانتهىٰ في الواحدة والربع. قلبنا الدار رأساً على عقب بحثاً عن كتب الصلوات والتراتيل. لم نجد إلا كتابين للتراتيل (من نظام النوطة اللوثي) وكتاب واحد للصلوات، فتركنا هذا الأخير وراءنا. قادنا رجل أسود مهذب إلى مقاعدنا في الكنيسة. وسرعان ما بدأت الموسيقىٰ والغناء، فنهض الصف الذي أمامنا، ومن خلفنا سيدة عجوز يئز صوتها وهي تصاحب المرتلين بصفير يخرج من فم لا أسنان فيه وحنجرة لا تعرف النغم ـ هكذا إلى نهاية المعزوفة ـ. في مراحل معينة وقفنا، ثم جلسنا، وأخيراً ركعنا ـ أنا رفضت أن أركع ـ. جارتي كانت تعيسة جداً، تتململ باستمرار. في منتصف الغناء قرأوا عهد زواج جاك هيلز وستيلا دكوورث مع عهود عديدة أخرى، ولم يقل أحد لماذا. . الخ كانت صلواتنا ومزاميرنا تأتي تخميناً منا، كيفما إتفق، لكن التراتيل كانت رائعة.

= النباتية. قلت إن المكان غير مأمون العاقبة لأن عدداً من الناس سقط في البركة المدورة يوم الجمعة، والذوبان سيجعل حالة الجليد أسوأ بكثير. أجابتني بأن جاك يقول المكان أمين. قلت: جاك هو ـ. كلا لم أقل ذلك لأنها ستتزوجه في ١ نيسان. وهذا يوم يناسب الحال على ما أظن».

سمعنا موعظة من القسيس الجديد ـ قال (إننا لن نسمع بعد الآن الصوت الحبيب مرة أخرى) مشيراً إلى الكاهن الراحل. العجائز أجهشن ببكاء فيه خُنّة».

ثم جاء أمر الفساتين لكي تخاط؛ وجدت فرجينيا نفسها لأول مرة في حياتها ملزمة بارتداء الحمالات، وهي أشياء لم تتمكن من إيجاد إسم لها في يومياتها. كان هناك موضوع بدلة العرس لستيلا وفساتين السفر، أما «الفكرة المفزعة» فهي أن تصبح ڤانيسا وفرجينيا من وصيفات العروس، وستيلا تكتب إلى ثوبي في كليفتون وترسل له صكاً لكي يظهر بالمظهر اللائق في الزفاف، ولزلي يعترض بألا حاجة به لشراء ملابس جديدة ـ «هل تظن... سيسمح لي بالذهاب ببزتي الإعتيادية؟ لا أرى لِمَ لا؛ لكنني أخشىٰ أن يعنّفني جيرالد». والظاهر أنه فعل. ثم كانت هناك الهدية من أبناء ستيفن إلى ستيلا لكي يبحث أمرها والنقود لكي يعثر عليها، والشيء لكي يشتري وهلمّ جرى. كانت هناك هدايا أخرى؛ وسرعان ما اكتض المكان بالدانتيل والنقوش والصحون الخ. قال لزلي «هذه أشياء تؤنسني كما تؤنسني النباتات الجافة في حدائق كيو».

> «يومية الجمعة ٩ نيسان ١٨٩٧: لم نفعل شيئاً طوال النهار سوى ترتيب الهدايا وكتابة البطاقات الخ. أمضينا الصباح بطوله هكذا. بعد الظهر ذهبت ستيلا وأبي لزيارة قبر جوليا. وأخيراً وفي حوالي الحادية عشرة ليلاً إنتهت الأمور نوعاً ما، ووصلتنا تجهيزات الملابس الداخلية. أوينا إلى

الفـراش ـ لكن ستيـلا وجـورج وجيـرالـد ظلوا ساهرين حتى الثانية صباحاً يرزمون الأغراض في غرفتها. وظل جاك في الخارج طيلة النهار ـ ثمة الكثير لنفعله فلا مجال للكآبة، وإن كانت الليلة الأخيرة قد أنذرت بأن تنتهي على نحـوٍ تعيس. على أننا تذكرنا، أنا وڤانيسا، بأننا صممنا على أن نبقىْ هادئين وأن نحافظ على رباطة جأشنا».

«السبت ١٠ نيسان ١٨٩٧

زفاف ستيلا وجاك

في الصباح هرج ومرج ـ لا بد من اللمسات الأخيرة لكل شيء ـ جاء يوستـاس، شقيق جاك ووصيفه في العرس، جاء مراراً لترتيب الأشياء مع ستيلا ـ وصلت صناديق كبيـرة من الزهـور طيلة الصباح وكان لا بـد من تنسيقها. . . لم يـذهب أدريان للمدرسة. حوالى السـاعة ١٢ وصـل آل فيشر ـ وصعدت ستيلا لترتدي حلتها. مدام أميل الحلاّقة صففت شعرها وكذلك شعر ڤانيسا ـ الله وحـده يعلم كيف إنتهينـا من الأمـر كله ـ كـان بالتأكيد أشبه بالحمل أو الكابوس. وأظن أن ستيلا كانت كأنها حالمة؛ ولعله حلم سعيد. ذهبنا إلى الكنيسة في الثانية. كان جـاك هناك، في حـال حسن، سعيد. في الثانية والربع أو النصف دخلت ستيلا مع الوالد ـ ستيلا تسير في منامها ـ عيونها

مسمّـرة باستقـامة أمـامها ـ بيضـاء جداً وحسنـاء جداً ـ وكان ثمة صلاة طويلة ـ ثم إنتهىٰ الأمر ـ جرى زواج ستيلا وجاك ـ صعدنـا ورأيناهـا تغير ملابسها ـ وقلنا لها مع السلامة ـ وهكذا ذهبا ـ السيـد والسيدة هيلز! أمـامي الآن بعض الرمـوز العاطفية ذكرى هذا النهار ـ أوراق الورد الأبيض من باقة ستيلا، وزنبق أحمر من باقتنا التي قدمها لنا جاك».

وبعـد ثلاثـة أيام، إنقضت على العمـوم في الحـديث عن الإحتفـالات الأخيـرة مـع كيثي مـاكس ومـارغيت مـاسينغبيـرد Massingberd، وهمـا من الخبيرات المعتـرف بهن في الشؤون الدنيوية كلها، غادرت الأسرة إلى برايتون. لم تكن هذه منتجعهم المفضل؛ فضلاً عن أن مسألة الزفاف بأسرها قد تركت فرجينيا في حالة إنفعال عصبي. في ١٣ نيسان أوت إلى سريرها «حانقة جداً ومتوترة كثيراً»، وفي ١٥ منه نجدهـا تأسف وتتحسـر على «كرسيّها المحبب» في منزلهم؛ ثم تشير إلى بيتهم المستأجر هذا في برايتون: «لم نشاهد في حياتنا مثل هذا المكان التعيس قط». كانت البلدة نفسها «حاشدة بالممثلات من الـدرجة الثـالثة وقـد خرجن بملابس رائعـة ـ قبعات هـائلة، مساحيق وأحمـر شفاه؛ وبصحبتهن شبان من النوع المفزع».

وكتبت في ٢١ نيسان:

«أخذنا الوالد إلى مشية عبر ساحة الإستعراض وذهب بنا هنا وهناك. يؤسفني أن أقول إن ظروفاً

مختلفة تظافرت على إزعاجي فكسرتُ مظلتي
نصفين»...

ولكننا عند التأمل في الماضي يبدو لنا هذا كله كأنه موسم من مواسم الأمل والرجاء. كانت رسائل ستيلا من فلورنسا تعد بنوع جديد من الحياة في المنزل؛ كان هناك كثير من الكلام عن الوحدة والفراق، أما الآن فإن هذا كله يبدو هذراً. فستيلا ستكون قريبة منهم جداً، في بيتٍ للشباب، بيتٍ لا تنسدل عليه ستائر الكآبة والحزن ولا ستائر العمر البائس. لا بل إن لزلي نفسه أخذ يقوم بمجهودٍ ما لتكييف نفسه للوضع الجديد. لقد أصابته أشهر الخطوبة، كما قال «بغصة أنانية في قلبه مراراً. ولكني سأكون وحشاً إذا تذمرت بعد الآن». أما ڤانيسا فقد بلغت الآن من العمر ما يجعلها تأخذ مكان ستيلا في البيت؛ وسرعان ما «ستخرج على الملأ»؛ إن مثل هذا التطور سيكون مهماً وله نتائجه وقد يكون نافعاً؛ وها هي فرجينيا كذلك، فمن الواضح أن القدر يعدّها لمهنة لزلي بالذات. أخذ على عاتقه أن يتعرف عليها على نحوٍ أفضل؛ بدأ يخبرها عن شخصيات الماضي الأدبية، المرموقة، التي عرفها حين كان شاباً يافعاً. والظاهر أن هذا كان بداية حقبة جديدة هي من أسعد الأيام في حياتهم جميعاً.

بعد ظهر الثامن والعشرين من نيسان، يوم رجوعهم إلى لندن، إستقبلهم جورج في محطة فكتوريا؛ أخبرهم أن جاك وستيلا قد عادا وإنّ ستيلا طريحة الفراش بنزلة مِعَدِية. إكتشفوا عند وصولهم إلى البيت أنها كانت حقاً في حال سيئة جداً. في التاسع والعشرين قال الدكتور سيتون أن مرضها ليس نزلة؛ بدا

عليه الإهتمام الشديد وشخّص المرض بأنه إلتهاب غشاء البطن. كانوا في ذلك المساء يعيشون كلهم في ظل كابوس خانق.

> «ستيلا أسوأ بعد الظهر ـ الألم حاد ـ. بعد الشاي عادت ڤانيسا إليها مرة أخرى (لتستريح الممرضة) فجلستُ مجدداً بين الصور الأبدية القديمة على الجدران مع مؤلفي ماكّولي وهو الشيء الوحيد الهادىء في هذا الزمن المضطرب ـ. جاء الدكتور سيتون بعد العشاء وأثار الفزع. المرض هو إلتهاب غشاء البطن ـ ستيلا يجب أن تبقىٰ في الفراش بلا حراك ـ ستأتي ممرضة أخرى، وقد فرشوا قشاً في الطريق. جاك المسكين تعيس جداً. هذه من أفظع الليالي حتى الآن. لا مفر من الفكرة ـ كل هذه الإستعدادات الرهيبة تضيف إليها ـ. الإحتكاكات مستمرة بين الجميع. نمتُ مع ڤانيسا، إذ كنت تعيسة. وردتنا أخبار بأن حالتها كانت أحسن نحو الساعة ١١ ـ ماذا سأكتب غداً»؟

كتبت فرجينيا هذه اليومية ليلة التاسع والعشرين؛ في اليوم التالي كانت ستيلا بحال أفضل؛ واستمر التحسن؛ بحلول ٢ أيار كان المعتقد أن الخطر قد زال عنها. في ١٧ أيار إستطاعت أن تخرج بالعربة للتريّض والترويح. وقيل لفرجينيا إن عليها أن ترافق ستيلا في التجول فأثار ذلك فزعها. أخذت تنظر إلى الشوارع

كأنها أمكنة قتالية. ففي ٢٥ شباط حدث لها حادث وهي في عربة؛ في ٢٦ آذار رأت سيدة على دراجتها الهوائية تدوسها العجلات؛ في ٨ أيار شهدت حادثتين في پيكاديللي؛ في ١٢ من الشهر نفسه سقط حصان من دواب الجر أمامها؛ في اليوم التالي حدث إصطدام بين حصان نافر وإحدى العربات. هل حدثت هذه الحوادث فعلاً؟ كانت حالة فرجينيا الصحية تتدهور منذ زفاف ستيلا وساءت حالتها منذ مرضها. في ٩ أيار فحصها الدكتور سيتون فأوقف الدروس وأمر بشرب الحليب وبالرياضة في الهواء الطلق مع ضرورة تناول الدواء. كانت في حالة إضطراب عصبي بالتأكيد، وأظن أنها تخيلت بعض تلك الحوادث أو بالغت فيها كثيراً؛ ولكن إحداها ـ حادثة السيدة الممتطية للدراجة الهوائية، كانت قد وقعت بالتأكيد. أما السيدة التي إصطدمت مباشرةً بعربة في شارع غلوستر فقد كان أمرها مزعجاً على الخصوص، لأنها كانت قد جاءت من الإتجاه الذي كانت ڤانيسا ستأخذه وفي الساعة ذاتها في طريق عودتها من مدرسة الفن، حتى ظن لزلي أن المصابة كانت إبنته.

غدت يومياتها طافحة بالفزع، فهو يداهمها كلما خرجت إلى الشارع؛ وهي تهزل من فزعها هذا لكنه كان فزعاً حقيقياً. لذا يمكن تفسير شيء من ترددها في الخروج مع ستيلا بميلها إلى التردد في الخروج مع أي شخص إلى أي مكان في شوراع لندن. لكني أظن أن ثمة سبباً آخر يكمن في موقفها، هو التذبذب الغريب في شعورها نحو ستيلا بالذات. فقد ترددت أيضاً في الذهاب معها إلى بلدة بوغنور في شباط، وحين أشير

على ستيلا في ما بعد أن تذهب إلى الريف للإستجمام كتبت فرجينيا:

«. . . أزعجتني جداً حين قالت يجب عليّ أن أذهب معها. قلت لها بشدة إن هذا مستحيل».

فلماذا مستحيل؟ من حق فرجينيا أن تتوقع بوغنور في شباط مكاناً لا جدوى منه؛ ولكنّ قضاء عطلة في الريف في صيفٍ لندنيّ حار جداً ورطب جداً ما كان ليضايقها لولا أنها كانت ترغب في تحاشي ستيلا نفسها.

ثمة يوميات بعينها تجعلني أظن أن الأمر كذلك. لا شك أن فرجينيا كانت مبتئسة حين كانت تخشىٰ في أواخر نيسان أن ستيلا ستقضي نحبها؛ لكنها بعد ذلك بأسبوع، حين أخبرتها ڤانيسا بأن أختهما تبدو أسمن بدناً وأحسن حالاً بالتأكيد مما كانت عليه بعد زفافها، كتبت تقول إن هذا مدعاة للرضا الشديد ولكنها إنزعجت مع ذلك «وهذا أمر غير معقول». ثم كتبت بعد خمسة أيام:

«في هذا الأحد تحسن واضح جداً عن الأحد الماضي ـ. إنما لسنا خارج نطاق الخطر على حد تعبير الطبيب. أنا غير سعيدة بصورة غامضة. قريبتنا ميا Mia موجودة دائماً ـ سوداوية وضخمة، في غرفة الجلوس، والمستفسرون المتعاطفون يمرون بين حين وآخر ـ. أما تلك البقرة فهي الآن حسنة الحال ومرحة بشكل على أشد ما يكون السخف ـ وهي تقفز هنا وهناك بعد أن تركت السرير الخ: شكراً لله، ومع ذلك ـ».

إن جملة «ومع ذلك» هذه تقدم للمرء بالتأكيد مجالاً للتكهن. يمكننا أن نقول، دون تعمق، إن من الممكن وجود أسباب كثيرة للإحتكاك بين إمرأة طيبة، متلطفة، وليست ذكية جداً، وهي تضع نفسها في موضع السلطة المبهمة - إمرأة نصفها أخت كبرى ونصفها الآخر أم بالوكالة - وبين فتاة عصبية جداً، سريعة التهيج، ذكية، وصغيرة السن، فقد كانت في الخامسة عشرة. كان هناك بالتأكيد نوع من الإحتكاك بينهما. فقد كانت صحة فرجينيا وصحة ستيلا خلال صيف ١٨٩٧ مرتبطتين على نحوٍ ما؛ كما كانت هاتان الأختان ترتبط إحداهما بالأخرى لا بشعور المودة من الجانبين فحسب بل بشعور بالذنب من جانب فرجينيا.

على أنه في أواخر أيار خفّ التوتر في أوساط الأسرة قليلاً. علموا أن ستيلا سترزق طفلاً؛ كان المعتقد أنها شفيت ودام هذا الإعتقاد رغم إنتكاسةٍ ما وقعت في بداية حزيران. وبدا أمر التمتع بأحداث الصيف شيئاً محتملاً؛ كانت أحداثاً من نوعين: عام وخاص. فالملكة إحتفلت بيوبيلها الماسي، وڤانيسا «خرجت على الملأ». ذهبت إلى حفلات شتىٰ، ورأت فرجينيا فيها فتاة حسناء جداً لكن سردها لأمور العالم الكبير لم يكن مشجعاً؛ كان العالم في رأيها بليداً على نحوٍ غير مألوف. أما يوبيل الملكة فقد رأوا فصائل الجند والخيل كما رأوا السيدة العجوز التي إرتقت العرش حين كان لزلي صبياً؛ لكن المشهد لم يحرك فيهم شعوراً عميقاً. ما من متعة يمكن الحصول عليها من أي شيء في ذلك الصيف.

> «أنا أصبح متذمرةً من كل شيء - تأثير الأعصاب بلا ريب!... الحر، الحر، الحر».

وقـد كان حقـاً صيفاً «حـرارته لا تنقـطع، وهي مصحـوبـة بالرعود، صيفاً لا تظهر فيه الشمس». واستمرت فرجينيا تقرأ في الليل مدداً طويلة بعد الوقت الذي يفترض أن تطفىء فيه الضوء؛ وكانت كتبها الليلية لهوثورن والآنسة متفورد ورسائل كاوبر؛ قرأت أيضاً ماكولي وهنري جيمز إذ وجدتهمـا يهدئـان من أعصابهـا، وكانت أعصابها بحاجة إلى مهدىء حقاً.

وصفت ڤانيسا ذلك الصيف بعد سنتين بأنه «ثلاثة أشهر من التوتر الفظيع، والبلبلة، وسوء التدبير، والكفاح الذي لا يجدي ضد سخافة ذوي السلطة في الدار». من هذا يظهر أنها كـانت تعرف عما يجري أكثر مما تعرفه فرجينيا. ولكنْ لا بد أن فرجينيا قـد أدركت أن صحـة ستيــلا لا تتحسن رغم تـطمين الأطبــاء المستمر. ما إن أصبح هذا واضحاً بالتدريج حتى تدهورت صحة فرجينيا، وصاحبت مرضها أعراض جسدية. أخذت تشكو من آلام الروماتزم، وفي الحال إرتفعت درجة حرارتها.

في ١٣ تموز وجدت فرجينيا نفسها مريضـة في بيت ستيلا حتى أن الدكتور سيتون أمرها بالتزام الفراش هنـاك. في الليلة التالية أصاب فرجينيا ما تسميه هي «بالتقلقل العصبي»، فجلست ستيلا بجنبها تربّت على جسدها وتهدّئها حتى أوشكت الساعـة على منتصف الليل. بعد ثلاث ليال أعيدت فرجينيا إلى منزلهم؛ حملها جورج مدثرة بمعـطف ستيلا وكـان من الفراء. أخبـرتها الممرضة أن ستيلا قد تحسنت، بل إن ستيلا نفسها نادتها تقول «وداعاً» حين غادرت فرجينيا منزلها. ولكنْ، في مساء اليوم التالي أجريت إلى ستيلا عملية جراحية، وفي الساعة الثالثة صباحاً من

يوم التاسع عشر من تموز دخل جورج وڤانيسا إلى غرفة فرجينيا يقولان إن ستيلا قد ماتت.

الفصل الرابع
١٨٩٧ ـ ١٩٠٤

إن فواجع أسرة ستيفن تجري، كما رأينا، بصحبة مجموعة من الصديقات والقريبات. وحين ماتت ستيلا أثبتت هذه المجموعة أنها على مستوى المناسبة: فهن يولولن نادبات حظ المتوفاة التي لا يبلغ شأوها أحد في الكمال أبداً ـ إلا أمها ـ قائلاتٍ إن ما جرى لها هو الفاجعة بعينها، وما كان أحد يستحق السعادة أكثر منها. أمسى الحزن والقنوط هما المحور العام الشبيه بالواجب؛ أصرت هلين هولاند، وهي قريبة أسرة دكوورث، على الصلاة في الغرفة التي ماتت فيها ستيلا؛ بنت العم ميا والعمة مينا والعمة ماري يحضرن على الدوام بدموع جارية. إن هول المناسبة الذي كان أصلاً بنظر الصغار عظيماً قد ضخِّم بالوسائل كلها وأضفي عليه الطابع الجنائزي باستمرار. عانت فرجينيا عناءً شديداً مما أسمته «المحزونين المروِّعين». وقد سرّت هي وڤانيسا كثيراً بالذهاب إلى بينزويك Painswick والإقامة في الأبرشية هناك، وهي وإن كانت تطل على فناء الهرفن الشهير المظلل بما لا يقل عن تسع وتسعين شجرة سنديان فقد بدت لهما

أكثر مرحاً من ظلمات المنزل في لندن بما فيه من نحيب.

وقبل أن نمضي بعيداً قد يكون من المفيد أن ننظر عن كثب في هـذه المجمـوعـة الفـاجعـة، أو في الأقـل ننـظر في بعض عناصرها، وكذلك في الجيل الأصغر الذي بدأت فرجينيا تصادق بعض أفراده.

إن بنت العم ميا نموذج من العصر الفكتوري، ذلك النموذج المتميز بضخامة الجسم وبالتذمر الفطري؛ وهي إبنة عم جوليا، وقد اشتهرت بأنها مثلٌ يحتذى في الفضائل المنزلية. إنها لا تدع يوم ميلادٍ لأحدهم يمر دون أن تقدم هدية مناسبة وتتوقع أن يكون الآخرون على هذا النحو من الدقة في رعاية قواعد السلوك؛ فإذا نسي أحد الصغار لطف ابنة العم ميا فقد أصابها بـأذى عظيم، ظاهر. إن لمن مواهبها أن تظهر مصابة بالأذى. ميا هذه تهوى جمع الأخبار السيئة ونشرها؛ وتعشق إبلاغ النـاس بالمـرض أو الموت؛ وتزج نفسها، بمودة، في كل ظرف من ظروف المسائل الأخلاقية؛ وهي مغرمة بالحزن والبكاء والتنبؤ بالكوارث.

والعمة مينا دكوورث، حماة جـوليا، كـانت ترسم بـالألوان المائية؛ سيدة عجوز، غنية وبدينة واعتيادية، وهي في هذا كله على نقيض الخالة ماري. والخالة ماري هي أخت جوليا الكبرى وزوجة هربرت فيشر وأم لسبعة أبناء وأربع بنات. يقول عنها إبنها الأكبر: «كانت أمي قديسة، ولم يخلق من هو أكثر منها إنكاراً للذات وتجرداً عن الدنيا. كانت حياتها تنازلاً مستديماً عن الراحة والهناء خدمة «للآخرين» ستوافق بنتا أختها، ڤانيسا وفرجينيا، على هذا الكلام ولكنهمـا ستضيفان تحفـظات معينة. فـأمهما كـانت

كذلك بنظرهما قديسة من نوعٍ ما، لكنها كانت أقل تشدداً بعض الشيء في قدسيتها من أختها الكبرى. وستوافقان كذلك على ما يقوله ابن خالتهما المرموق من أن والدته الخالة ماري كانت ذات جمال عظيم يضاهي جمال أمهما، لكنهما ستقولان إنه كان جمالاً مختلفاً عنه. فوجه جوليا طافح بالخير والذكاء والدعابة؛ أما وجه ماري فيكتسي بسوداوية كالتي تظهر في لوحات الرسام بيرن ـ جونز، وملامح هذا الوجه أكثر حدةً، وقسماته حزينة، مغضبة، وتكاد تكون حاقدة. كانت ماري باسلة كجوليا؛ وقد نوهت فرجينيا عن شجاعتها التي بها حملت وقر شدائد أسرتها رغم أنها سيدة منهكةً، مستنفدة، وكانت شدائدها تهدّ الجبال. أما ما كان مفقوداً فهو الدفء والمرح والفلسفة الباسمة التي تتسم بها بسالة جوليا. فضلاً عن أن مشاعرها كانت أقل نقاءً بعض الشيء؛ كان سخاؤها يقدم بمنةٍ تشعر المتلقي بما يشبه العقاب.

> «يا عزيزتي فرجينيا يجب عليك تناول هذه القطعة الأخيرة من المعجنات؛ نعم أنا شغوفة بها على الخصوص ولن يبقى منها شيء لشاي الغد؛ ولكن يسرني جداً أن أضحي بها لك».

كان هذا، برأي ڤانيسا وفرجينيا، هو أسلوب آل فيشر، وقد قالت فرجينيا: «إن آل فيشر كانوا سيجعلون من جنة عدن مكاناً لا يسكن».

هذا اللطف المعسول الكاسح جعل من زياراتهما العائلية المتكررة إلى برايتون، حيث يسكن آل فيشر، محفوفة بمعاناة كبيرة وأدى بالشقيقتين إلى بغض تلك المدينة الفاتنة أمداً طويلاً.

كانت الخالة ماري بالطبع زائرة متواصلة إلى منزلهم في هايد پارك گيت؛ كان عليها أن تستفسر، أن تلاحظ، أن تستنطق؛ كان عليها أن تعرف كيف تسلك بنات أختها، يتيمات الأم، فإن كان تصرفهن سيّئاً بنظرها وجب عليها أن تمارس سلطة الأم. كان حب استطلاعها غير قابل للإشباع، ولومها عنيفاً. شعرت فرجينيا أنها تتطفل وتدلي بالتعليقات، وتمد باستمرار مجسّات طويلة، ناعمة، متينة، وليّنة، في محاولة لجلبها وڤانيسا إلى كنف أسرتها، ولامتصاصهما واستيعابهما في نمط سلوك آل فيشر ومعتقداتهم وقواعد أصولهم.

لم يكن جانب آل ستيفن من الأسرة أكثر شعبيةً لدى فرجينيا وڤانيسا مما كانت عليه أسرة فيشر. العمة أميليا كان رقيقة ولكنها ثقيلة الظل؛ عائلة فيتزجيمز كانت فظيعة وغير ودية. أرملته الليدي ستيفن شخصية متنائية وغير مستلطفة؛ كذلك كانت كاترين البنت الكبرى - وهي أصلاً معاونة المدير في كلية نيونام Newnham، وهي كلية البنات في كيمبردج. الولدان هيربرت وهاري كانا على مبعدة بدرجة معقولة وإن كانا أيضاً من النقّادين عموماً. أما البنات الثلاث الأخر فإنهما تريانهن أكثر مما تحبان صغراهن دوروثيا (وكانت مفضلة عند لزلي إلى حدٍ ما) زائرة دائمية وغير مرغوب فيها. كانت هذه من أتباع الكنيسة العليا الأنكليكانية، فهي لا تدع فرصة تمر دون أن تؤكد دوغمات الدين المسيحي أمام بنات عمها الجاهلات.

كتبت عنها فرجينيا تقول «إنها تتكلم كل دقيقة من النهار، ولا تحتاج إلى تشجيع سوى بكلمة نعم أو لا، ولن تتوقف عن الكلام

إلا بخروجك من الغرفة». هؤلاء الشقيقات من آل ستيفن لم يكن سخيفات بل محبات للفخفخة وعنيدات وفيهن خطل، حتى قال عنهن ڤانيسا «إنهن أشد مخلوقات الله خَرَقاً في العالم، فهن يصررن على مسامحتنا مهما يكن سلوكنا سيئاً تجاههن»؛ ويبدو أنهن بنظر فرجينيا قبيحات، نتنات وكريهات على العموم.

لم يكن بوسع فرجينيا أن تحصل من أبناء الأعمام والخالات وبناتهم من آل ستيفن وآل فيشر إلا على قليل من التسلية. كانت علاقتها بالصغار اليتامى من ذرية خالتها أدلين وزوجها هنري هالفورد ڤوغان علاقة أسعد حالاً على العموم. من بين هؤلاء الصغار الخمسة كانت إيما، صغرى البنات ودرست الموسيقى، وهي صديقة فرجينيا الرئيسية ومراسلتها الأولى. لدينا عدد كبير من رسائلها إلى إيما، وهي نتاجات حية ملأى بالنكات الخاصة واغتياب الأسرة والقيل والقال، وليست رسائل ثقيلة الظل بالتأكيد وإن كانت تصور وجوداً رتيباً: دروس اللغة اليونانية، اللقاءات الاجتماعية، تجليد الكتب (وهي هواية كانت كلتاهما تقتفيها) - تلك كانت القضايا التي تبحثها فرجينيا مع إيما. كتبت أيضاً إلى شقيقة إيما، مارغريت؛ لكن هذه كرست حياتها لأعمال الخير بين الفقراء وكانت أقل كثيراً في التقارب الحميم. الابن الوحيد في هذه الأسرة هو وليم وايامار؛ وتكمن أهميته في زواجه من ماج Madge، ابنة جون أدينغتون سايموندز الذي قضى ذات مرةٍ شتاءً كاملاً في منزل ستيفن حين كانت فرجينيا في السابعة من العمر وأصبح يعرف عند الصغار باسم «الرئيس».

لا بد أن ماج هذه بدت شخصية رومانسية لفرجينيا. فقد

ترعرعت في أحضان الجبال السويسرية بجوٍ من الحرية، وكانت كاتبة، ومهتمة بالفنون بشغفٍ عميق ـ كان ثمة شيء سوداوي كئيب يكتنفها. كانت وفاة والدها في سنة ١٨٩٣ قد أصابتها إصابة شديدة رغم أنها ذات طاقة هائلة على الشقاء. ولكن هناك أيضاً شيء طفولي، متسائل، ويانع يكتنف موقفها من الحياة. كانت عصرية، مغامرة، ومتحسسة بالقيم الجمالية ـ وهي فتاة من فتيات التسعينات من القرن الماضي بكل ما في الكلمة من معنى، فكان هذا لا محالة شيئاً جذاباً؛ ثم أنها هي نفسها كانت جذابة.

والواقع أن فرجينيا كانت مغرمة بها. ففي تلك السنين المبكرة التي كانت فرجينيا فيها تفر من الذكور فراراً، كانت هذه هي المرأة الأولى التي ملكت عليها قلبها فجعلته ينبض سريعاً، بل يتوقف ساكناً، إذ أمسكت بجردل الماء في الغرفة العليا في منزل هايد پارك گيت وهتفت قائلة لنفسها: «ماج هنا؛ إنها في هذه اللحظة تحت سقفنا هذا حقاً». وقد صرحت فرجينيا ذات مرة أنها لم تشعر قط بعاطفة مفعمة تجاه أحدٍ ما أشد مما شعرت به في تلك اللحظة تجاه ماج[1]. كانت عاطفتها بالتأكيد عاطفة نقية جداً وعميقة جداً ـ نقية بكل ما في هذه الكلمة من معنى؛ كانت فرجينيا في السادسة عشرة من عمرها، ومع جميع قبلات جورج

(١) «أخبرتني فرجينيا بتاريخ حبها المبكر لماج سايموندز التي هي شخصية سالي Sally في رواية السيدة دالاواي». من «مذكرات سفر مع فرجينيا وولف» بقلم ڤيتا ساكڤيل ـ ويست Vita Sackville - West بتاريخ ٢٩ أيلول ١٩٢٨.

واحتضاناته فإنها كانت، حسب المقاييس الحديثة، جاهلة بهـذه الشؤون على نحو لا يصدق. إنها عاطفة نقية لإخلاصها ولانعدام الغيرة فيها؛ عاطفة فتاة أصغر سناً نحو إمرأة فاتنة أكبر عمراً، ولم تكن قائمة على وصال حميم.

كانت الصداقة مع إيمـا والعاطفـة تجاه مـاج من المشاعـر القيّمـة؛ وقد أتـاح ذلك لفـرجينيا شيئـاً من الانفراج في خضم العـواطف المنـزليـة التي كـانت تهب عليهم في تلك الحقبـة، وزوّدها بملاذٍ تلجأ إليه هرباً من تلك المآسي التي تنبغي أن نعود إليها الآن.

لم يحدث موت ستيلا انهياراً كلياً في صحة فرجينيا؛ لقـد كانت كما سنرى أكثر اقتدارا على مواجهة الكوارث بعد وقوعها من اقتدارها على انتظار وقوعها. كانت تبدو وقد أبلّت من دائها، فتسمح لها حالتها الصحية بالاشتراك بما أشغلها وڤانيسا كثيراً في ذلك الوقت، ذلك هو مواساة جاك. أخذت فرجينيا الآن تشهد نوعاً جديداً من الحزن ـ حزن رجل أمحل مستقبله بالمرة وهو يعاني، بالإضافة إلى ما يعانيه، من الحرمان من الحب الجسدي. كان يأتي إلى پينزويك لقضاء نهاية الأسبوع معهم أسبوعياً، وحين تـركوا ذلـك المكان ذهبـوا معه لقضـاء أسبوع في بيت والـديه المسمى Corby Castle قرب Carlisle لا لشيءٍ إلا لكي يدخلوا السرور على قلبه. كان البيت رائعاً يطل على نهر إيـدن حيث يصيد جاك السمك، وهو نهر جميل تكثر فيه أسماك السلمون، والمحيط رومانسي. كتبت فرجينيا في يومياتها:

«عشاء استغرق طويلاً بصورة فظيعة. كل شيء

فخم وغريب. جاك تعيس. السيد هيلز العجوز
سخيف. السيدة هيلز ثرثارة وغير لطيفة، سوزان
لاشنغتون ثرثارة ولطيفة جداً. ڤانيسا وأدريان
صامتان وبائسان. كل شيء بائس ووحداني.
لماذا جئنا أصلاً؟».

والحقيقة هي أنهم لم يحبوا السيدة هيلز مطلقاً، وهي لم تحبهم كذلك. كان ثمة جو من التنفّج والتكبّر والتعالي يُبث بحساب مقصود، فوجدته الزائرتان جواً ممجوجاً. والأنكى أن تضحيتهما التي يفترض أن تأتي بالعون والسلوان إلى جاك قد فشلت في أداء غرضها، لأن هذا نفسه لم يكن يدرك ما كانوا يفعلونه من أجله. عادوا إلى لندن مع جاك يتنفسون الصعداء. من الممكن مساعدته هناك على نحوٍ أفضل؛ لقد أقام في منزلهم ذلك الخريف انتظاراً لإعداد بيت جديد له، وكان في واقع الأمر فرداً من أفراد العائلة. وبهذه الصفة لا بد أنه شهد الأمور الغريبة التي وقعت هناك.

يجب أن نتذكر عند النظر في ما حدث بعدئذٍ أن لزلي أمسى بعد سنين من الترمل التعيس مستوحداً بصورة متزايدة. فقد انقطع عن المجتمع بسبب صممه وفقده أصدقاءه الذين مات منهم أحد عشر صديقاً الواحد تلو الآخر. لذا كانت لديه من الأسباب الوجيهة ما يجعله يحزن على نفسه. مع هذا كان جاك هو الحزين الأول، أما لزلي فقد كان في النهاية في مواكب الراحلين. كان بالطبع منكوباً ولكن مسلكه كان مرناً وعيناه جافتين. كانت ستيلا فتاة لطيفة، طيبة، عزيزة، لكنها لم تكن إبنته. كانت سنداً له ثم

انقطعت عن خدمته قبل موتها. كانت قد سلبت منه لكنه انسجم مع الوضع الجديد بصفته رجلاً معقولاً. كان موت ستيلا بالطبع أمراً تعيساً؛ ولزلي يتمتم «هذا الولد المسكين، ما أسوأ حاله» وهو لا يعي الألم الذي يوقعه بجاك. كان هذا يسمع هذا الكلام فيحرجه كثيراً ويغيّر مجرى الحديث. غير أن بوسع لزلي تحمل الحال، فلديه الآن سند جديد ـ ابنته الكبرى.

تقول فرجينيا إن لزلي طلب من ڤانيسا ما معناه «إذا أصابه الحزن فعليها أن تكتئب، وإذا غضب، حين تطلب منه صكاً مثلاً، فعليها أن تبكي». لكن لزلي قد ربّى بنتاً فيها من الصفات ما كان سيعتز به لو كانت في إبن: النزاهة، الشجاعة، الحزم، الصلابة. أما في بنت، التي يتحتم عليها أن تنحدر إلى شيء من المكر البارع اللطيف لصالح الرجل الذي تخدمه، التي يجب أن تجعل من ضعفها نعمةً فتكشف عن خجل آسر يصدر عن طاعة، فإن تلك الفضائل تغدو صلفاً وعناداً لا ينسجم أبداً مع الذات الأنثوية. ثمة حادثة وقعت تلك السنين ذكرتها فرجينيا تنبىء بالكثير عن العائلة وعن ڤانيسا. فذات أمسية صيفاً وفيما كانت هي وڤانيسا وأدريان يستمتعون بالمشي في الحديقة ناداهم والدهم ليلعبوا معه لعبةً من ألعاب الورق. لم يرغبوا بذلك، فلم يذهبوا إليه إلا بعد فترة طويلة ندموا خلالها. وجدوا لزلي مغموماً، مستوحداً. سألهم «هل سمعتموني أنادي؟» ظلوا صامتين، لكن ڤانيسا أقرت بأنها سمعته. فانفجر كعادته يوبّخها بصراحة مدمرة كانت فرجينيا تراها أحياناً مريعة وأحياناً مضحكة. وهكذا فبالنظر لما تتمتع به ڤانيسا من تلك الخصال الفاضلة فقد جاءت محصنةً

بأفضل مما كانت عليه ستيلا لمواجهة مطالب والدها وهجماته.

وكلمة «هجمات» ليست على ما أظن قوية جداً. وعلى أية حال فإن من الصعب إيجاد كلمة أخرى تصف مقابلات الأربعاء ظهراً حين تدقق حسابات الأسبوع. كانت ڤانيساهي المسؤولة عن تقديم الحساب، وكان يجب تدوين كل شيء بصورة مفصلة جداً وواضحة جداً، وڤانيسا التي تجهل علم الحساب كانت تجد ذلك من الصعوبة بمكان. لكن الإشكال الحقيقي إنما يحصل إذا كانت حسابات الأسبوع قد تجاوزت مبلغاً معيناً؛ وبما أن الطاهية صوفي لا تتزحزح عن التمسك بتقاليد البذخ فإن هذا هو ما يحصل دائماً. عندئذٍ يستولي على لزلي شعور بعدم الاطمئنان المالي. فهو يشعر بأن الدنيا تعاكسه وتؤذيه، يشعر بالفزع والحزن، ويصرّ على أن تعاسته يجب أن تقدر حق قدرها وأن يشاركه بها الغير، وهكذا يختلق شجاراً.

الشجار يبدأ بالأنين والتأوهات، تعقبها عبارات صاخبة ثم انفجارات غضب فظيعة حقاً حتى أن لِزلي يلطم صدره لطماً بالمعنى الحرفي للكلمة ويجهش بالبكاء ويقول إنه، وهو العجوز المسكين المحطم المترمل، إنما يطارد بصورة مريعة في طريقه نحو الخراب. يقول لهم إنهم يبغون المستحيل، وعليهم السكن في بيت آخر بسيط. ثم يخاطب إبنته قائلاً: «كل هذا وأنت تقفين أمامي كالحجر. ألا تشفقين عليّ؟ أليس عندك كلمة تقولينها لي؟» ذلك أن ڤانيسا كانت تستمع إلى ما يقوله كله بصمت. قالت بعد سنين وهي تتأمل ذكريات الماضي: «لا بد أنني كنت فتاةً مثيرة للأعصاب جداً. كنت أنتظر أمامه ببساطة

حتى يوقع الصك». كانت هناك مناسبات يجري فيها تزوير الحسابات بالتواطؤ مع صوفي لكي يستسيغ لزلي المبلغ المطلوب، ولكنها كانت مناسبات نادرة جداً. والعراك يكاد يكون حدثاً أسبوعياً، لكنه ينتهي بتوقيع لزلي للصك بيد ترتجف إشفاقاً، وهو في غضون ذلك يمثل دور الأب المحطم الجريح تمثيلاً متقناً.

كانت فرجينيا وهي تشهد ما يجري ينهشها الاستهجان الصامت. كيف يمكن لوالدها أن يتصرف على هذا النحو القاسي؟ ولماذا يخص نساءه بالهياج الهادر والعويل الصاخب؟ كان سلوكه مع الرجل في الأغلب رقيقاً، رشيداً، يولي الاعتبار للغير. وحيث ألمحت فرجينيا وعمتها كارولين إلى كاتب سيرة لزلي بأنه كان صعباً أحياناً لم يصدقهما. أعترض يقول أن لزلي كان من أكثر الرجال تواضعاً ورشداً. لقد كان كذلك مع أبناء جنسه. لكنه كان يحتاج إلى التعاطف الأنثوي ويتوقعه. كانت خطيئة ڤانيسا، التي فاقمت الوضع وجعلته أسوأ بكثير مما كان عليه أيام جوليا وستيلا، أنها لا تتعاطف. كل ما تقوم به أن تؤدي واجبها وكفى. إن فكرتها عن الواجب لا تتفق مع فكرته بأي شكل من الأشكال. كان الذي يطلبه هو تكريس الإخلاص وإنكار الذات وهذا ما لم تكن ڤانيسا مستعدة لتوفيره.

والحقيقة المزعجة هي أن إفصاح ڤانيسا في طفولتها بأنها تفضل أمها على أبيها قد اتخذ الآن صلابةً فصار شيئاً ملموساً وإيجابياً. فهي لكونها البنت الأكبر قد لاحظت الطريقة التي ضحت بها جوليا أولاً ثم ستيلا بنفسيهما من أجل راحة لزلي.

رأتهما تستهلكان نفسيهما فتموتان؛ لم تكن تشعر بالميل لاتباع قدوتهما. فضلاً عن ذلك فإن ڤانيسا لم تكن فقط أكثر ذكاءً وأشد عزماً من ستيلا بل كانت أكثر أنانيةً؛ كانت متحصنة بأنانية الفنان غير المطواعة. كان بوسعها في المرسم، في ذلك السلام المبارك الذي لا يقطعه إلا الخط الرقيق لقلم الفحم على الورق، في ذلك المناخ الممتع من العمل الشاق المترع بروائح الأصباغ، أن تتمتع بعض الوقت بوجودٍ كان لا بد نائياً جداً عن منزلهم. ذلك أنها كانت تستطيع عندئذٍ أن تقطن عالماً تكون فيه أمور بعينها ذات أهمية عظمى، كالشكل واللون، التظليل والتخطيط، حركة الأشياء تحت ظروف مختلفة من الإضاءة، واختيار الأوضاع - وهذه أمور لم تشغل قط أذهان القاطنين في المنزل. ليس بوسع لزلي بالتأكيد أن يعرف شيئاً عنها. لزلي الذي كثيراً ما تطلع من الأعالي نحو سهول لومباردي من قمم الألب الشاهقة لم يهبط قط وإن مرة واحدة إلى إيطاليا. الرسم لا يعني له شيئاً على الإطلاق. أما فرجينيا فهي ذات رؤية أوسع، لكنها كانت طوال حياتها تشعر بالتشوش والحيرة والإبهام تجاه فن شقيقتها؛ كان فنها شيئاً غريباً وأجنبياً، ولأن فرجينيا كانت كاتبة فقد كانت أقرب إلى أبيها من ڤانيسا. كلاهما يشترك في أحجية مشتركة، كلاهما لديه مشغل مشترك، وما أن شعرت فرجينيا بأن الهواية التي تحترفها هي على أشد ما تكون وضوحاً حتى تكونت رابطة حقيقية من التعاطف بينها وبين أبيها.

لكنّ فن ڤانيسا كان هو درعها؛ لقد واجهت الشدائد، وكانت كثيرة في تلك السنين، بصبر الجندي المحاصر ولكنه جندي

حسن التسلح. فضلاً عن ذلك فقد كان لديها حليف. إن جاك هيلز لم يكن يشعر بما يدعوه إلى مودة لزلي الذي فعل كل ما وسعه للحيلولة دون زواجه، ولم يوافق أخيراً إلا وهو يئن متوجعاً. والآن أخذ لزلي، كما اتضح لجاك، يوطد العزم بهدوء على استغلال الضحية الثانية غير مبالٍ أبداً بوفاة ستيلا. أسرّ جاك في پنيزويك بدخيلته لكلتا الشقيقتين، وكانت كلتاهما عازمة على الإخلاص لمهمة التفريج عنه؛ لكنه اتجه بصورة متزايدة نحو ڤانيسا. وكانت هذه على أتم استعداد للاشتراك معه في ندب وفاة ستيلا. وحين بلغ بهما الأمر حتى انتقاد لزلي كانت لديهما أفكار مشتركة.

تأخذ يوميات فرجينيا بالتلاشي في أواخر عام ١٨٩٧ ثم تغلقها نهائياً في كانون الثاني ١٨٩٨. بعد هذا التاريخ تصبح المواد التي في أيدينا نزيرة جداً. ذهبت الأسرة إلى رنغوود Ringwood في New Forest في صيف ١٨٩٨ ولا يوجد لدينا سجل لهذه العطلة. في السنة التالية ذهبوا إلى الأبرشية في وربويز Warboys على مقربة جداً من غودمانشيستر Godmanchester حيث يسكن أبناء العمومة من آل ستيفن. هنا قررت فرجينيا مرة أخرى أن تمسك دفتراً لليوميات. وهذا الدفتر مثبّط للعزيمة من نواحٍ شتّى. فهي في هذا الوقت قد شغفت باستعمال قلم دقيق الريشة جداً، وهذا أدى إلى تطوير خط دقيق، متعرج، وغير مقروء، ثم جعلته يستعصي على القراءة بلصق صفحات يومياتها على صفحات كتاب «الاستخدام الصحيح

للعقل» تأليف الدكتور أسحق واتز، أو لصقها بين صفحاته[1]، حتى غدا الأمر عبارة عن ممارسة رائعة في الصبر وفك الرموز.

تختلف يوميات وربويز هذه عن يوميات ١٨٩٧ اختلافاً كبيراً. إنها يوميات أكثر رشداً، أكثر تكتماً، أكثر ابتعاداً عن الشخصيات. لا يكاد يذكر فيها إلا نادراً الشاغلون الآخرون للمنزل، والدها، ڤانيسا، ثوبي، أدريان وضيوفهم. وهي لا تصف الناس إلا حين يكونون خارج دائرتها المباشرة؛ مثلاً مساعد الخوري في البلدة أو أبناء العمومة من آل ستيفن؛ ثمة سرد لنزهة مريعة قاموا بها مع هؤلاء، وهو من أحسن ما في اليوميات. فالغرض الأساسي هو ممارسة فن الكتابة.

> «حاشية هذه الغمامة تتوهج بالنار - تسطع وتلمع في الشرق كأنها سيف من سيوف القيامة أو الانتقام - ومع هذا فإن نورها العميق قد ذاب وتلاشى حين لامس السماء الرمادية في الخلف حتى لم يعد هناك خط واضح الحدود. هذه واحدة من الملاحظات التي لاحظتها من مشاهداتي الكثيرة لغروب الشمس - وهي أنه ما من شكل من أشكال السحاب فيه خط واحد

(١) العنوان الكامل للكتاب هو «منطق/ أو/ الإستخدام الصحيح للعقل/ مع قواعد مختلفة للإحتراس ضد الخطأ في شؤون الدين والدنيا بالإضافة لشؤون العلوم»، بقلم Isaac Watts. إشترته فرجينيا في سانت آيفز نظراً لحسن تجليده وحجم أوراقه، وكتبت تقول: «إن أي كتاب آخر سيكون أقدس من تحمّل عمليات التشقيق والتمزيق التي أنتويها».

واضــح وحــاد ـ لا يمكنــك رسم خط مستقيم بقلمك في أي مكان ثم تقول: هذا الخط يتجه إلى هنا أو إلى هناك. كل شيء يتكون من ظلال مختلفة ودرجات من الضياء ـ تذوب وتمتزج إلى ما لا نهاية ـ وليمت الفنان بغيظه!.

هذه هي النقطة المركزية للغروب، ولكن... هنــاك عظمــة أخرى، تنعكس عن الأصــل حقــاً ولكنهــا لا تقل عــظمــةً وكمالاً في النــوعيــة عن الأصل. ... إن الأصيل قــد نثر سحبــاً رماديــة كيفما اتفق في السماء ـ بعضها يتكتل الآن في حقــلٍ من سحابــة واحــدة شــاسعــة في الشــرق والجنــوب ـ أما السحب الأخــرى فتجــري كتــلاً جليدية منفردة. كلها يحمل طابع القبلة الزائلة من فم الشمس. كتل الجليد تســطع قرمــزية خــافتة اللون؛ حقول الجليد تكســرت ألواحــاً أنيقة من اللون القرمزي، لكنه لونٌ أرهف وآنق في خلفيته من الرمادي البارد الناعم.

انتهى هذا بعشر دقائق فقط ـ فحين عدنا إلى البيت كان الشرق والغرب يتشحان كلاهما بظلمة الليل ـ ما من شعاع قرمزي امتد به العمر لينبئنا بأن الشمس قد انحدرت».

من الممتع مقارنة هذا التمرين في الإنشاء الوضعي المكتوب على غرار أسلوب راسكين برسالة كتبتها فرجينيا بالخط المتعرج

الدقيق ذاتها إلى قريبتها إيما ڤوغان.

«١٢ آب ١٨٩٩

أبرشية وربويز

وربويز - هنتنغدونشاير Huntingdonshire

هذا هو كل العنوان اللازم)

ضفدعتي العزيزة

سمعنا هذا الصباح من سوزان لوشنغتون أنها ستصل حوالي الساعة ١٢/٣٠ الاثنين. لا بد أن أحداً منا سيستقبلها كما أتوقع، الأمر الذي يعني أننا لن نكون قد عدنا إلى هنا حتى الواحدة والنصف - لا أدري متى ستصلين (إذا وصلت حقاً) لكننا نتوقعك على الغداء؛ لذا ولكي أختصر وأكون في الوقت عينه واضحة: إن لم يكن كلنا هنا للترحيب بك عند وصولك إن كان وصولك سيكون قبل الواحدة والنصف بكثير فنرجو منك ألا تشعري بأنك قليلة الشأن أبداً، بل أن تشعري كأنك في بيتك - خذي القارب - أطعمي طيور النورس - زوري الأسطبل - تفحصي الصور الفتوغرافية - واستحوذي على غرف نومنا وملحقاتها. أخشى أن تقطع علينا سوزان أمسيتنا بشكل ما، لكنها ستنصرف بالتأكيد إلى فتح أغراضها والاستراحة وكتابة الرسائل؛ فضلاً عن ذلك فهي حيوانة فاتنة وتستطيع أن تعزف على

البيـانو الصغيـر عزفاً يتوخىٰ الكمـال. إن بعض النـاس، هـل أقـول النـاس المـرائين، هم من المخلوقات الوقحة القذرة الزاحفة، مخلوقات تظن أنها تستطيع العزف ـ أي نعم!.

وكمـا تـرين، يـا ضفـدعتي العـزيـزة، فـإن الانقبـاض الفـظيـع لهـذا المنـاخ لم يؤثـر في معنـوياتي. ويخـامرني الشكـل أنك ومـارغـريت ڤوغان لديكما دوافع خفية في تسويد أذهاننا بهذا الشكل. أو لعلكما لستما من ذوات الخيال وأنكما بلا روح فلا تشعران بجمال المكان. صدقيني، لم أكن قط في بيت أو حـديقة أو ريف أحببتـه بنصف هذه الدرجة ـ مع ترك سانت آيفز خارج الحساب. ذهبنا أمس على الدراجات الهوائية إلى هنتنغـدون ـ وزرنـا أقـاربنا (الليـدي ستيفن وأقاربها). وعند عودتنا نسينا همومنا كلهـا (وهي كثيرة ـ ڤانيسا وأنا نحمل كيساً من الخيوط مملوء بالبطيخ فيضرب على ركبنا دائماً) وكنـا ننظر في السماء لكي ننسىٰ الهموم، نتملّى السماء، نذوب فيها. أنت لا تعرفين سماءً إلا إذا عشت هنا. لم نعد من سكان الأرض. نحن حقـاً مخلوقون من غمام. نحن صوفيون وحالمـون ونعزف الألحـان على الهارمونيكا. هل قرأت كتاب قـريبتك أعني

حماتك عن حقل دوج[1]؟ فذلك الكتاب يصف هذا النمط من الريف هنا؛ وأنت ترين كيف تبتهج هذه الكاتبة بالأرض وهي المرأة ذات الروح الفنية. سيكون اختباري للأصدقاء في المستقبل على أساس تقديرهم للريف في مقاطعة فين Fen حق قدره. أريد أن أقرأ كتباً عنه، وأنظم قصائد غنائية فيه طوال النهار. إنه المكان الوحيد لراحة العقل والجسد والتأمل وأكل البطاطا بالكريمة والتمتع بلذائذ الحياة كلها. إنني أتحول إلى شيء أشبه ببقرة من بقرات Al - lerny المتفكرة. هذا وهناك أناس يحسبونه ريفاً ثقيل الظل وغير ممتع!!!.

انساب كل هذا من شفتيّ دون رغبتي أو علمي. لم أكن أقصد سوى أن أكون مختصرة وعملية. يا عزيزتي المسكينة ـ حين تأتين سأقول لك: هل قرأت رسالتي؟ فتعترفين أنك حاولت بالفعل قراءة قسم منها في الطريق، وستحاولين إلقاء نظرة أخرى عليها في طريق العودة. وتعترفين أنك تنتظرين يوماً مطيراً لإكمالها بأسرها. شقيقتك الكبرى تظن أن الرسالة مضرة ببصرك ومارني أبرقت لك تحرّم عليك قراءة رسائل فرجينيا. أنا

(١) «ايام في حقل دوج» بقلم مارغريت سايموندز (وهي السيدة دبليو. دبليو. ڤوغان)، ١٨٩٣.

ساخرة قليلاً هذه الظهيرة. إنه أحرّ يوم عشته حتى الآن؛ قرأت رواية طـويلة بكاملهـا؛ بدأت عنـد الإفطار صباحاً وانتهيت منها في الرابعة ب. ظـ.

الآن وقت الشاي. (كلمتان غير مقروئتين).

أنا آسفة جداً لكتابة مثل هذه الرسالة الطويلة؛ سأكتب مختصرها بحبر فاحم لكي أعوّض.

حبي للعزيزة مارني ولكلّ بنات وأبناء الأعمام والأخوال.

المخلصة لك دائماً (ف).

أرجو أن تخبرينا ببعض الأخبار: نحن متشوقون لها. (ثم بخط واضح وحروف كبيرة) هذه الرسالة لمجرد القول أن علينا استقبال سوزان لوشنغتون صباح الاثنين فقد نتأخر عليك لكننا سنعـود قبل الغداء في الواحدة والنصف على أية حال؛ نرجو أن تحسّي أنك في بيتك ـ وألا تظني أنك قليلة الشأن!

أخبار عن شخص معين وعن آخر غير معروف مطلوبة سريعاً. ألا ترين أن هذا الورق أرقىٰ كثيراً من ورقك؟».

إن هذه الرسالة، بنفسها الطويـل، وسخريتهـا، ومبالغتهـا، وانطلاقها في الخيال، لا تختلف، بالرغم من بعض الملاحظات الصبيانية، عن نمط الرسائل التي ستكتبها فـرجينيا في سنـوات

لاحقة. والذين يتذكرون محادثاتها سيتعرفون على طريقة معينة في التعبير وعلى عنفٍ معين في الخطاب، الأمر الذي يبيّن أنها وهي في السابعة عشرة من العمر كانت أصلاً شديدة الشبه بالمرأة التي يعرفونها. إنها كانت إذن بمعنىً من المعاني قد بكّرت في النضوج، وكانت أكبر من عمرها، ولكنها من جهة أخرى لما تزل طفلة قحّة بل طفلة خجولة.

في هذه الأثناء نجد ڤانيسا وقد خرجت إلى المجتمع، فكان جورج هو الذي يتولى ذلك. لم تكن ڤانيسا تستمتع بهذا الخروج على الإطلاق، أما فرجينيا فقد حسبت أن استمتاعها بمثل ذلك الخروج سيكون أقل بكثير. كانت فكرة خروجها إلى المجتمع شيئاً مفزعاً، وقد شعرت أنها ستكون أسعد كثيراً في حجرة الدراسة. كانت فرجينيا في تلك الحجرة نشطة تماماً بعد أن تحسنت صحتها فتعلمت اليونانية واللاتينية معاً. درّستها اليونانية الآنسة كلارا پاتر C. Pater وقد وصفتها فرجينيا بأنها «فاقعة اللون وذاوية» - ثم درستها الآنسة كيس Case. كانت جانيت كيس «متعمقة بكل شيء»؛ فلاحظت في فرجينيا ميلاً للإسراع نحو معنى المقطع تاركةً قواعد النحو وأصول النطق. كان على تلميذتها الآن أن تعود من البداية لتتعلم النحو مجدداً. وعلى الرغم من هذه التشديدات التي أبدتها مدرستها الآنسة كيس، أو بسببها، عرفت هذه المدرسة كيف تسيطر على انتباه فرجينيا بل تستحوذ على احترامها أيضاً. كانت تجادل، لما كانت تأخذ جدال تلميذتها مأخذاً جدياً؛ وقد أخذت فرجينيا ذاتها تهتم اهتماماً عميقاً بأفكار اليونانيين اهتمامها باللغة نفسها؛ ما لبث أخيل أن

استهواها فرأت صلته الوثيقة بالزمن الذي تعيشه؛ وهكذا غدت دروسها مناقشات تعلمت منها فرجينيا كثيراً. كتبت إلى أخيها ثوبي في تموز ١٩٠١ تقول إنها تقرأ Trachiniac وأنها أكملت Oedipus Coloneus Antigone. حدثت بعض المناوشات بينها وبين معلمتها؛ وقد حاولت إغضاب الآنسة كيس فلم تنجح. كانت الدروس بداية لصداقة عمر.

وكان ثوبي، وهو الآن طالب في كيمبردج، معلمها أيضاً إلى حدٍ ما، أو شريكها في المنازلة الثقافية على أية حال؛ يبيّن المقتبس التالي من رسالة كتبتها له فرجينيا في ٥ تشرين الثاني ١٩٠١ فكرةً ما عن مناقشاتهما:

«هدفي الحقيقي من هذه الرسالة هو الاعتراف - الاعتراف بأن أسرد كل الذي قلته في بلدة فريتام Fritham وغيرها في كلامي عن كاتب إنكليزي معين عظيم - الكاتب الأعظم - . فقد قرأت مارلو وأثر في نفسي تأثيراً أكثر مما ظننت أنني سأشعر به، حتى أنني قرأت Cymbeline لكي أرى هل أن لدى وليم شكسبير العظيم أكثر مما افترضت. فخاب ظني تماماً! لقد أصبحت الآن من زمرة مريديه - وإن كنت لم أزل أحس مكرهةً بعض الشيء بعظمته. سأحتاج إلى محاضرة حين أراك لتوضيح بعض النقاط عن المسرحيات. أعني عن الشخصيات. لماذا هي ليست أكثر إنسانيةً؟ إيموغن Imogen

ويـوستشـومـوس Posthumous و Cymbeline ـ هؤلاء أجدهم فوق مستواي. هل هـذا ضعفي الأنثـوي حين أتصـدى للعـوالم العليـا؟ كـأن الشخصيات قد قُصّت قصاً بمقص ـ هذا بقدر ما يتعلق الأمر بالإنسـانية المحض. إنهم بـالـطبع يتكلمـون كلامـاً رائعاً. وقـع نظري على أفضـل السطور في المسرحية ـ في أية مسـرحية تقـريباً على ما أحسب.

إيموغن يقول ـ تخيّل نفسك على صخرة، ثم ارمني مرة أخرى! ويـوستشومـوس يجيب ـ أيتها الـروح. . . تعلقي هنـاك كـالثمـرة حتى تمـوت الشجـرة! إن لم يثر هـذا الكلام القشعـريرة في بدنك، ولو كنت في شغل شاغل عن كل شيء فإنت لست شكسبيرياً حقيقياً! آه يا عزيزي، في الوقت الذي أشعر بالرغبة الجامحة في التحـدث إليـك عن هـذه الأمـور تـذهب أنت لتقيم في كيمبردج.

غداً أعود لقراءة بن جونسون، لكنني لن أحبه بقـدر ما أحببت مـارلو. قـرأت الدكتـور فاوست وادوارد الثـاني، ولا أظنهمـا بمستـوى الـرجـل العظيم ـ مع مزيد من الإنسانية كما لا بد لي أن أقـول ـ وليسـوا جميعـاً على مقـدار ضخم من المأساوية. بالطبع شخصيات شكسبير الصغـرى

> إنسانية؛ والذي أقوله هو أن الشخصيات الكبرى، التي فوق البشر، هي فوق البشر. فأرجو أن توضح لي هذا - وكذلك لماذا أجد عُقَدَه متهاوية؟ - ومارلو أوهىٰ، لكن ثمة سطور «مدوِّية» جداً (والكلمة لستراجي Strachey)، وكذلك الخطب والمشاهد بأسرها - حين يموت أدوارد مثلاً - . . .».

وستراجي هذا الذي تشير إليه هو أحد أصدقاء ثوبي الجدد؛ والظاهر أن ثوبي قد التقىٰ بعض الزملاء الذين يتميزون بالاهتمام في كلية ترينيتي Trinity: ستراجي كان ألمعياً وعبقريته لا ريب فيها؛ وكذلك سدني - تيرنر Sydney - Turner، وهو عبقري آخر، وكان هذا ينام النهار ويسهر الليل مكباً على القراءة، فيلتهم ميناندير Menander كما نتصفح أنا وأنت جريدة يومية؛ ووولف Woolf، رجل جامح غريب ذو ملكة عقلية قوية؛ وبيل Bell الذي ينظم الشعر ويعرف كثيراً عن الرسوم ولديه سرج جواد عظيم. وقد وجد ثوبي في فروسية بيل من المتعة مثل ما وجده في علم سدني - تيرنر، ذلك أنه ينظر إلى العالم نظرة منطقية حميمة؛ كان هذا ملحداً فحلاً، تماماً كما كان أبوه مسيحياً فحلاً. كان المثقفون يحبونه وهو يحبهم؛ ولكن كان بينه وبينهم حجاب ولكنه رقيق يمكن النفوذ منه - كانوا يلقبونه «بالقوطي» وهو لقب يعبّر عن شيء من عدم الاستحسان الودي؛ كان تقليدياً أكثر منهم قليلاً، محافظاً أكثر منهم قليلاً. وإذ كانت كيمبردج بالنسبة إليهم مكاناً يعج بالأفكار فإنها كانت بالنسبة إليه مسرحاً

للمتبع التقليدية للشباب من ذوي الامتيازات. لذا فحين نظر المثقفون هل يدعونه إلى الاشتراك في تلك الجمعية شبه السرية والثقافية جداً - «جمعية الرسل» - فقد انتهوا، بعد تمحيص وتردد، إلى أنه لم يكن حقاً «رسولياً»؛ إن مشاعره أقرب إلى بيل منها إلى «إخوان الجمعية» - وبيل هذا كان قد دعا أدنا مي Edna May للغداء في شقته في ترينيتي، وكان يمتطي صهوة جواده إلى نيوماركيت ولم يكتف بدراسة أعمال مور G.E. Moore فحسب بل درس أعمال سورتيز Surtees أيضاً.

كانت كيمبردج آنئذٍ مكاناً مخصصاً للرجال بالتأكيد فلا يمكن أن تدخله النساء إلا كمتطفلات خجولات في مراتٍ نادرة فقط؛ وكانت تبدو، كما يفهم من أقوال رجل مثل ثوبي، مناوئة للمرأة مناوءةً عدوانية لا تطاق أبداً. ولا بد أن هذا كان قد حفز فرجينيا إلى كثير من التأمل الجدي. إنها وشقيقتها قد تقضيان الصباح في دراسة اليونانية أو في المرسم؛ أما أوقات ما بعد الظهر والمساء فهي تخصص إلى تلك المهمات التي يراها رجال الأسرة لائقة: العناية بالمنزل، تقديم الشاي، المحادثة، التلطف مع جورج وجيرالد وأصدقائهما، التأدب مع العمة مينا والخالة ماري والعمة آني وبنت العم ميا والليدي ستيفن وأصدقاء لزلي ومعجبيه جميعهم. إن الحريات الثقافية الكبرى وما فيها من مغامرات فكرية تقتصر على ثوبي وستتاح بعد ذلك إلى أدريان، فإذا كان هذا يكلف مالاً، كما كان يكلف فعلاً، فسيضحىٰ بالبنات لمصلحة البنين. كان واضحاً أن هؤلاء البنين هم الذين يتمتعون بحصة الأسد في الحياة.

«إني لا أجـد من يحاججني الآن، وأشعـر بـالحاجـة إلى ذلـك. عليّ أن أنقّب في الكتب وأغترف منها، بشكل عسير وبمفردي دون معين، وهو ما تحصل أنت عليه كل مساء وأنت جالس إلى الموقد تدخن غليونك مع ستراچي.. إلخ. ولا عجب أن معـرفتي مـا هي إلا معـرفـة قليلة محدودة. وأنا على ثقة من أنه ما من معلم مثل الكلام. مع هذا فأنا أبذل جهدي مع شكسپير. قرأت حياته بقلم سدني لي Sidney Lee.

لكن حياة شكسبير لسدني لي ليست بديلاً عن المحادثة مع ستراچي، كما كانت فرجينيا تعلم جيداً. لقد ظلت طوال حياتها تعتبر نفسها رديئة التثقيف وتشعر بأن هذا ما هو إلا إساءة أصابتها بسبب جنسها. وسيتكشف هذا الظلم نظراً إلى ما كانت تجري عليه الدنيا فيصيب فرجينيا وڤانيسا إصابة شديدة.

ففي نهاية السنة الأولى من دراسة ثوبي في كيمبردج أمضت الأسرة الصيف في فريتام في نيوفوريست، وحدث هناك أن انتحى جورج بفرجينيا جانباً في إحدى الأمسيات في الحديثـة وحدثهـا حديثاً جدياً عن ڤانيسا. أوضح لها أن ڤانيسا تتصرف بشكل غير متزن. إنها تجتمـع أكثر ممـا يجب بجاك هيلز. وهـذا بالـطبع يخالف الحصافة كثيراً وقد بدأ الناس يتقولون فهل بوسع فرجينيا أن تستخدم نفوذها مع شقيقتها؟.

لم تكن فرجينيا على إدراك لما كان يجري. كانت تلاحظ حقاً أن جاك يجتمع بأختها أكثر مما يجتمع بها. لكنها لم تدرك

أن مشاعر التعاطف لدى ڤانيسا كانت قد تحولت إلى شيء أكثر شغفاً. كانت ڤانيسا في حقيقة الأمر قد شغفت حباً بجاك، وكان هذا مستعداً أن تؤثره الفتاة بحبها.

هل تصور جورج المفارقة الكامنة في هذا؟ ربما لا. لا بد أنه كان مثقلاً بفزع يمكن للمرء أن يفهمه، ناهيك عما في قلبه من غيرةٍ ما. كان القانون النافذ يومئذٍ - وقد عُدِّل في سنة ١٩٠٧ - يحرّم على الرجل أن يتزوج من أخت زوجته المتوفاة. جرت محاولات متعددة لجعل مثل هذا الزواج شرعياً. فقد أقرّ مجلس العموم مراراً مشاريع قوانين لهذا الغرض، لكنّ مجلس اللوردات كان يقاوم بوحيٍ من الكنيسة إرادة المجلس المنتخب حتى سنة ١٨٩٦. ثم قدِّم اقتراح إلى اللوردات صيغ بشكل يرضي قسماً كبيراً من رجال الدين فأقر. غير أن اللورد سالزبري، رئيس الوزراء، صوت ضده، فلم يصل الاقتراح إلى مجلس العموم قط، بتأثيره دون ريب. ولو وصل إليه لكانت هذه السيرة التي أكتبها الآن مختلفة جداً، ولكانت كذلك تكتب من لدن شخص آخر غيري.

وبالنظر إلى هذه الملابسات القانونية فإن أية علاقة غرامية بين ڤانيسا ستيفن وجاك هيلز تعتبر بالضرورة عملاً ينطوي على ارتكاب الإثم، وتؤدي بالنتيجة إلى الفضيحة. وقد بدا أن تحويل عاطفة بريئة إلى شعور آثم بسبب عدم كفاية وقت البرلمان، أو بسبب الاعتبارات السياسية لرئيس الوزراء، وكأنه عين الخطل في الأخلاق الحكومية. كما أن كون البرلمان هو وحده الذي يستطيع أن يجعل ڤانيسا إمرأة شريفة كان أمراً أدى بها إلى التساؤل، وهي

التي لديها شكوكها دائماً عن البرلمان، هي أن لكلمة «الشرف» معنىً كبيراً حين تستعمل على هذا النحو؟ وقد توصلت بعد جهد إلى نتائج شبيهة بالنتائج التي توصل إليها أصدقاء ثوبي، وكانوا يرون أن الفضيلة لا تكمن في مجرد الطاعة للقواعد أو في موقف التقديس للتقاليد الموروثة بل تكمن في حالة ذهنية؛ فقررت ڤانيسا أن حالتها الذهنية لم يكن لها علاقة قط بالحزب الحاكم في البلاد.

وللمرء أن يتصور أنه ما من شيء من هذا قد خطر أبداً على بال جورج، ولا كان هذا سيوليه أي اعتبار لو خطر له. إن كل ما يعرفه، والذي يحتاج إلى أن يعرفه، هو أن «الناس سيتقولون». إن مصالحه ستمس، وإن مهنته ستتعرض للخطر. أما أخته غير الشقيقة التي كان يأمل أن يقدمها للناس كغُنْمٍ اجتماعي - فلعلها تستحوذ، بطلعتها البهية على ابنٍ ما لأحد الدوقات - فإنها ستصبح غُرْماً اجتماعياً على نحوٍ مدمِّر. ولكن جورج ذهب بالتأكيد إلى أبعد من الحسابات الذاتية النفعية. إن علاقة من هذا النوع ليست هي «الشيء»، وجورج يعبد «الشيء» بإخلاص تام وحماس شديد دون أن يتساءل أبداً ما قد يكون عليه هذا الشيء في حقيقة الأمر. وحين انتحى بفرجينيا جانباً ذلك المساء، في فريتام كان مقتنعاً بلا ريب بأنه إنما يتصرف لصالح الأخلاق ولصالح الأسرة وبالطبع لصالح ڤانيسا نفسها.

لم تعرف فرجينيا، وقد أُخذت على حين غرة، ماذا تقول، وشعرت بالصدمة، فمضت بنية حسنة إلى شقيقتها وعرضت عليها متلعثمةً آراء جورج. «أنتِ أيضاً تأخذين جانبهم إذن!» كان هذا

جـواب ڤانيسا؛ وكان جواباً مريراً يمس شغـاف القلب، وجوابـاً فعّالاً أيضاً، إذ تجلّى لفـرجينيا فـوراً أنها وشقيقتهـا هما بمثـابة الشخص الواحد، يداً بيد كما هو أمرهما دائمـاً في كفاحـاتهم كلها.

كـانت الفئة المضـادة لهما فئـة قويـة: جورج لـه عدد من الحلفاء. ولكن علينا أن نقول أن هناك نقـطة ضعف بعينها في تلك الفئة؛ فقد رفض لزلي، بعظمة روحية تستحق أن تسجل له، أن ينضم إلى قوى الأخلاق العمـومية السـائدة، رغم تـوسلات جورج. على ڤانيسا، بنظره، أن تقرر هذا الأمر بنفسها. على أن الوضع كان قاتماً بالنسبة للآخرين. رأت فرجينيا، ولعلها كانت متحيزة، أن جاك نفسه يتحمل مسؤولية ثقيلة؛ فقد شجع ڤانيسا واستمد من لطفها السلوان دون اعتبار للثمن الذي يترتّب عليها دفعه. كان جاك بنظرها أنانياً يتصرف بـلا تفكير شـامل وبحبٍ رجاليّ للذات. أما الذين يلوّحون بسـوط التعذيب فهم ينتمـون بالطبع إلى فريق جورج وهم يتألفون من زمرة القريبات. كانت ماري فيشر خبيثة على الخصوص ـ وهذا على حد قول فرجينيا مرة أخرى ـ. لقد كانت بنظر الأختين خبيثة حقاً حتى أن ڤانيسا أخذت تتجنب خالتها بل تصد وجهها عن آل فيشـر كلهم حين تلتقيهم في الشارع. أدى هذا السلوك إلى تقريعها من ثوبي. أمّا كم كان هذا يعرف عن المسألة كلها فأمر غير واضح ـ ويبدو أنه لم يكن يعرف إلا القليل جداً عما كان يجري لشقيقتيه ـ ولكنه كان يعرف على أية حال ما هو الاحترام الذي ينبغي إظهاره لخالته فأعلن بهدوء مهيب تشوبه قوة نارية مهيبة بأنه يرى أنه من غير

الصواب معاملة خالته على تلك الشاكلة. كان ثوبي بجانب السلطة - السلطة الرجالية؛ فإذا أراد جورج أن تذهب الفتاتان إلى الحفلات فيجب عليهما أن تذهبا؛ إذ تطلب الوالد التعاطف فيجب عليهما أن تكونا متعاطفتين. نشأ هذا الموقف لعدم وجود تفسير للأمور يجري بين ثوبي وشقيقتيه. فالجنس محرّمٌ ذكره، والموتى محرمٌ ذكرهم، وعواطفهم محرمٌ ذكرها؛ وهم كلهم من الحياء بحيث لا يصرحون بشيء. لا شك أن ڤانيسا كانت قد بلغت آنئذٍ الدرك الأسفل من اليأس رغم ولائها لشقيقها ثوبي، لا سيما وأنها كانت متحفظة إلى أبعد الحدود في بحث شؤونها العاطفية الخاصة فلا تناقشها مع أحد من الناس.

علينا أن نتصور هذا كله إزاء خلفية من المواعيد البسيطة والرتابة المتواصلة. كانت الحياة خلال السنوات ١٨٩٧ - ١٩٠٤ في منزلهم في هايد پارك گيت أشبه بما يلي: تبدأ ڤانيسا نهارها بركوب جواد أهداه لها جورج وذلك في مضمار السيدات. الإفطار في الثامنة والنصف، أولاً ڤانيسا وجيرالد، ثم لزلي وأدريان، وهذا الأخير متأخر عادةً في الذهاب إلى المدرسة وقد نسي نصف حوائجه، والآخر يدمدم لعدم وصول رسائل إليه (يقول: نسيني الجميع) أو يتذمر غضباً من قوائم الحساب (يقول: بيتنا سيتحطم). ثم تنزل ڤانيسا إلى الطابق التحتي، ويكاد يكون مظلماً تماماً، فتقابل الطاهية صوفي وتقرر وجبات الطعام لذلك اليوم. ثم تمتطي دراجتها الهوائية وهي برداء طويل وقبعة ضخمة تتدلىٰ على وجهها لتذهب إلى أكادمية الفنون (نجحت قبل أصدقائها فانتقلت من مرسم العاديات إلى مرسم الموديلات في

١٩٠٢). وقد يعرض عليها جيرالد إيصالها إلى الجانب الشرقي من المدينة في عربته الخاصة التي يجرها حصان واحد ـ في طريقه إلى دار النشر التي أسسها في سنة ١٨٩٨. جورج وفرجينيا ينزلان في ما بعد، جورج بكامل هيأته اللائقة بحياة لندن الراقية، لامعاً، ناصعاً، لا شبة فيه؛ ثم يحاول أن يقحم فرجينيا في الاستماع إلى سرد لانتصاراته الاجتماعية في الليلة المنصرمة قبل أن ينصرف إلى عمله سكرتيراً بلا أجر للسياسي أوستن تشمبرلين. لزلي يعتكف في غرفة مكتبته ليقضي فيها سحابة النهار حتى الظهر. بعد أن يتوقف جورج عن الثرثرة ويغادر المكان تصعد فرجينيا إلى الطابق الثاني لتبذل جهدها في قراءة سوفوكليس وأمثاله أو تنصرف إلى كتابة المقالات والرسائل. إنها تقوم بذلك في غرفة الصغار القديمة في أعلى المنزل. جمعت هناك عدداً كبيراً من الكتب، وفي تلك الغرفة كانت تستقبل أحياناً بعض صديقاتها أو معلماتها ـ جانيت كيس مثلاً، أو إحدى بنات ڤوغان. كانت للغرفة جدران بيض وستائر زرق لامعة. أما أسلوب عملها فليس اعتيادياً. لديها منضدة كتابة ترتفع نحو ثلاثة أقدام وست بوصات، ذات سطح منحدر؛ منضدة مرتفعة بحيث كان عليها أن تقف لكي تكتب. قدمت أسباباً مختلفة لتبرير هذه الطريقة الغريبة في الكتابة، ولكنْ يبدو أن الدافع الرئيسي هو أن ڤانيسا، كغيرها من الرسامين، كانت تقف عندما ترسم لكي تتمكن من الحركة بعيداً وتنظر إلى لوحتها. أدى هذا بفرجينيا إلى أن تشعر بأن مسعاها قد يظهر أقل جديةً من مسعىٰ أختها إن هي لم تضع الأمور على قدم المساواة، وهكذا فإنها وقفت إلى هذه

المنضدة عدداً من السنين فأجهدت نفسها دون مبرر معقول[1]

لم تكن فرجينيا، شأنها شأن ڤانيسا، تولي، في ملبسها، إلا اعتباراً قليلاً للطرز الشائعة، وستكون غير معنية بملابسها ومظهرها بدرجة أكبر مما كانت عليه أختها في المستقبل. والبيت يكون في العادة خالياً من الساعة العاشرة حتى الواحدة. أما بعد الغداء ـ وغداء لزلي من لحم الضأن دائماً ـ فتغدو المتطلبات الاجتماعية أدعىٰ إلى التنفيذ. بحلول الرابعة والنصف تمسي هذه المتطلبات مهمة، ذلك أن الشاي سيجري تناوله في غرفة الواجهة المنفصلة في القسم الخلفي وكانت ذات أبواب تنطوي على نفسها. في هذه الغرفة تستقبل الفتاتان الضيوف من أنماط شتى، وهم يمثلون الطبقة الوسطى اجتماعياً وثقافياً، وكان بعضهم من الرجال البارزين أو على صلة بالبارزين. كل هؤلاء، بالإضافة إلى الأقرباء، ينبغي الاهتمام باستقبالهم، كما يجب إيجاد الشخص اللائق ليصيح بما يلزم من كلام في بوق السمع على أذن لزلي الصماء. كان على الفتاتين الشقيقتين أن تظهرا بمظهر لائق وتتحدثا على الوجه الصحيح. وقد تعلمتا هذا الفن ولم تفقدا ممارسته قط ـ فن الملاطفة للغير والعناية براحة الزائرين ـ من الإمتاع والمؤانسة. وقد حسبت فرجينيا في حياتها اللاحقة أن شيئاً من هذا الفن قد تسرب إلى مدادها ـ لا حين كانت تكتب رواياتها بل حين كانت تكتب مقالاتها النقدية. هنا شعرت أنها

(١) يقول هولرويد Holroyd إنها كانت تكتب هكذا «طوال حياتها»، في كتابه «ليتون ستراچي»، الجزء الأول، ص ٤٠٤؛ في هذا القول مبالغة بالتأكيد. من المحتمل أنها ظلت تكتب واقفةً حتى ١٩١٢.

كانت مؤدبة أكثر مما ينبغي، وأنها كانت السيدة الشابة التي تراعي الآخرين وتحترمهم.

لم يكن أداء ذلك الفن بالمهمة السهلة، لا سيما وأن لزلي كان يمثل معضلة اجتماعية وهو في صحبة الناس. كان بوسعه أن يكون ممتعاً، وهو أحياناً يستمتع برواية الذكريات؛ لكنه كان يضجر سريعاً، وإذا ضجر دمدم لنفسه. كانت هذه العادة من أشد الظواهر الكئيبة في المنزل، فهو يدمدم رثاءً لنفسه عن ترمله، ويدمدم حزناً على رصيده في المصرف، إلى غير ذلك.

يكون النهار حاشداً على الدوام بإجراء الترتيبات الاجتماعية؛ منها ما يجري لتجنيب لزلي صحبة الزوار الثقلاء، ومنها ما يجري للتأكد من وجود أناس إضافيين في المنزل عند قدوم زائرين آخرين كثيرين، أو لمواجهة الأجواء المفزعة التي تثيرها أمثال الخالة ماري أو ابنة العم ميا، إلى غير ذلك من الأمور. وحين تستقر الصعوبات الاجتماعية الناشئة عن تناول الشاي يكون عليهم تدبير الأمر الأخطر شأناً عند المساء. فقبل العشاء تنسحب الأسرة إلى غرفها لارتداء الملابس اللائقة مهما تكن الأمسية هادئة وغير رسمية. يظهر جورج وجيرالد بالطبع على نحو كامل الأناقة، ولكن ڤانيسا وفرجينيا كانتا تتمنّعان عن إبداء الزينة. وجورج يتفحّص أختيه غير الشقيقتين بعين نافذة لا ترحم كعين عريف الجيش يفتش جندياً مستجداً متطوعاً. أما إذا شعر بخروج ما على أصول اللياقة كما يفهمها، مثلاً حين خطر لفرجينيا ذلك الخاطر الجريء فإن تخيط فستان السهرة من قماش الأثاث الرخيص، فإنه يعبر عن امتعاضه بانفعال قارص وحاد. من ثم وبعد تقدّم

المساء يعود لزلي، بعد أن يكون قد أمضى الفترة بين الشاي والعشاء في مكتبته، لينضم إليهم فيقرأ لهم من هوبز أو بنتام، وليدخن ما لا يعد ولا يحصى من غلايين الطين - وكل غليون منها لا يستعمل إلا مرة واحدة[1]، حتى يمتلىء رف الموقد بالأنقاض المهشمة - بعد ذلك يصطحب جورج أختاه إلى العالم الكبير.

كان جورج خائب الظن بڤانيسا بشكل مرير؛ فهي تبدو له وقد عقدت العزم على إفساد فرصها في الحياة. لقد أحبت الشخص الخطأ، وحين يغمرها جورج بالهدايا تتذمر على نحو غير معقول. كيف يمكن لفتاة سوية الإدراك (خاصة وهي ذات تخصيصات تبلغ خمسين پاوناً في السنة) أن تتذمر شاكيةً إذا أهديت إليها مراوح اليد والقلائد والفساتين والزهور مع فرس عربية للركوب، وإذا تلقت دعوات للبيوتات الكبرى في لندن؟ لكن ڤانيسا كانت تتذمر فعلاً وإن كانت شكاواها صامتة في الابتداء. والواقع أنها كانت في البدء تستمتع بالذهاب إلى حفلات الرقص، وإن كانت لما تزل ترتدي السواد حزناً على ستيلا - السواد الجميل التنسيق جداً؛ لكن مشاعرها سرعان ما تغيرت فهي وإن كانت مغرمة بالملابس الجميلة فقد أتى عليها حينٌ أخذت تنظر فيه إلى فساتين السهرة كما تنظر امرأة تائبة إلى غطاء فراشها. كانت خجولة، مرتبكة، وصامتة أيضاً؛ كان رقصها

(١) كان التبغ من إمتيازات الذكور، ومن المحرم على ڤانيسا وفرجينيا التدخين بحضور والدهما. وذات مرة أشعلت سيدة زائرة سيجارتها فقال لها لزلي بخشونة إن غرفته ليست حانة عمومية.

سيئاً؛ ولكن حتى لو أنها كانت تتحدث وترقص بسهولة ويسر فإنها كانت ستجد في أصدقاء جورج ما يثير الضجر بشكل مبرِّح. فجورج يختلط بمجتمع الطبقة العليا المتعجرف؛ على أن الأمر لم يكن ليقتصر على أن ڤانيسا لا تجد ما تقوله لهؤلاء الناس؛ كان الأمر أسوأ من ذلك: إنها وجدت جورج نفسه مضجراً. بوسعه أن يفسد حفلةً بمجرد حضوره: فحينما كانت ڤانيسا تتناول العشاء مع أصدقاء قدامى لها تستلطف صحبتهم استطاع أن يخرّب الأمسية بأن حضر غير مدعوّ بعد الطعام وأخذ يتحدث بتكلف المؤدبين إلى أن أزف الوقت لمرافقة أخته إلى البيت. والواقع أن الحفلات لا تقام بنظره من أجل المتعة؛ وأختاه إنما تؤخذان إلى خارج الدار لا للتمتع بالحياة بل لمزاولة المهنة العظمى ألا وهي الزواج؛ أما هو فيكون موجوداً بصفته صاحب القول الفصل بشأن الأناقة، بصفته رقيباً ومرافقاً مشرفاً؛ إن كل حفلة تقام تعتبر امتحاناً للفتاتين وأن أداءهما فيها إنما يقرر بقسوة لا ترحم. قد لا يسرهم لقاء من يلتقون، ولكن هذا ليس مهماً. المهم أن هؤلاء هم الأناس الذي يصح لقاؤهم، وما إنشاء العلاقات معهم إلا واجب من الواجبات.

وفي الحال بدأت ڤانيسا تقاوم. كانت الدعوة التي توجه إليها تحمل في طياتها ضمناً كفاحاً ضدها. فإذا بجورج يتشفع ويتوسل، وأحياناً ينفجر بالبكاء انفجاراً فعلياً: إن لم تستجب له حَرَد، وحشد الأسرة في صفه ـ الخالة ماري فيشر من حليفاته دائماً ـ ولكن الأسرة تعجز، وهي تبدي غضبها المتجدد، عن أن تفهم كيف يمكن لڤانيسا أن تكون بهذا الغباء، بهذا العناد، بهذه

المجافاة للسليقة الأنثوية، وبهذه الدرجة من النكران القح للجميل، حتى أنها ترفض الكرم الذي يبديه لها جورج. وڤانيسا، حتى عندما تحسب أنها قد نجت بجلدها، تجد أن جورج قد راح وقبل سراً دعوةً بإسمها فهي مقضيٌّ عليها إذن بأمسية أخرى أو عطلة أخرى لنهاية الأسبوع تقضيها في التعاسة والسخط والقنوط.

وحلّ وقت قبيل عام ١٩٠٠ أمست فيه معارضة ڤانيسا مثيرة للإزعاج كثيراً حتى أن جورج قرر أن من الأفضل له أن يجرب حظه مع فرجينيا. قدم لها دبوساً ثميناً وقال إن جحود ڤانيسا من شأنه أن يجبره على ترك الدار ليجد السلوى في أحضان العاهرات - أوحىٰ بهذا الجزء الأخير من كلامه إيحاءً وعلى نحوٍ عاطفي أكثر مما نطق به بلسانه. إن على فرجينيا أن تنقذه من هذا المصير الفظيع بأن تكون أختاً طيبة فتقتحم معه المجتمع الراقي. حضرت معه الحفلة الراقصة التي أقامتها كلية ترينيتي فوجدتها ممتعة جداً (وكانت أشد إمتاعاً لحضور بيل صديق ثوبي)، فحسبت أن شكاوى ڤانيسا مبالغ فيها فوافقت على اقتراح جورج دون صعوبة تذكر.

وسرعان ما اكتشفت خطأها: فقد ضجرت فرجينيا بل أصابها الفزع. لم يمضِ وقت طويل حتى غدت غير قادرة على تحمل صحبة رجل غريب؛ والآن وهي تواجه ثقلاء «المجتمع الراقي» وجدت أنها لا تحسن الرقص برشاقة رغم دروس ستيلا، ولا تستطيع التحدث على سجيتها حين نكون في قاعة الرقص. أخذ يعذبها جداً شعورها بالحرج في أمسيات تعيسة ومهنية إذ لا تجد

فيها رفيقاً للرقص معها، أمسيات يدور فيها الكلام الفارغ الذي يتعثر به اللسان فيتقطع، فيرتج عليها وتعلو وجهها حمرة الخجل[1].

«حقيقة الأمر هي أننا فاشلات، كما نقول دائماً. نحن لا نستطيع أن نتألق في المجتمع. وأنا شخصياً لا أعرف كيف يتم هذا التألق. نحن لسنا مطلوبات على نطاق واسع - إننا نجلس في الزوايا ونقبع صماً بكماً كأننا نتلهف للسير في جنازة. مع ذلك، هناك أشياء أهم في هذه الحياة - وأنا أعرف مما طرق سمعي أنني لن أطلب إلى المراقصة في المرة القادمة...».

ومما زاد في الطين بلة أن جورج، وهو على ما هو عليه من مطامح اجتماعية، لم يكن بارعاً في التعامل العملي. حين أجبر ڤانيسا ذات مرة بأن تذهب معه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع أسرة تشمبرلين كان وصولهما في الوقت الخطأ وأمام مدخل الخدم. وتذكر فرجينيا أمسية من الأمسيات حدث فيها خطأ آخر كان أدهىٰ وأمر.

في تلك الأمسية صحب جورج فرجينيا بمفردها إلى عشاء مع

---

(١) كتبت بعد ربع قرن تقول: «جاء الحر فجلب معه الذكريات المزعجة للحفلات ولجورج دكوورث؛ ثمة خوف يطاردني إذ أمر من شارع Park Lane وأنا في أعلى الحافلة فأفكر بالليدي أرثر راسل وغيرها فأشعر وقد زال حبي لكل شيء»... (٢٥ أيار ١٩٢٦).

الكونتيسة كارنارڤون وشقيقتها السيدة پوفام ليتلكوت، على أن تعقب العشاء زيارة إلى المسرح. بدأت الأمسية بصورة حسنة، فالسيدتان تبدوان لطيفتين، وشعرت فرجينيا بالشجاعة على الكلام فأخذت تسترسل واثقةً في نفسها. قالت إن من الضروري للمرء أن يفهم الحاجة التي تدفعه إلى التعبير عن عواطفه. وسألت الليدي كارنارڤون: هل قرأتِ أفلاطون؟ إن كنتِ قرأتِه فستتذكرين. . .

وهنا قالت فرجينيا شيئاً فظيعاً، شيئاً مفزعاً. لن نعرف ما الذي قالته، ولعلها كانت تسترسل مستطردةً في كلامها ليس إلا؛ لكنها كانت دائماً تنسىٰ وجود جلّاس معها نسياناً مريعاً، هذا فضلاً عن أن أفلاطون كان من شأنه، في السنين الأولى من القرن العشرين، أن يقود بسهولة إلى مواضيع تروِّع الليدي كارنارڤون والسيدة پوفام وأمثالهما، مواضيع لا تليق بالمرة بفتاة شابة. وكما أوضح جورج بعدئذٍ في سياق تأنيبه: «فإن السيدتين ليستا متعودتين على أن تقول الشابات أي شيء، أي شيء على الإطلاق». ومهما يكن القول الذي قالته فرجينيا فإنها كانت قد تنبهت إلى خطأها حين رأت جورج وقد علا وجهه الاحتقان حرجاً. غيّروا مجرى الحديث في الحال، وعرفت فرجينيا أنها قد أخفقت مرة أخرى.

لكنّ هذا لم يكن نهاية الأمسية المفجعة. كانوا في طريقهم إلى المسرح الفرنسي. ارتدوا معاطفهم وغادروا، وكانت فرجينيا تعتلج خزياً لكنها تمكنت أن ترى، رغم المجهود العصبي الذي بذلته السيدة پوفام، ما قام به جورج. فقد احتضن هذا الكونتيسة

المضيفة وقبلها قبلة عاطفية متخفياً وراء عمود في البهو. ثم بدأت المسرحية. في البداية كانت فرجينيا أتعس من أن تستطيع مواصلة المشاهد على المسرح؛ يضاف إلى هذا أن الحوار الفرنسي كان أسرع من قدرة أذنيها على التقاطه؛ ولكن الحركة على المسرح أخذت في الحال شكلاً دramياً استقطب انتباهها. كان أحد الذوات يطارد سيدة في أرجاء الغرفة؛ ثم أمسك بها، فسقطت على الأريكة، فقفز عليها، وفي الوقت عينه أخذ يفك الأزرار من سرواله ـ وأسدل الستار.

نهضت الليدي كارنارڤون والسيدة پوفام وجورج باشمئزاز تام؛ هرعوا كلهم يتراجعون سراعاً وهم يسوقون فرجينيا أمامهم سوقاً إلى الشارع حيث غادرت السيدتان بعربة كانت في الانتظار.

أما جورج الذي انزعج من فرجينيا، وانزعج بلا ريب من خطله الاجتماعي لمصاحبته أختاً إلى حفلة كهذه، فقد أصر على أن داعي السهر الاجتماعي لم ينته بعد. استقلا عربةً إلى شارع ملبوري لحضور حفلة ليلية في بيت الرسام الأعظم هولمان هانت فوجدا الفنان الكبير بصحبة عدد من الحاضرين وهو يوضح لهم مفاتن لوحته المسماة «نور العالم» التي عادت مؤخراً إلى مرسمه بعد سياحة في مدن الأمبراطورية الرئيسية. وفي ذلك المكان يمكن لفرجينيا أن تشعر بالأمن والطمأنينة واجتناب تصرفات جورج السيئة؛ ولكن لم يدم ذلك الشعور طويلاً. ففي تلك الليلة، وفي غرفة نومها، كان عليها أن تحتمل، مرة أخرى، معانقات جورج الجياشة.

قد تساعد هذه الحادثة على توضيح الصورة التي رسمتها

فرجينيا لعلاقاتها مع جورج في ذلك الوقت. لقد رأت نفسها ضحية مستضعفة أمام مطامح جورج الاجتماعية؛ كانت مكبوتةً، مقهورةً، ومجبرة على أن تقوم بأي شيء يراد منها كالكلب المعقور الذي يدرب على القفز من خلال قوس يوضع أمامه في سيرك. والصورة على ما أتخيل هي من الصحة بمكان، ولكنها ليست هي الصورة بكاملها. إن فرجينيا تحترم الجنس الذي ينتمي إليه جورج، وتستحذي أمام سلطته، وكانت مدركةً لفقرها تجاه غناه ورفاهيته؛ ولكنها لم ترتكب قط شيئاً يفيد الاستسلام الضعيف.

فقد كتبت، وهي بعد طفلة بعمر لا نعرفه، شيئاً عنوانه «تاريخ آل دكوورث». وضاع هذا الشيء، ولعل المقاطع الاستهلالية فيه كانت شبيهة بما يلي:

> «في أحد الأيام كان الملك وليم روفوس يصطاد في الغابة. رمى بطةً (duck). فسقطت في البركة ولم يمكن إخراجها؛ لكنّ أحد السعاة الصغار خاض في الماء وأخرج الطير. شهر الملك سيفه وربّت به على كتف الصبيّ قائلاً «إنهض يا سيد duckworth فأنت بالتأكيد Worth many ducks».

إن هذا لا يسرّ جورج وجيرالد، ولنا أن نستنتج أن القصد من هذا اللعب الفكري البسيط هو إيلامهما شخصياً، وكان يعبّر باستخفاف لا يخلو من خبث عن قيمة آل دكوورث في نظر فرجينيا. كانت مقتنعة منذ نعومة أظفارها بأنهم ربما ورثوا الجمال

ولكنهم لم يرثوا الذكاء. لذا كانت السخرية الحادة التي يطلقها آل ستيفن ضدهم تصيب الهدف دائماً. كان من السهل السخرية بجورج وجيرالد، ولم تكن فرجينيا ممن لا يهتبل الفرصة إذا سنحت؛ أما زلاتها الاجتماعية فكانت أليمة لها بالطبع، لكنها كانت ترضيها بعض الشيء لإدراكها أن تلك الزلات كانت أكثر إيلاماً لجورج نفسه. في إحدى المناسبات، وكانت في حفلة، سقطت عنها ألبستها الداخلية كلها إبّان توديعها لمضيفتها؛ جمعت أشياءها في حزمة وخرجت تجر قدميها ما وسعها ذلك؛ لكنها عند عودتها إلى المنزل وجدت جورج هناك فدخلت غرفة الجلوس ونشرت ملابسها التي ضلت موقعها في وجهه. أرتج على جورج استنكاراً.

مع هذا فقد كانت تعاستها حقيقية تماماً. بوسعها أن تجعل منها فكاهة فتناكف جورج بها؛ إنما تبقىٰ الحقيقة وهي أنهما، هي وڤانيسا، «فاشلتان» على حد تعبيرها. في مقالة لها كتبتها في ذلك الوقت بحثت في افتقارها للنجاح ثم مضت تنظر في مميزات الذين يتألقون اجتماعياً في حفلات الرقص. نجدها في هذه المقالة تحاول جهدها أن تكون منصفة. إنها ترفض الرأي الشائع بأن التصنع الزائد والزيف الخالص عند الرجل الناجح اجتماعياً هما جديران بالتقريع. فتلك الصفات تمثل الرغبة في الإمتاع والاستمتاع، وهذا على أية حال ليس بالشيء السيّء، بل فيه ما فيه من فروسيةٍ ما ومن روحٍ للإحسان ناجمتين عن تطوير تلك الخصال الحميدة. كأنها تقول إن العنب ليس حامضاً. ثم ها هي تكتب إلى صديقة حميمة:

«ذهبت إلى حفلتي رقص في الأسبوع الماضي، لكني أظن أن العناية الإلهية قد قضت بمصير آخر لي على نحو يستغلق على الفهم. أدريان وأنا رقصنا الفالس (على أنغام البولكا!) وأدريان يقول إنه لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يكون المرء من الغباء بحيث يجد لذةً في الرقص ـ وأنا أراهم كيف يقومون بذلك ولكني أشعر أن الشابات الحقيقيات يُحملن بعيداً إلى جوٍ آخر ـ وهو أمر بائس تماماً ـ وأنا سأعطي لغتي اليونانية المتعمقة كلها لقاء الرقص بصورة حسنة حقاً ـ كما سيعطي أدريان أي شيء لديه لقاء ذلك».

لكن فرجينيا لم تفشل اجتماعياً على الدوام؛ فالرغبة في النجاح موجودة لديها حقاً، وإن لم تكن على النحو الذي يتصوره جورج. إن قلة فقط من الفتيات ممن يتمتعن بقدر غير قليل من الذكاء والجمال يمكنهن نبذ مجتمع الطبقة الراقية نبذاً كلياً. ذلك المجتمع الذي وجدت فرجينيا نفسها تقف على أبوابه. إنها تدرك أن أغلب أفراد ذلك المجتمع هم من السخفاء؛ وأن النجاح، كما يفهمه جورج، هو أمر مزر. كان هناك الشيء الكثير في «المجتمع الطيب» مما وجدته كريهاً ومفزعاً؛ ولكن كان هناك فيه على الدوام شيء تحبه. فأن تكون موجودة في مركز الأشياء، وأن تتعرف على الناس الذين يتمتعون بسلطة كبرى، الذين بوسعهم أن يأخذوا نِعم الحياة وامتيازاتها مأخذ الأمر المسلم به، وأن

تختلط بالدنيا المزوَّقة والمزوِّقة معاً، وأن تسمع رئيس الخدم يعلن عن حضور شخصٍ ما منادياً على اسمه الذي كان عريقاً يوم كان شكسبير حياً، هذه كلها أمور لم يكن يسعها قط ألا تبالي بها كلياً. كانت فرجينيا في حقيقة أمرها متعالية رومانسية. ولكنها لم تفسح المجال لتلك المظاهر أن تشوه قيماً أخرى لديها، إنما لعبت تلك المظاهر دوراً ما، مهماً تماماً، في حياتها. فهي في شبابها كانت على استعداد للتطلع إلى دنيا المراتب والبذخ لو قدِّمت إليها على نحو مقبول، وكذلك كانت ڤانيسا. إنما الذي كانتا بحاجة إليه هو المرشد، كانتا بحاجة لا إلى طاغية بل إلى صديق، لا إلى رجل بل إلى امرأة ـ أمرأة ذات حصافة ومخيلة ولطف. إن الإنسان الذي يعيش في المجتمع ومن أجله سيكون بلا ريب مقيداً بحدود معينة لكنها قيود يمكن تخطيها لأنها لا تكاد تكون ظاهرة لفتاة خجولة وذكية؛ وقد يتصرف مثل هذا الإنسان وكأنه يعظ مبشراً بالمجتمع الراقي، وقد يتمكن من أن يجعل الغير يؤمن بأن من الممكن أن يكون المرء دنيوياً وغير دنيوي معاً وفي الوقت عينه. حاولت فرجينيا أن تصور مثل هذا الإنسان في المرأة التي كتبت عنها في روايتها «رحلة الخروج»، The voyage out، ثم قامت بتمحيص هذا الموضوع على نحوٍ أعمق وأشمل في روايتها «السيدة دالاواي». لقد وجدت هي وڤانيسا هذه المرأة في الحياة الواقعية بشخص كيتي ماكسي Kitty Maxse.

كانت هذه تعرف قبل زواجها باسم الآنسة لوشنغتون؛ وآل لوشنغتون يلتقون مع آل ستيفن في نقاط كثيرة: أسرة جوليا، الهند، القضاء، حركة ما قبل الرفائيليين. كانت السيدة فيرنون لوشنغتون أقرب الصديقات إلى جوليا التي رتبت الزيجة بين كيتي

وليوپولد ماكسي التي تقررت كما ذكرنا تحت عريشة في جنينة «بيت تالند». كان ليو ماكسي هذا مقعداً، فلم يكن قادراً على القيام بدور فعال في السياسة وهو دور كان سيتمتع به لولا ذلك؛ ومع هذا فقد كان محرراً لصحيفة National Review. كان زوجاً صعباً؛ ولم ينجب ذرية. وكانت زوجته أنيقةً تلك الأناقة الرشيقة المستحبة؛ كانت عيناها الزرقاوان تنظران إلى العالم من خلال أهداب نصف مسدلة؛ وكانت ذات صوت عذب ساخر؛ أما وقفتها فمنتصبة القوام[1].

كانت السيدة ماكسي قد ورثت بنات ستيفن على نحوٍ ما. كانت صلتها بجوليا هي صلة الاعتراف بالجميل لها والارتباط العميق معها؛ وقد تبنت موقفاً أشبه بموقف الأمومة نحو بناتها. كانت ڤانيسا بصفتها البنت الأكبر أشد حاجةً إلى مساعدتها لمواجهة العالم الكبير، وكانت هذه السيدة من الحذق والتعقل بما يكفي لكي تدرك، حتى إن لم تخبرها ڤانيسا، بأن جورج لم يكن هو المرشد المثالي لارتياد المجتمع اللندني. كما أنها، بما كانت عليه من فطرة السير على هدي المشاعر النبيلة والمبادىء الطيبة، قد أثبتت بأنها المتعاطفة معهم حقاً والمعينة لهم حقاً حين ماتت

---

(١) السيدة ماكسي هي بالتأكيد النسخة الأصلية للسيدة دالاواي في الرواية بهذا العنوان، لكني لا أظن أن الرواية تقدم، أو قصدت أن تقدم، صورة طبق الأصل. لا يرى اللورد دافيد سيسيل، وكان يعرف السيدة ماكسي، أي شبه وثيق بينها وبين السيدة دالاواي. إن فرجينيا تقترب جداً من الصورة طبق الأصل حين تحب نموذجها. ولم تكن تحب كيتي ماكسي.

ستيلا؛ وقد غدت بعد ذلك إحدى صديقتين حميمتين لڤانيسا. (الصديقة الأخرى هي مارجري سنوداون Margery Snowdown، طالبة الفن حد الاستماتة والفتاة رثة الهندام).

وهكذا فبمساعدة كيتي دخلت ڤانيسا المجتمع على طريقتها. وتُركت فرجينيا في المؤخرة في هـذا المجال. كـانت هذه قـد وجدت كيتي أقل تعاطفاً بكثير مما وجدته ڤانيسا؛ ولعلها كانت في هذا تصدر عن الغيرة بعض الشيء؛ لكنها كذلك لمست فيها نوعاً من التألق الدنيوي، نوعاً من الوهج المزجج الذي لم تحبه. كانت تقول لنفسها باستمرار إن كيتي امرأة طيبة جداً، ومع هذا كانت ترتد على أعقابها فتصد عنها حين تلتقيها. لكن كيتي كانت تستطيع بالتأكيد ولوج حلقة أرستقراطية أنثوية هي أكثر وداعةً وأقل تظاهراً من الحلقة التي يتردد عليها جورج، فضلاً عن أنها حلقة تتسم بالروعة بالذات. فقد بدا لفرجينيا أن الليدي باث وابنتيها بياتريس وكاترين ثاين (التي تزوجت من لورد كرومر) وصديقتهن الليدي روبرت سيسيل يتمتعن حقاً بالمنزلة الاجتماعيـة وقواعـد التصرف السهلة المأخذ واللطيفة الأثر، كما يتمتعن أيضاً بنوع من الجلال الوثني الكسول الذي ينطوي على جمال طبيعيّ فتنهـا؛ كانت تختلط بهن كثيراً وتستمتع بمجتمعهن استمتاعاً كثيراً؛ ولكن كيتي لم تكن هي التي تأخذ بيدها في هذا الوسط، بل صديقة خاصة لفرجينيا بالذات.

وقبل أن نأتي إلى أمر هذه الصداقة المهمة علينا أن نلاحظ أن السنوات ١٩٠٠ - ١٩٠١ و ١٩٠٢ تصرّمت، بقدر ما يتعلق الأمر بأسرة ستيفن، على نحو آسٍ، دون أحداث خطيرة. كانت

سنة ۱۹۰۰ هي سنة الأزمة في العلاقة بين ڤانيسا وجاك هيلز؛ وقد انسحب جاك في ما بعد تدريجياً على ما يبدو؛ وتلاشت المسألة على أية حال، غير أن للمرء أن يتصور أن ذلك لم يتم دون آلام أحاطت بذوي العلاقة وبفرجينيا نفسها. أما جورج فقد سُرّ دون شك ولكن أموره الخاصة لم تكن تجري على ما يرام. فقد أحب الليدي فلورا راسل، فلما ذهب إليها ليطلب يدها كان قد حفظ عن ظهر قلب قصيدة Love in the Valley وذلك لكي يؤثر فيها تأثيراً طيباً. أفلح هذا الحدث الباهر في قوة الذاكرة فحقق غرضه إذ كتب جورج إلى أهله معلناً خطوبته. واستقبلوا النبأ بحماسة كما هو متصور. فأبرقت فرجينيا بتهانيها قائلةً «إن خطيبته ملاك» ووقعت البرقية بلقبها المعتاد: «عنزة». ولكن البرقية وصلت إلى جورج بعد أن سقطت منها كلمة ملاك، فجاءت هكذا: «إن خطيبته عنزة». هذه البرقية لم تساعد في الأمور كثيراً ولكنها على ما يبدو لم تكن هي السبب في فسخ الخطوبة الفوري. عاد جورج كسير الخاطر تعيساً واعتكف ملتزماً سريره يعاني كما قيل من الصدمة.

وشهدت سنة ۱۹۰۲ تتويج الملك والإنعام بالأوسمة على نطاق واسع. عُرض على لزلي وسام KCB الذي يخوله حمل لقب سير. ويبدو أنه شعر ببعض التردد في قبول هذا التكريم لكنه خضع على ما يظهر إلى ضغط أبنائه، وبالأخص من ثوبي، فقبله مكرهاً. أصيب قبل ذلك في السنة ذاتها بمرضٍ ما فعرض نفسه على طبيب مشهور أوصاه بإجراء عملية جراحية؛ لا ندري ما الذي قاله الطبيب، لكنّ لزلي كتب يقول: «أنا أعتبر ما قاله بمثابة إنذار بأن الرحلة أوشكت على الانتهاء. لعله عرف بأنه

مصاب بالسرطان. كتب في نهاية السنة إلى ابنه الأكبر: «أفترض أنهم قد أوضحوا حالتي لك. ولا أظنهم حسبوا حساباً للحقيقة ـ وهي حقيقة فعلاً ـ بأن المشكلة تتزايد الآن باطراد».

في ذلك الصيف ذهبت الأسرة مرةً أخرى إلى فريتام. كانت هذه هي إقامتهم الثالثة هناك. واستمتع الشبان بركوب الخيل. وأحب السير لزلي المكان وإن أجبره مرضه على أن يقبع في المنزل. كان من بين زوارهم كلايف بيل، والأهم من هذا، من وجهة نظر فرجينيا، كانت من بينهم ڤيوليت دكنسون Violet Dickinson.

كانت هذه صديقة لآل دكوورث ومقربة من ستيلا؛ وقد اعتنقت مذهب الكريكرز، لكنها ذات علاقات أرستقراطية؛ فهي تمت بصلة القربى لآل إيدن. وقد كتب لزلي يقول «إن العيب الوحيد فيها هو أن طولها ستة أقدام». كما ذكر «أنها قد أعجبت كثيراً فشغفت بالبنات اللاتي هن معها طيلة النهار، يتطارحن أمور أدبية وغيرها على الدوام ـ أخبرتني بأشياء كثيرة سارّة عن الإثنتين وهي معجبة بذكاء فرجينيا كثيراً». كان هذا الإعجاب متبادلاً، ولو أن من غير السهل القول لماذا أُخذت فرجينيا أخذاً كاملاً بڤيوليت. وفي هذه الزيارة إلى فريتام، حين كانت الصداقة حديثة إلى حدٍ ما، حاولت فرجينيا أن تصف ڤيوليت، فكتبت تقول:

> «... أخذناها إلى غرفتها وتركناها هناك لتنفض عنها وعثاء السفر الطويل. نزلت إلى العشاء بثياب فضفاضة، زاهية ـ إنها، مع طول قوامها وشيء من طابع المزاح في وجهها،

محتشمة جسدياً. وهي دائماً ترتدي الملابس اللائقة، المنسجمة - وإن كانت لا تخفي شيئاً بشأنها فتقول إنها دامت أكثر من موسم واحد. والواقع أنها غير متحفظة على نحوٍ فريد في عدد من الأشكال؛ تتكلم وتضحك على الدوام، وتشارك في أي شيء مما يجري بحماسة فتية. ولا يتوصل المرء إلى تقييم صادق لشخصيتها إلا بعد أمد - فيرى المرء أن ما فيها ليس كله مرحاً ومعنويات عالية بأي شكل من الأشكال - فهي قد عانت من نصيبها في الكآبة؛ لكن الحق هو أنها كانت دائماً سريعة في اقتفاء أثر الصوت الممرح. وفي هذا يكمن الكثير من سحرها -... إنها على ما أظن ستبدو للمراقب العابر شخصاً أهوج، مخبولاً بالأحرى، وطائشاً - شخصاً يكون دوره في الحياة سخيفاً بعض الشيء، شخصاً دافئ المشاعر وعازماً على إنجاح أي نوع من أنواع الحفلات. إنها ذات دائرة كبيرة من المعارف وبالدرجة الأولى من أصحاب الأملاك وحملة الألقاب من شتى أنواعهم، الذين تقيم في بيوتهم الريفية دائماً - وهي ذات شعبية بينهم باستمرار. إنها في السابعة والثلاثين من العمر - دون أن تزعم شيئاً عن الملامح الحسنة، - الأمر الذي تعرفه هي جيداً وتجعلك تعرفه كذلك - بل تبالغ في التلميح ضاحكةً إلى شعرها الأشيب، وتمط وجهها بإشارات مضحكة للغاية. أما المراقب

> الذي سيتوقف عند هذا الحد فيصفها بأنها سيدة ذكية في أواسط العمر، تتكيف مع الأوضاع حسب الأحوال، ويجري الترحيب بها في أي مكان ولا يستغنىٰ عنها في أي مكان ـ مثل هذا المراقب سيكون سطحياً حقاً».

عند هذه النقطة تنتهي هذه المخطوطة، أو بالأحرى تُقص الصحيفة التي كتبت عليها.

حُفظت لنا رسائل فرجينيا المتعددة التي كتبتها إلى ڤيوليت ومنها يتضح للقارىء الحديث ما لم يكن واضحاً للكاتبة على الاطلاق: إنها كانت تحب، وكان حبها يتابل بالمثل. ذلك أنها رسائل عاطفية، فاتنة، ممتعة ومحرجة، رسائل حاشدة بالنكات الخاصة والتودد، رسائل تخترع فيها فرجينيا لنفسها أسماء التحبب، وتتصور نفسها حيواناً خجولاً نصف وحشي، أو حيواناً أليفاً يُعتز به في المنزل ويدلل؛ ومن هذه الرسائل نحاول أن نتخيل صورةً للمرسل إليها.

إنها بالتأكيد إمرأة طيبة جداً، إمرأة وهبت الفكاهة والذكاء والصبر. وأرى أنها اجتذبت فرجينيا إليها لأنها كانت نقيضتها تماماً؛ كانت توحي بثقة رجولية فتية، وبتوازن مرح لا يضطرب، فهي عبارة عن برجٍ من القوة شامخٍ ومطمئن. لكنها لا بد كانت تتمتع بشيء أكثر من القوة، بنوع حقيقي من عظمة العقل والشخصية. إن بوسعها أن تتقبل الهزء وأن تقدم العطف والتفهم والحب بكرم بالغ. أحبها أبناء ستيفن الآخرين كلهم، وما كان أحد منهم بسيطاً ساذجاً بل كانوا كلهم أميل إلى طبيعة الانتقاد. وأظن أنهم وجدوا استجاباتها ملائمة لأذواقهم. كانت على الدوام

إلى جانب كرم الأخلاق والترفع عن الصغائر والحشمة واللطف والإدراك السليم.

كانت ڤيوليت دكنسون، مثلها مثل ماج ڤوغان، قد أشبعت حاجةً ما. إنها وفّرت التعاطف والاستقرار حين دعت الحاجة إلى التعاطف والاستقرار، ولا أظن أنها أسهمت إسهاماً كبيراً جداً في تطور فرجينيا الثقافي. كانت فرجينيا ترسل مخطوطاتها إليها لغرض النقد (كما كتبت نوعاً من سيرة فكهة لحياة صديقتها)، لكني أشك بأن نقد ڤيوليت، كشيء منفصل تماماً عن تشجيعها، كان أمراً هاماً جداً لفرجينيا. كانت مواهبها معنوية بالأساس، وحين دخل في حياة فرجينيا أشخاص آخرون أكثر بروزاً تلاشت العاطفة ببطء وانتهت إلى اللطف. لا بد للمرء أن ينظر إلى تلك الصداقة بصفتها علاقة من علاقات القلب، وقد بقيت في القلب على ما أحسب؛ أما حين كانت العلاقة في ذروتها، أي بين ١٩٠٢ و١٩٠٧، فقد كانت علاقة قوية جداً.

وكان لعطف ڤيوليت دكنسون أن يوضع موضع الاختبار. فحين جاءت لتقيم في فريتام في ١٩٠٢ كان السير لزلي يتوقع إجراء عملية جراحية له. ففي كانون الأول لم يعد في الوسع تأجيلها مدة أخرى؛ وبدا من المشكوك فيه أنه سيعيش، لكنه تماثل للشفاء حتى أن صغاره احتفلوا بعيد الميلاد احتفالاً صاخباً، فعاد إلى بيته في كانون الثاني. ولكن بات واضحاً في نيسان ١٩٠٣ للدكتور سيتون وللممرضة أن الداء آخذ بالانتشار وأن المريض سرعان ما سيموت. أُبلغت ڤانيسا بهذه الأنباء فأخبرت أخويها وشقيقتها بها وحسبت أن من الأفضل إبقاء السير لزلي غافلاً إن أمكن.

لم يكن هناك أمام الأهـل من شيء سوى محـاولة تسهيـل النهاية ما أمكنهم ذلك. كانت مرحلة سوداوية ومحزنة للجميع، ولكني أظن أن فرجينيا كانت أكثر من قاسىٰ بين الأبناء. كـانوا جميعاً يشعرون بشيء من المودة وبشيء من الذنب. ولكن ڤانيسا أحست أكثر من غيرها بالانفـراج عند حلول اليتم المنتـظر، بل شعرت حتى بالسرور، ثم حلمت بعد وفاة والدها بأنهـا تقترف جريمة القتل، ومع أنها لم تسمع قط بفرويد فقد أدركت العلاقة بين الأمرين. وابتأس ثـوبي بلا ريب، ولكنـه بشخصيته القـوية الواثقة وخططه الوافرة والمتفائلة التي يعدها للمستقبل، لم يحسب الأمر صدمةً قوية، في حين لم يكن أدريان يود والده كثيراً. أما فرجينيا، فمع أنها شعرت بالكراهية والغضب والاستياء من سلوك لزلي تجاه ڤانيسا فإنها شعرت كذلك بحبٍ له عميق جداً. أخذت ترى أنه يتردد في الاستسلام للموت لأنَّ صغاره قد بلغوا أخيراً عمراً يمكّنه أن يعرفهم وما أن يعرفهم حتى يحبهم. كان يريد أن يرى ما الذي سيكونون عليه. ثم أنه في حالته الحاضرة لن يسعه أن يكون طاغية بعد الآن، فيمكن للطغيان أن يُنسىٰ. كانت قد قامت بينه وبين فرجينيا رابطة خاصـة. فهي قد أحبتـه وهو من جانبه قد شعر في وقتٍ ما برقة خاصة نحوها. كتب يقول: «إن فرجينيا مستمـرة في طيبتها تجـاهي، وهذه راحـة كبرى»، كمـا كتب: «إن بوسعها أن تكون في غاية الافتتان». وهكذا كان صراع المشاعر في نفس فرجينيا شديداً جداً، وعلى نحوٍ تعيس جداً.

في ذلك الصيف ذهبوا إلى مكان بالقرب من سالـزبوري، وكان سير لزلي ما زال يستطيع المشي قليلاً فتأخذه فرجينيا إلى مسيرة هنا وإلى مسيرة هناك. وفي الخريف جاءت الثلة المعتادة

من المتعاطفات إلى منزلهم في هايد پارك گيت وهن يولولن. كان قميناً بذلك الرجل المحتضر أن ينظر إليهن بشيء من صبرٍ نافد:

«السيدات اللطيفات اللاتي جئن لزيارتي لم يكنّ كثيرات العدد، وأخشىٰ أنهن سيجعلنني أضجر كثيراً. كانت إحداهن هنا الآن وهي تتكلم بسرعة فائقة إلى أن كان عليّ أن أبدو متعباً جهد استطاعتي لكي أجعلها تخرج من الغرفة».

جاءت كارولين أميليا لزيارته ولم تستطع التفكير بشيء تقوله. غمغم لزلي بضجر جليّ فنزلت من عنده تتمخّط بشدة والدموع تنهمر على خديها المتهطلين. وجاءت كيتي ماكسي وسألت بثقة لماذا لم يأت لزلي لزيارتها منذ أمدٍ طويل، فسخرت فرجينيا منها ومن تمسكها بالعنعنات الاجتماعية. كانت العمة آني من الزائرات المستديمات وكانت على معنويات ممتازة ولا يساورها الشك بأن لزلي سيعود إلى حالته الطبيعية بأسرع وقت؛ بدا تفاؤلها هذا قاسياً بنظر شخص واحد في الأقل وهو ينتظر النهاية. وفي غرفة الجلوس قعد سيد وسيدة وقد أعاقهما التيار المتواصل من المقابلات وهما صامتين دون أن يعرف أحدهما الآخر. أخيراً قال السيد: «أنا هنري جيمز». فأجابت السيدة: «أنا ڤيوليت دكنسون». وكان ذلك نهاية محادثتهما.

وكان على النساء الكثيرات، الكثيرات جداً، وقد ودعن الرجل الأصم المحتضر في الطابق العلوي، أن يتخففن من وقر حزنهن بإلقائه على كاهل بنتيه. إنهن ينتحبن ويصررن على أن تنتحب إبنتا ستيفن معهن. وبدا أن ذوات القربىٰ أكثر عدداً أو أشد حزناً مما كان عليه الأمر في السابق. كتبت فرجينيا تقول

بصراحة: «أنفقت ثلاثة أيام وهم يشدّون على يـدي ويستدرون عواطفي، بلا نجاح، أعرف أنهم أنـاس طيبون ولكن كـان من الأرحم لي لو أنهم حفظوا فضائلهم لأنفسهم، وكذلـك مودتهم وغيرها». ولاحظتْ «أن هذا المرض كشف عما يمكن أن تكون عليه الطبيعة الإنسانية من ناحيـة العاطفـة الرخـوة والعبث». لم تستطع فرجينيا أيضاً أن تحتفظ بهذه الأحاسيس المتمردة لنفسها فقط. فحدث افتراق بينهم وبين العمـة أدلين (الدوقـة بدفـورد) وشجار مع الخالة ماري، التي تراءى لها أن فرجينيا لم تؤد واجبها نحو قريباتها. كان ذلك أوان الضيق المتعاظم. «لماذا يجب أن يموت؟ وإذا وجب ذلك فلماذا لا يستطيع أن يموت؟» كانت هذه إجمالاً هي أحاسيس فرجينيا. لم يكن الموت من الغرباء في ذلك البيت ولكنه لم يأت في السابق قط بمثل هذه الخطوات المتأنية.

كان من الواضح أن لزلي يموت، وبعد وقتٍ مـا صار من الواضح أنه يريد أن يموت، ومع ذلك لم يأت الموت. وانصرمت المدة التي حددها الأطباء لحياته. وجاء عيد ميلاد المسيح حزيناً، وأعقبه عيد سنة جديدة كئيب. في ليلة عيد الميلاد حاول السير لزلي أن يقوم بما يقوم به سنوياً بإنشاد قصيدة لملتون عنوانها Ode on the Nativity لم يـزل يحفظهـا عن ظهر قلب، لكنـه كـان أضعف من أن يستطيع النطق.

أصيب بنوبة في كانون الثاني، ولكن حتى النوبة استطالت فلم يأت الموت أخيراً إلا في ٢٢ شباط.

الفصل الخامس

١٩٠٤ ـ ١٩٠٦

كـان أبناء ستيفن قـد اتفقوا، حتى قبـل وفـاة أبيهم، على ضرورة الفرار من منزلهم في هايد پارك گيت إلى منزل آخر. إن انتقالاً كلياً ودائمياً كان قد جرى التفكير فيه أصلاً؛ أما الآن بعد أن تم أداء فروض المناسبة فقد دعت الحاجة الماسة الحالية إلى الهروب من دار الحزن، تلك الدار المعتمة، والمفتوحة الأبواب لمن هب ودب. ذهبوا مع جورج إلى مانوربير Manorbier على ساحل پيمبروك Pembroke، وهو مكـان قاحـل موحش فـأحبوه جميعاً لأنهم سيعودون إليه. إن عودة فرجينيا إليه في سنين لاحقة ما هي إلا إقرار كـريم بقدرة المـوقع العـلاجية، وليس لمـزاياه الأخرى. فهي لم تكن في زيارتها الأولى سعيدة بها، فحين كان الآخرون يذهبون لصيد الطيور أو لرسم الطبيعـة كانت هي قـد بدأت تكتب إذ أنها شعرت هناك بهاجس الشيء الذي تريد أن تكتب عنه[١].

---

(١) «في السادسة عشرة، كنت أبغي معرفة ما ينبغي أن يُعرف، وأبغي كتابة كتاب ـ كتاب ـ ولكنْ أي كتاب؟ إن تلك الرؤية قد وافتني بوضوح أشد في مانوربير وأنا في الواحدة والعشرين، وكنت أسير على سفح حافة البحر». ٣ أيلول ١٩٢٢.

لكن الكتابة لا تسير على ما يرام؛ ما من شيء يسير على ما يرام؛ وكيف يمكن أن يسير؟ فقد فقدت والدها، وهذا الحدث الذي بدا فظيعاً أثناء انتظاره يبدو الآن فاجعاً على نحوٍ يدمي القلب. كانت مقتنعة أكثر من أي وقتٍ مضىٰ بأن أباها أراد أن يعيش، وأن العلاقة الحقيقية والسعيدة بينه وبين أبنائه إنما كانت في مستهلها. إنها لم تفعل قط ما فيه الكفاية من أجله؛ كان وحيداً فلم تخبره قط بمدى اعتزازها به. كانت تراه في منامها حياً. وحين كانوا يخرجون لرياضة المشي كانت تظن أنهم سيجدونه عند العودة في انتظارهم. إن أخطاءه قد نسيت؛ أما لطفه وسرعة بديهته وذكاءه فلا ينسىٰ منه شيء.

هذا كله أورثها الحزن وهو أمر طبيعي، وأورثها الشعور بالذنب وما هذا بالأمر الغريب عند وفاة الأحباب؛ لكنها شعرت بشيء آخر - شعرت بالانزعاج العميق. كانت تزعجها رسائل التعزية، وتزعجها المراثي - فهذه لا تظهر جوهر أبيها ولا تعطي فكرة كاملة عنه. انزعجت كذلك من أخويها ومن شقيقتها بل من نفسها أيضاً فكتبت تقول: «إني لأعجب من أحوالنا، إذ نسرح ونمرح طوال النهار». كانت عند انفعالها لا تكتب إلا إلى ڤيوليت دكنسون وإلى جانيت كيس دون سواهما لكي تبثهما شيئاً مما تشعر به ولم يكن كثيراً. كان حزنها، كما أدركت في ما بعد، شيئاً محموماً، شيئاً شنيعاً، شيئاً يجعلها تحس بالعزلة والخوف. قالت تصف محاولتها في الإقدام على الكتابة: «كنت أجرّب أن أثبت لنفسي أنني إنسانة سوية لا يكتنفها سوء، فأخذت أخشىٰ أن الأمر ليس كذلك».

وربما بسببٍ من حالتها هذه أن قرر آل ستيفن إجراء تغيير أكثر جذريةً. إن مانوربير مكان جميل لكنه يعوزه التعدد في الأشياء التي تشغل المرء. ثم أن جيرالد سيذهب إلى البندقية، وستذهب ڤيوليت دكنسون إلى فلورنسا؛ قرروا أن يذهبوا هم كذلك إلى إيطاليا. غادروا يوم الجمعة الحزينة؛ مرّ قطارهم من الممر الجبلي سانت غوثارد في الألب وسط عاصفة ثلجية؛ لكن الشمس كانت تسطع في كومو. بعد يومين استقلوا الجندول.

كانت هناك متاعب بدنية ومزعجات، في القطار أناس لا ينسجمون معهم؛ وجيرالد يحزن دائماً؛ لم يكن هذا رفيقاً مثالياً في مثل هذه الرحلة[1]. ثم أنهم أغفلوا حجز غرف لهم فعليهم أن يفتشوا في البندقية بأسرها عند منتصف الليل بحثاً عن مكان ينامون فيه. لكن فرجينيا التي لم تسافر بعيداً كانت مندهشة يعتريها السرور. بل كان الجميع في حالة انبهار صبياني وجذل عارم وهم لا يصدقون أن ما يرونه هو شيء حقيقي فعلاً.

كانت هذه الفترة من السرور قصيرة الأمد. فالسفر في بلاد أجنبية يشغل الفكر لكنه يشحذ الأعصاب كذلك. كانت ڤانيسا تستمتع بالتأكيد بقضاء وقتٍ طيب وهي تستكشف تنتوريتّو Tintoretto وتكتشف أخطاءً في ما كتبه راسكن وتهتم اهتمام الرسامين بالمشاهد، ولم تستطع فرجينيا أن تشاركها في ذلك. ولكنْ وبعد عشرة أيام كانت حتى ڤانيسا مستعدة لمغادرة البندقية؛

---

(١) «لم تشكل شخصية جيرالد جزءاً من الخلفية الڤينيسية التي كانت في ذهني»، من فرجينيا إلى ڤيوليت دكنسون، في آذار ١٩٠٤.

شعروا أنهم محاصرون في المدينة وتاقوا لرؤية الخضرة في الريف. ذهبوا إلى فلورنسا؛ وجدوا هناك بعض الأصدقاء القدامى ممن يحبون وآخرين كذلك ممن لا يحبون بمن فيهم العمة مينا. في غضون ذلك خاب فأل فرجينيا بالايطاليين وكانت قد سرّت بهم في الابتداء[1]. هذا فضلاً عن وجود عدد كبير من الألمان وكذلك «وجود جنس غريب يطارد الفنادق - حشرات وهوام كالمخلوقات التي تخرج في الظلام. وما الفندق إلا كهف أسود». كانت هناك بالطبع أشياء تعوض عن ذلك. ولكنْ إذا قارنا رسائل ڤانيسا برسائل اختها نجد أن الأخت الكبرى قد أحبت كل شيء، أما الصغرى فلم تحب إلا القليل.

إلتقتهم ڤيوليت دكنسون في فلورنسا فصحبت فرجينيا وڤانيسا بعض الوقت، وكان عليها أن تحتمل الكثير كما كان شأنهم جميعاً؛ وعاودت فرجينيا ما تسميه بـ «صرعاتها». وفي نهاية نيسان كانوا جميعاً في طريق عودتهم. توقفوا أسبوعاً في پاريس حيث وجدوا بياتريس ثاين. جلسوا في المقاهي، دخنوا السكائر بجسارة عظيمة، وتحدثوا إلى شابين إثنين أحدهما صديق لثوبي هو كلايف بيل والآخر صديق هذا وهو السيد كيلي Kelly (السير جيرالد في ما بعد). كان هؤلاء أدلاء ممتازين لپاريس: ذهبوا إلى معرض الرسوم، وإلى مطعم القطة السوداء، وإلى محترف رودان. لقد ذاقوا كثيراً من طعم الحياة الپاريسية الرضية، ولكن

(١) «سفرنا ليس ممتعاً... وليس هناك أمة أكثر توحشاً من هذه في قطاراتها وشوارعها ومخازنها وشحاذيها وفي الكثير من عاداتها»... من فرجينيا إلى إيما ڤوغان، في ٢٥ نيسان ١٩٠٤.

اللذة الحقيقية كانت هي لذة ڤانيسا بالذات.

كان هذا على ما أظن عاملاً من عوامل الزوبعة التي كانت تتجمّع الآن. ڤانيسا قد حصلت على ما أرادت: حريتها. إن بوسعها الآن أن ترسم كما تشاء، أن ترى من الناس من تشاء، أن تعيش حياتها كما تشاء، ولا شك أنها ستتزوج كما تشاء. كانت سعادتها واضحة كل الوضوح وسرورها لا شائبة فيه بعد أن تخلصت من رعاية والدها ومن طبعه الحاد. أما فرجينيا، التي كانت متوترة عاطفياً ومتهيجة عصبياً من جراء الشهور الطويلة لمرض السير لزلي الأخير، وكانت لما تزل تشعر بالذنب وغير قادرة على السلوى، فقد وجدت هذه السعادة أكثر مما تستطيع أن تتحمله.

إننا لا نعرف على وجه اليقين هل كانت فرجينيا تصاب بالصداع وبالاضطراب المفاجيء في القلب، ولكننا نظن ذلك ونخمن بأنها كانت تدرك إدراكاً متزايداً بوجود خلل في عقلها. شعرت في أيار بتوق مستميت لكتابة شيء عظيم يشغل أفكارها القلقة، ولكنها كانت في اليوم الذي أعقب عودتهم إلى لندن لا تكاد تعرف ماذا تقول أو تفعل.

خلال الانهيار العصبي الذي تلا ذلك دخلت فرجينيا مرحلة من الكوابيس بلغت فيها أعراض الأشهر السابقة حدّةً عُصابية. أصبحت ريبتها بڤانيسا جنونية، وكذلك حزنها على والدها، كما أضحت ترى في ممرضاتها الثلاث ثلاثة من الأبالسة. إنها تسمع أصواتاً تحثها على إتيان الأفعال السخيفة؛ وأخذت تعتقد أن هذه الأصوات إنما تنشأ عن التخمة فيجب أن تجوع في حالة

الطوارئ هذه ومع العبء الرئيسي على ڤانيسا، فكانت ڤيوليت دكنسون هي التي عاونتها أكبر معاونة. فقد أخذت هذه فرجينيا إلى بيتها في برنام وود Burnham Wood، وإنه لفي ذلك المكان أن حاولت فرجينيا أولى محاولاتها في الانتحار. ألقت بنفسها من نافذة، لكنها كانت أوطأ من أن تسبب لها أذىً عظيماً[1]. وإنه لفي هذا المكان أيضاً أن رقدت طريحة الفراش تصغي للطيور تغني باليونانية وتتخيل الملك ادوارد السابع يترصد بين أشجار زهور الأزاليا مستعملاً أشنع البذاءات.

كانت فرجينيا مجنونةً طوال ذلك الصيف. لم تتمكن من مغادرة برنام وود إلا في أوائل أيلول، نحيفةً، مهزوزةً، لكنها قد استردت ما يكفي من العقل يمكنها من العيش مع ڤانيسا بسلام. أقامت أسرة ستيفن ذلك الصيف في تيفيرسال Teversal في نوتنغهام شاير. وهناك استطاعت فرجينيا أن تكتب بعض الرسائل القصيرة وأن تلعب قليلاً من التنس وأن تمارس رياضة المشي. اعتنت بها الممرضة تريل Trail التي كانت قد اعتنت بالسير لزلي، واستطاعت فرجينيا في الحال أن تدرس بعض اللاتينية مع ثوبي. عاد إليها عقلها لكنها تشعر بآلام جسدية ـ الصداع وألم الأعصاب.

---

(١) قيل إن فرجينيا حاولت قتل نفسها عند انهيارها العصبي الأول (أي في ١٨٩٥). لم أستطع العثور على دليل يثبت ذلك؛ أما أنها كانت متهمة بفكرة التحطيم الذاتي قبل ١٩٠٤ فأمر يبدو محتملاً، بشاهد ملاحظة أبدتها إلى جاك هيلز في جنازة الملكة فكتوريا: «جاك، هل تظن أنني سأنتحر يوماً ما؟» (معلومات خاصة من الليدي هيلز).

«آه يا عزيزتي ڤيوليت، لو أن الله موجود لباركته لأنه عافاني من تعاسات الأشهر الستة الماضية وجعلني آمنة مطمئنة! أنت لا تستطيعين تصور الجذل الرائع لكل دقيقة من حياتي الآن، ودعائي الوحيد هو أن أعيش لأبلغ السبعين. أحسب أنني سأخرج من المحنة أقل أنانية وغطرسة مما كنت عليه حين دلفت فيها، كما سأكون ذات تفهم أكبر لمشاكل الآخرين. إن حزناً كهذا الذي أحس به الآن على والدي لهو حزن مريح وطبيعي ويجعل الحياة أجدر بالامتلاك وإن كان هذا حزناً أعمق. لا أستطيع أبداً أن أعلمك ماذا كنتِ أنت لي طوال هذا الوقت ـ فلن تصدقين ـ ولكن إذا كان للوداد قيمة فهو لك دائماً».

إن رسائلها إلى ڤيوليت دكنسون هي رسائل متفائلة ـ مفرطة في التفاؤل؛ كانت تشعر بنفاد الصبر انتظاراً لاستئنافها الكتابة مرةً أخرى وقد ظنت أنها شفيت كلياً وكان ظنها غير صحيح. أصرّ الدكتور سافيج Savage، طبيبها الإخصائي وصديق الأسرة القديم، على أن تعيش بهدوء تام، بعيداً عن المدن إن أمكن. وحين عاد آل ستيفن إلى منزلهم في هايد پارك گيت في تشرين الأول وأخذوا يستعدون للانتقال منه ارتأوا ألا تشترك فرجينيا بمعمعة الانتقال. لذلك ذهبت لتقيم مع عمتها كارولين أميليا في كيمبردج. يمكنها هناك أن ترى أدريان الذي لم يزل في كلية ترينيتي (وجاء ثوبي ذلك الصيف) وكان المحيط هادئاً جداً ذلك

أن «المرأة الكويكر» أو «الراهبة» كما كانت فرجينيا تدعو عمتها، كـانت تحيا بنكـرانٍ هـادىء للذات في بيتهـا الصغيـر المسمىٰ «الشرفة».

بالإضافة إلى ذلك وجدت فرجينيا في كيمبردج عملاً نافعـاً ومـريحاً للنفس يليق بهـا جـداً. كـان المؤرخ ميتـلانـد F. W. Maitland، وهو أحد الشبان الذين اعتادوا الإقامة مع آل ستيفن في سانت آيفز، قد تزوج من فلورانس فيشر، إبنة خالة فرجينيا؛ وكان السيد لزلي يوده وقد طلب منه أن يكتب سيـرته إذا كـان لسيرته أن تكتب. كان ميتلاند يعمل على كتابة هذه السيرة حين وصلت فرجينيا؛ وكانت لديه رسائـل رأى أن من الضروري أن تقرأها قبل أن يراها ـ رسائل غرامية بين والديها ـ فكان عليها أن تختار منها ثم تستنسخ ما تختاره. طلب منها أيضاً أن تكتب بضع صفحات تصف فيها علاقة لزلي بأبنائه: كان ذلك أول شيء تكتبه يجد سبيله إلى الطباعة على الإطلاق. وصار ما كتبته مصدراً لما ذكره ذلك المؤرخ، برفقٍ ولياقة، عن أخطاء لزلي في أمور التعليم وتدبير المنزل، وانتهى إلى القول بـأن لزلي لم يكن يشعـر إلا بالمودة لصغاره.

قدّم جاك هيلز نصيحته بهذه المناسبة؛ خشي أن فرجينيا قد لا تكون حصيفة في اختيارها للمادة. كتب لها؛ لما يتمتع به من نفوذٍ شخصي هو نسيبٌ لهم، ومحامٍ أيضاً. كان جواب فرجينيا ضارياً. إنها «تهتم باللياقة والتحفظ عشرة آلاف ضعف ما يستطيعه هو عندما يتعلق الأمر بوالديها»؛ إنه لم يعرف لزلي قط معـرفة جيدة ولم يفهمه وإذا أراد أن يقدم نقداً أو نصحاً فعليه أن يقدم

ذلك إلى ميتلاند نفسه؛ إنه ـ وهذا كتبته إلى ڤيوليت دكنسون، «محام صغير مسكين ومتحذلق، وليست لديه فكرة عما ينبغي أن يكون عليه كتاب من الكتب أكثر مما لدى هذه البقرة السمينة التي أمامي في الحقل». كانت ڤانيسا متفقة معها في أساس الموضوع ولكن ڤانيسا كانت بالطبع ضعيفة كلما تعلق الأمر بجاك، لذلك أخذت جانبه. لم يكن هذا هو نزاع فرجينيا الوحيد معها، ذلك أنها بعد أسبوعين ضجرت من الإقامة في كيمبردج؛ لماذا لا تستطيع العودة إلى غرفتها الخاصة في بيتها؟ قد يمنع الأطباء ذلك، لكن الأطباء حسب خبرتها هم دائماً على خطأ؛ بوسعهم تخمين مرضك لكنهم لا يستطيعون شفاءك. إنها هنا في كيمبردج لا تنام جيداً؛ والمرأة الكويكر تثير أعصابها وأعصابها أمر تفهمه أسرتها وتقدره حق قدره، في حين لا تستطيع ذلك عمتها. لكن ڤانيسا أخذت برأيٍ منغّص مفاده أن أوامر الطبيب هي أوامر الطبيب ومن الواجب إطاعتها. ولسوء الحظ أضافت شيئاً، أو ظنت فرجينيا ذلك، يعني أن أحداً لن يهتم كثيراً سواءً كانت فرجينيا في كيمبردج أو في لندن. وهذا لم يساعد بالطبع على تسوية الأمور.

أخيراً تم التوصل إلى حلٍ وسط: عادت فرجينيا إلى المنزل الجديد في ميدان غوردون فقضت فيه عشرة أيام، ثم ذهبت إلى مدرسة Giggleswick في يوركشاير، ومديرها الآن هو قريبهم ويل ڤوغان Will Vaughan. كتبت ڤانيسا إلى ماج ڤوغان:

«إنها الآن بحالة حسنة تماماً، حقاً ـ عدا أنها لا تنام جيداً وتميل إلى أن تقوم بالكثير جداً في

بعض المجـالات. . . لا ينبغي لهـا أن تمشي بمفردها بعيداً جداً، وقتاً طويلاً جداً. . . هي الآن تخرج قبل أن تباشر الكتـابة صباحاً مـدة نصف ساعة بمفردها. . . ثم تسير بمفردهـا مرة أخـرى قبل الغداء مدة نصف ساعـة أيضاً ـ أمـا عصراً فهي تعتمد في المشي على الغير. فإذا استطاعت الخروج مع الصغار أحياناً فسيكون هـذا ملائمـاً للغاية. إنها تأوي إلى الفـراش مبكراً جـداً كما أظنك تفعلين، وهي من جميع النواحي الأخرى طبيعية».

تفحّصت فـرجينيا أسـرة فوغـان بشيء من الفضـول. كـان انطباعها الأول هو أن (ويل) غير جـدير «بمـاج» بأيـة حال من الأحوال. إنه استبـدادي وتقليدي إلى أقصىٰ حـد. كان يخشىٰ دائماً أن تتطارح فرجينيا الأفكار مع ماج عن مواضيع «شنيعة»؛ ثم أنها تقص على الأطفال قصصاً إن لم تكن «شنيعة» بالضبط فإنها غير لائقة بيـوم العبادة الأسبـوعي، اليوم المخصص «لكـراريس الأحـد» ذات الكآبـة التي تتسم بها. كـان على مـاج أن تؤدي المهمات جميعاً، ليس فقط مهمة الأم بل مهمـة زوجة المـدير أيضاً؛ وكان من المسلم به أن عملها كمؤلفة يأتي بالدرجة الثانية. ثم عدّلت فرجينيا من رأيها هذا مؤقتاً ـ كانت هذه هي طريقتها دائماً ـ واكتشفت في (ويل) صفـات أخلاقيـة وزوجية لا شـك فيها؛ لكنّ انطباعها الأول غدا في النهاية رأيها الأخير! إن ماج ما هي إلا إحدى النساء اللاتي يضحين بحياتهن ومواهبهن من أجل أزواجهن.

أما ماج التي تود فرجينيا و «تؤمن بعبقريتها» فقد كانت مع ذلك حساسة من تفحّص فرجينيا الدقيق، فزعةً منه. لذا نجد ڤانيسا تكتب لها بعد الزيارة لتطمينها:

«لا توجسي خيفة إذا استشهدتُ بما تسميه أنتِ بـ «المضحك» - أنا أعرف أنك تحسبيننا جميعاً نقّادين جداً - لكني لا أظن حقاً أننا ننتقد دون إنصاف - نحن بالتأكيد لا نضحك من الناس خلف ظهورهم ثم نجاملهم في وجههم. لذا لا تخشي أبداً بأننا سنتقوّل عن «هوسك الحماسي»! لم تحدثني فرجينيا عنك وعن (ويل) إلا بالتقدير لشخصكما - وأنا أرى أن صمام الأمان عندها هو أنها تدرك دائماً الشيء الطيب حقاً في الناس. إنها من الذكاء بحيث تجد عدداً كبيراً من الناس ثقلاء - وأظنها غالباً ما تستمتع بالتعبير عن آراء جادة مهما تكن حقيقية ولكنها موقتة دائماً - أما حين يعرف المرء طريقتها فإنه يستطيع أن يميّز الشيء الدائم بنظرها عن الشيء المتغير - وبوسعي أن أقول لك بأمانة تامة أنني لم أسمعها قط تذكر شيئاً غير لطيف حقاً بأحدٍ من الناس. لذا لا أظن أن الانتقاد يهم كثيراً. فعلى الإنسان العاقل أن يكون نقّاداً في بواكير عمره. وفرجينيا ستغدو بالتأكيد أكثر تسامحاً، بل أرى أن الأمر إنما ينشأ الآن جزئياً من تمسكها بالمستوى الرفيع

للنظر إلى الأشياء». من المحتمل أن ماج لم تجد هذه الرسالة مطمئنة كلياً.

كانت الزيارة إلى غيغيلزيك شيئاً مهماً ليس فقط لأن فرجينيا تمكنت من معرفة المزيد من إمرأة كانت قد شغفت بها ولم تزل تكنّ لها الود، بل لأن الزيارة أتاحت لها أيضاً موضوعاً لأول مقالٍ ينشر لها[1]. فحين كانت في يوركشاير زارت أبـ شية هـاوورث وكتبت عنها وصفاً بعثت به إلى الغارديان، وهي صحيفة أسبوعية لندنية كانت تعبر عن رأي جمهور يعمل على زيادة نفوذ الكنيسة في الدولة. كانت السيدة ليتلتون، التي التقوها في فلورنسا، هي محررة الملحق النسوي في الصحيفة، وصديقة لڤيوليت دكنسون. شعرت فرجينيا أن عليها أن تكسب مالاً لتعويض شيء من نفقات مرضها في الأقل، وكانت واثقة بأن في وسعها أن تكتب كأحسن ما يكتب محررو المقالات النقدية في الغارديان، وإن كانت أقرت بأن ثمة أسلوباً بعينه للكتابة في الجرائد لم يزل عليها أن تتعلمه.

وجدت فرجينيا في الغارديان، بفضل ڤيـوليت دكنسون التي عرّفتها على المحررة، وبفضل تشجيعها المستمر أيضـاً، متنفساً منتظماً إلى حدٍ ما لمحاولاتها المبكرة في الصحافة. لقد كانت تتدرب منذ أمدٍ طويل لكي تصبح كاتبة. بعبارة أخرى كانت تقرأ بنهم وتكتب بروية. تتألف دفاتر يومياتها خلال تلك السنوات من

---

(١) نُشر عرضها لكتاب The Son of Royal Langbirth الذي كتبه W.D. Howells في الغارديان في ١٤ كـانون الأول ١٩٠٤؛ أمـا مقالهـا عن أبرشية هاوورث فقد ظهر بعد أسبوع. لكن ذلك العرض كتب في الواقع بعد هذا المقال. (رسالة من فرجينيا إلى ڤيوليت في ١٩٠٤/١١/٢٦).

مقالات معتنىً بها كأنها كتبت من أجل النشر: محاولات في وصف يوم ٍ في الريف، زيارة لحي من أحياء المدينة، ليلة تقضيها في الإصغاء لموسيقىً تأتي من حفلة راقصة لدى الجيران، وهذا كله محاولات لكتابة ذلك النمط بالذات مما حققته في مقالها عن أبرشية هاوورث. كانت في ذلك الوقت تكتب أيضاً سيراً مضحكة لكارولين ستيفن والخالة ماري فيشر وجورج دكوورث، وقد فقدت كلها مع الأسف؛ وأظن أنها كانت ستغدو أكثر إمتاعاً لنا من مقالاتها في الدفاتر. ذلك أن تلك المقالات لا أهمية لها بشأن تاريخ حياة الكاتبة سوى بقدر ما تشهد به من الجدية العظيمة والشمولية الواسعة التي أعدت بهما فرجينيا نفسها لحرفة الأدب. إن قراءاتها وكتاباتها المتواصلتين والانفعاليتين أيضاً إنما قصد بهما التعويض عما لم تحز عليه من «التعليم الحقيقي» على حد تعبيرها، وتعني بذلك التعليم الجامعي. لقد زودتها ممارستها للكتابة بطلاقة معينة، بيسرٍ في الخطاب غير مألوف في صحفية فتيّة؛ وجعلتها قراءاتها التي لا تكل تظهر في عيون أبناء عصرنا بمظهر الأديبة المتكلفة. إننا نعيش في مجتمع ليس لديه إلا القليل من الوقت للكتب ولا يعتمد كثيراً على الكلمة المكتوبة؛ لم نعد نعتبر بحكم الشيء المسلم به أن جميع المثقفين هم على إطلاع وثيق بالأدب الانكليزي والفرنسي وأنهم سيتعرفون على الفور على مقتبس من جونسون أو من لاروشفوكول؛ كانت هذه فرضية طبيعية جداً بالنسبة إلى ابنة السير لزلي ستيفن.

ومن الآن فصاعداً أصبحت فرجينيا مستخدمة بانتظام ككاتبة

للمقالات القصيرة والعروض النقدية. إنها تستطيع أن تتناول بقلمها أي شيء تقريباً.

عادت فرجينيا إلى لندن، ومنها إلى كيمبردج مرةً أخرى، ثم ذهبت مع الآخرين من أفراد أسرتها إلى المنزل الريفي للعمة مينا في نيو فوريست (وكانت العمة غائبة). قضوا هناك عطلة رائعة في الكرسمس، ولكنها روعة شوهتها إلى حدٍ ما، بالنسبة إلى فرجينيا، صحيفة The Cornhill التي رفضت لها باقتضاب مقالاً كتبته عن رسائل بوزويل، كما شوهها السيد هولدين Haldane السياسي من حزب الأحرار، الذي كتب على نحو غير حماسي إلى ڤيوليت دكنسون عن مقال فرجينيا في أبرشية هاوورث[1]. كان هذا أول ما ذاقته فرجينيا في النكسة الأدبية، فلم تحب الطعم. مع هذا كان هناك ما يثير المتعة؛ فثوبي وأدريان يخرجان للصيد؛ وفي المساء ثمة كثير من المأكل والمشرب والمرح. كانوا يبحثون عن أسخف ما يعثرون عليه من الروايات في مكتبة عمتهم فيقرأونها جهاراً وهم يضجون بالضحك؛ كانوا فتيةً، لا يقدسون

(١) «كذلك لم يكن هولدين في مديحه إلا فاتراً جداً، وعلى العموم أشعر أني، كما تقرأين في الإنجيل، محتقرة من الرجال ومرفوضة منهم». (رسالة فرجينيا إلى ڤيوليت في كانون الثاني ١٩٠٥).

أما الذي قاله هولدين بالضبط فهو: «عزيزتي الآنسة دكنسون: أشكرك لإطلاعي على مقال الآنسة ستيفن عن الأبرشية - المكان الذي أهتم به، كما تعلمين، أعمق اهتمام. يا لها من مزايا - لكني أظن أن بوسع الكاتبة أن تتعمق في موضوعها أكثر مما فعلت. على أن هذه بداية، وهي تظهر موهبة»... (رسالة من هولدين إلى ڤيوليت في ٢٧ كانون الأول ١٩٠٤).

شيئاً ولا تحدهم حدود. كان الرسم من مشاغل فرجينيا الغريبة في أوقات فراغها، وقد خصصت وقت العمل للإسهام في كتاب متيلاند عن سيرة أبيها، فانتجت في رسمها نسخاً ضعيفة، لكنها تتسم بشيء من الحسّ، منقولة عن بليك Blake وروزيتي Rossetti.

في أوائل العام الجديد قام الدكتور سافيج بمعاينة فرجينيا فسرّها ما أخبرها به قائلاً إنها شفيت تماماً وأن بوسعها الآن أن تحيا حياة طبيعية. هذا يعني أنها تستطيع العودة إلى لندن والرجوع إلى البيت الذي افتتح في غيابها وهو المنزل رقم ٤٦ في ميدان غوردون في حي بلومزبيري، Bloomsbury.

حين عزم أبناء ستيفن على هذا الانتقال دهش أصدقاؤهم وأقرباؤهم وصدموا بعض الشيء. فهذا الحي الذي ينتقلون إليه ليس حياً محترماً. كتبت فرجينيا تقول: «إن كيتي ترفع عقيرتها ضد بلومزبيري» (كان هذا في آذار ١٩٠٤)، وربما كانت هذه أول من أشهر المعارضة. ولكن ميزة المكان كانت تتمثل بوقوعه بعيداً جداً عن ذلك المنزل القديم الذي نشأوا فيه فشهد مآسٍ كثيرة. كان بعيداً عن مركز الزيارات المحببة عند هذه العمة أو تلك الخالة ومن لفّ لفهما. كذلك كان رخيصاً. لم يرث أبناء السير لزلي مالاً كبيراً، وعُمِّيت عليهم الأمور بشأن دخلهم ـ وهذا ما سنبحثه في ما بعد ـ على أنهم كانت لديهم بالتأكيد الحوافز كلها للانتقال إلى حيٍ بدلات الإيجار فيه أرخص بكثير من الحي القديم. كان لدى ڤانيسا دافع إضافي هو قربها من مدرسة سليد Slade التي انتمت إليها بعض الوقت.

كان المنزل الجديد أوسع فضاءً وأحسن إضاءةً من المنزل القديم، وقد أكّدت ڤانيسا على مزاياه هذه حين استأجرته في خريف ١٩٠٤. كانت أفكارها عن التزيين الداخلي متأثرة كثيراً بچارلس وكاترين فورز[1] إذ أعجبت بما في بينهما من سطوح واسعة، فارغة، مدهونة بالأبيض، فتكون الرسوم المعلقة عليها بارزة كل البروز ومنعزلة إحداها عن الأخرى. كان ذلك جزءاً من تحولٍ أكبر في الاتجاه الفني، فقد أخبرت كلايف بيل بأنها أفلحت في إقناع فرجينيا «بعدم وجود ما يقال أبداً» في صالح معبود الأسرة واتز G.F.Watts. واتز ينتمي إلى الماضي الفكتوري الأسود؛ أما الجيل الجديد فيبغي الهواء والبساطة والضوء. فالانتقال إلى بلومز بيري إذن ما هو إلا فرار من الماضي ومن أهواله كلها.

على أنه كانت هناك ثغرة فتاكة، شنيعة. لقد سرّ جيرالد بأن ينفصل عن الآخرين، فأقام لنفسه شقة خاصة يقيم فيها بمفرده؛ أما جورج، ذلك الودود اللطيف دائماً، فلم يستطع أن يحتمل ترك أختيه دون أحدٍ سوى ثوبي وأدريان اللذين كانا من الناحية الاجتماعية أسوأ بنظره من العدم. يجب عليه أن ينضم إلى المجموعة. كان قد شعر بالأسف بلا ريب لإصرارهم على

---

(١) كان هذا العضو في نادي الفن الإنكليزي الجديد متأثراً جداً بويسلر Whistler وقد تزوج من كاترين وهي البنت الصغرى لـ J.A. Symonds فهو بالتالي عديل زوج ماج ڤوغان. مات فورز قرابة هذا الوقت (في ١٦ تشرين الأول ١٩٠٤).

الذهاب بعيداً جداً عن المنطقة الراقية من المدينة ولكنه يستطيع الوصول إليها متى شاء. استقبل الآخرون تصميمه بالامتعاض؛ لكنهم لا يعرفون سبيلاً للوقوف في وجه هذا الشعور الأخوي المتسم بحسن النية. كانوا في واقع الأمر ضعفاء حد الجبن: ذلك أن الحكاية الطويلة لاهتمامات جورج قد بلغت أخيراً حداً من العلنية بحيث كان من الممكن أن يناقش الحساب. فحين أصيبت فرجينيا بالجنون في صيف ١٩٠٤ أخبرت ڤانيسا الدكتور سافيج بما كان يجري، ويبدو أن هذا وبّخ جورج عن سلوكه[1]. لعل جورج نفسه شعر آنئذٍ بأن وجوده تحت سقف واحد مع أختيه غير الشقيقتين لم يعد أمراً مرغوباً فيه. لكنه كان غبياً على نحو دافع وغير قادر على السير ضد مشاعره، وهكذا فبعد أن واجهوا إصراره الدمث اضطروا إلى الموافقة على مضض. لقد تلاشت إذن آمالهم كلها في الهروب من الماضي: إن الماضي قادم ليعيش معهم.

ولكن، وبما يشبه المعجزة، جاءت الأقدار بالليدي مارغريت هيربيرت فخطبها جورج فقبلته، وتزوجا «بأبهة متناهية»، وكانت فرجينيا يومئذٍ في طور النقاهة تستجم في تيفيرسال في خريف ١٩٠٤. كانت ڤانيساوصيفة العروس، وامتاز أدريان بأن أضاع أغراضها كلها. وهكذا تخلص منزل بلومزبيري من كارثة محققة.

---

(١) «إن جورج يرميني على السرير ويعابثني ويقبلني ويعانقني محتضناً إياي زاعماً للدكتور سافيج أنه إنما كان بذلك يسرّي عني من أسى المرض القاتل لأبي - الذي كان يحتضر مصاباً بالسرطان تحتنا بثلاثة طوابق أو أربعة».

لذا فإن المنزل الذي عادت إليه فرجينيا في كانون الثاني ١٩٠٥ كان يتألف من أبناء ستيفن وحدهم دون غيرهم. كتبت ڤانيسا إلى ماج ڤوغان تقول:

> «إني لأتساءل كثيراً كيف ستبدو أمورنا بنظر الذين كانوا يعرفوننا والذين عاشوا معنا قبل سنين... الواقع أن الوضع مثالي جداً، فنحن نعتني بمنزلٍ سكانه كلهم متقاربين في أعمارهم. هذا ييّسر الأمور ويزيل الصعوبات المتعلقة بالتوفيق بين الطلبات المتعارضة من أجيال مختلفة... كل ما أرجوه هو أن نستمر على هذا المنوال ـ وقد نستمر أمداً طويلاً قادماً على أية حال. ولكني أتوجّس خيفة من أن أسمع ذات يوم أن ثوبي قد أحب!».

في منزلٍ للشباب، لا يراقب سكانه أحدا ولا يرافقهم وليٌّ للأمر، في منزلٍ أتعبت أهله المواضعات الاجتماعية فجعلت من البيت القديم في هايد پارك گيت شيئاً مضيئاً جداً وأليماً جداً، في منزلٍ للشباب كهذا تأخذ الإمكانيات بالظهور بشتى أنواعها. لماذا اللباس الرسمي للعشاء؟ فيم التسامح مع الثقلاء؟ لماذا يعبأون بالمجتمع؟ ولماذا لا يصادقون أناساً يتحدثون عن الفن والأدب والدين والحب بدون خزعبلات؟ بدا لهم كل شيء ممكناً غير أن الحريات التي تبتغيها الآن الآنستان ستيفن هي في واقع أمرهما حريات متواضعة حتى بمقاييس عصرهما. كانت أهدافهما المباشرة من النمط السلبي؛ لقد أرداتا أن تتحررا من التدخل

المستمر والمزعج لأقربائهما؛ وقد طلبتا الحرية؛ لكنهما بالتأكيد لم تتناديا لاتباع مسلك إباحي. بل إنهما نادراً ما تجردتا عن مواضعات مجتمع لم يزل مقيداً بقواعد صارمة جداً. كانت سذاجة فرجينيا في ذلك الوقت من النمط الذي لا يكاد يصدق اليوم؛ لم يكن يسعها الافتراض، رغم قراءاتها كلها، بأن من الممكن أن يكون بعض معارفها قد فقدوا عذريتهم، ومع أنها تعرفت على شخصية كوريدون Corydon بين صفحات فرجيل فإنها ستفزع لو علمت أن أمثاله هم من أصدقاء ثوبي ومن زوار منزلهم الجديد. يذكر ليونارد وولف أنه في المرة الأولى التي رأى فيها فرجينيا وڤانيسا وجدهما بصحبة مرافقة هي معاونة المدير في كلية نيونام للبنات في كيمبردج، مع أنهما جاءتا إلى كلية ترينيتي لزيارة شقيقهما ليس إلا. ولزلي، الذي كان عند ولادة فرجينيا بعمر جدها، إنما ينتمي إلى جيل بلغ النضج في ستينات القرن الماضي، وكان «فكتورياً مبكراً» كما أن غنوصيته لم تجعله أقل توقاً للحفاظ على اللياقات بل أكبر تشدداً فيها. أعانته في هذا نساء من قريباته، بالإضافة إلى جورج طبعاً. كذلك كان ثوبي على العموم راعياً للأعراف المقررة، كما أن شقيقتيه كانتا خجولتين، وأما الصغرى فخجولة إلى حدٍ لا أمل في الخلاص منه. فبوسع المرء أن يرى إذن مدى العسر في قطع الصلة بالتقاليد، والواقع أن فرجينيا لم تكن تنقصها الشجاعة وحدها بل الرغبة كذلك بأن تفعل هذا في ذلك الوقت.

لعل تاريخ قطع هذه الصلة يرجع إلى يوم السادس عشر من شباط ١٩٠٥ حين استقبل ثوبي في منزلهم الجديد ساكسون

سيدني - تيرنر، فقد كان ثوبي يحضّر دروسه في لنـدن لغرض الانتماء إلى سلك القانون، وأراد أن يرى أصدقاءه من كيمبردج فأعلن لهم أنه سيستقبل الضيوف في البيت مساء كل خميس. في هذه المناسبة الأولى كان هو وضيفه هذا والكلب غورث يؤلفون الجماعة بأسرها. لا بد أنها كانت أمسية هادئة، ذلك أن ساكسون سيدني - تيرنر لم يكن رفيقاً كثير الحيويـة. والواقـع أن أغلب أصدقاء ثوبي كانوا على ما يبدو من الصامتين بشكل مفرط، وحين بـدأت الآنستان ستيفن تـظهـران في أمسيـات الخميس وجـدت فرجينيا على أية حال أن صمتهم يثير الحرج. إن إثنين منهم، سيـدني تيرنـر وربما هـاوتري R.G.Hawrey، جـاءا ليقيمـا في كورنوول مع أبناء ستيفن في ذلك الصيف وقد راقبتهما فرجينيـا بانبهار. كتبت تقول:

> «إنهما عبارة عن محنة كبرى؛ إنهمـا يجلسان صامتين صمتاً مطبقاً، طيلة الوقت. ينسلّان أحياناً إلى زاوية فيتضاحكان بخفوت عن نكتـة لاتينية. لعلهما مغرمان بڤانيسا، من يدري؟ سيكون ذلك عملية صامتة جديرة بذوي العلم الغزير. على أني لا أظنهمـا من قـوة العـود بمـا يكفي أن يشعـرا بالكثير. أوه، إن النساء هن اختصاصي لا هؤلاء المخلوقات الراكدة. وأسوأ ما في الأمر أنهما لا يمتلكان الطاقة على المغادرة».

ما الذي استفاده هؤلاء من هذا الامتياز العظيم في الثقـافة الجامعية التي حـرمت فرجينيـا منها؟ يبـدو أن هذا الامتيـاز قد

أصابهم بالتحفظ والحذر فجعلهم في حالة يرثى لها. كانوا يظنون بأنفسهم أحسن الظن وكانوا على درجة غير قليلة من التكلف ولم يكن لتصنعهم ما يبرره إذ لم تتمخض مدعياتهم الكثيرة إلا عن شيء سخيف - ألا وهو ما سمّوه «يوفروسين» Euphrosyne. كان هذا ديواناً للشعر نشروه بطبعة خاصة في سنة ١٩٠٥ وأسهم فيه كلايف بيل وليتون ستراچي وولتر لامب وساكسون سيدني - تيرنر وليونارد وولف وآخرون، وهو ديوان لم يشيروا إليه إلا نادراً في السنين اللاحقة حتى كاد أن يطويه النسيان لولا أن فرجينيا أرادت أن تبقي ذكره حياً. كان الديوان بالتأكيد صدمة مخيبة للآمال؛ فما من أحدٍ من المشاركين فيه كان شاعراً حقاً. هزأت فرجينيا بهذا العمل وبدأت تكتب مقالاً في تجريح الديوان والمساهمين فيه.

هؤلاء هم إذن أصدقاء ثوبي المبرّزين: كلايف بيل الذي يفترض فيه أنه مزيج من الشاعر شيلي ومن المزارع المحترم، وسيدني - تيرنر الذي يخصّونه بالألمعية بالذات.

قال ثوبي لفرجينيا «إذا كنت تقصدين سرعة البديهة فأقول: لا، إنه ليس سريع البديهة؛ لكنه صادق، فإذا كان صامتاً فلأنه شديد العناية بقوله كلمة الحق». وما لبثت فرجينيا أن أقرت بعد حين بأن ما قاله ثوبي لا يخلو من الحقيقة. إن التحفظ لدى هؤلاء الشباب غير الاعتياديين ليس كتحفظ أولئك الشبان في الحفلات التي كان يأخذها جورج إليها؛ وصمتهم ليس كصمت أولئك الذين يسعون وراء ما يناسبهم من الابتذال. كانت فرجينيا تشعر حين يتكلم هؤلاء الفتيان الجدد أنها تسمع نوعاً من

المحادثة لم يطرق أذنها من قبل. إن ملاحظة عرضية، أو قولاً قابلاً للنقاش، أو شيئاً ما يذكر عن جمال الرسوم مثلاً، سيحول فجأةً إلى استرســال مستفيض، ويؤول إلى بحثٍ عميق على مستوى أعلى فأعلى من أناس أقل فأقل.

«إن الأمر ليملأني عجباً وأنا أرقب هؤلاء الذين أفرزهم الجدل وهم يضعون حجراً فوق حجر، بحذر، في الموضع الصحيح، فإذا بالبنيان قد ارتفع شاهقاً فوق مستوى نظري.. فيلمح المرء أن شيئاً من قبيل المعجزة يحدث في أعالي الفضاء. غالباً ما نظل جالسين في حلقة حتى الثانية أو الثالثة صباحاً. ويظل ساكسون يخرج غليونه من فمة كمن يريد أن يتكلم ثم يعيده إلى فمه دون أن يتكلم. أخيراً ينطلق، وهو ينكث شعره إلى الوراء، ليعطي تلخيصاً نهائياً ما بعده تلخيص، باقتضاب شديد. إن البنيان الرائع قد اكتمل، فيذهب المرء مترنحاً إلى سريره وهو يشعر بأن شيئاً ما شديد الأهمية قد حدث. فلقد ثبت أن الجمال يكوِّن ـ أو لا يكوِّن ـ جزءاً ما من هذا الرسم أو ذاك. أما أنا فلا أدري أيّ جزءٍ هو».

هذا إذن شيء مختلف عن تلك الحفلات التي فيها قد يرضي الشاب الأنيق نفسه بترداد العبارات الشكلية بنبرات شتى طوال المساء. أما في اجتماعات هذا المنزل الجديد فما من أحد

أنيق الملبس بين الحاضرين؛ وبالتأكيد ليست ڤانيسا وفرجينيا كذلك. هنا يطلب إليها فعل شيء لم يكن مطلوباً منهما سابقاً - استعمال عقلهما. أما غير ذلك فلا يهم كثيراً. وفيما كان الغرض الضمني من حفلات الأحياء الراقية هو البحث عن الزواج فإن الغرض من الحفلة في بلومزبيري هو تبادل الأفكار. إن هذا الموقف العقلي المحض لأصدقاء ثوبي من طلاب كيمبردج، أو موقف معظمهم في الأقل، هو الذي أثار اهتمام فرجينيا، كما سرّها أن تحرر من سوق الزواج.

وفي حزيران ١٩٠٦، أي بعد أقل من سنة من كتابة فرجينيا لڤيوليت دكنسون تصف سدني - تيرنر وصديقه بأنهما من «المخلوقات الراكدة» ألفت فرجينيا قصة قصيرة عن حياة فتاتين، هما فيليس وروزاموند. إنهما إبنتا موظف كبير وتعيشان حياة اجتماعية كاملة: «وتبدوان من أهالي غرفة الاستقبال». فهذه الغرفة هي محل عملهما، السوق التي فيها تبيعان نفسيهما بالسعر الأعلى. تنظر إليهما فرجينيا بتعاطف، فهما تتمتعان بالاحترام للنفس وبفضيلة الولاء، وهما ليستا بلا إحساس ولا من السخيفات؛ مع هذا فإنهما، وقد درّبتهما أمهما، مقضيٌّ عليهما بالمرور عبر خطوبة خالية من الجدل إلى زواجٍ خالٍ من الحب. تذهب بهما فرجينيا إلى أمسية خميس في منزل بلومزبيري - كأنهما الآنستان ستيفن لعام ١٩٠٣ تزوران الآنستين ستيفن لعام ١٩٠٥. تصاب فليس وروزاموند بالحرج من عدم مبالاة أولئك الناس بمتع الحياة الدنيوية، ومن ضراوة المحادثة. فالحب يبحث، ولكنْ لا يعتبر الحب بالنسبة إلى أولئك الناس تلك اللعبة

الرهيفة من ألعاب الزينة والإغراء التي تجيد لعبها فيليس وروزاموند جيداً، وإنما هو «شيء قوي العود وأصيل، يقف في ضوء النهار عارياً وصلداً لكي يوفّىٰ حقه أو يستقصىٰ على خير وجه». لم تستطع الزائرتان أن تكونا بمستوى هذا النوع من الصراحة، فتعودان إلى البيت وهما على قدر قليل من الإعجاب وغير مسرورتين بما شهدتا على العموم؛ فقررتا أن مثل هذه الحياة لا تصلح لهما.

تطور منزل بلومزبيري بالتأكيد، حتى غدا محرجاً على نحوٍ متزايد. جاء جورج متفاخراً وعروسه الأرستقراطية على ذراعه، فقدّم لها سدني - تيرنر بانحناءة وبهرجة. كان هذا كالعادة يشعل غليونه فلم ينثن عن ذلك؛ تزحزح عن مقعده قليلاً على نحوٍ مزرٍ، وهز رأسه قليلاً وأبقىٰ عود الثقاب مشتعلاً في يده. لم تكن ثيابهم أفضل من سلوكهم. وهذه كيتي ماكسي تندبهم فتقول: «أوه يا عزيزي، ما أفظع منظرهم!» وهذا هنري جيمز يقول: «شيء مستهجن! مستهجن! كيف يمكن لڤانيسا وفرجينيا أن يكون لهما مثل هؤلاء الأصدقاء؟».

وهكذا كان أبناء ستيفن يواجهون في الحال مشكلة عويصة. فأصدقاء ثوبي «غير مناسبين»، كما أن بقاءهم حتى الثالثة صباحاً يتكلمون دون إشرافٍ من وليٍّ للأمر مع شقيقتي ثوبي هو بدوره «أمر غير مناسب» من باب أولى. كان لا مناص في النهاية من الاختيار بين الأصدقاء القدامىٰ والجدد، لكن فرجينيا لم تكن تتصور في ١٩٠٥ أن مثل هذا الخيار شيء ممكن.

«منذ أن رأيتك وأنا أتجول في مجتمع سباق

> الخيـل، أعني تعشيت مـع جـورج والليـدي كـارنارفـون ـ الليدي (ك) الصغرىٰ هذه المـرة فشكـراً لله. كـانت الليلة هي ليلة السبـاق وقـد تحدثنا عن الخيل طيلة الليل، ولعـل ذلك أكثر إثـارةً لـلاهتمـام من الكتب. ثم رأيت الليـدي مارغريت دكـوورث، وهي امرأة لـطيفة وقـد بدأ تعارفنا يعد خيراً. لا بد لنا أن نعرف بعضنا بعضاً طوال حياتنا، لذا يمكننا التمهّل بشأن ذلك».

كانت جملة «طوال حياتنا» هي التي تفرضها مثل هذه القرابة الوثيقة. وأحسب أن ڤانيسا كانت تعي أصلاً أن هذه الجملة يمكن تقصير أمدها أو إلغاؤها كلياً، إن كان المقصود حفـلات العشاء المكرسة كلياً لسباق الخيل. لكنها حتى هي، لم يكن بوسعها في أشد لحظات تفاؤلها إفراطاً، أن تفترض آنئذٍ بأنها حين يستفسر منها أحد الذوات المهذبين بعـد سنوات عن «حمـاتك الـرائعة» ستحاول جاهدة إيجاد جواب لا يفضح الحقيقة وهي أنها لا تعرف إن كانت السيدة حمـاتها حيـة أم ميتة. ذلـك أن الأمور انتهت بعدئذٍ على هذا النحو؛ فقد نمت بلومزبيري لا بعقد الصداقات فقط بل بقطعها أيضاً.

لم يكن من الممكن وجـود خيـار حقيقي بين «المجتمـع الطيب» و «الصحبة الـرديئة» التي كـانوا يحتفـون بها، وإن لم يتضح ذلك جلياً إلا بعد سنين متعـددة. إن جورج وأصـدقاءه المتأنقين لا يمثلون مشكلةً ما. وكيتي ماكسي وڤيوليت دكنسون لهما أسبقيتهما في الصداقة فقطعها في ١٩٠٥ لم يكن أمراً يخطر

على البـال؛ ولكنْ أخـذ يتضـح أصـلاً أن هـؤلاء الشبـان «المستهجنين» إنما يمثلون ذلك النـوع من القيم التي تكنّ لها ڤانيسا وفرجينيا أعظم الاحترام، وحين بدأ أولئك الشبان يتكلمون فإنهم كشفوا عن شخصيات لم تكن تخلو من جاذبية.

بالغت فرجينيا (كما بالغت أنا أيضاً) بشأن صمتهم؛ لعل من الممكن تقسيمهم إلى قسمين: الحلقة المركزية وهي المجموعة المصمتة من الذين ينشدون الحقيقة وهم جلوس ينفخون غلايينهم عنـد أعتاب ذلـك المعبد المقـدس، العليم، الذي يمثله مـور Moore، وهذه المجموعة تتألف من سـاكسون سيـدني ـ تيرنـر وليونارد وولف وليتون ستراچي. أما القسم الثاني فعبارة عن دائرة خارجية هي أكثر اهتماماً بالدنيا وأكثر ثرثرةً، وكانت تتـألف في أمسيات الخميس في ١٩٠٥ و ١٩٠٦، من ثوبي نفسه وكلايف بيل وديسموند ماكارثي، وهذا الأخير هو من مريدي مور الخلّص ولكنه لم يكن صموتاً قط. لا بد لنـا أن نلاحظ هنـا أن هؤلاء الشباب خاصةً، الذين سيصبحون في ما بعد من أقرب أصدقاء فرجينيا إليها، لم يكونوا في ذلك الوقت مجموعـة منفصلة عن آخرين كثيرين من أمثال وولتر لامب وغيره، وكانـوا كذلـك من أصدقاء ثوبي في كيمبردج ويؤمّون أمسيات الخميس. سيكون من الخطأ على ما أظن أن نتصور وجود صفـوة مختارة متميـزة عن الآخرين.

كان ليونارد وولف من أوائل أصدقاء ثوبي الذين استضيفوا في منزل بلومزبيري، وجاء لتوديع أبناء ستيفن عشية مغادرته إلى سيلان. تناول العشاء معهم يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٠٤؛ كانت

فرجينيا حاضرة فهي في لندن مدة أسبوع ما بين زياراتها إلى كيمبردج وغيغيلزيك. يتذكرها ليونارد صامتة تماماً طيلة العشاء وهو يرى أعراض مرضها بادية عليها. لكنها لحظت وجوده وجمعت عنه الأقاويل. قال عنه ليتون ستراجي إنه سيقتل زوجته يوماً ما كما فعل سويفت. قيل عنه إنه يحتقر الجنس البشري بأسره. إنه حين يغضب ينتفض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وهو عنيف جداً ومتوحش جداً؛ وقد سحب إبهامه من مفصله في حلم من الأحلام؛ كان باختصار شخصية جدية وقوية؛ لكنه ذهب لكي يعيش في غابة لا يعرف هل يعود منها أم لا.

كان ليونارد وولف شخصية غامضة في خلفية المشهد، في حين كان ساكسون سيدني ـ تيرنر لغزاً في مقدمته. كان هذا بلا ريب ذا موهبة في الصمت وحين يتكلم أحياناً فهو يبحث إلى ما لا نهاية وبعلمٍ غزير في مواضيع ليست ذات أهمية، أو يكون غامضاً تماماً. مع ذلك فبوسعه أيضاً أن يكون في غاية الوضوح؛ إنه كما هو واضح ذكي وموهوب إلى أقصى الحدود؛ كان ينظم الشعر، ويرسم؛ وكان موسيقيّ النزعة، مهووساً بحضور الحفلات الموسيقية والأوپرات فهو يسافر بانتظام إلى بايروث Bayreuth في النمسا ويستطيع أن يخبرك من الذي غنّى المقطع الفلاني من هذه الأوپرا أو تلك منذ أن بدأت بايروث احتفالاتها الموسيقية. كان كذلك مؤلفاً موسيقياً، وفي إحدى لحظات انفتاحه النادرة أفصح إلى كلايف بيل يقول:

«السوناتة الأخيرة لي فريدة بين أعمالي لما لاقته من استحسان، وهي تحتوي على مقاطع

جميلة كأحسن القطع الموسيقية على الاطلاق.
أتمنىٰ أن أطبعها بعد صقلها، لكني لا أعرف
كيف».

كان هذا في آذار ١٩٠٦. فهل كان واضحاً أصلاً لأصدقاء سيدني - تيرنر أنه لن يتمكن أبداً من إكمال تلك السوناتة وأنها ستظل غير معزوفة فتختفي كما اختفت تآليفه الموسيقية الأخرى كله؟ لست أدري. أما بعد نشر ديوان يوفروسين فلم تستطع فرجينيا أن تفترض بأنه سيصبح شاعراً عظيماً، لكنه قد يكون موسيقياً؛ غير أن الظاهر على وجه اليقين أن عقلاً مدهشاً كهذا لا بد أن يحقق لنفسه ذات يوم إنجازاً ما كبيراً. كتبت فرجينيا عنه تقول:

«استمر أصدقاؤه على إيمانهم به. فهو بنظرهم سيصبح واحداً من أعاظم الرجال في زمانه: لعله يعكف على نظم قصيدة بعد ساعات العمل، حين يعود إلى ذلك المنزل اللندني الكالح في شارع خلفي. وهم يناشدونه: متى تنتهي القصيدة؟ متى تنشر؟ دعنا نرى ما نظمت. أم أنه يكتب تاريخاً؟ أو فلسفة؟... كان يدرس فن مزج الألحان في علم النغم الموسيقي. كذلك كان يعلّم نفسه الرسم. وكان يدرس اللغة الصينية... ولم ينشر شيئاً. أما أصدقاؤه فيقولون: انتظروا قليلاً. وقد انتظرنا...».

كذلك كان واضحاً أيضاً أن ليتون ستراچي سيخلق لنفسه

إسماً يوماً ما. كان هذا هو قائد الجماعة كلما احتاج أولَئك الشباب إلى قائد. كان ستراچي، كساكسون سيدني - تيرنر، رجلاً صامتاً جداً؛ لكن صمته كان في نوعيته أشد إفزاعاً؛ ففيما كان سيدني - تيرنر يَخْرُجُ أحياناً، عندما يقطع صمته فيطفو على السطح، بلؤلؤة من الحكمة، كان ستراچي يلوِّح أحياناً مهدداً بيدٍ سريعة أو يكشِّر أحياناً عن أسنان كريهة. إن بوسعه بجملة واحدة مقتضبة وقارصة أن يدفع بالجميع إلى ضحكٍ يغصون به أو يجعل مغفلاً بين الموجودين يزيد غضباً - وقد تكون أنت هذا المغفل. لعل ستراچي كان سبباً من الأسباب التي جعلت فرجينيا نفسها تلتزم الصمت في أمسيات الخميس. وأحسب أنها وجدته مرعباً جداً (أيّ رجلٍ كان مرعباً لها إلى حدٍ ما)؛ ولم تكتشف أن بوسعه أن يكونَ لطيفاً جداً ومتعاطفاً جداً إلا في ما بعد. كان آل ستراچي دائماً على هامش حياتها، أما شقيقات ليتون فهن ما يمكن أن يسميه المرء صديقاتها الطبيعيات، ذلك أنهن ينتمين إلى عالَم آل ستيفن نفسه - الطبقة الوسطى الأعلى المثقفة في مدينة لندن. كنّ كلهن مريعات ولهن طريقة في الكلام يمكن أن تدخل الفزع في قلب السامع. بوسعهن استخدام توكيدٍ ما في نطق الكلمات مما يبرز ما يضمرنه من تهكم أو تكذيب، أو ما يردن إظهاره من استغراب مفاجىء مذعور تجاه الجهل أو عدم الاستقامة أو مجانبة الروح الإنسانية. كانت فكاهاتهن العائلية متعددة وسرية؛ وكان آل ستراچي بمثابة العشيرة أكثر مما كان عليه آل ستيفن، وقد ربطتهم بالجيل القديم علاقة أسعد حالاً بما فيها من ظروفٍ هانئة. لم يصبح ليتون بنظر فرجينيا أهم الأعضاء في تلك الأسرة إلا تدريجياً.

وبـدا ديزمـوند مـاكارثي أكثـر وثوقـاً من النجاح من ليتـون ستراچي. كان من جيلٍ أقدم قليلاً في كيمبردج فقد تخرج فيها حين وصلها ثوبي - وهو من أكثر أعضاء «جمعية الرسل» الشباب دنيـويةً. دخـل المجتمع اللنـدني فشاهـد الآنستين ستيفن وهما «كالرقيق» كما قال. كانت الدنيا عند قـدميه؛ فهـو وسيم وذكي وموهوب. لم يكن لديه الكثير من المال لكني أحسب أنه كان لديه مقعد وثير وموقد بديع ومنضدة للكتابة عليها أوراق صقيلة خالية إلا من ثلاث كلمات رائعة تستوقف النظر - عنوانٌ لروايةٍ ما. ذلك أنـه حين يملأ تلك الصحـائف فإنـه سيكون الـروائي الإنكليزي الأعظم في القرن العشرين. إن منكبيه جاهزان لارتداء بردة هنري جيمز، وأنت حين تسمعه يتكلم - فهو لم يكن صامتاً بـالتأكيـد - لا يسعك إلا أن تستنتـج أنه قـد فتن ودجّن ذلـك المخلوق الصعب الممتنع الذي هو اللغة الإنكليزية بحيث تفعل له هذه اللغة ما يشاء، وتزوده بالقوة، وبالدقة المرهفة، فتوصله إلى حيث يشاء - إلى السموات إن أراد، وهو على ما هو عليه من العبقـرية الفـطرية والـطبع الـطيب. ولا ريب أن ديـزمـونـد ماكارثي، حتى في تلك السنين البراقة من أوائل أيام رجولته، كان بطيئاً بعض الشيء، غير موثوق به بعض الشيء في أداء المهمات أو حفظ المواعيد، كما كان مثيراً للسخط قليلاً. ولكنْ، هل هناك من أحدٍ لم يوده آنئذٍ أو في ما بعد؟ من المستحيل تصديق ذلك. وأحسب أنه كان ذا بـاعٍ طويـل في تحقيق المناخ الاجتمـاعي الرائق لبلومزبيري، في التوفيق بين المصاعب وبين الشخصيات المتنـافرة، وفي الـروحية العـامة للتسـامح والحـل الـوسط التي انتصرت على المنازعات وعلى الطباع الحادة التي كانت كذلك

جزءاً من ذلك المحيط.

وقد ساعد كلايف بيل بلا شك في التخفيف عن جو التقشف السائد في ذلك المجتمع. إنه كان، بشكلٍ ما، أغرب من في المجموعة. لاحظ جورج باستحسان أنه يختلف عن الآخرين، فهو أفضل ملبساً منهم، وله سرجٌ عظيم، كما كان صياد طيور رائعاً؛ وفي حين كان الآخرون يعتبرون من المثقفين بشكل واضح كان هذا ينتمي إلى مجتمع يصطاد الطيور والحيوانات الأخرى بل إنه شخصياً يصطاد البنات أيضاً. لقد شقت أسرته طريقها عن طريق مناجم الفحم واستقرت في منزلٍ ريفيّ، قوطيّ الطراز من نمط هزيل، وحققت مركزاً محترماً في مقاطعة ويلتشاير. دخل كلايف، الابن الأصغر، مدرسة مارلبورو، ومنها إلى كيمبردج، حيث وضعه القدر في الطابق نفسه مع ساكسون سيدني - تيرنر في كلية ترينيتي، وحيث أصبح ثوبي ستيفن أقرب صديق له. وأظن أنه لم يقدَّر حق قدره في كيمبردج من لدن أصدقائه؛ أنهم لم يكونوا يتوجهون بأنظارهم نحو تلك الوجهة الوحيدة التي كان يبزّهم فيها من الناحية الثقافية. فعلى جدار غرفته نسخة عن لوحة للرسام الفرنسي ديغا Degas، الذي لم يسمع أغلبهم بإسمه قط، ذلك أن كيمبردج في مستهل القرن كانت عمياء من الناحية الجمالية. بعد أن تخرج في كيمبردج في سنة ١٩٠٢ ذهب إلى باريس وصادق رودريك أوكونور وجيرالد كيلي وجيمز موريس. كان هذا التذوق للفن يمثل رباطاً بينه وبين ڤانيسا، فتوثّق هذا الرباط حين قام كلايف بإطلاع ثوبي وشقيقتيه على شيء من باريس في طريق عودتهم من إيطاليا في أيار ١٩٠٤. كان قد أقام

بضعة أيام مع آل ستيفن في تيفيرسال في أيلول حين كانت فرجينيا تستجم من مرضها وصار بعد ذلك، على ما أظن، زائراً دائمياً لبيتهم. وفي صيف ١٩٠٥ تقدم لخطوبة ڤانيسا فرفضته؛ لكنها لم ترفضه بطريقة لا تترك له أملاً. وسرعان ما تنبهت فرجينيا إلى هذه العلاقة ويساورني شك بأنها لم تستحسنها.

بدأت فرجينيا في عام ١٩٠٥ تكتب في الملحق الأدبي لجريدة تايمز. واستمرت تكتب فيه إلى آخر حياتها. كان محرر الملحق، بروس رچموند Richmond Bruce، قد دعا السير لزلي للكتابة فيه حين بدأ الملحق بالظهور في سنة ١٩٠٢، لكنه لم يتمكن أن يقدم إلا القليل. والآن، وبعد سنة من وفاته، فاتح رچموند إبنته، وفي ١٠ آذار ظهرت أولى مقالاتها التي كتبتها له، وهي عرض نقدي لكتاب ما، وكانت بعنوان «الجغرافية الأدبية». أعتبر المحرر تلك المقالة «رائعة» فأرسل لها ما قالت عنه فرجينيا بأنه «كتاب ضخم - الأمر الذي لا أرغب فيه كثيراً لأنني لا أعرف شيئاً عن الموضوع».

قامت فرجينيا وأدريان في نيسان برحلة قصيرة إلى إسپانيا والپرتغال. وقد زارا أوپورتو ولشبونة وغرناطة وأشبيلية، وشاهدا المناظر المعتادة وخبرا التجارب المعتادة كأمكنة السكن القذرة وحليب الماعز وجمال الطبيعة وبطء القطارات؛ كانت الرحلة البحرية التي دامت أسبوعاً في جو رائق، والسفينة تتهادى بحياتها الغريبة القصيرة وكسلها وضجرها ومثاويها، قد تركت على ما أظن انطباعاً دائماً في نفس الكاتبة التي ستؤلف رواية «رحلة الخروج». لكنها كانت رحلة طيبة على ما هو واضح؛ لقد سعدا

بالعودة لكنهما سعدا كذلك لأنهما قاما بالسفرة. وعندما عادت فرجينيا إلى لندن وجدت أن بروس رچموند قد رفض لها نقدها «للكتاب الضخم» ـ وهو «كاترين آل ميديتشي وحركة الإصلاح الفرنسية» تأليف إيديث سيشيل Edith Sichel ـ على أساس أنه لم يكن نقداً جاداً من وجهة النظر التاريخية؛ ولكنه أرسل لها، للتعويض، ثلاثة كتب عن إسبانيا. فكتبت إلى ڤيوليت دكنسون تقول: «ستعجبين حينما تسمعين أنني حجة عن إسپانيا، لكن هذا هو الواقع».

في تلك السنة قاموا بسفرة أخرى أكثر أهمية؛ فالآن وقد عاودتهم السنين الطيبة على ما يبدو، قرر أبناء ستيفن، ربما بنزعة رمزية، العودة إلى سانت آيفز. كان ذلك بالنسبة إلى فرجينيا بالتأكيد تمريناً متعمداً في الحنين، إن القطار الذي سيقلهم من محطة پادنغتون سينقلهم إلى الماضي. وصلوا ليلاً ومشوا على مهل صاعدين إلى «بيت تالاند» كأنهم ما زالوا أطفالاً يعودون من نزهة نهارية، وفتحوا البوابة بأقدام واثقة، وصعدوا الدرجات المعهودة حتى بلغوا سياج المتسلقات الزاهرة ليروا من خلاله أصص الحجر وأشجار الورد والنوافذ المضاءة. رجع العائدون من الماضي يحفّهم صمت الأشباح دون أن يزيلوا سحر المكان.

كشف لهم ضوء النهار المشرق عن متعٍ لا تضاهىٰ. ثمة تغييرات في البلدة ـ بيوت جديدة وطرق جديدة؛ ولكنها ليست من الكثرة بحيث تفسد عليهم متعتهم؛ هنا ذكريات تفصيلية تستعاد بسرور، وأناس ما زالوا يتذكرون أبويهم بمودة. إن الريف والبحر والسكان تثير كلها الفتنة في نفوسهم. ظلوا هناك حتى

تشرين الأول، وكان لهم أن يستمتعوا هذه المرة برؤية سمك البلچارد يصاد في الخليج.

بعد عودتهم إلى لندن حققت ڤانيسا مشروعاً طالما فكرت به - نادي يوم الجمعة. كان هذا النادي عبارة عن جمعية تجتمع أسبوعياً وتهتم بالفنون الجميلة[1]. أما فرجينيا، التي لم تهتم كثيراً بهذا المشروع لكنها حضرت بعض جلسات النادي، فقد آنستها المنازعات التي نشبت بين الفئات المتخاصمة، فكتبت تقول: «إن نصف اللجنة من المتحمسين لويسلر وللانطباعيين الفرنسيين والنصف الآخر من المتعصبين للرسامين البريطانيين». كان هذا النادي أول علامة تدل على أن بلومزبيري ستهتم بالفنون التشكيلية.

لكن فرجينيا نفسها كانت منهمكة في فعالية ذات طبيعة أخرى. فبعد استردادها لعافيتها تماماً فاتحتها الآنسة شيپشانكز Sheepshanks، وهي إبنة المطران لمدينة نوريچ Norwich، وكانت، بصفتها مديرة فعالة لكلية مولي، تواقةً للحصول على خدمات الآخرين ليساعدوا في التدريس. كانت هذه الكلية معهداً مسائياً للعمال والعاملات أقيمت كملحق لمسرح أولد ڤيك Old Vic في شارع ووترلو. كان اقتراح الآنسة شيپشانكز إلى فرجينيا يتلخص بأنها «قد تجمع بين الاستمتاع والتدريس، فمن جهة

---

(١) كان كلايف بيل عضواً في اللجنة الأصلية، كما كانت ڤانيسا بالطبع؛ ومن بين الأعضاء هنري لامب وسيدني - تيرنر وإثنين من أخوة ستراچي. أقام النادي معارض وأجرى مناظرات. ولم تقتصر مباحثاته على مسائل الفن. دام وجود النادي حتى ١٩١٢ أو ١٩١٣.

تشارك في أحاديث الناس وتقولاتهم وإشاعاتهم، ومن جهة أخرى تتحدث إليهم عن الكتب والرسوم». كتبت فرجينيا إلى ڤيوليت دكنسون تقول: «أنا واثقة بأني سأتكلم كثيراً كما أشاء دون أن يوقفني أحد. على أن الآنسة شيپشانكز الطيبة واثقة من أنني سأكون ذات فائدة عظمى ـ ولا مانع عندي من التجربة». كانت قدرة تلك الآنسة على الإقناع كبيرة فضمت إليها بين حين وحين بقية أبناء ستيفن: ڤانيسا تدرّس الرسم، ثوبي (وكلايف بيل) يدرسان اللاتينية، وأدريان يدرس اليونانية؛ لكن هؤلاء لم يقيموا على اهتمامهم بالمسألة كما أقامت فرجينيا.

لا بد أن تلامذة الآنسة ستيفن كانوا يحتارون أحياناً في فهم «أحاديثها» وينتعشون أحياناً أخرى بتلك الأحاديث، وكانت فرجينيا تنفق كثيراً من تفكيرها في التحضير إليها.

> «غداً أيضاً أقدم درسي للنسوة العاملات، وقد حضّرت لهن سرداً لمعركة هاستنغز Hastings وآمل أن تقشعر جلودهن!».

وقد اعتقدت فرجينيا أن مهمتها هي أن تلهب مخيلة تلاميذها لكي يروا «اللحم والدم في ظلال الأشياء». فهل كانت مغرقة في الخيال قليلاً؟ هل أن تصورها للتاريخ الإنكليزي قريب جداً من ذلك التصور الذي سيملأ في ما بعد صفحات روايتها «أورلاندو»؟ يظهر من مقطع آخر يرد في الرسالة الآنفة الذكر أنها ظنت بأن قدامى البريطانيين سيشاركون في تلك المعركة، مما يجعلنا نفهم وجهة نظر الثقاة الذين أقنعوها بالإنصراف عن كتابة التاريخ والعودة إلى الأدب الإنكليزي.

«وعندي أيام الأربعاء درس الإنشاء الإنكليزي؛ ١٠ تلاميذ: ٤ رجال و٦ نساء. وأحسبه أسوأ الصفوف في الكلية؛ هكذا تعتقد شيپشانكز أيضاً. جاءت ليلة أمس فحضرت الدرس بطوله؛ كانت نافدة الصبر. ولكن ماذا أفعل؟ عندي رجل اشتراكي عمره خمسين سنة، وهو يرى أن من واجبه أن يضع الطفيلي (الأرستقراطي) ضمن إنشاء يكتبه عن فصل الخريف؛ وعندي رجل هولندي يظن أنني أدرس الرياضيات وظل على ظنه هذا حتى نهاية الدرس؛ وعندي فتيات نحيلات من البائعات في المخازن يقلن إنهن سيكتبن أكثر في المستقبل ولكن ليس عندهن الآن إلا ساعة واحدة للعشاء، فلا وقت لديهن للكتابة...».

وكتبت في رسالة أخرى:

«أعطيت محاضرة أمس لأربعة عمال ـ أحدهم يلثغ بالميم والآخر إيطالي يقرأ الإنكليزية كأنها لاتينية القرون الوسطى، والثالث شاعر منحط يتهيج ويحمّر خجلاً ويشدّ على يدي إذا استحسنا معاً بيتاً من الشعر. قلت لهم في الجملة الأولى من محاضرتي: مات الشاعر كيتس وهو في الخامسة والعشرين وكتب شعره كله قبل ذلك. فقالوا: حقاً؟ ما أروعك يا آنسة ستيفن!».

درّست فرجينيا في كلية مورلي حتى نهاية ١٩٠٧ ولا نعرف ما الذي حصل عليه تلاميذها منها؛ على أننا نستطيع أن نخمن ما الذي حصلت عليه هي منهم. إنها لم تحاول في السابق قط أن تعقد محادثةً ثقافيةً ما مع من هم أدنى منها اجتماعياً. فشعرت بأنها ينبغي لها أن تبادر فتتعرف على التلاميذ؛ جعلتهم يكتبون مقالات عن أنفسهم، وكانت هناك تلميذة هي الآنسة وليامز أسرت بمكنوناتها لها. وهكذا تعرفت فرجينيا للمرة الأولى على ما يجري في شارع گروب Grub؛ رأت فيه مكاناً لا يعرف الاستقامة الأخلاقية أبداً، فالكتاب الأجراء هناك يجهدون أنفسهم في صناعة أعمال أدبية بالجملة، منحولة وزائفة. عجبت فرجينيا من مثابرة الآنسة وليامز، تلك الكاتبة الأجيرة، الذكية، التي وصفت لها الأمور في ذلك الشارع كما عجبت من صراحتها التي وصفت بها الأمور؛ ولا شك أنها شعرت كذلك بنوع من حب الاستطلاع المقرف، وبشعور يشبه ما تشعر به سيدة محترمة تجاه مومس تنتظر على رصيف الشارع. ساعدتها هذه الاكتشافات على تأليف صورة لما سمعته بعدئذٍ «بالعالم السفلي» ذلك العالم المشبوه لدنيا الأدب، وهو عالم سيشغل حيزاً كبيراً في مخيلتها.

كان انطباعها الرئيسي عن التدريس يتلخص بأن التلاميذ ما هم إلا خراف جائعة لم تسمّن، ذلك أن أغلبهم هم من مستهلكي الأدب لا من منتجيه. وقد وجدتهم أكثر ذكاءً مما توقعت لكنهم يقاسون كثيراً لأنهم نصف متعليمن. كان بوسع كلية مورلي أن تقوم بشيء نافع لهم حقاً ففشلت في ذلك، أما «الذين بيدهم مقاليد الأمور» فقد أناطوا بها وبالتلاميذ مهمات غير

ذات جدوى ـ كان هذا رأيها في المسألة. على أنها كانت تشعر بالحاجة الماسة إلى ذلك الجهد فانتهزت سنوح فرصة العمل الذي استمر في تلك الكلية مدة ثلاث سنوات.

إن إلتزام فرجينيا تجاه كلية مورلي ألزمها بالبقاء في لندن خلال فصول التدريس، وبما أنها استطاعت أن تحقق ذلك فلنا أن نفترض أن صحتها كانت مستقرة، باستمرار. لكنها كانت تترك لندن بين حينٍ وحين ـ تزور عمتها في كيمبردج، وآل فيشر في أوكسفورد، وآل سيسيل في ساسيكس، وڤيوليت في ويلوين Welwyn ـ وعادت في سنة ١٩٠٦ إلى غيغيلزيك لقضاء عطلة عيد الفصح، ولم تقم هذه المرة مع ماج ڤوغان بل أقامت في نزلٍ مجاورٍ لها وكانت تقوم بالمشي مسافات طويلة في أراضي السبخ بمفردها مع كلبها غورث. في آب استأجرت هي وڤانيسا بيتاً جميلاً متهاوياً محاطاً بخندق مائي في منطقة نائية من نورفوك، حيث استمتعت الشقيقتان بما سمته فرجينيا «نوعاً من شهر العسل لا يقطع سكونه إلا الزوار الثقلاء».

لكنهم خططوا للقيام في تلك السنة بسفرة مهمة وعظيمة حقاً. فقد قرر آل ستيفن أن من الضروري لهم زيارة اليونان. وانطوت تلك المهمة على استعدادات بالغة: فقد كتب ثوبي وأدريان وصيتيهما؛ وكان لا بد من الحصول على صناديق ومؤونة وبراقع خضر ونظارات زرق و «جُزَم» بيض وقبعات رمادية من اللباد ومظلات ذات بطانة خضراء وعلب من الأصباغ من القماشة اللازمة للرسم، وأدوية وملحقاتها، كل هذا بالإضافة إلى الحصول على مساعدة سفريات توماس كوك؛ لم يكن الذهاب

إلى اليونان نزعة للاستمتاع بقدر ما كان رحلة للاستكشاف. وبعد أن أمّن ثـوبي وأدريان لشقيقتيهمـا الإقامـة في نـورفـوك ابتـدءا بالرحيل. كان قيامهما قبل شهر من الآخرين، فذهبا على ظهور الخيل من تريسته عن طريق مونتينيغرو وألبـانيا. بعـدهما سـافر النساء ـ ڤانيسا وفرجينيا وڤيوليت ـ بالقطار إلى بـرانديـزي ومن هناك بالباخرة إلى بتراس. التقت الجماعتان في أولومپيا في ١٣ أيلول.

«رأوا ماراثون وسالاميس، وكانوا سيرون أثينـا كذلك لولا أن سحابةً احتضنتها؛ على أيـة حال شعـروا بأن مـا يحيط بهم من كل جـانب كـان يحتـويهم فيبث فيهم الإقدام. ولكي يثبتـوا أنهم يستلهمون المكان بما يليق بهم لم يكتفوا بإشراك مـرافقيهم من صبيان الفـلاحين القذرين بـالنبيـذ الذي يحملون قنانيـه معهم بل تنـازلوا إلى حـد مخاطبتهم بلسانهم كما لو كان أفلاطون سيحدثهم لو أن هذا كان تعلم اليونانية في هارو».

كانوا يهبطون جبل پنتيليكـوس، فكتبت فرجينيـا عن جمال الطبيعة كعادتها تقول:

«لكن الهبوط من پنتيليكوس يوقفه كتف أخضر منبسط، فكأن الطبيعة تقوم واقفةً هنيهةً قبـل أن تنحدر على سفح التل مرة أخـرى. ثمة أشجـار عظيمة مزهرة تبسط أيـاديها الخيّـرة وآجام أليفة ومنتظمة جداً، ثمة غدير كأنه يسبّح بحمد ذلـك

> كله وبلذاذات النبيذ والغناء. قد يتصاعد صوت ثيوقريطيس بتفجّعه الذي كتبه على الحجر، وقد سمعه بعض الإنكليز فعلاً، وإن كان ما كتبه يعلوه الغبار الآن على رفوف كتبهم. هنا على أية حال أهابت الطبيعة، وهزيج الروح الكلاسيكية، بالأصدقاء الستة أن يترجلوا ويستريحوا».

تجاذب هؤلاء أطراف الحديث وكان موضوعهم الرئيسي بالطبع هو اليونان واليونانيون، وكان هؤلاء يتميزون بالفصاحة وبالجدل، ولعلهم كانوا مرهفي الحس بمحيطهم فإذا بالآجام الصغيرة تقعقع بغتةً فتتمايل وينطلق منها إنسان أسمر عظيم. لم يكن سوى راهب يحمل رزمة من الحطب؛ كان قذراً وربما جاهلاً أمياً؛ غير أن قوة عينيه التي حدقهم بها كانت نافذة فأنارت في فرجينيا عواطف يوحي بها الإله پان نفسه بقوتها إن لم يكن بطبيعتها.

كان الرحالة الإنكليزي في بداية هذا القرن مثقفاً ثقافة كلاسيكية، وهو قد يجد في اليونان الحديثة كثيراً مما يسره مما يكربه. إنه يأتي ساعياً وراء فكرةٍ بعينها فيجد عوضاً عنها واقعاً مقلقاً في بعض الأحيان. والظاهر أن ثوبي كان رحالة مثل هذا فرقبت فرجينيا حماسته وحيرته بأنسٍ وعطف. لكن مشاعرها اتفقت مع مشاعره. كانت مشاعرها تجاه اليونان هي المشاعر المتوقعة من شابة إنكليزية مهذبة في سنة ١٩٠٦. كانت فرجينيا غافلة كلياً عن الفن البيزنطي وغير مسايرة لفن القرن الخامس؛ وهي لا تعبأ باليونانيين العصريين؛ إنها تفضل عليهم أهالي

الوالاش غير المتحضرين في قصر آل نويل في أشميتاغا Achmetaga. ولكنها تفتتن، كما هو أمرها دائماً، بنزلاء الفنادق من زملائها فتؤلف عنهم قصصاً وحكايات.

ربما كانت آراء ڤانيسا مختلفة ـ وأكثر ما أثر بها هو الطريقة التي يوجه بها الأغريق وجهة أبنيتهم ـ ولكن لم يكن لديها فرصة وافية لتأمل الفن اليوناني. فحين جاؤا إلى باتراس كانت متوعكة، وسفرة القطار من أولومپيا إلى كورنيث زادت في الطين بلة، لكنها بعد يومٍ أو يومين تمكنت من الذهاب إلى أثينا. ومن هناك شدوا الرحال بحراً إلى پيلوپونيز لمشاهدة معالمها ولكن رحلة العودة منها بالقطار أتعبت ڤانيسا فمرضت مرة أخرى فاضطروا للتوقف في كورنيث لكي تستريح. تركوها هنا مع ڤيوليت وكانت على ما يبدو تتماثل إلى الشفاء. مضت فرجينيا وثوبي وأدريان قدماً في سفرتهم المرتبة من قبل، فزاروا أمكنة متعددة، وعند عودتهم إلى أثينا بعد ذلك بأيام وجدوا ڤانيسا طريحة الفراش وكانت هذه المرة مريضة حقاً.

كانت نظرتهم إلى اليونان نظرة غريبة، قلقة، وتعيسة. أمضت فرجينيا معظم الوقت في أثينا وهي في غرفة نومها في الفندق تقرأ Merimée وتغلي حليب الماعز، فيطفح بالطبع حين يكون كتاب ذلك الكاتب مثيراً جداً، وكان بعنوان «رسائل من رجل غريب». أما في الطابق الأرضي. فكان ثوبي وأدريان قد دخلا في نزاعٍ حامٍ بشأن طريق پورتسموث: هل هو معبد بالحجر إلى ما بعد مدينة هندهيد أم لا؟ شغلهما هذا بضعة أيام[1].

(١) أنظر رواية «رحلة الخروج» ص ٤١٧.

بعد زهاء أسبوعين تحسنت حال ڤانيسا فاستطاعوا أن يعودوا إلى تنفيذ خطتهم الأصلية؛ عاد ثوبي إلى لندن، وواصل الآخرون سفرهم بحراً إلى أسطنبول.

كانت ڤانيسا متوعكة جداً، كان من الضروري حملها حملاً، وحين صعدت إلى السفينة في پيروس أوشكت أن يغمىٰ عليها، وحدث ذلك لها مرة أخرى حين وصلوا إلى إسطنبول؛ لكنّ الطبيب هناك قال إن حالتها حسنة وبوسعها أن تعود إلى إنكلترا بالقطار. تركوا إسطنبول، التي لم تر منها فرجينيا إلا القليل، في ٢٩ تشرين الأول فوصلوا دوفر في ١ تشرين الثاني. كان جورج ينتظرهم هناك مع ممرضة لڤانيسا. وأخبرهم أن ثوبي طريح الفراش في المنزل وحرارته عالية. أجبرت ڤانيسا أيضاً أن تلتزم السرير فوراً ولكنها لم تستطع النوم؛ كانت قلقة بشأن ثوبي. بدت عليها أمارات التحسن في اليوم التالي، وانخفضت حرارته قليلاً. لم يعرف الطبيب علته؛ قال إنها نوبة حادة «من شيء أو آخر» إنما ليس هناك ما يدعو إلى القلق وأن حالته ستتطور إلى الأحسن. في هذه الأثناء كان ثوبي وڤانيسا كلاهما طريح الفراش.

وهكذا وجدت فرجينيا وأدريان نفسيهما وهما يديران بيتاً يحوي مريضين مقعدين، فيما كانت ڤيوليت، التي كانت ستصبح عضيدة فرجينيا الكبرى، هي نفسها طريحة المرض في بيتها في شارع مانشستر. وصفت فرجينيا نفسها بأنها تعيش وسط الممرضات وأواني البراز وحامض الكاربوليك والأطباء، وربما أضافت أيضاً لو طاوعها قلمها بأنها تحيا في خضم كآبة عميقة؛

ففي حين قيل إن ڤانيسا تتحسن، إذ فحصها الدكتور سافيج فاستخف بأعراضها وقال عنها إنها ليست خطيرة على الإطلاق، كان ثوبي لا يستجيب للعلاج. لم يكن هذا مستغرباً لأن الأطباء شخصوا مرضه بأنه الملاريا، ولم يكتشفوا إلا بعد عشرة أيام، وبتدخل حاذق ومتواصل من ممرضته، أنه مصاب بحمىٰ التايفوئيد. اكتشفوا أيضاً أن ڤيوليت دكنسون مصابة كذلك بالحمىٰ ذاتها.

لا أدري إذا كان هذا الخطأ من الأطباء هو الذي سبب ما حدث بعد ذلك. ويبدو أن أسرة ستيفن كانت بالتأكيد غير محظوظة بأطبائها؛ فكما جرى في ١٨٩٥ و ١٨٩٧ يبدو أن هناك انحداراً متخبطاً نحو الموت، انحداراً لا مفر منه. انتقل ثوبي من نوبة إلى أخرى؛ وقد أمسىٰ عليلاً، متعباً، واهناً، وكل الذي تبقىٰ لديه في النهاية هو الشجاعة لكي يموت ببسالة.

وقعت الكارثة التي أركعتهم جميعاً وغلبتهم على أمرهم فبدت كأنها تمحو المعنىٰ من حياتهم، لكنها كانت أفظع وأشد على فرجينيا بالذات. ذلك أن ڤيوليت ذاتها طريحة المرض ذاته ورأى الأطباء أن حالتها ستتأثر تأثيراً سيّئاً جداً إذا علمت بوفاة ثوبي. قيل لفرجينيا إن عليها كتمان الخبر عنها بأي ثمن. وهكذا كان على فرجينيا أن تكتب لها يومياً وأن تزعم باستمرار أن شقيقها ما زال حياً. ففي ٢٠ تشرين الثاني، يوم وفاة ثوبي، كتبت لها تقول: «إننا نمر بمراحل المسألة بصورة حسنة». وبعد ثلاثة أيام من الجنازة كتبت هكذا: «ثوبي يتحسن بصورة رائعة. وقد غضب من ممرضاته لأنهن يرفضن إعطاءه لحم الضأن والبيرة، وهو يسأل

لماذا لا يستطيع الركوب مع بيل بحثاً عن الوز البري؟» استمر هذا التمرين القاسي في الكتابة الخيالية يوماً إثر يوم مدة تناهز الشهر، إلى أن ظهرت الحقيقة عن طريق الصدفة فكان على فرجينيا أن تكتب إلى ڤيوليت لتوضيح الملابسات.

أما الأمر الآخر الذي يجدر ذكره هنا فهو أن ڤانيسا، وبعد يومين من الوفاة، دفعها يأسها إلى التحويل نحو كلايف بيل طلباً للسلوان فوافقت على الزواج منه.

كان هذا نوعاً من العزاء على نحوٍ ما؛ كتبت فرجينيا إلى ڤيوليت تقول: «ستكون أمامنا حياة ڤانيسا كلها لنتطلع إليها»، ولكن أليس هناك شيئاً من الخيانة إذا سعدت فرجينيا السعادة ذاتها التي كانت عليها ڤانيسا في ذلك الوقت، حتى وإن كانت سعادتها موزعة بشكل غريب كسعادة بيربارد في رواية «الأمواج»؟ أما عن كلايف فقد كانت مشاعر فرجينيا بشأنه مختلطة كما كانت في الغالب مشاعر إنتقادية. هل هو جدير بالزواج من أسرة ستيفن؟ هل أن فرجينيا التي فقدت شقيقها الأثير، التي قد تفقد أيضاً صديقتها، ستفقد شقيقها الآن؟ إن عليها أن تترك منزل بلومزبيري حيث نعمت بالسعادة. كانت السنين الطيبة قصيرة الأجل، فأسرة ستيفن مكرسة للفاجعة. لعلها فكرت بهذا كله، وقد فكرت ببعضه حقاً؛ لكنها تبدو على العموم وقد تصرفت حسناً على نحوٍ استثنائي، فارتقت إلى مستوى حدثٍ كان من شأنه أن يحطم من هو أصلب منها عوداً، وبقيت مرفوعة الرأس وهادئة الأعصاب وكان متوقعاً أن تفقدهما معاً.

الفصل السادس

١٩٠٦ ـ ١٩٠٨

كان موت ثوبي فاجعة لم تستطع فرجينيا أن تنساها. نحن نجدها بعد وفاته بسنتين وهي تشعر بالخسارة على نحوٍ حاد؛ كان من الغريب عندها أن تحيا في عالم لا يحتويه، بل كانت حتى بعد عشرين سنة وأكثر ترى أن حياتها من بعده ليست أكثر من رحلة بدونه وأن الموت، موتها، لن يكون إلا عودة إلى صحبته.

كانت أمنيتها العاجلة أن تعرف عنه المزيد. فقد كان هناك الكثير الذي لا تعرفه، ذلك أن ثوبي لم يقابل حب شقيقتيه بمودة مفتوحة ولم يشركهما في أسراره ـ كانوا كلهم يتحفظون في هذه الشؤون، ثم ان هناك أموراً لا يبحثها المرء مع شقيقتيه. لذلك فقد ظل الكثير من حياته الخاصة والثقافية غامضاً ولن يمكن اكتشافه الآن إلا إذا كتب صديق له من أصدقاء كيمبردج شيئاً ما عنه. فاتحت ليتون ستراچي الذي أقرّ بعد سنة بأنه وجه المهمة شاقة جداً. ورفضها كذلك كلايف، فكلمت سيدني ـ تيرنر الذي لجأ إلى ليونارد وولف في سيلان، لكن هذا أيضاً لم يستطع مدّ يد العون.

كان ذلك الجزء المجهول مهماً لها لأنها تحبه فابتغت، كما نبتغي جميعاً ذلك الشيء الذي يأخذه موتانا منا إلى الأبد، وكان ذلك مهماً أيضاً لسببٍ أكثر تعقيداً ـ حب الاستطلاع المثير للمتعة والمثير للاستهجان معاً عن مجتمع كيمبردج الرجال المتمتع بالامتيازات. لقد حاولت مرتين، في عملين منفصلين لها، الرجوع إلى نوع من التصور الجميل المشوب بالمرارة للكائن الغائب الذي نعيد تركيبه في تصورنا مضخماً ـ حاولت أن تستدل على يعقوب من غرفته في روايتها «غرفة يعقوب»، وحاولت أن تستدل على پرسيفال من مشاعر أصدقائه المحيطين به في روايتها «الأمواج».

في مخطوطة كتبتها في أواخر أيامها تساءلت ما الذي كان سيؤول إليه أمره. «السيد ستيفن، قاضي المحكمة العليا... واضع الكتب المتعددة التي يعود الفضل في تأليفها إليه...».

وأخذت ترسم صورة له كرجلٍ ناجح، رجل هو النموذج لبلاده وطبقته، ثم استدركت كأنها تصحح نفسها لتقرر أنه لم يكن كذلك: كان ثمة شيء سوداوي وأصيل يكتنفه، فالمطامح الاعتيادية ما كانت ستهمه كثيراً.

يتساءل المرء عن الدور الذي كان سيلعبه هذا الشاب المستبد والمقبول هو وزوجته ـ ذلك أنه كان سيتزوج بالتأكيد ـ في حياة شقيقتيه؛ كيف كان سينظر إلى تحرر ڤانيسا المتزايد وميل فرجينيا المتعاظم إلى المغازلة؟ هل كان سيظهر ذلك التأثير الذي يحد من الاندفاعات؟ كيف سيكون رد فعله تجاه حركة «ما بعد الانطباعيين»، تجاه الحرب؟ تجاه روايات شقيقته؟ ويساورني

الشك أنه لو عاش لكان أميل إلى تعزيز تلك الحواجز في المخاطبة والتفكير والعرف منه إلى إيهانها، وهي حواجز سرعان ما ستتحطم في أوساط أصدقائه. بل إن وفاته ذاتها هي التي أخذت تفعل فعلها في تدميرها: فقد صار يدعىٰ السيد سيدني - تيرنر والسيد ستراجي باسمهما الأول فقط، فهما الآن ساكسون وليتون، وكان هذان موجودين في منزل بلومزبيري على الدوام وكانت فرجينيا لا تريد أن ترى في محنتها أحداً سواهما وسوى أصدقاء ثوبي وكلايف من كيمبردج. لقد اكتشفت فرجينيا عندئذٍ أن هؤلاء الشبان ليسوا فقط من ذوي العقول بل هم من ذوي القلوب أيضاً واكتشفت أن تعاطفهم يختلف عن تلك التعازي الشنيعة التي أبداها لهم ذوو القربىٰ. وكنتيجة لموت ثوبي أعيد تأسيس بلومزبيري على أساس صلد من التفاهم المتبادل العميق؛ وكان موته كذلك هو السبب المباشر لزواج ڤانيسا.

في ليلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩٠٦ التحقت فرجينيا وأدريان بڤانيسا وكلايف في البيت المسمىٰ Cleeve House وهو بيت آل بيل الكائن قرب Devizes. جلست فرجينيا إلى منضدة لكي تكتب، فرأت عليها دواة صنعت من حافر كلبٍ للصيد. كان إسمه وتاريخ وفاته محفورين على لوحة فضية صغيرة، وكثيراً ما عادت فرجينيا إلى ذكر تلك الدواة في السنين اللاحقة من حياتها. لم ترَ مثيلاً لها قط؛ وقد بدت كأنها أمارة من أمارات المنزل بأسره. كان المكان مسكوناً بحيوانات محنطة وبحيوانات حية؛ والحيوانات هي دائماً موضوع الحديث، والحديث لا يتحول إلا لماماً إلى شؤون أخرى كألعاب التنس والهوكي وأنباء المناخ. أما

السكان البشر فهم ذوو عافية شبيهة بالصحة الريفية التي في حيوان الوحش، مع شيء من ضراوته، وشيء من جماله، وكثير من حدوده العقلية الضيقة. كان ذلك كله شيئاً جديداً لفرجينيا، شيئاً يختلف تماماً عما عهدته في هايد پارك گيت في حي كينزنغتون أو ما عرفته عن عالم كيتي ماكسي وآل دكوورث؛ كان هذا المكان بالنسبة إليها من أمكنة التاريخ القديم، أما بالنسبة إلى ڤانيسا فكان، كما تشهد بذلك رسائلها الكثيرة البائسة، مكاناً مهجوراً تسكنه الأرواح.

عند العشاء نزلت شقيقتا كلايف، الآنستان بيل، وكلتاهما بفستان حريري أزرق مع ربطة حريرية في الشعر. ترأس السيد بيل المائدة من أحد الأطراف، منفتحاً، فظاً، ويبدي المجاملة، وجلست زوجته السيدة بيل قبالته، امرأة بوجهٍ صغير كوجه الأرنب، شديدة الالتزام بالمبادىء الدينية. أما ما الذي ظنوه بفرجينيا فعلم ذلك عند الله، فقد بدت وكأنها في نزوة عصبية، ثم انفجرت في اليوم التالي على الغداء وفقدت سيطرتها على نفسها فتركت الدار ولم تعد إلا مساءً وقد عقدت العزم على أن تعود إلى سلوكها الطبيعي الفاتن جهد الإمكان. لم يروها بعد ذلك إلا مرةً واحدة، أما الفرد الوحيد من الأسرة الذي ستكون لها صلة ودٍ به، عدا زوج أختها، فهو كوري Cory شقيق كلايف، الذي لم يكن حاضراً آنئذٍ. على أنهم أخذوا في العشرينات، وقد غدت فرجينيا ذات شهرة، يشيرون إليها بتبجيل وبنوع من حب الاستطلاع المشوب بالحيرة حتى لكأنها مخلوقة ذات رأسين إنما هي أميرة بحق - ولكن لا من النمط الذي تعودوا عليه.

لعل تصرف فرجينيا النزق يتصل بڤانيسا أكثر مما يتصل بأنسباء ڤانيسا الجدد. فبعد أن رأت أسرة بيل رأي العين أخذت بالتأكيد تنظر إلى النسب الجديد نظرة امتعاض؛ لكن اعتراضها على الزواج كان له منشأ آخر أعمق من ذلك.

ذلك أن ڤانيسا قد ضاعت منها، اختطفت من بين يديها، وهي الآن سعيدة على نحو شديد النشوة وفظيع. هذا أمر لا يطاق. لم يكن كلايف ببساطة ذلك الشخص الكفء لها. إنه مأخوذ بالأبهة، صقيل في ظاهره ولكنه تافه؛ أما كيف يمكن لشقيقتها - شقيقة ثوبي وإبنة السير لزلي - أن تقترن بمثل هذا المخلوق الصغير الخَطِل فهو أمر لا تستطيع أن تفهمه. على أنها بعدئذٍ وقد رأتهما معاً أقرت بأن كلايف كان على أية حال ذا صفات كثيرة طيبة؛ كان متلطفاً وذكياً وحساساً؛ وقد فهم ڤانيسا حق الفهم وأسعدها على خير ما تكون السعادة. لم يكن عبقرياً بالتأكيد، ولم تكن ڤانيسا كذلك، وكان واضحاً أن ڤانيسا خلقت للزواج. إنه لمن الأنانية المفرطة والبغيضة تسقّط الأخطاء في علاقة مصممة لهناء شخصين، لطيفين، تصميماً يتوخىٰ الكمال. ولكنْ...

هكذا سارت الأمور؛ كانت فرجينيا في حرب ضروس مع نفسها: فهي موزعة بين تصور مؤلم لسعادة شقيقتها وبين غيرتها الذاتية، وهي في حالة دائمة من المتعة والغضب معاً استمرت شهوراً وأعواماً دون أن تحدّ منها إلا عاطفة أخرى كان من شأنها أن تزيد، لا أن تقلل، من التوترات الجائشة في سريرتها.

أما المشكلة الآنية فكانت تتمثل بالاحتفال الجاري بالزفاف،

وقد تقرر له يوم السابع من شباط. جاء هنري جيمز قبيل ذلك لرؤية ڤانيسا؛ كانت آراؤه عن العريس أسوأ من آراء فرجينيا حتى وهي في أشد نزعاتها العدائية:

«على أني أفترض أنها تعرف ما تريد، وتبدو سعيدة جداً، وتواقة، لكأنها مغرمة غراماً عاصفاً (يا إلهي، في تلك الأسرة التي شهدت تلك الوفيات كلها!). أخذتُ لها علبة فضية قديمة (لدبابيس الشعر) فأخبرتني أنها تسلمت منكِ (طقم شاي فلورنسي جميل). كان واضحاً أنها سرت بهذه الهدية الأخيرة، وحين سمعتها تطري بها رفّت أجفاني وضرست أسناني. سيحتفظان هي وكلايف بمنزل بلومزبيري وستفتش فرجينيا وأدريان عن شقةٍ لهما في محلٍ ما - بالمناسبة: كبرت فرجينيا بشكل مترف وفاتن وتكاد تكون وسيمة (بأناقةٍ). إني أحب أن أكون موجوداً بينهم ولكن الأمر كله كان غريباً وفظيعاً (بما فيه من روحية الشباب النهمة التواقة إلى المستقبل) وكل الذي كان باستطاعتي أن أراه هو الأشباح، حتى ثوبي وستيلا، ناهيك عن العزيز لزلي وجوليا الحسناء الشاحبة، الفاجعة - الذين أدار لهم جميعاً هؤلاء الشباب ظهورهم بمرح، وهو أمر طبيعي تماماً».

في الليلة التي سبقت الزفاف ذهبوا جميعاً إلى أوبرا فيدليو.

كتبت فرجينيا تقول: «إني أكره أن أراها تذهب، لكني سيطرت على أعصابي تماماً». جرى عقد القران في مكتب تسجيل بحيٍّ قديم. أعارهم جورج سيارته الأنيقة لهذه المناسبة؛ فضلّ السائق طريقه لأنه لم يكن قد دخل من قبل قط في مثل ذلك الحي الشعبي من المدينة. أدى ذلك إلى تأخر وصول ڤانيسا وفرجينيا إلى مكتب التسجيل، فسبب ذلك بدوره تأخراً في وصول العريسين إلى محطة پادنغتون فغادر القطار بدونهما. كانت فرجينيا قد أقنعتهما بالذهاب إلى مانورير لقضاء شهر العسل؛ وقد أتاح التأخير في المحطة فرصة لڤانيسا لكي تكتب من هناك قصاصة ودية لشقيقتها. في اليوم التالي وصفت فرجينيا نفسها بأنها «كالصم البكم، لا تعي شيئاً».

عزمت فرجينيا وأدريان على الانتقال إلى بيت جديد قبل عودة ڤانيسا وكلايف من مانوربير، آخذين معهما طاهية الأسرة، صوفيا فاريل[1]. وجدت فرجينيا بيتاً لطيفاً (كان يسكنه برنارد شو) وهو المنزل رقم ٢٩ في ميدان فيتزروي Fitzroy SQ؛ وقد وافق عليه أدريان وصوفي كلاهما ولكنْ لم يوافق عليه آخرون. كتبت فرجينيا إلى ڤيوليت تقول: «جاءت بياتريس ثاين وتوسّلت إليّ ألا أستأجر الدار بسبب المنطقة»، وكانت ڤيوليت ذاتها تنظر إلى الأمر

(١) أعلنت صوفيا التي كانت قوية جداً تقول: «ينبغي لي أن أتمكن من توزيع نفسي في ما بينكم،» وأضافت بشكل أكثر تحديداً: «أما من أريد فأنا أريد الآنسة فرجينيا؛ فهي لا تعرف شيئاً، ولو باعوها في السوق لما درت. إنها لا تعرف ماذا يقدم لها من طعام».

بحذر. لم تكن فرجينيا من الشجاعة بما يكفي للتمرد على ذوي القربى، فتذمرت قائلةً: «لو أنني نوهت عن وجاهة المنطقة إلى جورج وجيرالد وجاك لما سمحوا لي باستئجار الدار». طلبت نصيحة الشرطة؛ ويبدو أن الشرطة أبدت رأياً مطمئناً؛ ذلك أنها وأدريان قد انتقلا إلى الدار في آذار ١٩٠٧.

كان الموقع مناسباً لهما تماماً: فالبيت لائق لأنه لا قريب ولا بعيد: لا بالقرب من منزل بلومزبيري، بحيث يصبح آل ستيفن مجرد شيء تابع لآل بيل، ولا بالبعد منه بحيث لا تستطيع الأسرتان اللقاء متى شاءتا. والبيت في موقع مثالي للأصدقاء أيضاً من الذين تعودوا على زيارة الطرفين فيمكن لهم زيارة أحد المنزلين ثم الانتقال إلى المنزل الآخر مشياً. إن بلومزبيري فيها الآن مركزان منفصلان بمسافة مريحة جداً.

كان غرض فرجينيا من استئجار هذا البيت الجديد هو إيجاد مسكن لأدريان. لا يلعب هذا دوراً كبيراً في حكايتنا لكنه سيصبح منذ الآن المزامل الأول لفرجينيا. وصفته في ١٩٠٣ بأنه «أصغر منا جميعاً بخمس عشرة سنة»، وكان في ذلك الحين يناهز العشرين ولا يصغرها إلا بثمانية عشر شهراً. هذه المبالغة، كغيرها من مبالغات فرجينيا الكثيرة، الصارخة، تنطوي على قدرٍ من الحقيقة. فقد كان أدريان أبطأ المتطورين في أسرة من البطيئين. وبصفته أصغر الأبناء حاول جاهداً أن يبقي رأسه مرفوعاً: ففيما كان الآخرون من تناصة الفراشات المتحمسين ظل هو يباهي بالترفع عن ذلك؛ وحين بدأ ثوبي وفرجينيا بإصدار صحيفة «أخبار هايد پارك گيت» بدأ هو يصدر صحيفة منافسة. حاول محاولتين

فأصدر أولاً Pelican News ثم أعقبها بـ Corkscrew Gazette، ولكن المنافسة كانت قاسية جداً فاضطر إلى إيقاف الصحيفتين بعد أمدٍ قصير. كان محررو «الأخبار» ينظرون إليه نظرة متعالية، ونصحوه بأن يسهم في التحرير عندهم؛ وقدّم لهم النصيحة ذاتها، لكن أدريان لم يأخذ بها. كانت أمّه تشدّ من أزره وهو أثير لديها فيتجه إليها طلباً للحب والحماية. كانت محاولات أبيه الصارمة في تعليمه محاولات مفزعة غرست فيه الضلال؛ وكان سجله الدراسي في مدرستي أفلين ووستمينستر سجلاً غير متميز، كما كان يقارن مقارنةً غير منصفة بأخيه ثوبي ولكنها كانت مقارنةً لا مناص منها[1].

ورث أدريان شيئاً من صفات أبيه الأخلاقية والجسدية؛ كان صبياً حساساً، بل عصبياً، وكان نحيفاً ناتىء العظام، كأنه معوَّق، ويعرف في الأسرة بالقزم على خلاف أخيه الأكبر الفارع، القوي. على أن من الغرابة بمكان أن يتمكن أدريان من دحض هذه الوصمة. ففي سن السادسة عشرة أخذ يطول، وفي الثامنة عشرة بلغ طوله ستة أقدام وبوصتين، ثم بلغ ستة أقدام وخمس بوصات. لقد أصبح القزم عملاقاً؛ لكن هذا الجهد الشبيه باستطالة النبات المتسلق بدا كأنه تكرار لجهده في إصدار

---

(١) حين جرى تحليل آدريان نفسانياً في سنة ١٩٢٣ ذكر عن محلله النفساني أنه قال «إنه مأساة»؛ وكتبت فرجينيا: «هذه المأساة لأنه لا يستطيع التمتع بالحياة بحماسة. لعلي أنا المسؤولة. فقد كان عليّ أن أكون في صفة لا أن ألتحق بالكبار. وهكذا ذوى، شاحباً، تحت رحمة إخوة وأخوات من ذوي الحيوية اللعوب». (١٣ أيار ١٩٢٣).

صحيفتيه: جعل نفسه أطولهم قامةً، ولكن دونما غرض، بل إنه بدا مجهداً جسدياً من هذا التشبث الفارغ. أما في كيمبردج فلم يكن غير نسخة شاحبةٍ باهتةٍ لأخيه، فهو أقل تألقاً وأقل فتنة. وقد رفض، على عادته في اتخظ خط مستقل به، أن يسير وراء الطُرُز الثقافية السائدة؛ لم يؤمن بمور وقال عنه إنه زائف. فاستنكر أتباع مور موقفه، لا سيما ليتون ستراجي، وكانوا يزجرونه ساخرين.

كانت فرجينيا تجد فيه رفيقاً يقبض الصدر ويثير الأعصاب بالتتالي. إن بوسعه أن يكون خاملاً بصورة تورث الجنون، صامتاً بشكل يرثى له، غير قادر على الاهتمام بشيء سوى الترداد المستديم لذكريات الأسرة القديمة التي كانت دائماً موضوعه الأثير. مع هذا ثمة جانب آخر في شخصيته، فهو يكون أحياناً مرحاً، مبدعاً، عالي الهمة: لكن مثل هذه الأحيان نزيرة، كما كان ذكاؤه وفكاهته يتحولان مع شقيقته إلى عادةٍ في الرقابة الهازلة والسخرية المبطنة، في التذوق المدمر لأخطاء الآخرين، بل في نزعةٍ في التفكه لا ترحم. كان تهيج فرجينيا يبرز فيه واقعية آل ستيفن الهازئة، كما كانت حماستها تثير شكوكه وحجبها تبعثه على التسخيف. وكان ممازحاً وجد في فرجينيا موضوعاً صالحاً جداً للدعابة. كان كلاهما موهوباً في فن التلاوم فهما يبلغان في تهجم أحدهما على الآخر مبلغاً كبيراً. كانت الطاهية صوفي تعمد إلى تحضير الزبدة على شكل كريات صغيرة، فيستخدمها أدريان وأخته صواريخ حين تعجز الحجج الأخرى، حتى أن الجدران ترصعت ببقع مسطحة كثيرة؛ ثمة شاهد واحد في الأقل رأى رأي العين جدلاً ينتهي بتراشق الزبدة.

كان هذان قد شغفا أحدهما بالآخر شغفاً أصيلاً ـ والواقع أن المشاعر الأخوية في تلك الأسرة بأجمعها كانت عميقة جداً، وبعد وفاة ثوبي اتحد الأخ والشقيقتان اتحاداً على شاكلة جديدة. انهارت بعض التحفظات؛ أخذوا يتحدثون بحرية، عن الموتىٰ خاصةً، وكان هذا محرماً ـ حتى أن اسم ستيلا لم يذكر سنوات بعد أن طواها الموت ـ لكني لا أعتقد أن فرجينيا وأدريان كانا قد نوّها بحب أحدهما إلى الآخر. ظل ذلك الشعور العميق خفياً لا يجري التعبير عنه، في العلن على أية حال؛ أما الذي يراه الزائر فهو الجدال في غرفة الاستقبال والزبدة على الجدران.

قال أصدقاء فرجينيا القدامى أنه لا اعتراض بأن تذهب لتسكن، مع شقيقها الأصغر، حياً غير محترم، لكن هذا الشقيق لا يكاد يستطيع العناية بنفسه فما بالك بالعناية بمن هو بحاجة إلى العناية، أي فرجينيا نفسها؟ إن ڤانيسا في شغل شاغل وقد أدت واجبها في الماضي؛ أما أدريان الذي لا يشعر بالمسؤولية، الذي تضيع الحقائب من بين يديه فما هو باللائق لأداء المهمة، وما تحتاج إليه فرجينيا هو زوج تعيش في عصمته. قال الأصدقاء «إن على فرجينيا أن تتزوج».

أزعجها الاقتراح، فكتبت إلى ڤيوليت تقول: «ليتهم يكفون عن قولهم لي بأن أتزوج. هل هي الطبيعة البشرية وقد أخذت تتكشف فَجَّةً؟ أنا أسمّي هذا شيئاً مقرفاً». مع هذا فإنها لم تكن تعارض الفكرة على النحو القطعي الذي أرادت أن تظهر فيه. ولا ندري هل أن السبب في انفتاحها للفكرة هو ما تشهده من هناء شقيقتها، أم الشعور الجديد بوحدتها، أم زوال ذلك الرجل الذي

أحبته أقدس المحبـة؟ لكن من المؤكد أن سنـة ١٩٠٧ شهدت تغييراً واضحاً في نزوعها العاطفي.

لم يكن الرجال، كعشاق، قد لعبوا حتى الآن أي دور على الاطلاق في مخيلتها. ليس هناك من شيء في رسائلها أو يومياتها يومىء إلى أن أي رجل قد أوحى لها بأية إثارة شهوانية مهما تكن ضعيفـة. كانت عـواطفها ورقّتهـا وغيرتهـا مخصصة كلهـا لبنات جنسها وفي مقدمتهن ڤيوليت؛ لكنها الآن على استعداد للغزل، في الأقل، وإن كانت بعيدة جداً عن حب أي رجلٍ من الرجال.

ليس من الغريب جداً أن نجد أول رجل تغـازله هـو بعمر والدها أو يكاد. ذلك هو وولتر هيدلام Walter Headlam وكان صديقاً قديماً للأسرة. ولد هذا سنـة ١٨٦٦ وكان أحـد الشبان الذين أتت بهم جوليا إلى بيت تالاند. وهو الآن زميل في كلية كنغز، ذو سمعة كبيرة في أوساط المتخصصين بالعصر الهيليني، ومتـرجمٌ عن اليونـانيـة أظهـر متعـة بـالغـة في استعمـال اللغـة الانكليزية، ويمكن اعتباره شاعراً بجدارة واستحقاق. كانت تلك صفات من شأنها أن تثير اهتمام فرجينيا مباشرةً: فقد كانت تحس بنوع من التقديس لعلماء اليونانية، وتنظر إليهم على أنهم سلاطين في إقليم حاولت أن تجوب فيه، كما أنها لم يسعها إلا أن تهتم بشخصٍ مكرس مثلها لفن الأدب. فضلاً عن ذلك فإن شخصيته كانت آسرة من بعض النواحي؛ كان ذا سخف يثير فيه الارتباك فيحببه إلى النفس لأنه سخف ينشأ عن استغراقه الكلي في عمله. إن البلبلة، والجيشان العلمي لحياة تنفق أساساً في بحثٍ مخلص عن الحقيقة، والإندفاعات الطائشة بين الحين والحين في شؤون

عملية لا يفقه فيها شيئاً، وروح الابتكار التي تدفعه إلى مغامرات فاشلة مضحكة لا تؤدي به إلا إلى الحيرة والتساؤل ويظل مع ذلك مقتنعاً على الدوام أن أهم ما في حياته إنما هو أن ينجز بصورة لائقة عمله المخصص لإحياء هيروداس Herodas - إن كل هذا لم يكن بالشيء الذي لا يثير التعاطف[1].

كانت فرجينيا تحترم هيدلام وتكنّ له المودة، أما هو فكان برأي ڤانيسا يؤمن إيماناً كبيراً بعبقريتها - فكان هذا الإيمان شيئاً محبباً. لكن ڤانيسا وڤيوليت، كلتاهما، نظرت إلى هذه الصداقة نظرة تشوبها المآخذ. كان الرجل برأيهما عبارة عن شخص يحب المعابثة وينصب شغفه الحقيقي في الحياة على الفتيات الصغيرات.

بعد وفاة ثوبي بمدة غير طويلة - وكانت فرجينيا على تخيلها له حياً - كتبت إلى ڤيوليت تخبرها بحماسة بأنها سترسل «أعمالها غير المنشورة كلها» إلى وولتر هيدلام من أجل «نقد رصين»؛ كتبت لها كذلك أنه يرغب في إهداء ترجمته لـ أغا ممنون Aga memnon إليها بدلاً من إهدائها إلى الشاعر سوينبرن «اعترافاً بالجميل عن ثلاثة مقالات كنت كتبتها وأرسلتها إليه قبل أربع سنوات وقال عنها إنها من أروع ما عرف من نقد!. بعد ذلك تراسلا (وهو يكتب إليها «كأنه يكتب إلى أخت») والتقيا مراراً؛ فهو يأتي لتناول الشاي - مرةً مع ليتون ستراچي حين تذمرت

(١) ربما إتخذت فرجينيا من هيدلام نموذجاً للسيد بانكز في روايتها «إلى الفنار». (أنظر رسالة جورج دكوورث إلى فرجينيا وولف المؤرخة ٢٨ أيار ١٩٢٧).

فرجينيا لأنها تكره «صب الشاي والحديث كسيدة صالون»؛ وفي وقتٍ آخر تبادلا الرأي «في مقابلة جادة»، إذ قال عن نفسه إنه تعيس لأن فرجينيا لم تتزوج بل قعدت تستهلك نفسها في الكآبة بمفردها ظانةً أنها «خائبة». بحثا الموضوع مدة ساعتين، مما أرضىٰ مشاعرهما كثيراً بلا ريب. كانت تراه في كيمبردج حين تذهب لزيارة عمتها هناك بين الحين والحين. واصطحبها ذات مرة إلى الأوپرا في كوڤينت غاردن.

ثم اتهمها بالتقلّب؛ كان محزوناً، مجروحاً. وبعد حين تلاشت العلاقة بينهما بلا ضرر كبير لأيٍّ منهما. وعندما مات فجأةً في حزيران ١٩٠٨ لم يكن حزن فرجينيا عليه كبيراً.

اعتقدت فرجينيا، أو تصنعت أنها اعتقدت، بأنه ما أن تتزوج أختها حتى تتغير كلياً فلا تعودا تلتقيان كما كانت في ما مضىٰ. إن كلايف سيدمر الروح الصميمية القائمة بينهما. غير أن ڤانيسا أخذت على عاتقها بعد عودتها من شهر العسل مهمة تطمين فرجينيا: عليها أن تقضي كثيراً من وقتها في بلومزبيري. كما أن ڤانيسا نفسها أخذت تدأب على زيارة أختها باستمرار. وذهبوا جميعاً إلى پاريس، وتحدثوا عن العثور على منزل ريفي يشتركون فيه لقضاء الصيف؛ ثمة عدد كبير من الخدم في منزل بلومزبيري فإذا قلّص العدد إلى الثلث سيكون تمويل هذا المشروع أمراً سهلاً. كان لهذه المداولات، وللحقيقة الواضحة بأن ڤانيسا لم تتغير، ولتزاورهما المستمر ولقاءاتهما الحميمة بمفردهما دون سواهما، كان لكل هذا أثره في تحرير فرجينيا من تخيلاتها الكئيبة جداً التي أفرطت فيها بعد زواج ڤانيسا.

كانتا، إذا افترقتا، تتراسلان يومياً، فتبحثان معاً في خطّاب فرجينيا، ذلك أن ڤانيسا كانت تتخيل أن أي رجل تلاقيه أختها سيقترح عليها الزواج منها فوراً. في غضون ذلك اضطرت فرجينيا أن تستقل في منزلها الجديد. وفي الخريف بدأت هي وأدريان يستقبلان الأصدقاء، على استحياء، فيجددان عهد ثوبي وأمسياته أيام الخميس.

كانت أفكار فرجينيا مختلفة جداً منذ الابتداء عن أفكار ڤانيسا بشأن الصحبة المقبولة. فهي تدعو إلى منزلها جماعة بلومزبيري - وهذا تعبير يمكن استعماله الآن بثقة أكبر - كما تدعو شباناً آخرين ممن كانوا في كيمبردج أيام ثوبي: تشارلس تنيسون، هيلتون يونغ، ثيودور ديفيز - وشخصية أخرى من كيمبردج أكبر سناً. إنه العالم واللغوي والناقد والقانوني تشارلي سانغر Sanger الذي هو برأي أصدقائه قدّيس أيضاً؛ كان قد انتخب إلى «جمعية الرسل» في الوقت الذي انتخب فيه إليها برتراند راسل، وأتصوره قد مارس نفوذاً كبيراً على أصدقائه الأصغر سناً؛ وكان يتعامل معهم بتبسط هو في غاية اليسر. قد يجد هؤلاء المثقفون أنفسهم في منزل فرجينيا وهم في صحبة الليدي بياتريس ثاين والليدي أوزبورن ومارغريت ڤوغان وجانيت كيس والآنسة شيپشانكز، أو أيٌّ من زوار منزل هايد پارك گيت المعهودين، وإن كان هؤلاء ممن يدعون إلى العشاء على ما أظن لا ممن يحضرون دون دعوة بعد العشاء في أمسيات الخميس.

كانت فرجينيا دائماً محبة للاستطلاع بشأن الناس ونحن نجدها تغامر في دخول المجتمع المحترم لتسمع هنالك الحديث

المتداول بين رجال الطبقة الحاكمة من أهل الحل والربط. «البلاد تقع فريسة للكلاب... ليس لدينا أسطول... الألمان يهددوننا من الخارج والنقابات من الداخل...» كان آل دكوورث ما زالوا يمثلون السلطة وكانت هناك مناسبات شعرت فيها فرجينيا كأنها طفلة بينهم، طفلة قد توبَّخ لأن جورج «قد أسيء له». وهو يتذمر لأنه لا يرى أهله الآن؛ ويقول إن كلايف وڤانيسا قد عاملاه معاملة سيئة جداً؛ وأنهم كلهم ينجرفون في اتجاه منفصل عنه. كان هذا القول صحيحاً، فالأمور كانت مختلفة تماماً في بلومزبيري. إن كلايف سريع الضجر، وانتقائي في دعواته، في حين كانت ڤانيسا توصد بابها دون تردد في وجه قدامى الأصدقاء والأقرباء. يكاد يكون مؤكداً أن ڤانيسا - وإن كانت الحكاية تحكى عن الشقيقتين معاً - هي التي حاولت التخفّي عن السيدة همفري وورد بوقوفها خلف عمود الإضاءة في إيطاليا Piazza della Signora وكانت ڤانيسا هي بالتأكيد التي بلغت بتجاهلها مبلغاً بعيداً حتى أن زوج العمة آني أوقفها عن حدها صراحةً في الأوبرا. وقد حاول الزوجان بيل فعلاً أن ينقطعا عن الغير، وكانت ملاحظة فرجينيا في تشرين الثاني ١٩٠٧ لا تخلو من الخبث حين قالت «إن ڤانيسا وكلايف يعيشان على ما أظن عيشة السيدات العظيمات في صالونٍ فرنسي؛ فعندهما يجتمع المفكرون وأصحاب القرائح والشعراء وتجلس ڤانيسا بينهم كالآلهة».

كانا يعتبران غرفة استقبالهما من أعمال الفن فلا يرحبان بالمتطفلين.

أما غرفة استقبال فرجينيا فلم تكن من أعمال الفن؛ فهي أولاً

يسكنها الكلب هانز، الذي يتلذذ بإطفاء ثقاب الزوار بمخالبه، الكلب الذي أربك عدداً من الحفلات بتبوّله، وحين كانت فرجينيا تقدم الشاي ذات مرة إلى الليدي ستراچي تغوّط على سجادة الموقد ـ الأمر الذي وجدته الزائرة والمضيفة شيئاً من الأفضل لهما تجاهله.

لم تكن فرجينيا على ما أظن، رغم مرانها في هايد پارك گيت، قائدة في المجتمع الذي توجد فيه بأي معنىً من المعاني. كانت في الغالب صامتة، صامتة باحترام وأحياناً بشرود؛ كانت تتصنع الشعور بالرهبة، أو تشعر بها فعلاً بحضور ساكسون أو ليتون؛ كانت حتى الآنسة شيپشانكز المرموقة، غير الجذابة، تستطيع أن تذهلها بسؤال مدمر: «هل تفكرين يا آنسة ستيفن؟» مع ذلك، ربما كانت فرجينيا أسعد حالاً في حياتها الاجتماعية في منزلها مما كانت تتوقع، أما إراحة البال فكان بوسعها دائماً اللجوء إلى شقيقتها من أجلها.

اتفق أهل المنزلين على قضاء عطلة الصيف في عام ١٩٠٧ على مقربةٍ، بعضهما من بعض. فاستأجرت فرجينيا وأدريان منزلاً ريفياً في پلايدن Playden إلى الشمال قليلاً من راي Rye؛ واستقر الزوجان بيل في راي نفسها وقد جاءا متأخرين قليلاً بعد زيارتهما لمقر أهل الزوج في ويلتشاير. كان أهل المنزلين يستضيفون الضيوف على وجه المشاركة إلى حدٍ ما، كما كانت هناك بالطبع اجتماعات مستمرة. وبدأت فرجينيا هناك تقوم ببعض الكتابات الصحفية، وتقوم كذلك بالكتابة عن تفاصيل حياة أبويها، وعن الحياة في غرفة الصغار، وعن ستيلا وجاك، وعن

أخويها غير الشقيقين؛ كان ذلك السرد يأخذ شكل سيرة لحياة ڤانيسا من أجل أطفالها (ڤانيسا حامل الآن). كانت فرجينيا تكتب كذلك وصفاً للضوء والضباب، للمشاهد الليلية والحياة الريفية، كما كانت تحاول التغلغل في الأحوال الذهنية للناس كأنها كاتبة روائية؛ حاولت أن تتغلغل في عقل فلاح من ساسيكس، وتأملت في الزيف المحزن الذي تجده في الروايات، وفي عادة الروائيين في إحلال مشاعرهم في الآخرين - بل في الحيوانات أيضاً. كانت كذلك تقرأ هنري جيمز ولكن دون حماسة كبيرة[1].

كانت من بين عمالقة الرجال في بلدة راي يومئذٍ (هذا الجهبذ) نفسه، فكانت زيارته أمراً محتماً. كانت ڤانيسا قد كتبت إلى فرجينيا من ويلتشاير ترجو «ألا يكون هنري جيمز صعباً ومتعالياً جداً». غير أنه كان كذلك، كما يظهر من الرسالة التالية التي كتبتها فرجينيا إلى ڤيوليت دكنسون:

> «ذهبنا وتناولنا الشاي اليوم مع هنري جيمز، ومع السيد والسيدة پورتيرو في نادي الغولف، فحدّق بي هنري جيمز بعينين شاخصتين، فارغتين، كأنهما من الكريات الزجاجية، وقال: (يا عزيزتي فرجينيا، يقولون لي، يقولون لي، يقولون

(١) «أقرأ الآن هنري جيمز عن أمريكا، فأشعر كأني محنّطة في لوحٍ من الكهرمان الصقيل؛ والكتاب ليس رديئاً، وهو يهب السكينة كالمشي في الغسق - لكن هذه ليست لُحْمة العبقرية: كلا، إنها يجب أن تكون جدولاً هادراً سريع الجريان». (من رسالة فرجينيا وولف إلى كلايف بيل في ١٨ آب ١٩٠٧).

لي، إنك ـ كونك حقاً إبنة أبيك، لا بل حفيدة
جدك، وقد أقول سليلة قرن كامل، نعم قرن،
سليلة ريشة القلم والحبر والمحبرة، نعم، نعم،
نعم، يقولون لي، إجِمْ، إجِمْ، أنك، أنك،
أنك، مختصر مفيد، تكتبين). جرى هذا في
الشارع العام ونحن جميعاً ننتظر، كما ينتظر
الفلاحون دجاجة لكي تبيض ـ وهل ينتظرون؟
كنت عصبية، ومؤدبة، أقف مرةً على هذه القدم
ومرةً على تلك. شعرت كالمدان المحكوم عليه
الذي يرى المقصلة تهوي وتتوقف، ثم تهوي مرة
أخرى. ما من إمرأة كرهت (الكتابة) مثلما
كرهتها. لكني حين يتقدم بي العمر وتطبق شهرتي
الآفاق سأتجاذب أطراف الحديث على طريقة
هنري جيمز. كان علينا أن نتوقف بين حينٍ وحين
لكي نتيح له الفرصة حتى يدلي بما يريد أن يدلي
به، وقد تفوّه بعبارات، عند تناولنا الخبز والزبدة،
كانت (فظة ومتسرعة) إذ أخبرنا بفضائح البلد.
قال (هرب السيد جونز مع عشيقته إلى تزمانيا
وترك خلفه إثني عشر جونز صغير وثالث عشر
محتمل بعهدة زوجته، شيء مؤسف جداً، شيء
تعيس جداً، غير أن هذا لا يهمك...)».

وصل الزوجان بيل إلى راي، ووصلها أيضاً ساكسون
ولينون. ولم يكن هنري جيمز يعبأ بكلايف كما رأينا؛ والظاهر أن

مودته إلى ساكسون كانت حتى أدنى مستوى من مـودته لأمثـال هؤلاء. لم يعد أحد منهم في المستقبل إلى هذه البلدة، ولـم تكن فرجينيا تلاقي هنري جيمز في السنين اللاحقة. ولنا أن نفترض أن ميله نحـوها إنمـا كان على أسـاس المبـدأ - فهـي إبنـة لـزلي ستيفن - لكنها لم تنسجم آنئذٍ مع مواقفه في الحشمة والرهافة والتبجيل. ولم يكن بوسع ذلك الروائي أن ينسجم مع أصدقائها بملابسهم الرثة وسلوكهم الجسور. غير أن فرجينيا كانت تنظر إليه بضربٍ من الرهبة اللذيذة، وتحترم أعماله ولكنْ مع التحفظات، ولا تستمتع بصحبته كما يمكننا أن ندرك من الرسالة أعلاه.

في ٢٧ كانون الأول ١٩٠٧ جرى لقاء في منزل بلومزبيري قرأ فيه ساكسون وڤانيسا وكلايف وأدريان وليتون وفرجينيا مسرحية «النكسـة» لڤـانبـره Vanbrugh. أبـدع ليتـون بـأداء دور اللورد فوبنغتون، وقامت فرجينيا بدوري بيرنيثيا ومس هويدن معاً. كان هذا اللقاء هو الأول من عدد كثير آخر من اللقـاءات المماثلة، وكانت هذه القراءات تجري في أمسيات أيام الجمعة خلال سنة ١٩٠٨، في بلومزبيري عادةً، وبمشاركة القارئين أنفسهم دائماً، وكانوا يمثلون المحـور في حركـة بلومزبيـري في تلك الحقبة. اشترك معهم وولتر لامب ذات مرة، وهو صديق لكلايف، وكان سابقاً من طلاب كلية ترينيتي وسنسمع عنه المزيد. كان في ذلك الوقت مديراً لإحدى المدارس في كليفتون فلم يكن يشارك في القراءات بانتظام. وقد أمسك ساكسون بسجل لتلك اللقاءات فترةً من الوقت يدون فيه الأدوار ومن يقرأهـا مع تعليقٍ مـا عن كل قراءة؛ فعل كلايف الشيء ذاته فقد أصبح سكرتيراً للمجموعة في نيسان ١٩٠٨؛ وتعطي هذه المحاضر فكرة عن أذواق المشاركين.

كانت أذواقهم شمولية، فقد قرأوا لكتابٍ من عصر إعادة الملكية ومن العصر الأليزابيتي، وقرأوا لملتون وشكسبير وسوينبيرن وإبسون. وقد ذكر محضر السكرتير أن فرجينيا فشلت في التعبير عن مشاعر العنفوان المتوتر، المركّز، الذي يتطلبه دور ربيكا ويست في مسرحية Rosmersholm ولكنها أبدعت في دور أليثا في مسرحية Atlanta in Calydon.

ومسرحية النكسة هي ذلك النوع من المسرحيات التي ما كان سير لزلي سيرتاح لسماع إبنتيه تقرآنها جهاراً بصحبة الشبان. وما كانت فرجينيا تتخيل نفسها قادرة، لو كان حياً، على تلك الجرأة، هي التي لم تكن تجازف، حتى في رسائلها بذكر كلمة من الكلمات «البذيئة». لقد حدث في السنوات الأربع التي تلت وفاة أبيها تغيّر كبير في المناخ الأخلاقي السائد في وسطها.

أخذت فرجينيا، بعد أن شعرت في البداية بالارتياح وهي ترى شباب كيمبردج يصدون عن ملاحقتها، تجد في عدم اهتمامهم بها شيئاً ثقيلاً؛ أما مغازلتها مع وولتر هيدلام فقد جعلتها تميل إلى إتخاذ موقف أكثر مغامرةً. كما أن ليتون، الذي فتح الحزن المشترك باباً في قلبه فأصبح الآن صديقاً مقرباً جداً، أخذ يجد في الاستمرار على الحياء والتحفظ اللذين كانا في الماضي أمراً لا يطاق.

> «كانت أمسية من أمسيات الربيع. فانيسا وأنا نجلس في الصالة. والصالة تغيرت طبيعتها كثيراً منذ سنة ١٩٠٤. انتهى عصر سارجنت وفورس، وأطل عصر أوغسطين جون. لوحته «بيراموس»

تملأ جداراً بأكمله. أما لوحات واتز الزيتية لأبي وأمي فهي معلقة في الطابق السفلي، هذا إن كانت معلقة أصلاً. أخفىْ كلايف علبة ثقاب كانت بيده لأن لونها الأزرق والأصفر يتضارب مع الألوان السائدة في الغرفة. قد يدخل كلايف علينا في أية لحظة فنبدأ أنا وهو بالجدل - بصورة ودية وغير شخصية في البداية؛ لكننا سرعان ما نتبادل الإهانات ونحن نزرع الغرفة ذهاباً وإياباً. ڤانيسا صامتة وهي منصرفة إلى عملٍ ما بالإبرة والمقص. لا ريب أنني كنت أتكلم عن شؤوني بأنانية وتهيج. وفجأة انفتح الباب وأطل السيد ليتون ستراچي بجسمه الطويل الذي ينذر شراً فوقف في العتبة. أشار بإصبعه إلى بقعة في فستان ڤانيسا الأبيض وقال:

- مَنِيّ؟ -

فهل يمكن لأحدٍ أن يتفوه بهذه الكلمة حقاً؟ فكرت بذلك وانفجرت بالضحك.

فبتلك الكلمة الواحدة انهارت حواجز التكتم والتحفظ كلها. إن طوفاناً من السائل المقدس بدا وكأنه يغرقنا. تشبعت محادثاتنا بالجنس. لم تعد كلمة (لوّاط) نائية عن شفاهنا قط. وبحثنا في المناكحة بالصراحة نفسها والإثارة نفسها اللتين كنا نبحث بهما في طبيعة الخير. من الغريب الآن أن

نتخيل مدى التكتم والتحفظ الذي كنا عليه في الماضي»[1].

كانت هذه لحظة مهمة في تاريخ السنن التي سارت عليها بلومزبيري، وربما في تاريخ السنن التي تسير عليها الطبقات الوسطى البريطانية؛ ولكنْ، ورغم التغيّر الجاري في مناخ فرجينيا الاجتماعي بأسره، لم يكن للكلام المتحرر في وسطها تأثير جذري على سلوكها أو على مخيلتها كما أرى. لقد ظلت عذرية على نحوٍ عميق. ولم يكن حدثها العظيم في ١٩٠٧ - ١٩٠٨ هو الكلام البذيء على لسان مجموعة بلومزبيري بل هو ميلاد رواية ميليمبروسيا Melymbrosia.

ربما كانت هذه الرواية قد ولدت في مخيلة فرجينيا في تاريخ أسبق، لعله سنة ١٩٠٤ في مانوربير. لكننا نسمعها الآن تذكرها بالإسم في رسائلها، ونجدها تطلب النصح وتظهر شيئاً من علامات الصراع في كتابتها.

ستشغلها هذه الرواية طوال السنوات الخمس القادمة وستصبح في النهاية بعنوان «رحلة الخروج». إننا لا نعرف كثيراً عن

---

(١) كتب الإقتصادي مينارد كينز إلى الرسام دونكان غرانت رسالة مؤرخة ٢٢ آب ١٩٠٨ قال فيها «الظاهر أن ليتون ماضٍ بصورة طيبة مع الإناث. سمح لڤانيسا أن ترى أفحش أشعاره فامتلأت سروراً وحفظتها عن ظهر قلب واستنسخت منها على الآلة الكاتبة نسخاً متعددة لفرجينيا وآخرين». هذا وكانت فرجينيا قد قرأت رسالتها أعلاه على «نادي الذكريات» في لندن في سنة ١٩٢٢.

محاولاتها السابقة الخاصة بما أسمته «عملاً من أعمال الخيال».
كانت تتخيل وضع مسرحية تكتبها بالتعاون مع جاك هيلز، الأمر الذي هو من الغرابة بمكان:

«سيكون عندي رجل وإمرأة ـ أجعلهما يكبران ـ لا يلتقيان أبداً ـ لا يعرف أحدهما الآخر ـ لكنكِ تشعرين بهما طيلة الوقت وهما يقتبران ويقتربان. سيكون هذا هو الدور المثير الحقيقي (كما ترين) ـ ولكنْ، عندما يوشكان على اللقاء ـ ولا يوجد سوى باب بينهما ـ فإنهما لا يلتقيان بل ينجرفان عن الباب ويذهبان ولا يقتربان مرة أخرى أبداً في أي مكان. ستكون هناك أوقيانوسات من الكلام والعواطف لا نهاية لها».

وضع هذا السيناريو الممتع الذي لا يُحكم قيادة في سنة ١٩٠٣، ولكنه لم يتحقق على ما أعلم. وقد بقيت لدينا جذاذات أخرى عن أعمال ثانية: بداية لرواية ولقصة قصيرة أشرنا إليها آنفاً. وكانت هناك على ما يبدو بعض الأعمال من نمط غير مألوف. ونحن إنما نعلم بها لأن فرجينيا وماج ڤوغان كانتا قد أرسلتا إحداهما إلى الأخرى ما لديهما من مخطوطات الكتابة والنقد. ومن الواضح أن محاولات فرجينيا الأولى في كتابة الرواية (إن كانت كذلك) قد أقلقت ماج كثيراً فوجدت فرجينيا أن من الضروري لها أن توضح شيئاً من غرضها على سبيل التبرير:

«إن دفاعي الوحيد هو أنني أكتب عن الأشياء

كما أراها؛ وأنا أدرك أن هذه وجهة نظر ضيقة جداً ولا حياة فيها. لا أعرف كيف أوضح ذلك بعوامل خارجية مثل التعليم وطريقة الحياة إلخ. لذا ربما سأقدم شيئاً أفضل مع تقدم العمر. كانت جورج إليوت تناهز الأربعين حين كتبت أولى رواياتها: Clerical Life

لكنّ شعوري الحالي هو أن هذا العالم الغامض، الشبيه بالحلم، الخالي من الحب أو القلب أو العاطفة أو الجنس، هو العالم الذي أعبأ به حقاً وأجده ممتعاً. فمع أن هذه الأشياء هي أحلام بنظرك، وأنا لا أستطيع التعبير عنها بكفاية أبداً، فهي بنظري حقيقية تماماً.

لكن أرجو ألا تظني أني راضية، أو تظني أن رأيي يتخذ شكلاً كلياً بأية صورة. إنما يبدو لي أن من الأفضل أن أكتب عن أشياء أشعر بها فعلاً، من أن أعبث بأشياء أنا، بصراحة، لا أفهم فيها إطلاقاً. هذا هو نوع الإسفاف ـ في الأدب ـ الذي يبدو لي شنيعاً ولا معذرة فيه: أعني الناس الذين يتمرغون في عواطف لا يفهمونها. ولكنْ يمكن بالطبع للكاتب العظيم أن يتناولها بدراية فيجعلها جميلة ويقلب التماثيل الصماء إلى رجال ونساء من لحم ودم. لا أدري إن كنت تفهمين عقليتي المتزمتة جداً وغير الناضجة. إن ما أرسلته

إليك هو عبارة عن تجاريب؛ ولن أحاول تقديمه كعمـل مكتمـل سيبقىٰ على منضـدتي حتى يحرق!».

ولا شك أنه قد أحرق؛ إذ يبدو أنه كانت هناك سبعة أشكال مختلفة لرواية «رحلة الخروج».

استمرت فرجينيا تكتب كثيراً من عروض الكتب. وقد زودتها سلسلة المقالات التي نشرتهـا خلال سنـة ١٩٠٨ في كورنهيـل بالمجال اللازم لتكون أكثر طموحاً مما كانت عليه في مقـالاتها للغارديان وملحق التايمز الأدبي وغيـرهما. كـان لديهـا في تلك المقالات مجال للمداورة، ولكنها لم تنشر شيئاً في الأدب الروائي حتى بلغت الثالثة والثلاثين.

كان حياؤها الأدبي ناشئاً جزئياً عن خجلها؛ كانت لم تزل فزعة من الدنيا، فزعة من أن تكشف عن نفسها. لكن هذا كان مندغماً بعاطفة أخرى أنبل ـ الاحترام السامي لجدية حرفتها. كان من الضروري لها لكي تنتج شيئاً يتفق ومعاييرها أن تقرأ بنهم، وأن تكتب فتعيد ما تكتبه باستمرار؛ أما حين لا تزاول الكتابة فقد كان من الضروري لها أن تقلّب أفكارها في عقلها وهي تحاول التعبير عنها.

ما أن اكتشفت فرجينيا، على نحوٍ أو آخر، الإتجاه الـذي تريد السير فيه حتى عاشت على مقربـة وثيقة من عملهـا. ولن يحتاج المرء الذي مرّ بتجربةٍ من تجارب الخلق الفني إلى التذكير بالهيمنة التامة لمثل هذه العملية على ذهنه، فهي ما أن تبدأ حتى

تسود على العقل. إنها تصبح لُحْمة حياة المرء من يقظته وشيئاً حقيقياً لا يضاهيه شيء آخر، بل تغدو متعة وشقاءً معاً. لذا فعند إمعان النظر في أحداث هذه الحقبة من حياة فرجينيا، وهي حقبة أقبلت فيها بشيء من التهور وبقليل جداً من التحرّج، على مغامرات عاطفية من نوع لا أمل فيه أبداً، ينبغي لنا أن نتذكر أنها كانت تعيش معظم الوقت في عالمٍ هو من صنعها، وأن بعض أفعالها غير الجديرة بها كانت كما سنرى تتصل بضرورات ذلك العالم بالذات.

الفصل السابع

١٩٠٨ ـ ١٩٠٩

كان يقال لفرجينيا على الدوام، كما رأينا، إن عليها أن تتزوج؛ ولكنْ عند النظر إلى الرجال الذين كانوا يؤلفون حلقتها المباشرة في سنة ١٩٠٨ نجد أن فرصها في الزواج لم تكن فرصاً كثيرة واسعة. وقد ضاق مجال البحث عن زوج، وفسد أمر المطلب المبتغىٰ باكتشافها أن معظم الشبان الذين تهتم بهم أشد الإهتمام كانوا من اللواطين[1].

لم تكن فرجينيا لتتصور ساكسون زوجاً لها إلا ظناً؛ إن هذا لم يوحِ إليها بالحب، ولعلها هي التي أوحت له به. تكهّن ليونارد وولف في رسالة إلى ليتون ستراجي عن احتمال انتهاء

(١) كلمة اللواطين كلمة نابية ولعلها غير دقيقة. مع هذا فأنا أستعملها، إذ أن فرجينيا وأصدقاءها قد إستعملوها (كما سنرى في ما بعد)، وهم سيعتبرون أيّ بديل لها عبارة عن كلمة صقيلة أكثر مما ينبغي، كلمة رخوة واهنة، لأن الكلمة البديل لا تنطوي على إظهار الهرطقة المضطهدة التي في الكلمة الأصيلة.

أمرها بزواجها من ساكسون؛ لكنّ مؤهلاته كعشيق كانت موضع شكوك. كان هذا ذا صفات غريبة في الحب، وفي أمور كثيرة أخرى، وقد بحث تلك الصفات مع فرجينيا شخصياً، ولعله أراد بذلك أن يوضح موقفه بجلاء[1].

وكان دونكان غرانت، نظرياً، زوجاً محتملاً. إلتقته فرجينيا مع الزوجين بيل في پاريس سنة ١٩٠٧؛ كان يومئذٍ يدرس الفن هناك. وقد أحب بيل وزوجته كثيراً، ورأىٰ في فرجينيا إمرأة ذكية جداً و «حسناء بشكلٍ مدهش». وقد وجده كلايڤ وڤانيسا فاتناً ورغبا بأن يلتقياه كثيراً حين يعود إلى لندن.

وقد كان الأمر كذلك؛ إذ سيصبح دونكان غرانت شخصاً مألوفاً في منزل الزوجين بيل في بلومز بيري، بل شخصاً مألوفاً جداً في منزل فرجينيا حيث كان لديه مرسمٌ فيه. إنه يأتي هائماً على وجهه في أية ساعة من ساعات النهار وهو يسحب سراويله إلى أعلىٰ، وسراويله في وضع قلق دائماً لأنها مستعارة من أحدٍ ما أنحف منه خصراً؛ ثم يقترض قرشين أجرة الترام ويخرج في الحال. لم يكن قط شخصاً غير مرغوب بصحبته، مع أن الخادمة مود كانت تشمئز من تبسّطه فتقول متذمرةً: «ما له السيد غرانت؟ إنه يدخل إلى كل مكان». وأشك أن مود هذه قد ظلت على إنكارها للتحسس بفتنته؛ ولم تظل فرجينيا على أنكارها

---

(١) «يا له من حديث غريب ذاك الذي تبادلتيه مع ساكسون. أنا لا أستطيع أن أصدق أن هذا الرجل المعتدل البسيط هو ساديّ حقاً أو ما أشبه ذلك». (رسالة من ڤانيسا إلى فرجينيا في ١٦ آذار).

بالتأكيد؛ كان سيسرها أن تعلم أن دانكون قد مدح جمالها وأخبر قريبه ليتون ستراجي ذات مرة أن بوده لو يتزوجها[1]. على أن فرجينيا ما كانت لتأخذ هذه الملاحظة مأخذ الجد كلياً؛ كانت تدرك أنه لو بذل، أو أعار، عواطفه لأحدٍ من أفراد الأسرة فذلك الفرد هو أدريان دون غيره.

ولعل الشخص الذي ظن أصدقاء فرجينيا في أوساط بلومز بيري أن من المحتمل أن تتزوجه كان هو ليتون ستراجي. ولكن إذا نظر إلى هذا على هذا الأساس فسيبدو كالحصان العاثر في بداية الشوط، وذلك لسببين: فهو شخصية لا تطاق، وهو اللواط الأكبر في بلومز بيري. وبالرغم من ذلك فكرت فرجينيا على نحوٍ جاد بالزواج منه. وبما أن كلا الطرفين مال إلى هذا القران فإننا لا نستطيع أن ننفض أيدينا من المسألة كلياً، ويجدر بنا استقصاء الموانع التي جعلت مثل هذا الزواج أمراً غير محتمل من الوهلة الأولى، وهل كانت تلك الموانع، كما تعرض هنا، مبالغاً فيها بعض الشيء.

فمما لا يمكن إنكاره أن ليتون كان شاذاً جنسياً على نحوٍ تامٍ كامل. كتبت ڤانيسا ذات مرة وهي تولي نظرها إلى خطّاب فرجينيا فقالت:

---

(١) هذه الملاحظة يجب أن تقرأ في إطارها الصحيح: قال ستراجي في رسالته المؤرخة ١٩٠٧/١١/٦ إلى غرانت «أظن أن بوسعي تقريباً الزواج من ڤانيسا، وبوسعي تماماً (!) الزواج من كلايف». وفي جواب غرانت في ٨ منه قال: «أظن أني قد أوطن نفسي على أني متزوج من فرجينيا ـ لا من كلايف. لعلك ستظن هذا غريباً»!

«إني لأودّ أن أرىٰ ليتون حمّواً لي دون غيره من الذين أعرفهم، ولكن الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أتصور بها تحقيق ذلك هي إذا أحب أدريان ـ وحتى في تلك الحالة فإن من المحتمل أن يرفضه أدريان ذاته».

هذا وأن القليل منا من هو متوافق مع نفسه كلياً في مسائل الجنس؛ حتى أن كلايف إفترض ذات مرة أن ليتون قد أمسىٰ زير نساء. كانت إهتمامات ليتون بفرجينيا من ذلك النوع الذي يتيح توقع مثل هذا التحول، كما أن تاريخ ليتون اللاحق يظهر أن بوسعه الإستجابة إلى حدٍ ما إلى عواطف المرأة. ولنا أن نتصور أن فرجينيا ربما كانت ستنقذه لصالح جنسها؛ إنما لم تكن ميوله الجنسية هي وحدها التي تحتاج إلى إنقاذ.

إن الصورة التي لدينا عن هذا الرجل في هذه الحقبة، حين كان يُنظر إليه كزوجٍ محتمل لفرجينيا، صورة قاتمة. أظن أن من الإنصاف القول إنها صورة كائن يعذب نفسه ويعذب الغير معاً.[1] وهو ينزلق من شقاءٍ إلى آخر، صورة مخلوق منحرف تعيس، متأوه، يضرب كفاً بكف، ولا يطاق أبداً. مع هذا وجده الكثيرون شخصاً يطاق، بل إمرئاً سهلاً، فكانوا يسامحونه حين يلجأ إلى الوقاحة كما كان يفعل بالتأكيد في غالب الأحيان. لماذا؟ لم يكن السبب شيئاً يرضي مشاعر هذا الرجل ذاته، فهو إنما يسامَح لأن أحزانه وجرائره لم تكن تؤخذ مأخذ الجد. إنه على الرغم من عاطفته الحقيقية والمخلصة التي أبداها عند وفاة ثوبي لم ينج من المآخذ التي شعرت بها فرجينيا نحوه، لا لأنه كان بكّاءً بل لأنه

لم يذرف من الدمع إلا قليلاً. وكان هذا الأمر قد جعله أكثر تقبلاً في المجتمع من العربيد المنتحب. والواقع أنه كان إجتماعياً سهل الجانب كثيراً. ربما كان قاسياً أو ازدرائياً في بعض الأحيان ولكن هذه الفظاظة كانت في سطحيته، في مسرحيتها، كأنينه المصطنع وعويله الزائف. وقد رأت فرجينيا أنه كانت تعوزه صفة الشهامة على حد تعبيرها، وأظنها عنت بذلك تلك العظمة في الإحساس التي تمكن المرء من عدم الإهتمام بالنقد، ولعل هذه الصفة هي التي تكوّن الشاعر الحق. حين أرسل إليها كلايف بعض أشعار ليتون لتقرأها كتبت تقول:

«نعم، إنها أشعار رهيفة، وأمامي مجموعة من الشعر الفكتوري من الطبقة الثانية وليس فيها من الرهافة ما هو أفضل من رهافة شعره. ولكنْ (وستتوقع هذه الـ : لكنْ وتتذوقها).

هناك ثمة إبتكار في شعره يمنعني من استحسان ما ينظمه كما ينبغي لي؛ هل تعرف ماذا أعني حين أتكلم عن مواتاته اللفظية، التي تراوغ المرء على نحوٍ ما حين يكون الشاعر الحق ملتزماً؟ (فمٌ ذريع)، (سكينةٌ مستحيلة)، (راحةٌ مبهمة)، (قتامٌ لا يضاهىٰ)؛ حين أصل إلى هذه العبارات أشعر بالتردد؛ فألوكها في لساني؛ لا أحس بأنني أخوض في مياه جديدة. على أنني معاصرة غيورة، ولعلي أرىٰ آثار أدواته في حين أن الجيل القادم سيرى الشكل برمته. وأحسب

> أحياناً أن عقل ليتون هو من المرونـة والمطاطيـة بحيث لا يمكنه أبداً أن يصنـع شيئاً يـدوم؛ إن إمكانياته لا نهائية. وهذه غيرة مني - بلا ريب»!.

ولا ريب أنها كانت غيورة؛ وكانت بالتأكيد ناقدة، ويكشف نقدها عن الحـذق، وعن تقييم منصف لمحدوديـة ليتون إن لم يكن لمزاياه. ولكن الميزة والصعوبة في علاقتهما إنما تنشآن عن أن كليهما ما زال يشق طريقه في دنيا الأدب، فيتنبأ للآخر بأن يصبح منافساً فظيعاً له. ولا بد أن فرجينيا شعرت بأن اقترانهما سيكون بمثابة إقتران لقـوىً متنافسـة. ولكنْ كان يمكن، لهـذا السبب بالذات، أن يبدو العرض جذاباً. إن ليتون، بصفته كاتباً زميلاً لها، كان غريماً ولكنه كان كذلك دمثاً، كما أنه، من وجهة نظر أدبية إن لم يكن من وجهـة نظر أخـرى، كان محتـرماً من أصدقاء فرجينيا الآخرين أكثر من احترامها له؛ ولا بد أن الشك أخذ يساورها الآن بأن ساكسون لن ينتـج إلا القليل جـداً، ثم أنهمـا، هي وليتون معـاً كانـا يميلان إلى طرح كلايف جـانبـاً كأديب. ولكنْ، وبالرغم عن مآخذها كلها، كانت هي وأصدقاؤها يعتقدون اعتقاداً جازماً بإمكانيات ليتون في المستقبل. كانت توده كثيراً، وتخشاه على نحوٍ ما، ولعلها كانت ستميل إلى حبه.

أما إذا أخذنا بمقاييس الزواج المعتادة فإن الوحيد من بين أصدقاء فرجينيا الذي يمكن إعتباره شريكاً مرغوباً فيه هو هلتون يونغ E. Hilton Young. فقد ولد في سنة ١٨٧٩، السنة نفسها التي ولدت فيها ڤانيسا؛ وكان والده السير جورج يـونغ صـديقاً للسير لزلي، كما أن هلتون وأشقاءه كانوا قد لعبوا وهم صغار مع

أبناء آل ستيفن في حدائق كينسينغتـون. كان السيـر جورج من متسلقي الجبال، وعضواً في لجان ملكية كثيرة، وقد كتب دراسة عن هومير وعن اللهجات اليونانية، فكان في الواقـع واحداً من أولئك الشخصيات الفكتورية الـرصينة التي كـان الجيل القـديم حاشداً بهم.

ويبدو أن هلتون كان قد صُبّ في القالب الصقيل والمتناسق الذي صب فيه والده ـ حتى أنه، كأبيه، أصبـح رئيساً لإتحـاد الطلبة في كيمبردج؛ ولم يستغرب أحد حين حقق لنفسه إسماً في سنين لاحقـة من حياتـه، في الحرب، وفي السيـاسـة، وانتهى بالعضويـة في مجلس اللوردات، مع شـريط من الأوسمة يـزيّن صدره، ومجلدات ذات قيمة وضعها في النثر والشعـر. بعد أن تخرج في الجامعة تخصص بالقانون، فجـدّد تعارفـه مع أسـرة ستيفن حين انتقلت إلى بلومز بيري وبـدأت تستقبل الـزوار في أمسيات الخميس، وأصبح من الزوار الدائبين هنـاك وفي منزل فرجينيا أيضاً. لقد أحس ابتداءً بالرهبة من الألمعية الثقافية لأولئك الصحب، ومن تمحيصهم غير المساوم للآراء والمواضعات، كان هو بالتأكيد تقليدياً حسب مقـاييسهم؛ لكنهم كانـوا متسامحين، فضلاً عن كونهم من ذوي الفتنة الأسرة والإنجازات؛ وكان هـو لطيفاً وموهوباً: أخذ يقدر آراءهم كما أخذوا هم يقدرونه.

كان هلتون ميّالاً إلى فرجينيا ولكنه لم يكن قـد شغف بها حباً؛ أما هي فقد تقبلت إهتماماته بها بسرور، ومع هذا فـإنها كانت تعتبره حين يجدّ الجد غير حاذق قليلاً. كان على حد تعبير

ڤانيسا «كالفيل في مخزن الزجاجيات»[1] وكان توخيه للكمال يضجر فرجينيا بصورة من الصور. ومع تمتعه بالصفات الجيدة كلها أخفق في أن يكون أكثر من شخص يثير الإهتمام. كان حقاً يثير الإهتمام، لذلك ظلت فرجينيا تلتقيه في ما بعد سنوات طويلة. ولعلها شعرت في البداية أنه قد يكون أمراً لطيفاً لو تزوج منها، أو خطبها في الأقل. لسوف نلتقيه مرة أخرى، ولكنّ علينا الآن أن نبحث في أمر معجبٍ آخر من نمط مختلف، أمر عاشق أكثر إثارة للمشاعر وللكآبة أيضاً، من هلتون أو ساكسون أو حتى من ليتون نفسه.

ففي شباط ١٩٠٨ وضعت ڤانيسا مولوداً ذكراً أسموه جوليان. وفي نيسان، وبعد فترة نقاهة من النفاس، طويلة جداً كانت تعتبر يومئذٍ ضرورية، إلتحق كلايف وڤانيسا وأدريان بفرجينيا التي كانت في سانت آيفز لقضاء عطلة عيد الفصح. وذهب الطفل معهم بالطبع مع مربيته. لم يكن لدى فرجينيا خبرة بالأطفال الرضّع. بدا لها أن ذلك المخلوق يموء كالقطة التي تنذر بالشر، وبدا لها ذلك الرضيع شيئاً غير إنساني على الإطلاق، شيئاً غريباً ومريعاً يسبب من الإزعاج ما لا نهاية له.

شعرت ڤانيسا بما يتوقع من أم فتية أن تشعر به؛ لكن عواطف أمومتها تطورت لديها كثيراً فأورثتها نوعاً من التبلّد، فقد

(١) من رسالة لها إلى فرجينيا في ١١ آب ١٩٠٨. كان حسن إستعمال ڤانيسا للأمثال وسوء إستعمالها لها أيضاً مصدر إستمتاع لا ينضب لفرجينيا.

ظنت أن الطفل هو في أهميته ومتعته وقدرته على المخاطبة كأيّ شخصٍ رشيد؛ إن أفعاله كلها، بما في ذلك صراخه، كانت تثير فيها الإهتمام البهيج، وقد وجدت من الصعب جداً أن ترى أحداً لا يستطيع مشاركتها في مشاعرها ولا يقرّ، وهذا الطفل هو مركز الحياة، بأن مواضيع الحديث الأخرى كلها يمكن أن تؤجل وللإستعاضة عنها بما هو آسرٌ فتان. لم يكن هذا شيئاً تستطيع فرجينيا أن تدركه؛ فإذا بمسرّات الوصال الأخوي تتحطم جميعاً. إتجهت نحو كلايف فوجدت عواطفه تقارب عواطفها. كان كلاهما يغار من الطفل على نحوٍ ما.

كان كلايف على العموم أباً رائعاً، متلطفاً، كريماً، ولم يكن قط ساخطاً وإن كان أحياناً يقع فريسة الهياج بسبب أطفاله. ولكنّ، وقبل أن يستطيع الإقبال على سحر الصغار بفتنته والإقبال على أيناسهم لا بد له أن يجد مجالاً مشتركاً بينه وبينهم يلتقون فيه. كان هذا مستحيلاً في حالة الرضيع. وهو إلى ذلك يكره ما ينبو عن النظام ـ فالتبوّل والتقيّؤ وسيلان اللعاب من أفواه الصغار ينغّص عليه أمره؛ ويضايقه ضجيجهم. وبما أنه قلقٌ بالسليقة ويجزع سريعاً من أجل صحة الآخرين فقد كان يضطرب مما يراه من هشاشة الأطفال. لو أن رضيعاً بكىٰ إستنتج أنه مريض بالتأكيد مرضاً لا يرجىٰ شفاؤه، فإذا استمر بالبكاء مرض هو ذاته من ضجيجه. .وهكذا كان يفرّ من الدار في سانت آيفز، وقد عذبته الشفقة والإنفعال معاً، ليجد لكربته متنفساً في مسيرات طويلة في الريف. أخذت فرجينيا ترافقه في مسيراته مدفوعة بإحساسٍ من الهجر لها والتخلّي عنها، وكانت تشعر كذلك بالراحة من إحساسها بعدم جدواها هي بالذات.

كان بوسعهما، بعيداً عن ذلك المواء الشنيع، أن يحسا بالإرتياح مرةً أخرى؛ بوسعهما أن يتحدثا عن الكتب وعن الأصدقاء، وقد تحدثا وهما يشعران بحس الرفقة وبحس التحالف ضد الإستبداد الرهيب للحياة العائلية. كان من السهل على فرجينيا، في مثل تلك المطارحات، أن تكتشف الصفات الطيبة في حموّها: الطبع الرضيّ الكامن في نزعته المهذبة، الترفق بمشاعر الغير حتى ليظهر وكأنه ملحاح جداً، الروحية الطيبة دائماً والإحساس السريع بما هو خطل وسخيف، وأن تكتشف كذلك فتنته الآسرة. أما هو فلم يساوره شكٌّ قط بأنها رفيقة باهرة، ساحرة، منعشة؛ ولكنْ لعله أخذ يلاحظ الآن، تحت أضواء معينة وفي بعض جوانب الحيوية، أن فرجينيا هي أجمل حتى من أختها. وكلايف لا يستطيع التحدث مع إمرأة ما ذات شخصية مدة وجيزة إلا وأظهر لها بعض مظاهر الفروسية البسيطة. لعلّه أمسىٰ الآن أكثر حرارةً بعض الشيء مما تتطلبه الضيافة المحض، كما أنها - وهذه نقطة حاسمة - هي التي كانت سترفض المعابثة بشدة كالمعتاد، أضحت الآن دمثةً، لطيفة المسلك. إن طبعاً حماسياً وجموحاً كطبع كلايف إنما يستثار بالمقاومة ويشحذ بالإيحاء بالنجاح. وباختصار، بدأ كلايف بعد أربعة عشر شهراً من الزواج، بمعابثة عنيفة، طويلة الأجل، مع حماته.

وأنا أستعمل كلمة المعابثة لأنني لو أسميت هذه الرابطة «بالعلاقة الغرامية» فإنها ستوحي بأن كلايف كان قد نجح في مبتغاه، الذي كان في واقع الأمر لا أكثر ولا أقل من خيانة صغيرة ممتعة تنتهي في الفراش. وقد إتهمته فرجينيا بعد سنوات بأنه

كطير الوقواق الذي يضع بيضه في أعشاش طيور أخرى. وكان جوابه محفوفاً بالبهجة: «يا عزيزتي فرجينيا، هل تركت لي مجالاً لكي أضع بيضةً في عشك»؟ وإني لأشك بأن الأمر كان سيدوم طويلاً، أو يصبح، في وقتٍ ما، مهماً لهما معاً، لو كانت فرجينيا قد منحته ما أراد. لكنها لم تفعل ذلك قط، ويمكن وصف سلوكها بأنه كان بالتأكيد سلوك الفضيلة، بالمعنىٰ الخام جداً.

فماذا أرادت إذن؟ إنها لم تكن مغرمة بكلايف على الإطلاق. ولئن كانت مغرمة بأحدٍ ما فهي مغرمة بڤانيسا. كانت تتبادل الرسائل معها يومياً، ورسائلها أشبه برسائل الغرام. فإن لم يصلها شيء من ڤانيسا ظنت في الحال أن شقيقتها في مخالب المرض أو الموت أو الكارثة. كانت تتوق على الدوام للإرتياح الذي تحس به في حضرة أختها. ولأنها كانت تحبها حباً جماً كان عليها أن تؤذيها، فتدخل إلى تلك الدائرة المفتونة فتكسرها، تلك الدائرة التي كانت ڤانيسا وكلايف ينعمان فيها بالسعادة، فاستبعدت فرجينيا منها بقسوة، فعليها إذن أن تسترد أختها مرة أخرى بفكّها عن زوجها، الذي لم يكن، على أية حال، جديراً بها.

كتبت فرجينيا في تشرين الأول ١٩٠٧ عن الزوجين تقول: «سيمضي بعض الوقت قبل أن أستطيع فصله عنها». وكانت هذه زلة لسان ـ فالمعنىٰ الواضح الذي أرادته هو أن تقول «قبل أن أستطيع تفريقه عنها» ـ ولعل زلة اللسان هذه فضحت ميلاً في أعماق الإرادة لم تكن فرجينيا متنبهة له في ذلك الوقت. إن النجاح البيّن للزواج كان من شأنه تعزيز مشاعرها. فهي تتمثل

سعادة الحياة التي تغمر شقيقتها كمن يقف على رصيف بارد وهو ينظر بحسد من خلال نافذةٍ ما إلى مبادلات المحبين الصميمية اللطيفة، مضاءةً بنار الموقد. كانت حياتها مع أدريان بديلاً يخلو من البهجة، وما كان بوسعها أن تتصور ليتون أو ساكسون أو حتى هلتون يونغ وهو يحقق لها ذلك الوهج المنـزلي الممرح الـذي تحسده على منزل بلومز بيري. لقد ساق القدر أمامها نموذجاً جلياً للشهوة الزوجية الطبيعية؛ فتركها ذلك وهي تحس بالوحدة وتفزع منها. إن باقتدارها أن تضع حداً لهذا العذاب ولا تعـرف كيف تقاوم الإغراء.

أما الذي أدركته سريعاً، بل كانت تعرفه جيداً منذ الإبتداء، فهو أن ڤانيسا كانت تعشق زوجها عشقاً عميقاً، وأن محاولتها لن تثير إلا أعمق الإستياء في المرأة التي ترغب في ضمها إليها، مهما يكن سبب المحاولة.

كان وضع ڤانيسا، كما فهمته فرجينيا بلا شك، وضعاً أليماً جداً، وضعاً يقتضي منها الحصافة والصبر. لم يقع بين الأختين نزاع مفضوح بكلمات صارخـة وإتهامـات متبادلـة؛ ويحتمل أن كلتيهمـا كانت تنكمش من مفهـوم «المشاجـرة». أخذت ڤـانيسا الأمور ببساطةٍ ويسر في رسائلها إلى كلايف وفرجينيا مع تظاهرها بالمزاح؛ كانت تحس في سريرتها بالجرح العميق والغضب العارم معاً؛ قالت كان بوسعها أن تسامح فرجينيا لو كانت هذه تشعر حقاً بعاطفةٍ ما، لو كانت مغرمة بكلايف حقاً، بل لو كانت مغرمة به بأي شكل على الإطلاق. ومن الواضـح أنها لم تكن كـذلك؛ فسلوكها إذن لم ينجم إلا عن استمتاعها بالمكر. هذا الأمر جعل

من كلايف شخصاً سريع التهيج، ومن ڤانيسا إمرأة تعيسة جداً. فماذا جنت فرجينيا من ذلك كله؟ لا شيء سوى القناعة الشبيهة بما يحس به المرء وهو يحك سنّه المنخور بلسانه[1].

مع هذا فثمة إحساس بأن صلة فرجينيا بكلايف كانت ذات جدوى حقيقية لها. لا أحسب أن في فرجينيا ذلك الطبع البغيض الذي يحب إثارة الشهوة في الرجال لمجرد إحباطها بخيبة الأمل. إن سلوكها في شؤون القلب الأخرى، بل كل الذي نعرفه عن طبعها، يشير إلى إتجاه مختلف ـ فقد كانت في واقع الأمر حيّية جداً من إثارة شعورٍ جنسيّ ما في أي فرد من الناس. لكنها كانت تستمتع بأن تكون في موضع الإعجاب ـ الإعجاب بقسماتها، بعقلها، بشخصيتها ـ وبأن تكون في موضع التملق من رجلٍ يعرف جيداً كيف يمارس ذلك الفن الخاص الذي يجعله محبباً لدى النساء. كان ذلك شيئاً جديداً تماماً في حياتها، شيئاً لم تحصل عليه بالتأكيد من ماج أو من ڤيوليت، بل لم تحصل عليه حتى من وولتر هيدلام. لقد كان كلايف يتمتع بتلك الفتنة الخاصة بالمسلك الطبيعي المعتاد. وهذا يعني ليس فقط أنه يقدّر فرجينيا لجنسها (في حين يقدّرها ليتون على الرغم من جنسها)، بل يعني أيضاً أنه لا ينتمي إلى تلك الزمرة من لوّاطي «جمعية الرسل» التي استبعدت منها فرجينيا بالضرورة، وكانت هي تنظر إليها بتخوف وانزعاج ونفور. وأحسب أن كلايف نجح أكثر بكثير

---

(١) «إن أمري مع كلايف وڤانيسا قد أغمد بي لسببٍ ما مديةً ـ أمضىٰ مما أحدثه لي أي شيءٍ آخر في حياتي». (من رسالة كتبتها فرجينيا إلى غوين رافيرات Gwen Raverat في ٢٢ آذار ١٩٢٥).

مما نجح وولتر هيدلام في جعلها تتنبّه لاستعداداتها الطبيعية، وفي جعلها تشعر بالحاجة إلى رجل، وهو أمرٌ لم تكن تشعر به حتى ذلك الحين.

وأُضيف إلى ذلك شيءٌ أكبر أهمية: إن كلايڤ يؤمن، كما آمنت ماج وڤيوليت من قبله، بعبقرية فرجينيا (وكانت كلمة العبقرية هي التي استعملها هؤلاء)، لكنّ كلايڤ، على خلاف ماج أو ڤيوليت، إستطاع أن يقدم نقداً مقبولاً. لقد أدى حقاً في هذا الشأن خدمة أكبر مما قدمه ليتون. كان ليتون رائعاً في بحث الأدب عموماً، ولكن لا حين يتعلق الأمر بكتابات فرجينيا ستيفن. إنه عندئذٍ يكون غريماً من الجدية بمكان. وهي معه على حذرٍ دائم، فلا تخصه إلا بأحسن ما عندها من الإنتاج الأدبي، فكانت النتيجة أن الرسائل التي بعثت بها إليه جاءت من أسوأ ما كتبت وأكثرها صنعةً وتكلفاً على الإطلاق، كان كلايڤ، وهو نفسه ناقد قيّم، أكثر تعاطفاً وأقل فظاعةً؛ وهي تستطيع معه أن تدع نفسها تجري على رسلها، فتمكن لذلك أن يقدم بعض النصح النافع وأن يسهم إسهاماً حقيقياً في كتابة رواية «ميليمبروسيا».

وفيما كانت فرجينيا عائدةً إلى لندن من سانت آيفز نسيت نسختها من كتاب سيرة حياة جون ديلين John Delane الذي كانت تكتب عنه عرضاً مستفيضاً لصحيفة كورنهيل. كانت تريد أن تقرأه في القطار. هرع كلايڤ به إليها وقد تحرك القطار فحاول أن يرمي بالكتاب إليها من نافذتها، فزل وسقط وأصيب برضوض. قدمت لهما هذه الحادثة ذريعة للعنتريات في المراسلة: قال إنه لن يكتب «عن الجروح النبيلة التي حزتُ عليها

في خدمتك». . . فتشفق عليه هازئةً: «إنك أسلت دمعةً من عيني وعلت خدي حمرة الخجل بكلامك عن اليدين المضمدتين والركبتين المشلولتين». فيجيبها: «هل تذكرين حديثنا عن العلاقة الحميمة وعن اللحظات المثيرة حقاً في الحياة؟ فهل بلغنا الأعالي على الإطلاق»؟ ويقول: «لم أتمنَ شيئاً في الدنيا، على قمة روز وول سوى تقبيلك». فتجيبه: «لماذا تعذبني بجمل غامضة مكبوتة؟. . . ومع أننا لم نتبادل القبلات (كنت أنا مستعدة، وعرضت نفسي ذات مرة). . . ـ غير أنني أظن أننا (بلغنا الأعالي) كما تقول».

في غضون ذلك كانت ڤانيسا تكتب إلى فرجينيا وتقول:

«لا أدري ماذا قلتِه عنّا؟ ألم تقولي مثلاً شيئاً كالآتي: «ڤانيسا بالطبع مشغولة جداً بالرضيع، وأخشىٰ أنها فقدت فرديتها وأضحت أماً منزلية إعتيادية. أما كلايف ـ وأنا أوده كثيراً بالطبع ولو أنه صاحب ذهن عادي بسيط ـ فيشترك معها في إصدار أحكام أخلاقية عني دائماً. مع هذا فهما سعيدان بصورة مثالية كما يبدو، وأحسب أن عدم بقائي مدة أطول كان خيراً. بدأت أضجر منهما (على ما يتضح لي). والآن، يا عنزتي الصغيرة ـ أسألك بشرفك ألم تتفوهي بشيء من هذه المشاعر نحونا»؟.

وأقفل الزوجان عائدين إلى لندن في أثر فرجينيا، ولا ريب أن المغازلات إستمرت تجري بمناورات، ومناورات مقابلة، من الطرفين؛ لكننا لا نحصل على فكرة عما يجري في هذه «اللعبة» إلا حين ينفصل الطرفان أحدهما عن الآخر.

وكانت لعبة حقاً (والمشتركين فيها كلهم من الخاسرين)، وقد

تعقدت بما أحاط بها من مزعجات وكآبة إجتماعية. كانت تمر بهم سويعات لا تسمع فيها فرجينيا مطلقاً كلام كلايف المتّسم بالفحولة والقوة فيثير ذلك حنقه؛ وسويعات تتيح فيها فرجينيا للآنسة شيپشانكز أن تفسد عليهما خلوتهما. ثم كان هناك ليتون؛ فما أن تقدم الصيف حتى تقدم اهتمامه بفرجينيا كذلك - أو هكذا كان يبدو. ثم كان هناك هيلتون يونغ. فكان وجوده يزيد من انفعالات كلايف فتتفاقم غيرته في نفسه. كان يونغ يعتبر معجباً جاداً بالتأكيد، وقد اعتقدت فرجينيا نفسها أنه سيتقدم لخطوبتها في ذلك الصيف. فلما لم يفعل أصيبت بخيبة أمل على نحوٍ واضح، إذ كانت ترجو أن تحظىٰ في الأقل على عرض زواج واحد.

كانت فرجينيا تعيش بمفردها في النصف الأول من عطلة ذلك الصيف؛ فقد ذهب أدريان مع ساكسون إلى بايرون في النمسا، وكان الزوجان بيل كالعادة مع أهل الزوج. أقامت هي في والز Wells لكي تكون على مقربة منهما وتظل مع ذلك على استقلالها، فذهبت بصحبة كلبيها في الأول من آب وهي مصممة على الإنكباب على روايتها. أنهت - أو فلنقل كتبت - مئة صفحة، كانت شخصية هلين أمبروز تتضح حيّة على السطور، وكذلك شخصية راشيل ڤينريس، لكن هذه الشخصية كانت في ذلك الوقت تدعىٰ سينتيا. رأت فرجينيا وهي في والز أن هذا الإسم لا يصلح[1]. كتبت إلى ڤانيسا عسىٰ أن تجد لها إسماً آخر

---

(١) كانت «رحلة الخروج» هي الرواية الوحيدة التي كتبتها فرجينيا في العلن تقريباً، فهي تطلب نصيحة الآخرين وتعرض عليهم أجزاءً من =

أليق بالمقام. كانت ڤانيسا على استعداد للقيام بما يشبه التعميد، فاقترحت بضعة أسماء، منها «مشمشة»! أما كلايف فاقترح إسم بيلاندا وظنه مناسباً جداً. أجابت فرجينيا تقول إن هذا إسم مزركش تماماً، إسم مبهرج أكثر مما ينبغي، فضلاً عن أن والد هذه البنت في الرواية هو ربان بحري فمن المؤكد أن يسمي إبنته إسماً أجنبياً، كأن يسميها «أندلس». فعجب كلايف من ذلك وقال ساخراً: «أو يسميها برشلونة» فقد أزعجه رفض اقتراحه. عندئذٍ قالت فرجينيا إن تغيير الأسماء هو أتفه الأمور فتناقضت بذلك مع طلبها بالذات.

كان نزل الأبرشية في والز، الذي سكنته فرجينيا مع السيدة وول مسكناً هادئاً تسمع فيه من بعيد شخير النائمين السمان في الكنيسة، وظنت أنه سيوفر لها السكينة التي تسعىٰ إليها؛ ولكن السيدة وول نغّصت عليها راحتها إذ جاءت بتلميذ لاهوتي خجول للسكن في الأبرشية رغبةً في توفير الصحبة لفرجينيا. فانتقلت الكاتبة إلى بيت القندلفت في الكاتدرائية، وتخلت عن الدراسة التي كانت تزمع القيام بها لحياة السيدة وول لغرض كتابة سيرة كاملة عنها. أخذت في مسكنها الجديد تدرس الأطفال الذين كانوا في الشارع من تحتها. غير أن الكتابة كانت عسيرة في غرفة لا منضدة فيها، والأمير ألبرت، قرين الملكة فكتوريا، يحدق بها من بين فوديه من صورته المعلقة فوق رأسها. وهكذا إنتقلت مرة

= مخطوطتها، وتتباحث بشأن تقدم العمل مع الأصدقاء. وأظنها صارت أقل إتصالاً بالغير في المراحل الأخير من كتابة الكتاب. أما عند كتابتها لرواياتها اللاحقة فلم تكن تبيح لأحد بأن يرى شيئاً منها حتى تنتهي.

أخرى إلى مانوربير. كان تقشف ذلك المكان البائس، الخشن المأخذ، يضاهي تقشف المكان في والز ولكنه أفضل منه للكتابة. في الثلاثين من آب أسرّت فرجينيا إلى فيوليت دكنسون تقول إنها تعتقد بأنها «سوف تكتب بصورة جيدة يوماً ما»، كما أسرت إلى كلايف تقول:

> «أنا أفكر كثيراً بمستقبلي، وأقرر الكتب التي سأكتبها ـ كيف سأعيد كتابة الرواية وأقبس جموع الأشياء الهاربة الآن، فأطبق على الكل، وأحدد سمات الأشياء الغريبة اللامتناهية... لكنني أعرف أني سأجلس غداً مرة أخرى لأكتب التعابير الجامدة ذاتها».

ثمة رسالة أرسلتها فرجينيا إلى إيما ڤوغان وكتبتها عند إقامتها هذه في مانوربير، وهي رسالة هازلة ومخبولة تنبىء بانتكاسٍ ما مفاجىء نحو شيء يقرب من الجنون. لكن فرجينيا كانت تبدو، من النواحي الأخري وقياساً على رسائلها كلها في تلك الحقبة، بصحة جيدة تماماً.

بعد أن أدى كلايف، ترافقه زوجته، فروض الإقامة مع والديه في منزلها عادا لقضاء عطلة حقيقية مع فرجينيا، ثم ذهبوا جميعاً في رحلة إلى إيطاليا زاروا خلالها مدناً كثيرة. كانت فرجينيا تكتب خلال ذلك وصفاً للمناظر الطبيعية على عادتها، كما أنها أمعنت النظر باهتمام في مراسم الكنيسة في مدينة سيينا فبدت لها مختلفة كثيراً عما رأته في والز. وأخذت كذلك تصف من تراهم في الفنادق: العزباء العجوز النهمة وهي تهيم على وجهها في فنادق

البلاد الأجنبية. . . السيدة النحيفة، النظيفة، مع بنتيها البسيطتين الودودين وهما تبحثان بهدوء عن الزوج. . .

غير أنها لا تقول شيئاً كثيراً، في العادة، عن الرسوم والعمارة؛ لكنها انبهرت بالجصّيات في Collegio del Cambio في بيروغيا، فانطلقت تكتب ملاحظات سريعة مفككة، لكنها مع هذا تثير الإهتمام:

«نظرتُ في رسم جصّي لبيروجينو Perugino. أتصوره يرى الأشياء مجمعةً، تحتويها أشكال معينة ومتغايرة؛ أما الأفعال التي تنم عنها الوجوه فغير موجودة؛ إن الجمال كله إنما يحتويه المظهر الموقت للكائنات الإنسانية. وقد رآها بيروجيو مكتملةً كما هي؛ قيمتها كلها فيها؛ ما من تلميح عن الخوف أو المستقبل. يبدو لي رسمه الجصّي صامتاً إلى ما لا نهاية؛ لكأن الجمال سبح طافياً إلى الأعلى فظل هناك، فوق كل شيء آخر، فالكلام، والدروب المفتوحة، والعلاقة بين عقل وعقل، غير موجودة.

كل قسم يعتمد على الأقسام الأخرى؛ وهي تؤلف فكرة واحدة في ذهنه. وتلك الفكرة لا علاقة لها بشيء يمكن التعبير عنه بالألفاظ. ثمة مجموعة تقف دونما علاقة بجسد الله. إنها وضعت إذن لأن خطوطها وألوانها ذات علاقة

بعضها ببعض، وهي تعبّر عن رأيٍ ما في الجمال في عقله.

أما الكتابة - فأنا أيضاً أريد التعبير عن الجمال - ولكن جمال الحياة والعالم (وتناظرهما)؟ في خضم العقل. هل من تنافر؟ هل هذا هو الأمر؟ إن كان ثمة فعل في الرسم فإنه لعرض الخطوط فقط؛ ولكن مع النظر إلى غاية الجمال. هل هناك نوع آخر من الجمال؟ لا أجد تنافراً.

أنا أصل إلى نوع مختلف من الجمال، أنجز تناظراً بواسطة التعارض اللامتناهي، وأنا أبيّن الآثار الناجمة عن مرور العقل خلال العالم، بأسرها؛ أنجز في النهاية نوعاً من الكل مصنوعاً من جذاذات مرتعشة؛ ويبدو هذا بنظري هو مجرىٰ الأمور الطبيعي؛ إنفلات العقل. هل يبلغ الآخرون حقاً الشيء ذاته»؟.

يمكننا أن نجد إهتماماً متساوياً، مع تأملات قليلة، في قراءتها لمجموعة الروايات من الورق الأسمر الرقيق كانت قد جلبتها معها في هذه الرحلة. قرأت رواية «إثنان على برج» لتوماس هاردي فاعتبرته كاتباً مرتبكاً فهو لا يعدّ من الكلاسيكيين، لكن ثمة نوع من قوةٍ قائمة تحف به ونمط من «الأمانة الفظة» التي تلائم ذوقها كثيراً. كذلك قرأت رواية «هاردي رچموند» لمريديث. كان هذا من الكتاب الذين تحمست لهم في البداية

على ما أظن؛ أما الآن فهي تقول «إن مريديث لا يرضيني»؛ لقد وجدت في إغراقه في الخيال وفي بريقه اللفظي ظلاً لشيء رائع لا شبهاً له، عالماً خاصاً به لكنه عالم من المتناقضات. تلك إذن كانت إهتمامات فرجينيا الثقافية في شهر أيلول ذاك.

أما كيف سارت الإهتمامات العاطفية فأمر يصعب الجواب عنه. كان هناك نزاعٌ ما عنيف في مدينة بيروغيا؛ كانا، هي وكلايف، يسيران في الشوارع الضيقة والمنحدرة لتلك المدينة وهما يتصارخان، وقد حدث هذا مرة أخرى في مدينة سيينا[1]. لكن الأمور كانت تسير على ما يرام كما يبدو. كتب كلايف إلى ساكسون: «ڤانيسا وفرجينيا بخير وهما فاتنتان بشكل لا يصدق»، فأجابه هذا على طريقته: «هل يعتبر تناقضاً إذا صدقتك»؟.

في نهاية تلك العطلة قالت فرجينيا لڤيوليت إن كلايف «رجل رائع»؛ ومن هذا يمكن الإستنتاج بأن الأمور كانت تسير بشكل حسن

كانت فرجينيا في ذلك الخريف، بل خلال تلك السنوات كلها، منشغلة لا بروايتها فحسب، وبكثير من الكتابة الصحفية؛ بل منشغلة بثقافتها كذلك. ومع أن جانيت كيس لم تعد معلمتها إلا أنها ظلت صديقة لها وربما إنتفعت فرجينيا من نصائحها.

---

(١) في بطاقة بريدية عليها صورة Viale della Fertezza في سيينا، مؤرخة في ١٧ حزيران ١٩٣٥، مرسلة إلى كلايف كتبت فرجينيا «في الموقع المؤشر بعلامة ضرب إختصم كلايف بيل مع حماته في أيلول ١٩٠٨. ذرفت دمعة ذكرى هناك تحت قدّاح البرتقال».

استمرت تقرأ للكتاب اليونانيين والرومانيين[1]. وفي آب، حين كانت في مانوربير، عكفت على قراءة ذلك الكتاب الذي كان يعتبره أصدقاؤها من كيمبردج إنجيل زمانهم: كتاب «مبادىء الأخلاق» لمور. قرأته ببعض الصعوبة وبكثير من الإعجاب. ومن الغريب أنها أجّلت ما كان يعتبر قراءة إلزامية في بلومز بيري (وإن لم يحاول ذلك أبداً لا ڤانيسا ولا دونكان غرانت) ويخيّل إليّ أن كلايف، الذي كان يجب استخدام مور في حججه الجدلية، هو الذي أقنعها بقراءته.

كان كلايف في هذا الوقت هو مرجعها المعوّل عليه، فقد أرشدها في قراءاتها في الأدب الفرنسي الحديث. كذلك غدا موضع سرّها الأدبي، وهذا أمر مهم جداً. لدينا رسائل تبين أنه كان في سنتي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ يقدم نقداً مطولاً ومفصلاً للمسودات الأولى من «رحلة الخروج» فكانت تتقبل هذا النقد. كان هناك فيها الكثير مما لم يعجبه، مقاطع بدت له فجةً أو غير ناضجة أو منحولة. لكنه على العموم كان متحمساً؛ وقد اعتبر ألفاظها ذات قوة «لا يتوقعها المرء إلا في أحسن الشعر وأعذبه» في ألفاظ «بلغت الحقيقة المنطوية عليها على خير ما يمكن أن تبلغه الألفاظ». وواضح أن مديحه قد شدّ من أزرها، وقد سرّها الحصول على توكيدٍ ما بأن كتاباتها ليست «بخاراً كلها»؛ كذلك تقبلت بعض نقداته اللاذعة واستفادت منها.

---

(١) قرأت فرجينيا في ١٩٠٧ جوفينال وفي ١٩٠٨ الأوديسة وأفلاطون؛ وفي ١٩٠٩ The Ion و The Ajax والضفادع؛ وكتبت تعليقات مفصلة عن هذه الكتب في كراس.

كانت هذه الآراء المتبادلة تؤلف جزءاً بهيجاً جداً وبناءً جداً من ذلك التشابك العاطفي الذي كان يزداد تعاسةً وبؤساً في نواحٍ أخرى.

الفصل الثامن

١٩٠٩

في السابع عشر من شباط ١٩٠٩ جاء ليتون إلى المنزل في بلومز بيري وخطب فرجينيا فقبلته.

أدرك ليتون في الحال أن فكرة الزواج التي كان يفكر فيها طويلاً ويرى فيها حلاً لمشاكل حياته الخاصة، المعقدة جداً، لم تكن حلاً على الإطلاق. إكتشف أنه يجزع من جنس فرجينيا ومن عذريتها؛ ويهلع من التفكير بتقبيلها له. خيّل إليه أن «فردوس السلام الزوجي» هو من المستحيلات؛ هذا إذن شيء لن ينفع أبداً. وقد فزع من الحالة التي وضع نفسه فيها، لا سيما لإعتقاده بأنها كانت تحبه.

تصورت فرجينيا شيئاً من هذا، فعاونته بتصرف لائق على الهرب مما وقع فيه في لقاءٍ ثانٍ قال أخيراً إنه لا يستطيع الزواج منها فأكدت هي له أنها لا تحبه، فرتّبا فسخ خطوبتهما على نحوٍ رقيق.

كان هذا بالنسبة إلى ليتون نهاية المسألة؛ ولا شك أنه أدرك

تمام الإدراك طبيعة مشاعره، ويصعب علينا أن نفترض أنه كان يستطيع التفكير بزواجٍ كهذا مرةً أخرى.

أما بالنسبة إلى فرجينيا فقد كان الأمر مختلفاً. فمع أنها لا بد أدركت أن الإحتمالات بعيدة التحقيق إلا أنها مع ذلك نظرت في احتمال الزواج منه. أخبرت ليتون أنها لم تكن مغرمة به. وأظنها لَم تغرم به. لعلها تتقبل شخصيته ولكنها، حين يجدّ الجد، لا تتقبل شخصه. كانت دائماً، كما أقرت في ما بعد، جبانة جنسياً، وكانت خبرتها في الحس الجنسي تجاه الذكور خبرة مفزعة ومقرفة معاً. لكنها كانت تريد أن تتزوج؛ كانت في السابعة والعشرين، وقد أضنتها العزوبة، فهي تجد نفسها متعبة من الحياة مع أدريان ولكنها شديدة الشغف بليتون. كانت بحاجة إلى زوج يمكنها أن تحترم فيه عقله؛ إنها تقدّر البروز الثقافي قبل أي شيء آخر، ولم يظهر بعد في هذا المجال منافس غريم أمام ليتون. هذا ولعل شذوذ ليتون الجنسي كان مصدراً للإطمئنان، فإنّه كزوج لن يكون رجلاً متطلِّباً جنسياً، فالشراكة معه، وكادت تكون أخوية في طبيعتها، قد تتطور إلى شيء حقيقي، صلب، ودود، بالتدريج.

ولكنْ، لو أن فرجينيا كانت قد عقدت آمالها على زواج كهذا لوجدتها آمالاً واهية وهي ترى ليتون يسحب عرض الخطوبة سريعاً. كان الأمر تجربة محزنة بالتأكيد ومخيبة للآمال على نحوٍ عميق[1].

---

(١) في اللحظة التي كانت فيها فرجينيا تجازف بسحب الورقة الخاطئة من مجموعة ورق اللعب إذا بالورقة الصحيحة تبرز أمامها. فقد إقترح ليتون في رسالة إلى ليونارد وولف في سيلان يقول إن ليونارد هو الذي يجب =

إنسحب ليتون قابعاً في برايتـون ليهدّىء من أعصـابه التي يعصف بها الهياج؛ ومضت فرجينيا تحيا حياة حـافلة بالعمـل، لكنها كانت حياة بائسة جداً على ما أخمّن. في هذا الوقت قام أحـد الغـربـاء، وقـد رقبهـا في Queen's Hall ولحظ وحـدتهـا وسوداويتها، بإرسال بطاقة لها، دون أن يكشف عن شخصيته، لحضـور مسرحيـة Strife من تأليف Galsworthy، وكـانت تمثل يومئذٍ على مسـرح Hay market، فذهبت وجلس الغـريب إلى جانبها، وتحدث معها، وكتب لها بعد ذلك يرجو صداقتها. كان هذا رجاءً لا تستطيع تلبيته. لكنها حفظت الرسالة.

في خلال تلك الأشهر الأولى من سنة ١٩٠٩ أقبلت فرجينيا على مغـامرة من نـوع آخـر، فقـد إبتـدع أحـد الأصـدقـاء من مجموعتهم لعبة على شكل كتابة رسائل يتخذ فيها اللاعبـون ـ فرجينيا، وولتر لامب، كلايف، فايس، ساكسون، وربما أدريان ـ دور شخصيات خيالية لكل واحد منهم، وكانت الفكرة من وراء هذه اللعبة تأليف رواية بأسلوب تبادل الرسائل. ومع أن الأسماء التي انتحلها اللاعبون لأنفسهم كانت أسماء خيالية إلا أنه سرعان ما إتضح أن الشخصيات والأحداث التي يصفونها في رسـائلهم ليست كذلك؛ كانت في واقع الأمر حفلة تنكرية، فلم يؤدِ التنكر فيها إلا إلى إبراز هوية المشتركين. أحس كلايف، متخفيـاً في قناعه، بالقدرة على تجديد عنترياته بصراحة غير معتادة وبحماس

= أن يتزوج من فرجينيا. فأجاب هذا: «هل تظن أنها تقبل بي؟ أكتب لي إذا قبلت. سـأستقـل السفينـة الأولى المبحـرة إلى الـوطن». (١ شباط ١٩٠٩).

بالغ؛ بحث ليتون هذا الأمر مع فرجينيا بلا مواربة وأخبرها بما يسببه ذلك لڤانيسا من ألم. كانت فرجينيا تراوغ في ردها على هذا على نحوٍ يثير الأسىٰ؛ فتعزّزها ڤانيسا على ضعفها المستهجن تجاه هذا الأمر وتجاه ما تبديه نحو هيلتون يونغ أيضاً. ولم يكن غريباً أن تنتهي تلك اللعبة حين تقدم ليتون باقتراح الخطوبة. كتبت فرجينيا: «الحياة مثيرة جداً بالتأكيد... ليتني أكتب رواية»!.

إقترح عليها الزوجان بيل أن تذهب معهما إلى فلورنسا شهراً من الزمن في أواخر نيسان. كانت هي قد خططت أن تأخذ السفينة مع أدريان إلى سانت مالو فتنزل إلى الشاطىء «وقد فاق أول الديوك وهو يصيح فجر عيد الفصح المجيد». ولكنْ، وفي السابع من نيسان ماتت أخيراً العمة كارولين أميليا، وكانت مريضة منذ بعض الوقت. إنشغلت فرجينيا بكتابة رثاءٍ لها (نشر في الغارديان يوم ٢١ نيسان ١٩٠٩)، وبحضور حرق الجثمان، ثم أرسلت إلى ڤانيسا تقول فيها إنها قررت، بعد اللتيا والتي، أن تذهب معهما. سُرَّ كلايف بذلك بالطبع فكتب لها بجذل بالغ. أجابته برسالة حافلة بالمغازلات.

لم تكن فلورنسا بالمكان الذي يرضيها. لم تأنس «ذلك المجتمع الفلورنسي المتكلف»، وقد إلتقت فيه السيدة روس الرهيبة التي أخذت تشرف عليها ـ وفرجينيا تكره أن يشرف عليها أحد ـ، والتقت فيه السيدة ماينيل Meynell، الشاعرة النحيفة العجفاء، كأنها «أرنب مخزوق»، ولم تكن هذه نموذجاً جيداً لسيدة تحترف الأدب. كانت فرجينا أسعد حالاً وهي تتفحص

أفراد الجالية الإنكليزية الأقل شأناً، وعلى الخصوص إمرأة بالذات تدعىٰ السيدة كامپيل، العجوز البدينة التي حوّلت كتاب «حياة الأب دميان» إلى شعر. كانت هذه الأمور الغريبة هي التي تبقىٰ في ذهن فرجينيا فتجد طريقها إلى رواياتها[1].

تحتوي يومياتها كذلك على بعض الملاحظات الأولية من أجل كتابة سيرة لحياة كلايف. كأنها كانت تنوي إخراج صورة متبصّرة، لا تخلو من التعاطف، لرجلٍ حساس، مستقيم، متلطّف، منصقل، وعلى علم بمواهبه الإجتماعية. يمكننا إذن أن نستنتج أن كلايف كان في ذهنها ويشغل بالها كثيراً في ذلك الوقت. لم تكن علاقتهما سعيدة، وكيف يمكن أن تكون؟ لعل إلتفاتات كلايف نحوها كانت مريحة لها بعد تملّص ليتون؛ لكنها هي أيضاً كانت متملصةً، على شاكلتها. فهي لا تحتفظ بكلايف ولا تتركه؛ وظل هذا مزعجاً وهو يحس بصدودها عنه ويغضب من غنجها أمامه. قال لها إنها تعيش برأسها لا بقلبها. كانا يتراوحان بين الغزل والخصام. وقد ظنت أن كلايف يثأر من برودها بطريقة تؤذيها على نحوٍ ممجوج، فقد كان يلجأ ببساطة إلى مضاجعة زوجته. كانت مظاهر عاطفته الطبيعية نحو زوجته، كالتحبب والتقبيل، تشعرها بأنها ليست موضع المحبة، بأنها مرفوضة ومستبعدة. كتبت بعدئذٍ تقول: «كنت في ذلك الصيف تعيسة وحاقدة في أحكامي»، ربما كان قد أوهنها وأزعجها ما حدث في الأشهر السابقة في إثارة تلتها خيبة الأمل. ولا ريب أنها كانت

(١) أنظر «رحلة الخروج» الفصل الحادي عشر. ص ١٦٥؛ و«غرفة يعقوب» الفصل الحادي والعشرين، ص ٢٦٣.

مشاكسة؛ فقد حدثت مشاجرات؛ كانت فرجينيا على حد تعبير ڤانيسا «متعبة» حين كانوا في Bargello، وبعد أسبوعين قررت فرجينيا أن عليها أن تقطع الرحلة وتعود من حيث أتت.

حثتها ڤانيسا وكلايف على البقاء: فهناك إضرابات في فرنسا؛ وهي لا تعرف من الفرنسية إلا القليل ولا تعرف من الإيطالية إلا أقل القليل؛ وهي لا تضبط مواعيد حركة القطارات كما هو معروف عنها. لكنها كانت مصممة على ما أرادت، فغادرت. كتبت ڤايسا إلى مارجري سنودين:

> «كان من المحزن أن نراها تبدأ رحلتها الطويلة بمفردها وقد تركتنا هنا! أنا بالطبع أشفق أحياناً على وضعها وما فيه من منغصات لها. وصرت أشعر بذلك هنا أكثر من المعتاد. أظنها تريد أن تتزوج وهي بالتأكيد تريد الزواج من ليتون. إن من الصعب العيش مع أدريان الذي لا يعرف قيمتها، والعيش معه إلى نهاية العمر هو من قبيل المستقبل المظلم. آمل أن يظهر رجل جديد خلال سنة أو سنتين، ذلك أنني صرت أفكر أن من الأفضل لها أن تتزوج رغم العوائق كلها. مع هذا فلا أدري ماذا ستفعل بالأطفال»!.

كانت الرحلة فاشلة؛ عادت فرجينيا إلى إنكلترا وإلى فشلٍ من نوع آخر. ففي أيار زارت كيمبردج، وهناك، في قاربٍ في نهر كام، عرض عليها هلتون يونغ الزواج. ثمة الكثير مما هو في صالحه ليجعله مقبولاً، ثم أنها لم تثبط همته في الماضي، وكان

شخصه وشخصيته من الروائع؛ فضلا عن ذلك فإن هذا الرجل قد يوفر لها حلاً لمصاعبها كلها، ولا شك أن آمالها بالزواج من ليتون كانت قد تلاشت، فيما جلب عليها عبثها مع كلايف من الألم أكثر مما جلب لها من المسرة. ولكن، حين آن أوان القرار، أدركت أنها لا تشعر بالحب لهلتون يونغ وأنها لا تستطيع الزواج منه. تذرعت له كذباً بأنها لا تستطيع الزواج سوى من شخصٍ واحد هو ليتون بالذات.

في ذلك الوقت أضيفت إلى حياة فرجينيا إضافة مهمة. كتبت تقول: «لقد تعرفنا تواً على سيدة رائعة هي الليدي أوتولين موريل Ottoline Morrell، وهي ذات رأس شبيه برأس ميدوسا بجماله المصعق؛ لكنها ساذجة جداً، وذات براءة، كما أنها تعشق الفنون».

لعل فرجينيا كانت مصيبة في وصفها لهذه السيدة بالبراءة، فقد كانت حقاً على قدر كبير من السذاجة وقدر قليل من الذكاء. غير أن مظهرها يوحي بالخبث والمراوغة والتعقيد. ذلك أنها كانت في زينتها الغريبة كالكنيسة النمساوية باروكية الطراز في عمارتها؛ وكان يتعالى من ذلك البنيان الجسدي الذي تقطنه هذه المرأة صوت فيه شيء من هديل الحمام وشيء من زئير الأسد فينداح على حنكها النادر المثال الشبيه بآل هابسبورغ؛ ثم أنها ذات احتشامٍ في الشكل وجلالٍ في الخطاب يوحيان بالتهديد والغواية معاً. جاءت ذات أمسية من أمسيات الخميس مع دوريليا وأغسطين جون Dorelia & A. John، وكانا بجمالهما المستحيل كأوتولين (ولا شك أنهم أحدثوا ذلك المساء حدثاً نادراً، وأوتولين وحدها تستطيع أن تجتذب جمهوراً كبيراً من المعجبين في

الشارع)؛ جاء معهم فيليب موريل زوج أوتولين.

كتبت أوتولين، بعد هذه الأمسية حالاً، تطلب من فرجينيا أسماء «أصدقائها الرائعين كلهم» وعناوينهم؛ ينبغي لهم جميعاً أن يزوروها في بيتها في ميدان بدفورد وكتبت فرجينيا تقول:

«عندئذٍ، [وتعني بكلمة (عندئذٍ) هذه: خلال السنوات الثلاث القادمة، جرفنا كلنا إلى تلك الدوّامة الباهرة حيث يتجمع من هبّ ودبّ زمناً قصيراً. كان هناك أوغسطين جون، شرّير المظهر بلفاعٍ أسود وسترة مخملية؛ ونستون تشرتشل بلونه القرمزي زاهياً بالأوسمة والأشرطة الذهبية في طريقه إلى قصر بكنغهام؛ ريموند أسكويت R. Asquith ينشد الأشعار الساخرة؛ فرانسيس دود F. Dodd[1] يحدثني بعبارات قارصة إقشعرّ لها بدني كيف قام هو والعمة سوزي[2] بقتل الحشرات: هي تمسلك بالمصباح؛ هو يمسك بدورق البارافين؛ والحشرات تمر تحت السقف زرافات. كان هناك اللورد هنري بينتيك H.

(١) الرسام، وقد جلست له فرجينيا عدداً من المرات ليرسمها، بين تشرين الأول ١٩٠٧ وتموز ١٩٠٨. صنع من التخطيطات أربع لوحات غرافيك، إحداها في الصالة القومية للپورتريت في لندن، وتوجد أخرى في مجموعة بنيامين سونثبيرغ في نيويورك.

(٢) العمة سوزي هي ازابيل داكر Dacre من أكادمية الفنون الجميلة في مانشتستر وكانت مقرّبة من الرسام.

Bentinck جالساً على طرف الأريكة ونينا لامب على طرفها الآخر. وفيليب وقد جاء للتو من مجلس العموم فوقف يتمتم على سجادة الموقد. فيليب زوج المضيفة. وكان هناك غلبرت كانان G. Cannan الذي يقال إنه مغرم بأوتولين؛ وبرتراند راسل الذي يقال إن أوتولين مغرمة به. كانت هناك أوتولين نفسها، وهذا هو المهم».

وبما أن الإشاعة كانت جامحة في أوساط أوتولين لنا أن نذكر ما قيل عن أنها كانت مغرمة بفرجينيا غرام العاشقات. ولا أظن أن أحداً كان قد إفترض أبداً أن فرجينيا بادلتها هذا الغرام؛ لكنها في حقيقة الأمر كانت تكنّ وداً لأوتولين وتجدها فكهة، فاتنة، نادرة المثال كأفراد الأسرة المالكة، أو الكنيسة. كانت أعجوبة فذة أكثر مما هي من بنات حواء، شخصية في رواياتٍ كتبت عن عصر آخر؛ لكنها كانت كذلك محببة إلى النفس كثيراً. لا شك أنها أسهمت بشيء جديد في حياة بلومز بيري - بذخ دينوي وعنصر قوي جداً من الشذوذ الجنسي - الأمر الذي رحبت به فرجينيا. لقد أتت أوتولين بالنساء والتفاهة والشمبانيا إلى أوساط التفكير السامي من اللواطيين في مجموعة بلومز بيري.

كان أدريان قد كتب يوميات إستمرت في ٦ حزيران حتى ١٦ تموز، وقد وصف في إحداها أمسية من أماسي الخميس التي يقيمانها هو وفرجينيا. هذا الوصف يستحق الإقتباس برمته لأنه يقدم لنا فكرةً ما عما كانت عليه حفلات بلومز بيري في ذلك الوقت، ويصوّر أيضاً رأي أدريان بشقيقته.

«الخميس ١ تموز.

في طريقي إلى البيت ذهبت إلى منزل بيل فوجدت العنزة هناك. عدت معها سيراً إلى دارنا. تعشينا معاً بمفردنا وانتظرنا بعد العشاء وقتاً طويلاً دون أن يأتي أحد. ثم جاء ساكسون أولاً كالعادة، وأعقبه بسرعة نورتون ثم جيمز وليتون ستراجي. كنا صامتين في البداية، والذين يقومون بالكلام كله بعد ذلك هم فرجينيا وليتون وأنا، أما ساكسون فهو كالعادة في حالة غيبوبة ونورتون وجيمز يتبادلان أحياناً همسة. ثم جاءت ڤانيسا وكلايف وجلبا معهما دانكون غرانت. بعد هذا صارت المحادثة أكثر حيويةً. جلست ڤانيسا مع ليتون على الأريكة ومن نتفٍ صغيرة مهموسة فهمت أنهما يتكلمان عن شذوذه الفاحش (. ثم إضطر إلى التوقف فجأةً، لا أدري لماذا، فسرّهما ذلك، خاصةً ڤانيسا. ثم جاء هنري لامب وكان قد قام ببعض رسوم الأشخاص في أوكسفورد. أحتفظت المحادثة بدفقٍ طيب، وإن لم تكن ممتعة كثيراً، حتى وصول الآنسة كول Cole قرابة الحادية عشرة والنصف.

جلستُ في مقعد الخيزران الطويل وفرجينيا وكلايف يجلسان على الأرض بجانبها. بدأت فرجينيا بنبرتها المعتادة من الإعجاب الصريح تثني

على مظهرها: (أنت بالطبع يا آنسة كول أنيقة الملبس دائماً. وتظهرين بغاية الأصالة، تماماً كصدف البحر. هناك شيء في غاية الإنصقال يحيط بك ثم تأتين لتختلطين هنا بأحذيتنا المطيّنة ودخان الغلايين، وأنت بهذه الفساتين الأنيقة المبتكرة الطراز). وتدخل كلايف ليطلق إطراءات أقوى ثم أخذ يسألها لماذا لا توده كثيراً ويقول إن أية شابة أخرى كانت ستسر كثيراً بالأشياء اللطيفة التي يقولها ولكنها تعامله بغاية الحدة. هنا قاطعته فرجينيا: (أظن أن الآنسة كول ذات شخصية قوية جداً) الخ الخ. وعلى العموم كانت الآنسة كول تعبة جداً ويبدو عليها عدم الإرتياح؛ كان من المستحيل إلا الضحك على مبالغات فرجينيا وكلايف وقد توقفت المحادثات الأخرى كلها بسبب تهريجهما، حتى أن المرأة المسكينة كانت محل تحديقنا جميعاً، وهي لا تعرف ماذا تفعل. أخيراً حدث تغيير مريح إذ أخذت فرجينيا مقعدي وأخذت مقعدها واستطعت بشيء من المهارة، كما يحق لي أن أقول، أن أسيطر على كلايف.

غادر جيمز وليتون ستراجي فلعبنا لعبة خرقاء تعلمتها ڤايسا وكلايف لا أدري أين. قانون اللعبة كالآتي: الفائز هو ذلك الذي يستطيع أن يذكر في نصف دقيقة فقط أكثر الكلمات عدداً التي تبدأ

بحرف معيّن. أمسك كلايف بالساعة وأعطانا لكلٍ دوراً. وبدأ نورتون الذي أعطي الحرف G فذكر Jerusalem و Jesus، الأمر الذي أخشى أنه أضاف ألماً آخر إلى قائمة الآلام الطويلة أصلاً للمسكينة الآنسة كول. واشتركنا جميعاً كلٌ في دوره، وحاولت ڤايسا أن تتصرف بخفة تقرباً للآخرين، فهي تحاول أن تذكر شيئاً فاحشاً ويسرها أن تقوله كالطفل الذي أفسده الدلال. تركت الآنسة كول في الواحدة وترك دانكون غرانت في الوقت ذاته تقريباً، ثم بدأ نقاش عظيم عن الرذيلة ولا أعرف من الذي بدأه. وسرعان ما جعلت فرجينيا من نفسها مركزاً للجدل بفنها الحاذق وأخذت تبدي آراء غامضة جداً بشعور قوي جداً وتنتهر من يحاول الضحك. وطريقتها بارعة ولو أنها كانت مزعجة في البداية. فحين يناقش أحدهم حجتها بدقة ويدحضها توافقه فوراً بحماسة قائلة إنه قد عبّر عن وجهة نظرها بالضبط.

وسفّ الجدل إلى مجرد رصف الألفاظ، وكان بهذا الإعتبار مؤنساً؛ وهذا بدوره مهد الطريق إلى مداعبة ساكسون. جرى تسفيهه والضحك منه جراء صفاته الغريبة وظل هو صامتاً طوال الوقت، عدا التكشير عن إبتسامة بين الحين والحين. ولم يكن من الممكن إستفزازه ليقول شيئاً رغم صليات

فرجينيا وكانت صليات جسورة جداً ولا تخلو من قهقهاتها حين يكون كلايف حاضراً.

أخيراً ذهب الجميع عدا ساكسون. فمضىٰ هذا يبحث في طرق السفر إلى ألمانيا وقد إستحصل على معلومات إضافية من توماس كوك. علىٰ أن فرجينيا وأنا كنا بدرجة من النعـاس بحيث دبّرنـا إخـراجه بمحض الـلامبالاة. ذهبنـا إلى الفـراش فجراً حوالي الخامسة».

لم تكن الآنسة كول على حظٍ كبير لما خلقـوه حولهـا من وضعٍ مصطنعٍ فكانت في حالٍ يدعو إلى الإشفاق. ذلك أن المرء لا يعرف عادةً كيف يتصرف تجاه الصورة التي تلفّقها له فرجينيا (وهي تحب ما تخترع من صور وتصدقها) لم تتراجع عنها علناً ويمرح تراجعا تاماً. ويكون الأمـر أشد عسـراً حين ينضم إليها كلايف بعنترياته ولم تكن تستحسنها دائماً. كان هذا ينحـو إلى تهويل ما تبديه من إطراء جامح تهويلاً صاخباً. ولا تكمن القسوة، التي تصاحب مغالاة فرجينيا في الحديث، في عدوانيتها بل في إخلاصها، لأنني لا أظن أن فرجينيا كانت حقاً خبيثة في الأوضاع الإعتيادية. كانت الصورة التي خلقتها للزائرة صورة خيالية، ولكنْ كان بوسع ضحيتها تلك ـ وهي الأساس الواهن الذي إبتنت عليه خيالها ـ أن تطرح جانباً تلك الصورة الخيالية بسهولة لـولا أنها كانت قد عُرضت بقوة دامغة؛ وقد إنبعثت تلك القوة لا عن رغبة في التشويه بل عن عقيدة. وكان الأمر سواء: بدت الآنسة كول

كصدف البحر أم لم تبد[1]؛ ولكنْ كان يحفّ بصدفها اللؤلؤي من التألق ما يكفي لإثارة مخيلة فرجينيا (وما أسهل ما تثار) ثم تصدق في الحال بالبنيان المتوهج الذي تشيده وكأنه حقيقة واقعة. وواقع الأمر أن فرجينيا هي التي كانت تصبح بنظر الغير على قدر كبير من السخف، لا ضحيتها التي تستهزىء بها عندما تطلق لخيالها العنان، وهذا في السنوات اللاحقة على أية حال.

ثمة حكاية أخرى أكثر براءةً تعود إلى هذه الحقبة ويمكننا تدوينها لأنها تبين بجلاء طاقة فرجينيا في الخيال الأسطوري، ذلك الخيال الذي يخلق البلبلة والضيق معاً.

كان ذلك في كورنوول؛ كانت فرجينيا وفانيسا وكلايف، وربما أدريان أيضاً، يتناولون غداءهم في نزلٍ هناك. جاءت الخادمة، وكانت خجولةً، غبيةً، ومكتئبة، لترفع من مائدتهم بقايا لحم الضأن وما حوله من خضروات. فسألتها فرجينيا: «ما هي الحلوى»؟ أجابت الخادمة: «حلوى جبل سانت ميشيل».

والتهبت مخيلة فرجينيا؛ فقد تصورت كيف ستكون عليه هذا الحلوى، وما أن تصورتها حتى بادرت إلى وصفها. لا نعرف ماذا كانت ألفاظها بالضبط؛ غير أنها انطلقت تتكلم عن تكويرٍ شاهق من الشوكولاتة محاطٍ بقلعةٍ من سكّر لمّاع، ذات أسوار وأبراج وبوابات، رفعت فوقها رايات من النعناع وفي أسفلها أوقيانوس هائج مائج من «الجلي» الشفّاف المترجرج تتناثر فوقه رغوة الحليب ويزيّنه الفالوذج بأشكال من «اللُقَم» على هيئة السفن

(١) تزوجت الآنسة كول من نيفيل تشمبرلين في سنة ١٩١٠.

وصورة حوريات البحر وسمك الدولفين وبنات الماء... أما الجالسون حول فرجينيا فكان إهتمامهم، وهم يستمعون إلى هذا الجرد اللفظي، ينصبّ على ما سينعكس على وجه الخادمة التي وقفت أمامهم مشدوهةً، مأخوذة ببلاغة فرجينيا، ومذعورة أيضاً لأنها تعرف أنها ستأتيهم في الحال بحلوىٰ يتصاعد منها البخار، لا تشبه في شيء إلا قلعة من الرمل عليها قليل من مربّىٰ التوت.

كانت هذه من صعوبات العيش مع فرجينيا؛ فقد كانت مخيلتها ذات محرك بلا كوابح؛ إنها تنطلق سريعاً إلى الأمام فتنفصل عن الواقع، وحين يكون هذا الواقع هو أحد بني البشر تكون النتيجة مريعة له عندما يجد أن ما ينتظر منه هو أن يكون على مستوى الشخصية التي إخترعتها له فرجينيا. ولكنْ، حتى حين تكون المسألة عبارة عن مظلة واقية فإن الأمر يمكن أن يسبب فوضىٰ عظيمة.

ففي أواخر صيف ١٩٠٩، وكانت في بايروث، ذهبت تتبضّع مع أدريان واشترت ريشة للقلم. كان ذلك دائماً أمراً شديد الصعوبة. ذلك أن الممارسة اليدوية الفعلية للكتابة تسرّها جداً. فهي تحب لمسة الريشة الجيدة الصلدة حين تخط حروفها على الورق، ويسيئها إستعمال الأداة الرديئة؛ كانت منذ سن الخامسة عشرة بالتأكيد، وربما من سنٍ أبكر، وهي تجرّب باستمرار أقلاماً وريش أقلامٍ جديدة فيصعب إرضاؤها. وهكذا، فقد بدأت حملة التبضع بداية سيئة من وجهة نظر أدريان. ثم صارت أسوأ وذلك بزيارة حانوت لبيع الكتب حيث خلقت فرجينيا فوضىٰ عظيمة ببحثها عن طبعة شعبية لكتاب «دكتاتور مائدة الإفطار» الذي كانت

تكتب عنه وكان عليها أن تجلبه معها من إنكلترا. هنا كانت في الأقل تعرف ماذا تريد. ولسوء الحظ لم يكن الكتاب موجوداً هناك فكان على أصحاب الحانوت أن يرسلوا بطلب نسخةٍ منه من لايبنزيغ. والأنكى من ذلك أنها حين عادت وجدت الكتاب في حقيبتها. إقترحت على أدريان، بما تتمتع به من لا مبالاة أنثوية هي من صفات النساء، أن يرافقها في زيارة ثانية إلى حانوت الكتب لإلغاء الطلبية. رفض أدريان؛ لم يستطع مواجهة أولئك الناس مرة أخرى. على أن هذا كله جرى بعد شراء المظلة، الأمر الذي كان قد إستغرق وقتاً أطول وسبّب ما سبّب من آلام. قالت إنها تحتاج إلى مظلة بيضاء فعرض عليها البائع المظلات البيض الموجودة بأجمعها؛ لكنها لم تكن مما كانت تتخيله؛ أوضحت أن مظلةً بيضاء لا تفي بالغرض إلا إذا كانت ذات بطانة خضراء. لم يكن في الخزن مظلة كهذه، فطلبت أخرى بنّية اللون، وفي النهاية إشترت أرخص مظلة موجودة من الكتّان الأسود.

كانت فرجينيا طوال حياتها متبضعة مشوّشة، لا يستقر لها رأي، وتثير أعصاب الآخرين؛ لا بد أنها كانت تدفع بكثير من الباعة المساكين إلى حافة الكفر أو العويل، ولم يكن هؤلاء وحدهم هم الذين يقاسون أشد العذاب، بل يقاسي معهم كذلك من يرافق المشترية حين تجد نفسها وقد بلغت طريقاً مسدوداً أمام الهوة التي تراها تفصل بين ما تخيلته في ذهنها وما يعرض عليها للبيع فعلاً.

أخذني هذا الاستطراد إلى بايروت، حيث يقام المهرجان

الموسيقي السنوي، لذا عليّ أن أوضح لماذا كانت فرجينيا هناك في آب ١٩٠٩. كانت بايروث في السنوات اللاحقة آخر مكان يمكن للمرء أن يتوقع وجودها فيه. فهي لم تكن ذات نزعة موسيقية بالمعنىٰ الدقيق. لم تكن تعزف على آلة ما؛ ولا أظنها كانت تستطيع تتبّع الجمل الموسيقية بإدراك عميق. كانت الموسيقىٰ تسرها، نعم؛ وكانت تستمتع بالإستماع إلى بيانو الأسرة الصغير (حين لا يعزف عليه أدريان طويلاً)، كما ستستمتع بالإستماع إلى الكراما فون في ما بعد؛ فالموسيقىٰ إنما تؤلف خلفية لخيالها، وثيمة ليراعها؛ إننا نجدها، خلال المدة التي كتب فيها أدريان يومياته، وقد ترددت على حضور الحفلات الموسيقية، وذهبت كثيراً إلى الأوبرا، وكانت تستمتع بالأوپرا كحدثٍ بذاته وكمناسبة إجتماعية أيضاً.

لعل تذوقها للأوپرا قد شحذه ساكسون، شأنها في ذلك شأن أدريان؛ كان هذا بلا شك هو الذي حدا بها إلى التبجيل الذي أخذت تبديه لڤغنر، فقد كان ساكسون، وظل كذلك على الدوام، من أنصار فاغنر المتحمسين، فهو يجلس في بايروث مستمعاً لحلقة إثر حلقة من ذلك العمل الثلاثي الكبير: The Ring، ليستمتع بكل جملة موسيقية من حنجرة المغنين على لسان تريستان وپارسيفال (وقد تمكن في ١٩١٠ أن يحتفل بحضوره الأوپرا للمرة الثلاثمئة)، ولا بد، على ما أظن، أن يكون ضغطه القوي، الصامت، هو الذي جعل فرجينيا، التي كانت ستفضل، حتى في ذلك الوقت، الإستماع إلى موزارت، تشدّ رحالها إلى معبد واغنر، فتلتقي أناساً من الألمان الدميمي الوجوه بشكل يورث الكرب، وأناساً من أصدقاء العائلة القدامىٰ من إنكلترا

كانت تفضل ألا تراهم، وتقيم في نُزُلٍ لا ترغب فيها وتتناول طعاماً لا يثير الشهية.

ظلوا في بايروث أسبوعين. في الصباح يخرج أدريان وساكسون إلى التجوال مشياً، وتبقىٰ فرجينيا لتكتب على منضدة مهتزة صنعتها بتثبيت صندوقها على حافة السرير. ثم يلتقون على الغداء، ويذهبون بعد الظهر إلى الأوپرا. كتب أدريان إلى ڤانيسا يقول:

«لا شك أننا كنا نمثل في أعين الناظرين مشهداً غريباً حين نترك دار الأوپرا بين الفصول؛ فها هي العنزة تحمل مظلتها والحقيبة الجلدية الكبيرة وعلبة السجائر وعلبة الشوكولاتة ونص الأوپرا بيد، وتحاول بالأخرى عبثاً أن ترفع ذيل معطفها الأبيض الطويل إلى الأعلى وهو يمعن بالتمسح بالتراب؛ ثم ها هو ساكسون يترنم بصوت طروب مؤشراً بيديه بجموح حتى ليظن المرء أن عظامه كله تخرج من مفاصلها؛ وأخيراً ها أنا ذا آتي مرفوع الرأس متكلفاً الهدوء كأن لم يحدث شيء فأقودهما بعيداً عن جمهرة الناس».

(أما فرجينيا فقد كتبت: «... ثمة جمهور كبير وكانوا يحدقون بنا، لا من أجل جمالنا»، فإذا تذكرنا جسم أدريان الغريب النحيل وطريق سيره النشاز وتصورناه وهو يشرئب بعنقه فوق الجمهور، فلنا أن نقول أنه كان أغرب الثلاثة مظهراً).

ويستأنف أدريان روايته فيقول: «لا جدوى من

> بمحاولة التخفيف عن العنزة بحمل شيء مما تحمله، إذ ما أن يحاول المرء ذلك حتى تتناثر نصف حمولتها على الأرض. في النهاية قدتهما إلى حقل كبير مهجور حيث جلسنا، وساكسون يقاوم ما يعانيه من آلام الروماتزم فيمسي محزوناً مغموماً، وتأخذ فرجينيا بالتوسع في خيالاتها الغريبة جداً. وتضطر في النهاية إلى أن أناقضها صراحة «فتنتهرني، ومن ثم نهدأ جميعنا ونأكل الشوكولاتة بصمتٍ نسبي».

مع هذا نجد أن فرجينيا وأدريان، وقد إضطرهما خمول ساكسون إلى التآخي، كانا على علاقات طيبة على نحو غير معتاد (ولم يكن أدريان يعرف هل ستدوم هذه الحالة الطيبة، إذا أصرت فرجينيا على القيام بمزيد من التبضع). وقد كتبت فرجينيا أيضاً لأختها، يومياً تقريباً، لتصف لها ما يحيط بهم، وما يقومون به من فعاليات، ولتحدثها عمّن تلتقيهم من الناس.

> «إن فظاظة الألمان شيء مذهل - لكنهم على ما يبدو نظيفين جداً ولطفاء - وهم يلائمون ساكسون كثيراً جداً، فهو يظنهم عقلاء للغاية».

والواقع أنها أخضعت ساكسون لتمحيصها الدقيق باستمرار:

> «ساكسون يسبت طيلة النهار، فإذا قاطعتِهِ إنزعج، إنه يقفز إلى الأمام أو إلى الخلف، هازاً عصاه القبيح، ويدندن، كأنه جرادة مزقزقة. وهو

يذكرني قليلاً بالوالد. فهو يضم قبضتيه ويقطب جبينه على شاكلته؛ ويتوقف فوراً عن ذلك إذا نظرتِ إليه. أدريان وأنا نغمز بعضنا البعض وأحياناً يرانا متلبسين. أمس في حوالى الحادية عشرة ليلاً وكنا نحن نتثاءب ونغالب النعاس إذا به يستيقظ فيطرح سؤالاً ما لطيفاً جداً وحاداً بالأحرى. تجادلنا حتى الواحدة والنصف صباحاً. كان السؤال بشأن شيء قاله أدريان قبل أسبوعين أو ربما ثلاثة، فلم يفهمه ساكسون حينئذٍ. إنه يدّخر الأشياء كالسنجاب. وعقله دقيق دقةً رائعة؛ لكني أستغرب قليلاً من ملكته العقلية... نحن هنا متقشفين كثيراً في كل شيء، كالراهبات والرهبان، لا نتكلم إلا قليلاً، و ـ أوه كم أتشوق إليكِ»!

وكتبت بعد أسبوع: «إن ساكسون... يكاد يكون من الجن. لم تزل محادثته غريبة. قال (ماذا قصدتِ يا فرجينيا حين قلت قبل ثلاث سنوات إن رأيكِ في الحياة هو رأي رواية لهنري جيمز، وإن رأيي هو رأي رواية لجورج مريديث)؟ كان عليّ أن أخترع له معنىً لقوليّ، فقال لي أنه يحسبني فتاة ذكية جداً ـ وهذا أسمىٰ مديح أطراني به طراً ـ».

ويسهم ساكسون نفسه بطرقته المتميزة فيكتب قائلاً:

«. . . لقد أدركت أخيراً بأنني إنما كتبت رسالة أخرى لا لشيءٍ إلا لبيان كيفية كتابة الرسائل لا غير. . . وبما أن أدريان قد أرسل بلا ريب صورة من صوره القلمية المؤنسة والأمينة من الوقائع الفعلية، وبما أن فرجينيا أيضاً أرسلت عدداً من صورها الذكية المفعمة بالخيال عن الأمور كما يجب أن تكون فلا حاجة بي إذن إلى أن أخرج عن هذا المضمار المتواضع وأدخل في منافسة فردية، مدمرة».

كانت الرحلة على العموم هي رحلة ساكسون؛ وكانت بمعنىً من المعاني ذروة ما توصل إليه بقدر ما يتعلق الأمر بفرجينيا. فهو لن يستطيع بعد الآن أن يقنعها بالذهاب إلى بايروث مرةً أخرى، كما أنه، هو الذي كان أذكىٰ أصدقاء ثوبي جميعاً، الذي مارس نفوذاً كبيراً مدةً تنوف على ست سنوات، التي كانت تنظر فرجينيا إليه بما يشبه الهول، قد أمسىٰ الآن شيئاً كالمزحة، بل مزحة متعبة. لقد أضمرت له الود واستمرت تضمره له على الدوام؛ ولكنْ، صار من الجليّ أنه لن يفعل شيئاً سوى حل الأحاجي وتنمية عدد من الإهتمامات. كان من السهل الإعتقاد بأنه عبقري، ثم صار من الأسهل الإعتقاد بأن عبقريته لن تثمر شيئاً إيجابياً. وكلما تقدم به العمر بدا وكأنه ينمّي في نفسه فن الهروب بشكل متزايد. إن من الممكن مقارنته بسرطان البحر الهلامي الذي ينزلق بصمت تحت غمامة من الصبغة القاتمة التي يفرزها، لكن من الممكن أيضاً تشبيهه بالقنفذ الذي لا يخفي نفسه فقط بل يستطيع

كـذلك أن يجـرح من يستعصي أمره. إنـه لم يكن فقط حلّالاً للأحاجي بل واضعاً لها أيضاً؛ كان يحب الإبتكار ويفخر فخراً طبيعياً بحذقه الخاص؛ وكـانت تفوهـاته المـوجزة، وتلميحـاته، ورسائله ذات الصنعة الشبيهة بلزوم ما لا يلزم، كلها أدلة تثبت سعة إطلاعه، لكنها كانت كذلـك تحيّر المتسلم وتجعله يحس بضعة شأنه، وهذا أيضاً كان أمراً يستمتع به. كان يحب أن يلعب ألعاباً مع أصدقائه، ألعاباً هي من الدقة الرهيفة بحيث لا يدركون إلا بالكاد أن ثمة رياضة تجري. فيضحـك منهم بهدوء، لكني أتخيل هنا وجود مزحة في باطن مزحة؛ فقـد كان يضحـك في أعماقه من أنسٍ حزين تافه فيه وهو يفتعله على حسابه الخاص ويجعل ثيمته حياته المريعة ذاتها.

في بداية أيلول، بعد أن قضت فرجينيا عشرة أيام أخرى مع رفيقيها في دريسدن، عادت إلى بلومز بيري، كان الزوجان بيل ما زالا يقيمان في ويلتشاير مع والدي كلايف أداءً للواجب نحوهما. إلتقتهما فرجينيا في سالز بوري بعد ترتيبات تكاد توحي بمواطئات العشاق السرية. ثم إستأجرت عشة صغيرة في ستود لاند وجربت على نطاق محدود جـداً، لأول مرة كمـا أظن، لذاذة الأعمـال المنزلية ومشقـاتها، فهي تحضـر إفطارهـا بنفسها وتجلب حليب الصباح، إلى غير ذلك. واستأجرت بدلـة سباحـة سمتها «بـدلة للجنسين» وكتبت تقول: «سبحت بعيداً حتى حوّم النورس حول رأسي يظنني زنبقة بحرية جرفتها الأمواج». والتحق بها الزوجان اللذان أقاما في نزلٍ قريب، فتمكنت من الإستمتـاع بصحبتهم وكذلك بصحبة جوليان الصغير، إبن أختها، الذي أخذ في الشهر

الثامن عشر من عمره يظهر ذلك النوع من المفاتن التي تقدرها وترضاها.

أتىٰ الزوجان بيل بصحاب آخرين. كانت ڤانيسا قد دعت ليتون، لكنّ هذا كان يستشفي في مصحٍ سويدي. دعت بدله وولتر لامب. كان هذا من معاصري كلايڤ في كلية ترينيتي، وصديقاً مقرباً ولكه لم يكن أثيراً كما كان يرجو. كان زائراً عارضاً في منزل بيل في لندن فهو يأتي بين رحلاته الكثيرة التي يقوم بها إلى كلية كلفتون حيث كان يدرس آداب الإغريق والرومان وإلى كيمبردج وإلى منزل أهله في مانشستر. في أوائل السنة أتيح له أن يقيم في منزل بلومز بيري، فكتب إلى الزوجين بيل، وكانا قد سافرا، يخبرهما عن ذلك ويقول: «أجريت أول حديث جيد لي مع ليتون. والنتيجة هي... أنني أتفق معكما كلياً بشأن ذهنها: ... ويجب أن أقر مرة أخرى بدقتكما ذلك أنني دهشت لأنها ظهرت بمظهر الصديق الودود». بعد ذلك قام لامب بترجمة يوريپيديس وأرسل الترجمة إليها. وقد أثنىٰ عليه كلايڤ، كما تعهده أدريان؛ وبدا ممكناً أن ڤرجينيا قد تأخذ بالشغف به.

لكن وولتر لامب لم يكن بديلاً لصاحبها ليتون الذي كتبت له في ٦ تشرين الأول تقول:

> «ها نحن عدنا الآن نعيش مرةً أخرى على الثقافة أساساً... وعلى ذكرى الحديث مع وولتر لامب، وهي ذكرى تلاشت مع الأسفار! أتمنى (كالعادة) لو ينشق رحم الأرض فيخرج مخلوقاً جديداً».

ودأبت فرجينيا على العمل على روايتها كشأنها دائماً، ولكنها كانت منشغلة كذلك طوال السنتين ١٩٠٨ و ١٩٠٩ بالصحافة، على نحوٍ أكثر إستغراقاً مما كانت عليه في العادة، أو مما ستكون عليه في سنوات كثيرة قادمة؛ غدت صحيفة (الملحق الأدبي للتايمز) هي المستخدِمة الرئيسية لها، وإن كانت تكتب أيضاً مقالات أطول في عرض الكتب لصحيفة كورنهيل. إبتدعت لمحرر الصحيفة هذه ما إعتبرته نوعاً جديداً تماماً في ضروب المقالة. كان العنوان «مذكرات روائية» والمذكرات في ظاهرها عرض لكتاب الآنسة لينسيت عن «حياة الآنسة ويلوت»:

> «هذا كتاب يمكن للمرء، إذا واتاه الحظ، أن يشتريه في شارع المكتبات (تشارنغ كروس)... وقد حشرت أجزاؤه بين كتاب (جمال الطبيعة) لستورم Sturm وبين (المرشد لجرّاحي البيطرة) في الرف الأمامي حيث يشققها الغاز ويلوثها الغبار، وللناس أن تقرأ فيها كما تشاء ما دام صبيّ المكتبة يسمح لهم بذلك».

ويتضح أن الآنسة لينسيت هي كاتبة نموذجية من كاتبات سير القديسين في العصر الفكتوري وقد سُرَّت فرجينيا بعض الشيء بوصف أسلوبها في كتابة السيرة. لكن الآنسة ويلوت، موضوع السيرة، هي التي تهم الناقدة حقاً، لأن ويلوت هذه روائية، وتكاد تكون شخصية مغمورة أيضاً: حياتها حياة مغمورة الأمر الذي كان يسحر فرجينيا دائماً؛ فهي تنظر إلى الآنسة ويلوت بمودة ومتعة وشفقة. حرمت الآنسة ويلوت من الزواج فتحولت إلى أعمال

الخير والإحسان، وحين أدركت أنها لا حرفة لها كرست نفسها لكتابة الروايات. كانت روايات مغرقة في رومانسيتها.

> «حسبتْ هذه الروائية أن من غير اللائق وصفها لما كانت تراه، لذا فبدلاً من أن تقدم لنا صورة لأخوتها (وكان أحدهم يحيا حياة شاذة) أو بدلاً من أن تكتب نبذة إحياءً لذكرى والدها (الأمر الذي كنا سنقدره) قامت بإختراع عشاقٍ من العرب واختارت أن يكون مكانهم على ضفاف نهر أورينوكو».

وهنا ندرك أن الآنسة ويلوت هي نفسها بدعة مختلفة، وكذلك الآنسة لينسيت[1]. إن (مذكرات روائية) هي في واقع الأمر محاولة لنشر عمل خيالي تحت غطاء النقد، أو بالأحرى دمج كلتا الفصيلتين معاً، وهذا شيء يثير الإهتمام ويمكن أن يكون حدثاً في تاريخ تطور فرجينيا ككاتبة. إنه يظهر، على ما أظن، أن العمليات الطويلة الجارية لكتابة رواية (رحلة الخروج)، أو لإعادة كتابتها، قد ضيّقت الخناق على صبرها إلى حدٍ ما، أو أن فرجينيا كانت على أية حال تواقة لكي تعرض ما عندها فبادرت تنشر عملاً من أعمال الخيال؛ هذا ولن تكونَ هذه المقالة هي الوحيدة بل الأولى في سلسلة من المقالات.

عرضت المخطوطة على كلايف، فاعتبرها هذا عملاً ذكياً،

---

(١) بحثت عبثاً عن الإسمين في فهرس مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة الكونغرس فلم أجد لهما على أثر.

ولكن كان من الواضح أن لديه تحفظات؛ أوضح في ما بعد أنها لم تكن تحفظات مهمة، واتهم نفسه بالخَرَق ـ ذلك أن موقفه النقدي كان متأثراً بما ظنه من فتور في مشاعرها نحوه فأراد إصلاح ذات البين. كتب لها في تشرين الثاني من كيمبردج ليقول إن سلسلتها «يُتوقع لها أن تكون رائعة القرن».

كان لمثل هذا الملق أن يغدو ساراً لولا أنه أُتْبِع في الحال برسالة من محرر صحيفة كورنهل فقد كتب هذا يقول: «إن شعوري هو أنك خزقت على دبوس لا فراشة من الفراشات بل زنبوراً. هذا وإن العمل الذي قمتِ به هو الذكاء بعينه، ولكنْ»... وباختصار، رفض ذلك المحرر المقالة بلطف وأسف إنما بتصميم. وبما أن المقالة كانت تعتبر نقطة إنطلاق جديدة مما أوحىٰ إلى أصدقاء فرجينيا بأن يأملوا منها الكثير، فإن هذه النتيجة أضافت بلا شك مرارة أخرى. لم تنشر فرجينيا في تلك الصحيفة مرة أخرى أو لم تحاول النشر على ما أظن.

غير أن عام ١٩٠٩، الذي جاء بعددٍ من المنغصات وبكثير من الأمل، قد انتهىٰ بقلق جديد. لقد ظهر أن شعلة بلومز بيري ذاتها هي على وشك الإنطفاء. إن كلايف وفانيسا، وهما من المهتمين كثيراً بالفنون التشكيلية ومن المدركين بصورة متزايدة أن ثمة أشياء عظيمة تحدث على الطرف الآخر من القنال، أخذا يشعران بأنهما بعيدان جداً عن عاصمة الفن. كلاهما كان فرنسيّ الهوىٰ، وكلاهما كان يستمتع بطيبات الحياة وحرياتها في فرنسا، فقررا أنهما سيكونان أسعد حالاً لو عاشا في باريس. إن هذا يعني أن يتركا الأصدقاء من ورائهما، لكنهما كانا يأملان بأن

تنضم إليهما فرجينيا، وربما ليتون أيضاً. لم يكن بوسع فرجينيا أن ترحب بهذه الفكرة؛ نعم، إنها لا ترغب بأن تنفصل عن كلايف، ولا عن ڤانيسا من باب أولى، لكنها لم تكن تشعر قط بالإرتياح خارج بلادها، كما أنها لم تكن مهتمة كثيراً بفن الرسم المعاصر، وحين نوهت بمشروع الرحيل إلى ليتون حسبه هذا مدمراً. غير أنها قالت إذا ذهب كلايف وڤانيسا فستذهب هي أيضاً. وقد تنبأت ڤانيسا بأنه حين يحين أوان الحقيقة فإن فرجينيا ستبقىٰ في إنكلترا، وأنها ستكون، خلال سنة أو نحوها، قد تزوجت من ليتون ـ أو خُطبت له في الأقل ـ.

في آخر يوم من هذه السنة قالت لهم ڤانيسا إن أدريان قرر ترك القانون والإتجاه نحو المسرح. أما فرجينيا فقد غيرت رأيها بشأن الذهاب إلى باريس بالتأكيد.

في صبيحة ليلة عيد الميلاد، وإذ كانت فرجينيا تسير بمفردها في منتزه ريجنت، إذا بها تقرر فجأةً أن تذهب إلى كورنوول. خطرت لها هذه الفكرة في الساعة الثانية عشرة والنصف كما قالت؛ القطار يغادر في الواحدة. كادت صوفي تصاب بالهستيريا، ورزمت مود قلادتها من حجر الأميثيسيت ونسيت مناديلها، ولكن فرجينيا إستقلت القطار. كانت ليلانت Lelant جميلة والجو ناعم كالربيع، فتجولت في الريف وتعثّرت في صعودها إلى Tren Crom واستمتعت بيوم الكرسمس بدون إحتفالات. أما المحادثة فلديها الخادمة وربان القارب، وأما المطارحة الفكرية فعندها حكايات الدكتور ميريون Dr. Meryon في كتابه عن الليدي ستانهوب. سرتها القصة الهائلة لتلك المرأة الغريبة الأطوار جداً

سروراً كبيراً وكانت في ذهنها حين كتبت إلى كلايف تقول:

«فلنفرض أني أبقىٰ هنا وأعتبر نفسي عذراء من عصر قديم، وأرقص في ليالي أيار في المعسكر البريطاني! ـ ستكون هذه خالة ذات فضائح بنظر جوليان، ولكنها ستكون خالة سارّة له حين يكبر. . . ويتمنىٰ أن يكون له أقارب من غريبي الأطوار. هل يمكنك أن تتصور كيف سيقدّم الخالة للآخرين تقديماً مرحاً في ليالي الخميس؟ لعله يقول: عندي خالة تتضاجع في شجرة وتظن أنها حبلىٰ من جرادة ـ شيء فاتن أليس كذلك؟ ـ وهي ترتدي الأخضر وأمي تبعث لها بالجوز واللوز».

لم يترك الزوجان بيل بلومز بيري، ولم يصبح أدريان ممثلاً قط. مع ذلك فإنه سيقدم عملاً تمثيلياً واحداً، ناجحاً جداً، وذا شأن.

الفصل التاسع

١٩١٠ ـ حزيران ١٩١٢

في صباح العاشر من شباط ١٩١٠، ذهبت فرجينيا مع خمسة صحاب آخرين إلى محطة بادنغتون في لندن واستقلوا القطار إلى وايموث Weymouth. كانت فرجينيا ترتدي العمة والقفطان المطرزين مع قلادة رائعة من الذهب تتدلى إلى خصرها. وجهها أسود فاحم، مع شارب أنيق ولحية أيضاً. كان ثلاثة آخرون من المجموعة، هم دانكون غرانت وأنطوني باكستون Byxton وغاي ريدلي Guy Ridley، متنكرين أيضاً، على الشاكلة ذاتها عموماً. خامسهم أدريان بلحية لائقة وقد إعتمر قبعة مكورة ليست على حجم رأسه تماماً فبدا، كما قال هو نفسه، «كأنه دلال متنقل يوحي بسوء السمعة». أما سادسهم فهو رئيس المجموعة، هوراس كول H. Cole، وقد تزيّى بزيّ موظف في وزارة الخارجية على نحوٍ ينطلي على الغير.

كان الغرض من هذه الرحلة خداع البحرية البريطانية بانتحال مظهر كاذب، والتغلغل في باطن وضعها الأمني، والاستمتاع بجولة رسمية في سفينة القيادة للأسطول، وكانت أحصن وأحدث

ما يعوم على الماء من السفن الحربية وأكثرها سريةً طراً، ألا وهي المدرعة H.M.S. Dreadnought.

شاركت فرجينيا عن طريق الصدفة في هذه الخدعة الوقحة التي لم يهيّأ لها على نحوٍ دقيق. فكّر بهذه العملية كل من أدريان وهوراس كول. وواقع الأمر أن كول كان المسؤول الأول عنها. وهو شاب غنيّ، أخرق، وقد رتب عدداً من المزح العملية، وأصبح صديقاً لأدريان في كيمبردج. أبرز مزحة نظمها كانت الزيارة الإحتفالية إلى كيمبردج من قبل سلطان زنجبار، أو بالأحرى من قبل عم السلطان الذي تقمص دوره كول نفسه، وكانت حاشيته تضم ثلاثة أعضاء (أحدهم أدريان) مع مترجم. وقد إستقبلوا رسمياً في دار البلدية من رئيسها ذاته وأقيمت تحت رعايتهم سوق خيرية، وأخذوا إلى زيارة الكليات الرئيسية في الجامعة، ثم ودعوا بحفاوة في محطة القطار. أخبر كول جريدة «ديلي ميل» بالخدعة فنشرت القصة؛ فاستاء رئيس البلدية وطلب من نائب عميد الجامعة طرد المطنونين. غير أنه لم تحصل نتائج خطيرة.

إن «خديعة المدرعة» - الإسم الذي ستشتهر به - ستكون تكراراً لمغامرة زنجبار الطائشة: يرسل أحد أصدقاء أدريان برقية يزعم أنها من وزارة الخارجية إلى رئيس أركان الأسطول تخبره بوصول أمبراطور الحبشة قريباً. يتقمص شخصية الأمبراطور أنطوني باكستون ويرافقه كول مندوباً من وزارة الخارجية. أدريان يترجم للوفد الذي يضم حاشية من النبلاء. هنا واجهوا صعوبتهم الأولى. فالبلاط الحبشي أخذ يذوب بين أيديهم حتى قل عدده

إلى إثنين فقط هما دانكون غرانت وغاي ريدلي؛ لم يكن هذا كافياً لدعم مقام الزائر الكريم: أسد يهودا. ثمة حاجة لواحد آخر في الأقل. طلب أدريان من فرجينيا أن تشترك معهم، فسرّت بذلك. لم يكن أمامها إلا يومين.

إمتعضت ڤانيسا من الفكرة بأسرها. بدا لها أن المزحة ستفشل بالتأكيد ولا ينبغي لفرجينيا أن تكون لها صلة بالعملية من قريب أو بعيد. كان كول نفسه يشعر أصلاً بوجود ثغرات كبيرة في الخطة، وربما شعر بذلك آخرون من الذين إعتذروا عن المشاركة. كان أدريان هو وحده الذي بدا سعيداً، واثقاً، ومصمماً تمام التصميم على الإستمرار.

بدأوا الرحلة معتمدين على أن الأسطول لن يشك ببرقية مفتوحة واردة من وزارة الخارجية. لم يكن لدى أيّ منهم فكرة عن شكل الشخص الحبشي، ناهيك عن كونه إمبراطوراً. كانوا يعولون على معرفتهم ببضع كلمات شبيهة باللغة السواحيلية، وعلى أصباغ الوجه، وعلى ملابس التمثيل التي لا تفي بالغرض، لكي يدحروا يقظة البحرية واحتراسها. يضاف إلى هذه الظروف غير المواتية أنهم إختاروا لهذه الزيارة سفينة حربية سيواجه فيها أدريان حتماً إبن خالته وليام فيشر الذي كان ربّاناً لهذه السفينة، وهي سفينة القيادة. كان هذا في الواقع من المغريات نظراً لطبيعة أدريان المتهورة؛ إن مداعبة البحرية شيء مؤنس، لكن القيام بهذه المداعبة على حساب أسرة آل فيشر هو إغراء لا يقاوم. أما إذا كشف أمرهم فما الذي سيحدث؟ قد يرمون بهم من السفينة إلى البحر ـ وهو تجربة ليست مناسبة في شهر شباط، ولم تكن

فرجينيا مهيّأة لها لا عقلياً ولا جسدياً.

حين وصل القطار إلى وايموث تقدم إلى باب عربتهم ملازم من سفينة القيادة وحيا الأمبراطور باحترام لائق. قام كول بإجراء التعارف اللازم. كان قد أقيم حاجز لكبح جماح الجمهور، وتقدم الركب الأمبراطوري بوقار إلى زورق بخاري صغير يقف على استعداد لنقلهم إلى الأسطول الذي يلقي مراسيه في الخليج. وجدت فرجينيا نفسها على المدرعة وهي تصافح إبن خالتها؛ كان إمساكها عن الإنفجار بالضحك أمراً عسيراً.

وفتشوا حرس الشرف. إلتفت الأدميرال فيشر إلى أدريان وطلب منه أن يوضح للإمبراطور المعاني التي تنطوي عليها البزات الرسمية التي يرتديها رجال الأسطول.

قال أدريان مخاطباً الإمبراطور: «أنبطاكوي، محاوي، كشتباني»، ثم إكتشف أن حصيلته من اللغة السواحلية، إن كانت تلك لغة سواحلية، قد نفذت. إستلهم الوحي فجاءه، واستمر يقول «تاحلي بوصور أهباط طالوس.. الخ» وقد إستوحى أدريان هذه الكلمات من شعر الأنيادة أسعفته به الذاكرة.

خدم الشاعر الذي كان يتقلب في قبره متطلبات هذا المترجم، فأسرع يعالج الحالة الطارئة من وراء القبر ويستجيب بمقطوعات أخرى من ڤرجيل؛ ربما تكلم دونكان وفرجينيا بلهجة مختلفة بعض الشيء. ولا يحتمل أن تكون فرجينيا قد إستفادت كثيراً من الفرصة السانحة لتباهي بيونانيتها؛ والواقع أنها تكلمت قليلاً جداً، وحين تكلمت شحنت صوتها بالخشونة ما وسعها

ذلك. قالت في ما بعد إنها وجدت من الصعب أن تتنكر في صوتها أيضاً. غمغم أحد الضباط قائلاً «إنهم يتكلمون لغة أعجمية غريبة»، لكن ضابطاً آخر أسرع لإنقاذ الموقف وجعلهم يرتعدون فرقاً بقوله إن على المدرعة بحاراً يستطيع أن يكلم الضيوف بلغتهم. ولسوء الحظ ـ لسوء الحظ جداً ـ كان هذا البحار مجازاً.

وهكذا مضوا يتجولون في سفينة القيادة، والأدميرال يشرح لهم ما وسعه الشرح عن المدافع ومساندها الدوارة وعدسات القياس، ثم يعرض إلى قسم المرضىٰ وغرفة اللاسلكي مخاطباً أدريان، وأدريان بدوره يكرر الشرح، بألفاظٍ من ڤرجيل وأحياناً من هومير، إلى الركب الملكي، حتى إنتهىٰ البيان فلم يبقَ من شيء يرونه. عند ذلك إعتذروا عن تناول المرطبات وعن تلقي التحية، وكانت عبارة عن إحدى وعشرين إطلاقة مدفع، ولعل إرتجاجاتها كانت، لو أطلقت، ستخلع الشوارب الزائفة من وجوه النبلاء الحبشيين. أشار أدريان أن الزيارة الرسمية قد انتهت، فتمت مرافقة الموكب الإمبراطوري عائداً إلى وايموث. في طريق عودتهم أصرّ كول، الذي أمضىٰ معظم وقت الزيارة في غرفة الربان على ظهر المدرعة، على أن يرتديْ الخدم الذين يخدمونهم في قمرتهم قفازات بيضاء.

حين عادت فرجينيا إلى منزلها في بلومز بيري في ساعة متأخرة عجبت الطاهية صوفي من هيأتها فضربت كفاً بكف متساءلةً ما الذي جرى وهي ترى سيدتها منهوكة القوى، منكوثة الشعر، مسودة الوجه، وذات شنبات أيضاً.

كان رأي معظم المشاركين في العملية يقضي بعدم إخبار الصحافة بشيء. فقد جرى إستقبالهم بحفاوة رائعة، وعوملوا بلطف بالغ حتى أنهم أحسوا بشعورٍ بالذنب، فالفكاهة كانت قد تجاوزت الحد، وكانت بحد ذاتها كافية.

لكن هذا الرأي لم يرق لكول. كان هذا يسعىٰ دائماً وراء الشهرة، وهذه هي فرصته لتحقيق ما يريد. ذهب إلى الجرائد يخبرها دون علمٍ من أصحابه.

نشرت الجرائد القصة، لا سيما الأكسپرس والميرور، بعناوين بارزة مع صورة فوتوغرافية ملأت صحائف بأكملها. جاء مندوبو الصحف إلى بلومز بيري فقد أثار إهتمامهم ما بلغهم من أحد الحبشيين كان في واقع الأمر فتاة «جميلة جداً، ذات قسمات كلاسيكية»؛ أراد المندوبون من فرجينيا أن تزودهم بقصتها فحصلوا عليها. أرادوا كذلك صورتها بفستان السهرة لكنهم لم يحصلوا عليها، على حد علمي. تراوح كتاب الإفتتاحيات بين السخط والتسلية، وكتب أصحاب الغيرة الوطنية من المستائين رسائل إلى الصحف؛ وبعد أن ملّت الصحافة من المسألة تناولها مجلس العموم[1].

---

(١) جرى أخذ ورد في فترة الأسئلة في جلستين الأولى في ٢٤ شباط ١٩١٠ والثانية في ٢ آذار. وكتبت فرجينيا سرداً للعملية قرأته على المعهد النسوي في رودميل في صيف سنة ١٩٤٠. وحين توفي الأدميرال سير وليم فيشر في سنة ١٩٣٧ كتبت فرجينيا رسالة إلى أثيل سمايث قالت فيها «نعم، أنا آسفة بشأن وليم، فقد كان آخر لقاءٍ لنا على ظهر المدرعة في ١٩١٠؛ لكنني كنت ملتحية. وأظنه إستاء من الأمر كثيراً».

دام العجب تسعة أيام ثم انتهى فنسي الجمهور الأمر. لكن ردود الفعل الخاصة لم تنته. كان معظم أصدقاء فرجينيا قد إعتبروا العملية كلها بمثابة مزحة رائعة. وأحست ڤانيسا بالإرتياح بعد أن انتهت المسألة بسلام ولكنها خشيت أن مشاركة فرجينيا مع هوراس كول فيها ستشجعه على الإكثار من زياراته لهم وهي تعتبره شخصاً إدعائياً ومضجراً. لكن آل ستيفن غضبوا أشد الغضب. تسلّم أدريان تعزيراً من إبن عمه هاري، فيه من التجبّر ما فيه، وكان هذا قاضياً في الهند وقد استمتع كثيراً بحكاية الزنجبار ولكنه شعر الآن شعوراً مختلفاً؛ فلئن كان من المؤنس خديعة أحد الذوات من رجال البلدية بانتحال صفة كاذبة (علماً أن رئيس بلدية كيمبردج كان صاحب دكان) فإن من غير اللائق الإستهزاء برجل من رجال البحرية - «وهو من رجال الشرف» - والإستخفاف به. وتسلمت فرجينيا رسالة من دوروثيا ستيفن أعلنت فيها أن العملية كانت سخيفة ونابية؛ وأضافت تقول إنها لن توبِّخ فرجينيا لكنها تشير فقط إلى أن من الواضح أن حياتها ليست مرضية أبداً وأنها بحاجة ماسة إلى الدين.

أما وليم فيشر وزملاؤه الضباط فقد كان رد فعلهم عنيفاً بشكل يناسب ما جرى. إن شرف البحرية يجب إنقاذه، ولا يمكن إنقاذه إلا بمعاقبة المشتركين في الخديعة. وبعد سلسلة من المحاولات الفاشلة ومن الحجج الخرقاء عن مسائل اللياقة وقواعد السلوك أفلح رجال البحرية في إقتياد دانكون غرانت بالقوة وسوقه إلى مركزٍ للشرطة. هناك خذلهم مظهر ذلك الرجل المسالم الذي جاء منتعلاً خفاً منزلياً تحفه الحيرة الشفافة مع ثقة بالنفس لا تخلو من شجاعة، فأطلق سراحه.

لم تكتب فرجينيا شيئاً عن «خديعة المدرعة» باستثناء السرد الذي تلته على المعهد النسوي في صيف ١٩٤٠، وباستثناء قصة قصيرة عنوانها A Society نشرت سنة ١٩٢١ (مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء»). في هذه القصة تصف فرجينيا فتاة تدعى روز «تزيّت بزيّ أمير حبشي وصعدت إلى ظهر باخرة من بواخر صاحب الجلالة». فلما إكتشف الربان الخدعة جاء يزورها متنكراً بزيّ شخص عادي من الذوات المهذبين، وطالب بضرورة رد الإعتبار للشرف المهان. إن الطريقة المضحكة جداً التي حصلت بها البحرية أولاً، ثم الفتاة روز، كلٌّ على ما يرضيه لا تستغرق في القصة أكثر من صفحة واحدة؛ ولكنّ مسألة الشرف الرجالي، والعنف والسخف الرجاليين، والأبهة الرجالية المطرزة بشرائط الذهب، ظلت كلها معها للبقية الباقية من حياتها.

لقد شاركت في المغامرة الحبشية من أجل المتعة؛ فخرجت منها بشعور جديد عن قسوة الرجال وسخافتهم. وأدى هذا الإدراك بدوره إلى تعزيز مشاعرها السياسية التي أخذت تتكون لديها.

كان عام ١٩١٠ من أعوام الأزمات في الشؤون العامة. فقد دخل الصراع بين مجلس اللوردات وبين الأغلبية المنتخبة مرحلته النهائية في كانون الثاني بإجراء إنتخابات عامة. ومنذ كانون الثاني ١٩٠٦ - حين ذهبت ڤانيسا وفرجينيا وجورج وجيرالد إلى ميدان الطرف الأغر: الفتاتان للهتاف إحتفالاً بنصر الأحرار العظيم والشابان لإستنكاره - عرفت فرجينيا أين تقف وإن على نحو غير دقيق التحديد؛ ولكنْ ثمة الآن عامل يعقد الأمور. إن فرجينيا ترجو هزيمة المحافظين؛ وهي بالتأكيد لم تأسف وهي ترى

كلايف يزاول دوراً فعالاً في السياسة لصالح الجانب الراديكالي؛ لكن معركته لم تكن معركتها تماماً، ففيما كان يتمتع كغيره من الرجال بحق الإقتراع كانت هي محرومة من هذا الحق شأنها شأن بنات جنسها. لذا فليس من الغريب أن نجدها في ربيع ١٩١٠ منصرفة إلى كتابة العناوين على المغلفات، الأمر الذي يكاد يكون دائماً هو قَدَر المتطوّع الفتيّ في القضايا السياسية. كان عملها ذاك لصالح حركة حق المرأة في الإقتراع، فقد كانت فرجينيا تتعاطف منذ زمن طويل مع قضية المرأة؛ ولكنْ، وبعد أن بيّنت جانيت كيس حجج العمل السياسي بقوة لا تدحض كتبت لها فرجينيا في ١ كانون الثاني ١٩١٠ تقول إنها لا يسعها لا جمع الأموال ولا إلقاء الخطب ولكنها تود أن تكون ذات نفع على نحو أكثر تواضعاً. إستنجدت جانيت كيس بهذه وبتلك من المشتغلات بقضية المرأة، فاقترحن على فرجينيا أن تكتب مثلاً شيئاً عن تاريخ حركة حق الإنتخاب في نيوزيلاندة أو أن تقوم بجمع ما كتب عن التمثيل النيابي أو ما أشبه. ويبدو أن فرجينيا فضلت كتابة العناوين على المغلفات.

لم يكن ذلك لأنها تحب هذا العمل ـ فقد كتبت تقول «إني أمضي الساعات وأنا أنسخ الأسماء على المغلفات كالآلة الصماء». ـ هذا وقد بدت السياسة لها، كالأعمال الخيرية، شيئاً لا يجتذب سوى من هو قليل الهمة ومغاير لبني البشر؛ ووجدت العمل في مكتب يعج بالشابات المتحمسات، المثقفات، وبالكتبة من ذوي الإحساس الأخوي، أشبه شيء بالعيش في رواية من تأليف إج. جي. ويلز H.G. Wells. مع هذا فقد قامت بعمل

غير قليل؛ بل أنها جلست على منصة الخطباء في الاجتماعات العامة، وبالرغم من انقطاعها عن العمل مدة من الـزمن بسبب المرض فقد عادت إليه في نهاية السنة.

في آذار نجد فرجينيا طريحة المرض وعلى حافة الجنون مرة أخرى، ولا أدري هل كان ذلك من جراء كتابـة العناوين على العدد الكثير جداً من المغلفات، أم من جراء الآثار التي نجمت عن «خديعة المدرعة»، أم ـ وهذا السبب هو الأكثر إحتمالاً ـ من جراء إصابتها بحالة من التوتر العصبي الحاد كانت تصيبها كلما أوشكت على الإنتهاء من كتابة روايةٍ ما (وكانت تظن حينئذٍ أنها تقارب الإنتهاء من رواءة ميليمبروسيا).

واستدعي الدكتور سافيج فوصف لها كعادته حياةً هادئة ونوماً مبكراً ومنتظماً مع كثير من الراحة. ذهبت مع الزوجين بيل إلى ستودلاند وحاولت أن تنفذ هناك أوامر الطبيب. بعد انتهاء ثلاثة أسابيع قام كلايف بإخبار ساكسون بأنها شفيت.

لكن شفاءها لم يكن جذرياً. فقد أفسدت مسرات لندن النفع الذي حققته ستودلاند بأسره؛ ما لبثت فرجينيا أن أخذت تقاسي من الصـداع ـ وتسميه خـدراً في الرأس ـ ومن الأرق والتهيـج العصبي وانعدام الشهية للطعام، وهذه هي الأعراض القديمة كلها بأقسىٰ أشكالها. إستدعي سافيج مرةً أخرى فأمرهـا مرةً أخـرى بمغادرة لندن وبأن تستريح.

إستأجر كلايف وڤانيسا بيتاً بـالقرب من كـانتربـري، وهناك أقاموا مع فرجينيا. وجهوا الدعوة إلى ساكسون لـلإنضمام إليهم

فلم يستطع تلبيتها، إلا أنه ربما عوّض عن لقائهم بما أرسلته إليه فرجينيا من رسائل من هناك، ذلك أنها كتبت له تقول:

«... أكتب لك للترويح عن نفسي لا لكي أسرك. المطر يتساقط والطيور لا تكف عن التغريد، وأبخرة الكبريت الحارة تتصاعد من الوديان، والبقرة الحمراء تخور في الحقل بحثاً عن عجلها. إن المرء يتوجه في ظروف كهذه إلى تشوسر لكي يتعلم شيئاً من عاداته قبل تناول الشاي. حاولت أن أقاوم المغريات فلم أستطع الإستمرار - أتناول الشكولاته من العلبة وأسبب القلق لشقيقتي. قبل ثلاثة أيام من بدء المطر جئنا بأحد الحدادين ليفتح نوافذنا. كان صدأ القرون قد ختم عليها. والآن لا يمكن لقوة إنسانية أن تغلقها. لذا فنحن نجلس معرضين للريح والبلل نهاراً؛ وفي الليل تغزونا زرافات الفراش الأبيض. إنها تلتوي مكتوية بلهب الشموع، فتحبو على ذيل تنورتي لتموت في فجوة ركبتي. ثمة شيء مريع لا يمكن الإفصاح عنه في شعور المخلوقات التي تفقد سيقانها. على أن ڤانيسا قد قامت بما في وسعها من أجلنا. فقد جاءتنا لا أدري من أين بإمرأة تأتي قبل أن نطلب منها لكي تخمد المواقد، وتذهب لكي تعثر على البيض بحثاً عنه في ساحة البلد العامة. قالت لها ڤانيسا على

الإفطار (لا شك أن السيد لوفيفر ذو عائلة كبيرة جداً) وأشارت إلى صورة لوعّاظ الأناجيل معلقة على الحائط. وقبل أيام جاء الشيخ المسكين، السيد لوفيفر نفسه، وهو مالك هذا البيت، قائلاً إنه قضىٰ أسعد أيامه هنا، لكن الزمان قد تبدّل. ولمّح إلى وفاة زوجته الكثيرة الإنجاب، وكانت وفاتها في ظروف محزنة قال إنه سيشرحها لنا ذات يوم. هنا فقد كل من ڤانيسا وكلايف أعصابهما فجأة وأظهرا قسوتهما وما فيها من عدم تسامح بصورة جعلت ذلك الشيخ يخرج باكياً تقوده إبنته (وكانت هي نفسها منفعلة جداً).

ليتك تكتب لي بلغة من اللغات الحية [وكان ساكسون يكتب عادةً باللاتينية عل نحوٍ مزعج] وأفضّل أن تكون رسالة رومانسية، وعندئذٍ سأتناول إفطاراً شهياً للمرة الأولى»...

حمل ساكسون حكاية فرجينيا عن قسوة الزوجين بيل تجاه السيد لوفيفر على محمل الجد التام، أو تصنع ذلك، ورأىٰ أن كلايف وڤانيسا هما حقاً من القساة الذين لا يتسامحون تجاه عواطف الغير الجائشة. شعرت ڤانيسا بأنها ملزمة بالإحتجاج:

«إن فرجينيا، منذ شبابها الباكر، جعلت من واجبها أن تخلق لي شخصية معينة حسب هواها فنجحت في فرضها على الناس حتى أنهم أخذوا يظنون أن حكاياتها الخرقاء عني هي حكايات

صحيحة بالتأكيد، لأن فرجينيا تجعلها حكايات تنسجم مع شخصيتي التي اختلقتها».

وسواءً كان هذا حقاً أو باطلاً (وهناك عادةً ذرة من حقيقة في مختلقات فرجينيا، ولكنها ليست أكثر من ذرة) فإن فرجينيا كانت على علاقة طيبة مع الزوجين بيل وخاصة مع حموّها «القاسي غير المتسامح». لقد ترك وضعها التعيس أثره في نفسه فهو يراعيها بشكل خاص ويلتفت إليها، ويكتب لها (حين يكون بعيداً) رسائل عاطفية فاتنة، كما أنه يداهنها ويغازلها حين يكونان معاً. إن اهتمامه الحقيقي بصحتها وعدم وجود منافس يثير فيه الغيرة جعلتهما على علاقة ودية صحيحة أهنأ كثيراً مما كانت عليه منذ أمدٍ طويل.

كان كلايف رفيقاً لطيفاً يثير الحيوية في محيطه، ولعل فرجينيا كانت بحاجة إلى شيء مهدّىء كهذا في ذلك الوقت؛ ولكنْ صار جلياً بعد أسبوعين أن صحتها لا تتحسن أبداً. عادت ڤانيسا إلى لندن لتخبر سافيج أن فرجينيا لا تتماثل للشفاء؛ والأنكى من هذا أنها اضطرت أن تنوّه له بأنها لن تتمكن من العناية بفرجينيا بعد الآن، فهي تتوقع طفلاً آخر في تموز. وبعد تردد كبير كتبت إلى كل من كلايف وفرجينيا في ٢٣ حزيران تخبرهما أن سافيج يصرّ على قضاء فترة من الراحة التامة في دار للتمريض في تويكنهام Twickenham.

تقبلت فرجينيا هذا القرار بامتعاض ولكن بإذعان لشيءٍ لا مفر منه. أما الذي كانت تتمناه فهو لو أن سافيج كان قد أصرّ على هذا منذ الإبتداء. كانت تريد البدء بالعلاج سريعاً، لكي تنتهي

من الأمر وتتعافىٰ مرة أخرى. أرسل لها جورج دكوورث رسالة لطيفة، لكنها سخيفة؛ فهو يستهجن سوء صحتها ـ لا ريب أنها كانت تدخن كثيراً جداً، لكي تطرد البعوض! ـ دعاها إلى منزله الريفي. فأخذت تفكر بإرسال جواب له، وبما يتضمنه مثل هذا الجواب:

«سأقول له إنني أتوقع أن أبدأ المخاض في الشهر القادم. عندئذٍ سيضرب أخماساً بأسداس. سيشتبه بساكسون. ويتخذ خطوات عاجلة سعياً لترقيته في وظيفته. ثم يهرع إلى برايتون ليفاوض والد ساكسون على تسويةٍ ما. سيكون بمنتهىٰ الكياسة بطبيعة الحال»...

لكن مثل هذه الدعابة لا تكاد تخفف شيئاً من المستقبل المقفر لشهرٍ من الحبس في مصحٍ هو في حقيقته ضرب من دارٍ للمجانين. هنا ستقنن رسائلها وقراءاتها وزوارها تقنيناً شديداً، وتجبر على التزام السرير في غرفة مظلمة، وعلى تناول طعام صحي، وتحرم من تلك الملذات الاجتماعية كلها التي تحفل بها العاصمة لندن. ما أن واجهت إحتمال إصابتها بالجنون حتى تقبلت مصيرها. لكنها تقبلته بروحٍ مكفهرة، متمردة.

كانت فرجينيا في مرضها صعبة المراس جداً. وكان على ڤانيسا، التي أقعدها الطفل الذي كان متوقعاً في أواخر تموز لكنه لم يظهر حتى ١٩ آب، أن تشن حرباً متواصلة عن طريق البريد. كان عليها أن توبّخ، أن تستحث، أن تناشد، لكي تجعل شقيقتها ترعوي إن أمكن هذا على الإطلاق. أما فرجينيا، وكانت ضجرة

حد الفناء وقانطة حد اليأس المطبق، وأحياناً جامحة الحواس بشأن صحتها، فهي حاذقة كل الحذق في استخدام فتنتها الأسرة للتأثير في المحيطين بها من المختصين بالعلاج، عسى أن تكسبهم إلى جانبها ليكونوا حلفاء في ما تدبره ضد ما يتخذ من إجراءات في المصح. كانت فرجينيا قادرة على تسخر الدكتور سافيج لصالحها، فسهل عليها تسخير صاحبة المصح، والممرضة الآنسة برادبيري التي ظنتها ڤانيسا من مجنونات الدار وكانت في حقيقة الأمر مجازة في التمريض رسمياً. قالت فرجينيا عنهما وعن الأخريات إنهن نسوة طيبات، فاتنات، ولكنْ أفسدهن الدين. كتبت تقول: «إنهن يقدسن مواهبي، وإن كان الله قد تركني في الظلام. وهن يتساءلن دائماً ما الذي يبغيه الله؟ إن العقل المتدين عقل مذهل». لكنهن كن قد ذهلن بها هي ذاتها، وكانت صاحبة المصح قد أسرتها فتنة فرجينيا على نحو خاص، كما لاحظ كلايف الذي سمح له بزيارتها بين حين وحين في تلك الفترة التعيسة من تموز وآب. وكتبت فرجينيا: «إن صاحبة المصح، الآنسة توماس، قد تبدلت فتحولت إلى إمرأة أخرى... وحياتها التي كانت مقفرة قد أضحت فجأةً مثيرة وعزيزة... كل شيء يبدو مثيراً لها وممتعاً... إن حياتها ذاتها، وقد تلونت بوجود مريضتها وبكلامها العابر، غدت حياة شاعرية... شعرت للمرة الأولى في حياتها أنها ذات شأن؛ لقد أدركت وجودها ذاته... وصار للأشياء التافهة بأجمعها التي تكوّن ذلك الوجود مغزىً خاصاً أيضاً. لقد سحرتها الساحرة».

كان هذا كله شيئاً ساراً بذاته، وسترد الآنسة توماس فضل

فرجينيا مضاعفاً بكثيرٍ من الإخلاص العملي. لكن هذا جعل من الأسهل كذلك على مريضتها أن تتصرف بحرية على نحوٍ غير معهود، فهي تجوب الحديقة بلا شيء يسترها سوى غطاء السرير، وتخالف القواعد الصارمة بشأن الإستراحة والطعام، وتخطط لعودة مفاجئة إلى لندن، وإن لم تنفذ ذلك. أما حين بُذلت المحاولات لجعلها تلتزم بالنظام فقد صارت فرجينيا تتهم أختها بالتآمر ضدها مع الآنسة توماس، وقالت عن هذه الأخيرة إنها «شيطانة سوداء»، واتهمت الجميع بأنهم كلهم يتآمرون من وراء ظهرها؛ وكتبت تقول أيضاً: «إنه لشيء كئيب، كريه، أن أكون هنا وحدي»، وهي لا تستطيع إحتمال المزيد، فأخذت تهدد بإلقاء نفسها من النافذة.

أجابتها ڤانيسا وقد نفد صبرها. إنها تدرك تماماً فظاعة الوضع المحيط بأختها؛ ولكنْ هل تريد فرجينيا أن تظل مقعدة في البقية الباقية من حياتها؟ (وڤانيسا تتجنب دائماً كلمة «مجنونة» المفزعة). المفروض أنها تريد العكس، وأنها ستحقق ما تريد؛ وبوسعها أن تلتف حول مساعي الدكتور سافيج الذي لا يستطيع أن يفرض عليها فعل شيءٍ لا تريد أن تفعله؛ ولكنها إذا أصرت على العودة إلى لندن فستنتكس مرةً أخرى. مع هذا فإن عليها أن تتخذ قرارها لنفسها، هذا ولو أن المرء، كما قالت الآنسة توماس، «لا يسعه إلا أن يراعي مصلحتها مراعاة صادقة».

أخيراً أضطُرت فرجينيا إلى الإقلاع عن ارتكاب حماقات متهورة. كانت ڤانيسا، وهي تنتظر المخاض في بلومز بيري، تكتب يومياً وتعظ أختها بالصبر، وتؤكد أن لندن كئيبة جداً،

وتبدي أساها عما تعانيه هي ذاتها وعما يساورها من شكوك. كتبت لها تقول: «آه يا عزيزتي، سيكون شيئاً لطيفاً إذا تماثلت إلى الشفاء مرة أخرى... أنا لا أحدث جَلَبة لا موجب لها بشأنك... ولم أقم بذلك إلا قليلاً جداً في السنوات الثلاث الأخيرة».

بقيت فرجينيا في تويكنهام حتى أواسط آب، وبعد أن نالت قسطاً من الراحة الشاملة حاولت أن تنتفع من مزاولة نشاطٍ صحي. ذهبت إلى كورنوول؛ ولم تكن بحالة تسمح لها بالذهاب بمفردها، فرافقتها الآنسة توماس، المخلصة لها، وهناك كانتا تبددان الضجر بممارسة السير العنيف. ثم بدأت فرجينيا تبدي تذمرها من حياة تحسبها حياة حيوانية بمعنىٰ الكلمة، حياة خالية تماماً من الإثارة العقلية والثقافية. لكن الريف في كورنوول هو ريفها المفضل فانتفعت منه؛ أخذت تشعر بالإبلال من المرض وإن كانت تعاودها بين حين وحين ليالٍ سيئة ونوبات من الصداع. وعندما عادت إلى لندن في أوائل أيلول لرؤية الطفل الجديد حسبت ڤانيسا أنها تحسنت كثيراً. لكن حالتها العقلية كانت محيِّرة بعض الشيء. كانت تبدو واثقة من نفسها جداً، منتعشة المعنويات ومتحمسة للمستقبل، وتواقة كذلك إلى الشهرة وإلى الزواج؛ في الوقت عينه كانت تزعجها السفاسف فتبالغ في أهميتها ولا تستطيع التخلي عن ذلك.

كان لشفائها أن يتم في ستودلاند مع الزوجين بيل، وقد تم فعلاً بمعنىٰ من المعاني؛ مع هذا كان كلايف وفرجينيا يستفز أحدهما الآخر حد الغضب الشديد، وكان عليهما تجنب ذلك

(ويقع اللوم في هذا على كلايف بالدرجة الأولى). وسبب المشكلة دائماً هو ليتون، فقد ظن كلايف أن هذا صار متكبراً على نحوٍ لا يحتمل؛ كان الرجل على علاقة حميمة مع فرجينيا وڤانيسا فهو يبثهما أسراره ولا يعير إلتفاتاً إلى كلايف نفسه. شعر كلايف أن هذا وضع لا يطاق فأعلن أن ليتون لن يرحب به في المستقبل في منزلهم في بلومز بيري. هذه المناكفات أسخطت فرجينيا سخطاً عظيماً، ووجد كلاهما أن من الصعب تجنب الأمر.

غير أن ڤانيسا تمكنت من تحقيق هدوء البال والمحافظة عليه حين كانوا على شاطىء البحر. كانوا منشغلين هناك بالأطفال وبالزائرين الكثيرين، ومنهم ساكسون ومارجري (صغرى بنات آل ستراجي) وسدني ووترلو S. Waterlow وهو من مثقفي كيمبردج وصديق لكلايف، وقد وجدته فرجينيا لطيفاً، مقبولاً، لكنه غير مثير للإهتمام. في غضون ذلك ذهب كلايف إلى باريس، فزال التوتر العصبي لدى الأختين فكانتا تجلسان معاً للبحث طويلاً في موضوعهما المفضل، وهو بالطبع فرجينيا ذاتها. تكلمت هذه طويلاً عن ليتون؛ إنهما سيلتقيان مرة أخرى في الخريف، لكن علاقتهما ستعتبر علاقة عذرية كلياً. أما علاقتها المبهمة، غير القطعية، مع هلتون يونغ فلم تزل تشغل بالها وتتعب تفكيرها؛ غير أن علاقاتها مع كلايف الآن هي برأيها في حالة مرضية. أما وضع العلاقات في السابق فأظنه قد ترك دون بحث.

أخيراً عادت فرجينيا إلى منزلها في العاصمة في أواسط تشرين الأول لتباشر حياتها في لندن بعد أن تركتها سبعة أشهر

كاملة. لعلها كانت تظن أنها تماثلت إلى الشفاء التام؛ لكن طبيبها الدكتور سافيج وممرضتها الآنسة توماس ظلا يخشيان من تأثير المدينة والسهر والصحبة المتنوعة والإثارة الكثيرة على مريضتهما، فقدما ما قدماه من التحذيرات المناسبة للحال، ووضعت الآنسة توماس قائمة مفصلة بقواعد بعينها لتلتزم فرجينيا بها. كانت ڤانيسا تدرك بدورها أن صحة الأخت لم تزل قلقة، لكن هذه لم تكن تدرك ذلك. وفي ظني أن كلاماً جرى عن الفوائد التي قد تجنيها فرجينيا لو وجدت لنفسها مكاناً ما هادئاً، قريباً من لندن، يمكنها أن تلجأ إليه عند الضرورة. وعلى هذا بدأت تفتش، في موسم عيد الميلاد لسنة ١٩١٠، عن بيت في الريف. وعثرت على ما أرادت في قرية فيرل Firle في ساسيكس؛ لم يكن من الممكن العثور على مكان أهدأ من هذا. على أن هذا البيت الذي اختارته لتسكن فيه لم يكن منسجماً مع الطابع البسيط لشارع القرية؛ فهو فيلّا جديدة، حمراء، ذات سقف مثلث. سمته «بيت تالاند الصغير» ذلك أنها لم تنسَ مفاتن سانت آيفز، وكانت أجمل من هذا الموقع بكثير. مع هذا أثار جمال ساسيكس إعجابها، فكان إستئجارها لبيت تالاند الصغير بداية لعلاقة بهذه المنطقة ستستمر مدى الحياة.

إنتقلت إلى هذه «العشة» الريفية في أوائل ١٩١١. وقد عاونتها ڤانيسا لتجعل منها سكناً مريحاً، وكانت تأتي إليها مراراً بصحبة أصدقاء آخرين خلال الربيع والصيف من تلك السنة. ويبدو أن المكان كان له تأثير علاجي شافٍ؛ فكانت تستمتع بالعيش هناك، وتستمتع بالمشي على السفوح، فأخذت صحتها

بالتحسن حتى أنها واصلت الكتابة في روايتها وعملت أيضاً في حركة حق الإقتراع. كانت تقيم في بيت تالاند الصغير برضا نفسي تام، ثم حملها القدر فجأةً، في نيسان ۱۹۱۱، إلى شواطىء پروپونتيس Propontis.

ولكي نفهم سبب هذه الرحلة غير المقصودة يجب أن نعود إلى سنة ۱۹۱۰. ففي أوائل تلك السنة عاد كلايف وڤانيسا إلى لندن، بعد زيارة لكيمبردج، وهما بصحبة روجر فراي Roger Fry. لم يكن كلايف وفراي على معرفةٍ أحدهما بالآخر؛ أما الآن فقد اكتشفا إهتمامات مشتركة تثير حماساتهما معاً. وقد أعجب كلايف بالصديق الجديد الذي أثار اهتمامه حتى أنه حسب روجر فراي من أبرز من التقاهم منذ أن ترك كيمبردج؛ ونتيجةً لذلك أضحىٰ هذا القادم الجديد صديقاً حميماً مقرباً، بل صار في واقع الأمر من عناصر بلومز بيري.

كان روجر فراي في الرابعة والأربعين، وفي مفترق الطرق من حياته العاطفية والعقلية. كانت زوجته مصابة بالجنون المطبق الذي لا يرجىٰ شفاؤه، وهي تقيم في إحدى المصحات العقلية. بعد أن درس فراي العلوم في كيمبردج تحوّل إلى الفنون فغدا رساماً محافظاً وعضواً في «نادي الفن الإنكليزي الجديد» فضلاً عن كونه عالماً محترماً وجمّاعاً للتحف، وهي مزايا زاولها بصفته مشترياً لمتحف متروبوليتان في نيويورك، وكان قد استقال من هذا العمل مؤخراً. كان في الحقيقة شخصية محترمة جداً ويتمتع بمركز مرموق، إلى أن حان خريف سنة ۱۹۱۰ حين ظنه كثير من أصدقائه القدامىٰ ومعجبيه أنه قد تخلّىٰ عن مداركه، وظنه أعداؤه

أنه قد دخل عامداً متعمداً وبروح شريرة في اتفاق جنائي مع المحتالين والسفلة والمجرمين في عالم باريس السفلي، ولا لسببٍ إلا لأنه طلب من الجمهور البريطاني أن ينظر إلى أعمال الرسام سيزان ويتذوقها.

ففي خلال الجدل الضاري الذي نشب عقب افتتاح «المعرض» في تشرين الثاني ١٩١٠، ويعرف الآن باسم «المعرض الأول لما بعد الإنطباعيين»، وكان روجر فراي قد أخذ على عاتقه مسؤولية إقامته وتحمل اللوم من جرائه، كان كلايف وڤانيسا من مؤيديه المتحمسين. لم تكن فرجينيا عميقة الاهتمام برسامي ما بعد الانطباعيين؛ ولكنْ، وبعد أن أصبح روجر زائراً مستديماً في بلومز بيري لم يكن بوسعها أن تتجاهل الضجة التي حدثت. إن الجو الذي أشاعه روجر والمعرض معاً جعل من أصحابها أكثر ميلاً نحو التجاذب وأكثر إدراكاً لكونهم من الثوريين الذين يشيع صيتهم السيّىء في الآفاق. لقد أمست بلومز بيري موضوعاً لاستهجان الجمهور، ومركزاً للمتذمرين والمتنكرين بزي الأباطرة الحبشيين، وأنصار المذهب الجمالي الذين يصعب فهمهم. كذلك أخذ الطابع الثقافي لبلومز بيري بالتغير. لم تعد مذاهب جي. إي. مور على تلك الأهمية التي كانت عليها بعد أن أصبح سيزان هو موضوع المحادثة الرئيسي، وأخذ ليتون ستراجي يبدو أقل بروزاً عند مقارنته بروجر فراي.

وقد تشكلت، بتأثيرٍ من روجر بلا شك، زمرة صغيرة قامت بزيارةٍ لموطن الفن البيزنطي في بروصه بتركيا. وانضم إليها كلايف وڤانيسا في أوائل نيسان ١٩١١ إذ التحقا بنورتون .H.T.J

Norton (عالم رياضي من كيمبردج) وبروجر نفسه في بروكسل، ومن هناك استقلوا القطار جميعاً إلى أسطنبول. أقبل كلايف على هذه الرحلة تساوره الشكوك. إن صحة ڤانيسا لم تكن على ما يرام، وهذا أمر مقلق؛ لكنّ شعوره بالغيرة نحو فرجينيا كان مدعاة إنزعاجٍ أعمق في نفسه؛ كان يحس «بتنبوء غير عقلاني» بأن شيئاً ما سيحدث لها بغيابه؛ فقد تغرم بأحدٍ ما أو يغرم أحدٌ ما بها. توسل إليها أن تُطمئنه بأن «زاويته الصغيرة» في قلبها ستظل في مكانها الأمين.

وحدث الكثير إبّان سفر كلايف؛ إنما ليس لفرجينيا. ففي بروصه Broussa أصيبت ڤانيسا بنوبات من الغيبوبة؛ ثم انهارت. كانت تلك البلدة في ذلك الزمان نائية جداً، يستغرق الوصول إليها يوماً كاملاً من اسطنبول ـ وكان النزل عتيقاً أكل الدهر عليه وشرب، ولا يوجد من رجال المهنة الطبية سوى صيدلي واحد ـ. وتخيلت فرجينيا وهي تقرأ ما بين سطور كلايف ـ في رسائل حاول كلايف أن يجعلها مطمئنة ما وسعه ذلك ـ أن ما يحدث هو تكرار فظيع لكابوس ١٩٠٦ فتخلت عن خططها كلها وأقلعت عبر أوربا لتكون إلى جانب أختها في تركيا.

في بروصه وجدت فرجينيا أن نورتون كان في حالة قنوط، وكلايف في حالة هياج قلق وعقيم، وڤانيسا في حالة تفاهة، وروجر يتولى القيادة. كان في أروع أحواله، فهو ينظم شؤون الطباخين والمترجمين، وينفذ ما يريده بقوة حجته حاملاً قنينة الدواء بيد وكتاب المحادثة التركية بأخرى، مداهناً السيّاح الإنكليز، صانعاً محفّة لنقل المرضىٰ، ومبقياً لنفسه على الدوام ما

يكفي من الوقت لرسمٍ سريع بين حين وحين، ومنقذاً، باعتقاد فرجينيا، حياة ڤانيسا بحيويته وتعاطفه وحسّه العملي السليم.

وهناك عرفت فرجينيا هذا الرجـل معرفـة جيدة حقـاً. ففي خلال الأيام القلائل التي ظل فيها أولئك الصحاب في بروصه، وهم ينتظرون إبلال ڤانيسا لكي تستطيع السفر، تمكنت فرجينيا من تقدير طبيعة روجر الغنية جداً. إن محادثته وفعاليته واهتمامه بالأفكار بل بكل ما يرى أو يسمع، قد أدهشهـا وأثّر فيهـا. إن روجر ما هو إلا صرح من القوة. بل أكثر من ذلك، فهو ينبوع دائم من المتعة.

ومع أن روجر نفسه كان يعاني من مرض عـرق النسا فـإنه تمكن أن يقود مريضته وصحبها فيأتي بهم، هم ومجموعة كبيرة من الرسوم والخزفيات والمنسوجات، إلى انكلتـرا بسلام. لكن شفاء ڤانسا كان بطيئاً. وقد تعقد مرضها بـأعراض عصبيـة فلم تسرد صحتها إلا بعد شهور متعددة. كان هذا بالطبع مصدر تعاسة لفرجينيا، فهي تعول على أختها كثيـراً في شؤون شتىٰ. ولكن مصائر ڤانيسا أثرت بفرجينيا على نحوٍ آخر؛ فما أن عـادوا إلى انكلترا حتى أدرك روجر وڤانيسا أنهما قد شغفـا حباً. لم تبح ڤانيسا بسرّها إلى فرجينيا؛ فهي بنـظرها لا تحفظ سـراً في أمرٍ كهذا؛ لكن فرجينيا نفسها كانت تدرك ما يجري، وشعـرت في الحال بأن موقف التسامح الذي تبديه ڤانيسا تجاه مغازلات كلايف لم يعد ناشئاً عن تدبير بل عن عاطفة. كان غرام كلايف بفرجينيا مصدر ألم دفين لها حتى ذلـك الحين. أما الآن فهـو شيء لا تكترث به. بل ستكون ڤانيسا مبتهجة وهي ترى كلايف وقد إستبد

به الهوى بأختها كلياً، إنما كان هذا التبدل يجري في وقتٍ كانت العلاقة بين كلايف وفرجينيا آخذة بالفتور، فهكذا يكون فساد الأمور ومفارقاتها. ولعل ڤانيسا خشيت في وقتٍ ما - كما يتراءىٰ لي - أن تجد شقيقتها التي تحبها كثيراً وتثير سخطها كثيراً وهي تسلط فتنتها الأسرة على روجر بالذات. ولكنْ، لم يكن هناك مبرر للفزع. لم يكن شعور فرجينيا نحو روجر أكثر من شغف محض، وكان هذا يعتبرها منذ الإبتداء ذات عبقرية لا شك فيها، ولكن عواطفه كانت تجري في إتجاه آخر، وهي عواطف لن تتبدل أمداً طويلاً، وكان هذا أمراً تعيساً جداً له. أما فرجينيا فكان عندها ما يكفي لتشغل به عقلها وقلبها معاً.

وعلى العموم كان انحلال الزوجية بين ڤانيسا وكلايف، أو بالأحرى تحولها إلى اتحاد في الصداقة، ذلك الانحلال الذي تحقق ببطء خلال السنوات ١٩١١ - ١٩١٤، قد أدىٰ إلى تخفيف التوتر بين الأختين، وإلى انحلال بطيء (الذي لم يكن كلياً تماماً قط) في علاقة فرجينيا الطويلة، المضطربة، مع كلايف. لعل هذا الانحلال خلق كذلك وضعاً تستطيع فرجينيا فيه أن تبدأ بالتفكير بزواجها هي ذاتها بسهولة أكبر، إذ لم تعد مشغولة البال بزوجية أختها كما كان حالها في الماضي. لم تعد بها حاجة إلى أن تحسد الحياة المنزلية على الزوجين بيل كما كانت تحسدها؛ تلك الحياة لم تعد قائمة، والأمور أخذت تتغير.

كانت مجموعة بلومز بيري قد أصبحت في ١٩٠٨ إباحية في كلامها فأمست في ١٩١٠ إباحية في سلوكها، ولم تعد هذه الإباحية حكراً على عناصرها الشاذة جنسياً من الرجال. قالت

فرجينيا ذات مرة إن الطبيعة البشرية تبدلت في وقتٍ ما من كانون الأول ١٩١٠، وهي نادراً ما تكون دقيقة في استعمالها للتواريخ، ولكن من الصحيح القول بأن العالم (أو في الأقل الجزء البسيط الذي يخصها منه) كان يتبدل في ذلك الوقت. ثمة أمور أخذت تحصل كان من شأنها أن تدهش كثيراً الآنسة ستيفن العذرية التي نعرفها في عام ١٩٠٧. كانت ڤانيسا، كما هي العادة، هي التي تشق الطريق فتضرب المثل؛ فقد اقترحت، ولا أدري إلى أي حد من الجدية، تأسيس جمعية متحررة يتمتع فيها الجميع بالحرية الجنسية. وما كان العالم سيدهش من سماع هذا؛ فقد ذهبت ڤانيسا وفرجينيا إلى الحفلة الراقصة لما بعد الإنطباعيين وهما، كالفتيات اللائي رسمهن غوغان، بأكتاف عارية وسيقان عارية، بل ظهرتا بنظر السيدات الحانقات عاريتين تماماً فخرجن من الحفلة إحتجاجاً. وتهامس الناس أن ڤانيسا ومانيارد كينز تضاجعا في منزلها علناً وسط غرفة الإستقبال المكتظة بالزوار، وهي حكاية غير محتملة الوقوع لا لشيء إلا لأن السيد كينز كان ذا اهتمامات أخرى. وأعتقد أن هناك عنصراً من عناصر التبجح في مظاهر الإقدام التي كانت تبديها ڤانيسا في الفوضوية الجنسية.

في حفلةٍ أشد طيشاً، من الحفلات التي كانت تقام في بلومز بيري، رقصت ڤانيسا بحماسة فنضت عنها معظم ملابسها وأخذت تدور وتدور وهي عارية إلى الخصر، وكان الرسام الفرنسي هنري دوسيه H. Doucet حاضراً فقال، ربما بشيءٍ من الخيبة: «في فرنسا ينتهي هذا بالعناق»؛ ولكنه لم ينته كذلك؛ فلعبة الإباحية ظلت لعبة محض. كان من المتفق عليه أن الجنس لم يعد

بحاجة إلى تقديسه بالزواج، بل يجب تقديسه بالعاطفة. كان هذا هو المنفذ الذي نفذت منه فرجينيا. فالذي كانت تريده حقاً إنما هو إمرىء تستطيع أن تحس نحوِه بالعاطفة. غير أنها تسلمت في تموز عرضاً جديداً بالزواج ـ من نمطٍ ما.

كان وولتر لامب كما نعرف من الذين وُجدوا في ستود لاند في ١٩٠٩، كما كان زائراً مواظباً في بلومز بيري، وقد ظل يسعىٰ وراء صحبة فرجينيا. في تموز طلب منها أن تشاركه في رحلة إلى رجموند پارك. كانت هي الشاهدة الوحيدة، ولا مناص لنا من الإستشهاد بروايتها لما جرى كما ضمنتها في رسالة لڤانيسا يمكن تأريخها بـ ٢١ تموز ١٩١١.

«رقم ٢٩ ميدان فيتنر روي

الجمعة

أيتها الحبيبة.

إن الكتابة تحتاج إلى إخلاص كبير، إذ ان الحر فظيع.

لقد قمنا برحلتنا العظيمة أمس. وكان كل شيء من قبيل النشاز. فأولاً كان الوضع متوتراً؛ كنا قد استلقينا تحت الأشجار وأخذنا نبحث في مشروع ميدان بدفورد[1]. ثم بدأنا نمشي فأخذ هو يندب

---

(١) وهو مشروع يتعلق بفتح بيت جماعي، يشترك سكانه بالنفقات، في ميدان بدفورد، وقد تحقق في ما بعد في ميدان برونزويك كما سيأتي.

فقدان النفوس النبيلة. بحثنا في الحب والمرأة بشكل تجريدي. أخيراً جلس وقال (هل أحببتِ أحداً أبداً)؟ سألته إن كان يعرف عن موضوع ليتون. قال (أخبرني كلايف عن ذلك كثيراً) الأمر الذي أغضبني، ولكن لا حيلة لي فيه. ثم قلت سأخبره عن هذا الموضوع إذا أراد حقاً وليس من باب حب الإستطلاع فقط. قال يريد أن يكتشف ما أشعر به وسيسره أن يسمع كل شيء. عرضت له كلاماً تجريدياً. فقال (هل تريدين أن تنجبي الأطفال وأن تحبي بالطريقة الطبيعية)؟ قلت نعم. قال أنا أهتم بك كثيراً، فقلت لكنك سعيد تماماً. قال هناك تعقيدات فظيعة. قلت ماذا؟ قال أنت تعيشين في (خلية زنابير)، وأضاف أن الزواج في غاية الصعوبة، فهل ستتيحين لي أن أنتظر؟ لا تعجّليني. قلت (ما من سبب يمنعنا أن نكون أصدقاء ـ فلماذا نغيّر الأوضاع ونتهيّج)؟ قال (إن الأمر رائع بالطبع كما هو عليه).

ثم مضينا نثرثر: فهمت أنه يحس بأنه لا يستطيع أن يتيح لنفسه أن يحب لأنه يشك بشعوري؛ كما أنه متحيّر بشأن بعض جوانب شخصيتي. قال إني أعقد الأمور وقد أنقلب عليه بضراوة بسبب أخطائه. وقال: أنا أقر بأنانيتي العظيمة وباستغراقي في عملي وبغروري وبرذائلي كلها. وقال أيضاً إن كلايف حدثه عني وأخبره

بقصص رهيبة لكي يصور له أخطائي أنا (ڤانيسا: أستحلفك ألا تقولي هذا الكلام إلى أحد). قلت إني أوده وأحسب أن بوسعنا أن نكون أصدقاء. حاولت أن أجعل هذا واضحاً. من ثم تكلم كثيراً عنك ـ ما أنبلك وما أروعك ـ وكم تفزعيه ـ وكم يود التحدث إليك، وكيف أنه يضمر لك حباً صوفياً الخ الخ. تكلمنا عن أمور عمومية بعد ذلك ـ عن إصابته بالنقرس مثلاً كلاماً كثيراً ـ ثم تناولنا الشاي وذهبنا إلى البيت، وبعد ذلك ذهبنا إلى الأوبرا. كان هناك جمهور هائل من المتمدنين ـ آل سانغر، فورستر، روبيرت بروك، كاترين كوكس، جيمز ستراجي، ليونارد وولف[1] الخ. سار وولتر معي إلى البت ودخل وشرب هنا إذ كان أدريان في الخارج. زبدأ يتكلم مرة أخرى عن علاقتنا وقال إنه يرغب في أن يعيش بالقرب مني، في الخريف، لكنه لم يضف كثيراً. كان الأمر متعباً، لأنه يحاول دائماً أن يكتشف شعوري وأنا لا أستطيع سوى الكلام عن جمال الصداقة. بالطبع وددته أحسن من أي وقت مضىٰ، إذ كان صريحاً جداً وقد تحسست كثيراً حقاً (إلا إذا كنت من الغرور بحيث يتعذر عليّ الحكم). لكن المسألة تركت على حالها في وضع غير مريح. إنه يريد المجيء إلى قرية فيرل في أيلول. أنا

---

(١) كان هذا قد عاد من سيلان في حزيران.

أوده فعلاً، لكنّ تصوُّري لمحادثات طويلة جداً معه تروّعني نوعاً ما.

ثمة شيء محزن فيه. إنه يخشى كل الخشية أن يظهر بمظهر الأحمق، ولكنه يدرك أن تحفظه هذا شيء أخرق قليلاً. أظن أنني قلت لك كل الذي أتذكره ـ أو زبدته في الأقل. وسأتغاضىٰ عن ذكر الإطراءات الأخرى التي قالها عنك. آه كم أنا مأخوذة بروجر! كل التهذيب! ونحن في عصر ما بعد الانطباعيين.

بالمناسبة، آخر ما قاله ولتر لي إنه لا يرى فيّ خطأً واحداً. قلت (حتى ولا باعتباري زوجة)؟ فأجاب (نعم، حتى ولا كزوجة). في رأيي إنه يحبني؛ ولكن يجب أن تكتمي ذلك.

لديّ مشاكل كبيرة بشأن المواعيد. البعض يريد أن يأتي، والبعض يريد أن أذهب، فلا أستطيع. إنها بصورة عامة خلية زنابير كما قال ولتر. وهو يعني أننا نعيش وسط المكائد مما يثير همومه. سألني هل سأغازل أحداً إذا تزوجت؟ قلت: ليس إذا كنت أحب زوجي. وكانت هذه وقاحة مني. شبهتك على الغداء بغابة في جنوب أمريكا حيث تنام الفهود تحت الأشجار، وقدمت رؤية عن حبنا، أي حبك لي. ودمت».

كانت فرجينيا مصيبة في افتراضها بأن ولتر لامب يحبها.

وقد عبّر عن عاطفته برسائل طويلة وسخيفة بعض الشيء، لكن قضيته كانت يائسة. إنه لطيف ولكنه لا قدرة له على التأثير في الغير تأثيراً حسناً، والشعور الوحيد الذي أثاره في فرجينيا كان السخط ضد كلايف. إنفجرت فرجينيا تعبّر عن سخطها هذا في رسالة غاضبة إلى ڤانيسا، فحاولت هذه كعادتها المحافظة على الهدوء. ثم تورط كلايف وولتر وسدني ووترلو في مناكفة ثلاثية الأطراف عمن قال ماذا عن فرجينيا (كانت تعيش في خلية زنابير حقاً) وفي النهاية، وبعد أن فشل وولتر لامب في حيازة زوجة له، وأدرك أنه لن يصل إلى نتيجة مع فرجينيا، إكتشف كذلك أنه قد خسر صديقاً، ذلك أن كلايف لم يكلمه قط مرة أخرى.

دعت ڤانيسا أختها للإقامة معها في «عشة» إستأجرتها في ملميد Millmead وهي قريبة جداً من منزل روجر. كانت تحس بالقلق لئلا تؤدي عقابيل مسألة وولتر إلى إثارة الزوابع بين كلايف وأختها. لكن الجو ظل رائعاً، حقيقةً ومجازاً. إن أسبوعاً تلو أسبوع من الشمس الساطعة جعلت من وقتهم وقتاً للسباحة ولرسم الطبيعة وللنزهات، وقتاً للمتعة بين الوثنيين الجدد[1].

كانت فرجينيا قد عرفت بالتأكيد عدداً من هؤلاء الوثنيين الجدد قبل ١٩١١ بأمد طويل، ذلك أنهم كانوا من مجموعة كيمبردج ذات الصلة من نواحٍ عدة بليتون وكينز وأصدقائهما. أما الآن فقد بدأت تعرف بعضاً منهم على نحوٍ أفضل. ومنهم، على

---

(١) يظهر أن هذا المصطلح جرى إختراعه في بلومز بيري، وربما من قبل ڤانيسا. وقد وجدت أول استعمال له في رسالتها إلى روجر فراي، مؤرخة في آب ١٩١١.

وجه خاص، المرأة التي ستكون لها أهمية عملية كبيرة في حياة فرجينيا. فقد التقت كاترين كوكس ـ كاكوكس Ka Cox كما كانت تدعىٰ عادةً ـ أول مرة في كانون الثاني ١٩١١ وهي «في الصميم من أوساط الأنوثة الفتية» ـ أي في رفقة مارجوري ستراجي وصويحباتها. كتبت فرجينيا إلى كلايف تقول: «إن الآنسة كوكس هي صغرى الصويحبات، ويقال إنها ستتزوج يوماً ما إما من شخص مثل الاقتصادي كينز أو مثل الشاعر بروك. وهي ذات شبه سطحي ببنات آل شيپشانكز، لكنهن أصغر عمراً وأكثر حسناً. إنها مخلوقة لطيفة، ذكية، ولامعة؛ وتقول عن نفسها إنها ذات عواطف قليلة». . . كانت فرجينيا تسميها «الدُبّة» وإني لأتخيلها كذلك ـ لا في النواحي الضارية والفظة من صفات الدببة بل في كونها ترتدي الفراء على الدوام، بطيئة الحركة، حارة الاحتضان، محبة لطيب العيش، مرتبكة في حركتها بعض الشيء، غير حساسة قليلاً إنما لا إلى درجة التبلد، وهي بالأحرى بطيئة الإدراك شيئاً ما لكنها نافعة ويعوّل عليها إلا إذا مسّها الوجد. كانت موضع أسرار عددٍ من الوثنيين الجدد، وبمثابة الأخت لهم، خاصةً لغوين داروين Gwen Darwin وجاك راڤيرات J. Raverat (وقد تزوجا في ١٩١١)، ولروپيرت بروك على الأخص. كان هذا الشاعر هو النجم الهادي للوثنيين الجدد، يحدد لهم معالم الطريق، كما كان ليتون قد حدد معالم الطريق في جيله، لكن المعالم كانت مختلفة إلى حدٍ ما[1].

---

(١) يتشابه الوثنيون الجدد مع جماعة بلومز بيري بكونهم على صلة حميمة بكيمبردج، وبكونهم لم يكونوا منظمين بأي شكل من الأشكال. ليس من السهل معرفة من هو الوثني الجديد من غيره.

لم تكن خلفيات الوطنيين الجدد مختلفة عن خلفيات جماعة بلومز بيري؛ كانوا في الأغلب من أبناء المثقفين البارزين في العصر الفكتوري؛ إنما كان فيهم عنصر أكثر مدعاةً للبهجة. وقد تلقىٰ عدد من النساء منهم تعليماً جامعياً وكانت هذه ميزة حسدتها فرجينيا كثيراً؛ لم يكنّ بحشمة السيدات من أسلافهن، إنما كنّ عمليات، وذوات إدراك سليم بدرجة أكبر من سابقاتهن. كان رد الفعل لدى الرجال والنساء معاً حاداً وقوياً ضد المتفسخين وضد الجماليين أيضاً في عالم الفن؛ وكان تأثرهم بمور أقل كثيراً من تأثر جيل ليتون به، ومع أنهم كانوا معنيين بالفنون ويمارسونها ولكنهم كانوا كذلك من الاشتراكيين النشطين.

كان يخفّ بهم ضرب من الروح الرياضية البريئة؛ فهم يلتقون لا في الصالونات فقط بل في الخيام أيضاً، وهم يبحرون بزوارق التجديف، ويرتدون الملابس البسيطة، ويسيرون بقوة، وكانوا مرحين وجادين معاً، أما في شؤون القلب فهم لا ينظرون إلى الجنس الآخر إلا والزواج هو مثلهم الأعلىٰ[1].

وهكذا فحين ذهبت فرجينيا لتقيم مع روپيرت بروك في غرانشستر، حيث زودته بمفردة لفظية إستعملها في إحدى قصائده، وحيث سبحت معه عاريةً في ضوء القمر في نهر غرانتا، لم يعتبر الشاعر كلا الفعلين سوى إيماءة من إيماءات التعاطف لا

(١) «إن مجموعة الناس التي نحن جزء منها... لا تتضاجع بلا زواج، لكننا نلتقي في المقاهي ونتحدث في الحافلات ونتجول مشياً بلا رقباء ونتبادل الكتب ويقيم بعضنا لدى بعض بلا زواج». من رسالة لروپيرت بروك إلى كاترين كوكس في أيار ١٩١١، من مجموعة رسائل روپيرت بروك المطبوعة في ١٩٦٨، ص ٣٠٤.

أكثر ولا أقل؛ كان من كرم أخلاقها أن تبادر إلى مساعدته في كتابة تشبيهٍ بلاغي، وألا تبالغ في التمسك بالحشمة فتبادر إلى التعري وسط صحاب من الجنسين؛ كان الأمر عبارة عن معاملة روپيرت كصديق. وأظن أن فرجينيا رأت في هذه السباحة الجريئة التي لا تبالي بخزيٍ أو عار شيئاً عظيماً، شيئاً جديراً بڤانيسا بصفتها من أمارات التحرر والإنعتاق. وقد ساء فرجينيا أن تكتشف أن سباحتها العارية لم تخلق ضجة كبيرة بين الأصدقاء، هذا إذا صدقنا أدريان. ولكنْ هل كان هذا محقاً في تسمية تلك الصداقة بين الكاتبة والشاعر باسم «غرام روپيرت»؟ الجواب مشكوك فيه. أما أنا فلا أظن أن رابطة جدية قد قامت بين الطرفين، وإن كانا على تفاهم طيب، حتى أن روپيرت تمكن من إقناع فرجينيا بالإنضمام إليه مع بعض الأصدقاء في مخيم أقاموه في كليفورد بريدج على ضفاف نهر تين Teign. بدأت زيارة فرجينيا هذه إلى المخيم على نحو سيّىء ومزعج. كان الآخرون يقومون بسفرةٍ ما إلى بلدة مجاورة فلم يتركوا ما يؤكل لكا كوكس وفرجينيا عند وصولهما سوى قطعة معجنات عفنة - تلك هي منغصات الحياة البسيطة. على أنه كان هناك ما يعوض عن ذلك، فالمناخ دائم الروعة، وحين توقد النار في المخيم في الليل تنطلق من حولها الموسيقى ويطيب الحديث، فيرف الهدوء الروحي الفريد على حياة الهواء الطلق اللامتناهي.

كان مينارد كينز من المشاركين في مخيم كليفورد بريدج الذي أقيم في أيلول؛ فهو صديق حميم للوثنيين الجدد وإن لم يكن من الممكن نعته بأنه «ينتمي» إليهم؛ لكنه كان يعرف أصدقاء فرجينيا من مجموعة كيمبردج وكان منذ ١٩٠٧ من الزوار في منزلها. ومع أن انتخابه التالي زميلاً في كلية كنغز جعله يعيش في كيمبردج

أغلب الوقت فإنه استأجر في ١٩٠٩ مع دانكون غرانت شقة في ميدان فيتنر روي قريبة من منزل فرجينيا، ومنذ ذلك الحين أخذ يتعرف عليها على نحوٍ أفضل. كان ذكياً ذكاءً استثنائياً، وذا طبع عشقي، ودود، متقلب ومتفائل، وهذا طبع يمكن أن يكون جذاباً جداً. وكان، من وجهة نظر السياسة العملية، أعظم رجل تعرفه فرجينيا على الإطلاق معرفةً حميمة، وكان يعتبر أصلاً في ١٩١١ ألمع الرجال وأكثرهم أهلاً لمستقبل رفيع.

كان عقد الإيجار لمنزل فرجينيا على وشك الإنتهاء، فاقترحت فرجينيا وأدريان، بعد أن ملّا صحبتهما الثنائية الطويلة الحافلة بالمشاكسات، القيام بثورة منزلية: إنهما سيشاطران غيرهما من الأصدقاء في العيش - فيجب أن يكون المنزل واسعاً. رشحا لهذا الغرض أولاً منزلاً في ميدان بيدفورد، ثم وجدا ما يريدان متمثلاً في المنزل رقم ٣٨ في ميدان برونزويك، فكان هو المبتغىٰ فاستأجراه في تشرين الأول. في هذا المكان ستعيش فرجينيا في شقة خاصة بها في الطابق الثاني؛ يأخذ أدريان الطابق الأول، ويتخذ مينارد كينز سكناً موقتاً في الطابق الأرضي حيث يستطيع دانكون غرانت استعماله كذلك مرسماً. عرضوا الطابق الأعلى الخالي على ليونارد وولف. ستكون نفقات إدارة المنزل مشتركة، أما ما عدا ذلك فإن «النزلاء» سيكونون مستقلين. وأما الخدمة ووجبات الطعام فتقوم بها الطاهية صوفي والخادمة مود[1].

---

(١) «الوجبات هي: الإفطار، الساعة التاسعة صباحاً/ الغداء، الساعة الواحدة بعد الظهر/ الشاي في ٤/٣٠ ب.ظ./ العشاء، الساعة الثامنة مساءً. ستوضع الصينيات في الردهة في تلك الساعات بالضبط، يرجىٰ =

إن هذا الترتيب يبدو لأبناء العصر الحاضر أمراً لا غبار عليه، لكنه كان يعتبر في ١٩١١ أمراً ناشزاً. إحتج جورج قائلاً بأنه لا يمكن لفرجينيا أبداً أن تعيش بمفردها مع ثلاثة شبان غرباء. فأوضحت ڤانيسا الأمر له قائلةً «أخي جورج، هذا شيء مناسب تماماً، ألا ترى؟ فالمنزل قريب جداً من دار اللقطاء». كان هذا جواباً مفحماً لجورج، أما إيجاد الجواب اللائق لڤيوليت دكنسون فلم يكن بهذه السهولة؛ ذلك أن ڤيوليت، على سعة أفقها، حسبت أن صديقتها أخذت تتجاوز الحدود. «ما كانت جوليا سترحب بهذا». إن مثل هذا الإعتراض، وهو يصدر عن مثل هذا المرجع، كان يرجى له أن يوقف فرجينيا عند حد، موقتاً على أية حال. لكنْ، لا. إنها تود ڤيوليت وتحترمها، وهي تقدر آراء ڤيوليت السديدة، وڤيوليت هي أصدق صديقاتها، أو فلنقل إن ڤيوليت ـ كما لعلنا ندرك من التضاؤل التدريجي في مراسلاتهما، وكان تضاؤلاً حاسماً ـ كانت فيما مضى أصدق الصديقات. إن فرجينيا ستقيم على شعور الود لها والإعجاب بها والثقة بآرائها والإقرار بفضلها؛ غير أن روح الحيوية في صداقتهما قد تبخرت على نحوٍ ما، والآن وقد وضعت هذه الصداقة على المحك فقد وجدت فرجينيا أن بوسعها قطع الصداقة، وأن بوسعها أن تعيش

= من النزلاء حمل صينياتهم بأنفسهم؛ ووضع الصحون المستعملة في الصينيات ذاتها وإنزالها فور الإنتهاء من الطعام.

ويرجى من النزلاء وضع أسمائهم على سبورة تعليمات المطبخ المعلقة في الردهة وذلك إزاء الوجبات المطلوبة في اليوم المعين، وقبل الساعة التاسعة والنصف صباحاً». (مقتطف من «نظام المنزل» الذي أعدته فرجينيا إلى ليونارد وولف في كانون الأول ١٩١١).

كما تهوى، على الرغم من عدم استحسان ڤيوليت الصريح. كان ثمة برود، إنما لم تحدث منازعة؛ إن صداقتهما من القدم بحيث لا يحدث هذا؛ فضلاً عن ذلك فإن سلوك فرجينيا وإن كان سلوكاً غير تقليدي إلا أنه لم يكن سلوكاً غير أخلاقي. وقد كان الأمر إيذاناً بالخمود النهائي لعاطفة عظمىٰ نحـو أهم الشخصيات في حياة فرجينيا.

كان ذلك الموسم حقاً هو موسم الإنهاء لأشياء قديمة وهـو كذلك موسم الإبتداء بأشياء جديدة؛ لم تترك فرجينيا منزلها في ميدان فيتنر روي فحسب بل تركت كذلك بيت تالاند الصغير. ووجدت آشام Asham، وهو بيت غريب وجميل في موقع منعزل رومانسي على بعد بضعة أميال إلى الغرب من قرية فيرل وعقدت النية على أن تستأجره إبتداءً من العام الجديد. أما الأمر الوحيد الذي بدا بلا نهاية على الإطلاق فهو روايتها. حين كانت تنقحها، ربما للمرة السادسة، كتبت إلى كلايف في نيسان ١٩١١ تقول:

> «أنهيت البارحة الفصل الثامن من مليمبروسيا؛ وهذا يأتي بشخصيات الرواية قريبـاً من شواطىء أمريكا الجنوبية. وهو إنجاز لثلث الكتاب على ما أظن. لم أجلب الفصول الأخرى معي إلى هنـا [بيت تالند الصغير] جبناً، لئلا أصاب بـالصرع. العمـل عليها هنـا يلونها بـالشحوب النـاجم عن الصداع».

ومـع أن الإنهيـارات العصبيـة لعـام ١٩١٠ لم تتكـرر في عام ١٩١١، فقد حدثت حالات كثيرة من الإصابة بالصداع. ففي

حزيران ١٩١١ كتبت فرجينيا إلى ڤانيسا تصف لها إحدى لحظات الكآبة التي تمر بها:

«عندما لا أستطيع الكتابة تخرج الشياطين كلها ـ سوداء كثة الشعر. ها أنا في التاسعة والعشرين، غير متزوجة ـ وفاشلة ـ بلا أطفال ـ ومجنونة أيضاً، ولست بكاتبة».

من الصعب أن نعرف عدد المرات التي تكرر فيها هذا الوضع النفسي ومدى أهميته؛ ولكنْ إذا كان ذلك الصيف سوداوياً في بعض الأحيان فهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الخريف الذي أعقبه كان أسعد حالاً.

ففي تشرين الثاني أفصح سدني ووترلو[١] عن حبه، وكان هذا قد انضم إليهم في ستودلاند في ١٩١٠. لم تتردد فرجينيا في رفضه بلطف ولكن بشكل حاسم، فتبخرت عاطفته سريعاً. وللمرء أن يفترض أن ما خصّها به من تقرير كان أمراً طيباً أراحها، وإن كانت يومئذٍ منصرفة إلى علاقة جديدة أكثر أهمية.

---

(١) كان هذا من الزوار المترددين على بلومز بيري وعلى علاقة حميمة مع الزوجين بيل كما يتضح من يوميته المكتوبة في ٨ كانون الأول ١٩١٠:
تناولت العشاء مع الزوجين بيل؛ يا له من تبديل وارتياح [من الحملة الإنتخابية]. لم يكن هناك غيرنا سوى فرجينيا ستيفن. وتحدثنا حديثاً صميمياً حقاً. ڤانيسا ممتعة جداً في حديثها عن الشذوذ الجنسي في أوساطهم. أدركت الفرق بينها وبين فرجينيا للمرة الأولى. ڤانيسا جامدة وساخرة ومتفننة، أما فرجينيا فهي أكثر عاطفيةً وأكثر إهتماماً بالحياة منها بالجمال. ليلة هائلة». (من يوميات سدني ووترلو غير المنشورة).

فحينما عاد ليونارد وولف بالإجازة من سيلان في حزيران ١٩١١ سعىٰ بالطبع بحثاً عن أصدقائه من كيمبردج، وكان قد تركهم وراء ظهرانية منذ سنة ١٩٠٤: ليتون، ساكسون، دزموند ماكارثي، كلايف، مينارد كينز، ومورغان فورستر. كان من المحتم أن يلاقي في سعيه هذا أشخاصاً آخرين لم يكن يعرفهم إلا قليلاً جداً: روجر فراي، دانكون غرانت، ڤانيسا، أدريان وفرجينيا. كان قد ترك كيمبردج، وهو الآن يعود إلى بلومز بيري. ورحبت به المجموعة. كتبت ڤانيسا تقول «جاء وولف لتناول الشاي، فتجادلنا هل أن اللون موجود». من هذا يظهر أن الأمور لم تتغيّر كثيراً منذ أن ترك الرجل كلية ترينيتي. لكن الأمور كانت قد تغيرت بالطبع، كما تغيّر هو ذاته. فهناك الآن فارق بينه وبين الآخرين، كما يتبين من مقتبسٍ آخر من ڤانيسا:

> «إنه ذكي جداً، ويبدو لي كأن لديه، من جراء العيش في مجاهل الدنيا، وجهة نظر أكثر إثارة للاهتمام من وجهة نظر غالبية (الشلة) الذين لا يقدمون شيئاً جديداً أو مبتكراً إلا نادراً».

كان ليونارد في كيمبردج مقرباً من ليتون على الخصوص؛ وكان واحداً من القلة التي ودها ليتون ووثق بها لكنه لم يغرم به ولا رأى فيه غريماً في الحب. كلاهما كان جاداً للغاية في «جمعية الرسل». كانت تلك الجمعية بنظرهما ضرباً من الدين. كان ليونارد قد كتب عن لغتهم الخاصة بهم، الشبيهة بلغة هنري جيمز، وعندما قرأ لهذا الكاتب روايته «الإناء الذهبي» في سيلان دهش من التشابه بين اللغتين[1]. كان هو وليتون، مع ساكسون

---

(١) «أكملت تواً (الإناء الذهبي) وأنا مندهش. هل هو إخترعنا أم نحن =

أيضـاً، من البارزين في شلة المـريدين لـ جي. إي. مـور؛ فقد جمعهم إخـلاصهم للرجـل العـظيم، وعلى الـرغم من شغفهم الأصيل بالأمانة الذهنية، ومن صفاتهم الشخصية الرائعة فإن هؤلاء الشبان كانوا قد غادروا كيمبردج يحفّ بهم تكلف الصفوة الأثيرة. لقد أنزل عليهم إنجيل «مبادىء الأخلاق» فظنوا أنهم هم أنفسهم النخبة المصطفاة.

لذا فحين أقلع ليونارد متجهاً إلى سيلان شعر ليتون بالشك، وكان ليونارد ذاته منعزلاً. كانت الرسائل التي تأتيه من ليتون هي صلته الوحيـدة بالعـالم القديم، بـالجزء «الحقيقي» منـه. وكان ساكسون يكتب أيضاً، أحياناً، إنما لكي يقول مطولاً على عادته أن لا شيء عنـده يقولـه، أو أن لا شيء عنده يستحق الـذكـر بالذات ـ وعندئذٍ يعطي بعض الأمثلة. كانت هناك دائماً فكرة بأن يذهب ليتون إلى سيلان يوماً ما ـ وهي فكرة تقتصر على الحديث عنها دون التنفيذ الفعلي. ربما كان ينبغي له أن يذهب، لأنه لم يتعمد بنارٍ ما، كنار العمل في أقاليم نائية ـ إذا كان لنا أن نسميها النار ـ، كما تعمّد الكاتب غيبون Gibbon مكتوياً بنيران الحرب. لقد عرف غيبون وهو يكتب ما كتب كيف يتصرف الرجال الذين كتب عنهم وهم يحسنون تصريف الأمور أو يسيئون تصريفها لأن لديه خبرةً ما عملية عن الحرب أو في الأقل عن الجيش. فهل كان ليتون سيقـدم تحليلاً أحـدّ مضاءً وهـو يكتب عن غوردون

= اخترعناه؟ إنه يستعمل كلماتنا كلها بأدق معانيها المقصودة، ولا يمكن أننا كنا قد حصلنا على الكلمات كلها منه». (من رسالته إلى ليتون في ٢٣ تموز ١٩٠٥).

وفلورانس نايتينغيل، أو يظهر شفقة أعمق بهما لـو أنه كـان قد عاش وسط الذباب والقذارة في جافنا وهـامبانتـوتا؟ من الصعب الإجابة عـن ذلك، كما أن من الصعب أن نتصور ليتون زائـراً لأحد الأقاليم النائية ناهيك عن تصوره حاكماً له.

ولكن ربما كان من الصعب أيضاً أن نتصور ليونارد حاكماً إدارياً لو أنه لم يغادر قط كيمبردج، ولم يغادر لندن ليرفع علم الأمبراطورية في تيهٍ من القزدة. إنه بهذا حاز على تلك الخبرة، خبرة «الصاحب» بين أبنـاء البلد المحليين، منقطعـاً تمامـاً عن أولئك الأصدقاء كلهم الذين معهم يستطيع المرء أن يكون منفتحاً كل الإنفتاح، منقطعاً عن المزاح، والجدية الساميـة، والإنصهار الفكري لكيمبردج. لقد تعلم السفر والعيش على انفراد، وتعلم أن يتولى واجبات الشرطي وأن يزاول سلطات القاضي وأن يصدر أحكاماً بالموت ويشاهد تنفيذها، وأن يعمل على تصريف مهمات الأمبراطورية الأخرى التي لا تنتهي، كما أنها مضجرة جداً. وجد من أصعب الأمور لديه هناك أن يتعامل مع مواطنيه وأن ينسجم معهم. وقـد وصفهم في لحـظة قنـوط وقـد نفـد صبـره بـأنهم «مجموعة سخيفة منحطة من المتفسخين والأغبياء الحمقىٰ». كان أولئك الناس من أنصاف المتعلمين، ومعهم زوجاتهم الفظيعات، وهـم الذين يديرون مقاليـد الأمور في الجـزيرة، فيمثلون بنـظره الفرق الشاسع بين سيلان وكيمبردج بجلاء رهيب. ولكنـه لكي ينجح في عمله، وكان مصمماً على أن ينجح منذ الإبتداء، كان عليـه ليس فقط مجرد العيش بسـلام مع أنـاس كـان سيتجنبهم بصفتـه خريجـاً جامعيـاً، بل كـان عليه تنميـة العـلاقـة معهـم، ودراستهم، وإدخال السرور إلى قلوبهم أيضاً. وكان هذا بالضبط

هو ما فعله، وبفعله هذا أمسي أكثر تسامحاً، وأيقن أن بين أولئك الناس، غير المتجانسين أصلاً عـدداً من الذين يستـطيع التعلم منهم ومن الذين يستطيع أن يخلص لهم الود. لقد خفّت وطأة الغطرسة لدى ذلك الشاب المثقف، وتوسـع مدى تعـاطفه مـع الغير، ووجد أن بوسعه الإنسجام مع أناس ليست لديهم فكرة عن مفهوم «الحالات العقلية الجيدة»، ووجد أيضاً أنهم يتسـامحون معـه ويقدرونـه حق قدره، دون أن يضحي هـو شخصياً بـذلك الإدراك الأول الرائع الذي منحته له كيمبردج.

كانت الشكوك تساور ليتون عن هذا الأمر بالذات، فقد خشي أن يمسي ليونارد «مهتماً بعمله» وأن يطفىء هذا الإهتمام ما لديه من إهتمامات أخرى. وقد كادت تنطفىء.

كان ليونارد، حتى وهو يردد إستغاثات القنوط الأولى، ذلك المرء الذي جُبِل على تكييف نبرة صوته، من حيث يدري أو لا يدري، وفق ما يريده محدّثه. وما أن مر الزمن وارتقىٰ الرجل في سلّم الخدمة الحكومية حتى وجد أن لعبة الإدارة لعبة فاتنة تأسر القلب. لقد نجح في تطوير الدوائر التي ترأسها وأصلح شؤونها، وقام بفرض النظام على الفوضىٰ، وجعل ذلك الجهاز غير الكفء يعمل بسلاسة. وسرعان ما أدرك رؤساؤه أن لديهم رجـلاً مفيداً جداً يعمل في خدمتهم. فعهدوا إليه إدارة مملكة بأسرها، هي مقاطعة هامبانا توتا من الإقليم الجنوبي في سيلان، فكرس نفسه سنتين ونصف ليجعل منها مقاطعة آمنة، مزدهرة، تحفل بالرخاء. وبحلول ١٩١١ أصبح من موظفي المستعمرات الناجحين جداً، فبدت مخاوف ليتون في محلها.

عـاد الرجـل فـأزالت عنـه بلومـز بيـري سحـر العمـل في

المستعمرات. عاد ليجد أن البذور التي تعهدها، هو وليتون، بالنماء في ظل كيمبردج الشفاف تتعالى ويمكن التعرف عليها. إن القيم القديمة لما تزل تحظى بالتشريف ولو أنها أخذت تطبق على عالم أوسع من عالم كيمبرذج؛ وعلى الرغم من وقوع خسارة واحدة محزنة بوفاة ثوبي فقد بقي الأصدقاء القدامى، واغتنت حياتهم وتعقدت أيضاً بعناصر جديدة، أنثوية خاصةً، وبعبارة أخرى دخول ڤانيسا وفرجينيا إلى المضمار.

في هذا المجتمع الجديد، المألوف، يستطيع ليونارد أن يطرح الإحتياطات والتحفظات التي تثقل كاهل مثقفٍ انقلب حاكماً إدارياً في المستعمرات؛ شعر أنه في بيته مجدداً (أكثر مما شعر بذلك في بيت أمه في پاتني Putney كما أتخيّل)؛ فهو الآن بين ظهراني أناس يحترمون تلك القيم الجوهرية ذاتها، أناس بوسعه أن يكتشف فيهم طباعاً متشابهة وصفات متماثلة. كانت الإجازة منعشة له بعد خدمة سبع سنوات وراء البحار؛ إنه وقد تخفف من وقر العزلة ومن اللذاذات الكئيبة لكفاءة العمل، أخذ يقبل على سلوك سبيل متعرّج لطلب المتع الإجتماعيات والخبرات الجديدة، هائماً على وجهه (حتى أنه مارس الرسم وقتاً ما)؛ من ثم أخذت اهتماماته تستقر ثم تتركز: فقد اكتشف هدفاً لنفسه وأصبح هذا الهدف كل شيء. فبعد وصوله إلى انكلترا بستة أشهر عرض خطوبته على فرجينيا.

كان ليونارد قد تناول العشاء في الثالث من تموز في بلومز بيري مع كلايف؛ بعد العشاء جاءت فرجينيا وولتر لامب ودانكون غرانت. وبعد بضعة أيام كتبت فرجينيا إلى «عزيزي السيد وولف» تدعوه إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع في «عشّتها على السفوح

الجنوبية». لم يستطع تلبية الدعوة لأنه كان مرتبطاً سلفاً بسلسلة من الزيارات، وهكذا ففيما تولت فرجينيا «رحلتها الكبرى» مع وولتر لامب، ورحلتها الصغرى مع روپيرت بروك ومع الوثنيين الجدد ذهب ليونارد أولاً إلى منزل القسيس في سومرسيت، ثم إلى لقاء مع ليتون وجي. إي. مور في دوفنشاير، وأخيراً إلى البلاد الأسكندنافية. لكنه حين عاد تجرّأ فذكّر الآنسة ستيفن بدعوتها؛ فكررتها واقترحت أنه سيكون لطيفاً إستعمال الأسماء الأولى بينهما دون تكلف؛ وأضافت أن العشة «ليست سوى ڤيلّا هزيلة في الضواحي». ذهب ليونارد إلى هناك لقضاء عطلة أسبوع السادس عشر من أيلول؛ كانت مارجوري ستراجي ضيفة أخرى. يومئذٍ إكتشف ليونارد متعة السير على السفوح مع فرجينيا، واكتشفت فرجينيا وهي بصحبته منزل آشام.

كانت تلك زيارة حاسمة؛ وأخذت زيارة ليونارد إلى منزلي الأختين تتزايد. كان الرجل يسعىٰ على الدوام إلى صحبة فرجينيا. أما هي فكانت تسكن منذ تشرين الثاني في البيت الجماعي في ميدان برونزويك، وكان ليونارد قد أضحىٰ آنئذٍ جزءاً من بلومز بيري، حتى أن الطلب إليه لكي ينضم إلى «المؤسسة» كان أمراً طبيعياً. في الرابع من كانون الأول إنتقل ليشغل غرفتين في الطابق الأعلى بإيجار قدره ٣٥ شلناً في الأسبوع. كانت الغرفتان قد طليتا بالدهان، وأكدت له فرجينيا أنه سيكون فيها رف للكتب.

وهكذا ففي الأشهر الثلاثة الأخيرة من ١٩١١ كان ليونارد يلتقي فرجينيا كثيراً فأحس أن قلبه قد شغف بها حباً. كانت هي، على ما هو واضح، تضمر له الوداد، أما ما الذي يمثله هذا الوداد

فلم يكن أمراً جلياً لا لها ولا له، وكانت الشكوك التي تساوره بشأن قوة مشاعرها وطبيعتها هي التي تمنعه من التعبير عن مشاعره.

في أوائل السنة الجديدة ذهب ليونارد مرةً أخرى للإقامة مع صديقه القديم، قسيس بلدة فروم Frome في سومرسيت؛ وهناك، في سكينة منزل القسيس الريفي، أدرك أن لا مناص له من الطلب حالاً إلى فرجينيا أن تتزوجه. ففي العاشر من كانون الثاني أبرق لها برقية جوابية إلى ميدان برونزويك: «يجب أن أراك مدة ساعة غداً الخميس سأصل المدينة الساعة ١٢/٥٠ وأتركها الساعة ٥/٠٠ هل أستطيع المجيء إلى ميدان برونزويك الساعة ١,١٥ لرؤيتك التوقيع ليونارد».

رآها وسألها أن تتزوجه. لم تدهش كثيراً؛ لكنها لم تكن قد هيأت جواباً جاسماً؛ تطلبت وقتاً لكي تتعرف عليه على نحوٍ أفضل. وقد قوطعت محادثتهما بوصول ولتر لامب، فكان على ليونارد أن يعود إلى فروم. وحين وصل إلى هناك كتب لها رسالته التالية:

«منزل القسيس، فروم

سومرسيت في ١١ كانون الثاني ١٩١٢

«عزيزتي فرجينيا، يجب أن أكتب لك قبل أن أنام، فلعلي أستطيع التفكير على نحوٍ أهدأ.

ليس عندي تصور واضح لما قلته لك فعلاً عصر اليوم ولكني واثق أنك تعرفين لماذا جئت ـ ولا أعني مجرد أنني محب، لكنّ هذا، وعدم

اليقين، يسوق المرء إلى أن يقوم بهذه الأشياء. ربما كنت مخطئاً، ذلك أنني قبل هذا الأسبوع لم أكن أنوي أن أخبرك إلا إذا شعرت شعوراً أكيداً أنك محبة لي وستتزوجينني. ظننت آنئذٍ أنك تودينني، وكان هذا هو كل ما في الأمر. لم أدرك مدى حبي لك إلى أن تحدثنا عن مسألة رجوعي إلى سيلان. بعد ذلك لم أستطع أن أفكر بشيءٍ سوى بك. صرت في حالة شك يائسة: هل أنت تحبينني أو يمكنك أن تحبيني أو حتى أن توديني؟ يا إلهي، عسىٰ ألا أقضي مرة أخرى مثل ذلك الوقت الذي قضيته هنا إلى أن أبرقت. كتبت لك قبل ذلك أقول إنني سأكلمك الإثنين القادم ثم شعرت أنني سأجن إذا انتظرت حتى ذلك الحين لأراك. لذا أبرقت. كنت أعرف أنك ستقولين لي بالضبط ما تشعرين به. لقد كنتِ بالضبط كما عهدتك ولو لم أكن أحبك قبلاً لأحببتك الآن. وليس الأمر لأنك حسناء جداً ـ وإن كان هذا بالطبع سبباً كبيراً ويجب أن يكون كذلك ـ ولا هو لأنني أحبك، كلا ليس الأمر مجرد هذا. إنه عقلك وشخصيتك ـ لم أعرف قط من هو مثلك في هذا ـ فهل تصدقين؟

والآن فإني سأفعل أي شيء تريدينه قطعاً لا أظن أنك تريديني أن أنصرف، ولكن إذا كنت تريدين ذلك فسأنصرف فوراً. وإلا فإني لا أرى

لماذا لا نستطيع الإستمرار كالسابق ـ أظن أني أستطيع ـ وعندئذٍ إذا وجدتِ أن بوسعك أن تحبيني فستقولين لي.

لا أكاد أعرف هل أنني أعبّر عما أعني وعما أشعر: أنا متعب بشكل إستثنائي. الضباب الكثيف يغطي سومرسيت كلها والقطار تأخر فكان عليّ أن أجرجر قدميّ من المحطة مسافة ثلاثة أميال إلى البيت.

ألا تظنين أن دخول وولتر علينا يكاد يثبت وجود الآلهة؟ المخلص ل».

وكتب لها مرة أخرى في اليوم التالي يقول:

«. . . أستطيع أن أحاول أن أكتب من بعيد عما كان صعباً عليّ جداً أن أبحثه معك بهدوء وبلا إنفعال. لا أظنني من الأنانية بحيث لا أستطيع رؤية الأمر جانبك أيضاً. أما من جانبي فأنا واثق الآن بأنه، وبصرف النظر عن كوني أحب. . . واثق بأنه سيكون من الجدير بي المغامرة بكل شيء للزواج منك. وهذا بالطبع ـ من جانبك ـ هو السؤال الذي كنت تسألينه باستمرار البارحة، وربما كان ينبغي لك ذلك. ولأنك خارج حلقة النار يمكنك أن تقرري أفضل بكثيرٍ مني أنا الذي في داخلها. يا إلهي، أنا أرى المخاطرة في الزواج من أي أحد، خاصة من

قبلي. فأنا أناني، غيور، قاسٍ، شهواني، كذاب وربما أسوأ. وقد قلت لنفسي مراراً وتكراراً أنني لن أتزوج من أية إمرأة بسبب هذا، ولأني بالدرجة الأولى لا أستطيع على ما أظن أن أسيطر على مشاعري مع إمرأة أدنىٰ مني وسيؤدي نقصها واستسلامها إلى إلهاب الغضب فيّ بالتدريج... ولأنك لست هذه الإمرأة فإن المخاطرة تقل كثيراً جداً. قد تكونين أنت أيضاً مغرورة، أنانية، غير صادقة كما تقولين عن نفسك، لكنْ هذه ليست شيئاً بالمقارنة مع صفاتك الأخرى، الروعة، الذكاء، الفطنة، الجمال، الصراحة. وعلى أية حال أيضاً فإننا على مودة أحدنا بالآخر، ونحب الأشياء نفسها والأشخاص ذاتهم، وكلانا ذكي، والأهم من هذا كله أننا نفهم واقع الأمور التي هي مهمة لنا»...

أجابت فرجينيا على عجل وكانت تريد أن تستقل القطار لزيارة بيت تالاند الصغير، وكانت تلك زيارتها الأخيرة لذلك البيت، فقالت:

«ليس عندي ما أقوله سوى أنني أرغب في أن أستمر كالسابق؛ عليك أن تتركني حرةً؛ وعليّ أن أكون أمينة. أما بالنسبة إلى النواقص فأتوقع أن تكون نواقصي هي بالسوء نفسه ـ ولعلها أقل نبلاً أيضاً. لكن النواقص ليست بالطبع هي المسألة حقاً. وقد قررت إبقاء هذا الأمر سراً باستثناء

ڤانيسا؛ وقد وعدتني ألا تفشيه لكلايف. وقلت لأدريان إنك جئت بشأن عملٍ عُرض عليك».

أما ڤانيسا فكانت قد أضمرت الوداد للرجل منذ الإبتداء، وظنت أن فيه من الصفات ما يسعد أختها في الزواج. كتبت له في الحال تقول:

«سيسرني جداً أن تحظى بما تريد. أنت الشخص الوحيد الذي أعرفه ويمكن أن أتخيله زوجاً لها».

كذلك رجته ڤانيسا أن يأتي إلى حفلتها لتدشين بيت آشام. وقد حضرها، بل حضر حفلتين أقيمتا هناك لتدشين ذلك البيت؛ كانت الأولى، كما كتبت فرجينيا:

«قد أقيمت في أبرد يوم منذ أربعين سنة؛ الأنابيب كلها متجمدة، والطيور تتضور جوعاً على زجاج النوافذ؛ دخل بعضها وقبع قرب النار؛ ثم انهارت قضبان الموقد؛ وفجأةً سكتت مارجوري ستراجي وكانت تتلو علينا من راسين، ثم قالت: أصابني جدري الماء».

أما الحفلة الثانية، وهي الحفلة الأكبر، فقد أقيمت بعد أسبوع وحضرها الزوجان بيل وروجر ودانكون وأدريان وفرجينيا، وكذلك ليونارد. ورغم هذه المباهج كانت فرجينيا تعاني من الكآبة. وحرص ليونارد على ألا يقلقها، فهي يجب أن تكون حرة كالسابق؛ لكنه فرض عليها توتراً أشد مما فرضه خطّابها السابقون، وهذا لا غرابة فيه؛ إذ لم يحدث سابقاً قط أن ظهرت

إمكانية الزواج على هذا النحـو الواقعي الملمـوس وبمثل هـذا الوضع المنصف، ولكن بدرجة كبيرة من الهلع. تأثـرت بذلـك أعصابها؛ وفي نهاية كانون الثاني كانت طريحة الفراش ـ أسبوعاً «لمسة من المرض المعتاد، في الرأس كما تعرفون». واشتدت هذه الأعراض بعد الحفلتين فاضطرت أن تعود إلى ذلك الملاذ الكريه، وإن كان مريحاً، في تويكنهام وإلى ملاذ الآنسة توماس. كتبت ڤانيسا إلى ليونارد بأسىً ترجوه ألا يزور أختها أو يكتب إليها في الوقت الراهن، وكانت تأمل أن يكون كل شيء على ما يرام في النهاية. لم يسمح إلى ليونارد حتى نهاية شباط بأن يرسل إلى فـرجينيا إلا رسـالة واحـدة جاءت مملة لحـديثها، فلمـا غادرت فرجينيا المصح طلبت ڤانيسا منه، بلطفٍ وحزم معاً، أن يعود إلى سومرسيت؛ تسلم هناك رسالة من فرجينيا تقول فيها:

«سأحكي لك حكايات بديعة عن المجنونات. بـالمناسبـة: إنتخبنني ملكاً. لا شـك في ذلك. فـاستدعيت مجلس الـرهبان وأصـدرت نداءً عن المسيحية. قمت بمغامرات أخرى، وحـدثت لي بعض الكـوارث، وهـذه هي ثمـرة الإستعـدد العـاطفي المحب لـلاستقصـاء. وتجنبت الحب والكراهية معاً. والآن أحس أن تفكيري واضح كل الـوضوح وأشعـر بالهـدوء وأتحرك ببطء كحيـوان ضخم في حديقة الحيوانات. الحياكة هي المنقذ الوحيد للحياة؛ وقد بدأ أدريـان يمارسها كذلك. والشيء العجيب فيها أنها تحوّل المرء من كـونه من آل ستيفن إلى كونه من آل ساكسون، حتى أن

ساكسون نفسه، ذلك المخلوق المسكين المعهود أخذ يظن أننا نحاكيه كالصدى فيرتاب بخبثنا.

جاء ليتون اليوم لتناول الشاي وكان آسراً وتقبل اللوم اللاذع الذي وجهته إلى حياة كيمبردج وإلى شذوذ جمعية الرسل. إتفق معي أن السجادة عفنة والحيتان ذات صنان. قلت له أنت كذلك، فأخذ يحشرج عند انتشار الضياء...

يجب أن أخرج الآن لأبرد هذه الرسالة. عندي خمسة شلنات سأشتري بها شوكولاتة وحبوب منومة إذا كانت المخازن مفتوحة، ونجوت من التعرّض لي. لن أحتاج للحبوب».

لا شك أن ليونارد وجد هذه الرسالة مثيرة للقلق، فقد كانت تتّسم بالخيال، وإن كانت سطورها الغريبة ربما نشأت عن فكاهات خاصة بينهما، لا عن عقل مضطرب. كان من شأن العاشق الفاتر أن يتساءل أي نمط من زوجة ستكون هذه التي يخطب ودها؟ كان مثل ذلك العاشق سيرتد على أعقابه؛ ولكنْ لم يكن هناك من فتور في حب ليونارد على الإطلاق.

أمضت فرجينيا معظم وقتها في آشام وهي تحيا بهدوء تام وتعمل على كتابة روايتها. في ذلك الوقت بالذات أخذت كاكوكس، وكانت في خضم علاقة غرامية تعيسة ومثيرة للأعصاب[1]، تكرس نفسها لفرجينيا فتكشف عن موهبتها بصفتها نافعة ومريحة معاً.

---

(١) مع روبيرت بروك، وكان يعاني من إنهيار عصبي، فكتب إلى فرجينيا يناشدها ألا تقتدي به.

في غضون ذلك أخذ وضع ليونارد يضحىٰ محفوفاً بالصعوبة البالغة. إن مشاعره تجاه فرجينيا بدأت تختلط بمشاعره تجاه سيلان. كان اهتمامه بالجزيرة وأهلها قد أخذ يجد مجالاً للتعبير عنه في رواية له هي «قرية الغاب»، وقد بدأ بكتابتها في خريف ١٩١١؛ في الوقت ذاته أخذ يتساءل هل ينبغي له العودة كوكيل للحكومة الأمبراطورية؟ فقد كانت لديه شكوك متزايدة بشأن الأمبراطورية ذاتها. إذا قبلته فرجينيا فستُحل هذه المشكلة تلقائياً، ذلك أن من المؤكد استحالة العودة إلى سيلان معها؛ أما إذا خسرها فكيف يستطيع العودة بدونها؟ لقد أمست الإدارة الإستعمارية حرفةً له؛ وهو يعمل بأنه صالح لها وكان يحلم أحياناً بأن يتفرغ في البقية الباقية من حياته إلى العمل في منطقة نائية في سيلان، لخدمة سكانها؛ لكن لديه أحلاماً أخرى تجعل من فكرة العودة إلى مركزٍ ناءٍ جداً عن بلومز بيري وعن فرجينيا أمراً سوداوياً حقاً. غير أن عليه أن يواجه هذا الإحتمال، وأن عليه قبوله إذا رفضته فرجينيا. وقد ظلت هذه نفسها بلا قرار تتخذه، وصمم هو ألا يعجلها في اتخاذه؛ ولهذا إضطر أن يقامر بقدره، ذلك أن إجازته ستنتهي في ٢٠ أيار فيجب عليه أن يقرر ما سيفعله قبل ذلك.

في الرابع عشر من شباط كتب إلى وزير المستعمرات، وقد أدرك أن فرجينيا قد تحتاج وقتاً طويلاً لتتخذ فيه قرارها، وطلب تمديد إجازته أربعة أشهر لتسوية شؤونه الخاصة. أجابه الوزير مستفسراً بأدب عن هذه الشؤون. فردّ ليونارد قائلاً إنه لا يستطيع بحثها. أحيل الأمر إلى حاكم سيلان، فقرر هذا أنه ما لم يفصح ليونارد عن أمره بوضوح فإن إجازته لا يمكن أن تمدد. في

الخامس والعشرين من نيسان قدّم ليونارد إستقالته.

إن مثل هذا التخلّي يصعب تحقيقه دون أن تظهر لدى المرء المعنيّ بعض مشاعر الأسف الطبيعية. ومهما تكن الشكوك التي ساورت ليونارد فلا شك أنها كانت قد تعاظمت عند إقامته في آشام لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، حين أدرك بوضوح أن الأمور كانت تجري في وجهة خاطئة تماماً بينه وبين فرجينيا. كتب في التاسع والعشرين من نيسان، بعد أربعة أيام فقط من تقديم استقالته، رسالة إلى فرجينيا بأسلوب مختلف بعض الشيء (إذ غدا أسلوبه، تحت تأثير الإنفعال، مرتبكاً على نحوٍ لم يعهد فيه، وجاء خالياً من التنقيط) قال فيها:

«... أريد أن أراك لأتكلم معك والآن فإني سأكتب وإن كان لا ينبغي لي على ما أظن أن أقول ما أريد فلا أستطيع بصورة تعيسة منذ أمس وكأن شيئاً يبرز فيك ضدي. ربما هذا وهمٌ من جانبي: إذا كان كذلك يجب أن تغفري لي: ولا أظن أنك تدركين ما يعنيه هذا لي. يا إلهي السعادة التي شعرتها بقربك والحديث معك وشعرت بها أحياناً عقلاً لعقلٍ وروحاً لروح. أنا أعرف بجلاء ما أشعر به نحوكِ. وإنه ليس الحب الجسدي فحسب وإن كان موجوداً بالطبع وأعتبره أقل الأسباب وإنما مجرد كوني مجرد سعيد معك... إنه أني أريد حبك لي أيضاً. صحيح أنا بارد ومتحفظ تجاه الغير، وأنا لا أشعر حتى بالمودة بسهولة: ولكن بصرف النظر عن الحب

فإني شغوف بك كما لم أشغف قط من قبل بأي أحد أو أي شيء في الدنيا. كم ضحكنا بشأن روعتك لكنك لا تعـرفين إلى أي درجة أنت رائعة. وهذا يؤرقني جداً. وهذا يقلقني الآن ويمزقني أحياناً - إذ اني لا أريدك التزوج مني، على كثرة ما أحبك، إذا ظننتُ أن ذلك سيجلب لك الشقاء. حقاً هذا صحيح وإن كان مما يؤذيني أكثر من الآلام الجسدية مجرد قولك لڤانيسا أنك ربما لن تتزوجي أحداً قط».

وكان في الرسالة مزيد من هذا الكلام. كانت رسالة طويلة، تكرارية، بدا فيها ليونارد كأنه يتحدث مع نفسه، وهو يجوب تائهاً بين الأمل والقنوط؛ ولكنه يرهبه الخوف دائماً من وجود حاجزٍ ما نفساني رهيب لا يستطيع تخطيه.

وفيما كان يكتب على ذلك المنوال جاءته رسالة شبه رسمية من وزارة المستعمرات تقترح عليه الطريقة التي يمكن بموجبها تمديد إجازته. عند تسلمه لها كتب فوراً إلى فرجينيا يسألها هل يمكنه أن يكلمها قبل الإجابة. فكتبت له فرجينيا مجيبةً:

«. . . إن مهنتك مهنة رائعة وأنت تدمرها! ويبدو لي أنني أؤلمك كثيراً - بشكل عرضي في بعض الأحيان - لذلك ينبغي لي أن أكون واضحة معك قدر استطاعتي، لأني أخشى أنك كنت بعض الوقت في ضباب لا أراه أنا مطلقاً. وبالطبع لا أستطيع أن أشرح ما أشعر به - هذه بعض الأشياء التي تثير فيّ الإنتباه. إن المزايا الواضحة

للزواج تقف في طريقي. أنا أقول مع نفسي: أنت ستكون على أية حال سعيداً تماماً معي؛ وأقول إن الزواج سيعطيك الرفقة والأطفال والحياة الحافلة بالعمل. ثم أقول: يا إلهي، أنا لن أنظر إلى الزواج كحرفة. إن الذين يعرفون بالأمر يظنونه زواجاً ملائماً؛ وهذا يجعلني أتفحّص دوافعي تفحصاً عميقاً. ثم بالطبع أشعر أحياناً بالغضب لقوة رغبتك. ولعل كونك يهودياً يدخل في الأمر كذلك عند هذه النقطة. أنت تبدو غريباً للغاية. ثم أنني غير مستقرة بشكل مخيف. أنا أنتقل من الحرارة إلى البرودة في لحظة واحدة بدون سبب؛ عدا أنني أعتقد أن محض الجهد الجثماني والإعياء يؤثران فيّ.

كل ما أستطيع قوله هو وجود شعور دائم ومتنامٍ بالرغم من هذه المشاعر التي تطارد إحداها الأخرى طيلة اليوم حين أكون معك. أنت تريد أن تعرف بالطبع هل أن هذا الشعور سيجعلني أتزوج أم لا؟ كيف أستطيع القول؟ أظنه سيجعلني أقدم على ذلك إذ لا يوجد على ما يبدو سبب يحول دون ذلك ـ لكني لا أعرف ماذا يحمل المستقبل. أنا شبه خائفة من نفسي. وأشعر أحياناً بأنه ما من أحدٍ شارك أو يستطيع أن يشارك في شيءٍ ما ـ إنه الشيء الذين دعاك أن تشبّهني بالتل أو بالصخرة. على أني مرة أخرى

أريد كل شيء ـ الحب، الأطفال، المغامرة، التقارب الحميم، العمل. (هل تستطيع أن تفهم شيئاً من هذه الثرثرة؟ أنا أخط سطراً بعد آخر). لذا أنتقل من شبه عاشقة لك، فأريدك أن تكون معي دائماً وتعرف عني كل شيء، إلى التهور والتعالي. أحياناً أظن أني إذا تزوجتك فسأستطيع الحصول على كل شيء ـ إنما ـ هل هو الجانب الجنسي يقف حاجزاً بيننا؟ فكما قلت لك قبل أيام وبكل قسوة إني لا أشعر بجاذبية جسدية فيك. ثمة لحظات ـ حين قبلتني قبل أيام مثلاً ـ شعرت فيها أني لست أكثر من حجر. مع ذلك فإن اهتمامك بي يكاد يأخذ عليّ أمري. وهذا شيء حقيقي جداً وغريب جداً. لماذا تفعل ذلك؟ من أنا سوى مخلوقة جذابة لطيفة؟ ولكن، ولأنك شديد الاهتمام بي فإني أشعر أني يجب أن أحس بالاهتمام بك قبل أن أتزوجك. أشعر أنني يجب أن أعطيك كل شيء؛ وإذا لم أستطع فالزواج، إذن، لن يكون إلا ثاني أفضل الأشياء لك ولي. لو أنك تستطيع الإستمرار، كالسابق، تاركاً إياي أتلمس طريقي، فهذا سيسرني كل السرور؛ وعندئذٍ يجب علينا كلينا أن نجازف. لكنك جعلتني سعيدة جداً أيضاً. كلانا يريد الزواج حياً بصورة هائلة، نابضاً بالحياة دائماً، حاراً دائماً، لا ميتاً ورخواً في بعض أجزائه كما هي معظم الزيجات. نحن نتطلب كثيراً من الحياة، أليس

كذلك؟ لعلنا سنحصل على ما نريد؛ عندئـذٍ ما
أروعه من أمر! إن المرء لا يسعه قول الكثير في
رسالة، أليس كذلك»؟.

لكنها قالت ما فيه الكفاية؛ أما ليونارد، رغم شكوكه كلها، وكانت كثيرة بلا ريب، فقد كان مصمماً ألا يعـود إلى سيلان. قبلت استقالته في ٧ أيار.

ووجد ليونارد نفسه الآن وقد أُحرقت مراكبه حقاً؛ إن فرجينيا لم تدع له أملاً كبيراً. فأفضل ما استطاعت أن تقوله له هو أنها شبه مغرمة به، وتريد أن تحبه وأن تتزوجه لو أنها تستطيع. كان هذا بالتأكيد شيئاً يختلف تماماً عن معاتباتها الغزلية في الماضي.

كتبت في آذار ١٩١٢ تقول: «كلا، لن أنجرف مع ليتون في تحالف سلمي - ولو أنه صديق مثالي من بعض الوجـوه، ولكنه صديق أنثوي لا أكثر». وأضافت في الرسالة ذاتها:

> «بدأت حياتي وأنا أتمسك بمثل أعلى هائل، وأخرق، عن الزواج؛ ثم شعرت بالقرف وأنا أرى بأم عيني عدداً من الزيجات وكيف تجري الأمور فيها، فظننت أني إنما أطلب ما لا ينال. لكن هذا قد انصرم أيضاً وفات أوانه. فأنا الآن لا أطلب إلا أحداً ما يلهب مشاعري، عندئذٍ سأتزوجه»!.

ولكن هل يستطيع ليونارد أن «يلهب مشاعرها»؟ من الواضح أن شكوكاً خطيرة كانت تساورها بشأن ذلك. على أن الذي حصل هو أنها غدت الآن على استعداد كامل لإعطائه فرصة تامة، لعله ينجح في ما تريد. حين عادت إلى ميدان برونزويك كان جاراً

لهـا. أخذت تعـرفه معـرفـةً وثيقـة، ويمكنهـا الآن أن تفهم أن شخصيته تلائمها جداً ملاءمة رائعة. إنه يتمتـع بالبـروز الثقافي الذي لم تجده حتى الآن إلا في ليتون، وفيه قوة يعوّل عليها لا يتمتع بها ليتون. كان ليونارد كاتباً أيضاً، وروائياً، وقد قال لها بعد قراءة إحدى مخطوطاتها أنها «ستكتب ذات يوم شيئاً جيداً، مدهشاً»؛ واتفقا على منهاج - في الصباح يجلس كل منهما في غرفته في المنزل المشترك ليكتب خمسمئة كلمة. عند إكمالهما الكتابة يكونان أحراراً من أي قيد؛ قد يتناولان غداءهما معاً، أو يجوبان ميدان برونزويك ثم يجلسان في ظلال الأشجار ويكتشفان لذةً جديدة أحدهما بصحبة الآخر. كانت فرجينيا كلما رأت مزيداً من ليونارد إزدادت وداً له، ولعل مما سهّل وصالهما غياب ڤانيسا وكلايف مع روجر في إيطاليا. وإنها لميزة أن يحتجبا عن أنظار هؤلاء المتسـائلين. كتبت ڤانيسـا من إيطاليـا تقول: «أرجـو ألا تكوني قلقة كثيراً من مسألة ليونارد. لو كنت مكانك لتركت الأمر يأخذ مجر ه. سيكون الأمر بالتأكيد على ما يرام».

وكـان على ما يـرام. فما أن تـطورت الصلة الحميمة بين الإثنين حتى تـلاشت مخاوف فـرجينيا، وازدادت ثقتهـا، وصـار شعـورها نحـو ليونـارد أكثر يقينـاً. أخيراً، تمكنت في التـاسـع والعشرين من آذار أن تخبره بأنها تحبـه وستتزوجـه. كان هـذا أحكم القرارات التي اتخذتها في حياتها كلها.

الجزء الثاني
السيدة وولف
١٩١٢ ـ ١٩٤١

الفصل الأول
١٩١٢ ـ ١٩١٥

«إن فرجينيا وليونارد مخطوبان. جاءا هذا الصباح لإخباري بذلك، وهما يبدوان سعيدين جداً. جرت الخطوبة قبل بضعة أيام، لكنهما أبقياها سراً إلى أن نعود نحن».

(من رسالة من فانيسا إلى روجر فراي

في ٢ حزيران ١٩١٢)

لم يكن هذا سراً، ولم يفاجىء أصدقاءهما على الإطلاق، فقد كان هؤلاء يتحدثون عن إمكانية مثل هذه الخطوبة منذ أمد طويل. كانت فانيسا ترجو حدوثها بلا ريب، لأنها أدركت أن ليونارد وحده من خطاب فرجينيا هو الذي ستحترمه بصفته رجلاً وبصفته ذكياً معاً. أما أصدقاؤهما فقد كان للزواج بنظرهم ميزة مزدوجة هي إبقاء ليونارد في إنكلترا، في حين يكون لفرجينيا زوج يحبونه. وقد جاءت الأنباء إلى أحد هؤلاء الأصدقاء، وهو ليتون، على شكل بطاقة بريدية تقول :

ها ! ها !

فرجينيا ستيفن

ليونارد وولف

وللمرء أن يفترض أن ليتون قد سُرَّ واستراح معاً.

كان كلايف هو الوحيد الذي تدعو مشاعره إلى الإشفاق. ومع أن شغفه بفرجينيا كان أقل حدةً مما كان عليه قبل سنتين، كما اتخذت خياناته وجهة جديدة، ولكنه لم يزل يشعر، وسيظل يشعر، بأن علاقته بها هي من نوع خاص وبأن له عليها دالة من نوع خاص. كتب لها يقول إنه سيخادع نفسه دائماً ظاناً أنه يقدرها ويحبها على نحوٍ أفضل من زوجها. ويبدو أنها تلقت هذا الكلام بتلطف ؛ لكن المؤسف هو أن مشاعر كلايف نحو فرجينيا كانت مركبةً من الحب ومن الحنق على حدٍ سواء. فإن لم يكن هذا واضحاً لها أصلاً فقد أصبح واضحاً بالتأكيد حين أطلعها أدريان على رسائل من كلايف قال فيها أشياء مُرّةً منفّساً عن إحباطاته. ثارت ثائرة فرجينيا وليونارد، وكان على فانيسا القيام بدور الحكم لإقرار الصلح بين الطرفين وهو دور لا تحسد عليه ولكنها نجحت في النهاية في هذا المسعى. لقد كان ليونارد وفرجينيا

من السعادة بحيث يمكنهما أن يظلا غاضبين أمداً طويلاً، إلى أن تمت المصالحة. ولكنْ، كما قالت فانيسا في ملاحظةٍ لها: «إن الخطوبة تبدو أمراً منهكاً ومحيّراً حتى للمتفرجين».

هكذا وجد ذوو العلاقة الأمر بالتأكيد. كان هناك عدد كبير من الناس يتعيّن على ليونارد أن يلتقيهم: جورج وجيرالد دكوورث، العمة مينا، الخالة ماري، العمة آني، جاك هيلز، نيللي سيسيل. هؤلاء جميعاً ينتسبون إلى الماضي ويمكن تحمّل عدم استحسانهم بالحسنى. ولكن كان هناك آخرون من ذوي الأثر الأكبر؛ لا سيما فيوليت دكنسون. شعرت فرجينيا في وقتٍ ما أنّ رأي فيوليت الحسن بها هو شيء جوهري لسعادتها؛ لكنّ الحال لم تعد على هذا المنوال؛ إنما لم يزل من الضروري إخبار فيوليت لاستحصال مباركتها. كتبت لها فرجينيا على نحوٍ يكاد يكون إدعائياً:

«٣٨ ميدان بروزنزويك

٤ حزيران ١٩١٢

عزيزتي فيوليت

لديّ اعتراف سأبوح لك به. سأتزوج من ليونارد وولف. وهو يهودي لا يملك شروى نقير. وأنا أسعد مما كنا نظنه ممكناً - لكني أصرّ على أن تودّيه أنتِ أيضاً. هل لنا أن نأتي عندك معاً الثلاثاء؟ أم تفضلين أن آتي وحدي؟ كان صديقاً مقرباً من ثوبي، وذهب إلى الهند - عاد في الصيف الأخير حين التقيته، وهو يقيم هنا منذ الشتاء. لقد كنتِ دائماً الإنسان الرائع الذي أحببت منذ كنتُ طفلة، لذا لا أستطيع أن أهضم عدم استحسانك لزوجي. تكلمنا كثيراً عنك. أخبرته أن قوامك يبلغ ٦ أقدام و٨ بوصات، وأنك تحبينني. إن روايتي على وشك الانتهاء. ليونارد يحسب أن كتابتي

هي أحسن ما فيّ. إننا سنعمل بجهدٍ عظيم. هل هذا كلام غير مترابط؟ إن الشيء الذي يجب أن أوضحه هو شعوري العميق بالمودة نحوك. كم من مرةٍ أزعجتك ـ وكم هو كثير ذلك الذي أعطيتني إياه.

عصفورتك الصغيرة»

ولحسن الحظ كان كل من ليونارد وفيوليت على استعدادٍ كافٍ لكي يود أحدهما الآخر، ولو أن زواج فرجينيا ما كان له إلا أن يزيد من الفرقة التي أخذت تصبح واضحة تماماً.

أما ماج فوغان فقد كانت حالتها مختلفة ؛ لم يستطع ليونارد أن يفهم ما الذي دعا فرجينيا إلى الإعجاب بهذه المخلوقة الرهيفة. لكن ماج لم تعد المرأة التي يحسب لها كبير حساب في حياة فرجينيا، وأما زوجها ويل فوغان، الذي لم يوده ليونارد على نحوٍ مكشوف، فلم يعد يحسب له أي حساب. ثم كان هناك شقيقتا فوغان، إيما ومارني ؛ لم يعد اللقاء مع إيما أكثر من شكليات ؛ لكن مارني التي تعمل في لجنة لرعاية الفقراء في هوكستون ما لبثت أن أصبحت ذات تأثير على شاكلتها الخاصة. إن ليونارد، الذي عاد إلى إنكلترا بحسٍ نحو الواجب الاجتماعي، قد أخذ يبدي اهتماماً كبيراً بمجهود مارني حتى أنه عرض المشاركة فيه. قام بزيارات متعددة إلى الجانب الشرقي من العاصمة ؛ إن ما رآه من فقر مدقع هناك، وعدم الجدوى من الأعمال الخيرية التي كرست لها مارني المسكينة حياتها، جعل منه اشتراكياً. ثمة إمرأة أخرى من معارف فرجينيا، وقد التقاها للمرة الأولى، ستوجه مفهومه السياسي المتطور توجيهاً أدق، تلك هي مارغريت لولين ديفيز. كانت هذه ذات طاقة عظيمة وذكاء حاد فكرستهما لتنظيم «الجمعية التعاونية النسوية» وعملت أمينة للسر فيها. كانت فرجينيا قد تعرفت عليها من خلال جانيت كيس، معلمتها في مادة اللغة اليونانية،

وستظل هاتان المرأتان، مارغريت وجانيت، صديقتين وفيتين لها مدى العمر، وقد أثبتتا في سنين لاحقة أنهما من خيرة نصيرات ليونارد في صروف الدهر القادمة.

وكان على فرجينيا ذاتها أن تلتقي عائلة وولف. كانت تلك تجربة مريعة. إن ليونارد نفسه يهوديّ بما فيه الكفاية لكي يبدو لها دخيلاً على نحوٍ مقلق؛ لكنّ يهوديته كانت مكبوحة فيه. كان قد أصبح من أهالي عالم بلومزبيري، ولولاه لما استطاعت أن تظل في ذلك العالم، اللهم إلا إذا تزوجت من ليتون. أما أمّ ليونارد، تلك الأرملة المتحكمة التي تعيش وعائلتها الكبيرة في باتني، فقد بدت أجنبية جداً لفرجينيا. ما من مكان يمكن أن يكون أبعد شيءٍ عن البيت من منزل أم زوجها في المستقبل.

فكيف وجدها آل وولف؟ هل أدركوا أنها حـ سبت أثاثهم أثاثاً تافهاً؟ هل بدت لهم بنتاً متكبرة تظن نفسها أرقى شأناً من أسرة ذلك النجل اللامع؟ أظن أنهم وجدوها كذلك.

لا بد أن فرجينيا كانت تتذكر تلك الزيارة الأولى لأسرة وولف حين كتبت رواية «الليل والنهار» وجاء بطلها رالف دنهام بكاترين هيلبيري لزيارة أسرته في حي هايغيت. ولا أدري هل أن الوضع كان قد أنقذ عند زيارة آل وولف كما أنقذ في الرواية. ويبدو أن فرجينيا حطّت من قدر نفسها في تلك الزيارة.

(«أتأخذين قطعة من هذا الساندويش يا آنسة ستيفن ـ أم أسمّيك فرجينيا؟».

»ماذا؟ ساندويش لحم الخنزير مع الشاي؟».

«هذا ليس من لحم الخنزير، بل من اللحم المقدد. نحن لا نأكل لحوم الخنزير ولا أسماك القواقع في هذا المنزل».

«لا تأكلون القواقع؟ لماذا؟».

«لأن كتابنا المنزل يقول إنها مخلوقات نجسة، والسيد جوزيفر
يقول في الكنيس و و ».
كان الوضع غريباً).

كانت فرجينيا على استعداد للموافقة على أن السيدة وولف ذات صفات عظيمة جداً، لكنها جزعت عند التفكير عما ينتظرها من مناسبات لكي تكتشف فيها تلك الصفات.

كتبت تقول: «إن العمل والحب واليهود في باتني أمور تنهكني»، وكان هذا صحيحاً بالتأكيد. فقد قاما، هي وليونارد، بجولات متعددة، متنوعة، وممتعة جداً: السير على الأقدام، ركوب الخيل، الاستماع إلى الأوبرا، مشاهدة الباليه الروسية، ولكنْ لم تزل روايتها أمامها تنتظر الإنجاز: كانت الرواية دائماً على وشك أن تكتمل. ليس من المستغرب إذن أنها كانت متوعكة أحياناً.

كان مقرراً للزواج أن يجري في ١٢ آب، ثم قدِّم تاريخه ليلائم الزوجين بيل. لذا فإنه جرى يوم السبت ١٠ آب وأجريت شكلياته في دائرة التسجيل في سانت بانكراس (وربما لم تحضر السيدة وولف لهذا السبب). أما فرجينيا فقد بدت لها طريقة الزواج هذه جيدة جداً، بسيطة للغاية، وفورية في إجراءاتها. مع ذلك فإنها إجراءات أعيت المسجل لأنه كان ضعيف البصر، ولأن عاصفةً كانت تهب وتقصف برعدها، ولأنه ارتبك أمام الأسماء حين بدأ شهود العقد بالتوقيع إذ وجدها أسماء غير مألوفة: فرجينيا، والأنكى فانيسا. ثم إن فانيسا قاطعت بطريقتها المبهمة والمتعمدة تلك الإجراءات لأنها كانت تريد أن تغير اسم إبنها الأصغر فتساءلت كيف لها أن تمضي في ذلك؟.

وحضر جورج وجيرالد، وهما يرتديان الملابس الرسمية وكل ما تقتضيه المناسبة من أشياء أخرى، وتناولا إفطار الزفاف الذي أقامه الزوجان بيل في

منزلهما في بلومزبيري. لا بد أنهما امتعضا بعض الشيء من مظهر دونكان غرانت، ذلك المظهر الذي قصد منه أن يحافظ على المراسم الاحتفالية ذاتها التي التزما بها، لكن مظهره لم يحدث أثره المطلوب، بل عمل على تحويل الحديث إلى موضوع افضل السبل في ارتهان الملابس، مما زاد في امتعاضهما. على أن ما كان يرتديه دونكان غرانت لم يكن مما يمكن رهنه؛ ولو كانت مرهونة فما كان بوسع دونكان فك الرهن مطلقاً. كان من الجليّ أن ملابسه كانت مستعارة من آخرين ذوي أحجام مختلفة جداً. أما بقية الضيوف فهم روجر فراي وساكسون سدني - تيرنر والخالة ماري فيشر (تحمل عكازاً) وفردريك إتشلز F . Etchells الذي جاء ملتحياً، رث الملبس، وعلى عينيه نظارات سود ليضفي اللمسة الأخيرة على نشاز المشهد.

ومع أن فرجينيا كانت قد تهيجت من الصباح الباكر لكنها استمتعت بمراسم القران، وبحفلة الإفطار. وعندما انتهى ذلك كله غادرا، هي وليونارد، إلى آشام بروحية عالية. أمضيا الليلة هناك ثم ذهبا للإقامة بضعة أيام في كوانتوكز Quantocks قبل السفر إلى الخارج. كانا يفكران بقضاء شهر العسل في آيسلندة؛ لكنّ الموسم كان متأخراً جداً فاتجها من سومرسيت نحو وجهة تقليدية مألوفة وذهبا إلى أفينيون، وفوكلوز في فرنسا، ومنها إلى إسبانيا.

كان الطعام في برشلونة رديئاً، والحر في مدريد مهلكاً؛ ومضيا إلى توليدو وساراغوزا. كانا يكابدان الحر الشديد متعبين؛ لكنّ الذي أدهشهما هو جمال الريف المقفر. تنقلا يمتطيان البغال ويستقلان القطارات غير المنتظمة في مواقيتها. وقرأت فرجينيا لديستوفسكي وشارلوت يونغ. وذهبا إلى فالانسيا، وكانت فرجينيا تقرأ هناك رواية «الأحمر والأسود» لستندال. من هناك استقلا الباخرة إلى مرسيلية؛ وارتحلا إلى شمال إيطاليا والبندقية فبدت لهما تلك البلاد بعد إسبانيا مكاناً مريحاً ولكنه خامد بالتأكيد. أخيراً

عادا إلى لندن في ٣ تشرين الأول، وقالا إنهما كانا خلال السفرة يتحدثان دون انقطاع وأنهما أصبحا «من البدو الرحّل ومن غير المؤمنين بتعدد الأزواج».

كانا على خطأ في ظنهما بأنهما من البدو الرحّل. فهما لن يسافرا قط مرةً أخرى إلى مثل هذه المسافة البعيدة أو إلى مثل هذه المدة الطويلة ؛ ولكنهما كانا بالتأكيد، بالقياس إلى غالبية أصدقائهما، من غير المؤمنين بتعدد الأزواج. لقد اكتشفا خلال شهرين من التجوال أن شخصيتيهما تتمم إحداهما الأخرى، وأن نزعاتهما متقاربة إلى حدٍ كبير. كان حبهما وإعجابهما المتبادلان يقومان على فهم عميق للصفات الطيبة في كل منهما، ذلك الحب والإعجاب اللذان كانا من القوة بحيث صمدا أمام صروف الأحداث كبيرها وصغيرها، وأمام المنغصات المألوفة للحياة الزوجية، بل أمام أهوال الجنون التي داهمتهما سريعاً. ومما يدل على عمق ودادهما غير المتغير أنه لم يكن يعوّل على ملذات الحب الجسدي العاتية. ولا شك أنهما ظنا حتى قبل زواجهما بأن فرجينيا لن تستجيب جسدياً، لكنهما ربما تعلّلا بأن ليونارد، الذي لم تكن سليقته العاطفية موضع شك على الاطلاق، قد يستطيع إجراء تغييرٍ ما. لكن هناك رسالة كتبتها فرجينيا من ساراغوزا إلى كاكوكس تظهر بوضوح أن ذلك التعلل، إن وجد، لم يكن قائماً على أساس :

> «لماذا يحدث الناس هذه الجعجعة حول الزواج والنكاح؟ لماذا تتغيّر بعض صديقاتنا عند فقدان البكارة؟ لعل عمري الكبير يقلل من الكارثة ؛ لكني أجد بالتأكيد أن ذروة الشهوة مبالغ بها جداً. ولولا أني أريد الحفاظ على روحية طيبة لأن زوجي سريع الغضب لكنت لم أزل عذراء (يجب ألا يرى ليونارد هذه الجملة)».

هكذا تلمّح فرجينيا إلى برودها الجنسي ببساطة المحادثة ويسرها وسريتها. على أن الأمر كان مع ذلك مدعاة إلى القلق عندهما معاً. وحين عادا إلى إنكلترا التمسا نصيحة فانيسا.

«إنهما يبدوان سعيدين جداً، ولكن كلاهما مشغول البال قليلاً كما هو واضح بموضوع برودة العنزة. ولعلي أزعجتها، ولكني ربما أرحته بقولي إني أحسبها لم تفهم قط أو لم تتعاطف قط مع الرغبة الجنسية في الرجال. والظاهر أنها لم تزل لا تحصل على لذةٍ من العملية أبداً الأمر الذي أراه غريباً. لقد كانا تواقين جداً لكي يعرفا متى حصلت عندي قمة الشبق أول مرة. لم أستطع أن أتذكر. هل تتذكرين؟ لكني أتعاطف بلا شك مع مثل هذه الأشياء ولو لم أحصل عليها منذ كنت في الثانية».

إن فانيسا وليونارد وفرجينيا نفسها يميلون كلهم على ما أظن إلى لوم جورج دكوورث على ذلك. كان جورج بالتأكيد هو الذي جعل فرجينيا تشعر بصدود عميق نحو الشهوة؛ ولكنه ربما لم يفعل أكثر من إلهاب جرحٍ أعمق فجعل فرجينيا تتمادى في استعدادها لتفادي فظاظة الجنس حتى استقر فيها ذلك الاستعداد الذي نشأ عن كبتٍ ما عميق ولعله كبت وراثي دفين. وأظن أن العنصر الشهواني في شخصيتها باهت وضعيف. ثمة إمرأتان تعرفانها جيداً وقد قالت إحداهما كما رأينا أنها لم تكن تفهم الرغبة الجنسية في الرجال، وقالت الأخرى - وهي فيتا ساكفيل - ويست Vita Sackville - West - بعد سنين «إنها تكرة الاستئثار وحب التسلط في الرجل. والحقيقة أنها تكره صفة الذكورة».

أما أنا فسأذهب إلى أبعد من هذا وأفترض أنها نظرت إلى الجنس بارتياب أكثر مما نظرت إليه بفزع؛ ثمة سمة مشوشة شفافة كالأثير في

شخصيتها وفي فنها معاً، حتى إذا ألجأتها دواعي الضرورة الأدبية إلى بحث الشهوة نجدها تحيد عن ذلك، أو نجدها تقدم لنا شيئاً بعيداً عن صراعات السرير بعد لهب الشمعة عن شمعها.

لكنّ فرجينيا وإن كانت باردة جنسياً إلا أنها تبدو في نواحٍ أخرى كأنها المرأة التي تراودها آمال العروس الطبيعية ومخاوفها. فقد كتبت بعد أسبوع من عودتها إلى لندن :

«٣٨ ميدان برونزويك

١١ تشرين الأول ١٩١٢

عزيزتي فيوليت

حين ذهبت البارحة إلى غرفة جلوس العزاب اكتشفت مهداً فيها، مهداً يليق بابن غير شرعي لامبراطورة. ما أن ذكرت ملاحظتي هذه حتى قاموا بإهداء المهد إليّ. فاحمر وجهي خجلاً ونفيت عني أية نية في الحمل إلخ. لكنني من خجلي صدمت المنضدة بساعدي. قلت بعجب : يا لها من منضدة جميلة ؛ ظناً مني أنني سأحرف المحادثة بعيداً عن بكارتي الزائلة وعن الثمار المحتملة لذلك. لكنهم قاموا بإهداء المنضدة كذلك إليّ. وشيئاً فشيئاً أدركت ما جرى وتألفت المسألة في ذهني ـ كيف أن طرداً قد وصل، كيف أن الآنسة دكنسون هي التي كانت وراءها. ما من أحدٍ بالطبع يستطيع إلا الآنسة دكنسون مواجهة حقائق الحياة بمثل هذه الجرأة. وما من أحد آخر غيرها يمكنه أن يقلب الدكاكين القديمة عاليها سافلها بحثاً عن هذه الحاجة. إن طفلي سينام في المهد. وأنا سأتناول عشائي هذه الليلة على هذه المنضدة».

كانت فرجينيا في ذلك الوقت تتوقع أن تنجب أطفالاً بروح جذلة.

وكان ليونارد يحس أصلاً بهواجس معينة لكني لا أظن أن فرجينيا قد أدركت حقيقة أمرها حتى بدية سنة ١٩١٣. كان الزوجان قد انتقلا من منزلهما في ميدان برونزويك، فحل فيه جفري، شقيق مينارد كينز. وجد الزوجان شقة لهما على مقربة من شارع فليت فأبعدهما ذلك عن بلومزبيري، وكان لهذا الابتعاد ميزة مزدوجة تتمثل بتفرقهما لصحبتهما المشتركة وبتوفير مزيد من الوقت لهما للعمل.

وكان هناك من العمل الذي يجب إنجازه ما هو كثير. فقد قبل ليونارد بعد عودته وظيفة غير متفرغة في صالة للعرض هي صالة غرافتون وتمتد وظيفته إلى نهاية السنة. كان من واجب ليونارد أن يتعامل مع الزائرين من عشاق الفن الذين يتفجرون إعجاباً أو سخطاً أمام لوحات بيكاسو وماتيس. لا بد أنها كانت وظيفة تثير الحنق في النفس ويضيق بها الصدر. انزعجبت فرجينيا نيابةً عن ليونارد، وانزعجت كذلك لأنها تضيق ذرعاً بفن الرسم. صرخت تقول إن الفنانين «هم جنس بغيض. أما الانفعال العاتي الذي يبديه هؤلاء عند انكبابهم على لوحاتهم يلونونها بالأخضر والأزرق فهو أمر كريه». وأظنها استنكرت أن يوظف ليونارد خدمته في «فنٍ أدنى». كانت تدرك في ذلك الوقت أنه قد يتفوق في شكل آخر أكثر جديةً من أشكال الفن : الرواية. كانت روايته «قرية الغاب» قد اكتملت قبل زواجهما. ولا نعرف متى قرأتها فرجينيا (كانت الرواية قد قبلت للنشر من دار أدوارد أرنولد في تشرين الثاني) ؛ ولكنها حين اطلعت عليها أعجبت بها كثيراً. والواقع أن كليهما اعتزم أن يعيش على الكتابة. وقد راودتهما فكرة إصدار مجلة، لكن هذه الفكرة كغيرها من الأفكار المماثلة تحتاج إلى مال، وقد ظنا أن بوسعهما جمع مبلغ ألفي باون استرليني لهذا المشروع فخاب ظنهما في ذلك. هذا وكان ليونارد قد قرر يقيناً أن عليه أن ينشط سياسياً، فكان في بداية سنة ١٩١٣ يتولى تثقيف نفسه سياسياً بجهدٍ بالغ. ما إن انتهت وظيفته في صالة العرض حتى أخذ يبحث عن وظيفة أخرى مماثلة.

وظل عمل فرجينيا الخاص يسبب كثيراً من المصاعب الهائلة. وصفها زوجها بأنها تكتب «بضرب من الحرص يورث العذاب» خلال شهري كانون الثاني وشباط، حين كانت رواية «رحلة الخروج» قد أوشكت على الانتهاء. لقد كان قلقاً أصلاً بشأن صحتها عند عودتهما من شهر العسل. إنها بحاجة إلى الراحة والهدوء، ومن الواضح أن هناك فرصة أكبر للراحة والهدوء في الريف. ذهبا إلى آشام لقضاء عطلة عيد الميلاد، وبحثا في إمكانية العيش هناك معاً وشراء الخيل والبقر والدجاج والخنازير. لم تسفر هذه الخطط عن شيءسوى قليل من البستنة الشاقة ؛ كان لدى هذين الزوجين، وسيكون لديهما دائماً، الكثير جداً من الاهتمامات التي تجتذبهم إلى لندن.

> في كانون الثاني انضمت إليهما فانيسا في آشام، وقد جاءت متوعكة :
>
> «كانت فرجينيا لطيفة جداً نحوي. وكانت طيبة للغاية حين رأتني مكتئبة البارحة ـ فبدّلت نفسيتي كثيراً. لا أدري هل أنني أضحك منها كثيراً في بعض الأحيان؟ لا أظن أن ذلك يهم، لكنني أحياناً أندهش حقاً لما تتمتع به من الصفات الرائعة. إنها تستطيع إذا أرادت أن تشعر المرء بإحساس استثنائي بعظمة وجهة نظره. وأظنها تتمتع بشجاعة وكمال عقل بشأن الحياة. لم أكن أراها في المدة الأخيرة إلا قليلاً ولكني أدرك الآن مميزاتها».

ومع ذلك، وفي الوقت الذي كانت فانيسا تكتب عن «كمال عقل فرجينيا بشأن الحياة» كان ليونارد يذكر في يومياته بقلق الحالات المتبدلة عن صحتها ؛ وفي ظني لم تكن فرجينيا مخطئة كلياً في ما قالت وفي أن ثمة نوعاً من كمال العقل يحف بفرجينيا ولكن هذه كانت بالتأكيد صفة يمكن أن تزاح بقوى باطنة أخرى وقد أخذت هذه القوى تشتد مع تقدم السنة.

في نهاية كانون الثاني كانت الأختان تبحثان هل يتعين على فرجينيا أن تنجب أطفالاً؟ تحدث ليونارد مع الدكتور سافيج (وهو الآن سير جورج) فأفصح هذا بطريقته الاندفاعية عن رأي يفيد بأن الانجاب سينفعها نفعاً عظيماً ؛ لكن ليونارد لا يثق برأي سير جورج ؛ استشار أطباء آخرين منهم جان توماس الذي يدير داراً للتمريض ويعرف فرجينيا جيداً ؛ واختلفت آراء الأطباء، فقرر ليونارد في النهاية أنه وإن كان كلاهما يريد أطفالاً لكن ذلك سيعرض فرجينيا إلى خطر جسيم، فأقنعها بالموافقة على عدم الإنجاب، أظن أن ليونارد كان مصيباً في هذا، إذ ان من الصعب علينا أن نتخيل فرجينيا أماً. لكن هذا الوضع سيؤول إلى مصدر دائم للحزن. لم تستطع فرجينيا قط في السنين اللاحقة أن تفكر بفانيسا التي أثمرت ما أثمرته دون الشعور بالتعاسة والحسد.

لعل المقارنة بينها وبين فانيسا كان من شأنها أن توتر علاقتهما أحياناً وهي علاقة كانت في أغلب الأحايين الأخرى سعيدة جداً إذ لم يعد هناك مجال لتدميرها من قبل كلايف. كان هناك مناوشات أخوية بين الشقيقتين في ربيع ١٩١٣. لم ينسجم أدريان وليونارد فكانت فانيسا تأخذ جانب أدريان. كما أن مشاعر الغيرة التي آذت فرجينيا كثيراً حين تزوجت أختها ربما أرجعت صدى في نفس هذه الأخت حين وجدت فرجينيا زوجاً لها. لم يكن بوسع أي من الأختين حقاً أن تتصور أحداً من الناس كفواً لأي منهما. أبدت فانيسا ذات مرة ملاحظة تقول «بودي لو أن وولف لا يزعجني هكذا»، وربما كان ليونارد سيقول الملاحظة ذاتها عنها. كان كلاهما ذا شخصية قوية ؛ ولم يكن أحدهما ليقتنع بسهولة بأن الآخر قد يكون مخطئاً. أما إذا نشب خلاف في الرأي بين فانيسا وليونارد فإن فرجينيا هي إلى جانب رأي زوجها دائماً. إن زواجهما قد جعل من فرجينيا طرفاً في حلف كما اكتشفت أختها. كان ليونارد ذا وضع أخلاقي وثقافي خاص به تقبلته فانيسا، وكانت تتعاطف كلياً مع جدية كيمبردج السامية التي

حافظ عليها ليونارد في المناخ القفر للمنفى الشرقي حفاظاً عبقاً، وهي الجدية التي فقد الآخرون كثيراً منها في جو لندن الأكثر نعومة والأشد إفساداً ـ لندن كلايف وليتون والليدي أوتولين ومينارد كينز. كان الفارق بينه وبينهم فارقاً بسيطاً. لقد تقبل ليونارد روحية أصدقائه المتشككة غير التقديسية، لكنه لم يتقبل تماماً تفاهتهم واهتمامهم بالملذات. فهو بعد أن أنجز روايته الأولى «قرية الغاب» أقبل يعمل على رواية سماها «العذارى الحكيمات» The Wise Virgins[1]. والقصة هي قصة شاب (ليونارد نفسه) تتأرجح مشاعره بين فتاتين، من ذوات الخلفية الاجتماعية المتباينة جداً، إحداهما تنتمي ـ على وجه التقريب ـ إلى محيط أسرة وولف في باتني، والأخرى هي فرجينيا تقريباً. هذه الفتاة الأخيرة توصف بعناية، مع صور قلمية يسهل التعرف عليها لفانيسا وكلايف. ويأتي البطل بأفكار بلومزبيري إلى فتاة باتني فيغيِّر الفتاة من حيث لا يدري فتحمل منه سفاحاً فيضطر أن يتزوج منها دون أن يشعر نحوها بالمودة وهو في حقيقة أمره مغرم بالفتاة الأخرى الشبيهة بفرجينيا. كتب ليونارد إلى ناشره يقول إن «المغزى الأخلاقي بأسره للكتاب هو أن بطله يعيش في وسطٍ لأشخاص متمدنين على نحو غير طبيعي فهو مثلهم يفرط في عادة الكلام الجامح المبالغ فيه والذي يظن أنه يعتقد به». إن أثر مثل هذا الكلام مدمر للجميع.

---

(١) «العذارى الحكيمات رقصة كلمات وآراء وبضع عواطف»، ١٩١٤. ظهرت كما يقول ليونارد في بداية الحرب وكانت من أولى ضحاياها. استهجنت فانيسا الشبه بين شخصيات الرواية وبين أصدقاء ليونارد (من رسالة لها إليه في ١٤ / ١١ / ١٩١٤) ويبدو أن مورغان فورستر شعر بمآخذ مشابهة (من رسالة له إليه في ٧ / ١١ / ١٩١٤). أما فرجينيا فقد كتبت في يوميتها المؤرخة ٣١ كانون الثاني ١٩١٥ تقول: «. . . إنه كتاب رائع: رديء جداً في بعض الأقسام؛ وممتاز جداً في أقسام أخرى. كتاب لا يكتبه إلا كاتب كما أظن لأن الكاتب وحده يستطيع أن يدرك لماذا تكون الأقسام الجيدة جيدة جداً ولماذا لا تكون الأقسام الرديئة جداً رديئة جداً. . . وإني أحب الجانب الشاعري في ليونارد. . .» (من «يوميات كاتبة» المنشورة في سنة ١٩٥٣.

وواضح أن الرواية لا تمثل آراء ليونارد المدروسة، الحقيقية، عن أناس هم على أية حال من أقرب أصدقائه إليه ؛ لكنها آراء تعكس بدقة نفسيته كما كانت عليه في سنة ١٩١٣، وضيق صدره تجاه الشرثرة الجارية في بلومزبيري، كما تعكس قبل أي شيء آخر موقفه نحو كلايف.

كان ليونارد بطبيعة الحال على علم تام بمغازلات فرجينيا الطويلة الأمد مع كلايف. إنه وإن لم يكن يقف في السنين اللاحقة موقف المدافع عن دورها في ذلك، ولكنه كان في السنين السابقة، أيام حبه وضيق صدره، يجد من الصعب عليه أن يلومها ومن السهل أن يتسقط الخطأ في عديله. حين غادر إلى سيلان كان قد ترك كلايف في وضع هامشي على تخوم كيمبردج الثقافية ؛ وعاد ليجده شخصية مركزية في بلومزبيري ؛ فكان ليونارد يعتبر بمثابة الوافد الجديد غير المرغوب فيه. أدرك ليونارد أن كلايف لم يكن يخلو من الاهتمامات، وأنه شديد الانشغال على العموم بزينة الحياة الاجتماعية وبتوافه الأمور في غرور الدنيا وأبهتها ؛ وقد شعر شأنه شأن فرجينيا بأن كلايف لم يكن كفواً لفانيسا. ولعله كان يدرك أيضاً أن كلايف نفسه يشعر بأن ليونارد لم يكن كفواً لفرجينيا. إن ليونارد بنظر كلايف هو عبارة عن رجل قروي وعذري، وعدو لكل ما هو فاتن يثير البهجة في الحياة. فضلاً عن أن تأثيره على فرجينيا هو تأثير مدمر. وصرح كلايف يقول إن فرجينيا أخذت تفقد حسنها، وتبتعد عن أصدقائها القدامى كما صارت تجر إلى حلبة السياسة المقفرة. لم يعترض على صيرورتها اشتراكية ـ فهو في ذلك الوقت لم يكن بعيداً عن كونه إشتراكياً شخصياً ؛ لكنه لم يكن يحب للمرأة الحسناء إلا أن تكون فاتنة. لقد أزعجه أن يرى فرجينيا تجر إلى غرف اللجان وصالات التعاونيات، مرتديةً ملابس «معقولة» ومنتعلة حذاءً غليظاً. ولعله اعترض بأنها لا تتوفر فيها لا القدرة ولا الجلد على مثل هذا العمل، وهو اعتراض ينم عن إدراك حسن.

وقد ذهبت فرجينيا فعلاً بصحبة ليونارد في أول جولاته السياسية الاستقصائية، وإن كانت أقرت أن المعضلات الاقتصادية هي فوق مستواها، وقد تجولا مدة عشرة أيام في آذار ١٩١٣ في منطقة الشمال الصناعية وزارا لفربول ومانشستر وليدز ويورك وكارليل وليستر. لم تؤذها هذه الرحلة المضنية، على قدر ما أعرف. ثمة سفرة سياسية أخرى في وقت متأخر من السنة قد صحبها تدهور مفاجىء في صحتها، إنما يمكن أن يكون لذلك سبب آخر.

في آذار انتهت أخيراً رواية «رحلة الخروج». قرأها ليونارد بأكملها، وفي ٩ آذار وقبل البدء برحلتهم الشمالية، أخذ المخطوطة إلى جيرالد دكوورث، وهو أخو فرجينيا غير الشقيق ويملك داراً للنشر خاصاً به. كتبت فرجينيا إلى فيوليت دكنسون تقول «أتوقع أن ترفض الرواية، ولعل ذلك لن يكون شيئاً رديئاً على العموم». على أن «القارىء» لدى تلك الدار، وهو إدوارد غارنيت Edward Garnett قدم تقريراً جيداً عن الرواية، وفي صباح ١٢ نيسان ذهبت الكاتبة بنفسها إلى شارع هنريتا لمقابلة جيرالد فعبّر لها عن سعادته بنشر روايتها.

ومن الإنصاف أن نفترض أنها شعرت بهواجس مزعجة على الفور. إن من يحاول خلق عملٍ من أعمال الفن يمكنه أن يعرف ما شعرت به الكاتبة آنئذٍ. فالكتاب ما هو إلا جزء من كاتبه، وإذا قدمه إلى الجمهور أحس كأنه يدفع بفلذة كبده في زحام المرور. ولئن قتل أو أوذي فالجرح إذن هو جرح صاحب العمل نفسه، أما إذا كان الوليد هو الوليد الأول، ونتاج سبع سنين من الحمل العقلي، أو كان عملاً مرتبكاً، غير منيع من التجريح، وكان بحاجة إلى العناية الرقيقة والتفهم الحنون مما لا يقدمه أي ناقد أبداً، أصبح القلق على مصير هذا المخلوق حاداً.

وكانت فرجينيا تعرف سلفاً إلى أين تقودها هذه الهواجس المقلقة. كانت

تعرف أنها يجب أن تتحلى بالإدراك الحسن وأن تمارس ضبط النفس إذا أريد للأهوال التي عانتها في ١٨٩٥ و ١٩٠٤ و ١٩١٠ ألا تتكرر. ولكن كيف للمرء أن يتعلم حسن الإدراك؟ كيف له في توقه إلى النوم أن يأمر المخ بالهجوع ويفقدان الشعور؟ لقد خبر معظم الناس امتناع النوم عليهم. إن شيئاً بسيطاً، كهفوة اجتماعية أو مقابلة غير لطيفة، يمكنه أن يبقي المرء مستيقظاً طوال الليل. فالأمر الذي يأمر المرء نفسه بأن ينساه يعود مرةً بعد أخرى إلى العقل الذي لا ينشغل في مرحلة ما سوى بطرد الشيء التافه غير المرغوب فيه، لكنه في مرحلة أخرى تالية يصرّ على إعادة إثارته مرة بعد أخرى حتى تصبح الروح في حرب مع ذاتها، ويصرّ الجسد التعيس خلال توسله بالنسيان على ألا سكينة حتى يأتي الإنهاك أخيراً بهدنة قصيرة أو تدير الساعة العقل نحو شواغل النهار. لكن فرجينيا لم تكن معذبة بأمرٍ تافه ؛ إن لياليها المتأرقة تتصرم في التساؤل هل أن فنها، ومعنى حياتها وغرض وجودها، ما هو إلا خطلٌ في خطل؟ وهل أن هذا المعنى وذلك الغرض سيؤولان إلى التمزيق إرباً بإطلاق ضحكة استهزاء قاسية؟.

بعد ليالٍ كهذه يأتي النهار بصداع ينخر في قفا الرأس كأنه ضرس منخوب ؛ ثم تحل ليالٍ أدهى ليلاء تزيد من وقر القلق والكآبة، «تلك الليالي اللانهائية التي لا تنتهي في الثانية عشرة بل تمضي فتدلف في الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وهكذا إلى أن تصل إلى العشرينات، ثم الثلاثينات، ثم الأربعينات. . . وليس ثمة ما يحول بين الليالي وبين هذا، إن اختارت ذلك الليالي»[1].

(١) من رواية «رحلة الخروج» ص ٤٠٣ أحاول هنا وفي مقاطع لاحقة أن أصف جنون فرجينيا من وجهة نظرها هي ؛ تبدو مثل هذه المحاولة ضرورية إذا أراد المرء كتابة سيرتها، ولكن لا بد أن تكون المسألة كما هو واضح مسألة تصور وتخمين بصورة واسعة جداً. استخدمت في محاولتي رواية «رحلة الخروج» ورواية «السيدة دالاواي»، وكذلك وصف ليونارد وولف لأعراضها في كتابه «البدء من جديد Beginning Again».

إن شيئاً من هذا القبيل يختفي على ما أفترض في طيات السجل اليومي الرمـزي لحـالة فـرجينيـا في يوميـات ليـونارد لسنة ١٩١٣ : ف . ب، ص. ض، ل. ج، ل. ج. ن. ، ل. س. ، إلخ، أي : فرجينيا بخير، صداع ضعيف، ليلة جيدة، ليلة جيدة نوعاً ما، ليلة سيئة. ومن الواضح أنه كان قلقاً على نحوٍ متزايد. لقد كان من الحصانة بحيث بقيا في آشام في شهري نيسان وأيار، لكنهما ذهبا إلى لندن للاستماع إلى موسيقى فاغنر في العمل الطويل The Ring على مسرح كوفينت غاردن، فأقسمت فرجينيا بعدئذ ألا تكرر ذلك أبداً : «عشيت عيني، وصمّت أذني، وصار مخي كعجينة خميرة الورق ـ آه من الضوضاء والحرارة والعاطفية الصارخة التي كانت فيما مضى تجرفني معها والآن تتركني جثة هامدة». ولكنْ ما ان كانا في لندن حتى غدت الضغوط الاجتماعية لا تقاوم : زيارات من الأصدقاء، العشاء في الخارج، حضور الحفلات الموسيقية والباليه والمسارح. أقفلا عائدين إلى آشام ثم أغوتهم لندن بالعودة مرة أخرى. انضم إليهما في آشام، في أواخر حزيران وأوائل تموز، عدد من الأصدقاء وشاركوا في لذاذاتهما الريفية : ركوب الخيل، السير على الأقدام، الحديث والبستنة. وفي كل يوم يدون ليونارد حالة زوجته : حالة حسنة، ليلة متوسطة، ليلة جيدة، ليلة جيدة نوعاً ما، في ١ تموز سقطت فرجينيا عن جوادها الذي جفل فأعيدت إلى البيت مساءً. في ٧ تموز كانا في لندن مرة أخرى، يذهبان إلى سهرات الليدي أوتولين، إلى بلومزبيري، إلى الباليه الروسية، إلى أوبرا دون جيوفاني. عادا إلى آشام وقد أمسى ليونارد هالعاً ؛ إن صداعات فرجينيا وأرقها وكآبتها وشعورها بالذنب ونفورها من الطعام، كل هذا تزايد إلى درجة مرعبة، كما أن الرجل أخذ يدرك أن خطر انتحارها قاب قوسين أو أدنى.

كان ليونارد، الذي أغري بالانضمام إلى سدني وبياتريس ويب، مرتبطاً بإلقاء خطاب في مؤتمر الجمعية الفابية المنعقد في بلدة كزيك في ٢٢ تموز.

أصرت فرجينيا أن تذهب معه قائلةً إنها لا تشكو من شيء على الاطلاق ؛ ولكنْ حين وصلا إلى الفندق هناك لم تتمكن من مغادرة سريرها. عاد بها ليونارد إلى لندن في الرابع والعشرين من الشهر ذاته، وبما أنه اقتنع بأنها كانت على شفا الكارثة فقد استشار الأخصائي المطلع على تاريخ مرضها كله، ألا وهو سير جورج سافيج. كتبت فانيسا إلى روجر فراي تقول :

«. . . سافيج يرى أن فرجينيا بحالة سيئة. . . قال إن الأمر ما هو إلا الشيء المعتاد وأنها ستشفى، ولكنْ يجب أن تستريح في مصح. وهكذا ذهبتْ عصر البارحة إلى جين توماس في تويكنهام. أخشى أن المسألة هي في غاية التعاسة. . . أرجو أن تكون حذراً جداً وألا تقول أية كلمة لأي أحد بشأن قلقها عما سيظنه بروايتها، الأمر الذي يبدو حقاً أنه هو السبب الأول والأخير لانهيارها. لم أقل لدونكان سوى أنها قلقة بشأن مسودات المطبعة، وبدا لي ذلك أسهل ما أستطيع قوله، وأن الإقامة في آشام لم تكن ناجعة. وأحسب أنها في حالة تثير أعصابها كلما فكرت بنفسها وبما هي عليه. يا إلهي، أنا نفسي لا يمكنني إلا أن أقلق، وذلك حين أفكر بأنه كان عليّ أن أفعل المزيد، إنما لا يستطيع المرء أن يفعل كثيراً مع المتزوجين على أية حال».

كان بوسع سافيج أن يدرك، كما أدرك ليونارد، أن فرجينيا مريضة جداً حقاً، لكني أشك إن كان قد تفهّم أسباب مرضها أو تفهّم علاجها أكثر مما تفهمه ليونارد. فالأمر بالنسبة إليه ما هو إلا الشيء المعتاد ذاته فوصف العلاج نفسه. إن قضاء بضعة أسابيع في السرير، في دار التمريض لجين توماس في تويكنهام، كان قد شافاها في ١٩١٠ ؛ بدا له أن أفضل الوسائل هو تكرار هذه المعالجة على الرغم من احتجاجاتها في معارضة ذلك. وبما

أن الاستراحة في تلك المناسبة السابقة كانت قد عزّزت بقضاء إجازة في كورنوول فقد وعد سافيج بأنها إن فعلت الآن ما يأمرها به فلها أن تذهب بعد ذلك مع ليونارد إلى سومرسيت لقضاء الإجازة التي كانا قد خططا لها أصلاً.

وإذ ننظر إلى الماضي نجد أن كلتا التوصيتين تبدو مدمرة. فعلاج الاستراحة أثبت أنه أسوأ من العدم ؛ لقد فصل فرجينيا عن الشخص الوحيد الذي يستطيع الآن مساعدتها ؛ وقضاء العطلة في سومرسيت جعل من الأصعب كبح حافز الانتحار فيها، وقد قوته عزلتها في تويكنهام.

مع هذا فحين ننظر إلى الوضع الآن لا يسعنا إلا أن نتساءل هل كان هناك علاج أفضل - آنئذٍ على أية حال؟ إن الأطباء لا يستطيعون سوى التخفيف من أعراض الاضطراب الذي يصيب فرجينيا بوصفات الاستراحة والغذاء، والملح الطبي، والنبيذ الساخن المحلّى لتناوله ليلاً. فهذا الاضطراب شيء لا يكادون يفقهون من أمره إلا القليل الذي كان يعرفه أجداد أجدادهم : المرض تحت السيطرة، وسيضرب ضربته حين تحين ساعته.

ذهبت فرجينيا إلى تويكنهام في ٢٥ تموز وظلت هناك حتى ١١ آب. وقد تخلفت لدينا من تلك المرحلة بضع قصاصات تعيسة مكتوبة بقلم الرصاص بيد مرتعشة، أرسلت إلى ليونارد ؛ قصاصات كأنها مرسلة من طفل أبعده والداه إلى مدرسةٍ ما قاسية، فهي حافلة بالتذمر، وبالشكوى من أن كل شيء بارد وغير حقيقي. إن فرجينيا تنفجر انفجار الأطفال ضد الزوج الذي أودعها في هذا المكان الفظيع. لكنها بعد أن ترى وجهه المضنى والمنقبض تعود فيستولي عليها الشعور بالذنب وتسيطر عليها التعاسة. غير أنهما كانا، المرة تلو لمرة، يعبران عن الأمل، أحدهما إلى الآخر، بأن العلاج سينفع بصورة من الصور، وبأنهما سيتمكنان في ما بعد من خلق حياة سعيدة معاً على نحوٍ ما.

لكن هذا العلاج لم ينفع هذه المرة، ولو أنها حاولت أن تظن عكس ذلك. تركت تويكنهام مهزوزةً، يائسة، ومكرهة، حتى أمسى الإغراء بإنهاء الأمر كله بالانتحار إغراءً حاداً. عادا إلى آشام، وخلال الأيام العشرة التي بقياها هناك أدخل ليونارد في سجل المختصرات الخاصة بصحة فرجينيا اليومية مصطلحين جديدين : القلق ـ «فرجينيا قلقة جداً»، «فرجينيا أقل قلقاً»، ـ والمرح، وهي الكلمة التي لم تظهر إلا نادراً بين الظواهر المقلقة والليالي الحسنة والسيئة ـ ليالٍ كان عليه أن يعطيها فيها حبوب «فيرونال» المنومة لتغالب الأرق. وابتداءً من ٢٠ آب بدأ يدون يومياته بالشيفرة ؛ فقد اخترع رموزاً تتألف من مزيج من حروف اللغتين السنهالية والتاميلية، وهي رموز كان قد استعملها في بعض المناسبات قبل زواجه حين أراد التزام الحيطة والحذر (لا لأنه أراد أن يخفي شيئاً فاضحاً) ؛ على أنه يستعملها الآن بانتظام لتدوين حالة فرجينيا.

في صباح ٢٢ آب عاد الزوجان إلى لندن وقضيا ليلتهما مع فانيسا في منزلها. أمسى ليونارد الآن فزعاً من إمكانية استصحاب فرجينيا بمفردها إلى سومرسيت، وعبّر عن مخاوفه للدكتور سافيج. لكن هذا هوّن من شأن تلك المخاوف مستخفاً بها، وأصرّ على ضرورة المحافظة على الوعد الذي قطع كمكافأة ؛ إن النكث بالوعد سيكون مدمراً في الوجهة النفسانية. في هذه الأثناء كانت فرجينيا تقيم مع فانيسا. كتبت هذه تخبر كلايف «بأن فرجينيا تبدو لي بحالة سيئة جداً. إنها تقلق باستمرار، وما أن يتم التخلص من قلقٍ ما حتى يحل محله قلق آخر في بضع دقائق. ثم أن لديها بالتأكيد أوهاماً عن الناس». وقد تمكن ليونارد، بعد محادثته مع سافيج، أن يتدارس الأمر مع فانيسا، وكذلك مع روجر فراي، وهو نفسه من رجال العلم وزوج إمرأة مجنونة، فتمكن هذا أن يقترح بديلاً للدكتور سافيج بعد أن فقد ليونارد ثقته به كلياً. إن الدكتور هنري هيد H . Head، وهو عالم مرموق ومن رجال الثقافة (فقد ترجم هاينه Heine الشاعر الألماني)،

يصلح طبيباً لاستشارته. ذهب ليونارد إليه فوراً. لم يكن هناك ما يستطيع هيد فعله في هذه المرحلة. كان لزاماً عليه أن يتفق مع سافيج بأن العطلة الموعودة يجب القيام بها، لعلها توفر الشفاء. وإلا يجب على ليونارد، إذا ساءت حالة زوجته، أن يطلب العون، أما إذا تفاقمت حالتها فيجب عليهما الرجوع إلى لندن.

كان تسلسل الأحداث على النحو الآتي : ففي ٢٣ آب استقل ليونارد وفرجينيا القطار إلى بريدج ووتر من هناك بالسيارة إلى نزلٍ في هولفورد في تلال كوانتوك حيث أقاما بعد زواجهما مباشرة. المكان رائع، هادىء، وأظهر المقيمون على شؤون النزل أقصى الاهتمام بالنزيلين القلقين ؛ لكنّ فرجينيا كانت الآن غافلة عن مثل هذه الاهتمامات. وتنبىء يوميات ليونارد بتغيّر في النفسية ؛ صباحات سيئة وأمسيات جيدة، أوهام خادعة في النهار وليالٍ هادئة، ليالٍ سيئة ونهارات مرحة ؛ لكن القلق والأوهام الخادعة والجدل عن الطعام والحاجة إلى الحبوب المنومة تزايدت جميعاً، وفي ١ أيلول أبرق ليونارد إلى كاكوكس يطلب حضورها. ووصلت تلك المرأة الودود، الحصيفة، والمتلطفة، إلى هولفورد في ٢ أيلول واستطاعت تخفيف العبء عنه.

لكن الضغوط على فرجينيا لم تتراخ : فهي تظن أن الناس يضحكون منها ؛ وأنها سبب المشاكل للجميع ؛ وشعرت بإحساس بالذنب يأخذ عليها أمرها وأنه ذنب يجب أن تعاقب عليه. وأيقنت أن جسدها خبيث بشكلٍ ما، الفم القذر والمعدة القذرة يطلبان الطعام ـ المادة المقرفة التي يجب أن تُتبرَّز بعدئذٍ على نحوٍ مقرف ؛ فالطريقة الوحيدة إذن هي رفض الأكل. إن الأشياء المادية تتخذ عندها مخائل شريرة لا يمكن التنبؤ بها، مخائل وحشية ومخيفة، أو تتخذ الأشياء أحياناً جمالاً رهيباً.

ومع هذا فالحياة الاعتيادية تمضي في سبيلها ولو على نحوٍ أغبش،

كالأشياء التي تُرى من خلال زجاج النافذة الملوث. كان من أهوال جنون فرجينيا أنها كانت على درجة من امتلاك العقل بحيث تتعرف على جنونها ذاته، تماماً كالمرء الذي يعرف أنه يحلم، وذلك قبيل الاستيقاظ. لكنها لم تستطع أن تستيقظ.

وأخيراً صمم ليونارد على العودة لمراجعة طبيب. غمغمت فرجينيا متمنعةً في الابتداء فهي تخشى الذهاب كثيراً، لكنها بعد حين أدهشت زوجها فاقترحت أن تراجع الدكتور هيد، الأمر الذي كان يريده في قرارة نفسه. إنها لم تكن حاضرة عند الحديث عن ذلك الطبيب، لكنها تأثرت بلا ريب كما تأثر معظمهم بكلام روجر فراي. وهكذا ففي عصر الثامن من أيلول سافروا بصحبة «كا» عائدين إلى لندن ؛ كانت حالة فرجينيا على نحوٍ جعل زوجها يتوقع أن تلقي بنفسها من القطار في أية لحظة. على أنهم وصلوا إلى وجهتهم وقضوا الليلة في شقة أدريان. ذهب الزوجان صباح اليوم التالي إلى الدكتور موريس رايت، وكان ليونارد قد استشاره أكثر من مرة بمبادرة شخصية منه فهو يثق به كثيراً. قال هذا الطبيب لفرجينيا إنها يجب أن تتقبل حقيقة مرضها. وكرر الدكتور هيد هذا الرأي بعد ظهر ذلك اليوم قائلاً إنها ستشفى تماماً مرة أخرى إذا أخذت بالنصيحة ودخلت دار التمريض.

كانت فرجينيا صامتة، فهي تعتقد أنها على ما يرام وأن قلقها وأرقها إنما يعودان ببساطة إلى عيوب فيها، وهي عيوب ينبغي لها أن تتغلب عليها دون معونة طبية. عادا إلى منزل أدريان ؛ وجاءت فانيسا وتناولت الشاي معهما. بدت فرجينيا أكثر مرحاً، واستلقت في الحال لتستريح. عندئذٍ ذهب ليونارد مع فانيسا إلى سير جورج سافيج ليعتذر له لأنه أساء التصرف نحوه باستشارة الدكتور هيد دون علمه. كان ليونارد هناك حين هاتفته «كا» عند الساعة السادسة والنصف فأخبرته بأنها وجدت فرجينيا في سريرها

فاقدة الوعي.

هرع إلى سيارة أجرة وما أن وصل المنزل حتى أدرك ما حدث. عثرت فرجينيا على الحقيبة التي يحفظ فيها الأدوية. وجدها مفتوحة. إنها قد تناولت مئة حبة صغيرة منوِّمة من الفيرونال ـ وهي جرعة قاتلة.

أرسلوا بطلب الدكتور هيد والممرضات وفانيسا، ووقفت «كا» إلى جانب المريضة على الدوام. كان يقيم في الطابق الأعلى جفري، شقيق مينارد كينز الأصغر، وهو جراح مقيم في مستشفى سانت بارثولوميو. اصطحب ليونارد وساق به بسرعة قصوى خلال الزحام في شوارع لندن وهو يصرخ: «مستعجل! طبيب!» وجاء بمضخة لغسل المعدة من مستشفاه وعاد مسرعاً يسابق المرور. استخرجوا الفيرونال من جوف فرجينيا ثم أخذوا يرقبون حالها طوال الليل. في الساعة الثانية عشرة والنصف ذهب ليونارد إلى الفراش منهكاً ونام. في الساعة الواحدة والنصف أشرفت فرجينيا على الهلاك؛ في السادسةِ صباحاً أيقظت فانيسا ليونارد وأخبرته أن المريضة قد تحسنت قليلاً؛ في التاسعة عاد الدكتور هيد واستطاع أن يقول بعد الفحص أن الخطر قد زال عنها عملياً. ظلت فاقدة الوعي طيلة ذلك النهار[١].

لكن الكابوس لم ينقشع عند عودتها إلى الوعي. كتبت كاكوكس إلى

---

(١) الرواية هي التي حطمتها. لقد أكملتها وجاءتها المسودات للتصحيح. . . لم تستطع النوم وظنت أن الجميع سيهزأون منها. ثم أنهم أخطأوا فأخذوا يمزحون معها بشأن الرواية فغدت يائسة، ووصلت إلى هنا محطمة. إنه أمر يمزق القلب. . . لعلهم سيلومون سير جورج لكنهم في الحقيقة لم يفعلوا قط ما نصح به سوى أنهما تزوجا. والزواج نفعها أكثر من أي شيء آخر إلى أن حصل الانهيار بسبب الرواية ـ ويقول الأطباء لعل هذا كان سيحصل لمثل ذلك العقل الرهيف اللامع بعد الجهد الواقع مهما بذلوا من العناية والحكمة». (من رسالة توماس إلى فيوليت في ١٤ أيلول ١٩١٣). أما ليونارد فيقول إن إحدى صعوبات الموقف هي أن توماس كانت تشعر بعاطفة جنسية شاذة عنيفة لكنها غير واعية نحو فرجينيا كما كانت مخلصة لسافيج؛ إن هذا الوضع جعلها مشاكسة وفي موقفٍ نشاز. (معلومات خاصة قدمها ليونارد وولف).

جانيت كيس تقول «إنها أهدأ بعض الشيء، وتأمل أكثر، لكن الأعراض السيئة مستمرة». ما أن عادت إليها قوتها حتى عادت نزوات الجنون، وكان على ليونارد أن يواجه المسألة الشائكة : هل ينبغي تسجيلها رسمياً كمجنونة وإيداعها في أحد المصحات العقلية؟ ما أن طلع على حال بعض تلك «البيوت» حتى رفض الفكرة. واتفق الأطباء على أنها إذا جرى الاعتناء بها من قبل ليونارد ومن ممرضات مدربات فلا داعي لتسجيلها مجنونة رسمياً. لكن مكانهم في نزل كليفورد لا يصلح لمثل هذا الاعتناء أبداً. هنا تدخل جورج دكوورث وعرض بلطفٍ كبير قصره المجهّز تجهيزاً حسناً المسمى Da-lingridge Place في ساسيكس، وهو فسيح الأرجاء وفيه مجموعة من الخدم وتتوفر فيه وسائل الراحة كلها.

في العشرين من أيلول ذهبت «كا» أولاً بصحبة ممرضة إلى ذلك القصر، وتبعهما ليونارد وفرجينيا وممرضة أخرى بالسيارة. كانت فرجينيا أسوأ حالاً من أي وقت مضى ؛ فهي لا تستطيع النوم، ولا تتناول الطعام، وكانت تتناوبها حالات الكآبة العميقة وحالات التهيج العنيف[1]. ظلت «كا» الوفية هناك مدة أسبوع كامل، وأثناء وجودها أباح ليونارد لنفسه يوماً واحداً من الغياب فذهب إلى آشام حيث وجد كلايف وفانيسا. كتب كلايف إلى مولي مكارثي :

> «جاء وولف إلى هنا البارحة على الدراجة الهوائية لتناول الغداء. كان يبدو مريضاً ومتعباً للغاية كما أتصور، ومعنوياته منخفضة جداً. والظاهر أن فرجينيا في حالة هي حتى أسوأ مما كانت عليه عند محاولة انتحارها، وهي عنيدة بشأن تناول

---

(١) إن اليوميات الرمزية الخاصة بحالة فرجينيا، الواردة في مذكرات ليونارد اليومية في هذا الوقت، لا تصف الضغط اليومي الذي كان الزوج يعيش تحت وقره، بل تلمح إليه لماماً.

الطعام ـ وهذا هو مفتاح المسألة كما يقولون هم. والممرضات هناك لا حول لهن ولا طول ولا يستطعن على ما يبدو أن يقنعنها بشيء؛ إنهم يبحثون عن ممرضات غيرهن؛ في هذه الأثناء يقع العمل الشاق كله على عاتق وولف. ونحن نتساءل هل ستشفى حقاً وتعود إلى العقل مرة أخرى؟».

ما لبثت فرجينيا أن أخذت تتحسن ببطء شديد. غدت أيام «الإثارة» أقل عدداً، واقتنعت تدريجياً بأن تتناول قليلاً من الطعام. وتزايد عدد الأيام الهادئة كما تزايد عدد الليالي الجيدة، حتى وافق الأطباء أخيراً، بعد شهرين، أن تنتقل إلى آشام على أن يكون ذلك مع ممرضتين دائمتين. وهناك استقر الزوجان بعد أن تركا نزل كليفورد فبقيا في آشام من ١٨ تشرين الثاني ١٩١٣ حتى آب ١٩١٤ على نحوٍ يكاد يكون متواصلاً؛ بدت فرجينيا، على الرغم من العوائق الكثيرة، وهي تتماثل إلى الشفاء.

في سيرته يصف ليونارد حالة فرجينيا العقلية ولا يصف حالته. إنه لا يتوقف لكي يغرق في الإشفاق الذاتي، ولا لكي يهز قبضة غاضبة بوجه الله. لقد أغفل ذكر التذمر والشكوى في كتابه تماماً كما أغفل ذكرهما في حياته. لعله كان أحرى بالتذمر والشكوى من الذين يمكن محاسبتهم عما جرى، من دون الله.

لقد تعهد ليونارد بإنسانة كانت قد جنّت مرتين وحاولت الانتحار مرةً، ولم يحذره أحد تحذيراً حاداً وقاطعاً عند إقدامه على الزواج منها، وهذا بقدر ما استطعت أن أقف عليه. لم تقدم له فانيسا، ولا أدريان، سرداً مفصلاً وجلياً عن مرض فرجينيا وعن خطورته، حتى وقعت هذه الأزمة وهي أشد الأزمات وأسوؤها. كان جنونها يغلّف بغلاف الدعابة، شأنه شأن الأمور الأليمة الأخرى التي تحدث في الأسرة.

«أوه، أنت تعرف جيداً أن العنزة مجنونة». هكذا كان يقال هذا بسهولة

ويسر ويطرح جانباً بسهولة ويسر دون أن يعار أية أهمية. وكانت فرجينيا ذاتها تلمّح، في ذلك الحين وبعده، تلميحاً مرحاً إلى الأيام التي كانت «مختلة العقل» فيها. وهكذا فإن ليونارد قد أوحي له، من جهة النتيجة إن لم يكن من جهة القصد العمدي، بأن يعتقد بأن مرض فرجينيا ما هو إلا عارض غير خطير أبداً، فتزوج منها دون أن يعرف ما قد ينطوي عليه ذلك من اعتناء رهيب. غير أنه يجب القول، إنصافاً للجميع، بأنه حتى لو أن شقيق فرجينيا وشقيقتها كانا قد اتخذا موقف التصريح، أو التلميح، كما كان ينبغي لهما، فما كان ليونارد سيثني عن الزواج ممن أراد ؛ لكن معاملته اللاحقة لزوجة، كانت في واقع الأمر مريضة أصلاً على نحو خطير، ربما كانت ستصبح معاملة مختلفة. لقد تعلم الدرس بأصعب الطرق، ولنا أن نتساءل كيف لم يجن هو نفسه أيضاً بعد أن أدرك عسر الأمر الذي هو فيه، وصار عليه أن ينوء بخطر انتحار زوجته أمداً طويلاً، وأن يمارس اليقظة الدائمة وأن يزاول اللياقة في إقناع المريضة المتواصل لكي تتناول طعامها وأن يعاني من التعاقب السرمدي للأمل وخيبة الرجاء.

ولقد كاد أن يجن ولكنه لا يذكر ذلك. إن الضغط الواقع عليه كان شديد العمق ومتواصلاً. كان أحياناً يلوذ بالفرار فيهرب إلى لندن يوماً أو بعض يوم ليزور أصدقاءه أو أهله، ليحضر مسرحاً أو اجتماعاً. ولكن العبء، بعد ستة أشهر من الرقابة المتواصلة، أمسى عبئاً كبيراً جداً. كان يعاني في الأشهر الأولى من سنة ١٩١٤ من صداع شديد ؛ وغدا الصداع عنيفاً يحيله إلى رجل مقعد فاضطروا إلى إجراء ترتيب معين في أوائل آذار تأتي بموجبه كاكوكس أو جانيت كيس بالتعاقب إلى آشام للبقاء مع فرجينيا حتى يستطيع ليونارد أن يتمتع بإجازة مدتها عشرة أيام. ذهب إلى ويلتشاير للإقامة في منزل ريفي غير مريح مع ليتون، وهناك قرأ له هذا كتابه عن «الكاردينالماننغ»، وتجادل معه بشأن ارلندة ـ كان هذا علاجاً غريباً،

فالظاهر أنه أشفاه مما هو فيه[1].

في نيسان ١٩١٤ شعر الزوجان أنهما قادران على التصدي إلى تغيير ما في مجرى حياتهما، فأزمعا القيام برحلة. وافق الدكتور موريس كريغ . M Craigقائلاً إن فرجينيا الآن في صحة تبرر المجازفة التي لا شك فيها عند انتقالها من محيطها المعتاد. إنهما الآن يراجعان هذا الطبيب الذي يحترم ليونارد آراءه ونصحه، فقد غدت مراجعة سافيج من باب المجاملة ليس إلا. ذهبا إلى كورنوول مدة ثلاثة أسابيع، فزارا ليلانت وسانت آيفز وخليج كاربيس. وجد ليونارد الرحلة متعبة لأعصابه جداً؛ وكانت فرجينيا تتخوف من الغرباء، وما فتئت صعبة المراس بشأن الطعام، ومعرضة للانفعال ونوبات القنوط. ولكن الرحلة نفعتها على العموم، فمسرّة الحنين إلى مشاهد الطفولة هدّأت من أعصابها المجهدة، أما تقدمها نحو الشفاء فقد استمر خلال أشهر الصيف في آشام، وإن على نحوٍ متقطع.

في أواسط حزيران ذهب ليونارد، الذي تمكن إلى حدٍ ما من الاستمرار في دراساته وفي اهتماماته الأدبية، إلى بيرمنغهام لحضور اجتماع جمعية نسوية تعاونية. وقبل أن يذهب وضع تعهداً كان هازلاً في شكله ولكنه جاد في مقصده، تلتزم فرجينيا بمقتضاه بأن تستريح مستلقيةً على ظهرها، رأسها إلى الوسائد، نصف ساعة بالتمام بعد الغداء، وأن تتناول من الطعام المقدار نفسه بالضبط كما لو كان زوجها موجوداً، وأن تأوي إلى فراشها في

---

(١) «ليونارد أحسن حالاً. . . لو أنني أسلك سلوكاً اعتيادياً الآن فسيكون على ما يرام. . . أنا أشغل نفسي بالطبع على الآلة الكاتبة وبكراسات الإرشاد الخاصة بالتعاونيات، فأكون مرحة، وهذا يرفع من معنوياته أكثر من أي شيء آخر». (من رسالة فرجينيا إلى جانيت كيس في آذار ١٩١٤).

وقد قام أصدقاؤهما بما يستطيعون لمساعدتهما؛ أظهر ليتون ستراجي تعاطفه واهتمامه بتقديمه واجب الضيافة والمحادثة إلى ليونارد وبقيامه بالمهام المتواضعة الخاصة بحرفة فرجينيا الأدبية. وكانت هي تطبع له قصته القصيرة -Ermyntrude & Esmeral da. ولا نعرف كيف أشغلت نفسها بكراسات التعاونيات.

العاشرة وخمس وعشرين دقيقة كل ليلة فتسترخي للنوم، وأن تتناول إفطارها في السرير، وأن تشرب كأساً كاملاً من الحليب صباحاً، وتستريح في حالات الطوارىء على الأريكة، وألا تتجول في الدار أو في الحديقة، وتكون حكيمة، وتكون سعيدة. كان من الواجب تطبيق هذه الأوامر في أيام السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر من حزيران ١٩١٤. وقّعت فرجينيا على التعهد بتصنع ظاهر. ومع أنها كانت لم تزل معرضة إلى قضاء أيام سيئة بلياليها فإن هذه الطريقة في الإرشاد المؤلفة من الراحة والغذاء والسكينة وتجنب الانفعال الفكري قد أعطت نتائج جيدة[1]. فقد تمكنت من القراءة ومن كتابة رسائل قصيرة، ومن الخياطة، وفي تدبير أمور منزلها إلى حدٍ ما بمن فيه من طاهية وخادمة (الممرضات كنّ قد ذهبن)، ومن الذهاب إلى مسيرات طويلة مع كلبيها شوت ومايك. كتبت فانيسا من آشام في نهاية تموز تقول إن فرجينيا أحسن كثيراً بالتأكيد، وأنها تميل إلى العودة إلى

---

(١) كان ليونارد يقرأ في أيار ١٩١٤ كتاب فرويد المعنون «تفسير الأحلام» تمهيداً لعرض الكتاب الموسوم Psychology of Everyday إلى مجلة The New Weekly. أثرت هذه القراءة فيه تأثيراً كبيراً، ولو أنه كان قد قرأ فرويد قبل سنتين فمن المحتمل أن تاريخ فرجينيا الطبي كان قد اختلف. على أن من المشكوك فيه هل كانت ستحلل نفسانياً وهل كان هذا التحليل هو العلاج المناسب لها. إن المحللين النفسانيين يترددون عادةً في علاج مرضى كانوا قد جنّوا، وإن انهيار فرجينيا الأول لم يكن بالوسع علاجه حتى من قبل فرويد نفسه : فقد زامن ذلك ظهور كتابه عن دراسة الهستيريا المعنون Studien ber Hysterie في سنة ١٨٩٥. ولم تكن وسائل فرويد في التحليل النفسي قد سمع أحد بها في هذه البلاد في وقت انهيارها الثاني (١٩٠٤) بل إنها لم تكن حتى في ١٩١٣ معروفة جيداً. (بدأ أرنست جونز ممارستها في لندن في ١٩١٣) وأعتقد أن المحللة النفسانية مدام مايكو كاميا، وهي يابانية، تقوم بإعداد دراسة Pathography عن الحالة العقلية لفرجينيا وولف، وقد تمكننا دراستها من معرفة هل أن التحليل النفساني كان سينفعها. إن أعراض مرضها تبدو للمراقب العادي، كما بدت لزوجها نفسه، ذات طبيعة خاصة بالكآبة الجنونية وهذه لا تستجيب للتحليل. لم تظهر فرجينيا في أواخر عمرها إلا القليل من الاهتمام والأقل من الحماسة لاكتشاف فرويد، ولم يكن بالوسع إقناعها باستشارة محلل نفساني.

لندن. هذه الفكرة أصابت ليونارد بالقنوط. إن لندن ستكون مضرة لها حتماً وستؤدي إلى إنهيار آخر بالتأكيد.

وقد أخذها إلى لندن فعلاً بعيد إعلان الحرب، ولكنهما بقيا فيها ليلة واحدة فقط إذ كانا فيّ طريقهما إلى نورتامبر لاند للإقامة فيها. ومن هناك كتبت فرجينيا إلى «كا» تقول :

«يظنون أنك تخدمين في مكانٍ ما، إما كممرضة أو في عملٍ يخص العساكر. لم أمر قط في حياتي بشيء مثل عدم الاطمئنان العمومي السائد هذا. تركنا آشام قبل أسبوع وكانت عملياً تحت الحكم العرفي. جنود يذهبون إلى جبهة القتال، ورجال يحفرون الخنادق، وقيل إن عنبر آشام سيستعمل كمستشفى. الناس كلهم يتوقعون غزواً ـ ثم مررنا بلندن ـ آه يا إلهي! يا له من كلام طويل عريض! روجر بالطبع لديه معلومات خاصة من وزارة البحرية، كما أنه يزور زوجة السفير الألماني، وكان كلايف يتناول الشاي مع أوتولين، فتكلموا وتكلموا وقالوا إنها نهاية الحضارة وأن حياتنا الباقية لا جدوى منها. ليتك تكتبين لي وتخبرينني بما تسمعين ـ يقولون لا مفر من وقوع معركة كبيرة، وأن وقوعها سيكون هنا، ونحن على بعد ١٥ ميلاً من بحر الشمال، والأهالي يتوقعون أن يكونوا في خضم المعركة، ولكن كان الناس في سيفورد يتوقعون الشيء نفسه.

إن مستقبلك قد ذهب هباءً من الناحية العملية لأنك ستعملين في عشرين لجنة مختلفة. بدأ أهل الاقتدار والجدية يصلون إلى البلدة أصلاً بألبستهم العملية ـ لكني لا أستطيع أبداً أن أرى فائدة من اللجان.

عثرنا هنا على أجمل منطقة ريفية رأيتها في حياتي كلها.
أظنها أفضل من كورنوول إلا عدم وجود بحر ـ هنا أراضٍ
مغمورة بالمياه وسهول منبسطة وأنهار سريعة الجريان جداً.
إننا نقيم في نزل مليء بأهالي الشمال، وهم عبوسون جداً
في مظهرهم، لكنهم مطلعون على الأشياء العصرية غاية
الإطلاع إلى درجة يخجل المرء معها من نفسه. فهم يبحثون
في شعر تومسون وفي مدرسة ما بعد الانطباعيين وقد قرأوا
كل شيء وفي الوقت عينه يسيطرون على التجارة كلها،
ويستطيعون أيضاً غناء الأغاني الفكهة ويقومون بأدوار المسارح
الموسيقية ـ والواقع تعتبر جماعة بلومزبيري متخلفة بالقياس
إليهم كأنها ظلت قابعة في شرنقتها. ولكنْ لماذا لم تهيئني
لفهم لهجة أهالي سكوتلاندة وصوتهم المنغّم الذي يجعلني
أضحك كلما سمعته؟».

كانت هذه الإجازة الشمالية ناجحة بلا ريب. وتسجل يوميات ليونارد وقائع السفرة وتسجل سلسلة غير منقطعة تقريباً من الليالي الجيدة. عادا إلى لندن في الخامس عشر من أيلول وظلت فرجينيا تتمتع بصحة ممتازة حتى أن السجل اليومي انقطع تماماً في تشرين الأول.

إن هذا التحسن الملحوظ في صحة فرجينيا جعل من السهل عليها أن تصر على العيش في لندن دون غيرها. أمضى الزوجان معظم أيام ذلك الخريف بحثاً عن بيت. وبعد جولات في أماكن مختلفة استقر رأيهما على أن رجموند ستلائمهما على أحسن وجه ؛ فهذا موقع قريب من لندن لأغراض عمل ليونارد السياسي، وبعيد عنها لمنع شواغل المدينة الاجتماعية من أن تغدو تهديداً خطيراً لصحة فرجينيا. في تشرين الأول أقاما هناك في نزل يعود لسيدة بلجيكية هي مدام لوغريز، وأرسلا بطلب أثاثهما والكتب

التي كانت مخزونة منذ تخليهما عن نزل كليفورد. عند البحث عن بيت لهما في رجموند رأيا قصراً جميلاً من القرن الثامن عشر يدعى دار سافيلد وقد قسم إلى قسمين، الأول يحتفظ باسم القصر الأصلي والآخر يدعى الآن دار هوغارث Hogarth House. أحبا هذا الثاني كثيراً، وحاولا استئجاره بالإجارة الطويلة فحالت صعوبات جمة دون ذلك، لذا كانا يتراوحان بين الرجاء والاستكانة وهما يبحثان عن مكان آخر.

واستطاعت فرجينيا أن تنشط مرةً أخرى وشعرت أنها ينبغي لها، بصفتها زوجة لرجل معدم، أن تتقن بعض المهارات المنزلية، فبدأت تحضر مدرسة لفن الطبخ في شارع فكتوريا :

> «معنا بعض البحارة، وكذلك عدد من السيدات اللاتي دبّ الشيب في رؤوسهن، وهن من ذوات الوجاهة والتمدن والانصقال، وكن يتحرّين ما في أحشاء الدجاج، وبعضهن متأنقات جداً وقد جئن لتحسين ما يعرفنه عن طبخ الحساء لحفلات العشاء. وتميزت أنا بطبخ خاتم زواجي في عجينة قالب الكُلى !».

لقد وجدتْ ذلك شيئاً مؤنساً للغاية، لكن من المشكوك فيه أنها طبقت ما تدربت عليه تطبيقاً عملياً في ذلك الوقت، لأن وجبات طعامهما كانت تقدم من قبل سيدة النزل.

وبدأت تستمتع مرةً أخرى بقليل من الحياة الاجتماعية، فهي تستقبل الأصدقاء للشاي أو للعشاء، وتذهب أحياناً إلى لندن لزيارة بعض الأصدقاء، أو لاستعارة الكتب من المكتبة، أو للاستماع إلى حفلة موسيقية أو لحضور مسرحية. أما مجموعة بلومزبيري فقد تبعثرت عند اندلاع الحرب، وإن ظلت الليدي أوتولين تجمع بقاياها وتشدّ من أزرها ؛ إن حفلات أوتولين الباهرة والمثيرة في منزلها كانت بالضبط هي المناسبات التي

أراد ليونارد أن تتحاشاها زوجته. إن الزوجين لا يبحثان عن إثارة ؛ وكان زوارهما يأتون فرادى أو على زوجين إثنين ـ جانيت كيس، مارغريت لويلين ديفيز، ساكسون، كل أهل ليونارد، سدني ووترلو وولتر لامب ؛ وهذا الآن هو سكرتير الأكادمية الملكية ويسكن قريباً منهما في كيو Kew ويعتبر من الشخصيات الفكهة.

كانت فرجينيا في نهاية السنة تزاول الكتابة مرةً أخرى ـ كانت تكتب روايةً ما، أو قصة، وقد فقدت ؛ كذلك بدأت تدون يومياتها. وهذه اليوميات هي سجل مرأة عاقلة تماماً، تحيا حياة هادئة وطبيعية :

«السبت ٢ كانون الثاني ١٩١٥

هذا هو نمط اليوم الذي كنت سأختاره لو أن من الممكن انتخاب عيّنة تمثل حياتنا على العموم. نتناول الإفطار، وأنا أحادث السيدة لوغريز. إنها تشكو من شهية الأكل البلجيكية العظيمة ومن تفضيل أبناء قومها للطعام مقلياً بالزبدة. قالت عرضاً : إنهم لا يعطون المرء أي شيء على الاطلاق. وقد أصر الكونت الذي تناول عشاء الكرسمس عندهم على طلب نوع ثالث من اللحوم بعد أن تناول وجبة لحم الخنزير ووجبة لحم الديك الهندي. لذلك فإن السيدة لوغريز ترجو أن تنتهي الحرب قريباً. تساءلت : إذا كانوا يأكلون هكذا في المنفى فماذا يأكلون في الوطن؟ بعد ذلك نبدأ أنا وليونارد بكتاباتنا. هو يكمل مقالته عن عرض كتابٍ ما وأنا أكتب أربع صفحات تقريباً من قصة إيفي المسكينة ؛ ثم نتناول الغداء ونقرأ الجرائد ؛ ونتفق على أنه ليس ثمة أخبار. أقرأ غاي مانرينغ Guy Mannering في الطابق الأعلى مدة عشرين دقيقة ثم نأخذ الكلب ماكس للسير. أمس وجدنا

أنفسنا عند منتصف الطريق إلى الجسر وقد قطع النهر طريقنا، لأنه ارتفع بصورة ملحوظة، مع قليل في المد والجزر، فكان يخفق كقلب ينبض. بعد خمس دقائق كان الطريق الذي جئنا منه يجري فوقه تيار عمقه بضع بوصات. من الأشياء الغريبة في الضواحي أن أبسط البيوت الصغيرة مؤجرة دائماً وما من بيت منها له نافذة مفتوحة أو نافذة بدون ستارة. أحسب أن الناس يفخرون بستائرهم وثمة منافسة عظيمة بين الجيران. أحد البيوت له ستائر من الحرير الأصفر محاطة بأشرطة الدانتيل. لا بد أن الغرف في الداخل مظلمة، وأظنها تعبق برائحة اللحم والبشر. وأعتقد أن إسدال الستائر هو علامة الوجاهة. كانت صوفي تصرّ على إسدالها. ثم قمت بالتبضع لشراء حاجياتي. ليلة السبت هي ليلة الشراء الكبرى، فكانت بعض الدكاكين تعج بصفوف متراصة من النساء. أنا أختار دائماً الدكاكين الخالية حيث يحصل المرء على ما يريد بقرش أغلى. ثم نتناول الشاي والعسل والقشدة ؛ والآن ليونارد يطبع مقالته على الآلة الكاتبة ؛ وسنقرأ طيلة المساء ثم نأوي إلى الفراش».

وتتذمر السيدة لوغريز كثيراً من نزلائها اللاجئين. فالكونت يبصق في الحمام (وهذه واقعة ستذكر في رواية «السنين»). والخادمات في النزل هن مدعاة اهتمام فرجينيا وضيقها وتسليتها. فالخادمة ليزي أوشكت أن تحرق البيت، وهي في مناسبة أخرى أوقدت السخّان فارغاً من الماء فصار كالجمر ؛ كذلك كانت تحطم الأواني الزجاجية وادعت مود، الخادمة التي خلفتها، أنها إبنة كولونيل ؛ حاولت الكلام بلغة الذوات حين أتت بالفحم. وسجلت فرجينيا زوارها : سدني ووترلو جاء وتكلم عن الفلسفة ؛ ولتر لامب جاء وتكلم عن العائلة المالكة ؛ مارغريت ستراجي جاءت وتكلمت

عن نفسها. وجاءت مولي مكارثي ومعها القيل والقال من بلومزبيري، ووصفت آخر علاقات كلايف الغرامية، وتصميم دزموند على العيش في الريف وكتابة روايته أخيراً.

صار بوسع ليونارد الآن أن يكرس مزيداً من وقته لكتاباته الخاصة ولنشاطاته الأخرى ؛ كان الطلب يتزايد عليه لعضويات اللجان وللكلام في الاجتماعات العامة عن مسائل التعاونيات وعن الشؤون الدولية. كتبت فرجينيا في كانون الأول : «يدعونا سدني ويب وزوجته إلى العشاء بمعدل مرة في الأسبوع، وعلى ليونارد أن يذهب غداً ولو أن ذلك يبدو تعيساً. لقد ربطوه بعمل ضخم. . .»[1] كانت فرجينيا تذهب معه إلى الاجتماعات السياسية فتعجب بخطبه وبوضوح منطقه وتجرده التام عن التعالي حين يخاطب العمال والعاملات. وأصبحت هي نفسها الآن عضواً في الجمعية الفابية. أما الاهتمام بمجرى الحرب فلا يكاد يظهر في يومياتها وإن كانت سجلت غرق البارجتين Formidable و Blücher.

في ٢٥ كانون الثاني، وهو يوم ميلادها الثالث والثلاثين، قدم لها ليونارد محفظة نقود خضراء ورزمة سمراء تحتوي على كتاب The Abbot بمجلداته الثلاث كما ظهر في طبعته الأولى. وذهبا بعد الظهر إلى دار للسينما للتسلية، ثم تناولا الشاي في فندق ؛ وفي تلك الأمسية قررا أنهما إذا استطاعا فسيسكنان في دار هوغارث ؛ وسيشتريان مطبعة، مع كلب من نوع بولدوغ. سُرَّت فرجينيا بيوم ميلادها وانفعلت كثيراً بفكرة امتلاك مطبعة خاصة بهما.

بعد يومين سجلت فرجينيا في يومياتها أنها وجانيت كيس قد بحثتا أمر روايتها «التي سيؤكد الجميع، كما أتنبأ، بأنها أروع ما قرأوا على الاطلاق،

---

(١) طلبت الجمعية الفابية من ليونارد أن يعدّ تقريراً عن العلاقات الدولية، وكان هذا التقرير نواة عصبة الأمم.

ثم يذمّونها في ما بينهم، وهي في الواقع تستحق الذم». كانت هذه إشارتها الوحيدة لرواية «رحلة الخروج»، ولئن كانت اليوميات قد قصد منها على ما أظن أن تكون آنئذٍ بمثابة الدواء المهدّىء، والوسيلة التي تثبت لنفسها أنها إنسانة طبيعية، فإن تكتمها بشأن الرواية ليس مستغرباً، لأنها على نقيض تكهناتها التي ستبديها في السنين اللاحقة عن أعمالها الأخرى على نحوٍ تواق. ستظهر الرواية في نهاية آذار، في أواسط شباط أخذ ليونارد فرجينيا إلى طبيب الأسنان ؛ في اليوم التالي عاد إلى البيت ليجدها تشكو من صداع حاد. وبدأ العلاج المعتاد : الراحة، العزلة، حبوب الفيرونال ليلاً ؛ وأخذ، كما فعل في السابق، يسجل تطور حالتها في يومياته.

لكن فرجينيا أخذت ذات صباح تتكلم مع أمها وهي تتناول إفطارها في السرير ؛ وهيمن عليها الاكتئاب وتزايد انفعالها وتفاقم عدم الترابط في تفكيرها. بعد يومٍ أو يومين بدت ـ لنفسها على أية حالة ـ وكأنها تعود راجعة من الهاوية. ما أن تذكرت كابوس السنة السابقة حتى حاولت أن تعبّر عن شيءٍ مما شعرت أنها مدينة به لمارغريت لويلين ديفيز :

«رجموند ـ الخميس ٢٥ / ٢ / ١٩١٥

عزيزتي مارغريت

شكراً كثيراً على تكليفك باستعارة كتاب The Pilgrims of Hope لموريس. أود كثيراً أن أرى الكتاب.

أريد فقط أن أخبرك أن الأمور تبدلت بصورة رائعة في الأيام القليلة الماضية. أنا الآن بخير وإن كنت بالأحرى متعبة. الوضع رائع حتى لا أكاد أصدقه. وأريد أن أقول إنني فكرت بك طيلة ذلك الوقت الفظيع وأردت أن أنظر في صورة لك لكنني خشيت أن أطلبها ! لقد أنقذت ليونارد على ما أظن وسأباركك على هذا دائماً، أنقذتِهِ بإشغاله بأمور يقوم بها.

من الغريب أني أحسست، وأنا لا أعرفك إلا قليلاً، إن لك تأثيراً مسيطراً عليّ فمكنني ذلك من ألا أغرق إلى القاع. أكتب هذا لأنني لا أريد أن أقوله، وإن كنت أظن أنك ستودين معرفته. إن سعادتنا الآن هي شيء لا أستطيع حتى التفكير به.

أرجوك أن تأتي. لقد تخلينا عن جورج برنارد شو وزوجته. سيلائمني السبت بعد الظهر حوالى الرابعة. لا أستطيع سوى الاستلقاء بلا حراك، لكني أود كثيراً أن أراك وأن أتحدث وأتبادل القيل والقال عن مدام تورنيير وعن أصدقاء آخرين. يا عزيزتي مارغريت، غالباً ما أفكر بك، وأشكرك على ما فعلتِهِ لنا، وليس بوسعي أن أبين مدى ما عناه ذلك لي.

المخلصة ف . و.

أردت أن أخبر جانيت كيس بما أخبرتك به لكن ليونارد رأى أن الأفضل عدم إخبارها. إن طيبتها كبيرة جداً».

لعل هذه الرسالة التي كتبت بشيء من العجالة وبشيء من التهور، وخطت بالقلم الرصاص، تعبّر عن شعور متعقل بالذنب وبالندم، وهو شعور ناشيء عن غضب غير متعقل؛ أما لماذا توحي مارغريت لويلين ديفيز بمثل هذه المشاعر فأمر يحتاج إلى استقصاء. إنها كانت قد أنقذت ليونارد حقاً فأصبحت خلال العامين الماضيين أهم إمرأة في حياته بعد فرجينيا. كانت كما قال ليونارد زعيمة بالولادة، ذات حيوية وحماسة، وسيمة ومحبوبة؛ لقد أدخلت ليونارد في منظمتها الخاصة وأشركته في أعمالها - وهي الجمعية النسوية التعاونية؛ ودخلتها فرجينيا أيضاً فأحدث ذلك انطباعاً حسناً جداً لديها. ولكن كان من الواضح منذ الابتداء أن ليونارد سيتقدم في هذا العمل بأسرع مما ستتقدم فرجينيا فيه وإلى مدى أبعد منها. سرعان

ما انغمس ليونارد عميقاً في السياسة، ترشده مارغريت، وكان هذا كما أدركت فرجينيا هو ما كان يحتاج إليه في وقتٍ كان مرضها سيدفعه إلى القنوط.

لكن تأثير هذه المرأة الفاضلة، المحسنة، وقد بلغت الخمسين، لم يكن على العموم تأثيراً يرحب به. لم تنجذب فرجينيا قط نحو النساء السياسيات، وكانت مارغريت، على الرغم من صفاتها الرائعة كلها ثقيلة الدم بعض الشيء[1]. إن اعتماد ليونارد الكثير عليها، واعتماد فرجينيا كذلك، لم يكن بكليته شيئاً من المستحسن تشجيعه، ولو أن لطف مارغريت خلال مرض فرجينيا كان كبيراً حتى أن ليونارد وجد عرفانه للجميل أعمق من أن يستطيع التعبير عنه.

كانت فرجينيا، حين كتبت رسالتها تلك إلى مارغريت في ٢٥ شباط، تعتقد أنها شفيت، ولكن الأمر لم يكن أكثر من مرحلة تحسن موقتة. وأعقبت تلك الرسالة رسالتان كلتاهما تافهة بشكل غريب، وقد أملتهما فرجينيا على ليونارد، فأضاف هذا إليهما حاشية قال فيها إنه يظنها أحسن قليلاً؛ لكنها في واقع الأمر كانت تتطور إلى الأسوأ سريعاً. كان وضعها يختلف تماماً هذه المرة عن المراحل الأولى من جنونها في المرات السابقة حين تكون مكتئبة وخاملة، وأحياناً عنيفة، وفي الغالب ميالة إلى الانتحار بهدوء. أما الآن فهي تنزع إلى الثرثرة، ويتزايد كلامها المتهور، الفاضح، وغير المترابط الذي لا ينقطع، إلى أن تغيب في لغو الحديث ثم تغرق في غيبوبة تامة. أرسلوا بطلب الأطباء والممرضات. وكان من الواضح أن

---

(١) يقارن ليونارد بينها وبين روبرت أوين R. Owen مؤسس الحركة التعاونية (في كتاب «البدء من جديد» ص ١٠٤ ـ ١٠٥) ويقتبس في مقارنته وصفاً قاله لزلي ستيفن عن ذلك الرجل العظيم: «إنه من أولئك الرجال ثقال الدم الذين لا يطاقون والذين هم ملح الأرض» ـ ولكن ليونارد حذف جملة «لا يطاقون».

الزوجين لا يستطيعان البقاء إلى ما لا نهاية في النزل الذي هما فيه. إن السيدة لوغريز إنسانة لطيفة ولكن لا يرجى منها أن تقوم على خدمة مجنونة هائجة، وخدمة حاشيتها أيضاً. لهذا أنجزوا مفاوضاتهم بشأن استئجار دار هوغارث، فنقلت فرجينيا إلى دار للتمريض في ٢٥ آذار قبل يوم واحد فقط من نشر روايتها الأولى «رحلة الخروج» ؛ ظلت هناك أسبوعاً وقام ليونارد بعملية الانتقال إلى بيتهم الجديد، ثم جيء بها إلى البيت ووضعت تحت عناية أربع ممرضات مختصات بالأمراض العقلية. بدأت الحياة في دار هوغارث على نحوٍ مقفر تتعاقب فيها الأيام السيئة والأيام الحسنة، وتتالى فيه تتالياً منغصاً مواعيد تناول الطعام وليالي الأرق المصحوب بأعراضٍ أشد عذاباً، ذلك أن فرجينيا هي الآن شديدة العنف وعالية الصراخ، ويبلغ جنونها بها إلى العداء الخبيث نحو ليونارد ذاته. تذكر يوميته في العشرين من أيار أنها : «ممتازة ومتوترة طيلة النهار لكنها ليست بالسوء الذي كانت عليه البارحة. جاءت مارغريت للشاي. وجاءت الممرضة ميسيندين. لم أر فرجينيا». لم يرها إلا لماماً نحو شهرين. كتبت فانيسا إلى روجر فراي تخبره قائلةً :

> «رأيت وولف أمس. كان هو أيضاً كئيباً جداً. يبدو أن فرجينيا تتراوح في حالتها صعوداً وهبوطاً، فهي أحياناً معقولة تماماً وأحياناً أخرى عنيفة جداً وصعبة المراس. وهو يظن أن الشيء الوحيد أمامه هو الانتظار أطول مدة ممكنة عسى أن تتحسن حالتها إلى درجة كافية فتتمكن من الذهاب إلى إحدى دور التمريض دون اضطرارها إلى الذهاب إلى مصح عقلي، فهو يرى أن هذا قد يكون له تأثير مدمر عليها. والمسألة هي هل تستطيع الممرضات المقاومة؟ أما وولف نفسه فيبدو أنه وصل إلى حالة لا يهتم فيها كثيراً بما يحدث، وهذا شيء فظيع ؛ ولا يستطيع المرء أن يقول أكثر

من ذلك».

وبدأت فرجينيا تتحسن ببطء شديد جداً. وبعبارة أخرى أصبحت لحظات العنف والإثارة أقل حدوثاً. غدت أكثر وضوحاً في كلامها وأكثر تعقلاً. ولكنْ بدا أنه لن يكون هناك شفاء حقيقي من هذه النوبة الثانية من الداء ؛ لقد أصيبت بجرحٍ لا يرجى شفاؤه على ما يظهر. قالت جين توماس في نيسان لفيوليت دكنسون إن عقل فرجينيا يبدو وكأنه «استهلك»، وأنه ليس عقلها فحسب بل شخصيتها بأسرها قد تدهورت. وكتبت فانيسا في نهاية حزيران تقول :

> «جاءت «كا» لرؤية فرجينيا، وهي تظنها تتحسن ببطء حقاً، لكن الحالة تبدو مثيرة للاكتئاب جداً إذ يظهر أنها قد تبدلت إلى شخصية أخرى غير لطيفة إطلاقاً. إنها لا تريد أن ترى ليونارد وأصبحت ضد الرجال كلهم. وهي تتفوه بأخبث الأشياء وأوجعها ضد الجميع وهي أقوال بدرجة من الذكاء بحيث أنها تؤذي دائماً. لكن أسوأ الأمور بالنسبة لي هو كتيّب القصائد الجديدة لفرانسيس كورنفورد الذي نشر حديثاً وقد كتبت عليه فرجينيا هوامش ووضعت رسوماً قصد منها أن تكون تهكمات واخزة. إنها بالأحرى أشبه بمزاح وقح لصبيان المدارس، ولا تثير حتى المتعة. وقد قرأت تواً الكثير من رسائلها القديمة، وإنه لأمر فظيع حقاً. إن رسائلها الأولى هي بدرجة من الألمعية بحيث تبدو أفضل حتى من روايتها ـ لعلي أخبرتك بشأن الرسائل سابقاً ـ أما الرسائل الأخيرة خلال السنة أو السنتين الأخيرتين فهي بالمقارنة بدرجة من التبلد حتى يبدو وكأنها قد استهلكت دماغها».

وهكذا ففي صيف ١٩١٥ كان واضحاً أن فرجينيا، مهما ظهر من تماثلها

الكلي للشفاء من الجنون، كانت في حالة من اليسير معها انتكاسها مجدداً، فقد كانت كل نوبة تصيبها تبدو أسوأ من سابقتها. وبعد سنتين من الجنون المتقطع ظهر أن عقلها وشخصيتها قد تأثرا على نحو مستديم.

الفصل الثاني
١٩١٥ ـ ١٩١٨

حين ظهرت رواية «رحلة الخروج» في آذار ١٩١٥ استقبلت بلطف من لدن أصدقاء فرجينيا، وكذلك من الصحافة على وجه العموم. قام فورستر E.M. Forster (الذي يهمها رأيه أكثر من أي شخصٍ آخر) بنشر تقريضه في الديلي نيوز. قال فيه : «هذا هو أخيراً كتاب يحقق وحدة العرض بالثقة نفسها التي حققتها (مرتفعات وثرينغ) وإن بسلوك درب آخر».

أظهر نقاد آخرون حماستهم أيضاً. واستعمل عدد منهم كلمة «العبقرية». وكتب ناقد الأوبزرفر يقول :

> «هذه كلمة لا تستخدم اعتباطاً، ولكن ثمة شيء أعظم من الموهبة يلوّن الحذق في هذا الكتاب. والرواية تبذل جهداً متواصلاً لكي تقول الشيء الحقيقي وليس الشيء المتوقع، وتحفل بالفكاهة والسخرية والإرهاف العاطفي والأصالة العميقة ـ حسناً، فالمرء لا يريد أن يفقد ملكته النقدية بشأن أي كتاب، كما أن استحواذ الكتاب عليه قد يكون مسألة شخصية وذاتية، غير أن هذه الرواية تعتبر بين الروايات الاعتيادية بمثابة أوزة برية بين البط العادي بنظر كاتب هذه السطور، واسم الكاتبة غير معروف عنده وجديد عليه».

لا أعرف متى تمكنت فرجينيا من قراءة هذه الكلمات في صيف ١٩١٥،

ولكنها حين قرأتها لا بد أنها غمرتها بسرور طافح، وبالتطمين الذي هو أكثر أهميةً لها.

قالت لمولي مكارثي في كانون الأول ١٩١٤ «إنها تستريح أن تجد الجملة تتبع الأخرى على نحو حسن» ؛ وأن كتابها «وإن كان طويلاً وثقيل الدم» فهو ليس لغواً محضاً كما خشيت أحياناً. ولا أظن قولها هذا مجرد تواضع زائف. إن رواياتها كانت وثيقة الصلة جداً بتصوراتها الخاصة ؛ فكانت الكاتبة منشغلة البال دائماً خشية أن تبدو رواياتها للعالم الخارجي بحكم الروايات المخبولة، أو أن تبدو روايات مخبولة حقاً، وهذا أنكى. إن فزعها من استهزاء الناس الذي لا يرحم ينطوي على خيفة أعمق بأن فنها، وبالتالي هي ذاتها، إنما هو نوع من الزيف، نوع من حلم في مخيلة شخص مغفل لا قيمة له للآخرين[1]. لذلك فإن إشارة حسنة في الصحافة هي بالنسبة إليها ذات قيمة أكبر من الإطراء ؛ إنها نوع من وثيقة تشهد بسلامة عقلها. هذا أمر يجب تذكره حين ننظر في حساسيتها المفرطة تجاه الانتقاد، وهي حساسية قد تعتبر عليلة، بل إنها كانت عليلة حقاً بمعنى من المعاني، لأنها تصدر عن حالة مرضية. إن الجذب والشد النقدي الذي قد تسهل مقاومته على بنيةٍ أشد فتاةً فتح في حالتها بالذات جروحاً لم تندمل قط واستمرت جروحاً رخوة، رقيقة، على نحو حاد.

لهذا فأنا على يقين بأن عودة فرجينيا التدريجية إلى العافية في سنة ١٩١٥ إنما ساعد عليها ما نشر من مقالاتٍ في صالحها عن روايتها الأولى. لكن الشفاء جاء بطيئاً جداً ولم يكن مطرداً. ومهما يكن فإن الشفاء ما كان له أن يتم بدون التزامها بالاستكانة، والتزام ليونارد بالصبر طويلاً. وبلغ نجاح زوجها في معونته حداً لم يعد يشعر معه بالحاجة إلى تدوين سجل

---

(١) «لنفرض أن المرء يفيق من نومه فيجد نفسه زائفاً ! إن هذا الفزع هو جزء من جنوني». (يومية ١٦ أيار ١٩٢٧، في «يوميات كاتبة»).

يومي عن صحتها. في ذلك الشهر أخذ يصطحبها إلى خارج الدار أو يدفع بها وهي جالسة في كرسي طبي ؛ وأخذت هي تستقبل صديقاً أو أكثر، وصار يسمح لها بأن تقرأ المزيد وبأن تكتب قليلاً ؛ ثمة بطاقة بريدية مرسلة منها إلى مارغريت لويلين ديفيز وختم البريد عليها يشير إلى تاريخ ٣١ آب، وهي بطاقة مكتوبة بأسلوبها القديم إلى حدٍ كبير :

«لم تزل رسالتك تمتّعني. وأنا أقرأها بين حين وحين لكي أكون أوثق صلة بمدام تورنيير. (الظاهر أن مارغريت نقلت عنها إطراء لرواية رحلة الخروج). ولكن يا عزيزتي ما الخبر في كتابتي للروايات؟ أنت تمسكين بالشيء كله بأطراف أناملك ـ وسيكون الحسد، وليس الملل، هو الذي يحجب مودتي. رأيت فورستر، وهو خجول كالفأر ولكنه حين يخرج من جحره يأسر القلب. إنه يقضي وقته بالتجديف بزورقٍ في النهر حاملاً فيه العجائز، وهو لا يستطيع الاستمرار في كتابة روايته. كذلك رأيت راي ستراجي، ولكنها تجعلني مع الأسف أشعر كضباب الخريف الواهي، فهي على هذه الدرجة من الفعالية، وتحسبني مغفلة جداً».

في أيلول كانت فرجينيا بحالة جيدة تكفي لنقلها إلى آشام، إنما بصحبة ممرضة للعناية بها، فمكثت هناك بهدوء. كان الزوجان يستقبلان عدداً قليلاً من الزائرين ـ فانيسا، الزوجان ووترلو، وبعض الأقارب. كان هذا النظام المعتدل نافعاً، حتى أنها كتبت إلى ليتون في تشرين الأول تقول : «حان الوقت على ما أظن لنعود إلى مراسلاتنا مرةً أخرى. . . أنا على ما يرام الآن حقاً، ووزني ١٢ رطلاً! وهو يزيد بثلاثة أرطال عما كنت عليه أبداً، والنتيجة هي أنني لا أكاد أستطيع صعود المرتفعات».

وعاد الزوجان وولف في ٤ تشرين الثاني إلى دار هوغارث، وبعد ذلك

ببضعة أيام غادرت الممرضة الأخيرة. لقد بدآ الآن حياتهما الطبيعية من جديد، بحذرٍ شديد. أمضيا هذه الحياة الطبيعية في رجموند، لكنهما أبقيا على آشام فهما يذهبان إلى هناك في أيام عيد الميلاد وعيد الفصح عادةً، وربما يقضيان فيه أيضاً أسبوعاً أو نحوه من أيار، ويذهبان إليه دائماً لقضاء عطلة صيفية مطولة تدوم أحياناً من أواخر تموز حتى تشرين الأول. أنا أتكلم هنا عن سنّي الحرب وعن زمنٍ لم تحدّ فيه أعمال النشر من عطلاتهما.

بقيت فرجينيا في دار هوغارث خلال العامين ١٩١٥ و١٩١٦ معزولةً عن لندن إلى حدٍ كبير ـ ولا نقول معزولةً عن بلومزبيري لأن بلومزبيري لم تعد موجودة. كتبت فرجينيا إلى كاكوكس تقول «إنها تلاشت كغبش الصباح». ولئن كانت قد انتعشت موقتاً فما ذلك إلا بسبب عودة أفرادها إلى التجمع من جراء تطور الحرب. كانت سنة ١٩١٥ سنة غير حاسمة ولكنها دموية (فيها مات روبيرت بروك)، وكان لا مناص، لكي تستمر المذبحة، من العثور على جنود جدد. ففي كانون الثاني ١٩١٦ شرع قانون التجنيد الإجباري. وشمل هذا القانون أصدقاء فرجينيا كلهم تقريباً بصورةٍ أو بأخرى ؛ كان أغلبهم من معارضي الحرب معارضةً تصدر عن ضمير يرفض الحرب، وأظهروا كلهم استياءهم من شوفينية الجبهة الداخلية وهستيريتها، وواجه عدد منهم خيارين لا ثالث لهما، فإما القتال من أجل قضية لا يؤمنون بها وإما مواجهة المحاكمة التي قد تنتهي، بعد الطعن في إخلاصهم، بإرسالهم للقيام بأعمال غير قتالية، أو إيداعهم السجن، أو ضمهم إلى القوات المسلحة حيث تتوفر هناك دائماً إمكانية محاكمتهم عرفياً وإعدامهم رمياً بالرصاص. وأمام هذا الخطر المشترك وحّدت بلومزبيري صفوفها مرة أخرى.

أما ليونارد فلم يكن من معارضي الضمير للحرب ؛ لذلك فإنه كان في

خطرٍ حال بدعوته إلى خدمة العلم. وهذا يعني بلا ريب نهاية الآمال كلها بشفاء فرجينيا شفاءً كاملاً ودائماً. كان الرجل يعاني من رعشةٍ في يديه تمنعه من ملء أقداح الشاي بيسر، أو تمنعه أحياناً من توقيع إسمه. ولا شك أن الدكتور موريس رايت[1]، وهو الذي يستشيره ليونارد عن دائه وعن علة فرجينيا، كان يعلم علم اليقين أن صحة مريضيه معاً تتوقف على بقاء ليونارد في المنزل. لذلك زوّد مريضه باستشهاد ضمن له الاستثناء من الخدمة من قبل اللجنة الطبية.

وجعل عجز ليتون الظاهر من المستحيل على السلطة العسكرية أن تلاحقه بشكلٍ فعال فاستخدم ليتون المحكمة منبراً لمعابثة أعضائها بالتفكه القارص ضدهم. أما كلايف، الذي تصلبت آراؤه على نحوٍ أسرع من أصدقائه[2]، فقد مرق من خلال الشبكة الرسمية فاستثني من الخدمة دون صعوبة تذكر؛ وقد وافق على القيام بأعمال زراعية، على سبيل المجهود الحربي، ووجد له عملاً في مزرعة فيليب موريل، زوج أوتولين، في غازرنغتون. وقد استخدم موريل، وهو أحد القلائل من أعضاء البرلمان الذين عارضوا الحرب صراحةً، عدداً من المسالمين الذين يرفضون القتال عن

---

(١) مع أن ليونارد يقول (في «البدء من جديد» ص ١٧٨) إن الذي أعطاه الاستشهاد هو الدكتور موريس رايت، فإن فرجينيا كتبت إلى فانيسا في ١٤ أيار ١٩١٦ تقول: «ذهب ليونارد إلى الدكتور كريغ الذي قال إنه سيعطيه شهادة بعدم اللياقة للخدمة العسكرية وذلك بناءً على حالته الصحية فضلاً عن حالتي. وقد كتب رسالة قوية جداً قال فيها إن ليونارد متوتر الأعصاب جداً ويعاني من رعشة دائمة وقد ينهار إذا انضم إلى الجيش. كذلك قال إني لم أزل في حالة مضطربة جداً ويحتمل جداً أن أصاب بانهيار عقلي كامل إذا أخذوه».

(٢) في ١٩١٥ كتب كلايف كراساً بعنوان «السلم فوراً» حث فيه على ضرورة تسوية متفاوض عليها وقد نشر في ربيع تلك السنة من قبل «مطبعة العمال الوطنية». وفي الصيف أتلف ذلك الكراس بأمرٍ من عمدة لندن (أنظر «تجار الحرب» لكلايف بيل، الذي نشره اتحاد عصبة السلام في سنة ١٩٣٨ ص ١).

عقيدة فعينهم عمالاً زراعيين في مزرعته، دون كبير نفعٍ لأرضه كما هو متصور.

أما أدريان الذي تزوج في أوائل أيام الحرب من كارين كوستيللو (وظنتها فرجينيا، وكذلك فانيسا، ليست كفوة تماماً لشقيقهما)، فقد كان من أنشط المسالمين في بلومزبيري وأكثرهم قناعةً، وقد دافع عن معارضي الضمير أمام المحاكم. وكان مركز مينارد كينز أكثر المراكز حرجاً، فهو يشغل وظيفة ذات مسؤولية كبيرة في وزارة الخزانة فلا تطاله المحاكم؛ كانت عواطفه مع المسالمين، أما مجهوداته فمع الحرب. كان اهتمام فرجينيا الأول والأخير ينصب على ليونارد بطبيعة الحال. إنما كانت لديها مشاغل أخرى. ففي مرحلة جنونها حدث تغيّر في شؤون الزوجين بيل. كان كلايف يحيا حياته الخاصة به في منزل بلومزبيري وفي مزرعة غازرنغتون؛ وكانت فانيسا تساكن دنكون غرانت، وعندما رفضت المحكمة المحلية إعفاء هذا من الخدمة العسكرية لجأت فانيسا إلى أختها طلباً للعون. لم تتردد فانيسا، في تشبثاتها لنقض قرار المحكمة، بأن تطلب من شقيقتها استعمال نفوذ غير مشروع. كانت ترجو أن تتمكن فرجينيا من إقناع الليدي روبرت سيسيل لتكلم اللورد سالسبوري بشأن دنكون لنقض قرار المحكمة. وما كانت فرجينيا لتستطيع رفض هذه الوساطة فهي لا تصم أذنها عن طلب يمسّ فانيسا مساً عميقاً؛ فكلفت الليدي روبرت بالأمر، وكتبت هذه إلى قريبها اللورد، لكنه لم يستطع التدخل، وأنتهت مسألة الوساطة.

بعد هذا الفشل ذهب ليونارد وفرجينيا في تموز ١٩١٦ للإقامة مع دنكون غرانت وديفيد غارنيت وفانيسا، وكانوا يحاولون آنئذٍ إدارة حقل في ويزيت Wissett في سافولك. كانت الزيارة مهمة لفرجينيا لما كان لها من تأثير على روايتها القادمة.

وتمكنت مرة أخرى من أن تكتب ولكنْ يبدو أن الكتابة كانت مقننة لها تقنيناً حازماً جداً. كتبت إلى ليتون بعد تلك الزيارة تقول :

«إن جهدي لا يثمر إلا النزر اليسير من النتائج، وبدأت أقنط من إتمام أي كتاب ـ فأنا أكتب جملة واحدة ـ وتدق الساعة ـ ويظهر ليونارد وبيده كأس الحليب. مع ذلك سأقول إن الأمر لا يهم كثيراً. إن ويزيت تشل المطامح كلها ـ ألا تظن أنهم قد اكتشفوا سر الحياة؟ أظن أنها حالة رائعة».

قد يعني هذا الكلام أنه قد خُصِّصت لها ساعة، أو ساعتان، للعمل في كل صباح. وعلى أية حال كان عقلها نشيطاً بالتأكيد، وقد كتبت عند رجوعها من ويزيت إلى فانيسا تقول :

«أنا معنية جداً بحياتك، وأفكر بكتابة رواية عنها. إن الإقامة معك شيء مهلك ـ فأنت تبادرين بإبداء عدد كبير من الأفكار الجديدة».

إن الأفكار الجديدة التي بدرت عن فانيسا ستتطور في واقع الأمر إلى رواية «الليل والنهار».

وعلى الرغم من فشل وساطة فرجينيا مع آل سيسيل فإن دنكون غرانت، وكذلك ديفيد غارنيت الذي كان في ورطة مشابهة، قد أعفيا من الخدمة العسكرية بشرط قيامهما بأعمال زراعية متفرغة. وقد بدا لهما لأسباب متنوعة أن من الأفضل مغادرة سافولك. ومن الطبيعي أنهما فكرا بساسيكس. كانت فرجينيا قد كتبت أصلاً إلى فانيسا في أيار تقول :

«ليتك تتركين ويزيت وتأخذين جارلستون. يقول ليونارد إن هذا منزل رائع وينصحك بقوة أن تستأجريه. . . وهو على بعد ميل واحد من فيرل. . . تحت السفوح. وله جنينة أخاذة، مع بركة، وأشجار فواكه، وخضروات، وكل هذا على حالته البرية ولكنّ بوسعك أن تجعليه رائعاً. المنزل لطيف جداً وذو غرف كبيرة. . . هناك مرافق وحمام، ولكن الحمام فيه ماء بارد فقط. . . ويبدو أنه مكان جذاب للغاية ـ

وعلى مسافة أربعة أميال منّا، لذا فلن نضايقك».

كان هذا سابقاً لأوانه. ولكنْ حين ظهرت مجدداً، في تموز، مسألة مستقبل السكن لفانيسا على نحوٍ أكثر عجالةً فقد نشطت فرجينيا في إجراء الاستقصاءات نيابةً عنها. في أيلول جاءت فانيسا نفسها إلى ساسيكس وانهت الأمر، فاستأجرت جارلستون ووجدت عملاً في حقلٍ مجاور لدنكون ولديفيد، وانتقلت إلى البيت الجديد في تشرين الأول. بدا الوضع ميسّراً، فهو يعني أن الشقيقتين ستكونان قريبتين إحداهما من الأخرى. فهل كان هذا القرب مرغوباً فيه؛ من الواضح أن فانيسا ظنته كذلك، وإلا فإنها ما كانت لتلجأ بطلبها إلى فرجينيا ابتداءً؛ أما فرجينيا فكانت قد حثت أختها برسالة تلو أخرى أن تترك سافولك وتأتي إلى ساسيكس. مع هذا فثمة شك يحيط بالمسألة. كتبت فانيسا إلى ليتون تقول:

«أظن أن الزوجين يشعران تجاهنا جميعاً بفزعٍ خبيث ـ لا أدري لماذا. كأنهما يحسبان أننا سنلوث الجو وندخل المباهج الشريرة في حياة فرجينيا. ليتهما يشهدان الحياة الهادئة التي نحياها! إن منطقة السفوح فسيحة لنا جميعاً بالتأكيد، ولا داعي أن يخشيا من التدفق المستمر من وإلى آشام ما دام الزوجان ساكنين فيه ـ وبالطبع قد يوفر منزل آشام غرفاً احتياطية نافعة لنا حين لا يكونان فيه».

أوضح ليونارد إلى ليتون أن اعتراضه على وجود فانيسا في منطقة مجاورة يتلخص بأن فرجينيا ستصر بالتأكيد على الذهاب لزيارة فانيسا سيراً على الأقدام في أيام الآحاد، أي أربعة أميال ذهاباً وأربعة أميال إياباً، الأمر الذي سيكون مضراً بصحتها. هذا ما زعمه ليونارد، ولكن هناك «في خلفية الوضع شيئاً من نظرية التلوث».

لعل هذا مكرٌ منه؛ لكنّ قوله قد يكون صحيحاً ـ إلى حدٍ ما. إن

فرجينيا وليونارد ما كانا سيعترضان على وجود دنكون وفانيسا جارين لهما لو كانا وحدهما فقط ؛ لكنهما لا يأتيان وحدهما، بل يجلبان الأطفال ويجلبان أيضاً ديفيد غارنيت.

كانت الزيارة الأولى لديفيد غارنيت إلى آشام زيارة منكودة، هذا إذا أردنا وصفها بأخف العبارات. فحين جاء إلى ساسيكس لمقابلة المزارع الذي سيستخدمه هو ودنكون غرانت، اصطحب معه فتاتين من طالبات الفن هما باربارة هايلز Barbara Hiles ودورا كارينغتون Dora Carrington. داهم هذا الجمع الليل قريباً من منزل آشام ولم يكن الزوجان وولف فيه، فاقتحموه وقضوا الليلة هناك. وقد شوهدوا وهم يخرجون في الصباح الباكر فبلغ نبأ هذا السطو أسماع ذوي العلاقة قبل وصول إيضاح ديفيد غارنيت عنه، أو بالأحرى قبل وصول الإيضاح الذي طلب هذا من فانيسا أن تختلقه له.

ثمة أناس لا يمانعون أن تقتحم بيوتهم من قِبل الأصدقاء، بل حتى من متطفلين كهؤلاء وهم ليسوا أكثر من معارف ؛ لكن أهل ذلك المنزل لم يستسيغوا ما جرى. استاءت فرجينيا. وتفاقم الحال من جراء إيضاح غارنيت نفسه وكان إيضاحاً غير موفق كما قالت فانيسا بالذات، وزاد في الطين بلّة أن ديفيد غارنيت كان قد أخذ من المنزل «كتاب أوكسفورد للشعر» الذي كانت فرجينيا تحتفظ به قرب سريرها.

هؤلاء هم إذن نوع الجيران الذين تنوي فانيسا أن تأتي بهم، وكلهم من «المتحررين» ومن «خلاعيي بلومزبيري» وأنصاف المثقفين من دنيا الرذيلة ! قالت فرجينيا «لسنا تواقين أبداً أن يكون لنا جيران (سواك)». فهل ستصبح جارلستون بمثابة غارزنغتون أخرى، فيحفل المكان بتلامذة الفن غير المتمسكين بالأعراف السائدة، وباللا أخلاقيين الناهضين للمجتمع والمثيرين للضوضاء ممن لا يشغل بالهم شيء آخر؟.

لعل فانيسا اختارت أن تجاري ليونارد وفرجينيا في وجهة نظرهما نظراً للظروف السائدة يومئذ. ذلك أن فرجينيا لم تكن بحالٍ يسمح بإزعاجها من أمثال هؤلاء، كما أن ليونارد لا يرغب كثيراً برؤيتهم. والواقع أن الخطر الذي تهددهم كان خيالياً ؛ فقد كان ديفيد غارنيت من الكياسة بحيث لم يسيء إليهم في المستقبل، ثم إن الزوجين وولف هما اللذان شجعا باربارة هايلز على زيارتهما. ولكنْ كان هناك اعتراض آخر لم تستطع فانيسا أن تقر بوجاهته وكان اعتراضاً حقيقياً ؛ كان من المستحيل على فرجينيا أن ترفض زيارات صغار فانيسا ومربيتهم، كما كان من المستحيل على ليونارد ألاّ يمتعض منها، وستكون تلك الزيارات، على مدى سنين، خطراً حقيقياً يهدد السكينة في آشام.

كان الدور غير المشكور الذي وقع على عاتق ليونارد هو دور رقيب الأسرة الصارم. فقد كان عليه أن يتأكد من ألاّ تستقبل فرجينيا كثيراً من الزوار، وأن يمنعها من القيام برحلات منهكة، وأن يتحقق إذا خرجت من أن تعود مبكراً، أما إذا استقبلت ضيفاً فألاّ يبقى الضيف طويلاً. لم يكن يسعه في ١٩١٦، وفرجينيا تتماثل إلى الشفاء ببطء، أن يجازف بشيء أو أن يهمل الحيطة والحذر. جعله هذا يبدو منحوساً. كان من الصعب على الضيف وعلى فرجينيا ذاتها التصديق بأنها ليست على ما يرام. ولكنّ قضاء أيام متعددة بصحبة الآخرين، أو حضور حفلةٍ ما، أو الذهاب إلى لندن، من شأنها أن تعيد الصداع وليالي الأرق مما لا يمكن شفاؤه إلا بفترات طويلة من الاستراحة والعزلة.

ولكنْ كان هناك شيء ما في الأمر أكثر من هذا ؛ فحتى لو كانت فرجينيا بصحة جيدة فإن ليونارد سيكون مع ذلك ميالاً بسليقته إلى الحياة المنزلية، وجاد التفكير أكثر مما هم عليه الشبان الآخرون من مجموعة الليدي أوتولين. كان طبعه أشد قساوةً من طباعهم، وعاداته أكثر جداً ووقاراً من

عـاداتهم، وكـان بينه وبينهم أيضـاً ذلك الفـارق الـذي يتـمـثل بأن سكان جارلستون كانوا أكثر تسامحاً منه تجاه التفاهة التي تتاخم السخف. ما كان له أن يدين «طريقة حياة» فانيسا، لكنه ربما اعتبرها طريقة حياة متداعية بعض الشيء، وقانطة شيئاً ما. إن موقفه على ما أحسب كان يتميز بمسحة لا تكاد تبين من عدم الاستحسان. وقد شاركته فرجينيا بهذا الحسن على نحوٍ ما ـ إنما ليس كلياً.

كانت فرجينيا تعتقد بأنها قادرة تماماً على ركوب الدراجة الهوائية ذهاباً وإياباً إلى جارلستون؛ وكانت على يقين بأن زيارتها إلى فانيسا لن تؤدي إلا إلى الخير، ولعلها كانت ستتقبل صغار أختها كما تقيّمهم أمهم ـ مرةً واحدة فقط في الأسبوع على أية حال؛ وهي إن كانت قد حدّت من زياراتها إلى أختها ومنعت زيارة الصغار إلى منزلها فهي (على حد ما كتبته إلى فانيسا) إنما تفعل ذلك إكراماً لزوج يصبح في «حالات» غير معقولة حين تحيا هي حياة اجتماعية معقولة. والواقع أنها لم تكن متسقة تماماً في هذه الأمور؛ كانت تود أن تكون غير منضبطة (من وجهة نظر ليونارد)، ومع هذا فهي تحترم آراءه. لقد كانا على اتفاق في الأمور الجدية كلها، بل انها كانت تقر في العادة بأنه على صواب حتى في الأشياء الصغيرة حين تعيد النظر فيها بتبصر.

إن بحثي هذا قد أخذني إلى ما بعد ١٩١٦، إذ ان فانيسا لم تستقر في جارلستون حتى تشرين الأول من تلك السنة (بعد التجاوز الذي قام به ديفيد غارنيت في آشام)، أما الأحداث الاجتماعية التالية فتعود إلى سنتي ١٩١٧ و١٩١٨. والواقع أن أشهر الخريف والشتاء لسنة ١٩١٦ كانت هادئة وغير حافلة، وقد طوّر ليونارد وفرجينيا خلالها نمطاً من العيش في دار هوغارث التزما به على وجه العموم طوال حياتهما. فهما يكتبان في الصباح، ويمشيان بعد الظهر، ويقرآن في المساء؛ وتدعو أشغال السياسة أو

النشـر أن يذهب ليونارد إلى لندن مرةً أو مرتين في الأسبوع، فـتصحبه فرجينيا لتزور المكتبات أو المخازن أو الصالات الموسيقية أو الأصدقاء. ثم يلتقيان وقت الشاي ويتناولان العشاء في مطعمٍ ما أو يقفلان عائدين إلى الدار. كان أصدقاؤهما يأتون إليهما في رجموند لتناول الشاي أو العشاء، وغالباً ما يقضون الليلة عندهما. وفي أيام الآحاد تتحول مسيراتهم بعد الظهر إلى استكشافات أكثر طموحاً في أغلب الأحيان، إذ قد يستقلان حافلة أو قطاراً فيذهبان بعيداً ـ وربما ينتهيان بزيارة إلى أهل ليونارد.

في الخريف أصبحت فرجينيا عضواً نشطاً في فرع رجموند للجمعية التعاونية النسوية، فهي تترأس مرةً في الشهر اجتماعاً يعقد في دارها حيث تكون مسؤولة عن إحضار متكلم.

ظلت تفي بهذا العمل خلال السنين الأربع التالية، ثم استقالت بعدها. في تلك الفترة الزمنية أقنعت ليونارد وعدداً آخر من أصدقائها بأن يحاضروا في الاجتماعات («حظينا في الأشهر الثلاثة الماضية بالألمعية والروعة ـ فقد تكلم فورستر عن الهند وبوب تريفيليان عن الصين وماري شيبشانكز عن بيرو»). كان بود عضوات الجمعية أن يتنوع موضوع الحديث بين حينٍ وحين، لكن الموضوع الذي كان يطرق يأتي أحياناً مزعجاً للحاضرات فتضيق به صدورهن. ففي ٢٣ كانون الثاني ١٩١٧ خطبت فيهن السيدة بيسي وورد Bessie Ward وهي من مجلس الحريات المدنية. تكلمت عن التجنيد الإلزامي، وعلى الأخص عن احتمال تجنيد النساء. ما ان لحظت وجود فتاتين هادئتين بين الحضور حتى قالت إنها ستتطرق إلى مسائل «أخلاقية» فهل لها أن تستمر؟ لم يعترض أحد، فواصلت كلامها تصف ببعض التفصيل أخطار الأمراض الزهرية والمخاطر التي يتعرض لها الجنود الشبان من العدوى، وما إلى ذلك. خيّم صمت غريب عند انتهاء الكلمة، وشكرت فرجينيا هذه المتكلمة. غادرت سيدتان المكان فوراً، وبكت إحدى

النسوة البدينات، وتفرق الحضور عدا السيدة لانغستون وهي عضو نشط يعتز به في الجمعية، وقد عبرت عن مشاعر غضبها الشديد.. قالت «لا تستطيع إلقاء مثل هذا الخطاب إلا المرأة العاقر، فالأمهات يحاولن نسيان المآسي التي يعاني منها أبناؤهن». وانفجرت بالبكاء.

لم تندم فرجينيا. قالت وهي تسرد المسألة بأسرها في رسالة إلى مارغريت لويلين ديفيز إنها لم تسمع من قبل قط بمثل هذا الهراء ؛ أما السيدة وورد المسكينة فكانت قد تعودت على تلك المواقف ـ لقد ذرعت البلاد طولاً وعرضاً وهي تستدر مثل تلك الدموع، وتثير الاستنكار أينما ذهبت. والظاهر أن مارغريت قد أجابت فرجينيا بأن قلق النسوة على أبنائهن شيء طبيعي جداً فوافقتها هذه في رسالة أخرى على قولها هذا ولكنها ظلت تجد من المستغرب بقاء العاملات جاهلات بمحض اختيارهن بمسألة وثيقة الصلة بهن. أما طاهيتها نيللي بوكسول فقد أقرت بالصدمة ووافقت على أن من الصواب معرفة النساء بأمور كهذه. والواقع أن النساء الأخريات وافقن على هذا مع الزمن وأبلغن فرجينيا بذلك ؛ بل طالبن بمحاضرة عن الثقافة الجنسية ـ وقد رأت فرجينيا أن كل هذا قد رفع من شأنهن.

في هذه الأثناء تعرفت فرجينيا على صديقة جديدة ومهمة، هي الكاتبة القصصية كاترين مانسفيلد. كان ليتون هو الذي اقترح عليها مقابلتها ـ «. . . إنها مخلوقة مثيرة للاهتمام بالتأكيد، مؤنسة جداً وغامضة كثيراً. وقد تكلمت بحماس كبير عن روايتك (رحلة الخروج) وقالت إنها ترجو التعرف عليك. فقلت لها إن من الممكن ترتيب ذلك. فهل كنت متسرعاً؟» كانت كاترين موجودة يومئذٍ في كورنوول، وكانت فرجينيا ستمضي أسبوعين قرب سانت آيفز في نهاية أيلول، فأجابت ليتون تقول «إذا رأيت أحداً يجيب نيابةً عنك من على صخرة أو في البحر فسأبادرها بالكلام». لكنها

لم تفعل ؛ إذ يفترض أن ذلك اللقاء جرى في لندن في أواخر السنة. في ذلك الوقت كانت كاترين مانسفيلد وجون مدلتون موري Murry الناشر المعروف يسكنان هما ودورا كارنغتون ودوروثي بريت Brett في شارع غوار Gower St. في المنزل الذي استأجروه من مينارد كينز بعد أن تركه هذا وانتقل إلى بلومزبيري واستأجر منزل الزوجين بيل هناك. في شباط ١٩١٧ كانت فرجينيا وكاترين على صلة وثيقة تبرر لفرجينيا أن تكتب إلى فانيسا فتقول : «لقد تقبلت كاترين مانسفيلد بعض الشيء ؛ إنها تبدو لي شخصية غير لطيفة ولكنها قوية ولا تتحرج من شيء على الإطلاق».

كانتا تختلفان دائماً وتتفقان دائماً، يجمعهما الإخلاص للأدب وتفرقهما منافسة الحرفة الواحدة. كانت إحداهما تجد الأخرى جذابة جداً وفي الوقت عينه مثيرة للأعصاب جداً. كانت هذه مشاعر فرجينيا بالتأكيد. كانت معجبة بكاترين ؛ وكانت كذلك مفتونة بذلك الجانب من حياتها الذي هو خارج طاقتها العاطفية. لقد تقلبت كاترين في أحضان الدنيا فمسّها القرح ؛ كانت قد أطلقت العنان للغرائز الأنثوية كلها وضاجعت الرجال من أنواع شتى، صارت محلاً للإعجاب وللإشفاق معاً. كانت مثيرة للاهتمام، معرضة الجناح للأذى، موهوبة وفاتنة. لكنها كانت كذلك تتزيّى كبغيّ وتتصرف كعاهرة. أو هكذا بدت أحياناً إلى فرجينيا ؛ وقد أعجبت هذه بقصصها على النحو ذاته، فهي قصص قوية الملاحظة، عميقة الغوص في الأعماق وفاجعة جداً ولكنها أحياناً تبدو لها قصصاً رخيصة جداً وسطحية جداً. وأظن أن كاترين مانسفيلد بادلت فرجينيا الإعجاب كما بادلتها العداء. لعلها كانت ترهب فرجينيا بعض الشيء وفي الوقت عينه كانت تستمتع بصحبتها، ولم تتردد في أن تسرّها وتؤلمها معاً. كانت الشكوك المتبادلة كبيرة، ولكن هاتين الكاتبتين كانتا تحسان بيسر الرفقة وبالاشتراك في هموم الحرفة الواحدة.

كانت فرجينيا بالتأكيد تظن خيراً بمواهب كاترين، حتى أنها أرادت أن تطبع لها إحدى قصصها. ومما يذكر أن الزوجين وولف كانا يفكران في سنة ١٩١٥، قبل انهيار الكاتبة، بشراء مطبعة لهما. والآن وقد تحسنت صحتها فقد جرى إحياء هذه الفكرة. كان غرض زوجها من هذا غرضاً علاجياً إلى حدٍ ما، إذ سيكون من المفيد لفرجينيا أن تنشغل بعملٍ ما يدوي ؛ لكنهما كلاهما من الكتاب، لذا فإن فكرة طبع أعمالهما ونشرها، ولو كان كذلك على نطاق ضيق تحدده المطبعة اليدوية، هي فكرة مغرية جداً. كانت فرجينيا تتحدث مرة أخرى في تشرين الأول ١٩١٦ عن الحصول على مطبعة، وبدأت هي وليونارد يفكران بتلقي دروس عن الطباعة. ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً، فمدارس الطباعة لا تقبل الهواة من متوسطي العمر، فكان عليهما في النهاية أن يتعلما بقراءة كتاب عن هذه الصنعة. ثم برزت صعوبة أخرى ؛ فليس لديهما ما يكفي من المال لشراء المطبعة.

لقد قيل مراراً إن مطبعة هوغارث قد تأسست من ربح ليونارد في سباق الخيل في كلكتا. ويبدو هذا أساساً لطيفاً لتشييد عملٍ عليه ؛ لكن تلك المرابح كانت قد اكتسبت قبل أمد طويل من زواج ليونارد من فرجينيا، والواقع أن المطبعة بدأت برأسمال يبلغ نحو ٤٢ جنيه استرليني ـ ولم يكن جمع حتى هذا المبلغ بالأمر اليسير.

حين قالت فرجينيا لفيوليت دكنسون في سنة ١٩١٢ إنها تتزوج يهودياً معدماً فإنها لم تكن تبالغ إذا فهمنا معنى كلمة معدم كما فهمها الأصدقاء. ذلك أن هؤلاء يعتبرون الدخل الذي يقل عن ستمئة جنيه استرليني بمثابة الإملاق، ثم ان ليونارد الذي كان يكسب ٢٦٠ جنيهاً استرلينياً سنوياً من وزارة المستعمرات قد قل دخله نتيجة استقالته أقل من ذلك بكثير. وكانت أمه عند وفاة أبيه قد ورثت من المال ما يكفي فقط لإعالة نفسها وأطفالها التسعة ولتعليم البنين تعليماً جيداً. وكان على هؤلاء بعد انتهاء تعليمهم أن يكسبوا رزقهم بأنفسهم. وقد تمكن ليونارد براتبه، وكذلك بمرابحه من سباق

الخيل دون شك، من أن يوفر نقوداً تولى تنميتها بالمضاربة. إن استثماراته، كما ورد في يومياته، بلغت في بداية سنة ١٩١٢ زهاء ٥١٨ باون، وكانت تدر فائدة قدرها ثلاثون جنيهاً استرلينياً على وجه التقريب، وهذا ليس من الرفاهية بشيء حتى بمقاييس ١٩١٢. كانا يرجوان، هو وفرجينيا، أن يكسبا مالاً من الكتابة، لكن رواياتهما لم تكن تدر إلا أقل من ٢٥ جنيهاً استرلينياً في السنة، ومع أن ليونارد كان يكسب شيئاً من الصحافة إلا أن فرجينيا لم تكن قادرة منذ ١٩١٣ على كسب أي شيء على الاطلاق، فضلاً عن أن مرضها كان يكلف كثيراً.

ولحسن الحظ كان لدى فرجينيا مالها الخاص. ليس من السهل معرفته. فحين مات سير لزلي ستيفن في سنة ١٩٠٤ وفتح أبناؤه بيتاً مشتركاً لهم في بلومزبيري سئلت فانيسا، وكانت مسؤولة عن الوضع المالي، من صديقة قديمة للأسرة عن مقدار دخلهم، فكتبت تقول:

«حين أجبتها بأن دخلنا على ما أظن هو ٣٠٠ باون سنوياً للفرد الواحد منا قالت لي إن هذا على ما يرام ـ لو قلت ٢٠٠ لكان ذلك قليلاً جداً، أما ١٢٠٠ كمجموع فمبلغ طيب ولا داعي للقلق. ولم يصبنا القلق ـ لكن دخلنا كان خيالياً إلى حدٍ كبير، إذ كان يعتمد على التأجير الجيد لمنزل هايد بارك غيت الذي ظل خالياً بشكل متواصل سنين متعددة من جراء سوء إدارة دكوورث. وليس هذا فقط بل كان أدريان في كيمبردج وثوبي يحضّر لإجازة المحاماة، ولم نكن لا أنا ولا فرجينيا نكسب شيئاً. ثم كانت هناك خادمات العائلة القديمات اللاتي اعتبرن أن من المفروغ منه أن يستمر كل شيء كالسابق، كما اعتبرنا نحن ذلك مفروغاً منه. كان يساورني أحياناً شك غامض بأننا نقبل على الإفلاس، لكنني كنت أسمع من أبي طوال حياته أننا سرعان

ما سنجد أنفسنا في دار الفقراء فتعودت على ألا آخذ ذلك مأخذ الجد».

كان لدى فرجينيا، التي ورثت بعض المال من أخيها ثوبي وآخر من عمتها كارولين أميليا، رأسمال مستثمر ـ «نظرياً» على حد قول ليونارد ـ قدره ٩٠٠٠ جنيه استرليني ؛ كان هذا المبلغ يدر أقل من ٤٠٠ جنيه سنوياً[١].

كان الزوجان يعيشان في سنة ١٩١٤ ضمن حدود دخلهما ؛ وكانت أجور الأطباء باهظة بلا ريب في تلك السنة بالذات، وحين ذهبا لقضاء إجازة في نورشمبرلاند أضطرت فرجينيا أن تقترض من فانيسا مبلغ (١٥) جنيهاً كدفعة على حساب نصيبها من بدل إيجار آشام. وقد وضع ليونارد في سنة ١٩١٥ الحساب الآتي بمصاريفهما :

الايجار	١٣٠
الطعام	١٥٦
مصاريف جيب	٥٢
أطباء ودواء	٢٥
ملابس	٥٠
متفرقة	٣٠
المجموع	٤٤٣ بـاون

(١) بعد وفاة أختهم غير الشقيقة ستيلا في ١٨٩٧ أخذ زوجها جاك هيلز يوزع الدخل الناجم عن استثمار مهرها بين فانيسا وفرجينيا، واستمر يوزع ذلك حتى زواجه الثاني (في ١٩٣١). وقد ورثت فرجينيا ثلث تركة ثوبي (وقدرت بمبلغ ٦٦٨١ باون) في سنة ١٩٠٦، وورثت ٢٥٠٠ باون من كارولين أميليا في ١٩٠٩. وقد حاولت أن تقنع أدريان بأن يأخذ نصف هذا الإرث فلم تفلح في ذلك على ما أظن.

ربما كانت أجور الأطباء قد أجل دفع أغلبها حتى سنة ١٩١٦، مع أنها تبدو أجوراً معقولة نسبياً. وفي تلك السنة كان الزوجان قد استقرا مع الخدم في آشام وفي دار هوغارث، فتغيّر نمط الصرف ؛ في الوقت عينه بدأت فرجينيا تكسب مالاً مرة أخرى في حين تناقصت موارد ليونارد بعض الشيء.

	المقدّر	المصروف (بالباون)
البيتـــــــــان	١٤٠	١٢٩ باون وخمسة شلنات وثمانية بنسات
متفرقة للبيتين		
(مع الوقود والأثاث إلخ)	٥٠	٦٩ باون ـ ٠ ـ ٨
الطعام	٢٢٠	٢٢٠ باون ـ ٥ ـ ٢
الخدم	٦٠	٦٧ باون ـ ٢ ـ ٢
الأطباء	٢٥	٨١ باون ـ ٣ ـ ٣
الملابس (فرجينيا)	٣٦	٣٠ باون ـ ٨ ـ ٧
الملابس (ليونارد)	١٤	١٤ باون ـ ١ ـ ٥
نثرية	٥٠	٦٦ باون ـ ١٧ ـ ٩
المجموع	٥٩٥	٦٧٨ باون وأربعة شلنات وثمانية بنسات

وضعت تقديرات ليونارد في بداية ١٩١٦، وقد جرى تجاوزها كما نرى بمبلغ يزيد قليلاً عن ثلاثة وثمانين باوناً، وذلك من جراء قوائم الأطباء بالدرجة الأولى وكانت مرتفعة بصورة غير متوقعة. أما بالنسبة إلى الفقرات الباقية فيبدو أن الزوجين كانا يمارسان الاقتصاد بشيء من العناية ؛ إن تجاوز الزوج للمبلغ المقدر لملابسه بمقدار شلن واحد وخمسة بنسات يظهر أن العسر كان شديداً. والفقرة الخاصة بالخدم هي فقرة جديدة، ويلاحظ أن أجورهم مجتمعة بلغت أقل من أجور الأطباء وأقل من بدل إيجار البيتين، أما زيادة المصروفات على الطعام فهي ناشئة بالطبع من جراء وجودهم إلى

حد كبير. حاولت فيوليت دكنسون في تلك السنة، وقد أدركت صعوبة الزوجين المالية، أن تقرضهما بعض المال ولكنها لم توفق في ذلك. إن الحسابات المفصلة للغاية التي مسكها ليونارد (حاولت فرجينيا مسكها ثم تخلت عن ذلك سريعاً) تظهر أنه كان يدون كل فلس. كانت نفقات الجرائد والسجائر تسجل بدقة واستمرت تسجل مدة طويلة بعد انتفاء الحاجة للحسابات الصارمة ؛ ولا شك أن الزوج كان يجد سروراً بمثل هذه الدقة المتناهية حتى صار ذلك غاية بذاتها ؛ أما في السنين الأولى من حياتهما الزوجية فقد كانت مثل هذه العناية ضرورية. وليس من السهل العثور على مفردات يمكن تصنيفها تحت باب الكماليات ؛ وأظن أنه كان هناك مبلغ ما منفصل للزيارات النادرة لصالات الموسيقى والسينما، وهي من المباذخ التي سمحا بها لنفسيهما أحياناً، لكني لم أجد ذكراً لها. وأقرب شيء للكماليات اكتشفته هو نحو خمسة شلنات للسجائر ونحو شلنين للأزهار وأكثر من باونين بقليل للإكراميات والهدايا وزهاء ثلاثة شلنات للورق الملون (وفرجينيا مغرمة به) ونحو شلنين ثمن طوق للكلب. وصرفوا ما ينوف على ثلاث باونات لشراء الكتب والاشتراك في المكتبات، لكن هذه لا تكاد تصنف في حقل الكماليات. ليس هناك ذكر للنبيذ والكحول والأسطوانات والسيجار وسيارات الأجرة والحفلات الموسيقية ـ الأشياء التي سيتمتعان بها في سنين لاحقة.

إن إقامة بيتين واستخدام خادمتين لا يمكن وصفه بالفقر ؛ إلا أن العائلة لم تكن بمقاييس طبقتها على رخاء. كانت الأسرة في السنوات ١٩١٤ و١٩١٥ و١٩١٦ في ضيق بنظر الأصدقاء. ولا شك أن المطبعة كانت قد اشتريت عن طريق بيع بعض الأسهم التي يملكانها[١]. لكن من الواضح

---

(١) ربما باع الزوجان وولف أسهماً لتسديد قوائم الأطباء أيضاً. ليس هناك دليل على هذا والظاهر أنه كانت لديهما مصادر أخرى : «. . . وبعت أقراطي وقلائدي القليلة». من رسالة فرجينيا إلى أثيل سمايث في ١ أيار ١٩٣١.

أنهما كانا مترددين في هذا. كانت نيتهما منصرفةً إلى استعمال الدخل الناجم عن تخفيض في الضريبة يعيد إليهما ما يقدر بخمسة وثلاثين جنيهاً استرلينياً كانا يتوقعان تسلمه في كانون الأول ١٩١٦. لكن ذلك التخفيض لم يزد عن خمسة عشر جنيهاً. فكان يتحتم العثور على مزيد من النقد وقد فكرا بتحصيله عن طريق بيع ما ورثته فرجينيا من مخطوطات الروائي ثاكري إلى مكتبة بيربونت مورغان Pierpont Morgan وكان أدريان سيتولى هذه الصفقة، لكنهما وجدا المال من مصدر آخر قبل إتمامها. وفي ٢٣ آذار ذهب ليونارد بصحبة فرجينيا إلى شارع فارنغدون واشتريا مطبعة.

وصلت بعد شهر واحد. فتحا صناديقها بمشاعر دافقة وحملاها إلى غرفة الجلوس، فاكتشفا أن جزءاً جوهرياً منها قد كسر. أرسل ليونارد بطلب البديل. ثم بدآ، كالأطفال الفرحين بهدايا عيد الميلاد، يقسّمان كتل الطبع إلى حروف منفصلة. وضاع بعضها مختمياً تحت السجادة، وكان أيضاً أن خلطت فرجينيا في الحال علبة حروف الهاء بحروف النون.

كتبت فرجينيا إلى فانيسا تقول : «ها أنا أجد أن الطباعة الفعلية ستبتلع حياتي بأسرها، سأزور كاترين مانسفيلد لعلي أحصل منها على قصة»، وبعد ذلك بأسبوع كان ليونارد يخبر مارغريت لويلين ديفيز أنه يتمنى لو لم يكن قد أتى قط بهذا الشيء اللعين لأنه لا يفعل شيئاً الآن سوى الطبع. وقد قرر هو وفرجينيا أن أول ما سينشرانه يجب أن يكون جهداً مشتركاً فاستطاعا في السابع من أيار أن يوزعا بالبريد على المشتركين المحتملين إعلاناً مكتوباً باليد : «نقترح أن نصدر قريباً كراساً يحتوي على قصتين قصيرتين بقلم ليونارد وولف وفرجينيا وولف (الثمن، بضمنه البريد، شلن واحد وبنسان)».

كانت فرجينيا في هذا الوقت تعمل جاهدةً لملحق التايمز الأدبي[1]. في

---

(١) يحصي كير كباتريك في (فهرست أعمال فرجينيا وولف، ١٩٦٧) ١٢ مقالة في ١٩١٦ و٣٢ في ١٩١٧.

الوقت عينه كانت الفكرة التي تخيلتها في ويزيت في تموز ١٩١٦ تكبر حجماً لتتخذ شكل رواية فأشغلت بالها على نحوٍ متزايد. وفي يوم عيد الفصح في سنة ١٩١٧ جاء دنكون وفانيسا من چارلستون لتناول الشاي في آشام، فتمكنت فرجينيا من الحديث حديثاً مريحاً، صميمياً، مع شقيقتها وأن تخبرها «بكل شيء عن روايتها الجديدة».

وكتبت فانيسا تقول :

«أنا هي الشخصية الرئيسية في الرواية وأتوقع أن أظهر فيها فتاة شديدة التمسك بالأصوليات إلى حد الازعاج، وقاسية جداً، ولكنْ لعلك ستدرك ما كنت أنا عليه في سن الثامنة عشرة. وأظن أن أكثر الشخصيات إثارة للاهتمام هي أمي على ما هو واضح وستكون شبيهة بالليدي ريتشي بالضبط وبكل التفاصيل. وسيعرف الجميع بالطبع من هي».

كانت رواية «الليل والنهار» مسألة اعتيادية كما قصد منها أن تكون. أرادت فرجينيا أن ترى هل أن بوسعها أن تحقق كتابة رواية تقليدية وأصولية كاملة. كذلك أرادت أن تكتب شيئاً لا يقرّبها كثيراً إلى الهاوية التي لم تخرج منها إلا حديثاً. إنها في الفصول الأخيرة من رواية «رحلة الخروج» كانت قد لعبت بالنار. فقد أفلحت بالإتيان من أقاصي الأعماق ببعض الشياطين التي قطنت عقلها وجاءت بهم على نحوٍ هائل وفظيع، فذهبت في ذلك بعيداً التماساً للراحة. إن تلك الرواية والجهود النهائي لتقديمها إلى الملأ كان قد عبر بها حافة العقل ولا يسعها المخاطرة بتكرار تلك العملية المريعة مرةً أخرى. لذلك أقبلت عامدةً على شيء متعقل، شيء غير مقلق تماماً. إنها ستلجأ إلى هذه الوسيلة في المستقبل فتعقب الرواية المضنية جداً بشيء أكثر خفةً وسهولة ؛ وهكذا أعقب كتاب أورلاندو Orlando رواية

«إلى الفنار»، وأعقب كتاب فلاش Flushرواية «الأمواج» وأعقب كتاب «ثلاثة جنيهات» رواية «السنين» ؛ فالرواية الثقيلة الوزن يعقبها كتاب خفيف الوزن ـ كتاب هو عبارة عن «مزحة» كما كانت تسميه. كانت رواية «الليل والنهار» أكثر من مزحة، ولكنها على الرغم من أبعادها الطموحة كانت عملاً علاجياً. لم تستمتع بكتابتها على وجه العموم. وقد قارنتها وهي تكتب إلى أثيل سمايث بعد سنين بالرسم نقلاً عن نموذج مصبوب ـ عبارة عن تمرين أكادمي. وبدأت تعد نفسها بإجازة ـ بنوع من السفر إلى تلك الأصقاع الخطرة التي كانت محرمة.

> «كانت تلك الأصقاع هي التسلية التي أبيحها لنفسي حين أنجز تمريني اليومي في أسلوب الكتابة التقليدي. ولن أنسى أبداً اليوم الذي كتبت فيه قصتي القصيرة «علامة على الجدار» ـ كتبتها كلها بلمحة بصر واحدة كما لو كنت أطير بعد أن أجبرت على البقاء وأنا أكسر الحجر أشهراً. على أن (الرواية غير المكتوبة) كانت هي الاكتشاف العظيم. وأظهرت لي تلك الرواية ـ وقد كتبتها أيضاً بثانية واحدة ـ كيف أني أستطيع تجسيد مكنوناتي كلها من الخبرة في شكلٍ يلائمها. . . رواية (غرفة يعقوب). . . رواية (السيدة دالاواي) إلخ. كم هزتني الانفعالات ـ من ثم دخل ليونارد فشربت الحليب وأخفيت انفعالاتي وكتبت صحيفة أخرى من تلك الرواية المتقطعة (الليل والنهار)».

لم تكن رواية «الليل والنهار» في صيف عام ١٩١٧ قد أوشكت على التمام، وحتى لو أنها كانت كذلك فهي أضخم حجماً بكثير مما يمكن لمطبعة يدوية أن تتولاه. أما الذي صدر عن مطبعة هوغارث في تموز فلم يكن سوى قصة «العلامة على الجدار» مع قصة «ثلاثة يهود» بقلم ليونارد

تحت عنوان (منشورات رقم ١. قصتان).

إن هذا النشر والاستقبال الحسن له[١] (من جمهور صغير جداً، إذ لم يطبع من ذلك الكراس سوى مئة وخمسين نسخة فقط) كلاهما له صلة بصحة فرجينيا، فالنشر هو نتيجة لتماثلها الحثيث إلى العافية، والاستقبال الحسن مساهمة فيه. لقد أخذت الكاتبة في هذا الوقت تحيا حياة تكاد تكون طبيعية كالحياة التي ستحياها في المستقبل على الدوام، فهي تزور عدداً غير قليل من الناس في لندن ورجموند، وكذلك في آشام، في شهري آب وأيلول. وقد صار من عادة الأصدقاء منذ الآن قضاء بضعة أيام مع الزوجين وولف في منزل آشام ثم الذهاب إلى منزل جارلستون ضيوفاً على فانيسا ـ أو بالعكس ـ فقد كان ثمة تنقل مستمر ذهاباً وإياباً بين المنزلين. كان من ضيوف فرجينيا في ذلك الصيف روجر فراي وليتون ستراجي ودزموند مكارثي وكاترين مانسفيلد وسدني ووترلو وغيرهم، بضمنهم فيليب موريل الذي أصر ليتون على دعوته على أساس أنه لم يدع قط لذاته دون زوجته الليدي أوتولين. فكتبت فرجينيا إلى مرغريت لويلين ديفيز تقول :

«ولقد رأينا الكثير من جيل الشباب، وهو الجيل الذي يمثل بنظري جوهر الادراك السليم والاستقامة والجد واللطف. . . إنهم يسيرون عبر السفوح بسراويل بنيّة من القطيفة وقمصان زرقاء وجورابات رمادية، ولا يعتمرون قبعات وقد حلقوا رؤوسهم قصيراً حتى أنني عندما أنظر إليهم من الشرفة لا

---

(١) «إن كراس (قصتان) هو من المنشورات البهيجة. لم يكن بوسعي أن أصدق أن هذا ممكن. وانتقادي الوحيد هو عدم وضع الحبر الكافي. أما قصة فرجينيا فأنا أعتبرها من أعمال العبقرية. إن سلاسة الأسلوب تملؤني حسداً، بعض الجمل خاصةً! كيف تستطيع فرجينيا أن تجعل اللغة الإنكليزية تعوم هكذا؟ ثم الطريقة الرائعة التي بها يشار إلى وجهة النظر العصرية. برافو!» (من رسالة ليتون ستراجي إلى ليونارد وولف في ١٧ تموز ١٩١٧).

أفـرق بين باربارة هايلز والشـاب العـضـو في الحـرس الأرلندي».

قد تعتبر دعوة ليونارد لفيليب موريل ضرباً من جواب على مغامرة متهورة من مغامرات فرجينيا الاجتماعية. فقد خطت في ذلك الصيف بلقاء أوتولين مرةً أخرى وهو اللقاء الأول بها منذ زواجها. كان ذلك في احتفال بدا لفرجينيا كأنه مناسبة لجمع شمل السيدتين على نحوٍ مجزٍ للغاية. كتبت فرجينيا إلى فانيسا تقول :

«تملكني جمالها وأخذ عليّ حواسي فشعرت كأنني أغوص فجأةً في البحر وأسمع الحوريات يعزفن مزاميرهن على الصخور. لا أدري كيف جرى ذلك ؛ لكنها ذات شعر أحمر ذهبي بخصلٍ كثيفة، وخدين بنعومة الوسائد مع لون قرمزي غامق بديع ورائع يحيط بالحواشي، وجسد مصبوب صباً كما تصب أجساد حوريات البحر حسب تصوري، جسد لم أر مثيلاً له قط في حياتي كلها، بلا غضون ولا تجعدات ولا انتفاخ وكله صقل في صقل. جرى حديثنا على هذا النحو، لذا أظن أني تركت انطباعاً حسناً. لم تبد لي أوتولين تلك المغفلة الرعناء كما أدخلوا في روعي ؛ وجدتها محنكة، ذات دهاء، وإن كانت فاترة بين حين وحين. توسلت إليها أن تعيد الحياة إلى منزلها في ميدان بدفورد فقالت إنها ستفعل إذا كنا نشعر بفقدها. ثم تلا ذلك العتب، ثم توجيه الدعوات لنا، ولا أدري كيف يمكننا أن نتملص من تلبيتها، وإن كان ليونارد يصر على عدم الذهاب. . . كانت مهمتي أن أقول لها إنها ليست سوى وهم، وهذا صحيح، فأرجو أن تكون على مستوى الوهم. لقد كالت لك المديح كثيراً. . . ».

وكتب روجر فراي إلى فانيسا :

«لقد سقطت إحداهما في أحضان الأخرى، وهذه تتملق تلك إلى أقصى الحدود. وسيكون وراء هذه العلاقة مكرٌ عظيم يقطع صلتي بفرجينيا كما أفترض، أما أوتولين فستوجه إليك ضربات رائعة، لكن هذا لن يدوم طويلاً».

لعل روجر كتب ما كتب ليدخل السرور إلى قلب فانيسا، فلم تأسف هذه وهي تسمعه يذكر أوتولين بالسوء، إذ ان الليدي نفسها كانت قد سببت في مرحلة سابقة قطيعة بين العشيقين. على أن روجر أخذ شغف فرجينيا وتولهها بأوتولين مأخذ الجد أكثر مما ينبغي ؛ فهي حين سقطت في أحضان أوتولين لم تفقد توازنها. لا شك أنها سُرَّت بتجديد الصلة بينهما وكانت تميل أيضاً إلى عدم الإصاخة لاعتراضات ليونارد وتجريح فانيسا وكلايف وروجر. لكن هذا لم يمنعها من الاستهزاء بأوتولين وفي شيء أكثر من الاستهزاء. فأوتولين تستهوي شخصية المتعجرف المتكبر المتنفّج الكامنة في فرجينيا، لأن أوتولين ذات طابع عظيم، كما أنها من التسليات العظمى. وربما أرادت فرجينيا أن تعتقد أن شيئاً مستحيلاً كهذا موجود فعلاً.

نتج عن اجتماعهما ذاك في أيار توجيه الدعوة إليهما لزيارة غارزنغتون. ثم أجّل ذلك لإصابة أوتولين بالحصبة، ولم تتم الزيارة لسبب أو لآخر إلا في تشرين الثاني ـ ولعل ليونارد نفسه استطاع أن يؤخر اليوم المشؤوم.

في هذه الأثناء حدث تغييرٌ ما، وهو وإن لم يكن تغييراً بمعنى الكلمة في حياة فرجينيا لكنه في الأقل تغيير في المنحى الذي ستسجل به حياتها منذ الآن. فقد اكتشفت الكاتبة، بعد عودتها من آشام في ٥ تشرين الأول، سجل يومياتها التي كانت قد دونتها في أيام عودتها إلى سلامة العقل في سنة ١٩١٥ ؛ أضحكتها تلك اليوميات، وسرّها ما قرأت فبدأت من جديد.

كان السجل الذي فتحته غالباً ما يهمل أياماً وأسابيع وأشهراً، لكنها لم تهجره كلياً. لقد وجدت فيه متنفساً لمشاعرها الحالية، ومصدراً كانت ترجو أن تستعين به على كتابة سيرتها الذاتية في شيخوختها. كانت عادتها أن تفتح دفتر اليوميات بعد شاي العصر فتكتب فيه بحرية تامة : فهي ترى أن هذه الممارسة للإنشاء العفوي تساعد على إضفاء قوة أعظم على ما تكتبه وتعينها على أن تتناول كتابتها المعنة في التفكير تناولاً مباشراً. إن هذه العفوية في يومياتها تجعلها ممتعة لما فيها من تفاصيل يومية، وتجعلها كذلك عسيرة على النشر. كانت تكتب وعاطفة اللحظة الحاضرة تعتلج في صدرها، فهي تسرّي عن نفسها أحياناً باندفاع مرير. ولكني لا أعتقد، رغم إخلاص اليوميات المنزه عن الدسائس، أن تلك المجلدات تعطي صورة صحيحة تماماً عن كاتبتها. ثمة أوقات كتبت فيها يومياتها لأنها لم تستطع أن تقرأ، وهي حين لا تستطيع أن تقرأ فلأنها في العادة منفعلة عصبياً أو غاضبة أو قلقة، أو لأنها تريد «تصريف الألم بالكتابة» كما قالت شخصياً. لذا فهي تبدي نفسها في الغالب في ضوء حزين، فتقبس النوازع القلقة والمخيفة بدلاً من أن تقبس المرح والفنتزة (وكانا جزءاً من شخصيتها)، وهما أكثر وضوحاً في رسائلها. مع هذا فسيكون من الممكن، بمعونة هذه المجلدات، إعطاء فكرة دقيقة عن حياتها. في ما يلي ثلاث يوميات من تشرين الأول ١٩١٧ :

«الأربعاء، ١٠ تشرين الأول

لم تقع غارة جوية ؛ ولم يحدث لنا قلق جديد جرّاء حاجات البلاد للرجال [كان ليونارد قد استدعي مجدداً للفحص الطبي] ؛ وقد خمّن وهو في الحمام أنه يستحق مالاً، وما أن فتح رسائله حتى وجد صكاً بمبلغ ١٢ جنيهاً استرلينياً من صحيفة سويدية لم تر النور قط ومع هذا فهي

تدفع ديونها. أما أنا فتسلمت شخصياً أربعة شلنات. أخبروني في ساعة متأخرة من الليلة الماضية أن عليّ أن أنجز عرضي لكتاب هنري جيمز للنشر في ملحق التايمز الأدبي يوم الجمعة إن أمكن، لذا عليّ أن أقطع شوطاً فيه هذا الصباح، وبما أنني أبخل بالوقت الذي ينفق على المقالات ومع ذلك أنفقه إذا توفر لي، فإني مسرورة لأن هذا خارج اقتداري الآن. اقترحوا مقالاً آخر عن الريف في أدب توماس هاردي وأميلي برونتي. سرنا على شاطىء النهر خلال المتنزه وعدنا لتناول الشاي مبكراً. في هذه اللحظة تفتق ذهن ليونارد عن (نادي ١٩١٧) فأخرجه إلى حيّز الوجود. أنا أجلس قرب النار ونحن ننتظر كاترين مانسفيلد للعشاء، وستطرح أمور متعددة، رهيفة، للبحث. لاحظنا أن تساقط أوراق الأشجار هنا واصفرارها يختلف عما يحدث في آشام. لكأن شهر آب لم يزل قائماً باستثناء حبات البلوط المتناثرة على الممشى ـ وهي تنبئنا بتدبير الطبيعة الغامض الذي يسبب لها الفناء، وإلا لكنا غابة من شجر البلوط».

«الخميس، ١١ تشرين الأول

مرّ عشاء الليلة الماضية بسلام: بحثنا الأمور الحساسة. كان بوسعنا أن نرجو الله ألا يكون انطباعنا الأول عن كاترين بأنها تبعث برائحةٍ ما ـ كأنها قطة المسك التي أخذت تجوب الشارع. في الحقيقة، تصدمني قليلاً سوقيتها في الوهلة الأولى؛ غضون في الوجه غليظة ورخيصة. ما أن تتلاشى الصدمة حتى أجدها بغاية الذكاء والعمق والغموض فتفي الصداقة حقها... بحثنا هنري جيمز وكانت ضيفتنا ألمعية

كما أظن. جاءت عاملة من مصنع «للعتاد تدعى لزلي مور لتأخذها ـ وهي واحدة من أولئك الإناث اللاتي هن على حافة الحشمة من سكان العالم السفلي ـ لعوب نوعاً ما، شاحبة اللون، وبلا روابط. واليوم كان على ليونارد المسكين أن يمر بسلسلة الأطباء واللجان. أصدرت له شهادة الإعفاء من الخدمة مجدداً. إنه لا يزن أكثر من تسعة أرطال ونصف. اشتريت حاجتي من قفازات الشتاء، وحصلت على كتاب من مكتبة لندن، والتقيت ليونارد في مكانٍ تناولنا فيه الشاي. منّت علينا السماء بقطار عاجل فعدنا إلى البيت بسرور لنكون أمام الموقد، وإن كان علينا إشعال النار وإعداد العشاء فاليوم هو عطلة الخدم».

«الأحد، ١٤ تشرين الأول

هذا اعتراف فظيع وهو يظهر علامات الموت التي تسري أصلاً في هذا الدفتر. على أن لي أعذاري. اتصلوا بنا هاتفياً لدعوتنا إلى العشاء مع فانيسا وكلايف في منطقة الملاهي سوهو، ويؤسفني أن أقول إن هذا سبّب جدلاً طويلاً ؛ ألغينا ذهابنا إلى كنغستون لزيارة أم ليونارد ؛ كانت الليلة ممطرة وليونارد لم يشأ أن ـ باختصار قدم الحجج القديمة بتوتر. لذا ذهبنا محزونين جداً. وجدنا المكان، وتعشينا مع روجر ونينا هامنيت Nina Hamnett وساكون وباربارة هايلز ومجموعة من الذين قد يظهرون في رواية لويلز. لكنني استمتعت بالسهرة وكان ليونارد نموذجاً للسيطرة على النفس. . . أما يوم السبت أمس فكان من نصيب العسكر كلياً. إننا آمنون مرة أخرى وإلى الأبد كما يقولون. وقد ذلل مظهرنا كل

العقبات ؛ ذهبنا إلى الطبيب حوالى الساعة ١٢، وانتهى كل شيء بعد نصف ساعة. انتظرت في ميدان كبير محاط بثكنات فذكرني ذلك بكلية من كليات كيمبردج ـ جنود يعبرون، يصعدون سلماً وينزلون من آخر ؛ لكن الأرض حصى، وما من عشب. انطباع كريه عن السيطرة، والتصميم الذي لا لزوم له ؛ سار أحد الضخام بمفرده وهو يمثل على ما أفترض شعار الكرامة العسكرية. أهين ليونارد بما فيه الكفاية : قال الأطباء عنه من وراء الستار إنه (ذو رعشة الخرف). ورحمنا الله لأن انطباعاتنا السيئة تلاشت ونحن نتجول في رجموند. جاء هربرت شقيق ليونارد لتناول الشاي وجلب معه كلبه وهو بهيمة قوية نشيطة جسورة بلونين بنّي وأبيض مع عينين كبيرتين مرحتين. أخذناه لنسير به في الخارج لكنه ما أن يفك قيده حتى يعلو الجدران ويقتحم الأبواب المفتوحة ويتصرف كأنه شبح ينشد شيئاً لا يعثر عليه. لا أعتقد أننا نستطيع أن نجاريه. هل سجلتُ في إحدى يوميات هذا الأسبوع قطتنا البتراء الأليفة بها وقد قدمت إلينا هدية».

قد تنبيء هذه اليوميات الثلاث بالثيمات التي ستتكرر كثيراً في يومياتها خلال سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ : الغارات الجوية، كاترين مانسفيلد، «العالم السفلي»، ونادي ١٩١٧. ولا يعني رجوعها إليها مراراً وتكراراً أنها ذات أهمية عظمى. إن عقل فرجينيا مكوّن بشكل لا يعرف معه إلا بصعوبة كبيرة ما هو ذو أهمية عظمى لها. فاقتناؤها بتاريخ لاحق دورقاً زجاجياً أخضر من أحد الصيادلة، لعلها كانت تمنت شراءه منذ الطفولة وهو يلتمع في النافذة، إنما هو حدث مهم لها، وقد يبدو هذا مضحكاً، ولكنه مهمٌ أهمية صداقتها لكاترين مانسفيلد، مهمٌ أهمية الغارات الجوية الألمانية. هذه نقطة لا يمكن

تقريرها أو بحثها على نحوٍ مستفيض، لكنها يجب أن تبقى في البال. كان الأهم من كاترين ومن الدورق ذلك التقدم المستمر لرواية «الليل والنهار». لكنها لا تقول شيئاً عنها خلال خريف ١٩١٧.

ومن ناحية أخرى نجدها تقول الكثير عن كتاباتها الصحفية ؛ ففي هذا الوقت كانت مقالاتها في عرض الكتب تظهر في ملحق التايمز الأدبي أسبوعياً على وجه التقريب. وكانت تلك الكتابات الصحفية مصدر شعور مختلط لديها من السرور والانزعاج. إذا أوقف محرر الملحق إرسال الكتب إليها شكت من أنها طردت من العمل ؛ وإذا قدم لها كثيراً من الكتب أخذ ذلك من وقتها المخصص لكتابة روايتها. إن كتابات فرجينيا العابرة، إن صح استعمال هذه الكلمة لوصف إسهاماتها في ملحق التايمز الأدبي، لم تكن سهلة الإنجاز قط ؛ كانت تكتب مسودات متعددة للمقال الواحد قبل أن ترضى عنه.

«. . . إن هذا النمط من الكتابة يجري دائماً في سباق ضد الوقت ؛ مهما يكن الوقت الذي عندي. مثلاً أنفقت أسبوعاً (لكني قوطعت يومين، وكذلك أقتطع من وقتي غداء مع روجر) على هاكلويت Hakluyt : وظهر عند التمحيص الناضج أنه يبرر تماماً تحزبي ضده أيام الشباب. أنا أكتب وأكتب ؛ ويرن التلفون فأتوقف عن الكتابة. يقولون لي : يجب أن أسلم المقال يوم الجمعة. كنت أطبعه على الآلة الكاتبة حين جاء ساعي التايمز ؛ صححت الصحائف في غرفة نومي والساعي جالس قرب النار.

(قال : إن عدد الكرسمس ليس على ذوق السيد رجموند إطلاقاً. إنه يختلف جداً عن أسلوب الملحق.

قلت وأنا أفترض السبب في ذلك : ألأن الكتب المنقودة هي

كتب الهدايا التي تقدم في العيد؟.

فأجاب: لا، لا، فالعدد كتب لمصلحة المعلنين).

والآن أعود إلى ما سبق أن ذكرته. تناولت الغذاء يوم الخميس مع روجر وسمعت منه الحكاية التالية:

(كانت السيدة مكّول تخاطب السيد كوكس من موظفي مكتبة لندن قائلةً: هل عندكم رحلة الخروج لفرجينيا وولف؟.

أجابها: فرجينيا وولف؟ فلننظر. كان إسمها الآنسة ستيفن، إبنة سير لزلي ـ شقيقة السيدة كلايف بيل على ما أظن. ما أغرب أن نرى ما صارت عليه هاتان الفتاتان. والأنكى أنهما نشأتا في ذلك البيت اللطيف. ولكنْ، يجب القول إنهما لم يتعمدا في الكنيسة)».

كان من الضروري لفرجينيا وهي تكتب مقالاتها أن تستخدم مكتبة لندن، وهي على بعد ساعة واحدة من دار هوغارث، وعند ذهابها إلى هناك فقد تذهب إلى أبعد من فذلك فتشتري قلماً أو قفازات أو ما أشبه، وقد تتناول الشاي مع فانيسا (إن كانت هذه في لندن) وهكذا تكون قد أنفقت وقت العصر كله. إن أوقات العصر في البيت مخصصة الآن للطباعة. بدأ الزوجان يعملان على طبع قصة لكاترين مانسفيلد وهي بعنوان «استهلال» وتقع بـ ٦٨ صفحة، فكانت فرجينيا تصف الحروف ويقوم ليونارد بإدارة الماكنة وهو العمل الأشق. كانت الطباعة مصدراً دائماً للسرور والتعاسة معاً؛ وغالباً ما حيرتهما عمليات الطباعة الفعلية وجزئياتها. استشار ليونارد أحد الطباعين المحليين من الذين يعملون بالأجرة، فأقنعه هذا بالحاجة إلى مطبعة أكبر؛ أخذا كذلك يبحثان عن مساعد، وفكرا بإحدى الفتيات من ذوات الاستعداد الطيب اللاتي تعرفهن فرجينيا عساها تعاونهما.

كانت فرجينيا قد كتبت آنفاً في يوميتها المؤرخة ١٠ تشرين الاول : «في هذه اللحظة مـتق ذهن ليـونارد عن (نادي ١٩١٧) فـأخرجه إلى حيز الوجود». اتخذوا لهذا النادي[1] مقراً في شارع جيرارد في سوهو. رأى ليونارد، وغيره من المثقفين الاشتراكيين، أن النادي قد يهيّىء لهم مكان التقاء ترتاح له نفوسهم. وسرعان ما أصبح المكان مركزاً ليس فقط لذوي الذهن السياسي المتفهم بل مركزاً لجيلٍ ثان من حركة بلومزبيري. كانت بلومزبيري القديمة لما قبل الحرب قد أخذت تكتسب أصلاً نمطاً من الوجود الأسطوري، فيعجب بها ويقلدها الشباب، أو يشهّرون بها، وهم أساساً شباب رافضون وسط أمة مشتبكة في حرب. لم يكن الكثير منهم على اهتمام جاد بالسياسة في واقع الأمر، لكنهم كانوا جميعاً معادين بعمق وتصميم لذلك الإيمان، وتلك الأخلاقيات، التي يتحلى بها رجال العصر الفكتوري وعصر إدوارد، ظانين أن هؤلاء هم الذين زجوا بجيلهم في الكارثة. وما أن ظهر كتاب «فكتوريون بارزون Eminent Victorians» الذي كتبه ليتون ستراجي وتضمن سرداً صريحاً لسير أولئك الرجال حتى تلقفه شباب بلومزبيري الجدد. كان فيهم ما سماه ليونارد «عنصراً من الثقافة النظيفة»، لا سيما بين أعضاء نادي ١٩١٧. ومن الطبيعي أنهم كانوا إلى جانب الرواد في الفنون التشكيلية ؛ لكن الرسم كان قد حقق إزدهاره المتفجر العظيم في ١٩١٠. غير أن الكتاب هم الذين بدوا على مرمى البصر من الإمكانيات الجديدة. فقد أخذ الناس يقرأون عزرا باوند وجيمز جويس وتي. إس. إليوت وكاترين مانسفيلد ويبحثون في فنهم الأدبي ؛ وعاد روجر فراي من فرنسا بأنباءٍ عن عبقرية أدبية لا ريب فيها، وحريّ بروجر أن يعود من فرنسا بأنباءٍ من هذا النوع فكان العبقري هذه المرة هو مارسيل بروست.

---

(١) إتخذ النادي اسمه من الثورة الروسية، أي من ثورة شباط بالذات.

وكان لكاتبة «رحلة الخروج» موقعها كذلك بين النجوم الطالعة - وهي نجوم كالسها لا تراها إلا القلة. كان يسرها ويزعجها معاً الاهتمام الذي يبدونه نحوها في نادي ١٩١٧. لقد وجدت في ذلك النادي مكاناً مريحاً تلتقي ليونارد فيه. فهي بعد أن تسلم مقالتها إلى التايمز تذهب لشراء الكتب من المكتبات القريبة، وتتناول الشاي في شارع جيرارد، ثم تجد الصحبة التي تستأثر باهتمامها. كان أكثر الذين تلتقيهم فرجينيا في النادي معروفين لديها أصلاً معرفة وثيقة أو شبه وثيقة ؛ بعضهم ممن تسميهم «المتحررين» أو «خلاعيي بلومزبيري»، وبعضهم ممن تسميهم «سكان العالم السفلي»(١).

وكان أن بحثت فرجينيا بين أفراد الفئة الأولى للعثور على فتاة تساعد في مهمة طبع قصة «استهلال» وتجليدها وهي مهمة ضخمة. وجاءت المساعدة الأولى فبدأت العمل في ١٦ تشرين الأول ١٩١٧، وكانت تدعى أليكس سارجنت - فلورانس، وهي فتاة طويلة القوام ورزينة التصرف. بعد أن بيّن لها الزوجان مهمتها تركاها جالسة على مسندها العالي وخرجا بكلبهما ليسيران به. حين عادا قالت أليكس إنها وجدت عملها خالياً من المتعة تماماً فلا تجد ما يدعوها إلى الاستمرار. أما المتدربة الثانية فكانت أقل انتقاداً وأكثر مثابرة. تلك هي باربارة هايلز وكانت بين الثلاثي الساذج الذي سطا على منزل آشام وقضى ليلة فيه. جاءت تجري كالمهرة الصغيرة فدخلت حياة الزوجين بيل والزوجين وولف (وجاءت من الجانب الخطأ من الطريق أحياناً) وهي تتحلى بالحسن وبالصفات العملية، تواقةً لأداء الخدمة للجميع ؛ كانت جاهزة للمساعدة في مطبعة هوغارث، فجاءت على دراجة هوائية يوم ٢١ تشرين الثاني، زاهيةً كالبرعمة.

أقبلت باربارة على العمل بحماسة كبيرة تجاوز الحد، حتى تنال على

---

(١) كانت هذه التعابير غير دقيقة بالطبع إلى أقصى حد. اخترعت السيدة دزموند مكارثي عبارة «خلاعيي بلومزبيري»، أما كلمة «المتحررين» فهي من عنديات فرجينيا.

ليونارد أحياناً أن يعيد صف الحروف في الصفائح التي أعدتها الفتاة وذلك بعد مغادرتها إلى بيتها. كانت ثرثارة، وذات حيوية، وتضفي زينة على المكان، ولا تتذمر قط كما كان من حقها أن تتذمر، فأجورها لا ترقى إلا إلى وجبة طعام من اللحم أيام العمل، وضمان الملجأ لها عند وقوع غارة جوية، وحصة من الأرباح وقد تسلمتها بعد شهرين من العمل حين دس ليونارد في يدها نصف ريال. كانت أجرتها الحقيقية هي صحبتها مع فرجينيا وفرصتها في الكلام عن حياتها الجياشة أمام مستمعة متعاطفة.

أتيح لفرجينيا وقتاً وفيراً تتعرف فيه على باربارة جيداً خلال الأسابيع التالية. كانت تلك الفتاة وصديقتها كارنغتون، وكلتاهما تلميذة سابقة في مدرسة سليد، تمثلان برأي فرجينيا، بشعرهما المشدود بأشرطة عريضة، وأساليبهما الحرة، ومعنوياتهما العالية المتعافية وملابسهما الزاهية، وغرامهما بالثقافة، نموذجاً أصيلاً للفتاة المتحررة. أغرمت كارنغتون بليتون ستراجي فكرست حياتها لخدمته. ومسّت مفاتن باربارة غير المتفننة وتراً في قلب ساكسون فقلقلت تبتله العميق؛ وأزجى إخلاصه ـ الذي سيدوم مدى الحياة ـ رجاءً بالنفوذ إلى سماوات بلومزبيري، أما حين تعلق الأمر بالزواج فإن باربارة قنعت بمعجبٍ أصغر عمراً وأكثر إنسانيةً هو الشاب الذي كان في الحرس الأرلندي. وقد عمل هؤلاء ومن معهم على توفير الصحبة وعلى شحذ اندفاعات الشباب مما أنعش فرجينيا في زياراتها لنادي ١٩١٧ وأمدّها بالحيوية. وتمكنت الكاتبة كذلك أن تلاحظ هناك أنماطاً متعددة من «سكان العالم السفلي» على حد تسميتها، وهي تستعمل هذه العبارة بقصدٍ خبيث وتستعملها بالتأكيد بضربٍ من التكبّر، وأحياناً بمعنى اجتماعي صرف، كما تستعملها لتصنيف أولئك الذين هم ليسوا فنانين مبدعين بقدر ما هم من النقادين ـ أناس بوسعهم كتابة مقالة ذكية أو غرض حاذق؛ أناس هم أكثر اهتماماً بالصيت والسمعة منهم بمواهب النبوغ. فالنجاح بالنسبة لهؤلاء هو المهم؛ إنهم يعرفون من هو الذي في تصاعد ومن هو الذي في تنازل؛

وبوسعهم قياس مؤلَّف إزاء آخر بمنطوق النسخ المباعة، ؟ أن بوسعهم الاتجار بآخر الفضائح في عالم الصحافة والنشر. وما طموحهم إلا آن يكونوا في الطرف الفائز. وهكذا فحين نشر جوزيف كونارد روايته المعنونة «نصر» وجدت فرجينيا أن سكان العالم السفلي يطبل لها ويزمر باعتبارها عملاً رائعاً : فقد كان كونارد هو الكاتب لا غيره. لكنها ما ان عبّرت عن شكوكها ورأت أن الرواية أدنى من مستوى هذا الكاتب في إنتاجه الأجود، حتى انقلب الرأي، فقالوا لعل كونارد آخذ بالانطفاء، وربما آن الأوان للتقليل من شأنه.

كان الرأس المتنفذ بين سكان العالم السفلي بنظر فرجينيا هو الناشر جون مدلتون موري فقد أضاف هذا إلى ذلك الوسط نبرة أخلاقية سامية وفلسفة عنجهية استعارها من صديقه دي. إج. لورانس، فأخذوا يلعبون لعبتهم بزعم المشاعر الرجولية العميقة والمدعيات الفاضلة. وأظن أن معظم الأفكار العمومية التي اعتنقتها فرجينيا عن العالم السفلي كانت مستمدة من موري ؛ كان هذا هو «الرجل الصاعد»، وقد اتفقت في الرأي مع ليتون على أن الأمر قد ينتهي به إلى منصب أستاذ الأدب الإنكليزي في أوكسفورد أو كيمبردج.

وصار نادي ١٩١٧ ملتقى المتحررين والمتحررات وغيرهم من سكان العالم السفلي فينصهرون فيه ؛ ويلتقي بعضهم أيضاً في قصر غارزنغتون قرب أوكسفورد حيث أقام فيليب موريل وزوجته أوتولين منزلاً مفتوحاً للضيوف. وإلى ذلك القصر دعي الزوجان وولف خلال صيف ١٩١٧ كما ذكرنا.

استطاعت فرجينيا أن تكوّن فكرةً ما عما كان عليه القصر وذلك قبل إقناعها ليونارد في النهاية بتلبية تلك الدعوة بأمدٍ طويل. ففي هذا المكان، ومنذ سن قانون التجنيد الإلزامي، عرض فيليب موريل استخداماً ميسوراً

في مزرعته للمسالمين من مناهضي الحرب ومعارضيها وجدانياً، فأقام فيه رهط منهم بضمنهم كلايف بيل والشقيق الأصغر لمدلتون موري والرسام مارك غيرتلر Mark Gertler ؛ كان هذا الرهط يعزز بزيارات طويلة أو قصيرة من مدلتون موري نفسه وكاترين مانسفيلد، وليتون ستراجي، والآنسة كارنغتون وصديقتها بريت Brett[1]، وحشود جديدة من الشباب الذين غادروا الجامعة تواً فجاؤوا ليوسعوا آفاق ثقافتهم. لم يكن ذلك الوسط هانئاً، ولعل من الممكن تصوير الجو السائد فيه بحكاية رواها كلايف بيل معتقداً بصدقها كل الاعتقاد.

كان عليه ذات يوم أن يذهب إلى لندن فجأةً، فترك على منضدة البهو رسائل متعددة لكي ترسل صباح اليوم التالي، الاثنين. فكر كل من غيرتلر وكارنغتون أن مما يدخل البهجة إلى النفوس في أمسية أحد كئيبة لو فتحا تلك الرسائل بالبخار وقرآها علناً. لم تعارض أوتولين هذا التصرف ولم تحتج عليه، وكان ذلك مجانباً للحكمة لأن التسلية جرت على حسابها ؛ فقد أنس الصحاب بما ورد في رسائل كلايف من سردٍ بأسلوب يحاكي أسلوب ولبول Walpole عما في السيدة المبجلة أوتولين من ضعةٍ وحقارة وسخف. وأورد كلايف قصة ذلك الطاووس الذي مات عن شيخوخة رافقتها اختلاطات مرضية مقرفة، ثم يعود بعدها إلى الظهور، وقد اكتسى بالريش بأبهة باذخة، على مائدة العشاء. وكان من الطبيعي حدوث برود غير معتاد حين عاد كلايف من لندن، وقد فاقم منه عدم إمكان الإفصاح عن سببه.

وسواء كانت هذه الحكاية صحيحة أم ملفقة فهي تقدم فكرةً ما عن المناخ الأخلاقي الذي كان سائداً في قصر غارزنغتون في ذلك الوقت.

---

(١) كان الرسام مارك غيرتلر مغرماً على نحوٍ بائس بكارنغتون وهو يرقب بغيرة مريرة شغفها بليتون ؛ أما دوروثي بريت فقد كانت طالبة فن في مدرسة سليد مع كارنغتون وغيرتلر.

وحين عادت فرجينيا من أولى زياراتها إلى هناك كتبت في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٧ تقول :

«عدنا من تلك المغامرة قبل ساعتين. من الصعب التعبير عن إنطباعي كاملاً، غير أنه كان شبيهاً بما تصورت ابتداءً. الناس منتشرون في أرجاء غرفة بلون الشمع الأحمر. ألدوس هكسلي يلهو بأقراص مدورة من العاج وخرز خضراء ـ أما النماذج الموجودة في قصر غارزنغتون فهي : الآنسة بريت بالسروال، فيليب يكتسي كلياً بأفخر أنواع الجلود، أوتولين بالمخمل واللآلىء كعادتها، كلبان صغيران أفنصان، ليتون مستريح في كرسي فسيح. ثمة الكثير من التزويق دون جمال حقيقي، والكثير من العطور والحرير، مع جوٍ حنون كان ثقيلاً بعض الشيء. أسراب من الناس تنتقل من غرفةً إلى أخرى ـ من غرفة الجلوس إلى غرفة الطعام، من غرفة الطعام إلى غرفة أوتولين، طوال يوم الأحد. في بعض اللحظات بدا الأمر كله كأنه يتهافت، لذلك طال النهار كثيراً بالتأكيد. ثم كان بعد تناول الشاي زهاء ساعة من الوقت مع أوتولين أمام نيران الحطب. . . أنا على العموم أود أوتولين بصورة أفضل مما هيأني أصدقاؤها لودادها. بدت حيويتها شيئاً يسجل لصالحها، وعند الحديث معها حديثاً خاصاً أخذت تفاهاتها تتلاشى لتفسح المجال لبعض النفثات من الحنكة. والهَوْل الخاص بأمر غارزنغتون هَوْلٌ عظيم، أما الرأي الذي يراه الشخص الخارجي فهو أن القصر وأصحابه يوفرون أشياء كثيرة للغير، الأمر الذي لا يجري تقبله على نحوٍ كريم. على أن وضع اللوم في موضعه الصحيح في حالة كهذه هو فوق ذكاء الإنسان : لقد وضعوا أنفسهم في

مأزق من المكائد والعلاقات المعقدة المتشابكة حتى أصبح من العسير على المقيمين هناك أن يسلكوا سلوك التعقل في ما بينهم. وأظن أن أوتولين، في أحوال كهذه، تستحق بعض الفضل لإبقائها على سفينتها تمخر عباب اليم. لقد وفروا لنا منتهى الراحة مع كثير من الطعام؛ وكان هناك في الأحاديث ترقيعات بالية متكررة. أدى كلام ليونارد القارص مع فيليب إلى ذهابه إلى البرلمان اليوم. إنه رجل ضعيف، لطيف المعشر، كثير العناء، والظاهر أنه يستحصل على أحسن ما يمكن استحصاله من الأمور، كما أنه يرى الجانب الجيد في الناس، حتى إذا كانوا من الذين يكرههم بالسليقة».

إن «الهَوْل» في قصر غارزنغتون يكمن في أن هذا المكان ما هو إلا مأوى. إن الشخصيات الصعبة، حادة الطباع، التي تستضيفها الليدي أوتولين إنما ترتبط، أو كان عليها أن ترتبط، بالمضيفة بشعور الامتنان؛ فالتحسس بالالتزام يشحذ المودة. غير أن اللاجئين هناك كانوا يتخاصمون مع مضيفتهم ويتخاصمون بعضهم مع بعض؛ ومع أنهم في هذه الحال من الاختصام فهم لا يسعهم المغادرة بل عليهم البقاء والتعايش مع مصادر تبرمهم. وهذا لأن غارزنغتون هو بالضبط الملاذ من الحرب، لكن البقاء فيه لا يسعدهم. أما الزوار من أمثال فرجينيا فيمكنهم الاستمتاع بالطيبات في مكان يمكن أن يسمى بـ «الأرض المحايدة»، واستمتاعهم هذا يكون من باب أولى لأنهم يعودون إلى بيوتهم، ويرجعون إلى الأجواء الأخلاقية المتزمتة، بما تنطوي عليه من مصاعب متعاظمة ومخاطر جسيمة في عاصمة هي في حالة حرب مع العدو.

كانت الغارات الجوية تقع ـ أو تُتوقع ـ في كل شهر عند اكتمال القمر بدراً، وحين تقع فأنها تسوق سكان دار هوغارث إلى الطابق الأرضي.

يجـري عندئذٍ إنزال الأفـرشـة والأغطيـة إلى هناك لكي تعـدّ في الممـرات وملحقات المطبخ ؛ يضطجع ليونارد فوق منضدة المطبخ كأنه شبح من أشباح المقابر، وتمتد فرجينيا تحتها. أما الخادمات لـهن أسرتهن الثابتة هناك إذ كن يفـضلن النوم تحت الأرض في كل ليلة ؛ إنهن يثـرثرن، ويتـضـاحكن من دعابات فـرجينيا إلى أن يصيح ليونارد بهن ليسكتهن. عندئذٍ ينام الجميع على خير ما يطيقون النوم، ومناطيد زبلين أو الطائرات الألمانية تمر من فوق رؤوسهم وهي تسقط القنابل هنا وهناك فتضيف مدافع المقاومة الأرضية ضد الجو إلى الضجيج العام ومنغصات الليلة. على أنه في إحدى المناسبات كان عليهم الانتقال بالعشاء إلى القبور ومعهم ضيفهم وصديقهم آر. سي. تريفيليان، فظل هذا يتكلم بصوت مرتفع جداً غطى على صوت الصديق والعدو، وكلاهما لا يسمع[1].

ذهب الزوجان وولف إلى آشام لقضاء عيد الميلاد، وعند عودتهما في العام الجديد وجدا كثيراً من الناس يتحدثون عن إمكانية السلام. وكتبت فرجينيا : «إن هذا الكلام. . . يطفو على السطح برعشة أمل مرةً كل ثلاثة أشهر، ثم ينحسر، ثم يطغى مجدداً». كان هذا بمثابة خيبة أمل تتجدد بانتظام، فلم تجد فـرجينيا كبير عـزاء بحصـولها على حق الاقتـراع في

---

(١) «حدثت غارة جوية ليلة البارحة ـ كان بوب يتعشى عندنا وتكلم بصوت مرتفع جداً حتى أننا لم نستطع سماع أصوات المدافع ؛ لكن ساكسون يقول إن الحالة في لندن سيئة أيضاً. تناولنا معظم عشائنا في قبو الفحم». من رسالة فرجينيا إلى فانيسا في ١٩ كانون الأول ١٩١٧. حين قرأت هذا أول مرة بدا لي نموذجاً لأسلوب فرجينيا المبالغ فيه ؛ فلنقارن ما كتبته بما كتبه ليونارد في يوميته في ١٨ منه : «بعد الشاي جاء بوب تريفيليان لقضاء الليلة. بدأت غارة جوية في السابعة إلا ربعاً، لكن صوت بوب القاصف لم يتوقف قط وغطى على صوت المدافع. تناولنا العشاء بين غرفة الطعام والقبو. لكن الغارة استمرت طويلاً فتعبنا وصعدنا إلى الطابق الأعلى. لعبنا شطرنج وربحت. انتهت الغارة في الساعة العاشرة».

الانتخابات. فرغم مجهوداتها من أجل هذا الحق للنساء في السنين التي سبقت الحرب لم يبد لها ذلك الانتصار، بعد أن تحقق، شيئاً مأثوراً. كان الزمن ينحو نحو الكآبة على وجه العموم. على أنها كانت تعمل بسرعة فقد كتبت أكثر من مئة ألف كلمة من رواية الليل والنهار بحلول آذار ١٩١٨؛ لكنها كانت تشعر بالاكتئاب، وفي شباط مرضت بالأنفلونزا. وتحسنت صحتها فاصطحبها ليونارد إلى آشام، للاستجمام مدة عشرة أيام، فبحثا في إمكانية البقاء هناك حتى انتهاء الحرب بحثاً جاداً. وعادا إلى دار هوغارث ثم رجعا مرة أخرى إلى آشام بعد ثلاثة أسابيع لقضاء عطلة عيد الفصح. كانت الأيام الأخيرة من آذار ملتهبة، ونيران المدفعية في الفلاندرز يسمع قصفها بوضوح على التل فقد دفع الألمان بالحلفاء إلى الوراء نحو أميان. وقد قتل أحد أشقاء ليونارد هناك قبل عيد الميلاد؛ والآن يشترك زوج باربارة الجديد في القتال؛ (وقد جرح جرحاً بليغاً يوم سبت الفصح في ٣٠ آذار ١٩١٨)؛ أخذت فرجينيا تشعر بالقلق والتعاسة وبدا لها أن ثمة شحوباً غريباً غير معافى يسري في شمس الربيع الساطعة في تلك الأيام.

وجاء ليتون إلى آشام ولعله قام بما يطرد عن فرجينيا سوداويتها، لكن ليتون ذاته يحمل في طواياه ما يحمل من المشاكل. كان كتابه «فكتوريون بارزون» قيد الطبع، وقد قرأ كثيراً منه عليها (وقد خجلت حين نامت أثناء قراءته لأحد الفصول). كان الكتاب على وشك الصدور، فاقترح ليتون بلياقة ولكن بتكرار أن تكتب عنه عرضاً في ملحق التايمز الأدبي، حتى وافقت أخيراً خلافاً لرأيها فكتبت إلى محرر الملحق بروس رجموند. أجابها أن بوسعها كتابة العرض إذا أخفت اسمها، فلم يسعها ذلك، ووقع كتاب ليتون بأياد أخرى.

في ١٤ نيسان بدأت صفقة أدبية من نوع مختلف، وكان الزوجان قد عادا إلى رجموند. فقد جاءت الآنسة هارييت ويفر Harriet Weaver

صاحبة Egoist Press ومحررتها وهي تحمل مخطوطة رواية عوليس (Ulysses) لجيمز جويس ؛ كانت ترجو أن تنشرها مطبعة هوغارث[١].

كانت تلك الرواية عملاً لا يسع فرجينيا رفضه ولا يسعها قبوله. إن قوة العمل وحذقه الدقيق ورهافته كانت من الوضوح بحيث تكفي لإثارة إعجابها، وإثارة حسدها أيضاً بلا ريب. بدت لها الرواية عملاً يتمتع بنوع من الجمال، لكنه يحتوي كذلك على نوع من الخشونة الخليعة، الرخيصة، الواخزة التي تشيع في كلام الرجال في غرف جلوسهم. لقد استخدم جويس أدوات ليست مغايرة لأدواتها، وكان هذا شيئاً يحز في نفسها، فكأن القلم، قلمها ذاته، قد اغتصب من يدها اغتصاباً لكي يخربش به أحدهم كلمة (. . .) على مقعد المرحاض. وشعرت كذلك أن جويس إنما يكتب لطغمةٍ ما ؛ وهي تشير إليه بأنه من «أولئك الناس»، ولعلها تصنفه مع عزرا باوند وغيره من أشخاص «العالم السفلي». لعل رد الفعل عندها كان له مغزاه ؛ فخلاعة جويس الوقحة التي لا مبرر لها جعلتها تشعر فجأةً بحشمة السيدات على نحوٍ مستميت. مع ذلك أدركت تماماً أن هذا عمل يستحق النشر ؛ ولكنه يخرج عن حدود الطاقة التقنية لمطبعة هوغارث. من الضروري إذن استخدام طباعين محترفين ؛ وقد استحال العثور على أحد منهم ليتولى المهمة، فالذين استشارهم ليونارد قالوا إن ذلك سيجرهم إلى محاكمة قضائية بالتأكيد، لذلك تخلى الزوجان وولف عن نشر عوليس.

وظهر كتاب «فكتوريون بارزون» في حزيران. أصيب أصدقاء ليتون بخيبة أملٍ على نحوٍ ما. كان الكتاب، بالطبع، لامعاً ـ فقد كان يفترض

---

(١) يقول ليونارد وولف إن ويفر جاءت إلى دار هوغارث بتوصية من تي. إس. إليوت (البدء من جديد، ص ٢٤٧). ولا شك أن الأمر كان كذلك ؛ ولكنه حين يضيف : «قال لنا إليوت في نهاية ١٩١٧ أو بداية ١٩١٨ إن الآنسة ويفر. . . مهتمة جداً بمخطوطة جيمز جويس. . . » فإنه يوحي بوجود درجة من الصميمية بين فرجينيا وإليوت لم تكن قائمة آنئذ. إن يومية مكتوبة في تشرين الثاني ١٩١٨ تجعل من الصعب الاعتقاد بأن فرجينيا إلتقت إليوت قبل الخامس عشر من ذلك الشهر.

دائماً أن يحقق ليتون الألمعية. ولكن، هل كان الكتاب جديراً به ا ظنت فانيسا وفرجينيا أنْ لا. أما كلايف فكان أكثر حماسةً ؛ كذلك صرح أن فرجينيا أخذت تغار من نجاح ليتون، وتغار على نحوٍ خطل، غير كريم. لئن كانت تغار فإنها لم تتحدث عن ذلك في يومياتها، ولكنها ربما شعرت بغصة في صدرها. هذا وحين يأخذ أحد الأصدقاء، وهو الغريم في اللعبة الأدبية، بالتقدم فجأةً إلى الأمام في السباق الذي هما فيه كفرسي رهان، فسيقتضي الأمر موضوعية تفوق المستوى الإنساني ودرجة استثنائية من الترفع الأخلاقي إذا أريد للمتسابق الذي خلّف إلى الوراء أن يظل هادئاً تماماً، وتلك من الصفات التي لا يستطيع أحد أن يزعم توفرها في فرجينيا. ويجب القول أيضاً أن كلايف لم يتردد في رش ملحه على جرحها. إنه لما يزل يستمتع بعبث الممازحة لإثارة فرجينيا، وكانت العلاقات بينهما متوترة ذلك الخريف، حتى أدى ذلك إلى قطيعة عنيفة كما سنرى. ولكن العلاقات مع فانيسا كانت أحسن بعض الشيء، بعض الوقت ؛ ولغرض إيضاح تشابك تلك العلاقات فإن من الضروري أن نستطرد مطولاً، ذلك أن الأمر نشأ عما سمته فانيسا بـ «معضلة الخدم».

كانت هذه معضلة شخصية وعملية وأخلاقية معاً، وكانت مصدر ألم لفانيسا وفرجينيا وأمثالهما الكثيرين من الناس. ولكي يتفهم القارىء ما أقوله عليّ أن أذكره بحقائق نركن عادةً إلى نسيانها. إنك إذا اقتنيت هذا الكتاب مثلاً فستأخذه معك إلى بيتك مساءً ويمكنك فيه أن تكبس على زر لتضيء مصباحاً تقرأ على نوره. وستجد غرفتك مدفأة تدفئة مركزية، وتدخل الحمام وتدير الحنفية فيتدفق منها الماء الحار. وأنت قد تطهو طعامك بنفسك وتقوم بالأعمال المنزلية بنفسك، إنما تساعدك في ذلك كله عشرات من الأدوات الآلية، والعلب، ومفاتيح العلب، والطعام المجمد والثلاجات والحاويات البلاستيكية. والله وحده يعلم كم من ألف حصان تعطيك قوتها يومياً بلمسة واحدة من أناملك. ولن يقتضيك الأمر ذلك الجهد الجبار إذا

أردت تسخين الفرن وخلط الطعام وكنس الأرض وإضاءة الغرف وإشعال النار.

أما حين ذهبت فرجينيا وولف إلى آشام فإنها لم تجد هناك أياً من هذا. بل إنها لكي تصل إلى هناك أصلاً عليها أن تسير على قدميها بضعة أميال أو تقطع المسافة على دراجة هوائية. ولكي تضيء نوراً فليس أمامها سوى الشموع التي تسيل على السجاد، أو المصابيح التي ينبعث منها الدخان ويجب أن تملأ بالنفط يومياً بعد قص الفتيل وتسويته ؛ والتدفئة بالخشب أو الفحم - وكانت مؤونة الفحم شحيحة من ١٩١٦ إلى ١٩١٩ - وهذا يجب أن ينقل بأواعٍ كبيرة، كما يجب أن تنظف قضبان الموقد قبل إيقاد النار، وإذا لم توقد بكفاءة امتلأت الغرفة بالدخان أو انطفأت النار على نحوٍ تعيس. وفي الريف لا يمكن الحصول على الماء الحار إلا بغليه على الموقد. أما الماء البارد فيضخ إلى خزان يومياً ؛ وفي منزل آشام خزان طيني فقط. لم يكن هناك ثلاجات أو أطعمة مجمدة، وكان مفتاح العلبة عبارة عن خنجر ضخم تطعن به العلبة طعناً. كانت أمور الطهو والتنظيف كثيرة وكبيرة الجعجعة وبطيئة الإنجاز على نحوٍ لا يصدق. لا يزال هناك كثير من الناس يعيشون في ظروف كهذه أو أسوأ، أسوأ بكثير، ولكن كان من الجليّ في تلك الأحوال لمن يريد الحفاظ على شيء من الراحة أو النظافة أن يفزع إلى العمل باستمرار.

قبل ١٩١٤ كان بوسع الكثيرين من الناس، وبأعداد تثير الدهشة، استخدام خادم واحد داخلي في الأحوال كافة. كانت الخدمة وفيرة والفتيات يقبلن بالعمل لقاء إقامتهن وطعامهن مع أجر ضئيل. وربما كان الأغنياء قد وجدوا الخادمات أكثر كفاءةً من أدواتنا الآلية، وكانوا يستخدمون ما معدله ستة خادمات للفرد الواحد.

كان في بيت الزوجين وولف قبل الحرب خادمتان، وفي بيت بيل أربع

خادمات ـ وهو الحد الأدنى في منزلٍ تكون الزوجة فيه ذات عمل خارجي متفرغ، فضلاً عن أن أسرة بيل هي ذات طفلين. وتغيّر الوضع خلال الحرب جذرياً. صار من الممكن كسب الأجر الطيب في المصانع، فأمسى العثور على خادمة أمراً نادراً، والفتيات غير مستعدات للخدمة المنزلية، وكانت عزلة العمل المنزلي في الريف مثبطة للعزائم.

ثمة جانب أخلاقي في معضلة الخدم هذه أيضاً. ففي منزل هايد بارك غيت بجحفله من الخدم كان الوضع وضعاً أبوياً على نحوٍ صريح. إن لزلي ستيفن هو رأس البيت، وميني أو جوليا أو ستيلا أو فانيسا هن نائباته، والخادمات مسؤولات تجاههن مباشرةً. وكل خادمة لها موقعها الخاص. كان لهذا النظام خطيئات الاستبداد العادل وفضائله. أخذ ذلك النظام بالتصدع خلال الفترة من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤؛ فإبنتا ستيفن لا تتمتعان بالثقة الاجتماعية التي كان والداهما يتمتعان بها؛ وكانتا تكرهان علاقة السيدة ـ الخادمة، ولكنهما لا تعرفان كيف تتجنبان هذه العلاقة. إن الرعاية الأبوية لا تفعل فعلها إلا في حالة واحدة فقط حين يتقبلها كلا الطرفين باعتبارها الشيء اللائق والطبيعي. أما إذا تداعت هذه الرعاية فإن الوضع الأخلاقي يصبح وضعاً غير مريح إلى أقصى الحدود، وإن كان التعسف الناشىء عند زوال الرعاية أمر يمكن تداركه ومعالجته. وقد تطلعت كل من السيدة بيل والسيدة وولف، بل تاقت، إلى شكل آخر أكثر مساواة من أشكال التعاقد بين الخادمة وربة البيت، ولكن دون جدوى. كانتا تحسان بالضيق تجاه صونيا فاريل خاصةً، وكانت تلك الطاهية من كنوز الأسرة التي لا مثيل لها، فكان من الصعب على الأختين الاحتفاظ بها ومن الصعب عليهما التخلي عنها، وهما لا تستطيعان الإبقاء على المستوى الذي تعودت عليه ولا القيام بدور الرعاية الأبوية الذي تتوقعه منهما. من جهة أخرى كان على الأسرة توفير العمل إلى صوفي كلما احتاجت إليه. لذا تنقلت بين منازل العائلة حتى استقر بها المقام في بيت جورج دكوورث الذي لم يزل

يلعب اللعبة الاجتماعية على شاكلته القديمة.

لم تكن، عند من خلف صوفي من الخادمات، الخلفية التقليدية ذاتها، لهذا كن أسهل أمراً، لكن العلاقة الشخصية معهن أمست أكثر صعوبة مما كانت عليه في السابق، هذا إن وجدت مثل هذه العلاقة. لم تعد الخادمة في بلومزبيري توضع في موضع العبودية الذي كان سائداً في العصر الفكتوري، لكن هذه الخادمة لا تقيم علاقة مشتركة كعلاقة العمل التي يمكن قيامها اليوم بين الخادمة المياومة وبين المرأة المخدومة. الخادمات في ما مضى كن جزءاً في المنزل، جزءاً من الأسرة بمعنى من المعاني، لكنهن كن كذلك بشراً مستقلاً، فهن متساويات ولهن مشاعرهن التي ينبغي احترامها. بل كن صديقات، في الطموح المثالي. أما اليوم فإن من النادر أن يقيم المرء صداقةً له بناءً على توصية مكتوبة، أو بناءً على مقابلة، دون تشابه في النشأة والمصالح ودون تماثل في الثقافة والطبقة. إن كلمة طبقة تكاد تكون اليوم كلمة قذرة، والمرجو أنها تمثل أقل مما كانت تمثله قبل خمسين سنة في المجتمع الانكليزي، ولكن من الجنون أن نتصور شخصاً لم يكن في ذلك الوقت طبقياً في إحساسه.

ان التقسيم الطبقي من شأنه أن يحدث سوء الفهم لدى الطرفين. ففي بلومزبيري كان على الخادمات التعامل مع أناس غير أسوياء وغير اعتياديين، انا يرتدون الملابس الخطأ، ويعلقون الرسوم الخطأ، ويعتنقون الآراء الخطأ، ويصادقون أغرب الأصدقاء. (إن هذا اضطر طاهية فانيسا في ١٩١٧ أن تبحث صراحةً مع سيدتها علاقة كانت تقوم بين أحد ضيوف المنزل وبين أحد صبيان الأسطبل في الحقل المجاور، وكان صبياً يغري بالافتتان. لم يكن ذلك الضيف سوى ليتون ستراجي).

لم يكن في منزل فرجينيا المشاكل ذاتها التي كانت في منزل فانيسا، لكنها بلا ريب كانت قد حيّرت خادماتها أحياناً وأشاطتهن غضباً أحياناً

أخرى.

ففي أوائل ١٩١٦، وكانت فرجينيا تتماثل للشفاء، استخدم ليونارد فتاتين هما نيللي بوكسول Nelly Boxall وصديقتها مدى العمر لوتي هوب Lottie Hope، فعملت الأولى طاهية والثانية خادمة منزلية. كانتا سابقاً تخدمان لدى روجر فراي في غيلدفورد. كلتاهما مخلصة للأخرى. لوتي، وهي لقيطة، كانت ساذجة، كريمة، عنيفة، كذوبة، ومشبوبة العواطف، متقلبتها، فهي تتحول بسهولة ويسر من المرح إلى الغضب. أما نيللي فكانت أهدأ وأرق لكنها في باطنها مشبوبة العاطفة حتى أنها تفوق صديقتها في ذلك.

تقول نيللي وهي تستذكر مقابلتها الأولى مع فرجينيا سنة ١٩١٦ إنها حين دخلت غرفة الجلوس في دار هوغارث وجدت الكاتبة مستلقية على أريكة ومرتدية بُرْنُساً قديماً فظنتها «لطيفة جداً» وودت أن تعمل في منزلها. لكنها لم تكن تدري أنها ستفتن بفرجينيا وتحنق منها معاً خلال ثماني عشرة سنة تالية فلا تستطيع عيشاً بدونها ولا عيشاً معها في آن واحد. كانت مشاعر فرجينيا مختلطة نحوها أيضاً فهي تغتاض منها وتأنس بها في الوقت ذاته فلا تطيق احتمالها ولا تطاوعها نفسها على طردها. وهاتان الخادمتان في خصام دائم بينهما تليه المصالحة دائماً، وكانتا تغضبان وتشكوان وتقدمان إنذارات ترك الخدمة المرة تلو المرة فتسترضيان. كانتا أيضاً موزعتان بين الفزع الشديد من الغارات الجوية في المدينة والملل القانط من السكن في الريف. على أنهما كذلك مصدر دائم للدراما، وفرجينيا تفتتن بهما وتستشيط منهما غضباً، وهما تبرزان فيها خيرها وشرها على السواء.

في نيسان ١٩١٨ وجدت فانيسا نفسها حاملاً. كان الجمع الذي يسكن يومئذٍ في منزل جارلستون يتألف من فانيسا ودنكون وديفيد غارنيت ومربية للأطفال مع عشيقها وأربعة أطفال بضمنهم إبنة المربية وابن أخيها وطاهية

وخادمة مطبخ. كان عبء العمل في ذلك المنزل ثقيلاً. ثم قدمت الطاهية إنذاراً بترك الخدمة. وبدا لهم أن من المستحيل العثور على طاهية أخرى. أخذت فرجينيا على عاتقها زيارة وكالات الاستخدام وكانت فانيسا تجري استقصاءاتها في المنطقة مباشرة، فلم يجد هذا كله نفعاً. عندئذٍ خطر لفرجينيا أن ترسل خادمتيها إلى شقيقتها مدة موقتة أمدها أسبوعين مثلاً. وقد شجعها على ذلك ما كان عليه الزوجان وولف من ضائقة مالية يستحيل معها إيواء الخدم. لكنها أخفت نيتها في النقل الدائم للخادمتين عنهما. من جهة أخرى كان هناك احتمال حصول ليونارد على العمل محرراً، عندئذٍ تكون إعادة الخادمتين لا مفر منها. وأخذت المفاوضات تطول بين فانيسا وفرجينيا وبين فرجينيا والخادمتين وبين الخادمتين وفانيسا، تعقدها شكوك نيللي ولوتي بأن تركهما لخدمة سيدتهما قد يكون نهائياً، فضلاً عن احتمال استخدام فانيسا لفتاة أخرى متوفرة، حتى أن ذلك كان يملأ صفحة إثر أخرى من المراسلة اليومية بين الشقيقتين في شهري أيار وحزيران من تلك السنة. كان على فانيسا في النهاية، وهي في حالة توعك صحي، أن ترسل طاهيتها التي ستترك الخدمة إلى منزل شقيقتها لإنهاء المفاوضات، فتولت مهمتها على أسوأ ما يمكن، حتى أن نيللي ولوتي أعلنتا أخيراً أنه ما من شيء سيقنعهما بترك بيت وولف على الإطلاق. ولكن هذا القول الفصل جاء متأخراً فلم تستطع فانيسا أن تحظى بخدمة الفتاة التي كانت جاهزة لكنها تعاقدت بعدئذٍ مع آخرين. كانت فانيسا، في حالة القلق والتبرم التي كانت تسودها تتساءل هل أن ليونارد هو الذي حال دون حصولها على الخادمتين؟ أدى تساؤلها إلى صدور جواب حاد من ليونارد، ثم جرى تبادل رسائل المصالحة بين الطرفين.

كان بوسع فرجينيا دائماً أن تتصالح مع فانيسا بسهولة ويسر؛ ولكن ليس مع كلايف. كانت خلال خريف ١٩١٨ على خلاف معه مرة أخرى.

كان كلايف يتهم فرجينيا دائماً بأنها تدبر المكائد، وقد اعتقد، وربما كان على حق في اعتقاده، أن ملاحظاته غير السارة التي أبداها عن كاترين مانسفيلد في دار هوغارث إنما نقلتها فرجينيا إلى كاترين. أدى هذا بالطبع إلى حدوث إشكالٍ ما ؛ أما الأنكى من هذا فهو ما سيحدث الآن.

ففي هذا الوقت لم تكن فرجينيا ولا فانيسا هي الشخصية المهمة في حياة كلايف، بل السيدة ماري هاجنسون، وهذا يعني بالطبع أن هذه السيدة قد أضحت إن لم يكن «عضواً» في بلومزبيري فهي زائرة مترددة على أقل تقدير. كانت الشقيقتان تعجبان بها، ولكن كلايف كان يتطلب من أصدقائه أكثر من إظهار ودادهم لتلك السيدة، فهو يصر، مدفوعاً بحماسته، أن عليهم أن يجدوا فيها ذلك الكائن الأكثر تمدناً والأشد حذقاً من أي أحد آخر في أوساطهم. إنها بنظره سيدة تتمتع بالعقل الراجح مع المفاتن الزاهية التي لا تضاهيها إلا مفاتن مدام بومباردو. لم تكن السيدة ذاتها لتدعي لنفسها مثل هذه المزاعم، ولعلها أدركت أن كلايف بمزاعمه تلك إنما كان يضرها ولا ينفعها، فقد أفلح في إفساد فرص الترحاب الحار بها التي كانت ستجدها أمامها لولاه. والواقع أن مشاعر فرجينيا نحو صديقة كلايف تغايرت كثيراً. وليس هذا بالأمر الغريب، فما من أحدٍ إلا وأصاب أسهمه الصعود والهبوط في سوق احترامها المتقلب. ولكن هذه المسألة سببت أحياناً صدامات ذات أعماق مخيفة، وما ذلك إلا لأن كلايف قد وضع ثُبتاً مضلّلاً تماماً بمزايا السيدة هاجنسون.

وعلينا أن ننظر في تدبير فرجينيا للمكائد في هذا النطاق (هذا إن كانت هي صاحبة المكيدة) وذلك في خريف ١٩١٨.

فقد نما إلى السيدة هاجنسون آنئذٍ ـ وليس من الواضح من كان النمام ـ أن أصدقاء كلايف، بل فانيسا بالذات، يعتبرونها مضجرة، وهم لا يتقبلونها إلا من أجله. لم يلبث كلايف وفانيسا كلاهما أن استنتج أن الأمر

لا بد صدر عن فرجينيا فنقله عنها الرسام مارك غيرتلر الذي كان في آشام في أيلول. فكتبت لها فانيسا تقول : «إن ما قلته إلى غيرتلر قد نقله عنك فوراً. . . فاحذري في ما تقولينه. . . وأرجو ألا توحي لأحدٍ أياً كان بأنني لا أود ماري، فأنا أودها كما تعرفين».

أجابت فرجينيا بشيءٍ من الحدة : نعم، كانت ماري موضع بحث ذات مرة بينها وبين غيرتلر في آشام ـ كان ليونارد حاضراً ويمكنه أن يشهد بأن ما قلته هو أنني لا أكاد أعرف ماري إلا معرفة بسيطة، وهي تلتزم الصمت بصحبتي، وتلتزمه بصحبة فانيسا أيضاً. أما غيرتلر فلم يكن خبيثاً ولم يسقط خبراً لأنه على عادته كان مستغرقاً في نفسه وفي شؤونه. نعم، قد يكون لدى بعض أصدقاء ماري دوافع للكيد، أما هي فلا دافع لديها بالتأكيد. ثم اعترضت بشدة «على جعلي ضحية أسلوب التجسس الجهنمي هذا» وقالت إنها قررت أن تبتعد في المستقبل عن كلايف وعن طاقمه الجديد[1].

ويستفاد من رسالة كتبها كلايف إلى فانيسا أن سخط فرجينيا كان له ما يبرره :

> «أريد فقط أن أصحح في نقطة واحدة. لم أكن أنا الذي قلت إن فرجينيا تقولت بعض الأقاويل إلى غيرتلر. لم أقل إلا أن أقاويل قد قيلت، وأظن أنك أنت بالذات افترضت أن

---

(١) سجلت فرجينيا في يومياتها أنها كانت في جارلستون في ١٧ أيلول حين وصل كلايف والسيدة هاجنسون بالسيارة. وكتبت في ٢٣ منه «إنها كالعادة بكماء كالسمكة، وأقول كالسمكة نظراً لثوبها المرقّط ـ كذلك لأنها وإن كانت صامتة فهي ذات تماسك نفسي سريع أشبه بتماسك السمكة». وكتبت في اليوم ذاته : «كنا نتحدث عن غيرتلر إلى غيرتلر زهاء ثلاثين ساعة ؛ والأمر أشبه بالتحديق في مجهر، فالبقعة الصغيرة الواحدة تظهر بوضوح تام، وينقطع العالم المحيط بها عن الوجود» (من «يوميات كاتبة»).

فرجينيا هي منبع الحكاية. واتفقنا كلنا على أن هذا محتمل، ولم أزل أظن ذلك، لكنني لم أقل بالتأكيد أن الأقاويل صدرت عن فرجينيا لأنني لا أعرف حتى اليوم كيف بلغت ماري. سأتوصل إلى ذلك. ولا آبه مطلقاً بأن أشتبك مع فرجينيا. إني متعود على ذلك، بل أحبه، ولكن ليت الاشتباك يكون عن قضية حقيقية».

كانت فرجينيا قد اتهمت على أساس الظن لا على أساس البينة، والبينة على ما هي عليه تجنح إلى تبرئة ساحتها. ولكن من الممكن القول إن فانيسا (إن كانت هي المسببة للتهمة: ما كانت لترتاب بأختها لولا أن هذه كانت قد اكتسبت أصلاً سمعة سيئة في هذا المجال. كانت بلا شك ذات لسان لا يلتزم الحذر. وقد ذكرت هي بالذات أنها باحت ذات مرة بأسرار خاصة دون أن تدرك أنها ستفشى إلى الغير فأوقعها ذلك في ورطة لا تحمد عقباها. وكانت فانيسا قد رأت في مناسبة أخرى أن من الضروري تحذير الأخت حين أرادت زيارة الليدي ستراجي فكتبت لها تقول «بحق الله، أرجوك أن تكوني حذرة في ما تقولين. . . تذكري أن هذه المرأة ليست عصرية النزعة في شؤون الأخلاق ـ إنها لم تسمع قط بكلمة اللواط ـ أو لم تسمع بها تذكر في أوساط الأسرة على أية حال. وأنت ذات أفكار طائشة بشأن هذه الأمور». والحق أنها كانت ذات ميل مفزع للتصريح بما يخطر على بالها. ولكن هذا يختلف تماماً عن الكيد العمدي، الكيد القاسي دون مبرر، الذي اتهمت به.

وينبغي النظر إلى هذه الحوادث الشخصية العنيفة إزاء خلفية الأحداث العامة الكبرى التي كان اهتمام فرجينيا بها يتزايد باطراد. ذلك أن شجار غيرتلر ـ هاجنسون قد وقع في أواسط تشرين الأول ١٩١٨ وقد أصبح من الواضح يومذاك أن الحرب ستضع أوزارها أخيراً في القريب العاجل. كان

ليونارد منشغلاً جداً بالصراعات السياسية الدائرة حول البحث عن منظمة دولية لحفظ السلام تقام بعد الحرب، وقد سجلت فرجينيا شيئاً من تلك الجهود في يومياتها. وحين جاء سدني ويب وزوجته بياتريس صيفين إلى آشام في أيلول، تلك الزيارة التي انطوت بنظر فرجينيا على مجهود اجتماعي كبير، كان كلامهم الذي لا ينقطع يدور حول التعمير والنظام الاجتماعي الجديد الذي ينبغي أن يؤسس.

قال سدني : «سيزداد عمل الحكومة في المستقبل كثيراً».

فسألته فرجينيا : «هل سيكون لي موضع قدم فيه؟».

فأجاب : «نعم، سيكون عندك مكتب صغير من نوعٍ ما بدون شك. أنا وزوجتي نقول دائماً إن حارس السكة الحديد هو أكثر الناس مدعاةً للحسد. فلديه سلطة وهو مسؤول أمام حكومة. سيكون هذا هو حال كل واحدٍ منا».

ومرت الأسابيع وكانت هذه الرؤى الجميلة عن المستقبل تزداد بهاءً. كتبت فرجينيا في ١٢ تشرين الأول تقول «مهما يكن ما فعلناه هذا الأسبوع فقد كانت له خلفية عريضة من الأمل ؛ شعرت بذلك الإحساس الذي أتذكره وأنا طفلة عند اقتراب الكرسمس، إنما شعرت به مكبّراً جداً». في يوم الأحد التالي جاء إليهم ابن خالتها فيشر وكان يومئذٍ وزيراً في الدولة، جاء على غير توقع إلى دار هوغارث وقت الشاي وقال : «لقد ربحنا الحرب اليوم».

ولكنْ، لم يزل هناك شهر من الانتظار، فدونت فرجينيا على نحوٍ لا يخلو من الغضب لهفة لورد نورثكليف لإطالة المذبحة. كتبت في مفكرتها ليوم الأربعاء ٣٠ تشرين الأول :

> «عدت تواً من السير في المتنزه في هذا النهار الرائع جداً من أيام الخريف. أزهار البرتقال في كثير من البيوت ؛ وأشجار

الزان زاهية للغاية فتبدو الأشياء كلها باهتة بعد النظر إليها. تكلمنا عن السلام : كيف أن المناطيد، وهي شبيهة بالمقانق، ستنزّل إلى الأرض وتنثر الذهب على الرؤوس ؛ وكيف أن الناس سينسون بسرعة ما يتعلق بالحرب فيغطي الغبار ثمرات انتصارنا كما يغطي الحليّ على رفوف الزجاج. . . وكيف أن أهالي رجموند الطيبين سيبتهجون وهم يتذكرون الحرية التي كسبها أهالي بوتسدام الطيبون! لكنني أعتقد بأننا سنكون أكثر عجرفةً بشأن فضائلنا. هذه جريدة التايمز لم تزل تتحدث عن فصل آخر من القتال في ألمانيا ذاتها لكي ينطبع احترام الحرية هناك في نفوس الفلاحين. أظن أن ابتعاد الشخص الاعتيادي عن هذه المشاعر هو الضمان الوحيد بأننا سنستقر على حالنا، لا خيراً مما كنا عليه ولا شراً منه».

وكتبت بعد ذلك :

«الإثنين ١١ تشرين الثاني

قبل خمس وعشرين دقيقة انطلقت المدافع تعلن السلام. صفارة الإنذار تصفر على النهر. لم تزل تصفر. بضعة أناس هرعوا إلى النوافذ يتطلعون. الغربان السود تحوم وعليها ذلك الطابع الرمزي لمخلوقات تقوم بطقوس في احتفالٍ ما بعضه للشكران وبعضه لتوديع الموتى من فوق القبور. النهار ملبّد بالسحب والريح ساكنة والدخان يتساقط كثيفاً نحو الشرق ؛ هذا أيضاً يعتوره طابع الشيء الذي يطفو فيلوّح ثم يسقط. نظرنا من النافذة ؛ رأينا صباغ الدار يلقي نظرة إلى السماء ثم يعود إلى عمله ؛ ثمة رجل عجوز يجرجر أقدامه في الشارع

حاملاً كيساً يتدلى منه رغيف خبز كبير ويتبعه كلب سائب عن قرب. لم نسمع بعد قرع الأجراس ولم نر الأعلام، لكننا نسمع صفير الصفارات وهدير المدافع المتقطع.

الفصل الثالث
تشرين الثاني ١٩١٨ ـ كانون الأول ١٩٢٢

حل شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٨ وحلت معه الهدنة ؛ كذلك انتهت فيه رواية «الليل والنهار» ـ فقد كتبت فرجينيا سطورها الأخيرة في ٢١ تشرين الثاني ؛ وجاء هذا الشهر أيضاً بصديق جديد لفرجينيا هو تي. إس. إليوت. جاء هذا الشاعر إلى دار هوغارث ومعه ثلاث قصائد أو أربع، وبدا للكاتبة شاباً أمريكياً صقيلاً، مثقفاً، واسع المدارك، شديد الاحتشام، وهو مفرط في الذكاء وشاعر بكل ما في هذه الكلمة من معنى. كان متصلباً جداً في آرائه، ولم تكن شبيهة بآراء فرجينيا، ذلك أنه كان يرى عزرا باوند وويندهام لويس Wyndham Lewis من عظماء الرجال، ويعجب بجيمز جويس كل الإعجاب. وقد وافق ليونارد وفرجينيا على أن تنشر مطبعة هوغارث آخر قصائده فبدأت الكاتبة تصفّ حروف الشاعر تمهيداً للطبع في أواخر كانون الثاني ١٩١٩.

لكن فرجينيا قضت معظم أيام ذلك الشهر في السرير. فقد قلعت سناً من أسنانها، ثم أصيبت بالصداع، أما أبناء أختها الذين تولت أمرهم في بيتها خلال نفاس فانيسا فقد اضطرت إلى إرسالهم إلى أبيهم في لندن. والظاهر أن الهدنة لم تنه الشحة في تجهيزات المؤن بل فاقمت من النقص في شتى أنواع السلع. وتعقدت شؤون الحياة بموجة من القلاقل الصناعية. فوصفت فرجينيا منغصات العيش في ذلك الزمن في رسالة بعثتها إلى

كاكوكس، وهي الآن السيدة أرنولد ـ فورستر، وتقيم في كورنوول :

«. . . أن أكون مريضة في فندق خير لي من أن أكون سليمة ومعافاة هنا في البيت. لا يمكنك أن تتصوري الحال بلا مواصلات. لا يوجد قطارات السكة الحديد ولا قطارات الأنفاق. والثلج يتساقط بكثافة، وما من فحم في القبو، مع ثقب في السقف يجري منه الماء فملأ كل ما عندنا من الأواعي. قد لا يكون عندنا كهرباء غداً. نحن في رجموند لم نزل نستطيع الوصول إلى ووترلو ؛ ولكن هامستيد مقطوعة نهائياً. إن موظفي ليونارد يعيشون بالطبع في المرتفعات الشمالية ولا يستطيعون الوصول إلى المكتب أبداً، لذا فعلى زوجي المسكين أن يذهب بنفسه إليهم، وأنا أجلس هنا وأنتظر ولا يعلم إلا الله ماذا سيحدث مع الثلوج والضباب لحين عودته. ثم ان الخبراء يقولون إن الطبقة العاملة سلكت سلوكاً سخيفاً لذا ستتغلب الحكومة عليهم ؛ وهذا الاضراب هو بداية لأمور أسوأ ستأتي. ويقولون إننا نقبل على سنة لا نعرف شيئاً لها. أما العقلاء من أمثالك فيذهبون ويسكنون في كورنوول. ليتك تبحثين لنا عن بيت للإيجار، ويقال إن ذلك متوفر. نحن نواجه التخلي ـ إضطراراً ـ عن منزل آشام، وهذا احتمال فظيع يريدون المنزل لأغراض الحقل ؛ هناك بصيص أمل بالبقاء، ولا أكثر من بصيص. . .

حالتي جيدة تماماً مرةً أخرى، وإن كان ذهابي إلى لندن أصبح مقيداً الآن، لذلك ليس عندي الكثير من الإشاعات. . . . هل سمعت بكوارث منزل جارلستون؟ لا أستطيع شرحها مفصلاً لأنها ستملأ مجلدات. لك فقط أن

تتصوري طبيباً ريفياً يصف دواءً ما للطفلة أنجيليكا (وهي إبنة فانيسا التي ولدت يوم الكرسمس سنة ١٩١٨) فيضرها الدواء ليلاً ونهاراً ويزيد من مرضها ـ أمرته فانيسا أن يتوقف عن إعطائها الدواء ـ الطبيب يرفض ولا يصرح بنوع الدواء الموصوف ـ الأم لا تستطيع سوى أن تطيعه ـ الطفلة تفقد مزيداً من الوزن باستمرار ـ دنكون يذهب إلى برايتون للاستفسار من والد ساكسون عن طبيعة حليب فانيسا ـ بلا نتيجة ـ أبرقوا إلى الدكتورة أوليفر ـ تصل سراً ـ تكتشف أن الطبيب يصف نوعاً من السم ـ المربية ترى من واجبها أن تخبر الطبيب بوجود غريمة له ـ مشاجرات، انفجارات، وطرد ـ فانيسا والطبيبة ينتصران، والطفلة تتشافى جزئياً. ما ان انتهى هذا حتى اكتشفوا أن الخادمات قد أدمنّ على الشرب أو أسوأ فلا مناص من التخلص منهن ؛ جهود مسعورة للحصول على غيرهن ؛ لم يُعثر على أحد ؛ البرقيات أرسلت، المقابلات أجريت، وأخيراً تم العثور على طاهية ولكن المحاولة فشلت في اللحظة الأخيرة ـ ثم يعاد المسلسل كله مجدداً. هرعنا، فانيسا وأنا، نسعى بنوبة غضب، فكانت النتيجة أن كلتينا تعاقدت مع طباخة مختلفة دون علم الأخرى، فكان يجب صرف إحدى الطاهيتين لقاء مصاريف باهظة وجهود مضنية. لا يمكنك أن تتصوري الوقت الذي استغرقه كل هذا، ولا أن تتصوري مدى ضجري من أن أبدأ رسائلي مباشرةً لأنني أكره هذا الأسلوب، ثم لأن الكتابة الباغتة المقدامة شيء لا قبل لي به».

انطوت كوارث جارلستون هذه على كثير من العنت المضني لفرجينيا، في وقتٍ لم تكن حالتها جيدة على الإطلاق. إنها لا تستطيع مقاومة ما

تبديه شقيقتها من مطالب ولا تستطيع إلا أن تحنق منها، وكانت مطالبها أبلغ أثراً لأنها مطالب صامتة. حين ساءت الأمور في منزل الأخت أرسلت فرجينيا خادمتها نيللي إلى هناك لإنقاذ الوضع، ولكنْ كان على ليونارد أن يتدخل كالعادة لكي يصون زوجته من آثار كرمها ذاته.

لم تستطع فرجينيا زيارة إبنة أختها الجديدة إلا في آذار، وقد ذهبت للإطمئنان أيضاً على حالة فانيسا وتدبيرها للأمور. أشارت تقول إن العيش في جارلستون كالح نوعاً ما ـ «لا شيء سوى الريح والمطر، ولا فحم في القبو. مع هذا فثمة شيء جذاب ومريح للنفس يحف بذلك القفر في داخل المكان. كانت تسوده الفوضى، ومن الممكن نعته بسوء الصيت؛ لكن الجو السائد مريح للنفس وقد وجدته فرجينيا رومانسياً يحسدون عليه بالمقارنة مع حياتها المنزلية الرتيبة، التي لا يرقى إليها لوم.

في الأول من حزيران قضت فرجينيا مرةً أخرى ليلةً في جارلستون. كانت هذه الزيارة مهمة لأسباب يجب أن تشرح بالعودة إلى أحداث الربيع.

قلنا إن فرجينيا كانت قد استهجنت، في رسالتها إلى «كا»، احتمال فقدانهم لمنزل آشام، رغم وجود أمل ضئيل في البقاء. وقد زال هذا الأمل في ١ آذار حين قدم المالك المزارع إنذاراً بالتخلية خلال ستة أشهر. بدأ الزوجان بالبحث عن منزل جديد فوراً، وكان هذا عملاً تحسبه فرجينيا دائماً مصدر سرور عظيم لها. كانا يرجوان الحصول على سكن في المقاطعة ذاتها. لكن فرجينيا علمت من كاترين مانسفيلد بوجود ثلاث بيوت ريفية متجاورة في زينور Zennor في كورنوول وهي معروضة للإيجار ببدل سنوي قدره خمسة جنيهات استرلينية للبيت الواحد. كان دي. إج. لورانس قد سكنها، وكانت هذه المناسبة هي المناسبة الوحيدة التي تبادل فيها الروائيان الرسائل على الاطلاق. لم تستطع الكاتبة مقاومة الإغراء الذي تبثه كورنوول فيها فاستأجرت البيوت الثلاثة، لكنها سرعان ما أدركت بعد المسافة بينها وبين لندن وأحست بأن السكن هناك أمر غير عملي. لا أظن

أن الزوجين ذهبا إلى هناك مطلقاً، ولم نسمع شيئاً عن هذا المشروع في ما بعد.

في هذه الأثناء كان الزوجان قد طبعا ثلاثة كتيبات هي «قصائد» لإليوت، و«الناقد في الميزان» لمدلتون موري، و«حدائق كيو» لفرجينيا - وقد نشرت هذه المطبوعات الثلاث كلها في ٢ أيار. وبحلول ٣١ أيار لم يكن قد بيع من «حدائق كيو» سوى ٤٩ نسخة، في حين كانت مبيعات إليوت وموري رائجة كثيراً. وجهت فرجينيا لوماً إلى زوجها لأنه هو الذي أقنعها بأن قصتها جديرة بالنشر.

وهكذا عادت الكاتبة إلى جارلستون بذهنٍ مشوش، فكتابها غير مرغوب فيه، ومشكلة المنزل لم تحل بعد. كان الوضع البيتي قد لاءم نفسه بنفسه ولكن خصاماً أخوياً نشأ مع شقيقتها، وكان في هذه المرة خصاماً جمالياً يتعلق بالإخراج الطباعي لـ«حدائق كيو». كانت فانيسا هي التي صنعت المحفورات الخشبية للصور في هذا الكتاب، ولم تعجبها طباعتها على الإطلاق. وغمّ هذا فرجينيا كثيراً، وهي عادةً تميل إلى المبالغة في تقدير وزن النقد الصادر عن أختها، فإذا بها تتساءل عن جدوى مطبعة لا تستطيع أن تنتج إلا هذا الإنتاج الرديء، وقررت ألا تعمل فيها مرة أخرى. كان أثر هذا الحديث بين الأختين أثراً غريباً، إذا حكمنا على الأمور وفق ما ترويه فرجينيا عن المسألة[1]. فقد ذهبت إلى لوز Lewes فوجدت بيتاً معروضاً للبيع فاشترته فوراً.

---

(١) هل تعرفين أن قسوتك هي التي دفعتني إلى التهور لشراء بيت في ذلك اليوم؟ قلت في نفسي : يجب أن أفعل شيئاً لتقويم الميزان، ولأعطي نفسي قيمة في نظر نفسي، فاشتريت بيتاً ؛ لذا تقع المسؤولية على عاتقك. هل قاسى أحد كما قاسيت أنا؟ ألم تشاهدي روحي ترتعش كأنها - لا أدري ماذا بالضبط، ولكنها كجذاذة يحكها المرء من شمع أحمر فتتلوّى وتسقط من العذاب. ليس هذا التصور من صنع الخيال. لكن العظمة الكامنة في روحي أفرزت زَبَداً على السطح. بهذا ظللت باقية على قيد الحياة» من رسالتها إلى فانيسا في ١٨ حزيران ١٩١٩.

كان هذا أمراً شاذاً، وكان البيت الذي اشترته شيئاً شاذاً. إنه بنيان أسطواني يقوم على تل كان في ما مضى طاحونة، وهو يقع في وسط البلدة فهو ليس ما يريدون. عادت إلى لندن بروحية تنزع إلى التمرد؛ كانت دائماً تحس بالانقباض النفسي حين تختصم مع فانيسا. والآن أخذ شراؤها لذلك البناء لقاء ثلاثمئة جنيه يبدو جواباً غير مفحم للنقد الذي وجهته شقيقتها إلى مطبعة هوغارث، وكانت تظنه جواباً مفحماً في الابتداء.

في تلك الأمسية، حين فتح الزوجان وولف الباب الخارجي لدار هوغارث، انهال [illegible] وابل من البريد: رسائل متعددة تطلب نسخاً من «حدائق كيو»، [illegible] من موزعين، من مكتبات، ومن أفراد. الجميع يطلبونه على حين غرة؛ فقد [illegible] في ملحق التايمز الأدبي عرض في صالح الكتاب إلى حدٍ كبير.

كان ينبغي أن تكون هذه المناسبة مفرحة للغاية؛ لكن عقابيل الزيارة إلى جارلستون خلقت أمسية تعسة، فما الذي سيقوله ليونارد عن البيت المشترى؟.

لقد كان الزوج في واقع الأمر كريم الأخلاق، وقد أدرك كلاهما أن ما جرى ما هو إلا خطأ ينبغي تلافيه، فالذي يريدانه حقاً هو بيت في الريف. وحين ذهبا معاً للكشف عن ذلك البنيان الأسطواني بعد أسابيع من شرائه رأيا إعلاناً عن بيع ملك في قرية رودميل Rodmell ويقع إلى الجنوب من لوز بنحو ثلاثة أميال. قال ليونارد بأسى: «كان هذا سيلائمنا تماماً».

كان ذلك هو البيت المسمى Monk's House ويقع في نهاية شارع القرية الذي يلتوي نازلاً من الدرب العالي الممتد من لوز إلى نيوهيفن، وقد بنيت على هذا الشارع قرية رودميل بأكملها تقريباً. والبيت منزل متواضع من الآجر والحجر، مكسو بالخشب من جهة الشارع، وهو ذو طابقين مع

سطح متصاعد من صخرٍ رماديّ اللون ؛ في داخله عدد من الغرف الصغيرة تنفتح إحـداها على الأخرى ؛ الأرضية مبلطة بالآجر والسلم ضيق وقد بليت درجاته وتآكلت ؛ لم يكن فيه بطبيعة الحال حمام ولا ماء حار ولا مرافق. ثمة خلف البيت حديقة كثة، غير منسقة، مع جدران صخرية ومشتملات، وخلف الحديقة بستانٍ يليه فناء الكنيسة المسوّر. كلما أمعن ليونارد وفرجينيا النظر في المكان ازداد حباً له، ولم يجدا فيه عيباً. قررا بيع المبنى الأسطواني وشـراء هذا البيت الذي سيـعرض للمـزايدة العلنية في لوز يوم الأول من تموز. خوّلا وكيلهما شراء البيت بمبلغ لا يتجاوز ثمانمئة جنيه استرليني.

«لا أظن أن هناك من الدقائق في حيـاتي ما هو أكثر إثارة من دقائق المزايدة. كأنني كنت أنتظر نتيجة عملية جراحية خطيرة. كانت القاعة مزدحمة. نظرت في الوجوه، ونظرت في الملابس خاصةً بحثاً عن مخائل الثراء فسرّني ألا أجد شيئاً منها. ولكنْ، لم يبد على ليونارد نفسه، وأنا أتحرّى ملامح الموجودين، أن في جيبه ثمانمئة جنيه. لعل بعض المزارعين الكبـار حشـو جـوراباتهم برزم الأوراق النقـدية. وبدأت المزايدة. عرض أحدهم ثلاثمئة جنيه. . . وصلوا إلى الرقم ستمئة بأسرع مما تصورت».

بعـد هذا الرقم لـم يبق إلا إثنان يتـزايدان ؛ سـمح لهـمـا أولاً أن يتـزايدا بالعشـريـنات ؛ ثم بالعشرات ؛ ثم بالخـمسـات. وعند الرقم سبـعمئة ساد التـوقف ؛ ونادى المنادي هل من مـزيد؟ وهوت المطرقـة. لقـد رسى البيت على الزوجين وولف.

كـان قـد بقي لهـمـا في منزل آشام شـهـران من أمد الإنذار، وقد قضيا أحدهـمـا، آب بأسره، هناك. كانت فترة الانتقال إلى قرية رودميل حزينة، لا سيمـا لفرجينيا. كان منزل آشام جميلاً، سوداوياً، مسكوناً بالأرواح،

تحفه سمة تلائم الكاتبة كثيراً. وقد احتفت بأشباح المنزل الرهيفة بكلمات استفزت خواطر الذين مكثوا فيه. كان من المثير بلا شك الانتقال إلى بيت جديد، أما إذا قورن بين البيتين فإن هذا البيت الجديد ما هو إلا كوخ ريفي لطيف تحيطه المناظر الطبيعية وحديقة جميلة.

كتبت فرجينيا رسالتها الأخيرة من آشام في ٢٩ آب ١٩١٩ وكانت إلى فانيسا :

«آشام الجمعة

أيتها العزيزة

شكراً جزيلاً على الصك. ليونارد يتفق معك بأنني سأكون عقبة خلال النقل. ولكن من جهة أخرى أتصور نفسي شيئاً لا يستغنى عنه. لا أرى كيف يستطيعون تدبير الأمور بدوني. على أنني ممتنة من عرضك بالمجيء. قد آتي إليكم بعربتي في ما بعد وأبقى يوماً واحداً إذا كان لديك مكان لإيواء الحصان.

يبدأ النقل يوم الاثنين ؛ الصناديق القديمة تتناثر حولنا منذ الآن، وهي مليئة بالرسائل الممتعة للغاية ـ رسائلك ورسائل ماج ورسائل لامب، وأمامي رسالة قارصة جداً من مينارد كينز حول ترتيباتي في ميدان برونزويك بشأن المنزل المشترك. سنكون في بيتنا الجديد يوم الأربعاء ؛ وأخشى أني لن أستطيع أن أطلب من ليتون البقاء عندنا لأن الخادمتين ستكونان مجهدتين وأظن أنهما ستقدمان إنذاراً بترك الخدمة قريباً. خبّريه بأن خيبة أملي كبيرة.

متى تأتين لزيارة بيتنا الجديد؟ إذا جئت بالقطار إلى لوز فستلاقيك عربتي في المحطة وتأتي بك إلينا ؛ ثم تعيدك إلى

المحطة. سأقوم بالكثير من أعمال الدهان بالفرشاة في البيت دون أن أشعر بخزي زائف.

كنتِ في ليلة الوداع روح الحفلة. قال مورغان إنه رآك حسناء وفاتنة لكنه يخجل من التصريح بذلك أمامك. والذي أثّر بي كثيراً هو الوداع ـ الجميع شعروا بشيء من العاطفية بشأن آشام. . .

المخلصة»

لا يبعد البيت الجديد، «مونكز هاوس»، عن منزل آشام سوى أقل من ثلاثة أميال. وفي ١ أيلول عبرت نهر أوز Ouse عربتان من عربات الجر تحمل ممتلكات الزوجين وولف وانتهى النقل في صباح واحد؛ نام الزوجان تلك الليلة هناك.

أخذت فرجينيا، وهي تنتقل من حالٍ إلى حال، تتحرى عن مزايا الوضع الجديد. كانت الحديقة أفضل من سابقتها، تحيطها المناظر الفسيحة وتتيح مجالاً أكبر للتنويع؛ لكن الكاتبة كانت تحس بالاكتئاب. ولا نعرف على وجه اليقين هل كانت كآبتها ناشئة عن النقائص النسبية في بيتها الجديد أم عن روايتها «الليل والنهار» التي كانت على وشك الصدور عن دار دكوورث.

وكما هو الحال دائماً وجدت فرجينيا أمر النشر مسألة تقلق بالها، فحاولت كالعادة أن تفلسفها. تسلمت في العشرين من تشرين الأول نسخها الست الخاصة بها فبادرت فوراً إلى توزيع خمس نسخ منها ـ على فانيسا وكلايف وليتون ومورغان فورستر وفيوليت دكنسون. انتظرت آراءهم تتوجس خيفةً. أفصح كلايف في الحال أن الرواية هي من أعمال العبقرية بأعلى مراتبها، وتمادت فيوليت وفانيسا بالاطراء، وليتون بالحماسة. وتقبلت فرجينيا ثناء هؤلاء بسرور عظيم وإن على ارتياب بعض الشيء. أما فورستر

فقد كتب يقول إنه يفضل رواية «رحلة الخروج» ؛ وإنه لا يستطيع حقاً أن يتعاطف مع شخصيات روايتها الجديدة ؛ بدت رواية «الليل والنهار» له (كما بدت لمعظم الناقدين اللاحقين) أقل نجاحاً من سابقتها، لكنه نطق بحكمه هذا بكثير من التبصّر ومزيد من اللطف، فلم تبتئس فرجينيا إلا قليلاً.

أما كاترين مانسفيلد فقد بغضت رواية «الليل والنهار». كان رأيها «أن الرواية تنطوي على كذب في باطن الروح. فالحرب كأن لم تكن : تلك هي رسالة الرواية. . . أما أنا فأشعر شعوراً عميقاً بالتغيير الجاري، فما من شيء سيكون كما كان عليه أبداً ـ ونحن كفنانين سنكون خونة إذا شعرنا خلاف ذلك : علينا أن نأخذ الحرب بالحسبان فنجد عبارات جديدة، وقوالب جديدة، لأفكارنا ومشاعرنا الجديدة». هكذا كتبت كاترين إلى مدلتون موري ؛ ثم كتبت له مرةً أخرى بعد ثلاثة أيام تقول : «أنت تتحدث عن العجرفة الفكرية ـ إن روايتها تفيح برائحتها. (لكني لا أستطيع التصريح). وأنت ستكره الكتاب. بل لن تقرأه. إنه طويل جداً ومتعب جداً». ولكن كاترين، راعت اللياقة، وكانت تكتب في مجلة «أثينيوم» ؛ غير أنها قالت ما يكفي لإيقاع الألم. وقد حسبت فرجينيا مقالها ذاك عرضاً مهيناً ؛ وحسبه ليونارد كذلك.

مع هذا فقد كان ذلك العرض متعمقاً من وجوه متعددة. فلئن كانت رواية «الليل والنهار» هي تحفيز عمدي للماضي فإن من غير المعقول القول بأنها تجافي الواقعية ؛ لكنها تنتسب إلى الماضي بطريقة أخرى : إنها أداء تقليدي بكل ما في التقليدية من تزمت، وكاترين مانسفيلد لم تفعل سوى استشفاف الحيرة التي شعر بها عدد من النقاد اللاحقين عندما لم يجدوا في الرواية شيئاً قط من الجرأة التي كانت في «رحلة الخروج» أو في «حدائق كيو». «لقد ظننا أن ذلك العالم قد اختفى إلى الأبد، وأن من المستحيل العثور في أوقيانوس الأدب على سفينة لا تدرك شيئاً مما يجري حولها ؛

ولكنْ ها هي رواية (الليل والنهار)، جديدةً، متأنقةً ـ رواية على تقليد الأدب الروائي الانكليزي. وإنها لتشعرنا ونحن في خضم إعجابنا بهرم الشيخوخة وقشعريرتها. لم نكن نخال أننا سنشهد مثل هذه الرواية مرة أخرى».

كانت مشاعر فرجينيا نحو كاترين مانسفيلد مشاعر مختلطة على الدوام، وقد استمرت مسألة العلاقة بينهما تثير اهتمامها كثيراً :

«. . . سأحتاج إلى كتابة وصف طويل لكاترين قبل أن أتوصل إلى توازني المستطرف بين الاهتمام والتسلية والانزعاج. والحقيقة هي، على ما أفترض، أن شرطاً من شروط صداقتنا لا يتم الإفصاح عنه ولكنه مفهوم ضمناً، وهذا الشرط هو بالضبط أن صداقتنا كانت قد قامت على رمال. وقد تميزت هذه الصداقة بالانزلاق والتوقف مراراً ؛ انقطعت علاقتنا أشهراً، ثم التقينا على أرضية كانت في ظاهرها صلدة. كنا صديقتين صميميتين، ومشاعرنا عميقة ومتوترة أكثر مما كانت منفتحة ؛ أما بالنسبة إليّ على أية حال فقد كان التعاطي المتبادل بيننا ممتعاً على الدوام وممزوجاً بعنصر شخصي يكفي لجعل المرء منشغفاً ـ إن كانت هذه هي الكلمة الصحيحة ـ فضلاً عن جعله مشوقاً لانتظار ما سيأتي».

هذا ما كتبته فرجينيا في يومياتها في شباط ١٩١٩ وكانت تحس بالإحباط لأن كاترين، وقد كانت فرجينيا تزورها أسبوعياً في هامستيد قبل الكرسمس، قد التزمت الصمت المطبق. كانت مريضة في حقيقة الأمر، وحين التقتا مرةً أخرى دونت فرجينيا في يومياتها :

«هذه المرأة الغامضة، المغلقة، ظلت غامضةً ومغلقة ـ يسرني

أن أقول هذا؛ ليس هناك ما يدعو للاعتذار أو للشعور بالحاجة إلى الاعتذار. . . على أني أجد مع كاترين دائماً ما لا أجده مع غيرها من النساء الذكيات ـ أجد شعوراً باليسر وشعوراً بالاهتمام، وهذا يرجع على ما افترض إلى اهتمامها الأصيل بفننا النفيس، مع أنه يختلف كثيراً عن طريقتي في الاهتمام».

ظلتا تلتقيان طوال صيف ١٩١٩، وكان موري معهما أيضاً في أغلب الأحيان؛ كان وجوده يكبحهما. وموري يومئذ هو محرر مجلة أثينيوم فسرّ فرجينيا أن يطلب إليها الإسهام فيها؛ كتبت نحو سبعة عشر مقالاً للمجلة في بحر السنتين التاليتين. وكانت كاترين في فرنسا حين ظهر عرضها لرواية «الليل والنهار»؛ وعند عودتها إلى انكلترا في صيف ١٩٢٠ لم تحاول زيارة فرجينيا، فبادرتها هذه بالقيام بالخطوة الأولى. حين التقتا أخيراً كانت هناك:

«رسميات مزعجة وبرود في البداية. استفسارات عن البيت وما أشبه. لم يظهر عليها سرور أو انفعال عند رؤيتي. أثار انتباهي أنها من نوعية القطط؛ دخيلة، متماسكة، وحيدة دائماً ـ تراقب وتلاحظ. ثم تكلمنا عن الوحدة فإذا بها تعبّر عن مشاعري ذاتها على أحسن وجه. عندئذ انسجمنا، وكالعادة تحدثنا بيسر وكأن الأشهر الثمانية لم تكن سوى دقائق ـ إلى أن دخل موري. . . إن ما تحدثه كاترين من تأثير عجيب إنما هو تأثير شخص متباعد، وأناني كلياً، إنها على العموم تركز على «فنها»: كادت تكون ضارية تجاهي بشأن فني».

لم تستطع فرجينيا أن تحجم في ذلك اللقاء عن ذكر روايتها «الليل

والنهار». فصرحت كاترين تقول، برياءٍ له ما يبرره، إن الرواية «إنجاز مدهش. لِمَ لا؟ إننا لم نحصل على مثلها منذ أمد طويل» ـ فقالت لها فرجينيا «لكني ظننت أنكِ لم تعجبي بها!».

> «عندئذٍ أجابت بإمكانها اجتياز امتحان فيها. وسألتني هل أذهب إليها للحديث عنها ـ على غداء ـ ولذا فأنا ذاهبة إلى الغداء ؛ ولكنْ ما الذي يعنيه عرضها للرواية إذن؟ أم أنها عاطفية تجاهي؟ على أية حال، أنا أشعر مرةً أخرى شعوراً عميقاً بالتفاهم المشترك بيننا ـ شعوراً غريباً بأننا في «الأشباه» وليس فقط في الأدب، وأظن أن هذا الشعور مستقل عن الغرور. أنا أستطيع أن أتكلم معها على نحوٍ صريح».

ستظل فرجينيا، في البقية الباقية من حياة كاترين، بل بعد موتها أيضاً، تحس نحوها بمشاعر مركبة من التعاطف والغيرة. كان اجتماعهما الأخير في آب ١٩٢٠. ذهبت فرجينيا من رودميل إلى لندن لتوديعها، فكاترين ستغادر إلى الخارج مرةً أخرى. وتساءلت فرجينيا هل تأبه بفقدها حقاً، فأجابت أنها تأبه كثيراً.

انتهت سنة ١٩١٩ بعدد من الأمور المزعجة. فقد قدمت نيللي ولوتي إنذاراً بترك الخدمة، كما فعلتا في السابق مراراً، وسرعان ما سحبتا إنذارهما ؛ وعاد ليونارد من اجتماع للجمعية الاستهلاكية لجامعة أوكسفورد مصاباً بحمى ظهر أنها حمى الملاريا فظل متوعكاً زهاء ثلاثة أسابيع. قبيل إبلاله مرضت فرجينيا بالأنفلونزا. كانت طريحة الفراش حين جاء أخوها أدريان وزوجته كارين (وهما ليسا من الضيوف الذين يرغب ليونارد كثيراً باستقبالهم) جاءا لتناول الشاي ثم العشاء في دار هوغارث في يوم عيد الميلاد. وعندما تمكن الزوجان وولف من الانتقال إلى رودميل في نهاية كانون الأول كان المناخ سيئاً جداً، وكان أن خرج ليونارد إلى الحديقة لتقليم

أشجار الفاكهة فكاد يبتر إصبعاً من أصابعه.

في نهاية تلك السنة كتبت فرجينيا في يومياتها : «إننا نستحق الآن، كما نظن، شيئاً من الحظ الطيب. مع هذا أبادر إلى القول بأننا أسعد زوجين في إنكلترا».

وابتدأت سنة ١٩٢٠، وستكون سنة حافلة، دون لفتة عظمى من لفتات الحظ السعيد، ولكنها ابتدأت على ما يرام. أقام الزوجان في بيتهم الجديد بضعة أيام فكتبت فرجينيا في ٧ كانون الثاني :

> «هذه أمسيتنا الأخيرة. نحن نجلس قرب النار، ننتظر البريد ـ والبريد زبدة النهار على ما أظن. غير أن لكل جزء من النهار مزاياه : الإفطار بلا خبز محمص، ولكنه ينتهي بأكل التفاح الصغير الملون ؛ وتطل علينا الشمس كل يوم تقريباً ؛ وننتهي من الإفطار بمزاج طيب ؛ أذهب أنا إلى الصالة الرومانسية (وهي غرفة في مشتمل الحديقة تتخذها مكتباً) فأسير على عشب اخشوشن بالصقيع، وعلى أرض صلدة كالآجر. ثم تأتي السيدة ديدمان لتتلقى أوامر الطعام ـ في الحقيقة تأتي لتعطي هذه الأوامر لأنها ترتب وجباتها على نحوٍ يلائم طبخها اليومي. نحن نشاركها في فرنها. والنتيجة لذيذة دائماً : لحم بالمرقة مع البطاطس المهروسة وغير ذلك من صحاف تسبح فيها الصلصة الكثيفة مع الجزر والبصل. . .
> تفرغ الدار في الحادية عشرة والنصف، وهي الآن فارغة في الخامسة. نحن نعتني بنارنا، ونغلي القهوة، ونقرأ، وهذا كله بترف وطمأنينة وعلى مهل».

هذا المقتطف ليس سوى جزء من يومية تكاد تكون مكرسة كلياً لملذات الحياة في الريف : فعاليات ليونارد في الحديقة، ومسيراتها هي، فالبيت

الجديد يوفر دروباً متنوعة للمشي أكثر مما كان موجوداً في آشام ـ عبر مناظر طبيعية أخاذة. إن فرجينيا تكشف في هذا المقتطف، وفي فقرات لاحقة من اليومية ذاتها، عن نبرة من نبرات الصفاء الروحي.

لم يكن لديها، في هذه الأيام الأولى من عام ١٩٢٠، ما تقوله عن كتاباتها إلا القليل. فبعد أن انتهت من كتابة روايتها «الليل والنهار» انشغلت بكتابة قصص قصيرة، نشرت في مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء»، وانشغلت كذلك بكتابة رواية بعنوان «رواية غير مكتوبة» ظهرت في مجلة «لندن مركري» في عدد تموز. وكانت تنشط في الكتابة الصحفية أيضاً(١) ؛ ولكن لم يكن في ذهنها بعد عمل كامل، في ذهنها الواعي في الأقل.

كانت قد كتبت في تشرين الثاني ١٩١٩ :

«نعم، لم يسبق لي أن أهملت عملي على هذا النحو، (وتعني كتابة اليوميات). ولعلي أستشف، في طيات ترددي بتأليف الجمل، لا مجرد عدم توفر الوقت ولا أن عقلي قد أرهقته الكتابة، بل أستشف أيضاً امتعاضاً بسيطاً ينبىء بتغيير ما في الأسلوب. لا شك أن الحيوانات تشعر مثل هذا الشعور عند اقتراب الربيع وسقوط فروة الجلد لحلول فروة جديدة محلها».

في نهاية كانون الثاني كان الربيع الذي أشارت إليه فرجينيا قد أخذ بالاقتراب. كان الزوجان في ذلك الوقت قد عادا إلى رجموند، واحتفلت

---

(١) لم تكن عروضها للكتب من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠ بالكثرة التي كانت عليها في ١٩٠٥ و ١٩٠٦. ظهرت لها في سنة ١٩٢٠ مقالات في ملحق التايمز الأدبي ومجلة أثينيوم وصحيفة نيوستيتسمان شهرياً عدا أيلول.

فرجينيا بعيد ميلادها بالاستماع إلى موزارت وبيتهوفن، وفي اليوم التالي، الإثنين، ٢٦ كانون الثاني كتبت :

«هذا اليوم هو الذي يلي يوم ميلادي ؛ أنا في الثامنة والثلاثين. حسناً، لا ريب عندي أني أسعد كثيراً مما كنت عليه في الثامنة والعشرين ؛ وأنا اليوم أسعد مما كنت عليه البارحة، إذ توصلت اليوم إلى فكرةٍ ما عن شكل جديد لرواية جديدة. لو فرضنا أن الشيء الواحد سيؤدي إلى الشيء الآخر ـ كما يجري في رواية غير مكتوبة ـ إنما لا لمجرد عشر صفحات بل لمئتي صحيفة مثلاً ـ ألا تعطيني هذه المحاولة ما أريده من الارتخاء والخفة؟ ألا يتقرب الشيء أكثر فأكثر ويظل مع ذلك محتفظاً بشكله وسرعته فيحيط بكل شيء آخر، كل شيء؟ وما ارتيابي إلا في مدى إحاطته بالقلب الإنساني ـ هل أنا سيدة الحوار لكي أتمكن من حصره؟ أخال أن المقترب الذي سأسلكه سيكون هذه المرة مختلفاً تماماً : لن أقيم إسكِله للبنيان ؛ ولا يكاد الآجرّ يُرى ؛ كل شيء شفقيّ الظلال، لكن القلب، العاطفة، الدعابة، كل شيء براق كالنار في الضباب. عندئذٍ سأجد مجالاً كبيراً لكثير من الأمور : المرح، التفاهة، الخفة، وكلها تحث الخطى حسبما تشتهي إرادتي الجميلة. والمسألة هي : هل أنني سيدة الأشياء حقاً؟ هنا موطن الشك ؛ ولكنْ، لنتخيل «علامة على الجدار» و«حدائق كيو» و«رواية غير مكتوبة» وهي تتشابك بالأيدي وترقص بوحدة كاملة. أما ما هي هذه الوحدة فعليّ أن أكتشف ذلك بنفسي ؛ لم تزل الثيمة غير موجودة، لكني أرى إمكانيات هائلة في الشكل الذي عثرت عليه صدفةً قبل أسبوعين. وأفترض أن الخطر يكمن

في النفس الأنانية اللعينة ؛ تلك النفس التي حطمت جيمز جويس ودوروثي رجاردسون على ما أرى : هل يكون المرء لَدِناً وثراً إلى درجة تقيم جداراً بينه وبين الكتاب كما جرى لهذين الكاتبين؟ آمل أنني تعلمت صنعتي جيداً الآن فأستطيع أن أوفر التسلية بشتى أنماطها. لم يزل عليّ، على أية حال، أن أتشبث وأجرب، ولديّ اليوم بصيص من نور. وأظن أنني سأجد درباً أسلكه بسهولة لتطوير الرواية التي في ذهني».

إنه لمن النادر أن نجد مؤلفاً يرى بغاية الوضوح وعلى حين غرة، لا عقدة الرواية التي يريدها ولا طريقة كتابتها، بل منهاجاً بأسره لعقدٍ قادم من الزمن.

في ربيع ١٩٢٠ بدأت رواية «غرفة يعقوب» تتخذ شكلاً، ومع أن كتابتها مضت، بعد أن استنفد الدفق الأولي قوته، على نحو أكثر اتساقاً في أيار فإن فرجينيا كانت مع ذلك تستمتع بها وهي تستشعر قوتها المتجددة وتلاحظ أن كتابتها لهذه الرواية هي أمتع ما كتبته على الاطلاق.

وجاء حزيران بحلقة من الأحداث المشحونة بالتوتر النفسي، كانت لها أهميتها العظمى للكاتبة، وليس ذلك من جراء طبيعة تلك الأحداث الواقعية بل لأنها تلقتها بإدراك مفرط في قوته لآثارها.

كانت تمضي يوماً من الأيام التي تسميها «أيام المتعة المشهودة» : فقد استقلت قطار الظهر من رجموند إلى لندن، وذهبت إلى صالة العرض الوطنية، وهناك التقت كلايف، فاصطحبها على عادته لتناول المثلجات في Gunter's حيث تراقب زملاء الحرفة باهتمام. ثم تناولت عشاءها مع فانيسا في منزلها في ميدان غوردون، وهناك سمعت حكاية ماري بأسرها. كانت ماري هذه من خادمات المنزل وهي فتاة حسناء، فاتنة. وقد حالفها

سوء الحظ بأقدار مريعة مفاجئة، أولاً والدها ثم شقيقها وثم خطيبها، وكلهم يقتلون بحوادث. كان حزنها مرعباً وهو يتزايد مع كل ضربة من ضربات القدر. وصارت حكاية مصائبها الجسيمة، والمعقدة، على الألسن، ثم اكتشفوا بعد لأيٍ أن ماري قد اخترعت كوارثها بنفسها منتحلةً الأقارب والأصدقاء. عندئذٍ فرت من المنزل على نحوٍ درامي، فأعيدت إليه وكانت تهذي، فنقلت إلى مستوصف سانت بانكراس. كان منظرها وهي تؤخذ عنوةً وتشاهدها خادمات الحي من النوافذ قد ترك في نفس فرجينيا انطباعاً بغيضاً.

«... صعدت إلى الطابق العلوي من الحافلة وذهبت إلى ووترلو. فتغيّرت نفسيتي وصارت جولتي شيئاً زاهياً. ليلة مثمرة ونسيم عليل. جلست إمرأة عجوز، عمياء، تشحد قرب جدار حجري في كنغزواي Kingsway وهي تحتضن بين ذراعيها كلباً هجيناً بنيّ اللون وتغني عالياً. ثمة شيء أهوج يحف بها؛ شيء ينسجم تماماً مع لندن. بدت متمردة ـ لكنها تكاد تكون مرحة، وتضم كلبها إلى صدرها كأنها تضمه طلباً للدفء. كم من حزيران جلست في قلب لندن هناك؟ لماذا هي هناك؟ وماذا يمر أمامها من مشاهد مفجعة؟ لا أدري. أأريد أن أعرف هذا كله أيضاً؟ ألا لعنة الله. لعل الذي بدا غريباً هو أغنيتها في الليل؛ كانت تغني بصليل، ولمتعتها هي بالذات، لا من أجل الشحادة. ومرت سيارات إطفاء الحريق ـ بصليل أيضاً؛ قبعات رجال الأطفاء صفراء فاقعة في ضوء القمر. أحياناً يصطبغ كل شيء بصبغة المزاج ذاته؛ لا أعرف كيف أحدد معنى هذا. كان الوضع بهيجاً لكنه مع ذلك فظيع وزاهٍ بشكل مخيف. إني في هذه الأيام غالباً ما تأخذ عليّ لندن أمري؛ أفكر حتى بالموتى الذين

مـشـوا في المدينة. ربما ينبـغي للمـرء أن يزور الكـنائس. إن منظر الأبراج الرمـادية من جـسـر (هـانغـر فـورد) يذكـرني بالشيء؛ ولكنْ ما هو (الشيء)؟ لا أعرف».

تظهـر تلك العجوز العـمياء في رواية «غرفة يعقوب»؛ ولعلهـا هي التي تغني أغنية «ضعوا إلى جانبي باقة من البنفسج» في رواية «السيدة دالاواي».

أخذ الـزوجـان وولف يدركـان تدريجـياً أن مطبـعة هـوغـارث تنمـو نمواً سريعاً، ففي الأمسية التي لا تنسى في عام ١٩١٩ حين فوجئا عند المدخل بوابل من رسائل الطلب على قصـة «حدائق كيـو»، أحسا أن المطبعة تسير نحو التغيّر من هواية إلى صنعة. أخذا يتساءلان هل ينبغي لهـما التـوسع؟ ولكن المطبعة تتيح لهـما فرصـاً كبيرة ومنافع ملموسة لا يمكنهما نبذها. إن فرجينيا، وكانت تكره تقديم رواياتها لجيرالد دكـوورث ـ وترى أن رأيه هو ما تسـميه «رأي رجال النوادي الاجتماعية عن الآداب» ـ صارت تعتقد أن من المريح لها أن تنشر كتبها بنفسـها. وأخذ الأصدقـاء، الذين أنسوا في البـداية بهـواية الزوجين وسـاورتهم الريب بشـأنهـا أيضـاً، أخـذوا يـرسلون بمخطوطاتهم إليهما للنشر. وقد اجتذبت المطبعة عدداً من المؤلفين الأفذاذ، فظهـرت أسمـاء كاترين مـانسفيلد وتي. إس. إليوت ومـدلتون مـوري وإي. إم. فوستر ومكسيم غـوركي تحت عنوان المطبعة. كانت الإمكانيات رائعة واستمرت المطبعة في النماء. وبدأوا يستـأجرون العمال للقيام ببعض الأعمال في صف الحروف والطباعة، غير أن الزوجين واظبا على القيام شخصياً بكثير من الأعمال.

والمطبـعة تولّد لهـمـا الأعـمال وتزيـد من حجـمـهـا على حـسـاب الوقت. كانت فرجينيا كما رأينا منهـمكة بروايتها وبكثير من الكتابة الصحفية أيضاً. أما ليونارد، الذي أنجز في سنة ١٩١٩ كتابه المعنون «الأمبراطورية والتجارة في أفريقيا»، وهـو كتاب أعجبت فرجينيا به كثيراً، فقد كـان منهمكاً بكتاب

آخر هو «الاشتراكية والتعاون»، وكان كذلك يحرر مجلة شهرية هي The International Review، ورُشّح أيضاً في أيار ١٩٢٠ للانتخابات لإشغال أحد مقعدي الجامعات في البرلمان. إنه بحاجة إذن إلى مساعد يتولى من المسؤوليات ما يزيد عما تقوم به باربارة هايلز. والحاجة تدعو إلى استخدام أحد الشباب الأذكياء، وهنا كثير منهم، وكان الترتيب المثالي الذي جرى التفكير فيه هو أن يؤدي تدريب المستخدم إلى المشاركة، في نهاية المطاف، بالمطبعة ذاتها لجعل عرض العمل جذاباً، وظنوا ذلك الترتيب مثالياً لجميع الأطراف.

وكان ذلك الترتيب، في واقع الأمر، مصيدة وقع فيها جميع الأطراف دون تروٍ. فالنشر بنظر الشباب الطموح لم يكن سوى مسألة اختيار للمؤلفين المناسبين وتقديمهم إلى العالم على نحوٍ جميل. أما بنظر ليونارد ـ وهو بالضرورة القوة الفعالة في إدارة المطبعة ـ فالمسألة هي صفّ الحروف، وطبع الصفحة تلو الصفحة، وتنظيف الآلات، والتجليد والتصميغ، والرزم وكتابة العناوين وتحرير الخطابات وإيصال الرسائل ؛ كل هذا كان قد شُرح بلا ريب شرحاً مفصلاً لطالبي العمل عند مجيئهم إلى مطبعة هوغارث، ولكن هؤلاء أقاموا على تصورهم بأن هذه الأشغال الوضيعة ليست سوى المطهر الذي يقود إلى فردوس الجمالية. ولكنهم كانوا يكتشفون في الحال أن تصورهم هذا ما هو إلا سراب. كان لدى ليونارد فكرته الخاصة عن سياسة المطبعة الأدبية، وعند الشك في أمر من أمور هذه السياسة فهو يلجأ إلى فرجينيا للبتّ فيه. وكان ليونارد رجل أعمال من الطراز الأول فهو يفلح دائماً في الحصول على صفقات طباعية ناجحة ـ ناجحة على نحو قاسٍ كما بدا للبعض ـ وكانت هناك بالطبع أعمال وفيرة لكي يقوم بها المساعد. كان الزوجان يعتبران النشر عملاً غير متفرغ، ولكنه سيكون أكثر من ذلك بكثير إذا تولاه المساعد المطلوب. وهكذا كان الوضع بطبيعته صعباً. ومما زاد في الطين بلة أن ليونارد، كما قال هو شخصياً عن نفسه، كان يتوخى

الكمال، كما أنه كان في مقتبل العمر مما يجعله حاد الطبع. كانت المطبعة طفلته، وبمرور الزمن غدا غير متعقل بشأنها. لعل من الأصح أن نقول إن المطبعة كانت عشيقته. وهو يستطيع عند الضرورة أن يقتسمها من إمرأة، لا مع رجل. لم ينسجم ليونارد مع سلسلة الشبان الذين عملوا في مطبعة هوغارث انسجاماً حسناً، في حين كان يجري ترتيب أمور الفتيات المستخدمات على نحوٍ أيسر وأسعد حالاً.

كان أول من عمل من الشباب رالف بارتريدج Ralph Partridge، وهو صديق ليتون، وقد راقبت فرجينيا تطور عمله الصعب في المطبعة بتعاطف وتسلية وبعض الانزعاج. كان الترتيب الذي جرى أن يعمل رالف في مطبعة هوغارث ثلاثة أيام في الأسبوع. وكان رالف هذا جذاباً وقوياً، وسيماً وذكياً، مع حماسة كبيرة للعمل وموهبة بارزة فيها.

في تشرين الأول ١٩٢٠ دونت فرجينيا ملاحظة عنه فكتبت «إنه يضع منكبه، وهو كمنكب الثور، على العجلة كأنه يقدم على زوبعة». وواضح أن أشياء عظيمة كانت ترتجى منه. ولكن حماسة فرجينيا كانت قد خفتت قليلاً ؛ فقد كان هذا الشاب لا يكبح له جماح، وكان أيضاً محباً للسيطرة، فنشأت بينه وبين ليونارد احتكاكات متزايدة. لم تكن فرجينيا تبذل جهداً لتفهّم النزاعات التي تقوم بين زوجها ومساعديه في المطبعة إلا في حالات التأزم أو في الأمور التي تخص مصير كتبها الخاصة ؛ كان هناك الكثير مما لم تنتبه إليه أو لم تأبه بتمحيصه ؛ ولكنها كانت ترى دائماً أن ليونارد على صواب.

«الجمعة، ١٨ شباط ١٩٢١.

> أنوي منذ مدة طويلة أن أكتب بحثاً تاريخياً عن عودة السلام ؛ ذلك أن فرجينيا العجوز ستخجل من نفسها حين ترى أية ثرثارة كانت في ما مضى فتتحدث دائماً عن الناس

ولا تتحدث أبداً عن السياسة. وستقول فرجينيا لنفسها، بالإضافة إلى ذلك، إن الأزمان التي مرت بكِ كانت استثنائية للغاية، وأنها كانت أزماناً استثنائية حتى للنسوة الهادئات من سكان الضواحي. أما الواقع فهو مستمر، وما من شيء يحدث في لحظة دون أخرى. إن كتب التاريخ من شأنها أن تجعل ذلك أكثر تحديداً مما هو عليه. كانت أبرز علامة على حلول السلام وأكثرها مغزى هذا العام هي البيع بالتنزيلات، وقد انتهى ذلك الآن. كانت المخازن تفيض بالملابس الرخيصة. فالطقم النسائي من قطعتين الذي كان سعره ١٤ جنيهاً في تشرين الثاني بيع بسبعة جنيهات وربما بخمسة. فقد توقف الناس عن الشراء وعلى المخازن أن تتخلص مما فيها بصورة من الصور. تنبأت ماجري ستراجي، وهي تدرّس في دبينهامز، بأفلاس معظم أصحاب المخازن في هذا الشهر بالذات. مع ذلك فإنهم يستمرون بالبيع رخيصاً، بأسعار ما قبل الحرب كما يقولون. عثرت على سوق في سوهو تعرض فيه البضائع على أرض الرصيف فاشتريت زوجاً من الجورابات بشلن واحد، أما الجورابات الحريرية (وقد نسلت قليلاً) فأكثر من شلن بقليل. ثمة مخازن على مسافة مئة ياردة من هذا السوق تطلب سعراً عن الحاجة ذاتها يتراوح بين خمسة شلنات وعشرة. انخفضت أسعار الأطعمة أيضاً ولكن دفاتر حساباتنا لا تظهر فرقاً يذكر. أما الحليب فقد ارتفع بأحد عشر بنساً للقنينة، ولكن الزبدة انخفضت إلى ثلاثة شلنات، غير أن هذه زبدة هولندية. البيض ـ لا أدري أي بيض هو. الخادمات بعمر عشرين سنة يحصلن على أجور قدرها ٤٥ باون سنوياً. التايمز تدفع لي ثلاثة جنيهات

بدلاً من جنيهين للعمود الواحد. ولكنْ، يا عزيزتي يا فرجينيا! أظن أنك ستجدين هذا كله مكتوباً بدقة في كتب أخرى، مثلاً: يوميات السيدة غوس Gosse ويوميات بياتريس ويب، وأظن أن من الصحيح القول إننا اتجهنا خلال الشهرين الماضيين نحو الرخص بمقدارٍ ما ـ مقدارٍ ما فقط. هذا ومن الملموس أيضاً أن عدد الجنود الجرحى في الخارج قليل، ولكن السيقان الخشبية والأجسام بساق بواحدة، والأرجل الاصطناعية، والأردان الفارغة، شائعة كثيراً. كذلك أرى أحياناً في ووترلو أشخاصاً كأنهم عناكب رهيبة الشكل تدفع نفسها دفعاً ـ رجال بدون أطراف، لم يبق إلا الجذع. وعدد الجنود قليل».

كان من الصحيح على العموم أنها في يومياتها «تتحدث دائماً عن الناس، ولا تتحدث أبداً عن السياسة»، أما إذا تحدثت أحياناً عنها ـ فقد ذكرت مثلاً إضراب عمال سكك الحديد الكبير في ١٩١٩ ونوهت عن معاونتها النشطة للمضربين ـ فذلك على سبيل الاستثناء. كانت حياتها في ربيع ١٩٢١ مكرسة لكتابة رواية «غرفة يعقوب» ومجموعة قصص «الإثنين أو الثلاثاء»، بالإضافة إلى محاولة فاشلة لتعلم اللغة الروسية حين ذهبت لتشارك في الحملة الانتخابية مع ليونارد في آذار في تلك السنة. ذهبا معاً إلى مانشستر، وقد أعجبت فرجينيا، كالعادة بطريقة زوجها المتقنة في إدارة الاجتماعات العامة. لكنّ الأكادميين الاشتراكيين في مانشستر ملأوا نفسها بالقنوط. وجدتهم أناساً طيبين، شجعان، وجادين، وهم يقاتلون ضد قوى متفوقة، قوى شريرة وعمياء، ولكنهم كانوا ثقلاء، فازدرتهم وخجلت من نفسها ومن عجرفتها، وتفاقم الأمر لأنها اكتأبت من مدينة مانشستر ذاتها.

لم ترافق ليونارد في جولاته الانتخابية الأخرى.

وظهر كتاب «الإثنين أو الثلاثاء»(١) في بداية آذار، وظنت فرجينيا أن الخطأ الذي ارتكبه رالف بارتريدج في طبع تاريخ النشر هو الذي أدى إلى عرض غير لائق عن المجموعة ظهر في التايمز، كما أن الناشر الأمريكي لرواية «رحلة الخروج» رفض نشر هذا الكتاب فأخذت الكاتبة تشعر أن عملها قد فشل فشلاً ذريعاً. في هذه الأثناء كان كتاب ليتون المعنون «الملكة فكتوريا» يستقبل بترحيب كبير. أقام رالف بارتريدج حفلة عشاء تكريماً للمؤلف حضرها الزوجان وولف فلم يأت ليتون على ذكر مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء»، لذلك أوشكت فرجينيا أن تشعر بالإحباط التام لولا أنهم ذهبوا بعد العشاء إلى قاعة موسيقية شاهدوا فيها أدواراً قدمتها ماري لويد، فكتبت فرجينيا : «كتلة من التشويه ـ أسنان أمامية طويلة ـ تنطق كلمة (شهوة) كأنها متخمة بها، إلا أنها فنانة بالولادة».

ولكن اكتئاب فرجينيا على حدته لم يدم طويلاً، فسرعان ما أخذ الإطراء يتعالى. أخذت تشعر مرةً أخرى بأنها «مهمة» ـ «أو ليس هذا ما يريده المرء؟» ـ وفي أواسط نيسان صارت تنظر إلى نجاح ليتون نظرة فلسفية كريمة، وكان قد بيع من كتابه خمسة آلاف نسخة في أسبوع واحد كما قيل، فيما بيع من كتابها ثلاثمئة نسخة فقط. فضلاً عن أنها تسامح ليتون كثيراً. وحين نقل إليها رالف أن ليتون أعجب بقصة «الرباعية الوترية» وهي من قصص مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء» وأنه خالها قصة رائعة أحست

(١) «أدهشني إليوت بإطرائه مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء» ! وقد سرني ذلك حقاً. تخيّر الرباعية الوترية، خاصةً نهايتها، وقال إنها جيدة جداً، وأظنه يعني ما يقول. أما الرواية غير المكتوبة فلم يجدها ناجحة ؛ وقال عن قصة البيت المسكون بالأرواح أنها مثيرة للاهتمام جداً». (من كتاب «يوميات كاتبة»، يومية ٧ حزيران ١٩٢١).

الكاتبة بالحبور يغمر كيانها كله(١).

وبوجود رالف بارتريدج في مطبعة هوغارث غدت فرجينيا على معرفة بالعلاقات الدائرة في «بيت الزوجية» المتخذ في الدار المسماة The Mill House، ذلك المنزل الريفي الذي أقيم إلى ليتون في قرية تيدمارش في مقاطعة بيركشاير. كانت فرجينيا قد قامت بدور في حدثٍ ما درامي أربك ذلك المنزل، وبما أن هذا الدور قد وصف وصفاً فظاً فهو يحتاج إلى شرح.

كانت الحياة في منزل تيدمارش «معقدة جداً» كما قال ليتون لفرجينيا؛ وهي حياة يديرها ثلاثي يحيطه الغموض ويتألف من رالف بارتريدج ودورا كارنغتون وليتون نفسه، وأحدهم مغرم بالآخر، ولكنْ كلٌ على شاكلته. كانت كارنغتون تعشق ليتون عشقاً عميقاً ومخلصاً، وكانت في هذه الفترة قد شغفت برالف شغفاً يقود إلى نومها معه، وهي على أية حال لم تكن تريد خسارته. أما حين ينشدها هو فإنها تفر منه، إلى أحضانٍ أخرى. وما أن يتراجع حتى تتقدم هي. ومع أن بارتريدج كان مدركاً لمعايبها ولكنه كان مأخوذاً بها ويرغب بالزواج منها رغبة مشبوبة. كان كذلك متعلقاً بليتون، وكان هذا بدوره مغرماً برالف وينظر نظرة إلى دورا كارنغتون ـ وعليها يعتمد كلياً من أجل توفير راحته المنزلية هنا.

أظن أن فرجينيا لم تكن تعرف، ولا تريد أن تعرف، إلى أي مدى كانت كارنغتون مهمة لستراجي. كانت هذه ذات صفات حميدة، وتتمتع بالإغراء البريء الذي كان مسلياً ومحزناً معاً، والحق أن فرجينيا كانت تكنّ لها الوداد؛ لكن كارنغتون كانت في الوقت ذاته جاهلة وسخيفة؛ أما فتنتها

---

(١) كتبت فرجينيا في سنة ١٩٢٨ معلقةً على كتاب «أليزابيت وأسكس» فقالت إنه «واهن جداً وضحل جداً، مع أن ليتون نفسه لا بالواهن ولا بالضحل. لذا سيتهم المرء في المرة القادمة الجمهور؛ ثم يتهم كارنغتون ومن لف لفها، والشبان!» (يوميات كاتبة ٢٨ / ١١ /١٩٢٨). وكتبت فانيسا في السنة نفسها تقول: «إن لكارنغتون أثراً جنائزياً على ليتون، فهو يفقد كل اهتمام عند وجودها». (من رسالتها إلى كلايف في ٢٣ / ٥ / ١٩٢٨).

فهي فتنة الشباب. ذكرت فرجينيا في يومياتها «أن كارنغتون تهرم، وأفانينها من النوع الذي يهرم». وأخالها شعرت أن ليتون يستحق، بل يحتاج رفقة عقل أكثر اطلاعاً وسداداً مما يمكن وجوده لدى فتاة متحررة. وظهر أن هذه الفتاة لم تكن صالحة له على العموم. كان ليتون نفسه على شبه اتفاق مع آراء فرجينيا، ربما إكراماً لذكرى رابطة قديمة، وقد شجعها على التقليل من شأن مودته للفتاة ومن قوة هذه المودة(١) . وحين التقته فرجينيا صدفةً في كانون الأول ١٩٢٠ في لندن تحدثا عن إمكانية زواجٍ بين رالف ودورا، وقالت :

«على أية حال، أنا نفسي لن أتزوج من رالف. إنه طاغية».

«هذا صحيح. ولكن، ماذا سيحدث لكارنغتون؟ إنها لا تستطيع العيش معي إلى ما لا نهاية ـ فربما تستطيع معه!».

وفي مناسبة أخرى، حين أهدى ليتون كتابه «الملكة فكتوريا» إلى فرجينيا، وكان ذلك الإهداء مجاملة سرّتها كثيراً، فقد اعترضت، مع ذلك، قائلةً إن الإهداء كان يجب أن تحظى به كارنغتون. فأجاب الكاتب :

«لا يا عزيزتي، لا. فنحن لسنا في هذا الوادي مطلقاً».

وفي أيار ١٩٢١، وكان رالف بارتريدج مستميتاً، يائساً، وعليلاً حقاً جراء مراوغات كارنغتون واستفزازاتها، فجاء ووضع متاعبه وحيرته بين يدي الزوجين وولف. كتبت فرجينيا :

---

(١) «تكلم ليتون عن كارنغتون. . . بصراحة لا تثير الغبطة ولو أنها ليست صراحة خبيثة أبداً. فقال : (تلك المرأة ستطاردني مطاردة الكلب، ولن تدعني أكتب). وذكر أيضاً : (قالت لي أوتولين سينتهي الأمر بزواجك منها. فأجابها : أعوذ بالله ! إن الفكرة نفسها ترعبني. ولكنني أعرف شيئاً واحداً : لن أتزوج من أحد على الإطلاق. فسألته : حتى لو كانت تحبك؟ فقال : في هذه الحالة عليها أن تجرب حظها)» (من يوميات كاتبة ١٢/ ١٢/ ١٩١٧).

«كان متصلباً، شديد التبصّر، وحاقداً بشأن كارنغتون. قال إنها تظن نفسها إحدى الصويحبات للناس أجمع، ثم قال إنها أنانية، كذوبة، ولا تبالي أبداً بما يقاسيه. وأضاف : إن المحبين إذن يقومون دائماً بتعذيب العاشق فيمزقونه إرباً، ويفعلون ذلك ببعد نظر أيضاً. لقد قال الحقيقة، على العموم. لكني أحسب أنه كان متحيزاً، بل قلت له إنه عربيد متوحش وطاغية. إن أمره يتطلب سيطرة أكبر مما آبه أنا بالقيام بها ـ أعني سيطرة على جسم محبوبته وعقلها ووقتها وأفكارها. وهنا يكمن خطره ومخاطرته ؛ لذا فأنا لا أغبطها كثيراً على قيامها باتخاذ قرار في هذا الشأن».

وهذا في الواقع هو ما كان على كارنغتون أن تتخذه الآن، ذلك أن نفسية رالف كانت متدهورة، حتى أن ليونارد قال له إن عليه «أن يصوّب المسدس إلى رأس كارنغتون» ـ بعبارة أخرى أن يقول لها : إن لم تتزوجه فسيهجرها ويغادر البلاد. إن كارنغتون، وهي تواجه خيارين إما أن تتزوج من رالف أو تنفصل عن ليتون، كانت تعرف أن حياتها مع هذا ترتبط ارتباطاً لا فكاك منه بمحبته لرالف، لذلك فقد استسلمت. تزوجا هي ورالف بعد ذلك بعشرة أيام. وفي لحظة من لحظات عدم التحفظ كشف لها رالف أن تصميمه على الزواج كان قد تعزز بنصيحة من الزوجين وولف، وقال لها أيضاً إن فرجينيا كانت قد أخبرته بما صارحها به ليتون نفسه من أن كارنغتون ربما تشعر بدالّة علية، في حين أن من الواضح للجميع أنه ما كان سيطيقها طويلاً إذ لا يجمعها به شيء، عقلياً أو جسدياً. فكتبت كارنغتون، في رسالة تعيسة، مؤلمة، أرسلتها إلى ليتون وصفت فيها مشاعرها ودوافعها التي ألجأتها إلى الزواج ؛ وذكرت في الرسالة أيضاً ما قاله رالف ورواه عن الزوجين وولف. وأضافت في حاشية الرسالة تقول : «لا تظن أنني شعرت بجرح يصيبني عندما سمعت ما قلته أنت

لفرجينيا وليونارد، ولا تظن أن ذلك أبكاني. فقد واجهت مثل هذا من أمدٍ طويل مع أليكس في السنين الأولى من حبي لك». أجابها ليتون :

«ينبغي ألا تتقبلي كل التقبل ما ينقل إليك من كلام. وأظن أن مرارة الخيبة تجعلك تميلين إلى المبالغة في الجانب الأسود مما قيل لك. . . وأخال أن من المتفق عليه أن المرء لا يصدق عموم الأقوال التي تصل عن طريق فرجينيا!».

إن دور فرجينيا في هذا الأمر قد أسيء فهمه وأسيء عرضه أيضاً. لقد ألصقت بها أبشع الدوافع، ونسب إلى فرجينيا شجبٌ لتصرفها وهذا تلفيق محض. فحين كاشف رالف الزوجين وولف بمشاعره نحو كارنغتون قيل إن فرجينيا «بولعها بإثارة المشاكل، ولمعرفتها أن ما تقوله سينقل عنها، قامت بدس تعليقات سامة من عندياتها». أما تبرؤ ليتون اللبق، ولم يكن تبرءاً منزهاً عن الخطأ، (فهو الذي أوحى لفرجينيا أن كارنغتون تثير السأم فيه) فقد شوّه كثيراً إذ قالوا عنه «أنه أخبر كارنغتون بأن فرجينيا، بما تتميز به من خبث مريض، قد كذبت بشأن مشاعره ونواياه».

وقد شعرت فرجينيا بشيء من وخز الضمير، ولكنه وخز لم ينشأ عما نقله رالف عنها. إن الذي أقلق بالها هو ظنها بأنها ربما ساعدت في ترويج زواج غير حصيف.

«إن كارنغتون، إذن، قد حزمت أمرها لتصبح السيدة بارتريدج ـ ولكنْ لا، فهذا هو ما صممت على ألا تفعله، لأنها تريد أن تحتفظ بإسمها إلى الأبد. ولو أني آخذ بما يقولون لشعرت بشيء من المسؤولية بدفع رالف إلى الزواج. غير أني أرى أن هذا الزواج لا يختلف كثيراً عن معظم الزيجات من حيث المغامرة».

وكان لهواجسها أساس صحيح ؛ ففي خلال عام واحد حدثت

مشاجرات عنيفة ومهاترات، عندئذٍ وجدت فرجينيا نفسها بجانب كارنغتون إلى حدٍ كبير.

ومع أن فرجينيا كانت قد أصيبت بالحيرة في فهم تعلق ليتون بكارنغتون، لكنها كانت قد شغفت بالفتاة لذاتها، وظلت على شغفها هذا بعد أن اتضح لها مدى ذلك التعلق وأهميته عند ليتون. كان اهتمام فرجينيا وليونارد في هذه الأمور كلها نابعاً من اهتمامها بليتون، فهو من أقدم أصدقائهما وأعزهما، ولم يكن غرضهما إلا سعادته. ولكن صلة فرجينيا بما جرى لم يكن من الحلم في شيء.

قبل ثلاثة أيام من زواج رالف بارتريدج من دورا كارنغتون في مكتب تسجيل سانت بانكراس قامت فرجينيا وليونارد بعملية تجريبية موضوعها دزموند مكارثي. كانت فرجينيا قد كتبت عنه في ١٩١٩ تقول :

> «أنا واثقة أن طبيعته هي ألطف الطبائع بيننا جميعاً ـ طبيعة يتمناها المرء لنفسه. ولا أظن أن فيه عيباً كصديق، سوى أن صداقته غالباً ما تختفي وراء سحابة من الغموض؛ إن نوعاً من البخار المتصاعد من دهورٍ تفصلنا عنه يحول بيننا وبين الالتقاء. لعل مثل هذا الوهن ينطوي على ارتخاء في نسيج مودته أيضاً ـ ولكني لا أحس بذلك إلا لماماً. وهذا يصدر عن الإدراك الذي أجده جذاباً، ويصدر عن حسن التصور أيضاً، بأن الأمور لا تهم على وجه العموم. إن الرجل يلتزم كثيراً بمذهب الشك. ولكن من منا على أية حال يزعج نفسه أكثر منه للقيام بأعمال اللطف التي يقوم بها؟ من منا أكثر منه تسامحاً. وأكثر تقديراً، وأكثر تفهماً للطبيعة البشرية؟ إن من نافلة القول تأكيدنا على أنه ليس شخصية بطولية. فهو يجد السرور مسراً أكثر مما ينبغي،

والوسائد أنعم مما هي عليه، والتغنج مغرياً أكثر مما يجب، ثم أنه توقف عن الطموح كما يخيّل لي الآن. إن (مؤلفه العظيم) ـ وقد يكون في الفلسفة أو في السيرة، وسيبدأ بكتابته بعد سلسلة من المسيرات الطويلة في هذا الربيع بالذات ـ لن يتخذ شكله النهائي إلا ما بين وقت شاي العصر والعشاء، حين تبدو الأشياء ممكنة، بل منجزة أيضاً. وما أن يبزغ ضوء النهار حتى يجد دزموند نفسه قانعاً بأن يبدأ كتابته، فيشهر قلمه وهو يقول في نفسه على نحوٍ مازح وسوداوي إن هذا هو قدره. مع هذا فمن الحق الذي لا ينكر أن لديه تلك العناصر الطافية لشيءٍ ما ساطع وجميل : لكتاب من القصص، أو التأملات، أو الدراسات، وهي عناصر تتناثر من حوله وتظهر في حديثه. ويقال لي إنه يبتغي القوة من وراء هذه الجذاذات غير المترابطة ؛ ولكنها ستنحدر، إذا جاءت في سفر مكتوب، إلى درك التباعد الذريع. إن إدراكه لهذا الأمر قد أدى به إلى الكد المضني في كتاب كامل له فجاءت النتيجة أن اختلطت جذاذاته في مزيج لا يتحلل. على أني أتمنى أن أنقب في منضدة كتابته فأنفض الغبار عن أوراقه غير الكاملة وأخرجها من بين صحائف النشاف وقوائم الحساب القديمة لكي أضع كتاباً صغيراً في فن الحديث، يكون دليلاً للجيل القادم على أن دزموند كان أكثر موهبةً على الاطلاق. فلماذا لم يفعل شيئاً إذن؟ هذا سيكون سؤالهم».

ولعل الذين عرفوا دزموند لا يزالون يسألون أنفسهم هذا السؤال كان دزموند سيتبوأ، في تصور أصدقائه، مكانة هنري جيمز. وأنت إذا سمعته يتكلم لا يسعك إلا أن تصدق بهذا. لم يكن عليه إلا أن يتحدث، ولو كان

غارقاً في محاولات فاشلة لتعويم مجلات كاسدة، أو في تسوية ديونه أو مسايرة حياته، حتى يمتلك عليك سمعك ومودتك ويملأ صدرك بالمسرة، ويقنع الآخرين بأنه حين ينطلق على سجيته يكون سيداً لكنز لا يفنى. ما كان عليه إلا أن يضع يده في جيبه كالساحر ليخرج لك ما تشاء، من الحذق والألمعية والخيال الثر العميق. كان الأمر عنده ليس سوى «أطلب وخذ»، ذلك أنه كان كريماً حد السفه، ومبذراً ثقافياً إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الإنسان. ما أقلها تلك المسرحيات التي نفتتن بها فلا يصل افتتاننا إلى نصف ما تسحرنا ثرثرة دزموند.

كانت المحادثة هي فنه، وإنها لمأساة أن أختار مثل هذه الوسيلة المتلاشية في التعبير. ثمة نوع آخر من المنغصات لفرجينيا، فهو يأتي إليهم في رجموند للعشاء فجأةً، غير مدعو، وعلى موعد لتناول العشاء في مكان آخر، فيأخذ بالتملص من هذا الذنب الاجتماعي باستخدام فن الحديث هاتفياً، ثم يعود فيتحدث حديث السحر حتى ساعات الفجر، مصراً على إيقاظه مبكراً لكي يتسنى له قضاء عمل عاجل إذا كان الغد، ولكنه لا ينهض إلا متأخراً، ويتباطأ في تناول الإفطار، ويعثر على فقرة في التايمز فتثير استخفافه، ويدخل في بحث شيّق عن إبسون، ثم يقول إن عليه أن يغادر، ولكنه يلتقط كتاباً يذكره بشيءٍ ما فيتحدث عنه حتى الساعة ١٢.٤٥ حين يكون عليه اللجوء إلى الهاتف مرة أخرى ليفتن ذاك الذي كان في انتظاره في مكتبٍ ما منذ الساعة العاشرة، وفي الوقت نفسه يكون عليه معالجة ما نشأ أصلاً من مضاعفات لأنه على موعدين مختلفين لتناول الغداء مع سيدتين مختلفتين، والساعة الآن قد بلغت الواحدة وسيقتضيه الأمر أربعين دقيقة ليصل من رجموند إلى الطرف الغربي من لندن. كان دزموند في كل هذا يمارس فنه ـ فن المحادثة. ولكي يفعل ذلك كان يمنع، لسوء الحظ، فرجينيا من ممارسة فنها، وكم من مرةٍ نظرت فيها الكاتبة إلى الوراء نحو صباحٍ ضاع سدى وهي تشعر بشيء من المرارة النفسية.

ومع هذا كان من المستحيل التفكير بدزموند دون الشعور بالمودة نحوه، أو دون الإحساس بالأسف عليه لأنه لم يعط كلماته شكلاً مستديماً. وقد جرت محاولات متعددة لإقناعه بإنجاز شيءٍ ما أكثر جديةً من الصحافة. ويقال إنه احتجز ذات مرة في غرفة مغلقة في محاولة لإجباره على البدء بكتابة روايته. أما زوجته فقد اخترعت، بحذق أدق من هذه المحاولة، فكرة «نادي الرواية» لاستدراجه إلى عالم الأدب؛ ثم روعي غرض مماثل عند تأسيس «نادي المذكرات(١) Memoir Club في سنة ١٩٢٠. استمر هذا النادي في البقاء سنين دون أن تستخلص من دزموند على الاطلاق رائعته المرجوة التي تنتظر الكتابة.

كانت تجربة الزوجين وولف مختلفة في الوسيلة، متماثلة في الغرض العام. والهدف باختصار هو تسجيل محادثة دزموند. دعي إلى العشاء في دار هوغارث. وفي روجر فراي أيضاً أجلست الآنسة غرين، وهي سكرتيرة ليونارد في المجلة التي يحررها، في ركن مناسب خفي عن الأنظار، وزودت بالورق وأقلام الرصاص. شجّع دزموند على الكلام وهو يجهل المكيدة، وعزّز تشجيعهم بقنينتين من النبيذ الفاخر. تكلم دزموند على نحوٍ رائع، ودونت الآنسة غرين كل كلمة قالها. ثم ظهر عيب واحد في هذا المشروع: جاء سجل المحادثة غير مثير للاهتمام أبداً.

في ١٠ حزيران ذهبت فرجينيا إلى حفل موسيقي، وعادت تلك الليلة

---

(١) اجتمع هذا النادي أول مرة في ٤ آذار ١٩٢٠. والأعضاء هم: دزموند مكارثي وزوجته مولي، الزوجان وولف، ساكسون سدني - تيرنر، مينارد كينز، ليتون ستراجي، دنكون غرانت، كلايف وفانيسا بيل، مورغان فورستر، سدني ووترلو وروجر فراي. ثم انتمى لعضوية النادي ديفيد غارنيت. لم يكن للنادي قواعد سوى أن العضو حر في أي يقول ما يشاء، ولم تسجل فيه محاضر للاجتماعات. يقول ليونارد في أحد كتب سيرته الذاتية «الانحدار حتى النهاية» إن أعضاء النادي هم أفراد بلومزبيري أنفسهم. أما نادي الرواية فلم يدم، بقدر ما أعرف، إلا فترة قصيرة في سنة ١٩١٣.

فلم تستطع النوم. لازمت السرير في اليوم التالي، وسرعان ما اتضح على نحوٍ يثير الاكتئاب أنها مقبلة على نوبة من نوبات مرضها. قضت الشهرين التاليين في الفراش. وأخذها ليونارد إلى منزلهما في رودميل فبدأت صحتها بالتحسن، حتى أنها كتبت في يومية ٨ آب تقول :

«هذه، وفي هذا الصباح، هي أولى الكلمات التي أكتبها - إذا جاز نعتها بالكتابة - منذ ستين يوماً ؛ انقضت تلك الأيام بصداع متعب في الرأس وخفقان مضطرب في القلب ووجع في الظهر وانزعاج وقلق وأرق، وأدوية منومة وأدوية مسكنة وأعشاب طبية، والخروج للمشي قليلاً، والعودة إلى السرير مرة أخرى - وكانت كل أهوال الجزء الأسود من المرض تعرض كرةً أخرى لتحويل انتباهي. دعوني أعاهد نفسي أن هذا لن يحدث في المستقبل أبداً، أبداً ؛ ثم دعوني أعترف أن هناك تعويضات. فمن اللطيف أن أتعب ويسمح لي بالاستلقاء في السرير ؛. . . وأن أشعر بأن في وسعي أن أجرد الأشياء على مهل. هذا وإن عالم النفس السفلي المظلم له مغرياته ومفزعاته معاً».

أخذت تتماثل للشفاء ببطء، لكنها كانت سريعة التهيج. وصارت تستاء من رودميل فأطفال القرية يثيرون ضجيجاً مرعباً وهم يلعبون في المرج خلف بستان البيت. بدأت ترى أن من الأفضل البحث عن بيت جديد. وللمرة الأولى فكرت في تحرير وصية.

ما أن وجدت أن بوسعها الكتابة مرةً أخرى حتى تحسنت معنوياتها فعادت إلى رجموند وقد استردت توازنها العقلي ؛ كان رالف وآلة الطبع الجديدة يعملان على ما يرام، ونيللي ولوتي على وفاق، بل إن زيارة من إبنة عمها دوروثيا ستيفن لم تنغص حالتها كثيراً، وكانت هذه تهز الأرض

في مشيها على السجادة في دار هوغارث كأنها من آثار العصر الجليدي، فضلاً عن أنها كانت تنوي قضاء الأعوام الخمسة التالية في تحسين الحس الأخلاقي للهنود. وفي يوم الجمعة، الرابع من تشرين الثاني، خطّت فرجينيا الكلمات الأخيرة من رواية «غرفة يعقوب»، ودوّنت أنّها كانت قد بدأتها في ١٦ نيسان من العام السابق.

في بداية العام الجديد قررت التوقف عن كتابة عرض الكتب؛ إنها تستهلك كثيراً من وقتها وجهدها، وبروس رجموند يتلاعب بالمخطوطات التي تقدمها، وقد شعرت أيضاً أنها قادرة الآن على كسب المقدار نفسه من المال بأشكال أخرى من الكتابة. ثم أنها لم تكن قد تماثلت حقاً للشفاء بأي حال، وقد لاحظ ذلك ليونارد.

ما أن انتهت من كتابة روايتها «غرفة يعقوب» حتى بدأت تكتب عملاً جديداً كانت تفكر به بتأمل منذ أمد، وقد سمته «القراءة». بدأته باستمتاع كبير، لكنها سرعان ما أصيبت بالأنفلونزا فعادت إلى التزام الفراش أسبوعين. حرّم عليها الدكتور فرغسون العمل مدة ثلاثة أسابيع أخرى. كان هذا طبيبهم العمومي في رجموند وكان ذا إدراك سليم. وجد أن نبض فرجينيا المضطرب الآن «قد جاوز حدود المعقول وهو في الواقع نبض مجنون»، ودرجة حرارتها غير طبيعية. أرسلت المريضة إلى إثنين من الاختصاصيين فقرر أحدهما أن قلبها مصاب وأنها لن تعيش طويلاً، وقرر الآخر أن الإصابة في الرئتين. لم يلتفت الدكتور فرغسون إلى كلا التشخيصين، وفعل ليونارد الشيء ذاته. لكن فرجينيا قضت الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٢٢ مقعدةً. نقلت سريرها إلى غرفة الجلوس قرب الموقد، وهناك كتبت قليلاً وقرأت كثيراً واستقبلت زوارها كذلك. ومن هناك لاحظت العلاقة بين زوجها ورالف وهي تزداد سوءاً بشأن مطبعة هوغارث.

لكن فرجينيا لم تكن تلك المقعدة التي لا يسعها الدخول مرةً أخرى في مغازلة عابثة مع كلايف.

«. . . أنا أرى كلايف على نحوٍ متكرر. وهو يأتي أيام الأربعاء ؛ مرحاً ومتورداً وفتياً كفرخ الحمام ؛ إنه رجل يستمتع بالدنيا ؛ وفيه ما يكفي من الصديق القديم والعشيق القديم فيجعل أوقات العصر ملأى بالنشاط. لعل مرة واحدة في الأسبوع تكفي. إن رسائله توحي بالشكوك. ولكنني بعد تسعة أسابيع من الانحصار بين الجدران أريد أن أقفز من فوق السور وأقطف الأزهار . . . تكلمنا قبل يومين من الساعة ٣٠ / ٤ إلى ١٥ / ١٠. ومن الواضح أن عليّ أنا أن أشحذ فطنته ؛ وأحصل بالمقابل على صقل معلوماتي الاجتماعية. أسمع عن حفلات العشاء ؛ أحصل على حقائق عن أنواع الشراب وأصول الحديث وما يجري في المجتمع. إنه يستمتع بكل شيء. . . ويقول : ما من شيء حقيقي في الحياة سوى ما نشعر به، ومن اللازم الاستمتاع بما نشعر به ؛ إلخ. من الواضح أننا لا نبلغ في أحاديثنا ذرى عقلية، كما أننا لا نكون صميميين تماماً. إن شيئاً من اللون يضاف حسب الذوق. ونتعانق ؛ على سبيل إضافة الكماليات للزينة ـ من المستحيل الكلام دون هذه الإضافة كما تقول فانيسا. لكنني أتصور أن عناقاً واحداً كل أسبوعين هو ذروة علاقتنا.

أما كلايف نفسه فقد كتب إلى فانيسا يقول إنه وقع «كالعادة» في غرام فرجينيا قليلاً. ثم كتب بعد عشرة أيام يقول : «آمل ألا أسقط في الغرام إلى حدٍ أعمق. على أن هذا الحب ينطوي على إطراء كبير لامرأة في الأربعين، ألا توافقين؟؟».

لم يكن أيٌّ منهما في خطر كبير. فاهتمامات كلايف الودية كانت في هذا الوقت منصبة على آخرين ؛ أما فرجينيا فقد تأرجحت مشاعرها نحوه، ولكن رقاص قلبها لم يمل نحو جهة الهيام. أخذت ترى، وهي تتناول العشاء معه ومع فانيسا، أنهم أمسوا جميعاً أسعد حالاً وأكثر تسامحاً وأشد اطمئناناً مما كانوا عليه حين كان تناولهم لوجبات الطعام في منزل ميدان غوردون ليس أكثر من عادة من العادات اليومية، وحين كان كلايف أهم رجل في حياتها. إن بوسعها الآن التمتع بصحبته، وبعنترياته التي تنبع من لطف طبيعي ورغبة أصيلة في إراحة الغير ؛ بل إنها تستطيع الآن الضحك حتى من تصرفاته الخرقاء التي كانت قد أدانتها بشدة قبل سنة واحدة فقط. كانت يومئذٍ قد استشاطت غيضاً منه ومن حياته التي لا تكترث إلا بالمتع الدنيوية، ومن عشاءاته خارج البيت، ومن حفلات الغداء التي يقيمها لعدد محدود، ومن دوقاته وتعابيره الفرنسية الناعمة، ومن تمشدقه وتباهيه بمعرفته بالكبراء، ومن ملابسه الزاهية وصوته الملعلع ورأسه الأصلع، أما الآن فهي لما تزل تظهر له عدم استحسانها لكنها توده أكثر مما مضى.

إن التقلب في تعليقات فرجينيا عن كلايف هو بذاته إشارة إلى أن نقدها لا ينبغي أن يؤخذ مأخذ الجد كلياً. غير أن من الحق القول إن كلايف نفسه قد غدا، منذ الحرب، أكثر نزوعاً للملذات الدنيوية، وأنها هي ذاتها قد غدت في الوقت عينه أكثر اهتماماً بها وأكثر انتقاداً لها معاً. ولأنها هي نفسها متنفجة ذات كبر فقد تمكنت من فهم فساد القيم الرهيف الذي تستشفه في كلايف، ذلك الفساد الذي ستصفه وصفاً دقيقاً في روايتها «السيدة دالاواي».

في حزيران ١٩٢٢ جاء تي. إس. إليوت إلى دار هوغارث وقرأ عملاً جديداً.

«لقد غنّى القصيدة ورتلها وجعل لها إيقاعات. وهي ذات

> جمال عظيم وذات قوة تعبيرية ؛ وفيها تناظر هندسي، وتوتر. لا أدري بالضبط ما الذي يربطها ببعضها. لكنه قرأ وقرأ حتى اضطر أن يتعجل. . . على أن المرء يترك وهو يحس بشيء من العاطفة القوية. عنوان القصيدة (الأرض اليباب The Waste Land) ؛ وفسرتها ماري هاجنسون وكانت تستمع إليها بهدوء تام بأنها سيرة الشاعر الذاتية. فيا لها من سيرة سوداوية».

كانت فرجينيا ترى، ويشاركها آخرون في الرأي، أن من الخطأ أن يضطر شاعر مبدع وجاد وذو أصالة في الابتكار إلى قضاء أيامه وهو يعمل في مصرفٍ ما من أجل لقمة العيش. لذلك شاركت في إحدى المحاولات التي كانت تظهر بين حينٍ وحين لتحرير إليوت من هذه الضرورة. أسسوا صندوقاً باسم Eliot Fellow Ship Fune وذلك بنية جمع ثلاثمئة باون استرليني سنوياً لإليوت على مدى خمس سنوات. فتحوا حساباً في مصرف لويد باسم إي. جي. ألدنغتون والليدي أوتولين والسيدة فرجينيا وولف، وأعدت أوتولين، وكانت لولب المسألة، رسالة عممتها لدعوة المناصرين المحتملين لدفع حصص منتظمة. ووقع الاختيار على فرجينيا لبحث الأمر مع الشاعر ؛ فدعي إلى منزلها في قرية رودميل مع إي. إم. فورستر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ٢٣ أيلول ١٩٢٢. انصب حديثهم على رواية عوليس ؛ وترك دفاع إليوت التحليلي عن الكتاب أثره الطيب في فرجينيا، ونوّرها عنه أيضاً، فلخصت دفاعه في يومياتها :

> «على أننا بعد انتهائنا من جويس جئنا إلى المسألة الشائكة - صندوق إليوت. وكانت نتيجتها (وكنا نقتضب الكلام على طريقة المحذوف المقدّر، وفي غاية اللياقة وبأعصاب متوترة) أن إليوت لن يترك عمله في المصرف إلا إذا تلقى خمسمئة باون

سنوياً في الأقل، وأنه يريد ضمانات لا مواعيد. لذلك ما أن وصلت رسالة أوتولين ومنشورها صباح اليوم التالي حتى أبرقت لها لتتوقف عن المحاولة ثم حررت رسالة طويلة بينت فيها الأسباب ؛ وكتبت رسالة أخرى إلى إليوت لأطلب منه تأييد طلبه. . .

وقد وصلت إسهامات المتبرعين إلى الصندوق، ولكن تكتم الشاعر وتحفظه وحرجه جعل من أمر التبرع الخيري مهمة شاقة. أرسل إليه الصندوق على سبيل الإلتفاتة الرمزية مبلغ خمسين باوناً في عيد الميلاد، وتوقعت فرجينيا أن يرفض هذا أيضاً[1].

أخذني الشاعر وأموره المالية بعيداً في مجرى سنة ١٩٢٢. إن مسرة التعرف على إليوت والحرج الذي نشأ عن أمر الصندوق، وما أشبه، لم تكن سوى وقائع بسيطة في أحداث ذلك العام. فقد بدأت السنة على نحوٍ سيّىء بوقوع أبرد ربيع مسجل ولم تكن صحة فرجينيا على ما يرام ؛ كانت تشكو من أسنانها ـ قلعت ثلاثة منها ـ وتعاني كذلك من اضطراب قلبها ومن حرارتها العالية المستمرة. لكنها تمكنت في حزيران من استنساخ مخطوطة من رواية «غرفة يعقوب»، وهذا عمل شاق، لكي تقوم الآنسة غرين سكرتيرة ليونارد بطبعها على الآلة الكاتبة، ذلك أن دار النشر الأمريكية التي نشرت لها مجموعة «الإثنين أو الثلاثاء» قد طلبت الاطلاع على الرواية فوعدت فرجينيا بإرسال النسخة في تموز. قرأها ليونارد في الثالث والعشرين من ذلك الشهر وأعلن أنها أحسن أعمالها ـ «إنها مكتوبة على نحوٍ جيد ومدهش» وأنها لا تشبه أية رواية أخرى. أثارها هذا الرأي فانفعلت، وأخذت تزداد قلقاً باقتراب موعد النشر. صارت تتكهن بردود فعل الآخرين وبدأت كلامها المعتاد مع نفسها في اليوميات. إنها تتوهم أن

(١) بعد نحو خمس سنوات أعيد المبلغ إلى دافعيه ؛ وكان إليوت قد حرر نفسه آنئذٍ من المصرف بوسيلة أخرى.

الكتاب سيبوء بالفشل، وأنه سيساء إليه من النقاد، ثم قالت لنفسها إنها لن تأبه لذلك أو لن تأبه كثيراً.

وابتدعت خطة تصون بها نفسها ضد قروح النقد المتوقعة : إنها ستستمر في مشروع «القراءة» وستكتب قصة أو اثنتين للمجلات ؛ فإذا مَجَّ الناس أدبها الروائي فبوسعهم قراءة فصولها النقدية، وإذا ظنوا أن «غرفة يعقوب» مجرد تجربة ذكية فستتحفهم بـ «السيدة دالاواي».

ظهرت شخصية السيدة دالاواي ظهوراً مقتضباً على ظهر الباخرة يوفروسين في رواية «رحلة الخروج» ؛ وهي تعود الآن إلى الظهور من بين الظلال في مخيلة فرجينيا. وقد كانت لها صلة ما بقصص قصيرة متعددة اخترعتها فرجينيا في قرية رودميل في ذلك الصيف. ومن الممكن تشبيه شخصيتها بكيتي ماكسي إلى حدٍ ما، ويكاد يكون من المؤكد أن وفاة كيتي المفاجئة في تشرين الأول ١٩٢٢ ـ سقطت هذه من أعلى السلم واعتقدت فرجينيا أنها انتحرت ـ كانت حدثاً ساعد على تحويل القصص إلى رواية متكاملة وعلى إعطائها سمتها النهائية.

ما ان عاد الزوجان وولف إلى رجموند في أوائل تشرين الأول حتى أصبح مستقبل مطبعة هوغارث موضع اهتمام حاسم وقلق دائم. فقد اتضح أن ليونارد ورالف لا يستطيعان العمل معاً، ورالف لا يستقيل. وتعقد هذا الأمر كله باهتمام ليتون برالف وبمهنة رالف. فكر في وقتٍ أن يشتري، بالاشتراك مع مينارد كينز، المجلة المسماة English Review لكي يديرها رالف. وسرّب ليتون خبراً بأنه إذا تمكن رالف من البقاء في مطبعة هوغارث فإن المطبعة قد تنشر كتبه، كتب ليتون. خلق هذا الطُعْم الذي لم يكن من الممكن إهماله وضعاً صعباً في المحادثات المستمرة الجارية ؛ وتفاقم هذا الوضع إذ أخذ ليتون يفكر بتأسيس مطبعة منافسة لصالح رالف، وقطع شوطاً في ذلك. نقل عن ليتون قوله إن الوضع المائع يتعب أعصاب رالف ؛ أما

فرجينيا فقد انفجرت تكتب قائلةً : «إن هذا الرجل العصبي لا يحاول القيام لنا بأبسط الأمور. إن على ليونارد نفسه أن يربط الرزم في كل صباح. ورالف لا يحضر مبكراً ولا يطيل البقاء. أما صباح الإثنين فيقضيه لدى الخياط».

وبعد مباحثات مضنية لا تنتهي اختاروا التحرر ـ التحرر من الناشرين التجاريين، التحرر من رالف، والتحرر من التوتر الدائم الناشىء من الحرص على عدم المساس بمشاعر ليتون. ثم عثروا بمحض المصادفة على فتاة كانت تتوق للعمل في الطباعة على نحوٍ متفرغ ؛ باشرت عملها في كانون الثاني، وفي آذار ١٩٢٣ انفك رالف باتريدج عن العمل.

كانت رواية «غرفة يعقوب» هي أولى الكتب الطويلة التي نشرتها مطبعة هوغارث (وقد طبعت الرواية في أدنبرة). نشرت في ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٢. وبدا لفرجينيا في بادىء الأمر أن المقالات الصحفية في عرض الرواية كانت مناهضة لها في حين أن الأفراد كانوا متحمسين بصفة شخصية للرواية. مما قاله أحد هؤلاء، وهو تي. إس. إليوت :

> «لقد حررت نفسك من الحلول الوسط بين الرواية التقليدية وبين موهبتك الأصيلة. ويبدو لي أنك أغلقت ثغرةً ما كانت قائمة بين أعمالك الأخرى وبين النثر التجريبي في مجموعة (الإثنين أو الثلاثاء)، فحققت بذلك نجاحاً باهراً».

ثم ظهر أن هذا هو رأي النقاد والجمهور معاً. وشاع في نفس فرجينيا الرضا ؛ كانت رواية «غرفة يعقوب» بداية لنضوجها وشهرتها.

الفصل الرابع
١٩٢٣ - ١٩٢٥

استهلت فرجينيا العام الجديد بمزاج من الكآبة والتأمل الباطني. كتبت عن نفسها بأسلوب يضاهي أسلوب فرانك رامزي F . Ramsay إلى حدٍ ما :

«. . . أركض، وحيدةً، خلال الليل. . . أقاسي في باطني، بتنسّك ؛. . . أشق طريقي قدماً حتى النهاية - . . . والشراع يرفرف ضارياً من حولي يوماً أو يومين عند العودة ؛ ولأن شراعي غير مشرع إلى الأعلى تماماً فأنا أقف متنكرةً وأتسكع. كل هذا موقت ؛ ولكن أرجو أن أكون واضحة كل الوضوح. فلأعترف اعترافاً واحداً حيث لا داعي للتباهي. منذ سنين خلت، بعد العلاقة مع ليتون، قلت لنفسي ذات مرة وأنا أصعد الرابية في مدينة بايروت ألا أدّعي أبداً أن ما لم أحز عليه لا يستحق الحيازة ؛ وهذه نصيحة جيدة على ما أظن ؛ وهي تراودني في أغلب الأحيان. ألا أدّعي أبداً أن الأبناء مثلاً يمكن الاستعاضة عنهم. ثم قلت لنفسي، (كيف سأعبّر عن الفكرة؟)، قلت إن على المرء أن يحب الأشياء

لذاتها؛ بعبارة أخرى تجريدها من وقرها الذي تلقيه على حياة المرء الشخصية. على المرء أن يدع هذا جانباً؛ عليه أن يتقحم الأشياء التي هي موجودة بشكل مستقل عنه. إلا أن هذا عسير على الفتيات. أما أنا فأجده مريحاً. والآن، وأنا متزوجة من ليونارد، ليس عليَّ القيام بالجهد على الاطلاق. أقوم به إذا كنت أستمتع بالقيام به. ألأني صرت جبانة، ومفرطة في شؤون ذاتي؟ هل يرجع تذمري إلى شعوري هذا؟ لم أستطع البقاء ليلة البارحة في المنزل ٤٦ ميدان غوردون لأن ليونارد أبدى امتعاضه هاتفياً. سهرت مرة أخرى. وكانت حماقة مني. إن قلبي غير سليم، لذا فإن اعتمادي على نفسي يتناقص، وأنا لا أملك الشجاعة للوقوف ضد إرادته. وهكذا تصدر عني ردود أفعال. والمسألة صعبة بالطبع. فأنا أصاب بالصداع وباضطراب النبض، فيفسد هذا حياته عليه. إذا كان المرء يساكن شخصاً آخر فهل له الحق في ذلك؟؟».

نجد هنا، في تأملات فرجينيا، وهي تأملات سوداوية، عدداً من العناصر التي يرتبط بعضها بالبعض الآخر: الأسف المزمن الذي لا شفاء منه لأنها لم تنجب أطفالاً؛ الغيرة الطبيعية من فانيسا لهذا السبب، والغيرة منها، مع الحسد، لأن فانيسا قادرة على أن تحيا حياة أكثر حرية ومغامرة مما تستطيعه فرجينيا رغم التزامات الأمومة لدى أختها. كان هذا يتصل أيضاً بشعورها، وهي تقترب من ميلادها الحادي والأربعين، بأن الحياة تنزلق من بين يديها وأن من الممكن إيقاف هذا الانزلاق عند حد، أو الحفاظ على الحياة على نحوٍ أكثر فعاليةً، وهذا إن كان المرء من سكان المدينة وليس من سكان الضواحي. كانت تريد العودة إلى لندن.

وكان أن أبلّت فرجينيا ظمأها للمغامرات الاجتماعية بكسب أصدقاء جدد، ولكنها زادت هذا الظمأ حدةً في الوقت عينه. تعرفت في كانون الأول ١٩٢٢ على فيتا وهارولد نكلسون على مائدة عشاء كلايف، وهو لقاء سنبحثه في فصلٍ لاحق؛ وأخذت في ذلك الحين تلتقي أيضاً عدداً من الشباب واللامعين مثل جورج رايلاندز G . Rylands وأنغوس ديفدسون Angus Davidson (وستعرفهما في المستقبل جيداً) وإف. إل. لوكاس Lucas وفرانك رامزي F. Ramsay من كيمبردج وريموند مورتيمر R. Mortimer ولورد ديفيد سيسيل Cecilمن أكسفورد. وأغلب هؤلاء يمكن الالتقاء بهم في المنزل ٤٦ ميدان غوردون الذي أشغله مينارد كينز في ١٩١٦. كان كينز مضيفاً نشطاً، ترتاح إليه النفس، وقد جعل من ذلك المنزل مركزاً لـ «بلومزبيري» موسّعة، فضفاضة التكوين (ويستعمل مصطلح بلومزبيري هنا بمعناه المهلهل). كان الزائر لذلك المنزل يجد هناك بالتأكيد ليديا لوبوكوفا Lydia Lopokova.

جاءت ليديا إلى لندن بصفتها راقصة الباليه الأولى في فرقة دياغيليف Diaghilev في السنوات ١٩١٨ و١٩١٩ و١٩٢١، ورقصت أجمل الرقص في باليه Boutique Fantasque و Sylphides، وباليه الحسناء النائمة. كان مينارد كينز، شأنه شأن أصدقائه، مولعاً برقص الباليه، ثم أمسى مغرماً براقصة الباليه لوبوكوفا. كان شغفه هذا بالرقص وبالراقصة مفهوماً تماماً. ولكنْ ماذا لو تزوجها؟ كانت ليديا كصديقة، وعصفورة زائرة تقفز مرحاً من غصن إلى غصن، تمثل الروعة بأجلى معانيها في رأي فرجينيا. إنها جميلة، مرحة الروح، خفيفة الظل، فاتنة، ومنفتحة. وهي في كل هذا المرح، المتنقل، فوق مستوى الشبهات. ولكن كيف يسع ليديا، دون وجود فكرتين صلدتين تحك إحداهما الأخرى في علاقتها مع كينز، أن تحول دون تدمير المسرات الثقافية التي تجمعه بأصدقائه ودون تدمير مسراته بالذات. كتبت فرجينيا إلى فانيسا :

«بوسعي أن أتنبأ بالوضع جديداً : ليديا قويةً، فاتنة، كثيرة المتطلبات ؛ كينز عضواً في الوزارة، المنزل في ميدان غوردون منتجع لكبراء القوم ورؤساء الوزارات. وبما أن كينز رجل ساذج، ولا يجيد التحليل مثلنا، فإنه سينطمس إلى الأبد قبل أن يدرك حالته. وعندما يفيق سيجد معه ثلاثة أطفال، وسيجد حياته تحت سيطرة محكمة دائماً وأبداً».

كانت طبيعة بلومزبيري من نوع خاص، تتكون من شباك ناعمة تشد الصداقات الحميمة بين أفرادها، ولكنها شباك يمكن أن يسطو عليها الدخيل المتطفل فيستأثر بها. هكذا تزوج أدريان وابتعد عن شقيقتيه وعن أصدقائه أيضاً، وهكذا شكلت عشيقات كلايف عنصر تنغيص مستديماً. أما كينز فقد قرر في النهاية، وكان قراره حكيماً، أن خير ما يؤمّن سعادته هو زواجه من ليديا. فما على الأصدقاء إلا أن يأخذوا الإثنين معاً ويرضوا بهما معاً ـ وهكذا كان.

كانت ليديا في كانون الثاني ١٩٢٣ زينة بلومزبيري إذا صح التعبير. كان رقصها من ملذات حفلة «الليلة الثانية عشرة» التي كان يقيمها مينارد كينز في منزله في ميدان غوردون، وفيها تقدم مارجري ستراجي تراتيل رياض الأطفال بصيغة فكاهية بذيئة تخترعها بنفسها، وفيها يمثل أحدهم دور هاملت. هناك وجدت فرجينيا نفسها بين أصدقائها جميعهم، وكانت الأمسية رائعة وممتعة رفعت من معنوياتها كثيراً.

لكن الأمر لم يكن سوى فترة انتقالية عادت فرجينيا بعدها إلى عملها، وشؤونها وكآبتها، وإلى الضاحية التي تسكنها.

كانت تتناول إفطارها صباح الثاني عشر من كانون الثاني حين جاءتها نيللي لتقول على نحو درامي : «السيدة موري (وتعني كاترين مانسفيلد) قد ماتت ! هكذا ذكرت الجريدة». شعرت فرجينيا بأحاسيس مختلطة ومؤلمة

معاً. ها هو غريم يسقط ؛ لم تستطع أن تطرد هذه الفكرة عن ذهنها ولم تمسك عن تسجيلها. ولكن كاترين، وما أوصتها به كاترين حين قالت «ناشدتك ألا تنسيني»، ظلا على لسانها لا ينقطعان عن الذكر، وكانت خسارتها ـ وقد شعرت فرجينيا بها شعوراً صادقاً رغم التذبذب والغيرة في علاقتهما ـ من تعاسات ذلك الموسم التعيس.

كذلك ماتت بيرتا راك Berta Ruck، لكن هذه أميتت في رواية «غرفة يعقوب» :

> «ولكن، كان يمكن، حتى في هذا الضوء الخافت، قراءة الأسماء على شواهد القبور ؛ هذا شاهد يقول (أنا بيرتا راك Berta Ruck، مع يوم الوفاة، وعلى بعض الشواهد آيات من العهد الجديد لتقول شيئاً من أجل الموتى، شيئاً فخوراً ومؤكداً وينطوي على العزاء).

لا شك أن فرجينيا كانت قد قرأت ذلك الاسم الغريب في مكانٍ ما، فاستخدمته في روايتها بعد أن شوهته قليلاً بلا قصد، فقد أبدلت التاء ثاءً، لكن هذا لم يكن كافياً لإنقاذها من تلقي رسالة من أحد المحامين تشير إلى أن بيرتا راك الحقيقية حية ترزق، وقد تقاضي الكاتبة لأنها عرّضتها للانقراض الأدبي. كانت بيرتا هذه تمارس حرفة فرجينيا بالذات، فقد كتبت روايات متعددة. وفيما كانت فرجينيا ترضى ببيع بضع مئات من أعمالها كانت الآنسة راك تبيع بالآلاف، وبمئات الآلاف، فقد جمعت هذه الكاتبة صفات المحررة لصفحات التسلية في المجلات مع صفات المرجع الموثوق عن السلوك الاجتماعي. كانت هي أيضاً متزوجة من أحد رجال الأدب هو أوليفر اونيونز Oliver Onions، وكان هذا الزوج هو الذي أبى أن يصدق، في سورة سخطه بالنيابة عن زوجته، ما جاء في جواب فرجينيا الآسر للقلوب على رسالة المحامي : كيف يمكن له أن يصدق أن السيدة

وولف لم تسمع قط باسم بيرتا راك الذي يتلألأ بصيته العريض حتى على جنبات الحافلات في لندن؟ ولحسن الحظ تبخر غضب الزوج وتم الصلح بين الطرفين. فقد تبادلت المؤلفتان الرسائل، وساد بينهما الوئام، ثم اكتشفا صديقة مشتركة هي ليديا. كانت كلتا الكاتبتين تجد في الآنسة لوبوكوفا شيئاً أنيساً، وأحياناً مربكاً[1]؛ كانت الراقصة تشكل صلة وصل واهنة بينهما. وبعد ذلك بنحو عام غنت بيرتا راك في حفلة من حفلات بلومزبيري الأغنية الشهيرة «لا تبيحي للبحّار مكاناً في أحضانك»، وقدمتها على طريقتها البالغة الحيوية، فامتلأت فرجينيا دهشةً وسروراً، وكانت الخلافات عن شواهد القبور قد طواها النسيان منذ أمدٍ طويل.

كان هناك أمر آخر يثير الإزعاج في الأسابيع الأولى من سنة ١٩٢٣. كانت مجلة The Nation تنتقل بملكيتها من يدٍ إلى أخرى. وكان محررها ماسنغهام H. W. Massingham يستخدم ليونارد كاتباً للمقالات

(١) تروي الآنسة راك أنها حضرت مع فرجينيا وليديا لوبوكوفا حفلة تمثيلية قدمت فيها مسرحية «الضفادع». جلسن في الصف الأول، والروائيتان تستمتعان كثيراً بالتمثيل.
«بيد أن ليديا، وهي تبادر دائماً إلى التصريح بما يخطر على بالها بإنكليزيتها الساحرة الخاصة بها، قالت: «هازا مرعج».
ـ ليديا، هذا ليس مزعجاً! هذا لطيف جداً.
ـ هازا مرعج. ونخرج من هنا.
فقالت خالتك فرجينيا همساً: (فلننتظر لحين الفترة على الأقل).
ـ نخرج الآن. هازا غير يطاق. هيَّا.
ـ لا يمكننا ذلك. . .
ـ ما أحد يرى.
ـ ليديا، سيرانا الجميع، فنحن معروفات جداً. . .
وقد كنا كذلك كما تعرف. كانت خالتك المشهورة ترتدي قبعة سوداء مكسيكية كبيرة، وكنت أنا طويلة القامة مثلها، وقد ضفرت ضفائري خلف أذنيّ، وكانت ليديا صغيرة الحجم بيننا لكنها دائماً تلفت الأنظار بحركتها وطريقتها، وقد لا ينتبه المرء إلى ما ترتديه لكنها تلفت إليها الأنظار كلها.
ولحسن الحظ اقتنعت أخيراً بالجلوس حتى النهاية قبل أن يلاحظ أمرنا الجمهور».
(رسالة من بيترباراك إلى المؤلف في ١١ أيلول ١٩٧١)

براتب مقطوع. لكن مينارد كينز قد برز الآن حاملاً لعدد كبير من أسهم المجلة ورئيساً لمجلس إدارتها الجديد، وهو يريد تغيير أسلوب الصحيفة وسياستها. قد يعود هذا بالضرر المالي على الزوجين وولف، ولكن الذي أوهن معنويات فرجينيا، ومعها ليونارد أيضاً، هو الشعور بعدم الاطمئنان، بل الشعور بالتبعية كذلك للرئيس الجديد.

«ليونارد يظن أنه فاشل. ما الفائدة من إنكار الانهيار؟ هذا الإنكار غير عقلاني. ألا أظن دائماً أني فاشلة أنا أيضاً؟ هذا أمر حتمي. ولكن ها هو كينز يبلغ مأربه بلباقة مع أنه أصغر منا سناً. إن الصفة غير الحقيقية، والخرقاء، لهذا الوضع كمقياس، تصدمني، ولكن من الصعب جعل هذه الصفة هي السائدة. إن من المؤسف الانتظار، وعلى نحو اتكالي، لمعرفة ما سيفعله ماسنغهام».

كانت السماء ممطرة والجو معتماً، وكانت دار هوغارث في أسوأ حال، لأن رالف يتمرد ويحاجج، وهو لن يترك العمل حتى عيد الفصح. أما صوت العاملة الجديدة، مارجوري جود، فيخدش سمع فرجينيا لأن هذه الفتاة تمطّ صوتها مطاً. لكنها وفرجينيا لا بد لهما من العمل معاً ومن تناول الغداء والشاي معاً، ولا بد لهما من الحديث المشترك، ففرض هذا كله عبئاً ثقيلاً على فرجينيا. وتزايدت كآبتها لإصابتها بنزلة صدرية مصحوبة بالحمى، كما أضاف إلى أمورها المقلقة اهتمامها بمشاكل السيد إليوت المالية، إذ بانت في الأفق فرصة لجعله المحرر الأدبي لمجلة The Nation حين كانت تلك المجلة تعيد النظر في ترتيباتها.

أخذت فرجينيا تحاول دعم إليوت في هذا الأمر، فهي تستعمل نفوذها لدى من تعرفهم، وتتصل بالكثيرين هاتفياً، فتحث هذا وتنصح ذاك ؛ ولكنها كانت تتمنى «لو أن إليوت العزيز المسكين لديه الكثير من قوة الروح

والقليل من ضغط الحاجة، ذلك الضغط الذي يعتصر عذاب حيرته فيقطّره تقطيراً صافياً». أما الظرف الذي قرر في النهاية مصير وظيفة المحرر الأدبي فهو حاجة المجلة إلى قرار سريع لم يستطع إليوت أن يتخذه، كما أن المجلة لم تكن لتستطيع ضمان مدة خدمة تزيد على ستة أشهر فلم يكن بوسع إليوت المجازفة بالقبول. عرضت الوظيفة على ليونارد فقبلها.

ذهلت فرجينيا من هذا التحول المفاجيء في مجرى الأحداث. كانت الوظيفة توفر ضماناً مالياً أراحها راحة كبرى، ولكنها كانت تدرك ما تنطوي عليه الوظيفة من غرم.

تقدم كينز بعرضه إلى ليونارد ليتولى وظيفة المحرر الأدبي لتلك المجلة في الثالث والعشرين من آذار ؛ في الأول من نيسان كان الزوجان وولف قد وصلا إلى مدريد. كانت قد مضت سنين متعددة منذ أن عبرا القنال ؛ وجاءت التجربة الجديدة لتنعش نفسيهما وتضفي عليهما عافية روحية. سجلت فرجينيا مشاعرها الطافحة بالسرور عن تلك الرحلة في مقطوعة لا نعرف كيف نصنفها وهل نعتبرها قصة أو مقالة، وقد نشرت في مجلة The Nation في شكلها الجديد، وكان عنوان المقطوعة «إلى إسبانيا». أخذتهما رحلتهما - وقطعا بعض مسافاتها على ظهور البغال - إلى Yegen في الجبال إلى الجنوب من غرناطة، حيث احتفى بهما جيرالد برينان G. Brenan صديق رالف باتريدج، وكان يومئذٍ شاباً جاداً يكرس نفسه لفن الكتابة. أقام عنده الزوجان وولف مدة أسبوعين، فكانوا، كما تقول فرجينيا، يبحثون في الأدب إثني عشر ساعة في اليوم. سمته الإنكليزي المجنون، وودته كثيراً. كتب عنها بعد أربعين سنة من هذه الرحلة فلم يقتصر على ذكر حسنها وجمال صوتها وتميّزهما بل تناول في ذكرياته ألمعية حديثها ومرح المحادثة وسخريتها، ووددادها، وحب استطلاعها الدائم.

«. . . وبما أن فرجينيا كان يعوزها على ما أظن ذلك الحس

الذي يستشعر به الروائي صفات الشخصية الدرامية، ولأنها كانت أكثر اهتماماً بالنسج العقلي للناس فإنها كانت أميل إلى رسم شخصياتهم بإضافة ما في نفسها إليهم. سألتني أسئلة كثيرة ـ لماذا جئت لأسكن هنا، ما هو شعوري تجاه هذا الشيء أو ذاك، ما هي أفكاري بشأن الكتابة؟ كنت أدرك، محرجاً، أنها وليونارد كانا يدرسانني ويختبرانني ويحاولان أن يتأكدا هل تظهر عليّ مخائل الموهبة الأدبية، حتى إذا تأكدا من ذلك فإنه يتوجب عليّ أن أنشر أعمالي لديهما. على أنه ينبغي ألا يتبادر إلى الذهن مطلقاً أنها كانت متعالية. على النقيض من ذلك، فقد كان احترامها لآراء شاب غر ومغرور أيضاً يثير الدهشة. جادلتني في الأدب ودافعت عن سكوت وثاكري وكونارد إزاء هجماتي، واختلفت معي حين أشدت برواية عوليس لجيمز جويس وكان خلافها على أساس أن أعمال الفن الكبرى لا ينبغي أن تكون مملة ذلك الملل الذي تجده في تلك الرواية، كما أنها أصغت بتواضع إلى انتقاداتي لرواياتها. هذا هو الأمر العظيم بشأن (بلومزبيري) ـ فهم يرفضون الاتكال على مقام عمرهم ومنزلتهم. لقد أعقبت زيارتها سلسلة من الرسائل التي تتميز بطابعها الخاص، واصلت فيها محاور محادثاتنا».

عاد الزوجان وولف عن طريق باريس، إذ أرادت فرجينيا أن تلتقي فانيسا هناك. ظلت في باريس بضعة أيام، فيما عاد ليونارد بمفرده إلى رجموند وإلى مجلته الجديدة.

كان الزوجان كلما افترقا تبادلا الرسائل يومياً. إننا نجد في رسائل فرجينيا عادةً سرداً أميناً لفعالياتها؛ ونجد هذا السرد هذه المرة أيضاً. لا تأتي

الكاتبة في هذه الرسائل إلى ذكر فانيسا. وهي هنا تشاهد باريس كما يشاهدها السائح ؛ كانت وحيدة، وبدا لها أن كل شيء بدون وجود زوجها هو عبث وأمر ثانوي ولا مبرر له ؛ أحست بغيابه بمشاعر طافحة :

«أستلقي وأفكر بك أيها العزيز، أنت الذي تغمر حياتي بالسعادة في كل يوم وفي كل لحظة على نحوٍ لم أكن أظنه ممكناً. لا ريب أنني مغرمة بك غراماً فظيعاً. إني أظل أفكر : ماذا هو فاعل الآن، ثم أضطر إلى التوقف ـ وهذا يجعلني أتوق لتقبيلك بكل جوارحي».

لم يكن هذا التوق غريباً، فالمرء يستطيع أن يدرك، إذا رأى الزوجين معاً، أن الهناء والاتحاد يسمان علاقتهما الزوجية بسمة بارزة. كانت محبتهما بيّنة، رغم الكثير من الدعابة العابثة، والقليل من الشجار ؛ كان واضحاً كذلك اتكال فرجينيا على ليونارد في المسائل العملية وفي اتخاذ الأحكام التي تقتضي التدبير والادراك الرصين. أما ما كان أقل ظهوراً بوجه عام فهو حاجة ليونارد إلى فرجينيا، لا سيما في لحظات الألم وخيبة الأمل. وكان من المؤكد في أوائل ذلك العام أن أحدهما قد احتاج إلى تعاطف الآخر على السواء ؛ فقد وحّدهما في هذا ما واجههما من تثبيط للعزائم. ولكنْ ما أن حل أيار من سنة ١٩٢٣ حتى لم يعد هذا التضامن المشترك ضرورياً فهو تضامن إنما يولد في أيام المحن. واستمر هذا الحال في السنة التي تلت أيضاً.

عاد ليونارد إلى إنكلترا تواقاً لتولي عمله محرراً أدبياً ؛ ومتحرقاً لمزاولة المتاعب والمنغصات بشتى أنواعها التي تنشأ من عملٍ تكون فيه الخطوة الأخيرة من الأسبوع المنصرم ما هي إلا الخطوة الأولى في الأسبوع الجديد، كعمل الطاحونة، ولكن ليونارد لم يتطلب التعاطف في هذا فهو لم يكن

يستاء قط من العمل الشاق. وما تذمره البسيط في هذه الآونة إلا من إصابته النجاح.

وظهرت رواية غرفة يعقوب وتلقاها النقاد والقراء على نحوٍ حسن، فشعرت فرجينيا بتصاعد الحال ؛ فهي، كما قالت شخصياً، «إنما تدفع إلى الأعلى» ؛ لقد غدت مشهورة، أو كادت.

وظهر تعاظم صيتها في المجال الاجتماعي كذلك. فقد بدأت الليدي كولفاكس Colefax(وهي محرار حساس لقياس الشهرة) بإرسال الدعوات إلى الكاتبة. رفضتها فرجينيا في الابتداء. كانت لما تزل حييّة اجتماعياً، لم تزل تحس أن الدخول إلى الأبهاء الغريبة أمر يقتضي الكثير من الشجاعة، «وقد ارتدى المرء لباسه على نحو لائق»، فهي تساورها الشكوك دائماً بشأن ملبسها وتخشى ألا يكون لائقاً. ثم أنها إذا طردت مخاوفها وأظهرت شجاعتها فدخلت قاعة طعام الليدي كولفاكس فإنها قد تجد نفسها وقد أجلست إلى جنب هذا أو ذاك من ذوي الألقاب الذين لا يتحدثون إلا عن مشاريع القوانين المعروضة على مجلس العموم. ولكن الليدي كولفاكس كانت ملحاحة، ومقنعة أيضاً، وكانت فرجينيا أشبه بمن يريد أن يُقنع. هذا ومع أن الليدي كولفاكس كانت في ظن فرجينيا أشبه بحبة الكرز الصناعية اللامعة الحمراء وقد لصقت على قبعة الرأس، فإنها كانت لها أفكارها وشخصيتها. حين جاءت لتناول الشاي في منزل الزوجين وولف فنسيت مظلتها عند خروجها، أشارت فرجينيا إلى المظلة قائلةً «إنها تلمع وتسطع بين سقط متاعي». فلم ترق هذه الإشارة للزائرة وردت بحدة تقول «يا سيدة وولف، أنا أعرف ما تظنينه بمظلتي ـ تظنينها رخيصة، مبتذلة، هي وحقيبة يدي» إلى آخر هذا الرد القارص. وبما أن هذا كان بالضبط هو ما ظنته فرجينيا فقد أخذت تنظر إلى الليدي كولفاكس بتجلة

واحترام لم تكن تشعر بهما سابقاً.

أضحت مغامرات فرجينيا الاجتماعية جزءاً من لعبة تعودت على أن تلعبها مع كلايف : لعبة «المباهاة». لدينا مثالان عن تباهي فرجينيا، أولهما في رسالة كتبتها إلى كلايف وقالت فيها : «أتباهى أمامك الآن بدعوتين، الأولى للإقامة مع سيسيل لملاقاة الليدي غويندولين Gwendolen ؛ والثانية لقضاء خمسة أيام في عيد الفصح لكي ألعب كرة الريشة وأبحث في الأدب الروائي مع إج. جي. ويلز. أجل ـ هذا النمط من النشاط يسرني». والثاني في رسالة أخرى إلى كلايف أيضاً : «أقامت الليدي لندنداري حفلة، ودعتني إليها ـ فخفق قلبي كما لك أن تتصور، ثم اكتشفت أن الحفلة هي على شرف خمسمئة من أطباء الأسنان من المستعمرات، ولغرض الاستماع أيضاً إلى السيد نويز Noyes وهو ينشد من أشعاره. لم تكن الحفلة شيئاً باهراً». إن فرجينيا لم تتغلب على تنفجّها بالتأكيد، وكانت على خلاف زوجها تستسلم بسهولة لتملق المضيفات. وقد رحب بها عالم الأزياء فطربت لذلك. كتبت في يومياتها تقول : «إن ليونارد أقل احتراماً لي لأني أتزين باستعمال المساحيق في وجهي، ولأني أنفق النقود على الفساتين : لا بأس، لكني أهتم بليونارد».

قالت فانيسا، وهي تكتب في نيسان ١٩٢٣ إلى مارجري سنوداون، صديقة التلمذة القديمة في معهد الفنون، إن فرجينيا هي الآن أشبه كثيراً بما كانت عليه. وأظنها تعني بهذا أن شقيقتها قد شفيت تماماً. فقد استعادت صفاءها الذهني وتوازنها المعنوي. أما جسدياً فقد كانت تظهر عليها علامات المحنة التي دامت عشر سنوات. أمست نحيفة الأطراف ؛ بارزة العظام، شديدة الضمور، وفقدت ما كانت عليه من حسن ؛ لكنها ظلت بالتأكيد جميلة جداً. لم يكن في ملبسها سوى التقبل العابر، الموقت، لمتطلبات الأزياء، وهذا دون تغنج. أما التفاهات التي كان يدينها زوجها على ما

ظنت فقد كانت على أضيق نطاق(١). ذلك أن مساحيقها كانت على أدنى حد، ومخصصات ملابسها لا تربو عن التقتير. إني حين أبحث عن شبهٍ ما لطراز مظهرها لا أجد شيئاً قريباً منه سوى ما أجده في فن أساطين النحت الطيني المفخور للقرن الرابع عشر : فهي رشيقة، أنيقة، محتشمة، جليلة المظهر، مع قليل من اكتناز الجسم قرب الردفين مما شاع في عصر النهضة، بلا حلاوة أو طراوة رافائيلية. كان في أوضاعها أغرب مزيج من الأبهة والتخبط. ولكي نتصور هذا المزيج النشاز علينا أن نتخيل الرسام سيمون مارتيني Simone Martini وقد جعل ملاك البشارة في لوحته يلف سيجارة. إن صور فرجينيا ورسومها في هذه الحقبة لا يعتمد عليها ؛ كان بوسع العدسة السينمائية أن تقتنص من عشر ثوان سمة الكاتبة الجوهرية التي لا تؤديها الصورة غير المتحركة ؛ ذلك أن فرجينيا لم تكن على حقيقتها ذاتها إلا عند الحركة. إنها عندئذٍ تذكّر الناظر بطائرٍ ما خرافي الروعة، وهي ترفع رأسها بغتةً وتهزج مرحاً هاتفةً بفكرةٍ ما، أو كلمةٍ ما، أو لغزٍ ما، يوحي به خيالها، كانت محادثتها ملأى بالمفاجئات وبالأسئلة غير المتوقعة، بالفانتازيا والضحك ـ ضحك الطفل الذي يرى العالم غريباً وسخيفاً وجميلاً أيضاً ؛ كان الضحك في تلك السنوات، على ما يبدو، من عناصرها الطبيعية.

أما في نظر الأطفال فكانت فرجينيا من المتع المحببة. فإذا قيل لهم إن فرجينيا قادمة لتناول الشاي هبّ عليهم نسيم عليل، فهي تأتي ومعها جذل

(١) «كانت تطلق شعرها ليسرح في كل اتجاه، ولم تضع قط شيئاً من مساحيق التجميل في وجهها ـ وهي تخلو تماماً من زهو الزينة الشخصية، ولكنها مع ذلك لم تكن إلا جميلة. كانت في بعض أيام الصيف حين كنت أعمل في غرفة الطباعة تأتي فتدخل على رسلها وتصفّ الحروف أو توزعها هنا وهناك بأناملها الحساسة، السريعة، أشبه ما تكون بملاك أشعث ـ وهي تتجول حافية القدمين إلا من خف بيتي، وفي قميص نومها شق كبير جانبي وقد ألقت فوقه برنساً كيفما اتفق، ولكن عقلها بعيد جداً عن العمل الآلي الذي تقوم به. . .» رالف بارتريدج، (صورة قلمية لفرجينيا ولف) أذاعتها هيئة الإذاعة البريطانية يوم ٢٩ آب ١٩٥٦.

طافح. لكنهم لم يعرفوا شيئاً عن تعاسة حياتها.

على أن بوسعها الإيحاء بالفزع. وليس هذا لأنها تبادر إلى إفزاع الأطفال. لكني أذكر أنني سمعتها ذات مرة تصف لفانيسا حالة سيدتين مسنتين لا أعرفهما تعيشان بهدوء في شارع لا ينفذ في لندن وقد سُدّ طرفه المغلق بقضبان حديدية صلدة. سُرق أحد البيوت في ذلك الشارع. واكتشف أمر اللصوص فتسللوا من الباب الخارجي وقفزوا إلى سيارة أسرعت بهم فاصطدمت بحاجز القضبان. كانت السيدتان تسمعان ما جرى وتسمعان صراخ الرجال ألماً حتى جاءت سيارة الإسعاف. كانت فرجينيا تسرد هذه الحكاية ببساطة، ولكن بقوة خارقة خفية، فأحسست وأنا أسمعها بدمي يتجمد في عروقي - وأحس بذلك كلما تذكرت الحكاية ورواية فرجينيا لها. غير أن الطفل يريد بالطبع أن يُفزع. كنا نرجو أن نسمع المزيد. ولكن مثل هذا الكلام كان نادراً، فأحاديث فرجينيا كلها دعابة ومرح.

ويبدو أنها كانت ذات تعاطف طبيعي مع الفتيان كذلك ؛ فهي تتقبل إغرابهم في الخيال وتشارك في ألعابهم دون تصنع أو تعالٍ، وتمارس نحوهم سلطة آسرة من الحب الخالص. وأنا حين أشير هنا إلى الفتيان فإنما أعني المشاركين في غرفة الألعاب وليس إلى الذين بلغوا حرم الجامعة. فالشبان الذين أتيح لهم أن ينظروا إليها ككاتبة مشهورة كانوا يحسون بأن فتنتها الآسرة هي من نوع آخر، فهي بوسعها أن تفتن الآخرين وبوسعها أن تفزعهم ؛ ولم يكن سحرها تجاه هؤلاء من الحب الخالص. وقد قيل إن بوسعها التصرف بضراوة، وأنها ذات مخالب، بل تستطيع أن تعض بأسنانها وأن عدداً من الفتيان والفتيات قد أصيبوا منها برضوض.

> «كان خطابها مع الشباب رهيباً. وكانت شديدة على وجه الخصوص مع الفتيات الساذجات من مدعيات الثقافة ؛ فهي تستنطقهن على نحوٍ يشجع على الكشف، فيفصحن عن

آرائهن المغـرورة ثم تكشف لهن عن جـهلـهن المطبق وعـدم أصـالتهن أمام الملأ، بصـوتهـا الواطىء، الهـازىء، دون أن تزول عن وجـهـها أمـارات الود. ولكـن ابتـهـاجـهـا بإفسـاد طموحهن يكون واضحاً عليها كذلك، فهي تبغي من وراء ذلك أن تجري محادثة ذكية. أما الفتيات الحسان اللاتي لا يبغين سوى اجتذاب الرجال الحاضرين جسدياً فلا يوجّه لهن مثل هذا الازدراء ـ بوسع الساذجات منهن أن يعابثن الرجال ما شاءت المعابثة وهن في مأمن حصين. ولكنه لجرم عظيم أن تظن فتاة بنفسها أن لديها من الذكاء ما يكفي لمخاطبة فرجينيا على قدم المساواة. غير أنها لم تكن تسيء معاملة الطموحين من الشبـاب بهـذا الوضـوح. إنهـم هم أيضـاً يشجعون على الإفصاح عما في عقولهم الفجة، الضحلة، ولكنهم لا يمتهنون علناً ؛ بل يتاح لهم أن يعودوا إلى بيوتهم وهم يشعرون بانفعال قلق، لأنهم كانوا في حضرتها من المغفلين».

ومع أني لا أحسب رالف بارتريدج شاهد صدقٍ في مسألة كهذه إلا أن هناك بالتأكيد عنصراً من الحقيقة في أقواله. كان بارتريدج يميل، إلى درجة كبيرة جداً، للتعميم، دون أن يستند إلا إلى مادة واهنة، وأظنه يفعل ذلك هنا. كما أني لا أحسب تحليله لدوافع فرجينيا تحليلاً صحيحاً ؛ والحق أن الدليل الذي يقوم عليه هذا التحليل إنما هو دليل واهن، ذلك أن أحد الذين اتهموا فرجينيا بالقسوة على الشباب ـ ونعني كلايف ـ كان يرى أن فرجينيا كانت مفرطة في التساهل، بل مفرطة جداً، تجاه المزاعم الثقافية للفتيات. على أني، بعث تثبيت هذا التحفظ، أقول إن التهمة ذاتها يجب قبولها. إن فرجينيا، شأنها شأن الكثيرين من الذين أفزعهم الغير اجتماعياً، يمكنها، بل يسرها، أن تكون مفزعة لهم، اجتماعياً. إنها بعد أن تعاظمت شهرتها، وبعد أن أصابت ما أصابته من نجاح في رواية «غرفة يعقوب» وما أعقب

ذلك من إشادة برواية «السيدة دالاواي»، تزايدت قدرتها على سوء التصرف الاجتماعي تجاه الغير، وتزايدت كذلك فرصها في هذا المجال.

كان قد خطر لفرجينيا، كما ذكرنا آنفاً، أن تكتب في سنة ١٩٢٢ كتابين في آن واحد: رواية «السيدة دالاواي» وكتاباً في النقد سمته أولاً «قراءة» وأخذت تسميه في ما بعد «القارىء العمومي». كان في حسبانها أن أحد العملين يريحها من مشقة العمل الآخر، والعكس بالعكس. يقوم كتاب «القارىء العمومي» أساساً على مقالات كانت قد نشرتها سابقاً، ثم أضافت إليها مواد جديدة أبرزها مقالها الطويل المعنون «في عدم المعرفة باللغة اليونانية». شرعت تخطط، في تشرين الأول ١٩٢٢، لقراءة سوفوكل ويوريبيديس والكتب الخمسة الأولى من الأوديسة تمهيداً لكتابة مقالها ذاك. (كان من عادتها أن تقرأ النص اليوناني الأصلي، مع مراجعة الشرح المدرسي المبسط حين تدعوها الحاجة إلى ذلك). وكان في نيتها أيضاً أن تقرأ سيرة حياة بنتلي Bentely وسيرة حياة غيب Jebb، وقررت بعد ذلك بقليل أن عليها أيضاً أن تقرأ زيمرن Zimmern وأخيل(١).

---

(١) لعل فرجينيا كانت قد قرأت لزيمرن «السياسة والاقتصاد في أثينا في القرن الخامس»، أوكسفورد، ١٩١١. أما كتاب «حياة سير غيب ورسائله» بقلم كارولين غيب، كيمبريدج، ١٩٠٧، ففيه مقال بقلم A. W. Verrall ولعله كان مفيداً لغرض فرجينيا؛ وربما كانت تفكر بقراءة ما نشره غيب عن Trachiniae (١٨٩٢)، وهو كتاب يعود إلى ليونارد (أنظر: فهرست الكتب المهمة في مكتبة المرحومين ليونارد وفرجينيا وولف، أيار ١٩٧٠، III، ١٢، إعداد Holleyman & Treacher. كان لدى الزوجين أيضاً نسخة من كتاب «حياة بنتلي» بقلم مونك Monk (الفهرست أعلاه، VII، ٤)، وكان هذا مفيداً لفرجينيا في كتابة مقالها المعنون «في عدم المعرفة باللغة اليونانية»، وكذلك في كتابة مقالها المعنون «الدكتور بنتلي» (وهو أيضاً ضمن مقالات «القارىء العمومي»). أعير كتاب «حياة بنتلي» بقلم مونك إلى ليتون ستراجي، فكان مصدره الرئيسي، إن لم نقل مصدره الوحيد، في كتابته لـ «القصة الأليمة للدكتور كولباج Colbatch»، (صور قلمية مصغرة، ١٩٣١).

في ذلك الخريف من عام ١٩٢٢ بدا أن الكتابين قد شبّت بهما معاً نار الحيوية. كانت فرجينيا في أواخر تشرين الأول وفي تشرين الثاني تعيد النظر في رواية «السيدة دالاواي». وفي ٧ تشرين الثاني شرعت تخطط لتناول فصلها اليوناني قبل انتهاء الشهر وإن كانت تشعر بأنها لم تقم بنصف ما يقتضي له من القراءة، فلم يزل عليها أن تتناول أخيل وينتلي والأوديسة. في ٢٣ كانون الثاني دونت تقول إنها تريد أن تصل بالسيدة دالاواي إلى نهاية كلامها. وعند حلول شهر أيار كانت الكتابة عن اليونانيين لما تزل غير مكتوبة. وفي أوائل حزيران قضت عطلة نهاية الأسبوع في غارسنغتون، وقد فتحت هذه الزيارة ذهنها على رؤية صارخة، وإن كانت غريبة، للجهاز الاجتماعي البريطاني، وهي رؤية قادتها إلى تكوين موضوع روايتها الجديدة (وتسميها الآن «الساعات»).

كتبت في ٤ حزيران تقول : «أنا مهتمة جداً بكتابي بصورة مفاجئة. أريد أن أضع فيه خسّة البعض من الناس مثل أوتولين. وأريد أن أقدم فيه تزعزع الروح. كنت في ما مضى متسامحة جداً. . . ». لم يكن هذا التصور مترفقاً ولم يكن منصفاً، ولكنه كان إنتاجياً. فبعد أسبوعين أخذت تتفحص نفسها وروايتها بشيء من العناية.

> «باشرت كتابي هذا ولديّ فكرة ما أني قد أقول شيئاً فيه بشأن كتابتي - والذي خفر الفكرة هو ما قالته كاترين مانسفيلد بشأن كتابتها، في قصتها (عش الحمامة). قالت أشياء كثيرة عن الشعور بعمق عما تكتبه، وعن النقاء. . . فما الذي أشعر به بشأن كتابتي؟ - في هذا الكتاب، (الساعات) إن كان هذا هو إسمه؟ قال دستوفسكي إن على المرء أن يكتب عن شعور عميق. فهل أكتب أنا هكذا؟ أم

أني ألفّق تلفيقاً بواسطة الكلمات التي أحبها؟ كلا، لا أظن ذلك. لدي في هذا الكتاب عدد كثير من الأفكار. أريد أن أقدم الحياة والموت، العقل والجنون ؛ أريد أن أنقد النظام الاجتماعي وأن أصوره وهو يعمل عمله بأقصى شدته. هنا سأتوقف : هل أنا أكتب (الساعات) عن عاطفة عميقة؟ إن تناولي لجانب الجنون يتعبني كثيراً، ويجعل عقلي يتدفق نفاثاً فلا أستطيع أن أواجه الأسابيع القادمة وأنا أشتغل في كتابة هذا الجانب. على أن المسألة هي مسألة بعض الأشخاص من معارفنا : أرنولد بنيت Arnold Bennett مثلاً يقول إني لا أستطيع أن أخلق شخصيات باقية، تدوم ؛ أو أني أفعل ذلك في (غرفة يعقوب). أما جوابي فأتركه إلى مجلة The Nation : فالقضية هي الحجة القديمة ذاتها، القائلة بأن الشخصية يجري تذويبها الآن إلى جزئيات صغيرة، وهي الحجة التي سادت في عهد ما بعد ديستوفسكي. لكني سأقول إن من الصحيح الإدعاء بأني لا أملك تلك الموهبة في (الواقعية). أنا أوهن الأشياء وأجردها من الواقع ؛ أنا لا أثق بالواقع على عمدٍ مني إلى حدٍ ما - لا أثق برخص قيمة الواقع. ولكن لنذهب إلى أبعد من ذلك.

هل عندي القدرة على تصوير الواقع الحقيقي؟ أم أني أكتب مقالات عن نفسي؟ ثم أني أجيب عن هذه الأسئلة بشكل غير لائق، ومع ذلك تظل الإثارة قائمة. ولكي نصل إلى صميم الموضوع أقول إني الآن أكتب أدباً روائياً مرة أخرى فأشعر بقوتي تتدفق، وهي تنبثق مني مباشرةً على أحسن وجه. وبعد جرعة من كتابة النقد أشعر أني أكتب على نحو

منحرف مستعملةً زاوية واحدة فقط من عقلي. وما هذا إلا تبرير ؛ ذلك أن الاستعمال الحر للملكات يعني السعادة. لقد صارت رفقتي رفقة طيبة وأقرب إلى الكائن الإنساني. مع ذلك أظن أن من المهم كثيراً في هذا الكتاب أن أبتغي الأشياء المركزية حتى وإن لم تطاوع التجميل اللغوي كما ينبغي لها. كلا، أنا لا أتمسّح بأذيال كاترين وزوجها موري وهما ينهشان لحمي كالحشرات الماصة للدماء. إنه لمن المزعج، لا بل المهين، وجود مثل هذه الأحقاد المريرة.

وأعود إلى (الساعات) فأقول إني أتنبأ بأن الأمر سيكون صراعاً فظيعاً. تصميم الكتاب غريب للغاية ومتقن للغاية. وعليّ دائماً أن ألوي مادتي لكي تتفق مع التصميم. وهو تصميم مبتكر بالتأكيد ويثير اهتمامي كثيراً. إني أرغب أن أواصل كتابة هذا الكتاب باستمرار وبسرعة خارقة وبضراوة. ولا داعي إلى القول إني لا أستطيع ذلك. ففي ثلاثة أسابيع من الآن سأجف تماماً».

كانت فرجينيا في تموز لما تزل تواجه الفصل اليوناني غير المكتوب من (القارىء العمومي) ؛ أما رواية «السيدة دالاواي» فكانت تمضي على نحوٍ طيب. كانت الكاتبة في منزلها في قرية رودميل وهي تشعر بالعافية وبالقدرة على العمل. لكنها أعادت في ٦ آب قراءة ما كانت قد كتبته من الرواية. بدا لها ذلك «هراء محض وكلام واهن». كان مدلتون موري قد قال إنها قد بلغت برواية «غرفة يعقوب» درباً لا ينفذ فلا تستطيع المضي إلى أبعد منه. هل كان على حق؟ أقلقها نقده كثيراً، فهي تعود إليه في يومياتها مراراً. ولكنها تجاوزت العقبة ؛ كسبت من الثقة ما يكفي للاستمرار وأخذت تستكشف طرقاً جديدة لذلك. وفي نهاية آب وضعت منهاجاً منظماً لكتاب «القارىء العمومي». من ثم، وفي ١٨ أيلول أصيبت بهزة عقلية قصيرة، لكنها عنيفة.

«إن قصدي هو أن أسجل، لأغراض نفسانية، ما جرى في تلك الليلة الغريبة عندما ذهبت لملاقاة ليونارد فلم أجده. كانت مشاعري شديدة التوتر وقد حُشدت حشداً في تلك الساعات! الليلة مطيرة، عاصفة؛ وحين سرت عبر الحقل قلت إني الآن أمام المسألة وجهاً لوجه؛ الآن تمكن الشيطان القديم من أمره تارةً أخرى خلال الأمواج. (لكني لا أستطيع إعادة تصوير الواقع الذي جرى). توترت مشاعري كثيراً فتصلب جسدي. لقد انكشف الواقع إذن، هكذا فكرت. كان ثمة شيء نبيل في شعورٍ كهذا؛ شيء فاجع، وليس تافهاً أبداً. عندئذٍ مرت أنوار بيضاء، باردة، فوق الحقول؛ وانطفأت؛ فوقفت تحت الأشجار الكبيرة في آيفورد Iford أنتظر أضواء الحافلة. ومرت الحافلة سريعاً؛ شعرت بالوحدة. هذا رجل يدفع عربة نحو (لوز) وقد نظر إليّ. لكنّ بوسعي أن أعبث بكل هذا، وأن أسيطر عليه في الأقل، إلى أن شعرت فجأةً، بعد أن وصل آخر قطار، أنني لا أطيق الجلوس وأستمر في الانتظار وأن عليّ أن أقوم بالفعل النهائي ألا وهو الذهاب إلى لندن. مضيت على دراجتي وليس أمامي إلا وقت قصير وأنا أسير ضد ريح عاتية؛ شعرت مرةً أخرى بالرضا لأني أضاهي أشياء قوية، ذات بأس، كالريح والظلام. صارعت، فقد كان عليّ أن أسير؛ أن أستمر؛ أن أمضي قدماً؛ أسقطت مصباحي اليدوي؛ التقطته؛ وهكذا مضيت مرة أخرى دون ضياء. رأيت رجالاً ونساءً يسيرون معاً؛ شعرت بالأمن والسعادة؛ أنا طريدة؛ اشتريت تذكرتي؛ أمامي ثلاث دقائق فقط، وما أن استدرت حول سلم المحطة حتى رأيت ليونارد يأتي مسرعاً، وقد انحنى كمن يمشي

بسرعة فائقة، وهو يرتدي معطفه الواقي من المطر. كان فاتراً، وغاضباً (وهو أمر طبيعي كما أظن). عندئذٍ انتحيت جانباً لكي لا أظهر مشاعري وتشاغلت بشيءٍ ما في دراجتي الهوائية. ثم عدت إلى شباك التذاكر وقلت للرجل الإنساني هناك : وصل زوجي بآخر قطار ؛ أعد لي أجور تذكرتي. ففعل. أردت الحصول على نقودي لكي أصحح وضعي مع ليونارد، لا لأنني كنت أريد النقود لذاتها. تكلمنا طوال الوقت في طريق العودة عن مشاجرة جرت في مكتب المجلة بشأن كتاب المقالات لعروض الكتب ؛ كنت أشعر طوال الوقت أن المسألة انتهت ولسان حالي يقول : الحمد لله. انتهت المسألة وتخلصت منها. أحسست بالخفة في جسدي وبالارتياح والاطمئنان في نفسي، ومع هذا كان ثمة شيء فظيع خلف هذا الإحساس، شيء أليم استمر بضعة أيام. أظن أنني سأشعر به مرةً أخرى لو ذهبت إلى ذلك الطريق ليلاً ؛ وأضحى الأمر مرتبطاً بوفاة عمال المناجم وبوفاة أوبري هيربرت Aubrey Herbert في اليوم التالي. على أني لم أدون كل شيء هنا على أية حال»(١).

لم تترك هذه التجربة آثاراً سيئة ـ بل لم تترك آثاراً على الإطلاق، اللهم إلا إذا كان لهذه التجربة الغريبة علاقة بالعمل الذي كانت فرجينيا عاكفة عليه خلال الأسابيع التي تلت، ذلك أنها كانت، في ذلك الحين، تصف جنون سبتيموس وارين ـ سميث Septimus Warren - Smith وهو

(١) حدثت كارثة عمال المناجم في ٢٥ أيلول ١٩٢٣ في منجم ردينغ بالقرب من فولكيرك إذ فاض المنجم ففقد أحد وأربعون رجلاً حياتهم. أما الكولونيل أوبري هيربرت، وكان عضواً في مجلس العموم، فقد توفي في ٢٦ أيلول ١٩٢٣ وعمره ٤٣ سنة، وهو أخ غير شقيق لليدي مارغريت دكوورث.

«إن قصدي هو أن أسجل، لأغراض نفسانية، ما جرى في تلك الليلة الغريبة عندما ذهبت لملاقاة ليونارد فلم أجده. كانت مشاعري شديدة التوتر وقد حُشدت حشداً في تلك الساعات! الليلة مطيرة، عاصفة؛ وحين سرت عبر الحقل قلت إني الآن أمام المسألة وجهاً لوجه؛ الآن تمكن الشيطان القديم من أمره تارةً أخرى خلال الأمواج. (لكني لا أستطيع إعادة تصوير الواقع الذي جرى). توترت مشاعري كثيراً فتصلب جسدي. لقد انكشف الواقع إذن، هكذا فكرت. كان ثمة شيء نبيل في شعورٍ كهذا؛ شيء فاجع، وليس تافهاً أبداً. عندئذٍ مرت أنوار بيضاء، باردة، فوق الحقول؛ وانطفأت؛ فوقفت تحت الأشجار الكبيرة في آيفورد Iford أنتظر أضواء الحافلة. ومرت الحافلة سريعاً؛ شعرت بالوحدة. هذا رجل يدفع عربة نحو (لوز) وقد نظر إليّ. لكنّ بوسعي أن أعبث بكل هذا، وأن أسيطر عليه في الأقل، إلى أن شعرت فجأةً، بعد أن وصل آخر قطار، أنني لا أطيق الجلوس وأستمر في الانتظار وأن عليّ أن أقوم بالفعل النهائي ألا وهو الذهاب إلى لندن. مضيت على دراجتي وليس أمامي إلا وقت قصير وأنا أسير ضد ريح عاتية؛ شعرت مرةً أخرى بالرضا لأني أضاهي أشياء قوية، ذات بأس، كالريح والظلام. صارعت، فقد كان عليّ أن أسير؛ أن أستمر؛ أن أمضي قدماً؛ أسقطت مصباحي اليدوي؛ التقطته؛ وهكذا مضيت مرة أخرى دون ضياء. رأيت رجالاً ونساءً يسيرون معاً؛ شعرت بالأمن والسعادة؛ أنا طريدة؛ اشتريت تذكرتي؛ أمامي ثلاث دقائق فقط، وما أن استدرت حول سلم المحطة حتى رأيت ليونارد يأتي مسرعاً، وقد انحنى كمن يمشي

بسرعة فائقة، وهو يرتدي معطفه الواقي من المطر. كان فاتراً، وغاضباً (وهو أمر طبيعي كما أظن). عندئذٍ انتحيت جانباً لكي لا أظهر مشاعري وتشاغلت بشيءٍ ما في دراجتي الهوائية. ثم عدت إلى شباك التذاكر وقلت للرجل الإنساني هناك: وصل زوجي بآخر قطار؛ أعد لي أجور تذكرتي. ففعل. أردت الحصول على نقودي لكي أصحح وضعي مع ليونارد، لا لأنني كنت أريد النقود لذاتها. تكلمنا طوال الوقت في طريق العودة عن مشاجرة جرت في مكتب المجلة بشأن كتاب المقالات لعروض الكتب؛ كنت أشعر طوال الوقت أن المسألة انتهت ولسان حالي يقول: الحمد لله. انتهت المسألة وتخلصت منها. أحسست بالخفة في جسدي وبالارتياح والاطمئنان في نفسي، ومع هذا كان ثمة شيء فظيع خلف هذا الإحساس، شيء أليم استمر بضعة أيام. أظن أنني سأشعر به مرةً أخرى لو ذهبت إلى ذلك الطريق ليلاً؛ وأضحى الأمر مرتبطاً بوفاة عمال المناجم وبوفاة أوبري هيربرت Aubrey Herbert في اليوم التالي. على أني لم أدون كل شيء هنا على أية حال»(١).

لم تترك هذه التجربة آثاراً سيئة ـ بل لم تترك آثاراً على الإطلاق، اللهم إلا إذا كان لهذه التجربة الغريبة علاقة بالعمل الذي كانت فرجينيا عاكفة عليه خلال الأسابيع التي تلت، ذلك أنها كانت، في ذلك الحين، تصف جنون سبتيموس وارين ـ سميث Septimus Warren - Smith وهو

---

(١) حدثت كارثة عمال المناجم في ٢٥ أيلول ١٩٢٣ في منجم ردينغ بالقرب من فولكيرك إذ فاض المنجم ففقد أحد وأربعون رجلاً حياتهم. أما الكولونيل أوبري هيربرت، وكان عضواً في مجلس العموم، فقد توفي في ٢٦ أيلول ١٩٢٣ وعمره ٤٣ سنة، وهو أخ غير شقيق لليدي مارغريت دكوورث.

من شخصيات رواية «السيدة دالاواي».

لا يوجد بعد هذا من سجل عن تقدم العمل في الرواية المذكورة مدة أشهر، لكن كتاب «القارىء العمومي» لم يهمل، وقد قضت ضرورات الفصل اليوناني في تشرين الأول أن تقرأ الكاتبة أعمال سوفوكل؛ إن حجم القراءة والكتابة الذي تخلل إنتاج ذلك المقال، وهو يقع بنحو سبعة آلاف كلمة، حجمٌ كبير جداً. دوّنت الكاتبة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٤ اليومية الآتية:

> «أعود مرةً أخرى غداً إلى (الساعات)، وهو ما أتطلع إليه بحزنٍ لا ينقشع، فقد أثيرت مسألة البيت هذا الصباح. لكني سأكتب إلى أن يتم انتقالنا، وأمامي ستة أسابيع. حين يعود المرء إلى الصحائف التي تخلّى عنها يجد فيها الكثير من النتوءات الخام الباردة التي تحتاج إلى صقل. أظن أن تصميم الكتاب هو الشيء الجيد هذه المرة ـ والله أعلم».

وهذا الانتقال الذي تشير إليه فرجينيا هو الانتقال من رجموند إلى لندن. ذلك أنها كسبت، في خريف ١٩٢٣، صراعها الطويل مع ليونارد. بدأ الصراع في الصيف حين قالت إن الوقت قد حان لترك دار هوغارث. فهي تشعر بالتأكيد بالصحة الحسنة مجدداً، وتجد الترحال المتواصل من وإلى رجموند أمراً شاقاً، متعباً، وتجده مضيعة للوقت أيضاً. على أن ليونارد كان قلقاً فأدلى باعتراضاته القديمة قائلاً إن حياة لندن كثيرة الضوضاء، وكان يحسب الانتقال أمراً غير حكيم، أو سابقاً لأوانه في الأقل.

أصيبت فرجينيا بالقنوط أمداً. كيف تستطيع جدالاً ضد زوج تدين له بالكثير جداً، وكان قد أثبت في الماضي أنه حليم، وكرس نفسه لها كل التكريس؟ ولكنها جادلته وكسبت الجدال. بدأت في تشرين الأول تبحث عن بيت، وفي النهاية، في السابع من كانون الثاني ١٩٢٤، وجدت ما

تريده في المنزل رقم ٥٢ في ميدان تافيستوك Tavistock في بلومزبيري. انتقل الزوجان وولف إليه في ١٣ آذار.

كان هذا المنزل جزءاً من مجموعة أبنية شيدت في أوائل القرن التاسع عشر، وهي تؤلف الطرف الجنوبي من الميدان، وتعتبر عيّنة نموذجية للمنطقة وللحقبة الزمنية؛ فواجهة المنزل البسيطة من آجر غامق وترتفع إلى أربعة طوابق فوق رحبة مسيجة تنير الطابق التحتي. حين اشترى الزوجان وولف منفعة الإجازة لهذا المبنى بعقد مدته عشر سنوات احتفظا بمستأجري الطابقين الأرضي والأول، وكان يشغلهما مكتب المحاماة، «السادة دولمان وبريجارد»؛ وظلت العلاقة مع هذا المكتب على وئام تام، وعندما اضطر الزوجان وولف في النهاية إلى ترك المبنى بعد انتهاء العقد (المحدد) انتقل السيد بريجارد العجوز وموظفوه مع الزوجين، بعد أن أقاما في الطابقين العلويين في السنوات الخمس عشرة التالية. كانت غرف السكن مضيئة وفسيحة ومتناسبة الأبعاد، وقد عهدت فرجينيا بمهمة التزيين الداخلي إلى فانيسا ودنكون. أما الطابق التحتي، وكان في الأصل يضم المطبخ وملحقاته ومخزن المؤونة وغير ذلك من الخدمات المنزلية، فقد اتخذ مقراً لمطبعة هوغارث. وهناك ممر طويل يؤدي إلى خلف المنزل حيث توجد، في موقع الحديقة، غرفة واسعة في سقفها منور كانت تتخذ سابقاً غرفة «للبليارد». أخذت فرجينيا تستخدمها لعملها وكانت تسميها «الستوديو». وبالنظر لموقع هذه الغرفة اتخذت مخزناً وأرشيفاً لمنشورات مطبعة هوغارث، وهنا، بين أكداس الكتب المركومة، وأكوام الورق، وفي حال من القذارة والفوضى، حيث يزخر المكان بريش الأقلام القديمة والدبابيس والأزرار وزغب الصوف وقناني الحبر الفارغة ونفاضات السكائر الملأى بالأعقاب، والمظروفات المستعملة وملازم التصحيح، كانت فرجينيا تجلس صباحاً قرب الموقد الغازي في كرسي قديم محطم فتكتب كتبها على لوحة خشبية في حجرها.

بين حين وحين يتسلل أحد العاملين إلى الغرفة على استحياء ليأخذ ما يحتاجه من مخزن الكتب، فلا تشعر فرجينيا بدخوله، وكانت معروفة بحساسيتها البالغة تجاه الضوضاء.

كانت فرجينيا ذات اهتمام كبير بالمطبعة فهي تذهب عصراً للعمل فيها. غدت مرتبة حروف قديرة وكانت تستمتع بممارسة مهارتها بصحبة العاملين في المطبعة. لم يكن هناك فيها سوى الفتاة مارجري جود، ولكن ليونارد كان قد أنبأها بأنه سيجري تطبيق نظام جديد في مطبعة هوغارث. إن جورج رايلاندز G. Rylands سيغادر كيمبردج في القريب، وهو يريد أن يتعلم الطباعة والنشر على يد الزوجين وولف فيما كان يعمل على أطروحته. كانت الفكرة أنه قد يزيح بالتدريج عبء الإدارة عن عاتق ليونارد. (ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي راودتهما فيها هذه الفكرة غير الواقعية).

جاء رايلاندز إلى مطبعة هوغارث في بداية تموز ١٩٢٤، وكانت علاقته بدار الطباعة قصيرة نسبياً (فقد أقرت أطروحته ومنح شهادته في نهاية ذلك العام). كان الانسجام بينه وبين فرجينيا انسجاماً كلياً وكان كشيء تسري فيه النار؛ فهي تعابثه وتسائله، وهما يثرثران معاً عن معاني الألفاظ وعن الحفلات والناس؛ وحين تكون فرجينيا في ذلك المكتب فإنه يكون مكاناً مترعاً بالمرح والضحك. ولكنْ كانت هناك أوقات وجد فيها المستخدم الجديد واجباته أقل تقبلاً؛ فقد كان عليه أن يحزم الرزم، وأن يعد حساب التخفيض في قوائم الزبائن المنتظرين، وكان عليه أن يقوم بتزييت ماكنة الطباعة وتحبيرها وتنظيفها وإدارة دواليبها أيضاً. أما أسوأ ما يواجهه من المحن فحين يترتب عليه الذهاب لمقابلة باعة الكتب فيحاول أن يقنعهم بشراء الشعر الحديث أو أعمال فرويد، وكلاهما يحتمل أن يرفض بازدراء، فالأول هراء والثاني في الأدب الخليع المكشوف. كان ليونارد يأخذ جهوده مأخذ

الشيء المفروغ منه، دون مديح لهذا المتدرب المكافح.

عاد جورج رايلاندز إلى كيمبريدج وإلى حرفة أكاديمية متميزة جداً، وعثر الزوجان وولف على شاب آخر، فاتن، ليحل محله هو أنغوس ديفدسون. كتب المساعد السابق يقول بلياقة وتواضع : «شكراً لله، فأنغوس مريح للأعصاب وإنسان يشعر بالمسؤولية معاً، وستثمر أعماله الهادئة أكثر مما أثمرت تصرفاتي المتوترة والمتكررة التي كانت تعقب فترات الخمول. أخشى ألا أراكِ كثيراً أنتِ وليونارد، الآن وقد تركت المطبعة. يجب أن أراكِ. أنا أعتمد عليك. مع ألف شكر على الأشهر الستة الأخيرة». أما واقع الحال فهو أن بقاء أنغوس في المطبعة كان عاصفاً.

في أيار ١٩٢٤ ذهبت فرجينيا إلى كيمبردج لتتحدث عن «الشخصية في الأدب الروائي الحديث» أمام جمعية تسمي نفسها «جمعية الهراطقة». أنتج ذلك الحديث بحثاً عنوانه «السيد بنيت وشخصية السيدة براون» (والسيد بنيت هو الروائي أرنولد بنيت). وكان هذا البحث أشبه بإصدار بيان جمالي. فالكاتبة تتحدث عن الشباب ومن أجل المستقبل ـ «نحن نرتعش فرقاً على شفا عصرٍ من العصور العظيمة للأدب الإنكليزي». وكلمة «نحن» تعني الرواد. وكما يحدث في بيانات من هذا النوع فإن الطريقة الوحيدة، على ما يظهر، التي نستطيع بها ولوج ذلك العصر العظيم هو أن ننحّي جانباً عدداً معيناً من العقبات الإنسانية التي تسد الدرب : أي كتاب «تلك الروايات الأنيقة، الناعمة، وتلك السير السخيفة ذات النفخة الفارغة، وذلك النقد الهزيل، وتلك القصائد التي تتنغم ببراءة الزهرة والحمل، وكلها تعتبر أدباً في الوقت الحاضر»، وبالإضافة إلى أولئك الكتاب هناك بنيت وغولز وورثي وويلز. إن هؤلاء هم العدو الحقيقي لأنهم يموهون الغرض الحقيقي من الكتابة وهو اكتشاف الحقيقة متمثلةً بشخصية السيدة براون المحيِّرة، التي تبعث على التشويش، وهي السيدة غير المعروفة الجالسة في

عربة القطار. إن السيد بنيت لا يفعل أكثر من إخبارنا عن أجرة مسكنها؛ والسيد ويلز يحدثنا عما ينبغي أن يكون عليه مقدار الأجرة؛ أما السيد غولزوورثي فيقول إنها لا تستطيع دفع الأجرة بأي شكل من الأشكال. ما من أحدٍ من هؤلاء الكتاب الروائيين الثلاثة استطاع أن يصور السيدة براون الحقيقية، إذ ما من أحدٍ منهم مهتم بالشخصية الحقيقية للكائنات الإنسانية ـ ولا هو مهتم بالسيدة براون في جوهرها... وهنا أجد نفسي متردداً كما ترددت فرجينيا على ما أظن، ذلك أنها تتخيل السيدة براون كالحرباء، مخلوقة تغيّر لونها بمقتضى الحال ووفق الزاوية التي فيها ينظر المرء إليها، بحيث أن خير ما يمكن قوله في النهاية هو أن السيدة براون هي كائن إنساني ـ شيء يتألف أساساً، في اعتقادي، من الماء مع كمية معينة من الأملاح وما أشبه ـ ولكنه، في اعتقاد فرجينيا، تتألف كذلك أساساً من مجموعة من الذكريات، بعضها حاضر دائماً، وبعضها متغاير على نحو غامض، وبعضها متوافر على نحو نزق. والسيدة براون تعرف جيداً في يقظتها أنها السيدة براون، ولعلها تستطيع أن تتذكر عمرها، ولا تستطيع بالتأكيد أن تتذكر الوجبة الأولى التي تناولتها في حياتها، إلا أنها مع هذا تستذكر شكل لعبة الدب الصغير وتستذكر بدقة أشد الأزرار السوداء التي وضعت في اللعبة في موقع العينين، وهي إنما تستذكر ذلك حين تشم نوعاً بعينه من صبغ الأثاث ـ هذا هو نمطٌ من السيدة براون لم يستطع السيد بنيت قط أن يتملاّه بعمق، على ما أظن ـ نمط من التنبه، يسطع حيناً، ويكون واضحاً مفهوماً حيناً آخر، نمط من اليقظة حيناً ومن النوم العميق حيناً آخر. وقد يتحلل خليط الماء والأملاح ذات يوم، ومن يدري فقد تكون غمامة الذكريات التي تشدها شداً واهناً مسحةٌ من شبه الوعي، هي السيدة براون لا غيرها.

وتخلص فرجينيا إلى القول بأن ما ينبغي على الأدباء هو النظر إلى أبعدَ من قرائن الإثبات لبنيت، ومن الوعظ الأخلاقي لويلز وغولزوورثي، وأن

عليهم التقرب من تلك الأحجية التي هي السيدة براون نفسها. لكن فرجينيا، وقد أعلنت أن هذه هي المعركة الحقيقية، وأن هذا هو النصر الذي يجب كسبه، فإنها نظرت إلى القوات التي تقاتل إلى جانبها كما نظر ولنغتون إلى قواته، وأعلنت كما أعلن : «لا أدري هل أن هؤلاء سيفزعون العدو، لكني أقسم بالله أنهم يفزعونني». إن كلاً من إي. إم. فورستر، و دي. إج. لورانس، من الشجعان ومن اللامعين، ولكنْ، إن كليهما قد أنفق الكثير من وقته وهو يسير في الاتجاه الخاطىء. أما أليوت وجويس فلم يرتكبا تلك الخطيئة، ولكن الأول مذنب بعدم الانضباط والثاني مذنب بارتكاب الفظائع. ولم يكن قلب ستراجي في المعركة حقاً. إن النصر سيكسب، ولكنْ من ذا الذي سيكسبه؟ لم تجب فرجينيا عن هذا السؤال قط، ولكن الجواب واضح، إذ ان بياناً ما يكتب بإجماع الفنانين ويعبر عن عقيدتهم يمكن أن يمثل مثل هذا الجواب. أما البحث المعنون «السيد بنيت وشخصية السيدة براون» فهو بيان فرجينيا الخاص. إنها تحدد به منهاجها للعقد التالي، وتحدد بموجبه مسرى عملها بالذات.

عقدت فرجينيا العزم، في أيار ١٩٢٤، على إكمال رواية «السيدة دالاواي» خلال أربعة أشهر ؛ ستكون الرواية عندئذٍ قد انتهت أو أوشكت على الانتهاء، فيتسنى للكاتبة أن تنحّيها جانباً لتكرس جهودها للعمل على كتاب «القارىء العمومي» في الأشهر الثلاثة التالية. صممت على أن تنشر مقالات هذا الكتاب في نيسان ١٩٢٥، وأن تنشر الرواية بعد ذلك بشهر واحد. وهذا ما أنجزته. فقد عملت في ذلك الصيف بسرعة وعلى نحو حسن ؛ وصلت في ٢ آب إلى موت سيبتيموس وارن ـ سميث في رواية «السيدة دالاواي». ومع أنها كانت، في اليوم التالي، تفكر بما اعتبرته البداية الثمانين النظامية لكتاب «القارىء العمومي»، وتهم، بتواضع، بقراءة عدد من الكتب بضمنها أعمال أفلاطون، ولكنها عادت إلى روايتها، وأخيراً تراءت لها النهاية. ففي ٩ تشرين الأول، بعيد رجوعها إلى لندن، اكتملت

«السيدة دالاواي» فهنأت فرجينيا نفسها على السرعة التي أنجزتها بها. ثم كان بوسعها في الحال أن تتخيل «الرجل العجوز» ـ وهي بهذا تعني رواية «إلى الفنار». غير أن الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٤ قد أنفقت في إعداد «السيدة دالاواي» للطبع (رأى ليونارد حروفها وقد صُفّت في كانون الثاني ١٩٢٥)، كما أنفقت تلك الأشهر في إنجاز «القارىء العمومي». وعلى ما يبدو لم تفعل، حتى صيف ١٩٢٥، أكثر من مجرد التفكير بروايتها التالية.

لم تكن فرجينيا في الغالب تبحث في شؤون كتابتها في رسائلها، ولكنها قاربت قيامها بذلك في رسالةٍ لها كتبتها إلى الرسام الفرنسي جاك رافيرات J. Raverat. سألها ماذا كانت تكتب؟ فأجابت على نحوٍ يتحاشى الاستدراج :

> «لا أظن أنني سأخبرك بما تريد، لأنك لا تأبه بذلك قيد أنملة كما تعرف جيداً. . . أنا أنانية جداً بشأن كتابتي، ولا أكاد أفكر بشيء آخر سواها، ولكني لا أذكر أمر كتابتي أبداً، غروراً مني، وحياءً، وحساسيةً، ولك أن تعدد صفات أخرى كما تشاء. ويظل الأمر طي الكتمان إلى أن يلتقط أحدهم كتابتي بكماشة جمر ساخنة حمراء. . . (على أني أوشكت على إكمال كتابين)».

وجاء جواب الرسام، وقد تسلمته الكاتبة في قرية رودميل وهي مستغرقة بكتابة «السيدة دالاواي»، فكان جواباً من النوع الذي يروق لها كثيراً، لأن أفكار هذا الرسام كانت منسجمة إلى حدٍ مع الأفكار التي حاولت تكوينها في بحثها المعنون «السيد بنيت وشخصية السيدة براون». إن صعوبة الكتب تكمن في كونها «طولية»، أو مستقيمة الخط على حد تعبير رافيرات، لذا فإن المرء لا يكتب (أو يقرأ) إلا شيئاً واحداً في المرة الواحدة. أما كتابه كله ـ مثل كلمة «الوثني الجديد» التي ألقت بها فرجينيا إليه ـ فهي أشبه برمي

حصاة في بركة : «ثمة رشاش يتعالى في الهواء في كل اتجاه، وثمة أمواج تحت السطح تجري إحداها وراء الأخرى إلى زوايا مظلمة منسية. . .» لكن هذه الظاهرة لا يمكن تصويرها إلا بواسطة وسيلة من وسائل الفنون التشكيلية، كوضع الكلمة في وسط الصحيفة وإحاطتها دائرياً بأفكار تتصل بها. وهكذا فقد يحقق الكاتب على نحوٍ ما ذلك التوافق الفوري الذي يتمتع به الرسام نظراً لطبيعة فنه. فضلاً عن ذلك فإن العقل لا يستطيع أن يحمل تعقيدات التصميم الأدبي الشائكة كلها لأن مثل هذا التصميم هو بالضرورة تلاحقي. «فأنتِ حين تكتبين فإنك في صفحة ٢٥٩ لا تعين بوضوح ما هو في صفحة ٣١. ولعل قولي هذا يرجع إلى أني لست كاتباً، والواقع أني لا أفكر بالكلمات».

أجابته فرجينيا تقول : «إن للرسامين بالتأكيد موهبة عظيمة في التعبير. ويبدو لي أنك تقدم سرداً ذكياً للغاية لما جرى في ذهنك حين ألقيت لك بكلمة الوثنية الجديدة». ولكنها لا تقول إن ظروف فن الرسم تعطي للرسامين من قوة الرؤية ما لا يتوفر للكتاب ؛ وإنما تقول : «أظن أنك تناولت بعض مشاكل الكتاب أيضاً، وهم يحاولون اقتناص رشاشك وتوطيده والبلوغ به إلى نهايته (مهما تكن الكلمة الخاصة بصنع الأدب)». فمهمة الكاتب ـ أي مهمتها بالذات ـ هي بالضبط الخروج عن «خط السكة الحديد الشكلي للجملة»، وعدم الأخذ بنظر الاعتبار «زيف الماضي (وأعني بذلك بنيت وغولزوورثي ومن لف لفهما)». فعلى الأديب الفنان أن يدرك «أن الناس لا يشعرون أو يفكرون أو يحلمون على هذه الشاكلة على الاطلاق، أما أنا فلم أفعل ذلك قط، ولكن الأمر شائع في كل مكان». إنها، بعبارة أخرى، تزعم لنفسها القدرة، أو النيّة في الأقل، على أن ترى الحوادث خارج الزمن، وعلى أن تتخيل مجريات متطورة في الفكر والشعور وكأنها أشكال تصويرية.

إن من الممكن العثور في رواية «السيدة دالاواي» على محاولة كهذه، وعلى رغبة في جعل الأدب «دائرياً» وليس «مستقيم الخط»، لوصف «الرشاش المتعالي في الهواء» و «الأمواج التي تجري إحداها وراء الأخرى إلى زوايا مظلمة منسيةً معاً وفي الوقت نفسه. ولعلها تقر بالصعوبة الكبرى في مثل هذا المقصد حين جاءت، في روايتها الثانية، برسامٍ يرسم شيئاً قريباً جداً من تصميمها الأدبي بالذات، فأنهته قائلةً : «خط هناك، في الوسط».

هذا وقد كانت معظم رسائل فرجينيا إلى جاك رافيرات حاشدة بالقيل والقال والاسترسال في شؤون الحياة العادية. كان جاك ـ وهو فرنسي تعلم في إنكلترا أحد «الوثنيين الجدد» وقد تزوج من إحدى «الوثنيات الجديدات» ـ وهي غوين داروين ـ Gwen Darwin في ١٩١١. استهلت المراسلة بين الرسام والكاتبة برسالة كتبها جاك إلى فرجينيا امتدح فيها كتابها «الإثنين أو الثلاثاء» فدامت المراسلة حتى وفاته في آذار ١٩٢٥. كان في أيامه الأخيرة لا يستطيع المشيء ولا يستطيع الكتابة فيملي رسائله على زوجته، وكان يسير إلى نهايته المحتومة ببطء وألم. أما استجابة فرجينيا الغريزية للشقاء فتتم دائماً بمزاولة الكتابة، والكتابة هي طريقتها المثلى في إظهار التعاطف مع الغير في حالات المرض أو الكوارث، فتأخذ كتابتها شكل الرسائل. كتبت إلى جاك رسائل مطولة، بانتظام، وأجابها جاك برسائل بلغ بعضها أقصى الجودة. دونت في يومياتها تقول : «أحب أن أدخل السرور إلى قلب جاك»، وقد أحس جاك بالسرور حقاً. كتب لها في كانون الثاني ١٩٢٤ فقال : «إن رسائلك، وخاصةً الرسائل الثلاث أو الأربع الأخيرة، قد قدمت لي شيئاً لم يستطع إلا القليل جداً من الناس أن يقدموه لي في هذه السنين الأخيرة».
عزما أن يلتقيا مرة أخرى، ولكن هذا اللقاء لم يقع، ولعل فرجينيا لم تشأ أن يقع. إن مسرّة صداقتهما تكمن في طبيعة المراسلة بينهما. وفي شباط ١٩٢٥، أي قبل وفاة الرسام بشهر واحد، قامت فرجينيا بشيء لم تقم به لشخص آخر. أرسلت له مسودات المطبعة لروايتها غير المنشورة بعد،

«السيـدة دالاواي». قـرأت غـوين الرواية لجـاك وهو على سـرير الموت، وأغفلت عامدةً المقاطع التي تصف انتحار سبتيموس وارن ـ سميث، إذ وجدتها حاشدة بالتوتر على نحوٍ لا يطاق.

كتبت فرجينيا في يومية ٨ نيسان :

> «منذ أن كتبت رسالتي الأخيرة قبل ثلاثة أشهر مات جاك ؛ مـات بعـد أن تاق إلى الموت ؛ أرسل لي رسـالة عن رواية (السيدة دالاواي)، فكان يوماً من أسعد أيام حياتي».

وبوفاة جاك لم يبق أحد من الوثنيين الجدد على ما يبدو. كتبت زوجته غوين تقول «إن الأمر انتهى من أمد بعيد» وكان قولها صحيحاً. فقد قضي الأمـر في سنة ١٩١٤ بعـد أن اعـتل من قـبل. رويـروت بروك زال من الوجود ؛ فرانسيس كورنفورد وجدت لها ديناً آخر ؛ كاكوكس تزوجت من ويل أرنولد ـ فـورستر Will Arnold - Forster وكتبت إلى فـرجينيا تقول : «أحس أنك لن تعجبي بزوجي» وكانت على صواب.

ظهر كتاب «القارىء العمومي» في ٢٣ نيسـان، وظهرت رواية «السيدة دالاواي» في ١٤ أيار. أخذت فرجينيا تقاسي من المشاعر المتقلبة المعتادة، فهي تبتئس لكتابات الصحف السيئة وتطرب للكتابات الجيـدة في نقد الكتابين. ولكن محنتهـا انتهت بنهاية أيار : إن مورغان فورستر قد أعجب برواية «السيدة دالاواي» ؛ وتوماس هاردي قد قرأ «القارىء العمومي» بسرور عظيم. عندئذ كتبت فرجينيا في اليوميات : «لم يحدث لي قط أن شعرت بالإعجاب بي إلى هذا الحد».

الفصل الخامس
حزيران ١٩٢٥ ـ كانون الأول ١٩٢٨

كتبت فرجينا، في المدة من حزيران ١٩٢٥ إلى كانون الأول ١٩٢٨، رواية «إلى الفنار» To The Lighthouse، ووضعت تصوراً في ذهنها لرواية «الأمواج»، وهما برأي كثير من النقاد، أعظم إنجازات الكاتبة الأدبية. لهذا فقد يكون من المناسب الآن أن نحاول تمحيص ذهن هذه الكاتبة أثناء العمل. ويترتب علينا، في فحص كهذا، أن نتحاشى اتباع التسلسل الزمني، وأن نغامر بالدخول إلى منطقة ليس من السهل تطويعها.

لقد أشارت فرجينيا نفسها إلى أخطار هذه العملية بالذات فكتبت تقول :

«إن كثيراً من المشاهد قد مرت فذهبت غير مكتوبة. اليوم هو الرابع من أيلول. يوم قارص البرد، داكن شديد الرياح، يطبعه في الذاكرة ذلك الطائر الزاهي الألوان، الشامخ العرف، الذي يقتات على اقتناص السمك، ويطبعه في ذاكرتي شعوري، وقد أفقت مبكراً، بأن (روح السرور) تزورني مرةً أخرى. . . (نادراً، نادراً، تأتينني يا روح السرور). هذا ما غنيته في هذا الوقت من العام الماضي؛

غنيته بتوتر يشحن النفس فلم أنسه قط، ولم أنس رؤيتي لزعنفة السمكة وهي تشق الماء فترتفع فوق بحر فسيح، فارغ. لا يمكن لأي كاتب من كتاب السير أن يتخيل هذه الحقيقة المهمة في حياتي في أواخر صيف ١٩٢٦. مع هذا يزعم كتاب السير أنهم يعرفون الناس».

وكتاب السير لا يعرفون، ولا ينبغي لهم أن يعرفوا. إن كل الذي بوسعهم أن يزعموه هو أنهم يعرفون أكثر قليلاً مما يعرفه الناس، وأنهم بحصولهم على بضع إشارات يجدونها في مذكرات صاحب السيرة أو كتاباته، يمكنهم أن يصححوا شيئاً من المفاهيم الخاطئة العالقة في الأذهان عنه، أو أن يرسموا خطوطاً عامة له، تكون متسقة ومقنعة، هذا إذا واتاهم الحظ وكانوا من ذوي المهارة، ولكنها كغيرها من الخطوط العامة لا تضاهي إلا على نحو واهن ذلك الشخص الحقيقي الجالس للتصوير وقد سلطت عليه الأضواء وأخضع لأوضاع شتى من مسوح التنكر.

ولمعرفة نفسية فرجينيا وولف، وهو الأمر الذي تتطلبه من كاتب سيرتها، فعلى المرء أن يكون إما الله الذي خلقها وإما فرجينيا ذاتها، والأفضل أن يكون الله. إن المرء وهو ينظر إليها من الخارج لا يستطيع أن يرسم لها أكثر من تلك الخطوط العامة، أما الباقي فله أن يتكهن بشأنه، بل أن يتنبأ لكي يستشف ما يريده، على ألا ينسى أبداً أنه إنما يتكهن تكهناً من أخطر الأنواع.

ولنا نستنتج بشيء من الصحة ونحن نقرأ استشهاد فرجينيا بأبيات شيلي عن روح السرور في يومية كتبتها في أيلول ١٩٢٧ أنها كانت تتذكر حقبة من حقبات التعاسة. أما «زعنفة السمكة وهي تشق الماء فترتفع فوق بحر فسيح، فارغ» فما هي إلا من الأخيلة التي تعاودها وكانت علامة من علامات الكوارث كتلك التي كانت قد رأتها في تلك الليلة من أيلول

١٩٢٣ حين تأخر وصول ليونارد إلى البيت. لعل لهذه الذكريات صلة بيومية أخرى عنوانها «حالة عقلية» كتبتها في ١٥ أيلول ١٩٢٦ :

> «استيقظت في نحو الساعة الثالثة. ويبدأ ذلك الهول المفزع فيطغى جسدياً كأنه موجة أليمة تنتفخ حول القلب، فتقذفني. أنا تعيسة، منهارة! يا إلهي، ليتني كنت ميتة. فلماذا أشعر بهذا الشعور؟ فلأراقب الموجة. أرى فانيسا أرى أطفالاً. أرى فشلاً. أجل، أرى ذلك. الفشل، الفشل. (الموجة ترتفع)».

يمكن تفسير هذا الكلام على أنه يعني ببساطة : «إن لدى فانيسا ثلاثة أطفال، وليس لدي طفل واحد».

كتبت ذات مرة : «إنهم يضحكون من ذوقي واستحساني للصبغ الأخضر!» ولا أشك أنها ضحكت هي نفسها من ذلك. كان ذلك جزءاً من مزاح قارص يجري علناً في جارلستون، يصحبه الضحك ويسقُّه بضحك مثله، ولم يكن يعيره المشاركون اهتماماً، ولكنها تتذكره الآن :

> «في الفجر تتلاطم الأمواج. ليتني كنت ميتة! أمامي بضع سنين فقط من الحياة، هذا ما آمله. لا أستطيع مواجهة هذا الهول المفزع بعد الآن. (ها هي الموجة تنتشر من فوقي). هذا يستمر ؛ يتكرر مرات، بأنواع شتى من الهول المفزع. وفي أثناء الأزمة ينقلب الألم العميق إلى ألم غامض ؛ ثم شعوري بالفشل إزاء حادثةٍ ما، مثلاً ذوقي واستحساني للصبغ الأخضر، أو شرائي لفستان جديد لبسته. . .».

أنها لما تزل تحس بالخجل اليائس في دكاكين الملابس، ومع أنها سعدت زهاء هذا الوقت بتعلمها أخيراً بأن تواجه البائع بثقةٍ، غير آبهة بشيء، ولكن ذلك كان موقتاً ؛ إنها لم تزل تكره شراء الملابس، الملابس الداخلية

خاصةً، وإذا انتقدت مشترياتها جزعت أشد الجزع.

«وأخيراً أقول لنفسي، وأنا أراقب بما أستطيعه من موضوعية، الآن عليك أن تتماسكي. كفى قلقاً. فأفكر بتعقل. وأحصي الناس السعداء والناس التعساء. أحبس أنفاسي لكي أرمي وأقذف وأضرب بشدة. أبدأ السير إلى الأمام دون تردد. أشعر أن العقبات تتساقط. أقول لا بأس، فلا شيء يهم. أغدو متصلبة، وأنام مرة أخرى وأنا شبه مستيقظة وأشعر بالموجة تبدأ بالتصاعد وأراقب الضياء وهو يبيّض وأتساءل كيف سيقضي ذلك هذه المرة على تناول الإفطار وتصاعد النهار؟ ثم أسمع ليونارد في الممر فأستحث المرح في نفسي من أجلي ومن أجله أيضاً. وأنا أكون مرحة على العموم عند إنهاء الإفطار. هل يعاني الناس كلهم من مثل هذه الحالة؟ لماذا لا أتمتع إلا بالقليل جداً من السيطرة؟ ليس هذا في صالحي ولا هو بالشيء الحسن. إنه السبب في الكثير من التبديد في حياتي وفي الكثير من الألم».

في سنوات العشرينات غالباً ما كان أصدقاء فرجينيا يتحدثون عن معنوياتها العالية، الدافقة[1]. وقد كانت ناجحة في المجتمع نجاحاً اجتماعياً كبيراً، ولكن المرء لا يكاد يلمس هذا وهو يقرأ يومياتها. كتب روجر فراي في ١٩٢٦ عن عشاء في مطعم كرمرسيو فقال : «إن فرجينيا كانت في أروع حالاتها» ؛ أما هي فكانت قد دونت في اليوم السابق تقول : «أنا أرتعش فرقاً

(١) وأكثر ما يصدق هذا حين تكون فرجينيا بين أصدقائها المقربين. ولكنها لم تكن تعوّل على وجودهم. يستذكر الأستاذ وليم إمبسون قائلاً «في المرة الأخيرة التي أسعدني الحظ بلقائها، وكنت يومئذ طالباً، مرضت من شدة الضحك وهي تطلق فكاهاتها». من حديث في الإذاعة البريطانية في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٣.

وجسدي كله يرتجف من المهمة المفزعة التي توليتها، ألا وهي الذهاب إلى خيّاطة أوصت بها تود [وكانت الآنسة تود آنئذٍ محررة مجلة فوغ] مع العلم أن ذهابي سيكون بصحبتها كما اقترحتْ عليَّ، ولكن دمي يتجمد الآن».
غير أن كلايف كتب في ١٩٢٨ فقال : «إن الزوجين وولف في أحسن حال» (١٩ شباط) وقال : «فرجينيا لما تزل فوق قمة الموجة» (٢ آذار). لكنها هي نفسها كتبت في ١٨ آذار تقول : «منذ شباط وأنا أحس بالصداع يلبّد رأسي».

وأحسب أن معظم الناس، إذا قيست معنوياتهم خلال النهار، يظهرون تذبذباً في درجة حرارتهم النفسية، الأمر الذي يدهش أصدقاءهم. كان الانحناء في الخط البياني لفرجينيا انحناءً مفاجئاً غير مألوف، وهو يؤثر فيها تأثيراً عميقاً ودائماً حتى أنها تستذكر يأسها الجاري في سنة ١٩٢٦ على نحوٍ جلي في السنة التالية.

ولكنْ، هل كان الأمر يأساً محضاً؟ إن الزعنفة التي تشق سطح الماء قد تعود إلى وحشٍ شرير ذي سن قاطع كحد الموسى، لكنه وحشٌ لا يُرى، بل يستقر في الأعماق بطبيعته غير المعلومة.

فلنفترض هنا افتراضاً طائشاً أن الموجة والزعنفة والمخلوق المنطلق من أعماق الهاوية ما هي إلا من علامات شيء يضطرب في باطنها. لنعد إلى خريف ١٩٢٦ :

> «. . . إن ما يتخلف في نفس المرء ليس هو المرء ذاته بل شيء من أشياء الكون. وهذا هو ما يفزعني ويثيرني وأنا في خضم كآبتي وانقباضي ومللي، مهما يكن ذلك الشيء. إن المرء ليرى زعنفة عابرة من بعيد. . . وكل ما أريد تسجيله هو ملاحظةٌ ما عن حالة عقلية غريبة. وأسارع إلى التخمين بأن المسألة قد تكون أثراً من الآثار التي يتركها كتاب آخر.

ولكن عقلي فارغ كلياً وغير متلقح بأي كتاب».

ولنعد إلى ما بعد شهر :

«الإثنين، أوزي دكنسون ؛ الأربعاء، ليدي كولفاكس ؛ الخميس مورغان ليلتقي أبيل شيفالي، وأقمنا عشاءً للزوجين ويلز ليلتقيا أرنولد بنيت ؛ من الجمعة إلى الإثنين في لونغ بارن. وهكذا ينزلق الأسبوع على صفحاتي أو يلتصق بها ؛ الغضب، التعاسة، الفرح، الخمود، التجلّي، كلها تمتزج. أنا ساحة قتال العواطف ؛ أفكر على التعاقب بشراء الكراسي والملابس ؛ وأعمل جاهدة على طريقة لتنقيح (إلى الفنار) ؛ وأختصم مع نيللي (وكانت ستذهب بقطار الظهر اليوم لأني كذبت بشأن نداء تلفوني) وهكذا دواليك. أرسل لي موريس بارينغ والزوجان سيتويل كتبهم ؛ ليونارد يمضي قدماً إلى الأمام، وهو يعمل الآن على ما يسميه (المراسلة) ؛ المطبعة تزقزق قليلاً ؛ السيدة كارترايت اختفت ومعها نظاراتي ؛ أنا أجد الرجال الشواذ جنسياً ثقلاء دم كالأسوياء ؛ وعليّ الآن أن أطوّر كتابي استعداداً للطبع. هذه الأمور كلها تتزاحم على شاشة عقلي. وأبدأ بالتفكير على فترات بإمرأة منعزلة تضع شكلاً لكتاب عن أفكار تخص الحياة (أدون هذا وأنا أراقب ظهور أحد الكتب). راودني هذا مرةً أو مرتين فقط على نحو غامض جداً ؛ والفكرة هي تصوير درامي لمزاجي في قرية رودميل. سيكون الأمر محاولة لوضع شيء صوفي، روحاني ؛ الشيء الذي يوجد حين لا نكون هناك».

إن الإشارة هنا، على ما يبدو، إلى رواية «الأمواج»، وقد بدأت فرجينيا بتصورها على نحوٍ غامض، ولم تتخذ بعد شكلاً دقيقاً يشفي غليلها،

وستنصرم خمس سنوات قبل أن تتمكن الكاتبة من جعل أفكارها تتخذ شكل رواية. وعندما أخذت تردد في أيلول ١٩٢٧ أبيات شيلي عن روح السرور وتُرجع صدى قنوطه كانت سلسلة أفكارها شيئاً مختلفاً. فبعد شهر واحد تكونت في ذهنها مجرّة كاملة من الأفكار واتخذت فجأةً شكل رواية من أرق رواياتها وأسهلها كتابةً.

تشير البراهين إشارةً ما إلى أن لحظات الاكتئاب تعقبها لحظات الإبداع. إن بوسع فرجينيا، كما سنرى في فصلٍ لاحق، أن تنتفع من أمراضها. إنها بحاجة إلى «أن تطفو مع الأعواد في التيار؛ أن تسير على عجل وعلى غير هدى على الأوراق المتساقطة على المرج الأخضر، بلا مسؤولية وبلا اهتمام، وقادرة لأول مرة منذ سنين على أن تتلفت، أن ترفع نظرها ـ أن تتطلع، مثلاً، إلى السماء». ولكنها بحاجة كذلك أن تكون معافاة إذا كان لها أن تتصدى للمهمة المضنية لوصف ما تراه في السماء. لم تكن في ١٩١٣ بقوة تكفي لكي تتصدى لرؤاها، ولكنها كانت في السنوات ١٩٢٥ إلى ١٩٣٢، على درجة من العافية تمكنها من أن تتصدى لأمراضها. مع هذا كان الجهد الذي تبذله بالغاً، وكان التوازن بين مرضها وبين تكوينها الجسدي توازناً دقيقاً، كما ستكتشف في صيف ١٩٢٥.

ومع أن فرجينيا كانت تتوق إلى بدء العمل في كتابة روايتها ولكنها قررت تأجيل الكتابة حتى بداية شهر آب حتى تكون في قرية رودميل. كان الاستقبال لرواية «السيدة دالاواي» ولكتاب «القارىء العمومي» من النوع الذي جعل المجتمع، وإطراء المجتمع لها، شيئاً مقبولاً. فصممت أن تكرس أوقات عملها للصحافة[1].

«... أمضي أوقات الصباح كلها في الكتابة ـ عن سويفت،

(١) كان لديها دافع إضافي. فقد ذكرت في يومية ١٩ نيسان ١٩٢٥ : «أنا أريد أن أكسب ثلاثمئة باوند في هذا الصيف عن طريق الكتابة لكي أبني حماماً في رودميل وأنصب سخّاناً». («يوميات كاتبة»، ص ٧٤).

أو في كتابة الرسائل. وهكذا فإن جمعاً من الناس وكثيراً من الحفلات تلقى في سلة النسيان».

هذا ما كتبته في يومية من يوميات تموز ١٩٢٥. ولكن مفكرة الجيب الخاصة بليونارد تسجل نشاطاً اجتماعياً متواصلاً، إذ لا يكاد يوم من أيام تموز يخلو من ذكرٍ للزائرين ولغير ذلك من الفعاليات داخل المنزل وخارجه.

واستمر العمل في المطبعة. كانت الأشغال مزدهرة على حد تعبير فرجينيا. كانت هي تواصل عملها في صف الحروف ورزم المطبوعات، وقد أنفقت ساعات طويلة من العمل على كراس مينارد كينز المعنون «النتائج الاقتصادية لسياسة تشرشل» (وهو كراس يتناول عودة بريطانيا إلى قاعدة الذهب والنتائج المحتملة لذلك)، وكان عملها يجري في الطابق الأرضي مع العاملين الآخرين في المطبعة (وهم على التوالي: أنغوس ديفدسون الذي جاء إلى المطبعة في كانون الأول ١٩٢٤ وبقي حتى نهاية ١٩٢٧؛ وبرناديت مورفي التي جاءت بعد هذا بقليل ثم أبدلت بالسيدة كارترايت التي ظلت حتى ١٩٣٠). وقد استغرق عملها على كراس كينز ساعات طويلة وتضمن تهيئة الرزم وتلبية الطلبات التي وردت لشراء المطبوع وبلغ عدد النسخ التي طبعت منه عشرة آلاف نسخة. (وتجدر الإشارة إلى أن مينارد كينز تزوج في ذلك الصيف، في الرابع من تموز، وجرى زواجه في دائرة تسجيل سانت بانكراس). كانت فرجينيا إذن كثيرة المشاغل آنئذٍ، ومجهدة، حتى أنها قالت عن نفسها في ما بعد أنها كانت «كالعجلة التي تسير على إطارات فارغة من الهواء».

كان لا بد إذن من تأدية الحساب المترتب على ذلك النشاط. وقد جرى ذلك في جارلستون، في التاسع عشر من آب، وكانت تقام في هذا اليوم من كل عام حفلة لإحياء ذكرى ميلادٍ ما. كانت هذه الحفلة تقام دائماً في

ظروف مواتية جداً، فالأسرة كلها حاضرة، والبهجة على وجوه الجميع، والجو عادة رائع في ذلك الموسم، وكل هذا ظل يجري سنوياً مدة أعوام، فيسود المرح الطافح، ويتعالى الهرج والمرج، ويبلغ الأنس مداه، تستحثه طيبات الأكل والشراب، وانطلاقات كلايف، وفكاهات فرجينيا المتفجرة. كذلك كان طابع تلك الأمسية بالذات، حتى خمد الضوضاء فجأةً في تلك الغرفة الحارة التي تضيئها الشموع. فقد نهضت فرجينيا بغتةً، وترنحت، واصفر لونها، وحاولت عبثاً أن تجد طريقها إلى الخارج. في تلك اللحظة الحاسمة جلس الضيوف ذاهلين إلا إثنان هبّا للإسعاف فوراً : ليونارد وفانيسا اللذان تحركا بسرعة حاسمة، وباقتدار هو وليد التدريب الطويل، واصطحبا فرجينيا إلى الهواء الطلق أولاً، ثم إلى السرير لمعالجتها بما هو متاح من الدواء الناجع، وقد علمتها التجارب اختيار العلاج النافع في مثل هذه الحالات.

كان هذا الانهيار المفاجىء بداية لنوبة طويلة من التوعك والصداع والإنهاك يليها شفاء جزئي فانتكاس جديد. دام ذلك طوال السنة على نحوٍ متقطع، ولم تبلّ منه فرجينيا إبلالاً تاماً حتى ربيع سنة ١٩٢٦. فأدركت أنها كانت قد جاوزت الحدود، وأن حياتها في لندن ينجم عنها من المخاطر ما لا تستطيع تجاهله إلا على حساب تعرضها للأخطار، فعقدت العزم على التقليل من النشاط الاجتماعي في المستقبل ومن الانشغال المتعب به. لم تنفذ عزمها كل التنفيذ، ولكنها كانت أكثر حذراً في السنين التالية.

ومما خفّف من أعباء التماثل إلى الشفاء إدراك الكاتبة أنها لا تعوزها المادة لكتابة رواية «إلى الفنار»، وإن كان هذا الإدراك نفسه قد جعل شفاءها أكثر صعوبة من بعض النواحي. كانت فكرة الرواية قد جاءتها بغتةً قبل سنتين وهي في منزلها في ميدان تافيستوك، والرواية الآن ليست إلا بانتظار الكتابة، هذا إذا أردنا إطلاق الكلام على عواهنه. كان كل ما تحتاج إليه هو

أن تكون بصحبة حسنة تكفي لوضع الرواية على الورق.

ولكن فرجينيا لم تستطع في ذلك الخريف من القيام إلا بالقليل من العمل رغم البداية التي كانت تبشر بالخير؛ لقد ظلت عاطلة ومحبطة في قرية رودميل ثم في ميدان تافيستوك، وهي تحيا حياة سمتها «حياة برمائية» نصفها في السرير ونصفها الآخر خارج السرير؛ أما حين تمكنت من الكتابة فلم تكتب سوى مقال واحد بعنوان: «في الحديث عن كونك مريضاً. ثم أنها كانت تقاسي من مزعجات مختلفة، يتعلق أحدها بالشاعر إليوت والآخر بالسيدة هارولد نكلسون.

ففي خريف ١٩٢٥ هجر إليوت مطبعة هوغارث، على حد تعبير فرجينيا. كان هذا وصفاً غير منصف لسلوك الرجل. فالذي فعله إليوت هو قبوله لوظيفة محرر لمجلة «المعيار»، (الكراتيريان The Criterion)، التي عرضها عليه الناشر في محاولة منه لإحياء المجلة. أدى هذا العمل إلى تزويد الشاعر بالضمان المالي الذي أرادت فرجينيا دائماً أن يتمتع به، (والحق أن إدارة «صندوق إليوت» كانت قد أمست مسألة عسيرة)؛ ولكن، كان من الطبيعي أيضاً أن تنشر أعمال الشاعر من قبل مستخدمه الجديد، كما كان من الطبيعي أن ينافس إليوت مجلة The Nation، التي يحررها ليونارد، طلباً للمقالات. بدا كل هذا لفرجينيا سلوكاً لا يليق إلا بعالم الرذيلة السفلي، ولم يتم نسيان الأمر نهائياً إلا بعد شهور.

أما السيدة هارولد نكلسون، وكانت تكتب باسم في. ساكفيل - ويست V. Sackville - west، بل تفضل استعمال هذا الاسم، فكانت على حد تعبير فرجينيا «قد قضى عليها الديّان أن تذهب إلى إيران». وهذا يعني بعبارة نثرية أنها ستذهب للالتحاق بزوجها في طهران حيث كان يشغل يومئذٍ وظيفة مشاور في السفارة البريطانية هناك. لا بد لنا أن نقول شيئاً عن هذه المرأة، وسنشير إليها باسمها الأول فقط، فيتا Vita، إيثاراً لراحة

الاختصار. كانت هذه في ذلك الوقت أهم شخص في حياة فرجينيا، إلى جانب ليونارد وفانيسا، وستظل كذلك سنين قادمة.

الظاهر أن فيتا كانت قد وُجدت لا لشيء إلا لمتعة فرجينيا، فوجدت هذه فيها امرأة من سلالة راقية مع شيءٍ ما أفضل، وأكثر رومانسيةً من دماء الإقطاعيين الكبار، ألا وهو التراث الأدبي. كانت فيتا سليلة بيت من البيوتات التاريخية حيث يترعرع الفن الأدبي على نحوٍ يليق بأبنائها، مع شيء آخر فيها يتوج الأشياء الأخرى كلها، ذلك هو الدم الغريب الفاضح للغجر الإسبان يلوح في عينين قاتمتين هما من أروع ما يمكن للمخيلة أن تتصوره، مع احتشامٍ ارستقراطي في السير المرفوع القوام لعله نابع من بلدةٍ أندلسية.

كانت فيتا إمرأة جميلة جداً بالتأكيد، بذلك الحسن الكسول، الجليل، السوداوي، والآسر بفتنةٍ عفوية تزيدها محبةً، وكانت ذكية وخرقاء معاً على نحوٍ غريب، وهي تتخبط في أحضان الحياة، مع نوايا رائعة تخلو مما كان في فرجينيا من حدةٍ وفكاهة وخبث. أما إذا أضفنا إلى هذه الصفات أنها شديدة الإعجاب بروايات الكاتبة، وأنها هي ذاتها كاتبة أيضاً، نجد أمامنا إمرأة لا تقاوم.

ولكن فرجينيا قاومتها أمداً ما. كان لقاؤهما الأول على مائدة كلايف، ولم يسع هذا الإعجاب بمرتبة فيتا وجمالها ومزاجها الرائق، رغم أنها لم تكن لتضع عيناً عليه. سرعان ما أدرك مزاياها، ثم سارع إلى إبلاغ فرجينيا بأن السيدة نكلسون معجبة بها، مع هذا وجدت بعد اللقاء «أن السيدة ساكفيل ـ ويست الحسناء، الموهوبة، الأرستقراطية، ليست على مرامي ـ فهي مزوّقة ومسترجلة وملونة بألوان الببغاء، وتتمتع بكل ما في الأرستقراطية من يسرٍ طيّع، ولكنها لا تتمتع بفطنة الفنان. إنها تكتب خمس عشرة صفحة في اليوم الواحد ـ أنجزت كتاباً آخر ـ تنشر في دار هاينامان ـ

وتعرف الناس جميعاً. ولكنْ هل سأستطيع معرفتها على الإطلاق؟».

كانت فرجينيا، في تصوري، فزعة بعض الشيء. فقد كانت تعرف بلا ريب أن فيتا عاشقة نساء على نحوٍ صريح، لا لبس فيه. لعلها أدركت مشاعر فيتا نحوها، وربما أحست هي كذلك في ذلك اللقاء الأول بمشاعر مشابهة، ولكنها أحست أيضاً بالحياء وبالعذرية، وربما استثير فيها الإحساس بالخطر، إنها منذ زواجها لم تحس بأن أحداً قد طرق قلبها باستثناء كاترين مانسفيلد، ولم تطرقه كاترين إلا طرقاً خفيفاً. إنها لم تزل مغرمة بليونارد. ولكنْ، إذا فرضنا أن شخصاً سيزعم لنفسه مكاناً في قلبها وهي في منتصف العمر، ألا يؤدي هذا إلى شيءٍ فظيع يسبب الكارثة؟ كان من الضروري لها وهي في هذه الحال أن تكون غير مكترثة بمفاتن فيتا، وباردة نحوها، بل مناهضة لها.

مع ذلك فقد كانت فرجينيا على استعداد لرؤيتها مرةً أخرى. ومع أن صداقتهما لم تتطور سريعاً غير أن الزوجين وولف والزوجين نكلسون (إنتبه لكلمة الزوجين) كانوا قد التقوا أربع مرات في الأشهر الأولى من سنة ١٩٢٣ ثم التقوا مرات أكثر خلال سنة ١٩٢٤. ونحن نجد فرجينيا في أيلول ١٩٢٥ وهي تكتب لفانيسا عن فيتا بصفة التملك (my vita). كانت الصداقة قد توطدت بينهما آنئذٍ، ولو أن فرجينيا رجعت إلى يوميتها المؤرخة ١٥ كانون الأول ١٩٢٢ لصدمت قليلاً ودهشت كثيراً.

إن كلمة «الصداقة» تتخذ طابع الحياء حين أخطها على هذه السطور، ولو كنت واثقاً من عدم حصول سوء الفهم لاستعملت كلمة «العلاقة الغرامية». ولكني في واقع الأمر لا أعرف إلا القليل جداً عن هذا الأمر. ما الذي يرمي إليه المرء إذا قال بصراحة تامة : «قامت بين فرجينيا وولف وفيتا ساكفيل ـ ويست علاقة غرامية بين سنة ١٩٢٥ مثلاً وسنة ١٩٢٩؟» كانت

فيتا مغرمة جداً بفرجينيا[1] ولأنها إمرأة حماسية الطبع فقد أحبتها كما يحب الرجل، بنفاد صبر رجولي من أجل قناعةٍ ما جسدية ـ وإن كانت فرجينيا الآن هي في الأربعينات من عمرها وقد زايلتها فتنة الشباب ولو أنها ظلت حسناء. كانت فيتا تحس بشيءٍ من الرهبة منها، وترى أيضاً أنها كانت فظة. قالت في رسالة لها إلى فرجينيا تحدثت فيها عن أختام البريد فوصفتها بأنها «أختام لا تفض (مثل فرجينيا)». واتهمتها ذات مرة، في بواكير علاقتهما في سنة ١٩٢٤، بأنها تنظر إلى محبتهما بصفتها مادة للكتابة الأدبية. قالت : «أنت تنظرين إليها كأنها نسخة من النسخ المنقولة عن الأصل، كما تنظرين إلى أي شيء آخر على ما أعتقد، بما في ذلك العلاقات الإنسانية. أجل، فأنت تحبين الناس من خلال العقل على نحو أفضل مما تحبينهم من خلال القلب». رفضت فرجينيا هذه التهمة بسخط، ولكنها لم تكن تهمة تخلو من الحقيقة على ما أظن. إنما لم تكن التهمة هي الحقيقة كلها، فالأشياء ليست بسيطة على الإطلاق. لقد كانت فرجينيا تحس بما يحس به العاشق ـ فهي تبتئس حين تظن أنها مهملة، وتقنط حين تكون فيتا بعيدة خارج البلاد، وتنتظر الرسائل بشوق قلق، وهي تحتاج إلى رفقة فيتا وتحيا في ذلك المزيج الغريب من التجلّي والقنوط الذي لا يكتوي به إلا العشاق. كانت فرجينيا قد شعرت بهذا كله نحو كاترين مانسفيلد، ولكنها لم تشر قط إلى كاترين ولم تكتب عنها قط كما أشارت وكتبت عن فيتا.

---

(١) هناك رسالتان غير مؤرختين من فيتا إلى كلايف بيل تعطيان فكرةً ما عن عواطفها. قالت في الأولى : «ذهبت فرجينيا تواً. كانت قد جاءت معي إلى هنا ـ كانت تملأ النفس بالحبور. أليس من الغريب، يا عزيزي كلايف، أن تتفق أذواقنا في أغلب الأحيان؟ هذا لأن كلينا ذو ذوق رفيع، أو هكذا أحب أن أتصور».
وقالت في الثانية : «رأيت فرجينيا اليوم ؛ كانت رائعة جداً وواهنة جداً وهي تستلقي على كرسيين، مغطاة بعباءة ذهبية ؛ صوتها ضعيف ويداها نحيلتان تزايد حبي لها ؛ يا عزيزي كلايف، أنا مستعدة للذهاب إلى أقاصي الأرض من أجلها».

«فيتا في لونغ بارن مدة ثلاثة أيام. ومنها عدنا أنا وليونارد البارحة. عاشقات يحببن النساء؛ الصداقة ليست غير مشوبة بالعشق. باختصار، إن مخاوفي وتمنّعي ووقاحتي وتحرّجي المعتاد عند الاختلاط بالناس، كل هذا هراء محض كما قال ليونارد؛ وإليه يعود الفضل جزئياً (جعلني أكتب) وبمساعدته أنهيت هذه السنة المصابة بالأوضار على خير وجه. أنا أود فيتا وأحب أن أكون معها فأتملى الزهاء - زهت عند البقال وأشرقت كشمعة مضاءة قائمة على ساقين كشجر الزان، وردية الالتماع، عنبية العناقيد، لؤلؤية التدلي. هذا هو سر بهائها على ما أفترض. ولكنها تراني في حالة رثة جداً. ليس هناك إمرأة أقل مني اهتماماً بمظهرها. ما من أحد يلبس مثلي. ما هو تأثير كل هذا عليّ؟ تأثير مختلط جداً. هناك نضجها وامتلاء ثدييها؛ إنها مشرعة الصواري في أعالي الموج وأنا أخوض في الماء الضحل عند الساحل؛ أعني قدرتها على تولي زمام القيادة لأية جماعة، وعلى تمثيل بلادها في الخارج، وعلى السيطرة على الخدم والكلاب الضخمة؛ وأعني أمومتها (لكنها باردة وسطحية مع أولادها)، وكونها باختصار إمرأة حقيقية (وهذا ما لم أكنه قط). ثم هناك الشهوة تحف بها؛ الأعناب ناضجة؛ وهي ليست متبصرة؛ ليست في أمور العقل والبصيرة دقيقة التنظيم مثلي. إلا أنها تدرك هذا ولذلك تغدي عليّ حماية الأمومة التي أتمناها من الجميع على الدوام؛ وهي الحماية التي يعطيها لي ليونارد وتعطيها لي فانيسا وتحاول فيتا أن تعطيها لي أيضاً بطريقتها المرتبكة. ويختلط بكل هذا ما فيها من البهاء وعناقيد العنب وعقود اللؤلؤ. سأفتقدها وهي في الخارج حين تكون في

> سيارة تقطع بها الصحراء. سأكتب شيئاً عن هذا في السنة القادمة. على أية حال، أنا مسرورة جداً لأنها ستأتي لتناول الشاي اليوم وسأسألها هل تكترث بشأن ارتدائي للملابس بهذا الشكل الرديء؟ أظنها تكترث بذلك. قرأت قصيدتها، وجدتها محبوكة، وجيدة في تصورها وأحاسيسها، أكثر من أية قصيدة أخرى نظمتها حتى الآن».

وكتبت كذلك إلى فانيسا التي لا ترى مثل هذا الكمال في فيتا، وقالت :

> «ستصل فيتا لقضاء ليلتين بمفردها معي، وسيرجع ليونارد غداً. لا أقول أكثر من ذلك. فأنت تشعرين بالملل من فيتا ومن الحب ومني ومن كل شيء له علاقة بي، ولا تشعرين بالملل من كوينتين وأنجليكا وحدهما. ولكنْ هكذا كان قدري من أمدٍ طويل والأفضل أن أواجهه بعيون مفتوحة. مع هذا فليالي حزيران طويلة ودافئة ؛ الورد يزهر ؛ والحديقة حاشدة بالشهوة والنحل، . . . ».

كل هذا يمكن أن يكون شكلاً من أشكال الإقدام المتظاهر بغرور، والمنافسة الأخوية تكون لأحدِ طرفيها اليد الطولى فيها. وأخيراً، وإذ أنا أقدم القضية نيابةً عن ـ عماذا؟ الإتهام؟ ـ خذ الدليل الآخر وهو رواية أورلاندو Orlando، ذلك النصب الذي شيّدته الكاتبة لتخليد فيتا، وهي الرواية الوحيدة التي تقترب أشد الاقتراب من الشعور الجنسي، أو بالأحرى من الشعور الجنسي الشاذ ؛ فإذ يمر البطل٩١ البطلة بتغيّرات جسدية لكونه في الابتداء فتى فاتناً ثم سيدة حسناء نحو التحولات النفسية بعيدة جداً عن الاكتمال. إن الشاب غيرُ واثق منذ الابتداء من جنسه ؛ وحين يرتدي ملابس النساء يغدو لا مجرد إمرأة بل رجلاً يستمتع بصيرورته إمرأة. وأورلاندو

كذلك هو من مخلوقات فرجينيا الأشد تأليهاً ؛ فالبطل والبطلة قد جرى صبه بقالب قريب من رغبة القلب (وليس فقط من القلب) ـ قريب في الواقع من الخلق الباذخ البهاء لهذه الرواية القصيرة. ولك أن تقارن بين تناول فرجينيا للبطل والبطلة فيها وبين التهكم البارد في رواية «السيدة دالاواي»، أو بينه وبين التحولات الزاهرة لجيني Jinny في رواية «الأمواج» ـ باقة ورد على كرسيّ مذهب ـ أو بينه وبين لحاظ النظر الخاطفة، الكيّسة، الخفية، للعاشقين في رواية «غرفة يعقوب».

وأظن، بعد وضع الأدلة في الميزان، أن من المحتمل وجود شيء من المغازلات والاحتضان، وشيء من افتراش فراش واحد معاً. ولكنْ مهما يكن ذلك الشيء الذي ربما كان قد حصل بين الإثنتين فإني أشك كثيراً بأنه كان من النوع الذي يثير فرجينيا أو يرضي فيتا. والمسألة، بقدر ما يتعلق الأمر بحياة فرجينيا، ليست ذات أهمية كبيرة ؛ أما الذي كان مهماً لها فهو المدى الذي يمكنها أن تذهب إليه في انغماسها العاطفي، والدرجة التي تصل إليها في بلوغ الحب. ولا يمكن للمرء أن يقدم أجوبة شافية عن هذه الأمور، ولكنْ إذا كان اختبار وجود الغرام هو الإصابة بالعمى فإن من الممكن القول إذن إن حب فرجينيا لم يكن عميق الغور.

كانت لدى فرجينيا بالتأكيد أوهام بشأن فيتا ؛ فهي تستطيع أن توليها من الفتنة والامتياز ما يكاد يكون مستحيلاً ؛ وتستطيع أن تعتقد أن فيتا حورية من حوريات البحر أو آلهة من آلهات الغاب يجري في عروقها الدم الأزرق، أو أنها ربة من ربات الأرستقراطية ـ ولكنها لا تؤمن بها كمؤلفة. إن فيتا تكتب، على حد قول فرجينيا، «باقتدار تام، بقلم من نحاس». لم تكن فرجينيا فظة بشأن كتابة فيتا فهي تجد ما تستطيع العثور عليه للإعجاب برواياتها وشعرها، ولكنها لم تبلغ قط بإسرافها إلى الحد الذي يسمح به ضميرها كما كانت تفعل من أجل ليونارد. والسبب في هذا واضح على ما

أظن. فقد كانت معجبة بليونارد على نحوٍ لا يضاهي إعجابها بفيتا ؛ لم يكن يعوزها التحسس بالكمال الجسدي وبالصفات الأخلاقية ولكنها لم تكن تستطيع أن تحب حقاً إلا إذا شعرت أنها بحضرة عقلٍ أرقى.

> «ستأتي فيتا لتناول الغداء غداً، وسيكون هذا شيئاً ممتعاً جداً ومدعاةً لسرور عظيم. إني أستمتع بعلاقاتي معها : وقد تركتني بمنتهى الحماس في كانون الثاني ـ والآن ماذا؟ إني كذلك أحب حضورها وجمالها. هل أنا مغرمة بها؟ ولكنْ ما هو الحب؟ إن كونها هي بالذات مغرمة بي (ويجب أن أضع هذه الكلمة بين قوسين) أمر مثير وممتع ويدغدغ مشاعري ويداهنها. ما هو هذا (الحب)؟ أوه، إنها من ثم ترضي فضولي الأزلي ؛ من رأت؟ ماذا فعلت؟ ذلك أني لا أحمل رأياً عظيماً عن شعرها».

شعرت فرجينيا أن الأمر كله كان شيئاً مملاً عند ليونارد، دون أن يثير ذلك قلقه. أما هارولد فقد كتب لها معبراً عن سروره لأن لدى فيتا صديقة مثلها. إن كلا الزوجين، ليونارد وهارولد، أخذ المسألة بأسرها بهدوء رائع. ولعل مما له مغزاه ألا تكون فانيسا أو أيّ صديق من أصدقاء فرجينيا، باستثناء كلايف، من المخلصين حقاً لفيتا، ولكن الذي كان الأقرب للإخلاص لها والأكثر صميمية هو ليونارد بالذات.

وبعد أن فرغنا من قول كل شيء كيف لنا أن نصف العلاقة بين الإثنتين؟ أظن أن لنا أن نسميها شأناً من شؤون القلب، ولكنه شأن ابتدأ في قلب فرجينيا ثم انتهى. مع ذلك فإنها حين عادت من ساسيكس إلى لندن في خريف ١٩٢٥، وعلمت بأن صديقتها قد «قضى عليها الديّان بأن تذهب إلى إيران»، أدركت أنها قد شغفت بفيتا شغفاً صميمياً وأن مما يسؤوها كثيراً سفرها إلى الخارج. كانت عودة فرجينيا إلى لندن وفي ظنها

أنها شفيت مما ألـم بها من مرض، ولكنها ما لبثت أن أمرها طبيبها بالتزام السرير، ولم يسمح لهـا بالخروج أول مـرة إلا في ٢٧ تشرين الثـاني حين حضرت حفلة لرقص الباليه.

قضى الزوجان وولف عيـد الميلاد في تلك السنة مع الزوجين بيل في منزل جارلستون. وجاءت فيتا بالسيارة من لونغ بارن لتتناول الغذاء معهم في اليوم التالي للعيد. قال كلايف لفرجينيا بعد أن غادر الضيوف : «ما أجمل فيتا». فقالت له : «إنها أرستقراطية من سلالة عريقة». فالتفت ليونارد إلى جـوليـان وقـال : «مـا بالهم، هؤلاء المتنفجين؟» أطلقت هذه الملاحظة العنان، وقد أريد لها ذلك، فدام السجال والجدال حتى نهاية السهرة.

تميزت الأشهر الأولى من سنة ١٩٢٦ بتحسن في صحة فرجينيا. فقد كتبت عن نفسها قائلة : «لم يحدث لي قط أن كتبت بمثل هذه السهولة، أو تخـيلت بمثل هذه الوفرة». ويبـدو أن رواية «إلى الفنار» كـانت تؤلف بلا عناء ؛ ففي ١٦ آذار كانت قد كتبت منها أربعين ألف كلمة.

وتمكنت الكاتبة من ارتياد الحياة الاجتماعية على نحو أوسع من السابق، بل تمكنت من استكشاف مناطق جديدة. ذلك أن فرجينيا كـانت لصيقة بمنطقة بلومزبيري، وهي منطقة دنيا، أكثر من معرفتها بمناطق لندن الراقية مثل حي ماي فير، فرأت أن من المفيد لها أن تقيّم نفسها بموازين محيط آخر. وكـان ذلك مـا أتاحته لهـا، في ربيع ١٩٢٦، الآنسة روز مـاكـولي Rose Macaulay، وهي كاتبة روائية، وكانت قريبة منها بحيث تعتبر صديقة يرحب بها - ومتفوقة من بعض النواحي - وكانت في الوقت عينه متنائية عنها بحيث تعتبر مقيِّمة فعالة لأعمالها. لهذا فإن للمرء أن يفترض أن قبول فرجينيا لدعوة من روز ماكولي لتناول العشاء في أحد المطاعم مساء الأربعاء ٢٤ آذار إنما كان قبولاً بروحية الصداقة وروحية الاستقصاء معاً.

كـانت أمسية فاجعة. فقد وصل الزوجان وولف متأخرين عن الموعد

كثيراً. كانا يعملان بين المكائن في المطبعة فأسرعا يذهبان إلى العشاء دون أن يغيّرا ملابسهما أو يزيلا عنها حبر الطباعة. كانت فرجينيا تظن أن العشاء سيكون في إحدى «الحانات» على حد قولها. لكن هذا العشاء لم يكن مما عهدوه في بلومزبيري. كانت الآنسة ماكولي تقيمه في مطعم فخم لعشرة من الضيوف كلهم من أهل الأدب من الجنسين، السيدات بعقود اللؤلؤ والسادة بلباس السهرة الرسمي ؛ ثمة جحفل من الخدم يقوم على خدمتهم.

لم يكن كلا الزوجين متهيئاً لحفلة عشاء كهذه، وكانت من النوع الذي لا يقيمانه أبداً ؛ وأحرجهما تأخر الوصول وإجبار الآخرين على الانتظار مما خلق انطباعاً سيئاً. ثم ان ليونارد ما أن ينفعل حتى تطيش رعشة يده العارضة فلا يستطيع التحكم بها. وها هو قد جعل المحادثة على المائدة شيئاً مستحيلاً بيده المرتعشة تطرق طرقاً عنيفاً على صحن حسائه وملعقته تتحرك كأنها مضرب الطبل. لم يعد الكلام مسموعاً إلا بعد أن تناول حساءه أو، إذا أردنا الدقة، إلا بعد أن سكب الحساء خارج الصحن (فالذي وصل إلى فمه منه كان قليلاً). لم يكن هناك، برأي فرجينيا، أفضل من ألاّ يسمع الكلام ؛ كان الحديث على حد قولها عبارة عن «وقوقات لدجاجٍ منتوف ريش الرقبة»، وهو يدور عمن سيحوز على هذه الجائزة أو تلك من الجوائز الأدبية، وهل أن جيراردي Gerhardi هي أحسن رواية لعام ١٩٢٦؟ بدا لها الكلام كله كأنه دوامة من المبهمات الخالية من المعنى. ومما زاد في الطين بلة أن الرجل الذي كان يجلس إلى جانبها ذكر شيئاً عن ساحل البحر قائلاً : "The whole coast" فسمعتها فرجينيا "The Holy Ghost" فكانت فضيحة.

كان هذا شيئاً ينبو عن الوضع الطبيعي، وأحس الجميع أن فرجينيا قد أساءت إلى نفسها على نحوٍ مشين. وسيأتي دور ليونارد أيضاً. فما أن لحظ فوطة المرأة الجالسة إلى جانبه ساقطة على الأرض حتى انحنى بفروسية

ليلتقطها لها ثم اكتشف أنه إنما رفع تنورتها. والظاهر أن هذه الحركة قد أسيء فهمها فما كان من الزوجين إلا أن يسرعا بالخروج.

ولكن ذلك اليوم ذاته كان قد جاء بحدثٍ أكثر مدعاة للراحة وأحرى بأن تكون له نتائج دائمة. فمنذ زمن وفرجينيا وأصدقاؤها يشعرون بأن ليونارد يبدد مواهبه في العمل محرراً أدبياً لمجلة The Nation، وبأنه ينبغي له أن يكتب كتبه الخاصة به بدلاً من ارتباطه بلعبة البحث عن الكتّاب وتعقبهم أو الوقوف في وجوههم. كانت حياة ليونارد كمحرر أدبي حياة كالحة، كئيبة، قليلة الجزاء، مع قليل من أيام العطلات. في صباح ذلك اليوم الذي أقيم فيه عشاء روز ماكولي، ولم تكن فرجينيا قد أخبرت زوجها عنها، كان هذا يعد قهوة الإفطار، فقال: «سأقدم استقالتي صباح اليوم». سألته فرجينيا عما يعنيه. فأجاب : «سأستقيل من المجلة». هكذا ببساطة. وانتهى الأمر.

في نيسان أكملت فرجينيا القسم الأول من رواية «إلى الفنار» وبدأت تقحم القسم الثاني، (الزمن يمر) ؛ وجدت هذا القسم صعباً، لكنها كانت تتمتع بمعنويات طيبة فتقدمت في الكتابة. كانت نيللي قد قدمت إنذاراً بترك الخدمة، ولنقل للمرة الخمسين. كان الإنذار نهائياً هذه المرة : فهذه الخادمة تشعر أن من غير المجدي الاستمرار، وأن العمل كثير جداً، وعدد الزائرين كبير جداً. كانت فرجينيا مكتئبة، لكنها كانت حازمة، فقبلت الإنذار وأخذت تبحث عن خادمة أخرى بحثاً جاداً. من ثم، وفي ٢٧ نيسان، استوقفتها نيللي على السلم تناشدها قائلةً : «أرجوك يا سيدتي، هل لي أن أعتذر. أنا شغوفة بك جداً فلا يمكن أن أكون سعيدة مع غيرك،» فاعتبرت فرجينيا هذا الكلام أعظم إطراء متصور. لكن الأمر عنى أيضاً العودة إلى المناكفة القديمة، ولكن مع فارق واحد، فقد أقسمت أنها لن تصدق نيللي المسكينة مرةً أخرى إذا هددت بترك الخدمة. لعل نيللي نفسها

كانت قد توصلت إلى النتيجة ذاتها وهي أنها لن تصدق فرجينيا أبداً حين تهددها بالطرد في المستقبل.

«رأيت هذا الصباح أكثر من خمس سيارات مصفحة تمر ببطء في شارع أوكسفورد ؛ في كل منها جنديان يعتمران خوذة معدنية، مع جندي آخر يقف ويده على بندقية مصوبة إلى الأمام، جاهزة للإطلاق. لكنني لاحظت أيضاً في إحدى السيارات شرطياً يدخن سيكارة. أنا جازمة بأنني لن أرى مثل هذه المشاهد في المستقبل أبداً، ولا أرغب برؤيتها على الإطلاق».

لكني أظنها كانت قد سرت برؤيتها لهذا المشهد. كان مشهداً غريباً، مثيراً للفضول، ولعله كان مشهداً تاريخياً، ينذر ببداية لثورة ما بريطانية ؛ ولكنه كان في واقع الأمر نهاية الإضراب العام. كان هناك حقاً بعض الأصدقاء الذين ظنوا، في الأسابيع القلقة التي سبقت الإضراب، أن حرباً أهلية على وشك الوقوع. غدا المنزل في ميدان تافيستوك مركزاً لنشاط غير معتاد، فالعرائض تسوّد وتبيّض، والناس يجيئون ويروحون بالأنباء وهم على الدراجات الهوائية. وصرح السيد بريجارد، الذي يستأجر طابقاً في المنزل قائلاً على سبيل الفكاهة أنه يدرِّب على إطلاق النار على ليونارد بالذات. كان الأصدقاء يأتون للاستماع إلى مذياع الزوجين، وهو مصدر الأخبار الوحيد، في ما عدا الإشاعات.

واكتشفت فرجينيا أنها تختلف عن ليونارد، فقد ظنته متحدياً ساحراً، وقد ظنها مسيحية غير عقلانية ؛ هي تريد السلم وهو يريد النصر. كانت فرجينيا قد سُرّت حين انهار الأضراب ولكنها حزنت لمصير عمال المناجم الذين تركوا يكافحون بمفردهم، وشعرت بالأسى لما حسبته روحاً انتقامية تجلت في أصحاب العمل.

أنجزت في ٢٥ أيار «الزمن يمر» وهو القسم الثاني من روأية إلى الفنار. كانت ترجو الانتهاء من الكتاب برمته في نهاية تموز، ولكنها بالغت في تقدير قوتها مرةً أخرى. عادت فيتا من إيران بعد نهاية الاضراب وعادت معها متطلبات اجتماعية أخرى. قضت عطلة نهاية الأسبوع في غارزنغتون فالتقت فرجينيا هناك روبرت بريجيز R. Bridges، وجرى أيضاً لقاء مع إج. جي. ويلز. كانت قد التقته سابقاً، وليونارد يعرفه جيداً، ولكن هذا اللقاء كان مطولاً، وكان كذلك مثيراً للاهتمام. إن كلا الكاتبين غير معجب بكتب الآخر، وكانت فرجينيا قد أفصحت عن آرائها في هذا الشأن علناً، إلا إنهما انسجما انسجاماً حسناً في هذا اللقاء. رأت فرجينيا في ويلز مزيجاً غريباً من الفقاعة الفارغة والحديد الصلب. وتخرص هو بأقاويل عن توماس هاردي وهنري جيمز، ولخص خططه لوضع نظام جديد للأسبوع يتألف من عشرة أيام بدلاً من سبعة، دون أن يفطن إلى أن ماكس بيربوم M. Beer-bohm قد سبق له أن غرس هذه الفكرة فيه. بعد هذه اللقاءات كان لفرجينيا أن تحظى بلقاء آخر يعني الكثير جداً لها، وهو لقاء توماس هاردي. وأظن أنها كانت تحترم هاردي أكثر من احترامها لأيٍّ من الكتاب الأحياء، وقد أحست بالسرور حين سمعته يستحسن كتابتها «القارىء العمومي». كان ذلك اللقاء ناجحاً، وإن كانت لم تستطع، كما هي العادة عند لقاء العظماء، أن تسأل السؤال الذي كانت تود أن تسأله أو تحصل على الجواب الذي كانت تود أن تحصل عليه.

قدمت لندن في صيف ١٩٢٦ مغرياتها المعتادة، ولكن فرجينيا، وقد تذكرت تجربتها في السنة الماضية، أخذت تمارس شيئاً من ضبط النفس، وكانت الفعاليات أقل إنهاكاً مما كانت عليه في الصيف الماضي. مع هذا أصيبت «بانهيار عصبي لم يدم طويلاً» حين كانت في قرية رودميل في نهاية تموز. أما ملذات الصيف (وكان آب شهراً جميلاً)، فقد أفسدتها هي والمقتنيات الجديدة ما كان سائداً من حساسية عصبية. كان من الممتع

بالتأكيد أن أكسبتهما رواية «السيدة دالاواي» وكتاب «القارىء العمومي» مرافق صحية وماءً ساخناً[1]؛ لم يكن في المنزل حتى ذلك الحين إلا خزان أرضي بدائي، وحين كان الزوجان يغتسلان كان ذلك يتم في مغسلة من الصفيح عمقها لحد الفخذ في أرضية المطبخ. خطط ليونارد لإنفاق جزء من ثروتهما الجديدة على مملكته الخاصة، ألا وهي الحديقة، في حين أرادت فرجينيا أن تخصص كلها لرفع مستوى الراحة المنزلية؛ فحدث احتكاكٌ ما. كان القلق والمصاعب والتوترات هي السائدة على العموم في ذلك الحين. كانت الكاتبة تحاول إنهاء روايتها «إلى الفنار» وكان إنهاء أية رواية يلقي على عاتقها متاعب كبيرة. أصابتها في أيلول نوبات من الاكتئاب العميق، فوصفت نفسها في يومياتها بقولها إنها كانت خلال تلك الكآبة «كالمرأة العجوز الرثة المولولة القبيحة المغرورة الثرثارة العديمة الكفاءة التي لا جدوى منها». ومن ثم تراءت لها الزعنفة تقوم منبعثةً من بحرٍ فسيح فارغ، فكانت تستيقظ في الصباح الباكر وهي تشعر بقنوط مطبق.

وعلى الرغم من هذه العقبات المزعجة كانت رواية «إلى الفنار» تتقدم تقدماً حسناً. كانت فرجينيا تكتب باندفاع ويسر صباح كل يوم، لتنهي كتابة صحيفتيها المخصصتين لليوم الواحد. ومع أنَّ أملها في الانتهاء من الرواية بحلول أيلول كان أملاً جامحاً فقد بلغت مرحلة إعادة الكتابة في تشرين الثاني، وكانت تخطط في الوقت عينه لعمل نقدي آخر في الآداب ـ عمل يعقب «القارىء العمومي». أخيراً، وفي أوائل ١٩٢٧ كانت رواية «إلى الفنار» جاهزة لكي يقرأها ليونارد، فاستحسنها، وبحلول آذار من ذلك

(١) «نحن ننصب خزانين للماء، أحدهما دفع حسابه من رواية السيدة دالاواي = والآخر من كتاب القارىء العمومي: كلاهما مهدى إليكِ». (من رسالة فرجينيا إلى فيتا في ١٧ شباط ١٩٢٦). وقد قيل مراراً إن مسودات روايات فرجينيا كانت تخصص لاستعمال وضيع في مراحيض منزلها في قرية رودميل. أما الذي أذكره شخصياً فهو أن بروفات المطبعة كانت هي التي تجهز للاستعمال، وهي أكثر ملاءمة للغرض لأسباب مختلفة.

العام كانت مسودات المطبعة جاهزة ومعدة للطبع.

شهدت سنة ١٩٢٧ تطوراً جديداً في حياة بعض المقربين من فرجينيا ففي أوائل السنة ذهب دنكون إلى كاسيس حيث كانت تقيم أمه وهناك سقط صريع المرض. ارتفعت درجة حرارته على نحوٍ ينذر بالخطر، وبلغ فانيسا أنه مصاب بالتيفوئيد. بدا ذلك كالتكرار للمفزعات القديمة. لجأت فانيسا بالطبع إلى فرجينيا وليونارد، وبمساعدتهما رزمت حاجاتها وسوّت شؤوناً لها كانت معلقة في لندن وذهبت تصطحب ابنتها أنجليكا وخادمتها إلى كاسيس خلال ثمانية وأربعين ساعة من تلقي الأنباء. وصلت فوجدت دنكون قد قطع شوطاً كبيراً نحو الشفاء، ولم يكن مرضه هو التيفوئيد، لكنه كان ضعيفاً جداً. أقامت فانيسا لنفسها مكاناً في كاسيس، فقد اكتشفت أن من الجنون البقاء في إنكلترا خلال أشهر الشتاء، وأن كاسيس مدينة رائعة لرسامة مثلها. وفي الحال أعلن كلايف عن نيته في الالتحاق بهما. وفي ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٧ كتب هذا إلى فانيسا يقول إنه سيكتب أخيراً ذلك الكتاب بشأن الحضارة الذي جرى التخطيط له من أمد طويل ليكون جزءاً من رائعته «عهد النهضة الجديد»، كما أضاف يقول إنه تعيس للغاية. شعر أنه لا يستطيع راحةً إلا إذا التحق بفانيسا ودنكون في كاسيس. كان سبب تعاسته أن علاقته الطويلة مع ماري هاجنسون أخذت تقترب من نهايتها. لا يهمنا هنا ظروف ذلك الانفصال باستثناء القول أن الفصل لم يتم بسهولة، وسبّب تعاسة عظيمة لكلا الطرفين.

كان كلايف يرى في فرجينيا نموذجاً لعدم الائتمان وعدم الكياسة. لذا فإن من الطريف أن يلجأ إليها، وهو في مفترق الطرق هذا، طلباً للتعاطف والمشورة عن الأزمة التي يمر بها، وكانت أخطر أزماته من وجوه متعددة. وقامت ماري هاجنسون أيضاً، وهي تعرف أن فرجينيا لم تزل من أهم الأشخاص في حياة كلايف، بالاتصال بها هاتفياً لترجو أن نهدىء من روع

كلايف، وكان في ذلك الحين في حالة هياج ويتكلم كلاماً متهوراً في الحفلات وينعى على نفسه البؤس الشديد. وهكذا أمست فرجينيا موضع ثقة الطرفين.

وكتبت فانيسا إلى أختها تقول: «إنك ستخلقين لنفسك المتاعب مع كلا الشخصين الرئيسيين، فهذا هو ما يحدث للمرء دائماً». وكانت على صواب في هذا تماماً. كانت فرجينيا ذاتها تعاني المتاعب. أما الذي حدث فليس واضحاً كل الوضوح. يبدو أنها عقدت مقابلة طويلة مع كلايف. جاء وتناول الشاي ووصف لها الوضع وطلب منها النصح. هل ينبغي له أن يترك ماري ويغادر لندن؟ هل ينبغي له الذهاب إلى كاسيس وكتابة كتابه؟ رأت فرجينيا أن هذا ما يجب عليه أن يفعله. لم يكن ينال إعجابها ما كانت تظنه من تأثير لماري على كلايف؛ ولم تكن ترى أن من الخير له الاستمرار في الدوامة الاجتماعية الحاشدة بحفلات العشاء الأنيقة وعطلات نهاية الأسبوع الباذخة، تلك الدوامة التي كانت بنظر فرجينيا هي محيط ماري الطبيعي.

أظن أن فرجينيا اختلقت لماري هاجنسون شخصية من خيالها ـ شخصية المرأة الساطعة اللعوب المعنية بشؤون الدنيا، وهذه شخصية بعيدة عن الحقيقة كلياً. كانت ترى فيها، على حد قول ماري نفسها، «متصنعة تافهة لا همّ لها سوى الأزياء» فوجدته حكماً ظالماً يحز في القلب. ويتضح في يوميات فرجينيا ذاتها ورسائلها أنها وجدت أحياناً أن حكمها كان ظالماً حقاً، كما أنها بهتت مما اكتشفته من صفات أخلاقية سامية وسجية جادة في صديقة كلايف؛ مع هذا كانت الصورة الخيالية التي رسمتها في ذهنها صورة حقيقية رغم كل شيء فاعتمدتها في المناسبة الحالية. ومما لا شك فيه هو أن الذي تراءى لماري بعد أن طلبت من فرجينيا العون أن هذه كانت تتآمر ضدها عمداً على نحو خبيث. حدثت بعض المراشقات والمهاترات، أما أثر

ذلك الصدام فقد كبته وصول غير متوقع إلى المنزل، فقد جاء إدوارد ساكفيل - ويست، وهو ابن عم فيتا وصديق جديد لفرجينيا، وجلس بينهما، وهكذا وإذ كانت إحداهما تحملق بالأخرى غضباً أديرت أكواب الشاي ودارت المحادثة المؤدبة عن الكتب حتى غادر ذلك الزائر المفاجىء أخيراً. عندئذٍ انطلق الكلام بين السيدتين بنبرة صاخبة، ولكنه انتهى بتحديد الثقة والصداقة بينهما. فقد دحضت ماري هاجنسون ما اتهمت به من أن اهتمامها بالملذات الدنيوية هو الذي يقود كلايف إلى طريق الضلال؛ وتأثرت فرجينيا أشد التأثر واقتنعت بإخلاص ماري الواضح فافترقتا صديقتين.

ولا تهمنا بقية الحكاية باستثناء أن كلايف، ذهب بعد تردد، إلى كاسيس وستلاقيه فرجينيا هناك في نهاية العام. وفي شباط نظر الزوجان وولف في أمر الذهاب إلى أمريكا لإلقاء المحاضرات، ثم تخليا عن الفكرة إذ وجدا أن النفقات الشخصية ستأتي على أجور المحاضرات كلها. عندئذ فكرا بالذهاب إلى اليونان، وأخيراً توصلا إلى حل وسط بالذهاب إلى صقلية والتوقف في كاسيس. ولنا أن نحذف تفاصيل هذه الرحلة سوى ما قيل في أن فرجينيا أخذت تدخن خلالها السيكار والغليون ولم أجد دليلاً على هذا.

أسرّت فرجينيا ليومياتها فقالت: «لا أظن أنني استمتعت في حياتي أبداً بشهر واحد بقدر هذه المتعة»، وذكرت الشيء ذاته إلى فانيسا في سلسلة من الرسائل الحماسية وصفت فيها أسفارها. قرأت فانيسا الرسائل جهراً، وهو ما كانت تفعله في العادة برسائل فرجينيا، فأخذ كلايف، الذي كان يقيم يومئذٍ في كاسيس ولا يتقدم كثيراً في كتابه عن الحضارة، ينقل تفاصيل معينة عن الرسائل حين عاد إلى باريس حيث استُهزىء بحماسة فرجينيا، أو هذا ما اعتقدته هي بالذات. غضبت من ذلك غضباً شديداً

حتى أنها قالت إنها لن تكتب مزيداً من الرسائل إلى أختها بعد الآن. ولحسن الحظ لم تصر على عزمها هذا، وفي الحال جرى تبادل الخطابات التي لا تخلو من الأهمية. كتبت فانيسا من كاسيس في ٣ أيار :

«إن الكتابة لك هي من أعمال البطولة. فقد أخذت أنجليكا قرطاسيتي كلها لكتابة قصيدة مطلعها (طير السمّان يقفز على رفراف النافذة). ما أن استنقذت صفحة واحدة منها حتى جلست والهوام يتطاير بجنون في دوائر من حولي وحول المصباح. لا يمكنك أن تتخيلي مشهداً شبيهاً له. وذات ليلة طرق مخلوقٌ ما على النافذة طرقاً حاداً حتى أن دنكون قال : من هذا؟ فأجابه روجر : مجرد خفاش أو طير. ولكنه لم يكن إنساً ولا طيراً، بل فراشة ضخمة عرضها من الوسط نصف قدم بالضبط، وهذا حرفياً. أمضينا وقتاً فظيعاً معها. لم تدعني غريزة الأمومة فيّ، التي تستهجنينها كثيراً، أن أتركها وشأنها. [كان صغار فانيسا من المتحمسين لجمع الفراش والهوام حماسة الوالدين والأقارب من قبلهم]. أدخلنا الفراشة، واحتفظنا بها، وحقنّاها بقنينة كاملة من الإيثر اشتريناها من الصيدلية، ولكنْ دون جدوى. فأخذناها إلى الصيدلي، فخدّرها بالكلوروفورم لمدة يوم واحد، ولكنْ دون جدوى أيضاً. أخيراً ماتت أسوأ ميتة، بل هلكت، فخبطتها، وها هي الآن فراشة أخرى في المجموعة! إنها نموذج أفضل من غيرها. هذه الفراشات الضخمة الملونة جميلة جمالاً خارقاً للعادة ولكنها شائعة هنا على ما أحسب. أعتقد أننا سنلوم من سبقنا لأنهم لم يقتنصوا مثل هذه الأنواع بأي ثمن، فعليّ إذن أن أقوم بهذه العملية شخصياً. ثم تذكرت شيئاً : ألم يحاول فيبر Fabre إجراء

التجارب على هذا المخلوق بالذات فأجتذب ذكور الفراش في الحي باحتجاز فراشة أنثى واحدة في غرفةٍ ما؟ وهذا كما فعلناه نحن الآن تماماً. لذا قد يمتلىء البيت بهم سريعاً.

عزيزتي أنك ستقولين لي إن هذا هو ما يحدث عند السماح للغريزة بأن تلعب دوراً في العلاقات الشخصية. ما أكثر الكلام الذي أستطيع أن أقوله عن غريزة الأمومة، ولكنْ ما أكثر الكلام الذي أستطيع أن أقوله كذلك عن مايكل أنجيلو ورفائيل. ليتك تكتبين كتاباً عن غريزة الأمومة».

أما جواب فرجينيا على هذه الرسالة فقد انتهى بالفقرة الآتية :

«بالمناسبة : فتنتني جداً حكايتك عن الفراشة، حتى أنني أكتب قصة عنها. لم أستطع التفكير بشيء سوى بك وبالهوام ساعات طويلة بعد قراءة رسالتك. أليس هذا غريباً؟ كأنك تثيرين فيّ حس الأدب كما أثير فيك حس الرسم كما تقولين. يا إلهي! ستضحكين كثيراً من المقاطع الصغيرة الخاصة بالرسم في رواية إلى الفنار!».

كانت رواية «إلى الفنار» قد نشرت في ٥ أيار. وحين عادت فيتا من إيران وجدت نسخةً ما بانتظارها. كانت فرجينيا قد وعدتها بإعداد كتاب جديد جاهز لها. كانت تلك النسخة على شكل رزمة مغلفة وعليها إهداء : «إلى فيتا، من فرجينيا التي تعتقد أن هذه أحسن رواية كتبتها على الإطلاق». عجبت فيتا من هذا الغرور الذي لا يخجل، ولكنها حين فتحت الرزمة ليلاً لتقرأ الكتاب في الفراش وجدته ورقاً أبيض، نسخةً زائفة. غير أنها كانت قد أرسلت نسختين حقيقيتين إلى كاسيس، إحداهما إلى فانيسا والأخرى إلى دنكون. لقد زالت رغبتها بقطع المراسلة مع شقيقتها زوالاً

تاماً، وغدت على أشد الشوق إلى رسالة منها. وفي ١٥ أيار لم تعد قادرة على تحمل التوتر أمداً أطول فكتبت إلى فانيسا :

«يا أعز عزيزاتي، ما من رسالة منك ـ لكني أستطيع أن أتخيل الوضع ـ المشهد : بعد العشاء :

فانيسا تخيط ودنكون لا يفعل شيئاً.

فانيسا : ترمي بخياطتها جانباً : يا للمسيح! ها هي أمامي رواية إلى الفنار! لم أصل إلا إلى صفحة ٢٦ وهناك ٣٢٠ صفحة. إذن لا أستطيع الكتابة إلى فرجينيا لأنها تتوقع أن أخبرها برأيي.

دنكون : حسناً، قولي لها إنك تعتبرين الرواية عملاً رائعاً فذاً.

فانيسا : لكنها ستكتشف الحقيقة بالتأكيد. الكتّاب يعرفون دائماً. ثم أنها ستريد أن تعرف لماذا أعتبرها رائعة وفذة.

دنكون : حسناً يا فانيسا، أخشى أني لا أستطيع مساعدتك لأني لم أقرأ حتى الآن إلا خمس صحائف فقط، والواقع أني لا أرى إمكانية للقيام بقراءة كثيرة هذا الشهر، أو في الشهر التالي، بل حتى إلى الكرسمس.

فانيسا : أوه، المسألة بسيطة وطبيعية بالنسبة لك. ولكنْ يجب عليّ أنا أن أقول شيئاً. لا أدري والله من هم هؤلاء الناس في الرواية (تقلّب الصفحات عبثاً). أظن أني سأضع جدولاً زمنياً. هذه هي الطريقة الوحيدة : عشر صفحات يومياً مدة عشرين يوماً تساوي...

دنكون : (يقاطعها) لكنك لن تتمكني من قراءة عشر صفحات يومياً باستمرار.

فانيسا : (باكتئاب) صحيح، أظن أني لن أتمكن من ذلك. حسناً إذن... سأمسك بالثور من قرنيه وأكتب إلى فرجينيا وأقول لها إن روايتها عمل رائع. (تتناول المحبرة وتتهيأ للكتابة، لكنها تجد المحبرة مليئة بالحشرات

الميتة والتي تحتضر، أوه، دنكون! ماذا فعلت بالمحبرة؟ أتستعملها لصيد الذباب؟ لكنّ هذا صرصر! نعم صرصر. فالصراصر لها إثني عشر رجلاً، الذباب لها ثمانية أرجل فقط. هل تريد أن تقول إنك لا تعرف ذلك؟ حسناً، أظنك من الذين يحسبون العنكبوت حشرة. لو أنك ترعرعت في كورنوول لعرفت أن العنكبوت ليس حشرة؛ ولا هو من الزواحف. إنه شيء غريب، أعرف ذلك. على أية حال، لا أستطيع الكتابة إلى فرجينيا لأن الحبر ليس إلا كتلة من أرجل الصراصر والعناكب - والواقع لا أعزف ما هي. وإذا كنت تستعمل المحبرة لصيد الذباب فكيف يمكن لفرجينيا أن تتوقع، أو تتمنى، أن أكتب لها - (وأخذا يبحثان مرةً أخرى في أمر العناكب). الخ. الخ».

كانت فانيسا، في واقع الأمر، قد كتبت سلفاً:

«أظن أنني غير قادرة، دون الآخرين جميعاً، على الحكم حكماً جمالياً على الرواية - ولا أعرف سوى أن لديّ شعوراً بشأنها يكمن في مكانٍ ما ويحسبها عملاً فنياً وهو شعور قد يتبلور بالتدريج ليكون شعوراً قوياً جداً، وهذا إلى جانب المشاعر الأخرى التي أثرتها فيّ - ولعلي الوحيدة التي تستطيع الشعور بها إلى هذا الحد - وقد تكون مشاعر لا تهمك ولكن قد يهمك أن تعلمي أنك جعلتني أتحسس بها إلى مدى بعيد. كذلك فإنها تظهر شيئاً ما بشأن المزايا الجمالية في فنك الطريف في الكتابة. على أية حال يبدو لي أنك رسمت في القسم الأول في الكتاب صورة للوالدة هي أكثر شبهاً بها بالنسبة لي من أي شيء يمكن أن أتخيله ممكناً على الإطلاق. قد يكون من المؤلم بعثها حيةً هكذا من بين الموتى. أنت تجعلين المرء يستشعر الجمال الفائق لسجيتها

الشخصية، ولا شك أن القيام بهذا هو من أصعب الأمور طراً. إن الأمر أشبه بلقائها مرة أخرى، وقد كبرنا نحن، وها نحن نلاقيها على قدم المساواة ويبدو لي أن من أكثر أفانين الخلق إثارة للدهشة أن يكون من الممكن رؤيتها على هذا النحو ـ وأنت قد صورت الوالد أيضاً بالوضوح نفسه، ولعل هذا الشيء ليس بالشيء الصعب جداً، وقد أكون مخطئة. هناك في ما يتعلق به الكثير مما يمكن التشبث به لرسم صورته، وقد أعطيت فكرة حقيقية عنه. وهكذا فأنت بنظري فنانة عظمى في رسم الأشخاص، وقد ذهلت وأنا أجد نفسي وجهاً لوجه أمام ذانك الشخصين مرة أخرى، حتى أنني لم أعر اهتماماً يذكر لأي شيء آخر في الرواية. لم أستطع في اليومين الأخيرين أن أولي اهتمامي لشؤون الحياة اليومية إلا قليلاً. تكلمنا، دنكون وأنا، عنهما، فلدى كل منا نسخته، وذلك كلما استطعنا الانفراد معاً، أما روجر فيغضب جداً لأنه خارج نطاق هذا الموضوع، لذا لا نتكلم عند وجوده معنا».

على أن روجر تمكن من الكتابة إلى فرجينيا بعد ستة أيام :

«أنت لا تريدين نقداً مني، ولا تتوقعينه، فأنا لست خبيراً. هذا وقد اعتقدنا، فانيسا وأنا، أنك نجحت، دون أن يمسّك سوء ولو أنك كنت مجهدة وقلقة في هذا العمل. أنا أعرف أني سأخلق بلبلة.

لن تحصلي مني على نقد إذن، ولكني أقول، إن هذه الرواية هي أحسن ما كتبتِ، وهي أفضل من «السيدة دالاواي». أنت لا تكترثين الآن بحصول الأحداث في وقت واحد بل

تقومين بالذهاب والإياب في الزمان بإنحناءٍ فائق لكل لحظة من لحظات الشعور.

أنا واثق من أن هناك الكثير مما لم أفهمه، وحين أراجع المسألة مع مورغان سأجده قد اكتشف عدداً كبيراً من المعاني الخفية. أنا مثلاً يتراءى لي أن الوصول إلى الفنار له معنى رمزي يخفى عليّ. ولكنْ هل يهم هذا؟».

أجابت فرجينيا عن هذه الرسالة وعبّرت عن أسفها لأنها لم تهد الرواية إلى روجر واعترفت بجميله على إرشادها في النواحي الجمالية ووضعها على الدرب الصحيح. وأضافت:

«لم أعن شيئاً بالفنار. إن على المرء أن يرسم خطاً مركزياً في وسط الكتاب لكي يجمع أطراف التصميم الفني كلها حوله. كنت أعرف أن ذلك سيثير مشاعر شتى، فلم أتزحزح لأنني واثقة أن الناس سيجعلون من المسألة خزاناً لعواطفهم - وهذا ما جرى، فهذا يظن أن الإشارة إلى الفنار تعني شيئاً وذاك يظن أنها تعني شيئاً آخر. وأنا لا أستطيع التحكم بمسألة الرمزية إلا على هذا النحو الغامض والتعميمي. ولا أدري هل أن هذا خطأ أم صواب؛ ولكنْ ما أن يقال لي معنى الشيء حتى يغدو كريهاً لي».

وكتب كلايف، وكان قد عاد إلى لندن، يقول لفانيسا في أيار إن المدينة تبدو كئيبة جداً وحزينة. «فرجينيا وحدها سعيدة سعادة سامية، ولها أن تكون كذلك، فروايتها تحفة عظيمة». وقد عبّر النقاد على العموم عن آراء مشابهة، وكتب عدد من الناس رسائل تحمست للرواية، ولو أن أحدهم اشتكى من أن وصف الكاتبة للنباتات والحيوانات في منطقة Hebrides جاء وصفاً غير دقيق كلياً. وقد بيع من الكتاب أكثر مما بيع من كتب

فرجينيا السابقة ـ ٣٨٧٣ نسخة في السنة الأولى، (واشترت «جمعية رجال البحر الثقافية» نسختين منه).

في ذلك الصيف اقتنت الكاتبة سيارة خاصة، وحصلت على عاشق لها. كانت السيارة إضافة مهمة إلى حياتها. أما العاشق فهو فيليب موريل (زوج أوتولين). كان رجلاً تقبله النفس، مطبوعاً على الغرام، ولما يزل وسيماً وذا مقام كريم، ولكنه مع ذلك كله كان سخيفاً بعض الشيء (أو أن فرجينيا في الأقل وجدته كذلك). أخذ يتعقبها زمناً قصيراً على نحوٍ ناشز بزيارات غير متوقعة ورسائل حب مترددة ؛ فراوغته دون صعوبة كبيرة. لم يثر ذلك على الإطلاق أي شعور بعدم الارتياح لدى فيتا أو لدى ليونارد.

اعتبر الزوجان السيارة الجديدة ترفاً باذخاً. وفي الحال غدا ليونارد سائقاً ماهراً ومن العارفين بشؤون السياقة ؛ وتلقت فرجينيا أيضاً دروساً في السياقة وظنت أنها تقدمت فيها تقدماً طيباً. ولكنها بعد أن دخلت بالسيارة، وكانت من نوع Singer في دغل أقلعت عن سياقها، مع أن الحادث لم يسبب ضرراً كبيراً، وقررت أن تترك السياقة إلى غيرها. وجدت فرجينيا أن التجول بالسيارة شيء ممتع للغاية. إن الريف كله في مقاطعة ساسيكس، بقلاعها وشواطئها البحرية وبيوتها العظيمة صارت فجأة في متناول الوصول ؛ كذلك صارت بالطبع جارلستون وبيت مينارد كينز الجديد في تلتون Tilton. وما لبث استعمال السيارة أن غدا متكرراً للأغراض الاجتماعية، حتى أن فانيسا وضعت لوحة كبيرة عند البوابة المؤدية إلى مسار جارلستون عليها كلمة (خروج) بحروف ضخمة، فأنست فرجينيا بذلك.

أما الإضافة المهمة الأخرى في حياة فرجينيا فقد كانت آلة الحاكي (الغرامافون). لا أظن أن هذه الآلة كانت من مقتنيات الزوجين حتى اشتراها ليونارد، وكانت من نوع باهظ الثمن، وكان يومئذٍ يقدم عروضاً للأسطوانات إلى مجلة The Nation. كانت فرجينيا تتمتع بحماسة ذائقة

متنوعة، فطوّرت بوجود الحاكي في المنزل اهتماماً خاصاً برباعيات بيتهوفن المتأخرة، وقد ساعدتها هذه الرباعيات على التأملات التي أثمرت أخيراً رواية «الأمواج».

كانت ملذات السياقة من ملذات الريف، أما الحاكي فمن ملذات المدينة، وكلاهما كان عنصراً في خريف هو من أسعد فصول الخريف في حياة فرجينيا كلها. على أنّ هذا لا يعني أن الزوجين كانا بلا منغصات حين عادا إلى منزلهما في ميدان تافيستوك في لندن في نهاية أيلول. كانت تتعبهما المعضلة المزمنة الخاصة بالشاب الذي يعمل في مطبعة هوغارث. كان هذا هو أنغوس ديفدسون وهو يعمل في المطبعة منذ ١٩٢٤. كان شاباً دمثاً ترتاح له النفوس. ولسوء الحظ لم يكن ليونارد يبحث عن الدماثة. وكانت فرجينيا قد كتبت إلى فانيسا في ١٩٢٦ تقول إن المطبعة ستسجل خسارة في تلك السنة، وناشدت أختها أن تطلب من ذلك الشاب أن يكون أكثر حيوية. ولا ريب أن فانيسا نقلت هذا الرجاء إليه، وكان يقضي معها ومع دنكون إجازة في البندقية. ولكنْ ما من رجاء يمكن أن يصحح وضعاً متوتراً بين ليونارد وأنغوس فيثير أحدهما أعصاب الآخر.

وذات صباح، في أوائل تشرين الأول ١٩٢٧، خرجت فرجينيا من مكتبها (الستوديو) الكائن خلف المنزل في ميدان تافستوك، ودخلت إلى مكاتب المطبعة فوجدت هناك ليونارد وأنغوس معاً. سألتهما عن الوقت.

أدركت في الحال أنها قد ذكرت إما ملاحظة جافية أو ملاحظة في الصميم. أحنت السكرتيرة، السيدة كارترايت، رأسها فوق آلتها الكاتبة ضاحكةً. ثم بان لفرجينيا أنها جاءت في المراحل الأخيرة من نزاعٍ ما فظيع. كانت في الواقع قد قاطعت مماحكة ابتدأها ليونارد بأن قال لأنغوس إنه وصل متأخراً عن ساعة العمل. لكن هذا أصرّ على إنكار التهمة وأصر ليونارد عليها فأخرج ساعته من جيبه. قال إنغوس إن ساعته أصح وقتاً

فدحض ليونارد قوله فرفض أنغوس أن يُدحض. كان ليونارد واثقاً مما يقوله وأنغـوس يشكك بذلك، وهكذا دواليك. ومـرّ الوقت على هذه الشـاكلة والجدال عن الساعة متواصل بين الاثنين حتى لم يبق أمامهما إلا الإسراع إلى الخارج لتدقيق الوقت بقراءة عقارب ساعةٍ ما، فمدت فرجينيا حينئذٍ رأسها من البـاب كمن ينفّذ إيعازاً من مخرج مسرحي هزلي وسألت عن وقت النهـار. كـان ليونارد وأنغوس في حـال من الانفعـال يمنعهمـا من الضحك، ولكن السؤال أنهى ذلك النزاع.

بعد ذلك ببضعة أشهر، أي في تشرين الثاني، اتفق أنغوس وليونارد على الانفصال، وكان ذلك اتفاقاً حكيماً، فأخذ الزوجان يتساءلان عندئذٍ أليس من الأفضل الانتهاء من الأمر كله بغلق مطبعة هوغارث ذاتها؟.

كانت فرجينيا، في بداية تشرين الأول، تتدفق ذهنياً، فهي تفكر بكتابين معاً : لديها من جهة ذلك العمل عن النقد الأدبي الذي سيكوّن المجلد الثاني من كتاب «القارىء العمومي»، الذي ظنت أنها ستبدأ به في قرية رودميل في شهر آب وتنتهي منه إذا واتاها الحظ في شهر كانون الثاني، ولديها من جهة أخرى العمل على تصور كتاب كانت تتخيل بغموض أنه سيتناول إمرأة وحيدة تضع كتاباً عن أفكارها عن الحياة، أو يتناول حياة شبه صوفية، عميقة جداً، لإمرأةٍ ما، ويكون نوعاً من مسرحية كما تراءى لها في شباط ١٩٢٧. ومن ثم قامت فانيسا، في أيار، بإعطاء هذا المفهوم شكلاً أكثر تحديداً حين كتبت رسالتها عن الفراشات. كان يتصل بهذا كله ما كان لدى فرجينيا من فكرة عن كتاب عن «حياة المغمورين»، أو عن أصدقائها، وكانت هذه ثيمة مفضلة لديها. تبلور هذا بدوره إلى شيء أكثر تحديداً في آذار ـ «عرائس جيسامي» ـ وهي صورة هازلة للرواية الجدية التي لم تزل فكرة غير منتظمة في مراحلها الاولى في الذهن. ستكون هناك امرأتان وحيدتان في طابق علوي من بيت يطل على إسطنبول. كانت الفكرة لم

تزل ثانوية، لقضاء الوقت، فإذا بها تظهر فجأةً بشكلها النهائي. كتبت فرجينيا إلى فيتا :

«كنت يائسة البارحة صباحاً. ألا تعرفين ذلك الكتاب اللعين الذي يستحلبه من ثديي استحلاباً كل من رايلاندز وليونارد قطرةً فقطرة؟ أدبٌ روائي أو شيء من هذا القبيل. لم أستطع أن أخرج كلمة واحدة مني ؛ وأخيراً وضعت رأسي بين يديّ ؛ غمست قلبي في الحبر، وكتبت على نحوٍ آلي على صحيفة بيضاء هذه الكلمات : أورلاندو ـ سيرة حياة. وسرعان ما أفعم بدني بالبهجة وعقلي بالأفكار. كتبت سريعاً حتى الساعة الثانية عشرة. ولكنْ إسمعي ؛ ماذا لو فرضنا أن أورلاندو سيكون فيتا؟. . ».

وقد كان فيتا حقاً، كما كانت فرجينيا تعرف ذلك جيداً، إذ أنها أسرّت إلى يومياتها تقول إن الكتاب :

«سيرة حياة تبدأ في عام ١٥٠٠ للميلاد وتستمر حتى يومنا هذا وتدعى أورلاندو : أي فيتا ذاتها ولكنْ مع تغيير واحد فقط إذ ينقلب أورلاندو من جنسٍ إلى آخر. وأظن أنني سأقوم بتسريع الإنجاز لهذا العمل أسبوعاً واحداً، إكراماً لنفسي. . . ».

وغدا إكرام النفس انغماساً مفرطاً في العمل. تركت فرجينيا كتابتها في الأدب الروائي وأسرعت تكتب «أورلاندو» بحالةٍ من التجلي السامي.

والكتاب مثير للاهتمام لما فيه من وقائع السيرة من جهة، ولأنه يخلّد حب فرجينيا لفيتا من ناحية أخرى، ولأننا كذلك نستطيع أن نقتفي آثار عددٍ من عناصره في أحداث من حياة فرجينيا اليومية ذاتها في تلك السنين ؛ ففي حين نجد أن رواية «إلى الفنار» قد صُنعت من عواطف شباب

الكاتبة ومآسيها فإن كتاب «أورلاندو» يؤلّف من مادة تدونها على عجل في يومياتها: فيتا في نول Knole وهي تريها المبنى ـ آلاف الأمتار المربعة منها ـ متبخترةً بفستان تركي تحيط بها الكلاب والأطفال؛ عربة تجلب الخشب كما جلبت العربات الأخشاب منذ قرون لتطعم النيران العظيمة في البيت؛ فيتا تفتش في منضدة كتابتها بحثاً عن رسالة من درايدن؛ فيتا تبحر في المتوسط في كانون الثاني ١٩٢٦ مع بحارة بشرائطهم الذهبية قرب تريسته؛ فيتا تقف بمنتهى البهاء وهي تزدهي بجواهر الزمرّد والياقوت؛ وصفٌ لفيتا وفيوليت تريفوسيس Trefusis وهما تلتقيان أول مرة على الثلوج؛ فيتا تُلبس ابنها ملابس صبيٍّ روسيٍّ فيعترض قائلاً: «لا أريد هذا فهو يجعلني شبيهاً ببنت»؛ فيتا تخطب ودها دنيا الأدب وتحيطها باللطف الرقيق؛ وكذلك ما يزجى من تكريم إلى فرجينيا نفسها[1].

في أوائل أيلول أقام مينارد كينز حفلة في منزله في تلتون. فقام جاك ستيرد (سيرجون في ما بعد) بتمثيل دور الممثلة الأولى في أوبرا إيطالية، والحاكي يجود بالكلمات والألحان. أتي أحد المدعوين بقصاصة من جريدة ما، وفيها صورة لفتاة جميلة أصبحت رجلاً، فصار هذا النبأ حديث فرجينيا الرئيسي في البقية الباقية من تلك الأمسية.

لم يسبق لفرجينيا قط أن عملت بتلك السرعة الفائقة. فقد زجت بكل ما تقع عليه يدها على نحوٍ جميل جداً، حتى لكأن ذلك كان أمراً لا مفر منه على الاطلاق. وفي ذلك الخريف، «ذلك الخريف السعيد على وجه الخصوص» نحّى أورلاندو كل شيء آخر جانباً.

مع ذلك وجدت فرجينيا بعض الوقت لكتابة مقال لمجلة «أتلانتيك

---

* في «أورلاندو» أيضاً تسجيل لشيء من مواقف فرجينيا وهي بصحبة فيتا. . . وفيه أيضاً ميل فيتا إلى التطرق إلى الأصل المتواضع لأجدادها الأسبان». (أنظر: أورلاندو، ص ٨٠).

الشهرية» عن إي. إم. فورستر. كان هذا هو الكاتب الانكليزي المعاصر لها الذي تكن له الاحترام. لم يكن رأيه عن العالم مغايراً لرأيها. كانا يحبان الأشياء ذاتها ويمجّان الأشياء ذاتها. ولكنْ كان يفصلهما مع ذلك حاجز كبير. فقد توطدت سمعة فورستر كروائي قبل أن تنشر فرجينيا شيئاً، ولكن عطاءه في الأدب الروائي كان قد انتهى حين أخذت فرجينيا تعثر على السمة التي تميّزها حقاً، ولو أنها لم تكن تدرك ذلك. كان فورستر ينتمي إلى جيلٍ أقدم، ولم يكن مهتماً اهتماماً عميقاً بتجاربها في تناول الزمن وباستقصاءاتها داخل العقل، ولم يستطع التعاطف مع تلك التجارب. وقد بدت له قصة «حدائق كيو» وقصة «العلامة على الجدار» بمثابة «أشياء صغيرة جميلة» على حد قوله، ورأى في رواية «الليل والنهار» زقاقاً لا ينفذ، ولكنه دهش حين وجد الطريقة المستخدمة في هذه التوافه الأنيقة وهي تستخدم بنجاح في روايتي «غرفة يعقوب» و «السيدة دالاواي» وفي الرواية المفضلة لديه «إلى الفنار». غير أنه كان يرى أن الكاتبة تضحي بالشيء الكثير، وتبتعد عن السرد وعن الحياة.

كان أحدهما يخشى الآخر بعض الشيء. وأظن أن فورستر كان أسعد حالاً مع أبناء جنسه. كان يجد في أنثوية فرجينيا شيئاً مقلقاً، ويشعر أن هناك شيئاً ما يحفّ بها، شيئاً حاداً أكثر مما ينبغي وناقداً أكثر مما ينبغي. وقد قال عنها : «لا أظن أنها تهتم بمعظم الناس. كانت دائماً لطيفة معي، لكنني لا أظنها كانت شغوفة بي على وجه الخصوص، إن كانت هذه الكلمة هي الكلمة الصحيحة في هذا المجال». كان فورستر يحس بيسرٍ أكثر وهو بصحبة ليونارد، وكان هذا هو الذي حثه على إكمال روايته «رحلة إلى الهند» حين يئس الكاتب من إنهائها وظنها رواية فاشلة. وأظن أن فورستر كان يغار على نحوٍ ما من محبة ليونارد لفرجينيا. كان يشعر أن ليونارد لا يقدَّر حق قدره من لدن أصدقاء فرجينيا، وكان يسخط، أكثر مما يسخط ليونارد نفسه، من بروز الكاتبة المتعاظم ومن ميلها المتزايد إلى النظر إلى

ليونارد بصفته «مجرد زوج». مع هذا فثمة مودة بين فورستر وفرجينيا كانت تربطهما فقد شعرت فرجينيا بالامتنان من مديحه، كما أنها تحسست حين أخبرها قبل أن يخبر غيرها على الإطلاق بأنه قد انتهى أخيراً من روايته «رحلة إلى الهند»، وكانت كذلك تكن إعجاباً عظيماً بكتاباته.

مع هذا يمكننا أن نقول كثيراً بشأن ذلك. فقد أشادت فرجينيا في بحثها المعنون «السيد بنيت وشخصية السيدة براون» بفورستر باعتباره من الكتاب الشباب الذين ثاروا ضد ويلز وغالسوورثي وبنيت، ولكنها شعرت أيضاً بأنه آثر حلاً وسطاً على نحوٍ ما. فقد صانع الدمج بين حسّه المباشر لغرابة الشخصية ومغزاها وبين معرفة غالسوورثي مثلاً بقوانين المصانع ومعرفة بنيت بالمدن الكبرى.

وكتبت فرجينيا في ١٩٢٧ مقالتين قاسيتين شيئاً ما عن فورستر. كان قد اطلع على إحداهما قبل نشرها فأبدى اعتراضات حدت بفرجينيا بأن تشعر بالدهشة حين وجدت هذا الرجل المتعالي، المتمالك لنفسه، حساساً مثلها تجاه النقد، بل حتى أكثر حساسيةً منها.

في مقالتها الأولى المعنونة «هل الأدب الروائي فن؟» تناولت فرجينيا بالبحث كتاب فورستر النقدي الموسوم «بعض نواحي الرواية». وقد بدا لها الكاتب أنه مستعد تماماً لاطّراح متطلبات الفن جانباً أمام متطلبات «الحياة» أو ما يدعوه هو بالحياة؛ وكان من شأن موقفه هذا ألا يتيح له إلا القليل من الإنصاف لهنري جيمز.

> «ولكنْ، وعند هذه النقطة، قد يسأل التلميذ الملحاح: (ما هي هذه ـ الحياة ـ التي تظل تظهر على نحوٍ غامض جداً وقنوع جداً في كتبٍ تكتب عن الأدب الروائي؟ لماذا هي غائبة في النمط وحاضرة في حفلة الشاي؟ لماذا تكون المتعة التي نحصل عليها من النمط في رواية ـ الإناء الذهبي ـ أقل

قيمة من العاطفة التي يثيرها فينا ترولوب حين يصف سيدة تشرب الشاي في أبرشية؟ إن تعريف الحياة اعتباطيّ حقاً ويتطلب التوسيع)».

أجاب فورستر على مقالتها برسالة كتبها إلى فرجينيا قال فيها :

«إن مقالتك تلهمني بإجابة ذكية عاجلة. الحياة حقيقة غامضة. بالضبط. ولكنْ ماذا عن الكلام عن الفن؟ إن كل قسم من هذه الأقسام يؤدي إلى صندوق مغلق، أنيق الصنع، ضاع مفتاحه لسوء الحظ، وإلى أن تستطيعين العثور على رزمتك فيه سأتوقف أنا عن التفتيش عن رزمتي.

أنا أجد الأوربيين أعظم من الإنكليز لا لأن فلوبير قد ذاع صيته بل لأن تولستوي وغيره يمكنه أن يبث الحيوية في المقصلة مثلاً مثلما يبثها في موائد الشاي، ويستطيع التحكم بالأمزجة والأفعال التي تقودنا حياتنا الأليفة إلى الصدود عنها باعتبارها زائفة. لماذا تشتكين من عدم وجود ناقد في إنكلترا يمكنه أن يحكم على روايةٍ ما بصفتها عملاً فنياً؟ إن بيرسي لوبوك Percy Lubbock لا يكتب إلا هذا النقد. ومع هذا فإنه لا يرضيك على العموم. لماذا؟».

فأجابته فرجينيا تقول :

«يا عزيزي مورغان، أنا لم تلهمني رسالتك بجواب ذكي عاجل. ولكني أجيب : أنت تقول (إن كل قسم يؤدي إلى صندوق ضاع مفتاحه، وإلى أن تستطيعين العثور على رزمتك سأتوقف أنا عن التفتيش عن رزمتي).

حسناً ـ لكني لا أكتب كتاباً عن الأدب الروائي. لو كنت

كذلك لكان عليّ التفتيش قليلاً. ويبدو لي، بصفتي ناقدة، وهذا ما أتصف به، أن مما يقع ضمن منطقتي أن أشير إلى أن كلا الرزمتين مفقود.

أنا أتفق معك بأن تولستوي (يبث الحيوية في المقصلة) إلخ. ولكنْ بواسطة الفن على ما أظن ؛ وأعترف أني لا أستطيع تعريف الكلمة، كلمة الفن.

نعم، إن بيرس لوبوك (لا يرضيني على العموم). ولكني لا أتفق معك بأنه ناقد عبقري. وأنا لا أسميه إلا ناقداً متحذلقاً، قديراً، وشديد العناية ولكنه لا يعرف ما هو الفن ؛ لذا، ومع أن طريقته في الحكم على الروايات كأعمال فنية تثير اهتمامي، فإن أحكامه ذاتها لا تثير اهتمامي. التوقيع ف.

أعلاه جواب رسمي وغير شخصي. لكني أقول بصورة غير رسمية وشخصية إني أخشى أن أكون قد آذيتك أو أزعجتك (ولعلي أتخيّل ذلك). فأنا لا أقصد هذا. والمقالة كانت قد اختصرت لكي تلائم مجلة The Nation فجاءت مركزة بثقلها. لكني آسفة جداً إذا سببت إزعاجاً».

والظاهر أن فورستر استطاع أن يطمئنها : إنها لم تسبب إزعاجاً، وإنما كانت مخطئة لا غير. وسواءً كانت على خطأ أم على صواب فإن مقالتها التالية، وكانت بعنوان «روايات إي. إم. فورستر»، قد سببت إزعاجاً له. إن الكاتبة تجد فيها كثيراً مما يدعو إلى الإعجاب ولكنها تجد فيها كذلك كثيراً مما يدعو إلى اللوم، بل تجد طريقته بأسرها معيبة.

بعد وفاة فرجينيا عاد فورستر في محاضرة جامعية له إلى الجانب الذي يخصه من ذلك الجدل. قال إن فرجينيا كانت تتمتع بصفات «الجمال» كلها، وكانت تختار انطباعاتها فتتلاعب بها كما تشاء، ولكنها ليست مبدعة

للشخصيات، وهي تفرض النمط فرضاً على كتبها، ولا تؤمن بقضية من القضايا الكبيرة إيماناً قلبياً. لذلك فإنها كانت تقف عند العتبة من ذلك الكهف السحيق، الكئيب، المسمى قصر الفن. وقال فورستر إن فرجينيا ظلت واقفة خارج هذا القصر ولكني أخاله قد حسبها لصيقة جداً بموضوعها فلا توحي بالراحة - لا توحي براحته هو على أية حال. وأظن أنها بدورها كانت ترى فورستر يقترب كثيراً من محراب الوعظ فيكون مثيراً للملل، ويقترب كثيراً من الجنائن المحرمة فيكون مثيراً للحرج، ولكنه كان ينقذ نفسه من هذين المصيرين في اللحظة الأخيرة. ويمكننا القول إن كلاً من الكاتبين كان معجباً بعمل الكاتب الآخر، ويجد كذلك في عمله كثيراً مما يدعو للاستهجان.

حين كانت فرجينيا تخوض جدالها ذاك مع فورستر وجدت نفسها مشتبكة في جدال آخر، من نوع مختلف تماماً، مع تي. إس. إليوت. لقد تحادثت مع الشاعر في شباط ١٩٢٨ مدة ساعتين عن الله. ولم تسجل تفاصيل تلك المحادثة لسوء الحظ. ولا شك أن المباحثة انطوت على فارق أكثر خطراً بكثير من الفارق الضئيل الخاص بطبيعة الرواية في المساجلة السابقة مع فورستر. كان إليوت قد اعتنق الكاثوليكية، فتغيّر الكون بأسره في نظره، ولم تعد حياته سوى هنيهة استعداد للأزلية. إنه قد أنقذ روحياً من أجل دخول الجنة، أما فرجينيا وليونارد فقد حلت عليهما اللعنة. والذي بدا لفرجينيا هو أن آراءه الدينية لا ينبغي أن تؤخذ مأخذ الجد. كانت تمازحه بخبث بشأن معتقداته، وبشيء من الصلف، وتتوسل إليه أن يشرحها لها، ولكنه كان يتقبل تلك الهجمات مبتسماً لا يعتريه الانفعال وغير مستعد للاشتباك. أما آراؤها هي فلم تتغير البتة، إنها، بعد إيمان موقت أيام الطفولة، كانت قد فقدت الإيمان بالدين السماوي، والتزمت بالغنوصية المعتدلة أحياناً والعدائية أحياناً أخرى، دون أن تلزم نفسها بأي قول مؤكد على الاطلاق. قد نجد في رواياتها عنصراً «دينياً»، إذا استعملنا الكلمة

بأوسع معانيها. كانت فرجينيا ميالة إلى «الصوفية» على حد تعبيرها، لكنها لم تؤمن بمعتقدات تريح البال. وكانت تبيح لنفسها أن تعتقد بالتأكيد أن الكون مكان غامض جداً ولكنها لا تبيح لنفسها الظن بأن هذا الغموض يتيح لنا الافتراض بوجود خالق أو حياة أخرى.

ومرت رواية أورلاندو بمراحل التراوح المعتاد التي مرت بها الروايات الأخرى، ولكن ضمن فترة زمنية قصيرة. بدأت فرجينيا كتابتها بعجالة عارمة. ثم فقدت الزخم. استنتجت بحلول كانون الأول أن «أورلاندو» رواية رديئة، وأنها لن تظهر، إن ظهرت على الإطلاق، حتى يحين الخريف. وفي شباط اعتقدت أنها منهيتها في الحال، ثم أنهتها حقاً في ١٨ آذار ١٩٢٨. فغادر الزوجان بعدئذٍ إلى كاسيس مرة أخرى، بسيارتها هذه المرة، فبلغا البحر المتوسط في ٢ نيسان. كانت عطلة ممتعة على العموم، ولو أن رحلة العودة عبر الجبال الشاهقة كانت محفوفة بالمغامرات. كتبت فرجينيا : «غالباً ما كنا نتعلق على حافة شعب من الشعاب والغربان تنظر إلينا بغمز. وغالباً ما كان بين العجلة اليسرى والسقوط إلى عمق ثمانين ألف قدم، لا أكثر من شعرة». وواقع الأمر أنها كانت رحلة مثيرة للأعصاب ومتعبة كثيراً، مع عدد من الإصابات في العجلات الهوائية. أما الانفعالات في كاسيس فكانت في النوع الذي يقلقها قلقاً شديداً. كان هناك «كلايف (الذي صفعني أمام الناس ـ فلتحل عليه اللعنة على هذا الفعل المفاجيء الحقير»[1]. هذه الحادثة مشكوك في وقوعها ومشكوك في طبيعتها، لأنها تجانب ما كان عليه كلايف من صفات، وهي كذلك حادثة لا يتذكرها أحد. غير أن لدينا رسالة اعتذار تعبّر عن ضيقه النفسي، يشير فيها أنه تعيس جداً. أجابته فرجينيا تقول إنها ليست تعيسة فحسب بل مجنونة

(١) انظر «أورلاندو»، ص ١٩٤. «تركها السيد بوب وهو ينحني لها. شعرت أورلاندو، في محاولة منها لتلطيف خاطرها، كأن ذلك الرجل الصغير قد لطمها، فذهبت تسير في بستان الجوز. . .».

أيضاً. فبعد هذه السنين كلها لم يزل كلايف يثير حنقها. فإذا ضحك كلايف مازحاً من قبعتها أحست فرجينيا أن يومها كله قد تحطم وانهار. أما هو فكان يحس بضرب من الغيرة ومن الانفعال، وكان يشعر بأنها كثيرة الانتقاد له، ويرى أيضاً أنها لا يحق لها ألا تكون أنيقة، فيتأثر لنفسه على طريقته في المزاح. كان كلايف يعتقد اعتقاداً موضوعياً بأن على المرأة أن تظهر بمظهر جميل، وهو يعني بالجمال أن تكون المرأة جذابة، أنيقة، وتشتهى. كان يستهجن عدم الاكتراث بالزينة الذي تظهر الشقيقتان بفخر، وهو في حقيقته نوع من التواضع من جهة وعدم اقتدار في الخياطة من جهة أخرى، لذا فإنهما لم تلبسا قط على نحوٍ حسن وإن كانتا تلبسان أحياناً على نحو جميل. وأحسب أن جورج كان قد شعر بشيء شبيه بهذا تجاه أختيه غير الشقيقتين.

كانت فرجينيا ذاتها ترغبُ لو أنها تكون غير منظورة من الناس. كانت مسألة الملابس بأسرها كابوساً يهيمن عليها، فلم يكن يسعدها شيء أكثر من أن تنسى أو تتناسى وجود من ينظر إليها. وكان كلايف يستطيع بملاحظاته عن لباسها أن يقلب لحظاتها السعيدة رأساً على عقب فيعيدها إلى الشعور بالحرج والقلق، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا على سبيل الفكاهة العابرة. .

كان ما يجري بينهما آنئذٍ استمراراً للتوترات التي بدأت في كانون الثاني من العام السابق حين أراد كلايف الهروب من تعاسة الغرام، كما يتذكر القارىء، فاتجه نحو تأليف كتابه عن الحضارة. كان قد أرسل، في تشرين الأول ١٩٢٧، القسم الأول من مخطوطة الكتاب إلى فرجينيا، فنعتت الفصول الافتتاحية بأنها «لامعة، ذكية، وذات دلالات». وفي خلال الأشهر الأولى من سنة ١٩٢٨ كان أحدهما على صلات كثيرة بالآخر. وحين اطلعت فرجينيا على بقية كتاب الحضارة ـ ربما حين كان كلاهما في

كاسيس في نيسان ـ توصلت إلى نتيجة مفـادها «أن كلايف قد استمتع كثيراً بالفصـول الافتتاحيـة، ثم اتضح في النهاية أن كتاب الحضارة هو عبـارة عن حفلة غداء في بلومزبيري»، وقد أفصحت عن هذا الرأي إلى أخصائها بعد نشـر الكتـاب، وهـو نقـد منصف ولكنه إذا أعـرب عنه للمـؤلف عـلى هذا النحو ـ وقد أعرب له عنه على نحوٍ ما ـ فإنه يكون بلا شك نقداً مريعاً إلى حدٍ مفرط. وقد جرت تسوية الخصـام الناشىء عن هذا الرأي حين كتب كلايف إهداءً أنيقاً إلى فرجينيا صدّر به الكتـاب حين ظهر في نهـاية أيار، فرضيت به.

وفي ذلك الشهر تسلمت فرجينيا الجائزة الفرنسية Femina vie Heu-reuse وقيـمتها أربعون باونداً، وكان ذلك أمـراً مخجلاً بعض الشيء. كان الاهتـمام بعـملها يتنامى بين الفرنسيين ودأب هذا الاهتـمام على الاستـمرار دائماً. أما الاحتفال بالجائزة فكان كئيباً خانقاً؛ ألقى هيو وولبول خطاب التكريم، وقد وصفه هو شخصياً بأنه «خطاب نتن». وتراءى لفرجينيا أن المتكلم كان يشرح بشيء من التفصيل لماذا يكره رواياتها كثيراً. مع ذلك كتبت له رسالة شكر مقرفة لما تضمنته من زيف، ودعته إلى العشاء. ويعدّ مثل هذا النفاق الرسمي مغتفراً. ولكن كان هناك افتقار للصراحة بشأن علاقتها بأسرها مع وولبول، فقد كانت تمتدح رواياته أمام وجهه وتهزأ منها من وراء ظهره. وكانت مخطئة في ظنها بأنه لم يكن معجباً بعملها. كان في واقع الامر يكن إعجاباً عظيماً لكتاباتها ـ لكل ما كانت قد كتبته حتى ذلك الحين ـ ويتحرّق في التمني بأن ينتج من الروايات ما يجتذب ما تجتذبه رواياتها من صفوة مثقفي بلومزبيري المثلى، بدلاً من ذلك الجمهور المجزي مادياً كل الجزاء الذي كان يستطيع اجتذابه دائماً بصورة من الصور. لقد كان معجباً بها وشغوفاً شغفاً صميمياً، وكان لقاؤه وإياها متعةً له وضرباً من التكريم الخاص، مع أنها كانت كذلك تفزعه. أما هي فكانت تجده، كما يجده الجميع، شخصية بسيطة، محبوبة، خرقاء بعض الشيء، وموضوعاً

قابلاً للمزاح كثيراً. ورغم ما كان يصدر عنها من أمور تفزعه فإنه كان يجدها مفتوحة الصدر له، فهو يبثها أسراره ويصف لها حياته وشخصيته وتفاصيل تاريخه الجنسي، حتى كاد يشعر عند موتها بالارتياح لأن بعض أسراره قد ماتت معها فلن تفشى أبداً.

في أيار ١٩٢٨ قرأ ليونارد المخطوطة النهائية لأورلاندو، فأعجب بالكتاب ودُهشت فرجينيا حين وجدته يأخذ ذلك العمل مأخذ الجد على نحوٍ يفوق توقعاتها ؛ فهي شخصياً كانت تجد فيه كثيراً من المعايب. إنها بعد أن قرأت بروست أخذت ترى كل شيء آخر هزيلاً لا قيمة له. لعلها كانت تعتقد أن «أورلاندو» لم يكن كتاباً «مهماً» بين أعمالها الأخرى، لكنها كانت راضية كذلك لأنها شعرت أن الكتاب، قياساً إلى نوعه، هو كتاب جيد. لم يكن صيف تلك السنة وخريفها موسمين غير سعيدين، فبعد أن فرغت من «أورلاندو» بدأت تستعد لكتابة عدد من المحاضرات عن «النساء والأدب الروائي» لكي تلقيها في جامعة كيمبردج في تشرين الأول.

> «كان فورستر هنا لقضاء نهاية الأسبوع معنا ؛ وكان حيياً، حساساً، وآسراً إلى أقصى حد. سكرنا ليلتها وتكلمنا عن اللواطة والسحاق، تكلمنا بعاطفة، حتى أنه قال في اليوم التالي إنه كان ثملاً. بدأ كلامنا من جراء رادكليف هول Radclyffe Hall وكتابها القيّم، الكئيب. كان فورستر قد رآها تصرخ كالنورس وقد جن جنونها أنانيةً وغروراً، فإذا لم يقل الناس أن كتابها جيد فلا حق لهم بالشكوى من القوانين، مع أنها ومن على شاكلتها يحررون الشكاوى إلى المجلات طوال اليوم. قال فورستر إن الدكتور هيد يستطيع إعادة اللواطين أسوياء. فسأله ليونارد : هل تريد أن تعاد سوياً؟ فأجاب : كلا، بالتأكيد. قال إنه يرى السحاق شيئاً

تشمئز منه النفس وذلك من أثر التقاليد من جهة، ولأنه يكره استقلال النساء عن الرجال من جهة أخرى».

كان عنوان كتاب رادكليف هول «القيّم، الكئيب» هو «بئر الوحدة»، وقد أثار قَدراً كبيراً من الهياج عند ظهوره أول مرة. والكتاب قصة حب سحاقي لا يكاد يحدث اليوم استغراباً. أما في سنة ١٩٢٨ فقد صادرته الشرطة. كانت تلك أياماً حاول فيها وزير الداخلية البريطاني، جوينسون هيكز Joynson Hicks أن يلزم جمهور الإنكليز باتباع الأخلاق الفاضلة بالقوة، فنشأت مسألة مفادها : هل يجوز تقديم الأدلة عن مزايا الكتاب الأدبية؟ كان هيو وولبول ودزموند مكارثي وفرجينيا كلهم على استعداد للوقوف في منصة الشهود والادلاء بشهاداتهم لصالح الكتاب. لكن الصعوبة كانت تتمثل، كما سنرى، في أن الآنسة هول أرادت من شهودها أن يعلنوا أن «بئر الوحدة» ليس فقط كتاباً جاداً بل هو من أعمال الفن العظيمة. وقد بدا هذا تضحية كبيرة تبذل من أجل قضية الحرية، تفوق الحد.

ولكنْ كان أن جرى التفريط بتلك المسألة. فقد ذهبت فرجينيا للإدلاء بشهادتها أمام المحكمة، ولكن الحاكم، سير جارتيرز بريتون، قرر عدم جواز الاستماع إلى الأدلة الأدبية، لأنها تخرج عن صدد الموضوع المنظور أمامه، فأدينت الرواية وهي جهد مخلص وإن كان واهناً، فقد كانت كأنها من قبيل الأدب المكشوف الرخيص.

نظرت القضية قبل ستة أيام من نشر «أورلاندو» وبعد خمسة أيام من وقوف فرجينيا، على شاكلة أخرى، إلى جانب قضية الشذوذ الجنسي وذلك بقضائها أسبوعاً بمفردها مع فيتا في فرنسا. بدأت رحلتهما من قرية رودميل في الرابع والعشرين من أيلول، للذهاب إلى سوليو. وحين كانت الرحلة وشيكة كتبت فرجينيا إلى فيتا تقول «أنا سوداوية، ثم متهيجة، وهكذا بالتتابع. ألا ترين أنني لم أكن سأتزوج من ليونارد لولا أن فضلت العيش

معه على تركه». وهذا يصور أحسن تصوير التعقيد الذي كان يعتري حالات الحب التي تمر بها الكاتبة. كانت الرحلة قد سببت صبيحة المغادرة حدوث مشاجرة بسيطة بين الزوجين. بعد غيابها بثلاثة أيام لم تسمع خلالها شيئاً من ليونارد أبرقت له للاطمئنان عليه. أما إلى هارولد نكلسون فكتبت تقول :

«. . . أريد أن أشكرك على زواجك من فيتا ؛ إنك بذلك حققت امتزاجاً فاتناً لا يضاهى. . . لقد قضينا أسبوعاً مثالياً، وإني لم أضحك في حياتي بهذا القدر على الاطلاق ولم أتكلم بهذا المقدار. انقضت الرحلة بلمح البصر ـ كانت فيتا ملاكاً لي ـ فهي تدبّر أمر القطارات، وتدفع الإكراميات، وتتكلم اللغة الفرنسية على نحو صحيح، وتغمرني بكل ما يسرّ النفس، وكان مزاجها رائقاً على الدوام، وجمالها رائعاً، وهي مؤنسة إلى ما لا نهاية ؛ وقد أظهرت في كل مناسبة طبيعة الكرم والفضل البالغة حتى حين لم يكن في دورة المياه إلا إبريق قديم، في حين كانت هي قد فقدت مفاتيحها ـ وباختصار كانت الرحلة أعظم متعة بمعنى الكلمة».

كانت الرحلة لطيفة، ولعلها بريئة جداً. وعادت فرجينيا منتعشة، وقادرة على مواجهة القاضي وما هو أكثر إفزاعاً منه، وأعني النقاد.

كتبت فانيسا من لندن تقول «إن الإثارة الكبيرة هي كتاب فرجينيا الجديد»، وكانت العاصمة مهيأة جيداً لاستقباله لأن نجاح رواية «إلى الفنار» لم يزل حديث العهد في أذهان الجمهور، وأعطى «بئر الوحدة» مقام الصدارة لثيمة «أورلاندو» الجنسية. وكان كثير من الناس قد اكتشفوا في ذلك الحين أن فرجينيا وولف كاتبة روائية يجب الخوض في أعمالها بإمعان

إذا أريد الإدعاء بالألمعية الفكرية. ولكن طريقة كتابتها لم تزل طريقة غير مألوفة. وجاء كتاب أورلاندو ليحقق لأولئك الناس ما أرادوه من تيسير. فها هو عمل تكتبه روائية متحذلقة ثقافياً، روائية «صعبة»، وهو مع ذلك كتاب سهل، مؤنس، ومباشر في سرده للحكاية. أما من وجهة نظر الناشر فقد كان الكتاب عملاً بلغ مرتبة الكمال.

ولكنْ، كان لدى فانيسا شكوكها، وكان لدى فورستر شكوكه؛ غير أن حجم المديح وما رافقه من رسائل حماسية كان شيئاً مذهلاً؛ كذلك كانت المبيعات. وقد قال ليونارد إن ذلك كان نقطة التحول في حرفة فرجينيا كروائية ناجحة. كانت رواية «إلى الفنار» قد باعت ٣٨٧٣ نسخة في السنة الأولى. أما «أورلاندو» فقد بيع منه ٨١٠٤ من النسخ في الأشهر الستة الأولى. وانتهت الهموم المالية. ثم ذهبت فرجينيا إلى كيمبردج في أواخر تشرين الأول وألقت محاضراتها، وقد ذكرت فانيسا أنها شعرت هناك بوجود جوٍ سائد من أجواء النصر، وضرب من التمجيد؛ وحضر مينارد كينز فظنت فانيسا أنه خلق انطباعاً لا ضرورة له بقوله «لم يعد هناك أي شك في من هي الشقيقة الشهيرة الآن». وظلت مبيعات فرجينيا أدنى عدداً من مبيعات ليتون الذي نشر كتابه «أليزابيت وأسيكس» في تشرين الثاني من ذلك العام، أما أصدقاؤها فكان من الواضح لهم أن عبقريتها هي أشد سطوعاً. في ذلك الخريف أغرتها فكرةٌ ما بتكرار أدائها لكتابة «أورلاندو» آخر. لقد شعر الناس أنه جاء كتاباً عفوياً وطبيعياً، وهذه صفة أرادت الكاتبة استثمارها، ولكنها كانت في واقع الأمر تنتظر شيئاً آخر. لم تزل الفراشات تطارد مخيلتها.

الفصل السادس
١٩٢٩ ـ ١٩٣١

في كانون الثاني ١٩٢٩ سافر ليونارد وفرجينيا إلى برلين. كان هارولد نكلسون موظفاً دبلوماسياً في السفارة البريطانية هناك، وكانت فيتا بمعيته ؛ ولا ريب أن هذا هو الدافع الرئيسي لرحلتهما. وقررت فانيسا ودنكون اللحاق بهما لأنهما أرادا زيارة القاعات الفنية في العاصمة الألمانية ومشاهدة اللوحات المعروضة فيها. كتبت فانيسا :

> «إن الزوجين وولف مستمتعان كثيراً، وأظن أن ليونارد يشعر كأنه في بيته هنا أكثر مما كان يشعر به في بروفانس، كما أن فرجينيا تجد التغيير كله فاتناً. وهما بالطبع لا يعرفان تماماً ماذا يفعلان، فيسيران أميالاً على الأقدام ولا يستقلان سيارة أجرة، ويأكلان في مطعم الفندق حيث يدفع المرء عشرة ماركات للغداء، ولا يذهبان إلى مكان أبعد لكنه أفضل بكثير حيث يطعم المرء بثلث هذا المبلغ. على أن هذا لا يهم. أظن أن ليونارد قد انغمس مع الاشتراكيين وأن فرجينيا قد انغمست مع فيتا التي لديها سيارتها فهي تتجول بها هنا وهناك».

كانت فانيسا تكره ألمانيا منذ القدم، ولم تجدها برلين شيئاً لتغيير رأيها ؛

وجدت الأهالي في العاصمة لطفاء ولكنهم ليسوا جذابين على الإطلاق (وهذا رأي تشاركها فرجينيا فيه) وكانت تحس بانفعال دفين طوال الوقت. وقد تسرب شيء من هذا الانفعال إلى رسائلها التي كتبتها إلى روجر فراي. وما تقوله في تلك الرسائل عن فواجع تلك الرحلة إلى برلين صحيح على العموم ولكن انطباعاتها عن الناس كانت انطباعات قاسية جداً ولا يمكن اعتبارها انطباعات موضوعية.

«الوضع الإنساني هنا يحدو بنا أحياناً إلى الاستمتاع. فرجينيا منغمسة جداً بطبيعة الحال مع الزوجين نكلسون. فيتا على ما يبدو تعيسة هنا. إنها تكره برلين وتكره الألمان ويخامرني شعور بأنها ستواجه قريباً أزمة فظيعة في علاقتها مع هارولد. إن هذا الرجل خلق على ما يظهر لي للعالم الدبلوماسي الذي ينتمي إليه. إنه يذكرني أيضاً بالعالم الرسمي القديم الذين كنت أكرهه كثيراً فهو شبيه بأبناء ذلك العالم، عدا أنه ألطف منهم، كما أنه يتمتع بالفطنة بدرجة أكبر. لا تأتي فيتا إلى برلين إلا قليلاً، وحين تأتي فإنها تتمنّع عن حضور الواجبات الاجتماعية، لذا يخامرني شعور بأن هارولد سيترتب عليه في النهاية أن يتخلى عن عمله وعندئذٍ سينتهي - إن الوضع يبدو متوتراً إلى أقصى حد، ولا يحسِّن منه تصرف الزوجين وولف. لقد أقسم ليونارد ألا يذهب إلى أية حفلة هنا وأراد أن يكون هذا واضحاً لفرجينيا أيضاً. وهي تدعي أنها التزمت بذلك ولكن ما أن وصلا حتى أعلن هارولد أنه قد رتّب حفلتي غداء لهما، وكانت إحداهما لكي يلتقيا رجلاً سياسياً أراد أن يجتمع بليونارد بالذات. تردداً أولاً، ثم وافقا على حضور إحدى الحفلتين وتركا الأخرى معلقة حتى هذه الليلة حين صرح ليونارد على العشاء بعد

حفلة موسيقية حضرناها جميعاً بأنه لا ينوي الذهاب. غضب هارولد، وكان الحال مؤلماً، وعزا الزوجان وولف الاعتذار إلى رغبتنا نحن بالذهاب إلى بوتسدام في ذلك اليوم بالذات. أظن أن ذلك كان عذراً مفضوحاً إذ لم يوجه إلينا أي لوم، لكن الوضع لم يكن مريحاً أبداً. ويبدو لي أن الزوجين نكلسون هما إضافة غير ضرورية لنا لذلك أستطيع أن أترك أمرهما إلى فرجينيا. قضينا ليلة من أسوأ الليالي التي أتذكرها في توترها وسوء الإعداد لها. كنا سنلتقي لتناول العشاء، كلنا، مع ولدي هارولد، فصرنا تسعة. لم يكونوا قد حجزوا مائدة ولم يكن من الممكن بالطبع الحصول عليها. كان الجو فظيعاً بسبب ذوبان الثلوج، فالشوارع مغطاة بالوحل الكثيف، ونحن نتنقل مسرعين من مطعم إلى آخر لكي نجد مكاناً. أخيراً وجدناه وتناولنا العشاء. ثم ذهبنا لمشاهدة فيلم روسي عنوانه (عاصفة فوق آسيا). عند دخولنا أوقف البواب الصبيّ الأصغر قائلاً إنه أصغر سناً من أن يسمح له بالدخول ـ وعمره أحد عشر أو إثني عشر سنة. كانت فيتا تشتاط غضباً ولم تفعل سوى زيادة الطين بلة فأثارت غضب ليونارد بإدعائها أن الذين في شباك التذاكر قالوا إن الدخول جائز. وهكذا احتجرنا جميعاً على السلم، وأخيراً كان لا بد من العودة بالصبيّ البائس إلى البيت، فتولت فيتا ذلك. بدا الفيلم فائقاً في جودته ـ رأينا أروع الصور عن الأشكال الصينية الغريبة، وإخراج الفيلم جيد. استمتعت به كثيراً وأحسست أن الآخرين قد استمتعوا به كذلك إلى أن خرجنا إلى الشارع فظهر أن المشاعر كانت متضاربة بشأن هل أن الفيلم هو عبارة عن دعاية ضد

الإنكليز أم لا؟ لا شك أنه كان كذلك لا سيما في القسم الأضعف منه الذي يخص فرار الجنود ببزات بريطانية هرباً من الآسيويين. أثارت فيتا غضب ليونارد مرة أخرى إذ سألته للمرة السادسة هل يظن أن المقصود بالجنود هو الإنكليز؟ كانت هي وهارولد يظنان ذلك ومع هذا اختصما.[1] دامت هذه المساجلات طويلاً ونحن وقوف في أوحال الثلوج. ومما فاقم الغضب لدى الجميع والشعور العام بعدم الارتياح وجود أدي ساكفيل ـ ويست وقد اتخذ موقفاً من مواقفه المعتادة الشبيهة بمشاكسة العجائز العانسات، فلا هو مستعد للبقاء ولا هو يريد الرجوع، متنقلاً من مجموعة إلى أخرى كالبعوضة. كان يثير إنزعاج الزوجين نكلسون دائماً، وهو ما أفهمه تماماً، ولكنه في الوقت عينه أذكى منهما بكثير مما يجعلني أتعاطف معه. أقترح أن يصطحب دنكون معه ليريه شيئاً من حياة برلين الليلية، وكان هدفه أن يستبعد هارولد عن مصاحبتهما. ولكن ما أن بدأنا بالتحرك بعد أن فتك بنا البرد حتى وجد أدي أن هارولد قد لصق بهما! لم أمر في حياتي بليلة كهذه، وكانت يقصف فيها الرعد. ولأنني لم أكن قد تورطت بشيء فقد استمتعت بما جرى كثيراً. . . ».

كانت فرجينيا كذلك قد استمتعت إلى حدٍ ما بما جرى، وما انطوت

---

(١) أظن أن فانيسا مخطئة في هذه النقطة؛ إذ لا أعتقد أن هارولد نكلسون رأى في الفيلم شيئاً سوى الهجوم على الاستعمار البريطاني في آسيا. ربما كانت لدى فيتا شكوكها في هذا الأمر. والذي جعل وضع هارولد أكثر إيلاماً هو أنه كان ممثلاً لبلاده، فضلاً عن حدوث مظاهرة صغيرة في صفوف المشاهدين عند انتهاء الفيلم يمكن اعتبارها ضد الإنكليز.

عليه تلك الأمسية الفاشلة من وضع يثير الاهتمام، ولكن فرجينيا «تعيش في عالمٍ خاصٍ بها» على حد قول فانيسا.

ساورت ليونارد المخاوف بأن رحلة برلين قد تكون أكثر بكثير مما تحتمله فرجينيا، فكان لمخاوفه ما يبررها. عاد الزوجان من هناك في الرابع والعشرين من كانون الثاني عبر بحر الشمال. كانت فانيسا قد أعطت لأختها عقاراً يسمى سومنيفين مضاداً لدوار البحر، وهو مسكّن قويّ، فحذرت فانيسا أختها ألا تتجاوز الجرعة المحددة بأية حال من الأحوال. تناولت فرجينيا، حسب روايتها، جرعة أقل مما وصف لها. ولسوء الحظ أثر ذلك الدواء فيها بقوة غريبة. لم يكن إيقاظها في هاريجHarwich إلا بالكاد. ثم كان على ليونارد أن يرمي بها في القطار رمياً كما يرمي كيساً من الأكياس. وهناك انتكست وأصيبت بغيبوبة، وعند وصولهما إلى لندن ألزمت الفراش.

وها نحن نجد، كما كان الحال في سنة ١٩٢٥، أن ما هو عرض طارىء للبعض يكون لفرجينيا بداية نوبة طويلة من الاعتلال في صحتها. لزمت السرير ثلاثة أسابيع ؛ أخذت تصاب بالصداع «من ذلك النوع الحاد جداً» مع جميع الأعراض الأخرى المعهودة ـ «الألم، والخفقان، وظهري يؤذيني، وما إلى ذلك». لم تستطع أن تعمل مدة ستة أسابيع. كتبت لها فيتا رسائل اعتذار عبّرت فيها عن قلقها فأجابتها فرجينيا تطمئنها ؛ وشعرت فانيسا بما يشبه الذنب بشأن دواء السومنيفين فاضطر ليونارد أن يريح بالها. وعلى العموم كانت عقابيل الزيارة إلى برلين أطول أمداً بكثير من الزيارة نفسها.

لكن هذا المرض كان مرحلة أخرى من تلك المراحل الطويلة المتروكة ـ بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ـ كما تترك الأرض تمهيداً لزراعتها، مرحلة يُحرث فيها عقلها ويعدّ للبذار والحصاد القادمين. ففي كانون الثاني كانت

قد بدأت أصلاً بتأليف «الفراشاتThe Moths» في رأسها، وبعد ذلك كتبت إلى هذا المؤلف [في رسالتها إلى كوينتين بيل المؤرخة في ٢٠ آذار ١٩٢٩] تقول : «أنا أكتب كتاباً من نوع جديد تماماً. ولكنه لن يكون في جودته بالجودة التي هو عليها الآن في فكري وهو غير مكتوب».

«. . لا ينبغي لي الاستمرار في تكرار ما قلته دائماً بشأن الربيع. بل ينبغي أن أجد أشياء جديدة أقولها، فالحياة تستمر. ينبغي للمرء أن يبتدع أسلوباً جميلاً لسرد الحكايات. هناك بالتأكيد عدد من الأفكار الجديدة تتألف في رأسي على الدوام. مثلاً، أنني سأدخل ديراً في الأشهر القادمة وأعكف على فكري ؛ فبلومزبيري قد انتهت. سأواجه أشياء بعينها. سيكون ذلك زمناً للمغامرة والهجوم، زمناً للعزلة والألم. لكن العزلة ستكون خيراً لكتاب جديد. سأصادق بالطبع الأصدقاء. وسأكون منفتحة من ناحية المظهر الخارجي. سأشتري ملابس جديدة وأذهب إلى بيوت جديدة. وسأقتحم طوال الوقت هذا الشكل الحاد الزوايا الموجود في ذهني. أظن أن (الفراشات)، إذا كان هذا هو العنوان الذي أعنون به الكتاب، ستحاصر حصاراً شديداً. على أني لست راضية عن الإطار. ثمة هذا الخصب المباغت الذي قد يكون مجرد طلاقة في الكلام. كانت الكتب في الأيام الماضية عبارة عن عدد كبير من الجمل التي تقتطع بالفأس اقتطاعاً من البلور، أما الآن فإن عقلي قد ضاق ذرعاً، وهو من بعض النواحي بمنتهى القنوط».

كانت هناك كتب أخرى غير مكتوبة ألزمت نفسها بكتابتها. أما الكتاب الذي اهتمت بكتابته في المقام الأول فهو الخاص «بالنساء والأدب الروائي»،

وهو مبنيّ على المحاضرتين اللتين ألقتهما في كيمبردج في تشرين الأول ١٩٢٨. أولت همتها نحو مهمة تحويل المحاضرتين إلى كتاب بشيء من الحماسة. وانتهى الكتاب في أواسط أيار ونشر في تشرين الأول تحت عنوان «الغرفة الخاصة A Room of One's Own»، وأظنه أسهل كتب فرجينيا، وأعني بذلك أنه لا يضع عبئاً كبيراً على العواطف. والعمل كله إنما يمسكه خيط واحد، ولكنه ليس خيط الشعور كما في أعمالها الأخرى، بل خيط الحجة ـ الحجة البسيطة، الواضحة: إن معوّقات النساء هي معوقات إجتماعية واقتصادية؛ والمرأة الكاتبة لا يسعها إلا البقاء رغم الصعوبات الكبيرة، ورغم تحامل الرجال وأنانيتهم الاقتصادية؛ أما مفتاح الانعتاق فموجود عند باب غرفةٍ ما، وللمرأة أن تسميها غرفتها التي تستطيع أن تسكنها بحرية واستقلال كإخوتها الرجال. إن فقدان هذه الحرية الاقتصادية يولّد السخط، سخط الذكور الإدعائي الصاخب في إصرارهم على الزعم بتفوقهم، وسخط الإناث الصريري الملحاح في ولولتهن عن حقوقهن. وكلاهما ينتج أدباً رديئاً، لأن الأدب ـ الأدب الروائي ـ يتطلب تعاطفاً شمولياً يتجاوز مشاعر كلا الجنسين ويتفهمها. إن الفنان العظيم هو الذين يحمل في تويج زهرته أدوات التذكير والتأنيث معاً.

يجري تطوير هذه الحجة بسهولة ويسر على شاكلة المطارحة في الحديث، حتى تبلغ مأربها ببعض المقاطع الرائعة، ولكن التعبير عن الحجة يجري دائماً بتبسط وإيناس. وما هذا الكتاب إلا ذلك الشيء النادر ـ وتلك الجدلية الدمثة، المفعمة بالحيوية؛ وهو ذو أهمية خاصة للدارس لحياة المؤلفة، مثله في ذلك مثل «أورلاندو». ذلك أن المرء إذا قرأ «الغرفة الخاصة» سمع فرجينيا تتكلم. إنها في رواياتها تفكر. أما في أعمالها النقدية فقد يسمع المرء صوتها أحياناً، ولكنه دائماً صوت رسميّ النبرة دائماً، تحريريّ السمة قليلاً. لكنها في «الغرفة الخاصة» تقترب كثيراً من أسلوبها في المحادثة.

«إذا لم يكن من الممكن العثور على الحقيقة في المتحف البريطاني فأنا أسأل نفسي، بعد أن أمسكت بقلم وورقة، أين هي الحقيقة إذن؟.

ما أن وثقت من الجواب وأنا أستقصي الأمر على هذا النحو حتى أقبلت أنشد الحقيقة. كان النهار كئيباً وإن لم يكن مطيراً، وشوارع المنطقة المجاورة للمتحف فيها ما فيها من الفتحات التي ينهمر فيها الفحم من الأكياس؛ ثمة عربات تقف صفاً على الرصيف لتنزل صناديق تشدها الحبال وهي تحوي على ما أفترض ممتلكات أسرةٍ ما، سويسرية أو إيطالية، جاءت تسعى وراء الثراء أو طلباً للملجأ، أو وراء شيءٍ آخر. ثمة رجال يجوبون الشوارع بأصواتهم المبحوحة وهم يعرضون للبيع بضاعتهم من شجيرات الأزهار في عربات الدفع. بعضهم يصيح، وبعضهم يغني. لندن كأنها ورشة عمل، كأنها ماكنة. . . والمتحف البريطاني هو دائرة أخرى من دوائر المعمل الكبير. الأبواب تنفتح؛ هنالك يقف المرء تحت القبة الشاسعة فيحس كأنه فكرةٌ ما تلوح في الجبين الأصلع الضخم، المحاط بشريط من الأسماء المشهورة إحاطة رائعة. ويذهب المرء إلى الرف فيتناول ورقة، ثم يفتح مجلداً من مجلدات الفهارس، و. . .».

إن الأمر ليغري بالاستمرار، بل يتحتم هذا على الذين يرغبون في معرفة نمط الفرد الذي كانت عليه فرجينيا وولف في خريف ١٩٢٨. ولكنْ، وبما أن هذا الذي تكتبه إنما هو كتاب، ولأنها تقودنا في أرجاء لندن وفي تلك الأبهاء المتعرجة، المحيِّرة، التي هي غرفة القراءة في المتحف البريطاني وذلك لكي تقول أشياء في الصميم عن العلاقة بين الرجال والنساء، فعليها إذن أن

تدلي بحجة ما وأن تقاوم ما يراودها من أهواء. فالعائلات السويسرية النازحة، وباعة شجيرات الأزهار، أمور تغوي الكاتبة غواية لا نهائية ؛ إن بوسعها أن تشحنها بقصص خيالية. فقد يصبح الإيطاليون لاجئين من الفاشية، ويصبح باعة الورد من الحواة أو من عازفي القيثار. ولكنها مبشّرة جيدة فهي لا تدمّر حججها بالتوسع في تلك الاستقصاءات بعيداً، كما لعلها كانت ستفعل لو أنها كانت تتكلم مع الأصدقاء. وهي إنما تشير فقط إلى استقصاءاتها إشارة عابرة، ولكن نبرة الكلام الاعتيادي في صوتها لا تخفى في السطور. وإنه لصوت هادىء ينبع من خلو البال، صوت امرأة سعيدة تحب الحياة، تحب حتى قرقعة الفحم وهو ينهمر في فتحاته في الرصيف، وتحب أيضاً، ولا ندري إلى أي مدى، «ذلك البريق الباطني، الحاذق، الذي هو اللهب الأصفر الثر المتعالي من الوصال العقلي ؛ فما من داعٍ للعجالة، وما من داعٍ للسطوع، » حين يكون بوسعك أن تشعل سيكاراً وتنفث ذلك الغمام الكثيف المريح من الدخان في الهواء، ويكون بوسعك اللغو بشأن موسيقى الكلام وحماقات الكلاب وغرابة شكل القطط المنزلية الإرلندية وخصائصها.

ها هي قطة أليفة قد دخلت الآن إلى الحمام في منزل الزوجين في قرية رودميل، ففزعت الخادمة نيللي أشد الفزع. أو ها هي فرجينيا وهي تسوق السيارة من «لوز» إلى «سفين أوكز» : «صادفنا فيلاً على الطريق هنا قبل يوم أو يومين فقط ـ وأحسب أن الفيلة شيء شائع في هذا الجزء من «كانت». لِمَ لا؟ فها هو فيل آخر. حسناً، لعله خنزيرة هرمة. ولكنك لا تعثر عادةً على خنزيرة تشبه الفيل إلى هذا الحد في أي جزء آخر من إنكلترا».

يقول كلايف : «إنها تعيش منقسمة، نصفٌ في عالم الحقيقة ونصفٌ في رواية من العصر الفكتوري» (وبوسعها جرّ الآخرين معها) ؛ لكنها في هذا تتقحّم بمرح، وتلحظ تقدم العمر دون عناء كبير، وهي على إحساس تام

دائماً بمرور الزمن، «أفكّر بعدد المرات الأخرى التي سأرى فيها فانيسا»، ولكنه إحساس ينبع من روح طيبة، ويرافقه دائماً تفكير مريح بأنها الآن أغنى مالياً مما كانت عليه في أي وقتٍ مضى - وهو أمر مهم على ما أظن بنظر إبنه سير لزلي ستيفون - . إن بوسعها الآن أن تدخل مخزناً وتشتري سلعةً ما دون التفكير بكلفتها. قد لا تكون هذه اللذة هي أنبل الملذات، ولكنها بنظر الذين كان عليهم أن يقتروا ويوفروا ويحسبوا ألف حساب قد تكون لذة حقيقية تفوق غيرها قاطبةً. كتبت في ذلك الحين تقول : «أشد ما يعجبني هو الطباعة في سردابي. ولكنْ، لا. يعجبني شرب الشامبانيا والانفعال بتهور جامح. تعجبني السياقة إلى قرية رودميل في أمسية جمعة حارة وتناول اللحم البارد والجلوس في شرفتي وتدخين سيكار مع بومة واحدة أو أكثر». ولكنها كتبت كذلك تقول : «يا لي من سوداوية بالولادة ؛» وقد كان هذا صحيحاً أيضاً، بمعنى من المعاني.

وكان لدى فرجينيا أيضاً ما يقلقها، ومعظم ما يقلقها هو من صنع يديها، أما الباقي فمن صنع الخيال. ظلت فيتا رائعة وفاتنة ؛ كان من الممتع رؤيتها، وكان من الممتع كذلك أن قرر هارولد نكلسون أخيراً في ذلك الصيف ترك الخدمة الدبلوماسية. كان قد كتب إلى ليونارد وفرجينيا يسألهما هل يجدان ما يعيبه إذا قبل مركزاً في جريدة «إيفننغ ستاندارد» التي يصدرها بيفر بروك (وهو يميني معروف)، والظاهر أنهما لم يجدا في ذلك ما يعيب. بل هنآه بحرارة حين سمعا في ١٥ أيلول بقراره في ترك الخدمة نهائياً. ولكنْ كان لفيتا صديقات - حلقة من محبات النساء - لم ترتح فرجينيا لهن. أما فيتا فلعلها كانت تجد فيهن خلاصاً من الجو العذري، الأفلاطوني، السائد في منزل الزوجين وولف سواءً في لندن أو في قرية رودميل ؛ ولعل فرجينيا كانت تحس بالغيرة. وعلى أية حال وجدت فرجينيا أن أولئك النسوة هن من الدرجة الثانية، ويعشن جواً خليقاً بصبايا المدارس. لم تقاوم فرجينيا الإغراء بإخبار فيتا بما تظنه، رغم إدراكها أن هذا يمسّ بها.

واكتشفت فيتا أن في مراسلات صديقتها شيئاً من الكدر. كانت الصداقة بين الإثنتين يعتريها الإضطراب في ذلك الحين.

لعل مما سبب الانزعاج أيضاً أن مطبعة هوغارث ارتكبت في ذلك الوقت خطأها الجسيم، الوحيد، برفضها رواية «الأشقاء والشقيقات» التي كتبتها آيفي كومبتون ـ برنيت Ivy Compton - Burnett. وقد قيل إنها لم تحز على إعجاب ليونارد. ومن المحتمل أن فرجينيا لم تطلع على المخطوطة إطلاقاً، ولكنها أقرت بعد ذلك أنهم ارتكبوا خطأ.

ثم هناك فانيسا. كان بينها وبين فرجينيا نوع من المنافسة الخفية ؛ إن إحدى الأختين فصيحة لامعة ومبدعة ناجحة، والأخرى صامتة، وكانت تحجبها بصفتها رسامة شهرة دنكون غرانت المتعاظمة. غير أن في كنفها ثلاثة من الصغار ؛ ولديها تلك الأنانية الفنية القاسية التي تدعها تقول : «أنا بحاجة إلى ضوء الشمس والسلام في كاسيس أكثر من حاجتي إلى صحبة أختي» (وقد لا تكون قالت هذا علناً) ؛ وباختصار كان لديها ما ليس لدى فرجينيا، كما أنها كانت تحيا حياةً ممتعة ورومانسية تحسد عليها وإن كانت مكرسة «للفن دوني» كما تدعوه الكاتبة. وحين ذهب الزوجان وولف في أوائل حزيران ١٩٢٩ إلى كاسيس لقضاء أسبوع واحد هناك فذاقا ملذات الحر والنبيذ والسيكار وصفاء البال الكسول، الفريد، الذي يضفيه اليسر والوفرة في حياة البحر الأبيض المتوسط، دخلت فرجينيا في مفاوضات بشراء بيت هناك، وهو المسمى «لا بودارد La Boudarde» ويقع على بعد بضع مئات من الياردات من البيت المسمى «لا برجير La Bergre» حيث تسكن فانيسا. وأظنها قد أرادت ذلك لكي تتساوى مع شقيقتها ولكي تجرب في الوقت نفسه شيئاً كان موجوداً لدى فانيسا ولم يكن موجوداً لديها. ما هذا إلا مثل آخر على الطريقة التي كانت تشد إحداهما بالأخرى بنوعٍ ما من جاذبية المادة السائلة للمادة الصلبة. فبمثل هذه الجاذبية تبعث

فانيسا أختها إلى ساسيكس، ويمثلها عادت فرجينيا من رجموند إلى بلومزبيري. ولكن شراء «الابودارد» لم يكن مقترحاً عملياً بنظر ليونارد منذ البداية على ما أتصور. إن بوسع فرجينيا أن تعيش في بيتين عامرين ولكنْ لا في ثلاثة ؛ وليس بوسعها أن تعيش على هذا البعد من لندن ومن المطبعة إلا إذا قامت برحلات منهكة جداً. ولم يكن ليونارد شغوفاً حقاً بكاسيس شغف الزوجين بيل. ولم تكن فرجينيا كذلك، كما اكتشفت بعد حين. لذا غدا النظر في أمر ذلك البيت شيئاً غير جاد فصرف النظر عن المشروع بهدوء في ١٩٣٠.

> «هناك أيضاً، بالطبع، الزوجان ولف اللذان رأيتهما مرتين منذ أن كنتِ أنتِ هنا، وأعتقد أن فرجينيا في حالة سيئة وينبغي لها البقاء في الريف. ولكنها لن تفعل ذلك بطبيعة الحال ؛ لذا أخشى، إن لم تفعل، أن ترسل إلى دار المجانين حينئذٍ ماذا ستقول السيدات؟» (من رسالة كلايف بيل إلى فرانسيس مارشال في ١١ أيلول ١٩٢٩).

كان كلايف في هذا متشائماً بلا مبرر (إذا كان يعني حقاً ما يقول)، ولكن صحة فرجينيا لم تكن جيدة حقاً. فقد أعقبت العودة من كاسيس صيفاً وصفته «بالصيف المرتبك المشوش العنيف الذي يمضي على غير هدى وكيفما اتفق»، وجرت كذلك في المنزل في قرية رودميل مشاجرات مع الخادمة نيللي كانت سيئة على نحوٍ استثنائي. ثم أن مسودات الطباعة لكتاب «الغرفة الخاصة» كانت تتطلب عناية فائقة على وجه خاص. ولكن، وبعد أن تم الانتهاء من هذه الأمور وغيرها :

> «. . . يترتب عليّ أن أفكر بذلك الكتاب مرةً أخرى، وأنزل إلى البشر خطوةً فخطوة. هذه هي الأحداث والثورات العظمى في حياتي، في حين أن الناس يتكلمون عن الحرب

والسياسة. سأواصل الطحن بشدة ؛ ستكون كوابحي كلها غير مرنة، ورفّاساتي صدئة. لكني أستحق الآن أشهراً من الأدب الروائي، أما سوداويتي فستطرد سرعان ما اندفع بذهني إلى الأمام دون أن أدور في دائرة حوله».

وبعد ثلاثة أيام :

«عليّ أن أملأ نصف الساعة لما قبل العشاء بالكتابة. ظننت حين كنت أسير خارج البيت أنني سأبدأ بالكتابة من البداية : أنهض في الثامنة والنصف وأمشي في الحديقة. النهار اليوم كثيف الضباب وقد كنت أحلم بأديث سيتويل. اغتسلت وذهبت لتناول الإفطار الذي وضع على مفرش ذي مربعات. إذا واتاني الحظ قد أتسلم رسالة ممتعة ؛ لم يصل شيء اليوم. من ثم اغتسلت في الحمام وارتديت ملابسي ؛ وجئت إلى هنا وكتبت أو صححت ما كتبت مدة ثلاث ساعات، حتى الحادية عشرة إذ جاء ليونارد يحمل الحليب والجرائد. في الواحدة، غداء ـ اليوم فطائر محشية باللحم والبيض، وحلوى الشوكولاتة. بعد الغداء قراءة قصيرة وتدخين، في الثانية أو نحوها غيرت حذائي وانتعلت حذاءً ثخيناً وأمسكت بمقود كلبنا (بينكر) وخرجت به إلى رابية آشام عصراً، حيث جلست هنيهةً ثم عدت أدراجي إلى البيت بمحاذاة النهر. الشاي في الرابعة أو نحوها ؛ ثم جئت إلى هنا وكتبت رسائل متعددة، وقاطعني البريد، وفيه دعوة أخرى لإلقاء محاضرة ؛ ثم قرأت كتاباً واحداً من The Prelude. وسرعان ما سيدق الجرس وسنتناول العشاء ونسمع شيئاً من الموسيقى وسأدخن سيكاراً ؛ ثم سنقرأ ـ وأظن، لافونتين هذه

الليلة، والصحف ـ وهكذا إلى الفراش. . . الآن انزاح عني كتابي ومقالاتي وهي تثقل عليّ وتضايقني، فارتاح فكري وأخذ ذهني يمتلىء ويتوسع ويصير خفيف الوزن مادياً، وهادئاً في خواطره. بدأت أشعر به يمتلىء بهدوء بعد الضغط الذي تعرض له منذ مجيئنا إلى هنا. وهكذا أخذ اللاشعور يتسع الآن ؛ لاحظت خلال المشي الذُرة الحمراء وزرقة السهل وعدداً لا نهائياً من الأشياء دون أن أسميها ؛ لأني لا أفكر بشيء بعينه. بين حين وآخر أشعر أن ذهني يتخذ أشكالاً، كالغيمة ومن فوقها الشمس، فتطفو فكرةٌ ما أو خطة أو تصور، لكنها تمضي فوق الأفق كالغمام، فأنتظر غيرها بهدوء لكي تأخذ شكلاً، أو لا يحدث شيء ـ ولا يهم أي شيء».

هذه الكلمات كانت قد كتبت بالتأكيد في مرحلة فاصلة من السكينة المثمرة. ولكنْ، إن مرضها ذاته يمكن أن يعطي ثمرات روحية. كتبت في العاشر من أيلول : «إن ستة أسابيع في السرير حتى الآن ستجعل من (الفراشات) عملاً رائعاً ؛ ستعاودها هذه الفكرة بعد أشهر حين غيرت تسمية العمل من (الفراشات) إلى (الأمواج)، ومرضت مرةً أخرى.

«لو أستطيع البقاء في السرير أسبوعين آخرين (ولا أمل في ذلك) سيكون بوسعي تصور رواية (الأمواج) بأسرها. . . وأعتقد أن هذه التوعكات إنما هي في حالتي ـ كيف أعبّر عنها؟ ـ توعكات صوفية إلى حدٍ ما. ثمة شيء يحدث في عقلي، لأنه يرفض الاستمرار في تسجيل الانطباعات. إنه يغلق نفسه على نفسه. يغدو شرنقة. فأخمد، مع ألم جسدي حاد في أغلب الأحيان ـ كالسنة الماضية ؛ هذا هو

عدم الارتياح الوحيد. ثم ينبع فجأةً شيءٌ ما».

لكن عملية حمل الجنين في العقل كانت بطيئة، ولم يحدث من التقدم فيه إلا القليل جداً في ذلك الخريف، سواءٌ في رودميل أو في لندن. كان الزوجان وولف قد قررا الحد من زيارات الناس لهما في ساسيكس، فلم يأت إليهما من أصدقائهما القدامى إلا عدد قليل في ذلك الصيف ؛ لكنهما وجّها الدعوات إلى بعض الأصدقاء الشباب : جانيت فوغان، إبنة ماج، وكانت قد استهلت يومئذٍ حرفتها في العلم ؛ لين ارفين Lyn Irvine، وهي خريجة شابة من كيمبردج كانت تحاول بكثير من الاقتدار والمثابرة أن تعيش من قلمها ؛ كذلك وليم بلومر Plomer. كان هذا قد بعث إلى مطبعة هوغارث في سنة ١٩٢٥ بمخطوطة من جنوب أفريقيا، من زولولاند بالذات، ورأى فيها ليونارد وفرجينيا عملاً فائق الجودة، فنشرته المطبعة. جاء إلى لندن في سنة ١٩٢٩ فالتقياه وأحباه ؛ ثم دعي لقضاء أيام من شهر آب في رودميل، وحثته فرجينيا أن يتحدث عن نفسه. اهتمت كثيراً بما قاله واعتبرته أكثر رصانةً وجديةً من معظم الشباب من معارفها. ولكن حين أتت به إلى منزل الزوجي بيل في جارلستون تصرفت معه تصرفاً مريعاً. قالت : «إن السيد بلومر قد حدثني عن نفسه. قال إنه ينحدر من سلالة شكسبير وكذلك من سلالة وليم بليك». ومن نافلة القول أن الرجل لم يقل شيئاً من هذا، فحاول على استحياء أن يوضح ما كان قد قاله فعلاً، ولكن عبثاً. إن فرجينيا قد تخيلت إجراء محادثة فاتنة ومدهشة معه فلم تستطع الاحتفاظ بها لنفسها. كانت النتيجة بالطبع إظهار الرجل أمام السامعين على أشد ما يكون عليه غرور العظمة، في حين أنه كان من أكثر الناس تواضعاً وأشدهم هدوءاً.

قال لها في اليوم التالي «أخشى أن وضعي لم يكن مناسباً في الليلة الماضية»، فاعتذرت له فرجينيا نيابةً عن الحاضرين في ذلك الحفل العائلي،

ولكنه أخبرها بأن الأمسية كانت ممتعة له. ولا أدري إن كان مخلصاً في قوله هذا. وحين انعقد شمل العائلة مرة أخرى هوجمت فرجينيا بشأن ما جرى للضيف، فلم يبد عليها أنها تدرك ما سببته له من أذى، وهي بالتأكيد لا تضمر له سوى الخير كما يرد في يومياتها.

عاد الزوجان وولف إلى لندن في الثالث من تشرين الأول. والظاهر أنهما أقاما هناك إقامة هادئة لا يتخللها إلا بعض الارتباطات الاجتماعية ودون حدوث انفعالات كبرى باستثناء نشر «الغرفة الخاصة» في الرابع والعشرين من ذلك الشهر، وما أتى به النشر من الحصيلة المعتادة من رسائل التقدير. كان كلايف من القلائل الذين لم يحز الكتاب على إعجابهم ؛ فقد رأى أن على فرجينيا ألا تخرج عن نطاق الأدب الروائي. هذا وقد بيع من الكتاب عدد كبير.

كان ذلك الخريف قد خصص للعمل على رواية الأمواج، ولكن الخادمة نيللي أشاعت البلبلة فيه ؛ فقد قدمت إنذاراً بترك الخدمة مرةً أخرى، في الوقت الذي كانت فرجينيا تحاول طردها (وكان هذا أمراً استفزازياً). كانت نيللي ستترك الخدمة في الثاني عشر من كانون الثاني ؛ ولكنها طلبت في الثاني من الشهر نفسه أن يسمح لها بالبقاء. وبعد أخذ ورد جرى التوصل إلى حلٍ وسط : سيجربون بقاءها مدة شهر واحد فقط. ثم كان أن نصبت بالقرب من المنزل في لندن مضخة للحفر كانت تحدث ضجيجاً بوتيرة متقطعة تثير الحنق ؛ وأضيف إلى هذا الطرق المؤلم ضجيج أدهى وأمر ينبعث من فندق شيّد خلف المنزل وتتعالى فيه موسيقى الرقص الصاخبة ليلياً. كان المنزل يهتز من شدة الضجة المتعالية، فيثير ذلك أعصاب فرجينيا إلى حد العصاب. لم يكن هناك من مفرٍ في النهاية إلا اللجوء إلى القانون لإسكات الضجيج.

كانت واجباتها الاجتماعية أكثر تقبلاً للنفس وأقل تنغيصاً للهدوء الذي

كانت بحاجة إليه لتأليف «الأمواج». ولكنها كانت ملزمة بحضور حفلة أقيمت على شرف أنجليكا، إبنة فانيسا، وكانت في الثانية عشرة من العمر، وقد أقيمت بمناسبة رأس السنة الجديدة، وكانت حفلة تنكرية. ارتدى الحاضرون أزياء تنكرية تمثل شخصيات حكاية Alice in Wonderland. تنكر روجر فراي بزي الفارس الأبيض على نحوٍ كامل، فقد ارتدى سروال الصيادين مع درع مسرد، وصبغ شعره باللون الأخضر، وتمنطق بما لا يعد ولا يحصى من الأشياء ـ شموع، مصائد للفئران، ملاقط للحواجب، أدوات للطبخ من مقلاة وملحقاتها، موازين متنوعة، وكانت كلها ترن متدليةً من سلسلة نحاسية. تجمهر الصغار من حوله، فقد كان هذا حدث الأمسية الباهر. وانتهت الحفلة فغادر الزوجان وولف وسلكا شارع فرانسيس نحو منزلهما فشاهدا مشهداً يتجلى فيه العسف الاجتماعي فأخذت دماء ليونارد تغلي في عروقه. كان هناك رجلان يمران في الجانب الآخر من الطريق وهما يطلقان كلمات التشنيع على بغيٍّ في متوسط عمرها تمشي مترنحةً. كانت هذه تجيبهما بضراوة وتصليهما بكلمات نارية فظة عن معشر السفلة واللواطين. زمجر الرجلان يصرخان بها «يا عاهرة» وما أن لحا شرطياً قادماً حتى انطلقا هاربين. تهشمت من ورائهما قنينة بيرة على الرصيف. ولم تكن المرأة بقدرتهما على الحركة السريعة، وتخلفت فأخذ الشرطي يخاشنها ويستفزها لكي تقول ما يبرر إلقاء القبض عليها. عندئذٍ وجد ليونارد أن هذا لا يطاق. قال وهو يقذف بنفسه بين الشرطي وبينها: «لماذا لا تتعقبون الرجال الذين تسببوا في الشجار؟ إن إسمي هو وولف وأقسم أن هذه المرأة لم تأت شيئاً تلام عليه». تجمعت جمهرة صغيرة من الناس، كما هي العادة، وأخذت جانب المرأة فقد فعلت بلاغة ليونارد فعلها فيهم. ولكن المرأة سرعان ما فقدت توازنها وأوشكت أن تفسد أمرها بكلام يحط من كرامة الشرطي. أسرع ليونارد، وهو المدير السابق لإقليم هامبانتو بأسره في سيلان، يخاطب أحد المارة طالباً أن يأخذ المرأة بعيداً. فخارت عزيمة

الشرطي في الحال. يقول ليونارد في روايته عن الحكاية : «افترقنا على نحوٍ يكاد يكون ودياً، وما أن تفرق الجمهور حتى رأيت ليديا وكانت تقف جانباً تحت مصباح الغاز وهي تحملق بدهشة بي وبالشرطي».

وكان لدى السيدة كينز ما يدعو إلى الدهشة حقاً. فقد كان ليونارد بملابسه التنكرية التي اتخذ بها في حفلة أنجليكا شخصية النجار بقضه وقضيضه مرتدياً قبعة ورقية وصديرة من القطيفة الخضراء وحاملاً عدة النجارة. كانت فرجينيا إلى جانبه لما تزل عليها آذان الأرانب ومخالبها. كان معهوداً في ليونارد ألا يلتفت في مثل تلك الحالة إلى ما هو عليه. أما تأثير ذلك الشكل الغريب على الشرطي فلا يمكن معرفته على الإطلاق.

كان مما يدعو إلى العجب، عند النظر إلى ما كان يطرأ في حياة فرجينيا من مشاغل شتى، أن تقطع شوطاً ما في كتابتها لرواية الأمواج. كانت في كانون الثاني ١٩٣٠ أكثر انطلاقاً وتدفقاً في الكتابة مما كانت عليه طوال الخريف. ولكنها في شباط انشغلت بأمر أتى على وقتها كله، ذلك هو أمر أثيل سمايث Ethel Smyth.

كتبت فرجينيا تقول : «إن عجوزاً في الواحدة والسبعين قد شغفت بي حباً. إنه لشيء فظيع ومريع معاً، ويورث السوداوية والحزن. إنه أشبه باقتناصي من قبل سرطان بحري ضخم».

مع هذا لم يكن ذلك كله فظيعاً أو مريعاً، سوداوياً أو محزناً. كانت أثيل، كما قالت فرجينيا أكثر من مرة، ديكاً من ديوك المنازلات. كانت ذات حيوية بالغة. وقد تقلبت في أوضاع شتى من التخبط والتقحم وهي تشق طريقها في الحياة دون هوادة أو تردد، ودون شكوك تعتي عبقريتها الموسيقية الهائلة. أعجبت فرجينيا بذلك العنفوان الدافق في حديثها وفي كتابتها، وأعجبت بحريتها المذهلة في التعبير. وكانت كذلك خرقاء بل حتى فاضحة، وجسورة تلك الجسارة التي لا تليق إلا بإبنة جنرال، فهي

تتخطى الحواجز العالية كأنها على جواد جامح، فتسقط أرضاً ثم تمتطي صهوة الجواد مرة أخرى دون أن تبالي بألم أو تسخيف ـ شخصية ذات فروسية في أخلاقها فكان من المستحيل عدم الإعجاب بها، ومن المستحيل عدم الشعور نحوها بالمحبة. فكيف يسع فرجينيا إذن أن تقاوم هذا الإعجاب؟ كتبت أثيل تقول: «لا أظن أنني اكترثت بأحد اكتراثاً عميقاً أكثر مما اكترثت بفرجينيا. . .»، وكتبت: «إني منذ ثمانية عشر شهراً لم أفكر حقاً بشيء آخر إلا بها». كانت أثيل تعجب بفرجينيا لجمالها ـ «لصوتها البديع جداً في الكلام، ولما فيها من امتياز وفتنة مما لا تستطيع الكلمات أن تصفه وأن تفيه حقه» ـ ومع هذا استطاعت أثيل في تاريخ مبكر جداً أن ترى جانباً آخر في فرجينيا.

«أظن أن فيها نقائص عظيمة. إنها منغمسة في ذاتها انغماساً مطلقاً، وهي تغار (ولا عجب) في الإبداع الأدبي؛ (لم تستطع أن ترى وجهة نظر دي. إج. لورانس حتى توفي)؛ غير كريمة الأخلاق، وأكاد أقول غير قادرة على معرفة ما يعنيه هذا الكرم، ولكنها تتعرف عليه دائماً في الآخرين. تتعرف عليه في فيتا مثلاً، وأظنها الوحيدة التي تحب فرجينيا حقاً (عدا فانيسا وليونارد). إنها متغطرسة ثقافياً على نحو لا تدركه الكلمات، ومع ذلك فهي متواضعة تواضعاً مطلقاً بشأن موهبتها العظيمة. إن استقامتها الفكرية تفتنني. فهي لا تموّه ما تحسبه الحقيقة، سواءً كانت هذه الحقيقة تخصها أو تخص الآخرين. أما في الدين فليس لديها مفهوم معين. إن آراءها وآراء مجموعة بلومزبيري بأسرها بشأن الدين ما هي إلا آراء صبيانية. كذلك آراؤهم السياسية. إنهم يظنون أن الأرستقراطيين كلهم سخفاء ومن ذوي الأفق المحدود؛ كما أنهم يستمرؤون خداع حزب العمال، ذلك الخداع الذي هو

علامة الحزب الفارقة. . .».

إن هذه اليومية التي كتبتها أثيل في سنة ١٩٣٣ تثير الاهتمام من نواحٍ عدة. فهي تظهر بعض الخلافات في المفاهيم مما جعل العلاقة بين الامرأتين علاقة صعبة تماماً. وأخال أن إشاراتها إلى اشتراكية فرجينيا إنما كتبت وليونارد هو الذي في ذهن كاتبتها. إني أشك أن أثيل نفسها كانت متدينة تديناً عميقاً، أو كانت ذات ميول سياسية متعمقة جداً، لكنها رأت في السنن التي طاب لها أن تدعوها بسنن بلومزبيري إهانةً لتصورها هي ذاتها للمظهر اللائق، وقد كان هذا الفارق، وهو فارق اجتماعي أكثر مما هو عقائدي، من الأمور التي فرقت بينها وبين فرجينيا، التي لم تكف عن الهزء بمعتقدات أثيل والحط منها.

أما غطرسة فرجينيا الثقافية فقد كانت غطرسة حقيقية، وكانت من النوع الذي جعلها تنبذ باحتقار روايات موريس بارينغ، تلك الروايات التي اعتبرتها أثيل من أسمى الروائع، واعتبرها كذلك بعض أصدقاء أثيل أيضاً، وهذا أدهى وأمر. إن فرجينيا يمكن أن تظهر، وللسبب نفسه، بمظهر المرأة غير الكريمة الأخلاق، ولو أن التهمة تبدو لي أكثر التهم التي وجهتها ظلماً. هذا ولم تكن مشاعر المودة لدى فرجينيا محدودة جداً كما افترضت صديقتها، وإن كان لدينا هنا مثل شخصي : إن فرجينيا لم تكنّ لأثيل من الحب إلا قليلاً مما تمنت أثيل أن تكنّه لها. وقد كانت فرجينيا منغمسة في ذاتها، ولكن هذه تهمة مضحكة، ذلك أننا نجد هنا حقاً حالة يلتقي بها إغريقي وإغريقي آخر. كانت أثيل شخصية فاتنة ولكنها كانت أيضاً تتطلب الكثير على نحوٍ لا يصدق. تخبرنا فيتا ساكفيل ـ ويست عن هذا فتقول :

«ما أشد غضبها حين لا يجيب أصدقاؤها عن رسائلها بالتفصيل. كان على المسكينة فرجينيا، التي كانت تصبر إلى ما لا نهاية على هذا الاضطهاد الغرامي، أن تتحمل مساءلات

أثيل المطولة : (أنت أهملت الجواب على أسئلتي رقم واحد وإثنين وثلاثة وأربعة ـ وصولاً إلى الرقم عشرين. أرجو أن تجيبي برجوع البريد). كانت أثيل تبدو وكأن تحت تصرفها وقتاً لا ينتهي، وتتوقع من أصدقائها أن يكون لديهم فراغ مماثل. كانت أنانيتها عمياء، تسرع بها نحو ما تريد دون أن تلتفت إلى أي شيء آخر. ولكنها لم تكن شخصية تثير الملل وإن كانت في الغالب تثير المزعجات التافهة».

كان لقاء أثيل وفرجينيا قد تم في العشرين من شباط ١٩٣٠، فأخذت الأمور تمضي بعد ذلك بسرعة فائقة، كما هو معتاد في كل أمر تتناوله أثيل. فقد اقتحمت على فرجينيا غرفتها في الساعة الرابعة عصراً من ذلك اليوم، وكانت تعتمر قبعة مثلثة الزوايا وترتدي حلّة خيطت على مقاسها، فوجدتها مستلقية على أريكة لكي تستريح. قالت لها فوراً : «دعيني أنظر إليك. . . جلبت معي دفتراً وقلماً. . . أريد أن أسأل أولاً. . . أريد أن أدون شجرة النسب لأسرة والدتك. يا ثيل العجوز ـ هل لديك صورة؟ لا؟ حسناً ـ ما هي أسماء بناته؟» وما أن مرت خمس عشرة دقيقة على هذا اللقاء حتى كانت إحداهما تنادي الآخرين باسمها الأول. قالت أثيل إنها لم تفكر مدة عشرة أيام إلا بأن ترى فرجينيا، وكانت تغمرها النشوة وهي تقرأ «الغرفة الخاصة»، ثم أنها لم تكترث بصديقات فيتا. وقالت إن كتابة الموسيقى مثل كتابة الروايات وأن التركيب الموسيقي ما هو إلا تلوين. . . وأنها تعيش في الريف لشغفها بصيد الطيور ولعبة الغولف. . . وقد سقطت من صهوة جوادها قبل سنتين أثناء الصيد. . . وهي تركب الدراجة الهوائية. . . وإنها قوية جداً. وهكذا استمر هذا الكلام حتى السابعة والنصف، حيث كان عليها أن تغادر إلى وكنغ Woking.

أثرت أثيل بفرجينيا وخلّفت لديها انطباعاً طيباً. ثمة شيء رائع،

مـجرَّب، ينصـح بالخبـرة، يحف بأثيل بالإضـافـة إلى الضـجيـج والعـجـيج والأنانيـة ؛ ولعـلها ليسـت على أية حـال تلك المرأة الأنانيـة التي يتـصـورها الناس. هذا وأظن أن أثيل كانت مغرمة بفرجينيا قبل أن تلتقيها.

ولكن شهر العسل كان قصيراً. إن فرجينيا لا تستطيع أن تلبّي مطالب أثيل ولا تستطيع أن تلحق بالسرعة الجامحة في صداقتها. فـأعلنت أثيل في أواخر نيسان أن أوهامها قد خابت. أجابتها فرجينيا أنها مسرورة بذلك لأنها تكره الأوهام.

كان من المتـوقع أن تنتهي هذه الصـداقة بمثل هذا التراشق، ولكنّ ثمة مصالحة حدثت في اليوم الأول من أيار. فقد جاءت أثيل لتناول الشاي، والتقت فـانيسا فأمست موضع أسرارها ـ وكتبت رسائل متعددة لكلتا الأختين، وفي الغالب مرتين في اليوم إلى فرجينيا ـ ثم جرت في ذلك الشهر، بعد عودة ليونارد وفرجينيا من رحلة عمل لترويج كتبهما في ديفون وكـورنوول، لقـاءات أخرى، واستـمر ذلك طوال الصـيف. وحين كـان الزوجان وولف في قرية رودميل في شهر آب كتبت أثيل إلى فرجينيا فقالت لها إنها حين تعرفت عليها شعرت بعاطفة لا تضاهيها إلا تلك التي داهمتها حين سمعت موسيقى برامز أول مرة.

وجـاءت أثيل لقـضاء ليلة في رودميل. كـانت فـرجينيا تتـفكر «بهـذه الصداقة الغريبة، غير الطبيعية. أقول غير الطبيعية لأن أثيل هرمة جداً وكل شيء فيها متناثر». ولكنْ كانت هناك لحظات ممتعة كما ذكرت فرجينيا نفسها :

«هل تعرفين يا فرجينيا أنني لا أريد أن أرى إمرأة أخرى شغوفة بك؟».

«أنت إذن مغرمة بي يا أثيل؟».

«لم أحب أحداً في السابق بهذا القدر. . . لم أفكر بشيء

آخر منذ أن رأيتك. . . ولم أكن أنوي إخبارك بهذا، لكي لا تستغليه. فأنا أتطلب المحبة».

كانت فرجينيا على استعداد لمنح أثيل شيئاً من المحبة. فهذه المرأة شيء رائع ـ «صخرة مسننة لا تقهر» ـ وهي بمنتهى الثقة بالنفس، وأحياناً بغاية الشطط، وكانت إمرأة عملية إلى حدٍ كبير، وذات ابتسامة عريضة، آسرة.

إن أثيل وفيتا وفانيسا ودنكون وكتابة «الأمواج» هي ما سمته فرجينيا «عناصر» ذلك الصيف من عام ١٩٣٠، وكانت أثيل بالتأكيد هي التي جعلتها تصفه بأنه «صيف عنيف جداً». ولأنه صيف عنيف فقد كان بالضرورة منهكاً. وفي عصر أحد الأيام في أواخر آب جاء مينارد كينز مع زوجته ليديا إلى رودميل، وكانت فرجينيا قد وضعت في إناء خاص غصناً يكتسي بعناقيد الزهر الأبيض (كان قد أرسله أحد المعجبين)، وبعد قليل خرجت مع ليديا تسير في الممشى :

> «قلت في نفسي إذا لم يتوقف هذا، وأعني الطعم المر في فمي والضغط الشديد حول رأسي كأنه ضغط قفص من الأسلاك، إذا لم يتوقف هذا فأنا مريضة إذن : أجل، من المحتمل جداً أنني محطمة، عليلة، ومحتضرة. يا للعنة! فقد سقطت على الأرض وأنا أقول : زهور، يا للغرابة. شعرت أني متفككة وعرفت أن مينارد يحملني إلى غرفة الجلوس.
> رأيت ليونارد فزعاً جداً ؛ قال لي سيأخذني إلى الطابق الأعلى ؛ الطرق مستمر في قلبي، والألم، وصار الجهد عنيفاً عند العتبة ؛ تغلّب عليّ شيء كالغاز ؛ ارتميت في غيبوبة ؛ ثم عاد الجدار والتصاوير إلى بصري ؛ رأيت الحياة مرةً أخرى. قلت يا للغرابة ؛ وهكذا بقيت مستلقية وأنا أستعيد شعوري بالتدريج حتى الحادية عشرة عندما حبوت وصعدت إلى

السرير. اليوم الثلاثاء، وأنا في الغرفة، فجاءت أثيل ـ المرأة العجوز الباسلة! ولكن هذا التماس مع الموت كان مرشداً لأمور كثيرة وكان غريباً. ولو أنني أفقت وأنا في الحضرة الإلهية لكنت أفقت وأنا ألوّح بجمع يدي والغضب على شفتيّ. لكنت هتفت : لا أريد أن أكون هنا ألبته! فهل هذه هي حالة الذين يموتون ميتةً عنيفة؟ إن كان كذلك فعلينا أن نطيل التأمل في حالة السماء وكيف تكون بعد انتهاء المعركة».

إن من المحتمل أن يكون هذا «التماس مع الموت» قد زوّد فرجينيا بفكرةٍ ما عن كيفية إنهائها لرواية الأمواج. استمرت تقول :

«سأستعمل هذه الصفحات المتبقية لألخص ظروفنا. فإذا تركنا موضوع نيللي جانباً، وهو أمر يضجرني[1]، أجد أننا الآن أغنى مالياً وأكثر حريةً من أي وقتٍ مضى. لم يكن عندي على مدى سنين جنيه واحد يفيض عن الحاجة؛ أو سرير مريح، أو كرسي بحالة جيدة فلا يحتاج إلى تعمير. أما هذا الصباح فقد وصلتنا من مخزن هاموند أربعة كراسي فاخرة، مريحة، فلم نعرها أي اهتمام.

نادراً ما أرى ليتون؛ هذا هو الواقع. والسبب على ما أتصور هو أننا لا ننسجم في دعواته وهو لا ينسجم في دعواتنا؛ أما

(١) ولعلّه يضجر القارىء أيضاً؛ ولكن من المناسب أن نقول إن نيللي كانت قد أجرت عملية جراحية في أيار ١٩٣٠، وظلت في طور النقاهة خلال ذلك الصيف بأسره. استخدمت فرجينيا بغيابها خدماً يوميين وكانت مرتاحة من هذا الترتيب، حتى أنها رفضت عودة نيللي إلى العمل محتجةً بصحتها ولو أنها استمرت تدفع لها أجرها. وفي نوفمبر ١٩٣٠ أشعرتها فرجينيا كتابياً بإنهاء خدمتها؛ ولكن استياء نيللي، وحججها التي ساندها ليونارد، تغلبت على قرار فرجينيا فعادت إلى الخدمة على أساس فترة تجريبية ابتداءً من أول كانون الثاني ١٩٣١. أما الخادمة الأخرى لوتّي فكانت قد تركت الخدمة وانتقلت إلى خدمة آل ستيفن في ١٩٢٤.

إذا التقينا على انفراد فكل شيء يجري كالمعتاد. ولكنْ، ماذا يعني الأصدقاء للمرء إذا كان لا يراهم إلا بضع مرات في السنة؟ أنا على اتصال متقطع بفورستر وهو تقطع مزمن. كلنا نشعر بالحياة ولا نفعل شيئاً لا نريده إلا نادراً. أقاربي من أسرة بيل شباب ذوو فكر خصب منتج وصداقات حميمة. . . . جوليان ينشر لدى Chatto & Windus أما فانيسا ودنكون فليس هناك من شيء يمكن أن يخرب العلاقة السهلة بينهما لأنها قائمة على البوهيمية. إن ميلي نحو البوهيمية يتزايد ـ رغم شهرتي الذائعة (وقد تلاشت منذ ١٥ تموز ؛ أنا مغمورة الآن : لست كاتبة ؛ أنا لا شيء ؛ لكنني راضية تماماً)، ويستهويني كثيراً التحلل والحرية وعدم الالتزام بشيء. وهذا الإيقاع (وأنا أقول إني أكتب الأمواج وفق إيقاع، لا وفق عقدة) ينسجم مع إيقاع الرسامين. لذلك فإن اليسر والرثاثة والقناعة كلها موجودة، ومضمونة. أما أدريان فلا أراه ألبته. وأظل على اتصال مستمر بمينارد. لا أرى ساكسون أبداً، وأنا مشمئزة من افتقاره إلى كرم الأخلاق ؛ مع هذا أود أن أكتب له. قد أفعل قريباً. جورج دكوورث يرغب، بعد أن شعر بالهوة السحيقة التي تفصل بيننا، بأن يتناول الغداء مع فانيسا ؛ يرغب بأن يشعر مرةً أخرى بالمشاعر العاطفية القديمة. على أية حال إننا نحن الاثنتين قريبتاه الوحيدتان، من جانب النساء. هذا نعيق غريب لغربان تعود إلى أعشاشها. أريد أن أقول إن العجرفة تبوء بالخسران في أواخر العمر. قال عنا حرفياً إننا «قمنا بما هو مرجوّ منا».

إن كلامي مسطح. هناك فيتا. نعم. كانت هنا قبل أيام بعد

الجولة الإيطالية مع ولديها ؛ سيارة مغبّرة وأحذية للسير على الرمال وشمعدانات فلورنسية، وروايات وغيرها مبعثرة على المقاعد. أنا أتخذ من أصدقائي مصابيح كاشفة فأرى حقلاً آخر - على ضيائها - وأرى رابية هناك، وهكذا أوسّع من المشهد أمامي».

وجاء جورج (وهو الآن سير جورج) لتناول الغداء في جارلستون، بديناً، مطمئناً، نهماً. وقد دأبت فرجينيا على وصف تصرفه في تلك المناسبة بضرب من الفزع الذي يشوبه المرح. لم يكن ذلك اللقاء جمعاً للشمل بالمعنى الحقيقي للكلمة ؛ ولا كانت كذلك الزيارة السنوية التي تقوم بها والدة ليونارد إلى قرية رودميل، وقد جرت في نهاية أيلول وأتت على يوم كامل كان يمكن تخصيصه لكتابة الأمواج. وجاءت التضحية باليوم قسراً، ذلك أن السيدة الزائرة عجوز خرقاء، مشاكسة، وعادية جداً، ولم تكن تربطها بفرجينيا إلا صلة النسب. كانت كلما أتت وجب أن تطعم بالحلوى ويحلو الكلام، فهي تتطلب التعاطف والإعجاب وإلا ذرفت دموع اللوم والتقريع.

لم تكن هذه المناسبات إلا بعضاً مما استنفد الوقت في صيف وصفته فرجينيا، رغم ذلك، بأنه أسعد موسم قضته وأكثره إرضاء للذات منذ المجيء إلى قرية رودميل.

عاد الزوجان وولف إلى لندن في الرابع من تشرين الأول فأقبلت فرجينيا على عملها لإنهاء رواية الأمواج. ولكنها دونت في الخامس عشر من ذلك الشهر أنها بدأت بداية سيئة وأحست بوجوب العودة إلى رودميل، فقامت بذلك وأثمرت عودتها نتائج طيبة. ثم كتبت في الثامن من تشرين الثاني : «وا أسفاه، إني أحس بالخدر التام في عقلي فلا أستطيع الاستمرار في كتابة حديث برنارد مع نفسه، هذا الصباح»، وكتبت في الثاني من كانون الأول :

«كلا، لا أستطيع كتابة المقطع الصعب جداً في الأمواج، هذا الصباح». استراحت أسبوعاً قبل أن تحاول التصدي إلى الشوط الأخير ـ كلام برنارد النهائي. أمضى الزوجان عيد الميلاد في رودميل، ولاحت النهاية في الأفق، فإذا بفرجينيا تصاب بالأنفلونزا؛ وقد تمكنت من استئناف الكتابة بحذر في اليوم الأخير من العام. ولكنْ كانت هناك صعوبات : كان البرد شديداً في القرية، وملكات الكاتبة الذهنية متجمدة؛ لم تستطع أن تكتب سوى بعض الجمل المترنحة. ولم تؤد زيارتها إلى جارلستون إلا على قليل من الراحة. كانت زيارة كئيبة، فالرسامون يعابثونها، كذلك فعل كلايف، الشباب يذكرونها بعمرها، فكأنهم يهزأون بها ويسخرون منها من حيث لا يدرون. لم يساعدها ذلك بالتأكيد على كتابة الأمواج.

وظل كلام برنارد مع نفسه يضع أمامها الصعوبات بعد أن عادت هي وليونارد إلى لندن مرةً أخرى.

> «ربما أستطيع كتابة حديث برنارد مع نفسه على نحوٍ يحطم النثر، ويحفر فيه عميقاً، ويجعله يتحرك ـ نعم، وأقسم بالله ـ كما لم يتحرك نثرٌ سابقاً؛ يتحرك بما يحتويه من الضحك والثرثرة والنشوة. . .
>
> وإن هذا لصحيح : فقد كُتبتْ الأمواج تحت ضغط كبير فلا أستطيع أن أتناولها وأقرأها كلها بين تناول الشاي والعشاء؛ ولا أستطيع أن أكتب فيها إلا زهاء ساعة واحدة أو أكثر قليلاً، من العاشرة إلى الحادية والنصف. أما طبعها على الآلة الكاتبة فهو أشق أجزاء العمل».

إلا أن رواية «الأمواج» كان لا بد لها أن تكتب، فقد تلكأت كتابتها حتى خطرت لفرجينيا فكرة مثيرة وهي ممددة بحوض حمامها في العشرين من كانون الثاني. أثارتها تلك الفكرة كثيراً حتى أن «الأمواج» أمست حيناً

من الوقت أكثر استحالةً من أي وقتٍ مضى. كانت الفكرة تتلخص بكتابة ملحق لكتاب «الغرفة الخاصة»، وقد يحمل عنواناً هو «حِرَفٌ للنساء». لم تستطع أن تفكر أسبوعاً كاملاً بشيء آخر فظل برنارد معقود اللسان. كانت الفكرة قد أطلقها خطاب ألقته فرجينيا في الحادي والعشرين من كانون الثاني في اجتماع نظمته فيليفا ستراجي بالاشتراك مع «جمعية لندن الوطنية لخدمات النساء». تكلمت فرجينيا أمام جمهور من المستمعين يبلغ مئتي شخص ؛ وتكلمت في ذلك الاجتماع أثيل أيضاً وكانت ترتدي لباساً يابانياً أزرق وهي بشعرٍ مستعار. كان الحدث ناجحاً على العموم، مع أن ليونارد كان ساخطاً من الأمر لخشيته مما قد يسببه ذلك الجهد من تأثير سيّىء على صحة فرجينيا يعرقل عملها مرةً أخرى.

وتخلت فرجينيا في أواخر ذلك الشهر عن نشاطها في الحركة النسوية وتفرغت للكتابة وهي ترجو إكمال «الأمواج» خلال ثلاثة أسابيع، بل كانت تعتقد في الثاني من شباط أنها ستنتهي منها خلال أسبوع واحد. «يا إلهي، ما أسعد الفرح حين ينتهي هذا الأسبوع». شعرت في الأقل أن محاولتها كانت محاولة جريئة، لم تعقبها متعة رائعة حين تتحرر من التزامها من جديد. ولكن كان عليها في نهاية ذلك الأسبوع بالذات أن تذهب إلى دار للعرض كانت تتدرب أثيل فيه على عزف مقطوعة عنوانها «السجن». كانت تجربة خلابة ـ جمهرة من العجائز البدينات يرفلن بالحرير، وأثيل، رثةً، قويةً، وهي تدير الفرقة بعنفوان لا بالعصا بل بقلم الرصاص وهي على قناعة تامة بأنها عظيمة عظمة بيتهوفن. قالت فرجينيا في نفسها : من يدري، لعلها مؤلفة موسيقية عظيمة ! هذا وكان اليوم الرابع من ذلك الشهر قد فسد على كلا الزوجين : فسد على ليونارد إذ كان عليه أن يؤدي فيه واجبه محلفاً في هيئة للمحلفين ؛ وفسد على فرجينيا إذ كانت تنتظر الطبيب في الساعة التاسعة والنصف لإجراء الفحص الدوري العام على أن تتفرغ للكتابة بعد خروجه. تأخر الطبيب ساعة ونصف. قد يبدو هذا للقارىء

أمراً بسيطاً حتى إذا انطوى على ضياع صباح واحد مخصص للعمل. ولكن الإحباط الذي يمكن أن يسببه مثل هذا التعطل، والغضب الذي يضيق به صدر المرء حين يحال بينه وبين إنهاء عمله، هما من تعاسات الحياة العظمى. لكأنه ينسحق تحت ركام من الأغطية السميكة فلا يستطيع التنفس إلا إذا أزيحت عنه، وما أن يحاول رميها بعيداً عنه حتى يحدث شيء ما فتتراكم عليه الأغطية مرةً أخرى، خانقةً، قهارةً، لا محيد عنها.

ولكنْ، ها هي النهاية قد بانت في الأفق أخيراً، فقد تمكنت فرجينيا حقاً من الحفاظ تماماً على جدولها الزمني الذي اقترحته لنفسها في الثاني من شباط. كتبت في السابع من ذلك الشهر تقول:

> «في الدقائق القليلة المتبقية لي هنا يجب أن أسجل انتهائي من (الأمواج)، فالحمد لله. كتبت الجملة (يا أيها الموت) قبل خمس عشرة دقيقة فقط، وقد طوّفت عبر الصحائف العشر الأخيرة من الرواية تطوافاً صحبته لحظات متوترة، ومنتشية، وثملة، حتى أنني كنت أتعثر في اللحاق بصوتي ذاته، أو في اللحاق بصوت متكلمٍ ما من نوعٍ ما (كما حدث عندما كنت مصابة بالجنون). أوشكت أن أخاف وأنا أتذكر الأصوات التي كانت تتطاير من حولي. على أية حال، إن العمل قد أنجز؛ فجلست خلال تلك الدقائق الخمس عشرة وأنا أحس بحالة من المجد والهدوء، مع بعض الدموع، إذ كنت أفكر بثوبي وهل كان بوسعي أن أكتب (جوليان ثوبي ستيفن، ١٨٨١ ـ ١٩٠٦) على الصفحة الأولى؟.
>
> لا أظن ذلك. إن هذا الإحساس بالنصر والانفراج إنما يعتري الجسد ولا يعتري الروح! وسواءً كان العمل جيداً أو رديئاً

فإنه قد أنجز؛ بل شعرت في النهاية لا بأنه انتهى وإنما قد أنهي، قد أكمل، وأن القول قد قيل ـ ولا أدري بأية درجة من التسرع والتشتت؛ ولكنني أعني أنني أحطت بشبكتي حول تلك الزعنفة في سطح المياه الفارغ التي تراءت لي فوق المستنقع من نافذتي في رودميل حين قاربت النهاية من رواية (إلى الفنار)».

ولئن كانت رواية «الأمواج» هي رائعة فرجينيا كما يؤكد كثيرٌ من النقاد، فإن صباح السبت، السابع من شباط ١٩٣١، يجب أن يعتبر إذن هو الذروة في أدائها الفني.

أجبرني هذا السرد لجهودات فرجينيا النهائية المبذولة لإنجاز روايتها على تجاوز حدث كان له أهميته في حياتها. فقد قرر ليونارد وفرجينيا في أواخر تشرين الأول ١٩٣٠ أن يتخليا عن عملهما في مطبعة هوغارث. إنهما قد يستمران في نشر أعمالهما وأعمال عدد من الأصدقاء، فضلاً عن الأعمال التي سيقومان بعملية طبعها الفعلي شخصياً بأيديهما؛ ولكن المطبعة لن تكون من أعمالهما الرئيسية بعد الآن. لم تكن الدوافع التي حدت بهما إلى اتخاذ هذا القرار دوافع جديدة، فقد كانت المطبعة تحرم الزوجين من الحرية وتلقي على عاتقهما عملاً كثيراً. كانت فرجينيا تود، لو استطاعت، أن تضع حداً نهائياً للمطبعة، فهي تجد عملها فيها، لا سيما قيامها بمهمة «القارئة» للأعمال التي تقدم للنشر، عملاً شاقاً يضيق به صدرها. ولكن ليونارد لم يكن ليقدم بسهولة على تقويض البنيان المرموق الذي أشاده. ولا أشك بأنه هو الذي كان وراء المحاولة الجديدة لتعيين مساعد قدير في المطبعة. وقع الاختيارُ هذه المرة على الشاب جون ليمان J. Lehmann وهو من أصدقاء جوليان. كان قد تخرج في كيمبردج حديثاً، وكان الزوجان قد قبلا تواً نشر قصائده في مطبعتهما. كانت النية متجهة إلى أن

يدير هذا الشاب العمل بإشراف ليونارد ليصبح بعدئذٍ مديراً ثم في النهاية شريكاً.

كانت فرجينيا قد التقته في أوائل العام الجديد : «فتى أقنى، متوتر، متورد الوجنتين، مع خصلٍ جعداء من الشعر وهي زينة الشباب ؛ نعم، ولكنه مثابر، حاد الذكاء».

لم يدم هذا الترتيب إلا أقل من سنتين، ولكن نهايته لم تعن نهاية العلاقة بين جون ليمان ومطبعة هوغارث. كانت علاقته بالمطبعة قد عززت من الصلات الواهنة التي كانت قائمة بين الزوجين والكتاب الشباب المرموقين من اليساريين مثل ستيفن سيندر وسي. داي لويس C. Day Lewis ودبليو. إج. أودين W. H. Auden وكرستوفر إشاروود Isher-wood، وكان ليمان قد روّج أعمالهم من خلال المطبعة. كان من شأن هذا أن تلاشت تدريجياً الفكرة التي كانت تراود الزوجين بين حين وحين بإغلاق مشروع الطباعة كلياً.

ذهبت فرجينيا إلى صالون للتجميل وجعّدت شعرها. لم تستسغ فانيسا شكل الشعر الجديد فامتعضت فرجينيا من ذلك. ثم اختصمت مع أثيل. كلتاهما كانت في حالة تجعلها متأهبة للخصام. كتبت فرجينيا في الحادي عشر من نيسان، وكانت مكتئبة ومنهكة : «أنهيت أردأ رواية في اللغة»، وهذا طبعاً تواضع زائف ولكنه ينطوي على جرثومة قنوط حقيقي وعلى معرفتها بأنها لم تنجز على أية حال ذلك العمل الفني الكامل الذي يجب أن يظل دائماً غير منجز. أما أثيل فقد قدمت مقطوعتها، «السجن»، في أداء ناجح في أدنبره، ولكنها لم تستقبل استقبالاً حسناً في لندن. وكانت تظهر، برأي فرجينيا، غروراً رخيصاً وضيعاً. يضاف إلى هذا أن ما لا تحبه إحداهما في الأخرى ما لبث أن اتضح لهما معاً. كانت أنانية أثيل الطاغية وتطلبها الفظيع، المتواصل، للاهتمام تؤذيان فرجينيا فتصاب بالصداع،

فتشعر بأنها هدف للهجوم وبأنها تُغلب ويُبغى عليها، فردت على ذلك بضراوة دفاعاً عن شخصيتها ذاتها. كانت إحداهما ترى في الأخرى صفة الاعتداء وتجد في أصدقائها المثالب. ولم تكن أثيل لتستحسن بلومزبيري، أو من عرفتهم من أفراد تلك الحركة، ومع أنها أعجبت بدنكون وفانيسا وكانت متلطفة مع جيل الشباب، ولكنْ لم يكن بينها وبين ليونارد إلا حب مفقود، وأظنها لم تكن ترى إلا رهطاً متخفياً من الملحدين والاشتراكيين التافهين الذين أطلقوا شعورهم طويلةً ولم يستحسنوا موسيقاها ولعلهم سخروا منها، ولم تكن ترى في بلومزبيري إلا حركة فظة، معادية، لا هوية لها، تلك الحركة التي أسخطت كثيراً من الفنانين الفاشلين. وكانت فرجينيا تبادل أثيل الغيض بازدراء أشد فلا تعير أصدقاءها اهتماماً ولا أقرباءها تقديراً. والظاهر أن حال علاقتهما بلغ حد الانفجار في حزيران ١٩٣١. كانت فرجينيا متوعكة مرة أخرى، رغم أنها وليونارد كانا قد قاما بسياحة حافلة، وإن كانت أيامها مطيرة، أخذتهما بعيداً حتى بلغا برانتوم في فرنسا حيث مونتانيه Montaigne. أزعجتها أثيل بقولها إنها لا تشعر بالتوعك إلا من جراء كبدها. ولا ريب أنها لم تكن تعني بذلك إلا الكلام اللطيف، تماماً مثلما لم تكن تعني من بطاقة بريدية أرسلتها لها مزينة بصورة فرد مريض إلا الفكاهة، ولكن فرجينيا لم تكن في حال يتقبل مثل هذا المزاح. لم تبد لها تلك المزحة على شيء من الدعابة على الإطلاق، إذ كانت تعاني من صداع ينخر في رأسها كالفأر وهي تعيد طبع «الأمواج» على الآلة الكاتبة ثم تصحح ما تطبعه وتعيد الطباعة مراراً. ترددت العلاقة بين الاثنتين حتى انفجرت أثيل في ٢٩ حزيران برسالة دعتها فرجينيا رسالة سخيفة ومريعة. أرادت أن تجيبها جواباً قارصاً، ثم اكتفت بإرسال قصاصة مقتضبة قالت فيها : «أفترض من لهجتك أنك لا تريدين المجيء إلى هنا يوم الإثنين». ولم تأت. وسادت فترة من الصمت الجريح. وأخيراً جاءت أثيل لتعتذر على نحوٍ ما ـ وبعبارة أخرى لتوضح ما قالته ولتدافع عن نفسها ولتقلل من شأن

ما جرى باستطرادات لا تنتهي حتى أخذ الشاي الذي صب لها يبرد وهي لاهية عنه. ما أن غادرت حتى كتبت لها فرجينيا تقول ما معناه : إن ما جرى يجب ألا يحدث مرةً أخرى، وأضافت أن أثيل تتطلب من التعاطف أكثر مما ينبغي. كان هذا عيباً يصاب به سير لزلي في تعامله مع صغاره. ولا مفر من أن تكون النتيجة هي القطيعة. وواقع الأمر أن فرجينيا كانت قد اكتشفت أنها أقوى الطرفين، فكان بوسعها أن تملي شروط صداقتها مع أثيل. كانت هذه تتعالى وتتظاهر باللامبالاة وتطلق ما في رأسها من كلام، أما حين تكون فرجينيا صامتة أمامها فإنها تنهار، فهي بحاجة إليها. كانت فرجينيا تودها وتأنس لها وتتعاطف معها على نحوٍ ما، ولكنها تكون بدونها على خير ما يرام. كان لهذه الصداقة أن تستمر وفق هذه الشروط، بل إنها استمرت حقاً، إنما كانت تسودها المشاجرات. علينا أن نتصور هذا كله إزاء التعاسة التي تحس بها فرجينيا وهي تصحح النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة من رواية الأمواج.

كتبت فرجينيا في السابع عشر من تموز : «أجل، أظن أن لي أن أقول في هذا الصباح أنني انتهيت». إن الرواية يمكن تقديمها الآن إلى ليونارد. هل سيدينها، على نحوٍ متحفظ بالطبع، ويجدها صعبة للغاية، غير محبوكة للغاية؟ ولكن ليونارد جاءها بعد يومين وهي في بيت الحديقة في قرية رودميل قائلاً إنه وجد المئة صحيفة الأولى صعبة جداً، «ولكن الرواية هي رائعة الروائع، إنها أحسن كتبك». شعرت براحة تستعصي على الوصف والتعبير وخرجت تمشي في المطر «خفيفة خفة الأسماك الصغيرة». والآن صار بوسعها أن تحصي النعم التي في متناولها، وهي أكثر من أن تحصى : إن لديها «كنزاً»[1] مقداره ٨٦٠ باوند استرليني من أرباح المطبعة

(١) «وضعتُ في نهاية السنة حساباً بالمصروفات الحقيقية وحساباً بمجمل المدخولات الفعلية المشتركة، واستحصلت الدخل الصافي الفائض فقسمته بيننا بالتساوي وكان ذلك هو ما أسميناه (الكنز) الذي بوسعنا أن ننفقه كما نشاء». (من مذكرات ليونارد وولف، المجلد المعنون Downhill، ص ١٤٢).

وعوائد المبيعات من كتبها، وهي ترفل في المباذخ : سرير من أرقى الأنواع، راديو، ثلاجة، كهرباء ؛ وبوسعها أن تخصص لأنجليكا إبنة أختها مبلغاً للملابس، فهي ستبلغ قريباً سناً تقدر فيه هذه الأشياء. وأقبلت تكتب شيئاً خفيفاً، يسيراً، وغير متعب - سيرة حياة كلب السيدة براوننغ، الكلب فلاش Flush.

ثم انها قد انتهت من الارتباكات التي سببتها أثيل وكذلك من الارتباك الذي سببه النحات ستيفن توملين Stephen Tomlin. كان هذا يأسر الناس بفتنته، ولكنه لم يستطع أن يأسر فرجينيا كلياً، ولو أنه أقنعها بأن تجلس له لكي ينحت لها رأسها. لم يكن ذلك من دواعي السرور لأحد، ولكنه كان من دواعي الخلود للنحات ذاته. أما فرجينيا نفسها فقد فاتها أن تتذكر، في موافقتها على هذا الاقتراح، أن على النحات أن يطيل النظر إلى من هو جالس أمامه، وكأنها نسيت أن أسوأ ما تكرهه هو النظر إليها. لم تسمح إلا إلى القليل جداً من أصدقائها بتصويرها، إذ لم تكن تحب أن تصور، ولم تلتقط بعض صورها إلا خلسةً. فإذا كان الأمر على هذا المنوال مع المصور أو الرسام فما بالك بالنحات؟ وقد يكون الحامل لآلة التصوير مثيراً للغيض ولكنه يقترف الإغاضة سريعاً. وربما يكون الرسام أنكى في هذا المجال، ولكنّ مما يهوّن أمره أنه قد يفترض في الجالس، كما افترضت الرسامة ليلي بريسكو Lily Briscoe حين رسمت فرجينيا، أن هذا الذي أمامه ليس إلا جزء من الموضوع، وقد يكتفي باللمحة العابرة. أما النحات فلا موضوع لديه إلا الجالس أمامه، فهو يريده من الأمام ومن الخلف ومن كل زاوية متصورة ؛ وما عمله إلا عمل الحملقة والتحديق والقياس واللف والدوران والاستقصاء المنهك الذي لا يرحم. لم تستطع فرجينيا أن تطيق هذا كله. تراءى لها وجه توملين، وهو يحملق بها، دميماً، بذيئاً، وقحاً. وبدا الأمر لها كالإهانة لشخصها، فهي تحتجز هناك ويبدد وقتها الثمين، ولا طاقة لها بذلك.

حاولت فانيسا عبثاً تيسير الأمور على فرجينيا فجاءت معها ورسمت لها تخطيطاً بالقلم. وجاءت أثيل أيضاً، ولكن دون جدوى. ليس ثمة ما ينقذ الموقف. والأنكى أن النحات نفسه لم يكن يحفظ المواعيد. وفوق كل هذه المعوقات كان على فرجينيا أن تسحل أقدامها في شوارع متربة ـ الأمر الذي كانت ستجده رائعاً لو كان هدفه مختلفاً ـ حتى تصل إلى مشغل النحات. وباختصار كانت، على حد تعبير فانيسا، «في حالةٍ من الغضب والقنوط»، لذا أحجمت فرجينيا عن المجيء بعد أربع جلسات قصيرة فقط. ما أسرع مرور الوقت أمام الفنان الذي ينحت أو يرسم وما أطوله أمام الجالس إزاءه. وبعد أعجوبة من أعاجيب الإقناع تفضلت فرجينيا بالجلوس للنحات مرتين، ثم لم تستطع مزيداً. تحررت من المعاناة. وكان توملين المسكين بائساً، تعيساً، فلم يكن أمامه إلا أن يترك العمل ناقصاً دون أملٍ ببلوغ نتيجة مرضية على الإطلاق.

أما المفارقة النهائية بعد هذه المفارقات كلها فهي أن رجاء ستيفن توملين بالخلود إنما يقوم على ذلك التمثال النصفي وحده. إنه تمثال لا يداهن فرجينيا، بل يجعلها تبدو أكبر سناً وأشد ضراوة مما كانت عليه، ولكن فيه قوةً وحياةً وصدقاً لم أجد مثيلاً لها في أعمال توملين الأخرى التي رأيتها. لم تمنحه فرجينيا وقتاً يفسد فيه تصوره الألمعي الأول. إنه، بما كان عليه من التوتر والجموح واليأس قد يمّم بطينه نحو مواضع يبرز فيها التكوين الجوهري لوجهها ما أتاح له الوقت ذلك. إن عينيها فارغتان وهما تحدقان بامتعاض أعمى مهين، ولكن الوجه أشبه بها من أيٍّ من صورها التي لدينا.

هذا وبعد أن انتهت فرجينيا من أمر «الأمواج» في نهاية شهر آب صار بوسعها أن تتصدى لطبعها وأن تستقبل أم ليونارد السيدة وولف لتناول الغداء، والليدي كولفاكس التي جاءت إلى المنزل في رودميل دون دعوة،

ومينارد كينز الذي كان يتنبأ بالويل والثبور والدمار والأزمة والحرب ببلاغة دعتها أن تتساءل بينها وبين نفسها : هل أنها تعبث فيما روما تحترق؟.

كتبت في التاسع عشر من آب : «خرجت مسوداتي من يدي البارحة، ولن أراها مرة أخرى». وهكذا صارت رواية «الأمواج» بذمة الجمهور، فلزمت الكاتبة فراشها تشكو الصداع، وقرأت في السرير رواية Ivanhoe فانتقصت شأنها. كيف كان من الممكن أن يأخذ والدها مشهد الرماية بالقوس مأخذ الجد؟ والبطلات غير الحقيقيات؟ ولكنها ظلت تحظى بإعجابها أكثر مما تحظى به رواية هيو وولبول المعنونة Judith Paris.

ويجدر بنا أن نتوقف هنا قليلاً لننظر في ردود فعلها نحو هذه الرواية بالذات لأنها ردود فعل تمثل فحصاً لإخلاصها. فقد دونت في الأول من أيلول ١٩٣١ ما يلي :

> «. . . هذه الرواية من كتب متحف لندن. إن هيو يقفز بحماس زائف ـ مجموعة من الأشياء التي تقتنى للذكرى ـ خرز لامعة ـ لا تربطها رابطة. لماذا؟ ليس هناك من إحساس مركزي في أي موضع ـ ليس هناك إلا : (أنا بمنتهى الأهمية ـ بمنتهى العظمة ـ بمنتهى القدرة على الخلق). صحيح. إن في الكتاب كفاءة قديرة جداً، وهو مقتصد في الألفاظ ـ لكنها ألفاظ بلا جذور. أجل، هذا هو الكتاب بالضبط. إنه بأسره قاذورات تافهة من الأشياء التي تكنس كنساً».

بعد أسبوعين، وكانت النسخ الأولى من «الأمواج» قد وزعت، تناهى إلى مسامع فرجينيا ما صدر عن هيو من رد فعل أولي لم يكن في صالح الكتاب. إذ نقل عنه أنه قال لأصدقائه إن رواية فرجينيا الأخيرة مخيبة للآمال ـ «كل شيء فيها هو عن لا شيء ـ لكنها مكتوبة بأناقة، بالطبع. «أحست فرجينيا يوم بلغها ذلك بشقاء أليم، لكنه انقلب في اليوم التالي إلى

سرور غامر حين تسلمت من جون ليمان رسالة حماسية في إطراء الرواية. وقد تلتها رسائل كثيرة مماثلة، فإذا بفرجينيا تعوم مرة أخرى على موجة من النجاح. في الرابع من تشرين الثاني كتب لها هيو نفسه وهنأها بطبعتها الثانية. كادت مبيعات «الأمواج» تبلغ نصف مبيعات «جوديت باريس».

«سرني أن أرى (الأمواج) تطبع طبعة ثانية سريعاً. إن الكثير مما في الرواية يستعصي على إدراكي، لأنني لا أستطيع أن أشعر أنه واقعي. فهذا الواقع الذي في الرواية غريب جداً ـ شخصي للغاية وغير معقول ـ وبعضه رائع وأنا أشعر بأني مخطىء بشأن (واقعي)».

أجابت فرجينيا على هذه الرسالة فقالت في جوابها :

«كنت، يا عزيزتي هيو، أنوي أن أكتب إليك، ولكنني لا أنفذ أبداً ما أنوي أن أفعله، على خلاف طريقتك، فكيف تحصل على الوقت؟ على أية حال ـ أنا مهتمة جداً بشأن عدم الواقعية في رواية الأمواج ـ يجب أن نتداول في ذلك (أعني لماذا تظن الأمواج غير واقعية؟ والغريب أنني استعملت هذا التعبير بالذات عن روايتك : جوديت باريس. فقد قلت إن أشخاص الرواية ليسوا حقيقيين في واقع الأمر، بالنسبة لي ـ ومع أني أعتقد بذلك حقاً فقد لا تصدق إذا قلت لك إن في روايتك صفات شتى أعجب بها وأحسدها عليك. لكن عدم الواقعية تستلب اللون من الرواية، بالطبع ؛ وفي الوقت نفسه لا أرى أن هذا هو الحكم النهائي على أيٍّ منا ـ أنت واقعي بالنسبة للبعض ـ أنا واقعية بالنسبة للبعض الآخر. فمن الذي يقرر ما هو الواقع؟ لا أظن أن الذي يقرره هو عزيزنا العتيد هارولد نكلسون، على أية حال، علماً أنني

لم أسمع إذاعاته [كان هذا يذيع أحاديث عن روايتي جوديث باريس والأمواج]، أما إذا كان يقسّمنا كلنا، كما تقول، إلى مدارس منفصلة بجرة قلم فيجعل هذه المدرسة معادية إلى تلك، فإنه مخطىء كلياً؛ إن تعليم الجمهور أن هذه هي الطريقة التي عليهم أن يقرؤنا بها تعتبر جريمة وفضيحة، كما أن ذلك يفسر الكساح الذي يجعل النقد كله عديم القيمة. يا إلهي ـ ما أشد تعبي لأني حبيسة قفص مع ألدوس وجويس ولورانس! ألا يمكننا أن نتبادل الأقفاص للمتعة؟ ما أشد ما سيفزع ذلك الأساتذة كلهم!».

ويبدو لي أن هذا الجواب يتسم بالاعتدال ـ ولو أنه كان قد كتب حين كانت فرجينيا في خضم مشاعر أليمة بعد أن نقلت إليها ثرثرة هيو عن «الأمواج» لجاء جواباً أقل اعتدالاً. صار بوسعها في تشرين الثاني أن تكتب إلى هيو بثقة متنامية بالنجاح. فقد كتب لها فورستر يقول إنه عثر أخيراً على رواية من الروايات الخالدة، وهذا قول لا أحسب أنه يقوله عن رواية هيو. ولكن هيو آلمها بجرح عميق، فقد وجدت في رسالته ما يؤكد الإشاعات التي بلغتها. على أنها في جوابها له أغفلت ذكر الأمر الذي لو أنها ذكرته لكان مسيئاً بلا مبرر ـ ألا وهو إحساسها بتصنع هيو؛ إن ردها يأتي على ذكر الصفات الطيبة التي دونتها في يومياتها ويبالغ فيها، كما أنه يغوص إلى جذور المسألة كما رأتها ـ عدم الواقعية السائدة أساساً في عالم هيو الخيالي.

«ولكنْ، ما أسعد هذه الحياة». هكذا كتبت في ١٦ تشرين الثاني. فهي وإن مضت لتذكر بعض المزعجات البسيطة ـ خلافات مع فيتا، مع ليونارد الذي لم يكن كتابه (ما بعد الطوفان) بالقدر الذي كان يرجى له من النجاح، فقد كتبت أيضاً: «إن سعادتي عظيمة جداً ولا يمكن أن تتلوث

بشيء». كانت أثيل في ذلك الحين تسلك أحسن السلوك، وكانت فيتا مقبولة جداً. صحيح، جاءت نتائج الانتخابات العامة مدمرة لحزب العمال؛ وكانت البلاد تعاني من أزمة اقتصادية خانقة. كما أن فرجينيا كانت قد صرحت إبان الحملة الانتخابية بأنها ستصوت ضد المرشح العمالي في ساسيكس لأنه حطّ من قدر نفسه بأن أشاد بيتاً قبيحاً على قمة الرابية في قرية رودميل مما دعا ليونارد أن يطلق مقولته الفذة مخاطباً المرشح: «إنك قد فعلت المستحيل - فقد أفسدت منظر الطبيعة على الآخرين جميعاً دون أن نحصل على منظرٍ لنفسك». ولكن هذا كله لا يساوي شيئاً إزاء ما قاله فورستر، إزاء الحقيقة الثابتة التي تشهد بنجاح مغامرتها الاستثنائية في الأدب الروائي. نعم، كانت فرجينيا سعيدة في ذلك الخريف، وإن كانت منهكة، وكان أمامها المزيد مما كانت تريد أن تكتبه. كتاب «فلاش» يسير على نحوٍ حسن. وهي تفكر بكتاب آخر تريد أن تسميه «الشجرة»، وبكراسٍ عن الحركة النسوية، وبالمجلد الثاني من كتاب القارىء العمومي. ولكن سعادتها كانت قصيرة الأمد.

ففي أوائل كانون الأول طلب إليها ليونارد أن تحيا حياة المقعدين حتى عيد الميلاد، فوافقت. ويعني هذا الإقلاع عن الكتابة وعن الحفلات معاً. ولكنها أمتعت نفسها في العاشر من ذلك الشهر بكتابة رسالة إلى ليتون. كانت قد حلمت به في الليلة الماضية، وكان كلاهما في ذلك الحلم في عمر الشباب مرةً أخرى ويغص بالضحك. لم يكن لديها من أخبار ترويها له، فاكتفت تقول له: «حين تأتي إلى لندن مع حلول موسم الزنابق وارتداء السراويل القطنية البيضاء أرجو أن تأتي وتزور صديقتك القديمة المخلصة فرجينيا». لم يلتقيا خلال السنوات القليلة الماضية إلا لماماً، وكانت تجده حين يلتقيان آسراً بفتنته وقد نضج وعجم عوده الدهر، تبرق عيناه من وراء نظارتيه، كريم الأخلاق ومسالماً. لم يحز كتابه «أليزابيت وأسيكس» على إعجابها، ووجدته مخيباً للآمال. كانت تأسف لهذا ولما تزل تحس بشيء

من الحسد، ولكنها ترحب في الوقت نفسه بكتابه «صور قلمية مصغرة» ذلك أنها وجدت ليتون في تلك المقالات وقد تناول مادةً تليق بقلمه تماماً. حين كتبت له رسالتها تلك في كانون الأول كان ليتون مريضاً. وعندما وصلت رسالتها إلى حيث يقيم في هامسبراي Ham Spray كان المرض قد اشتد عليه كثيراً. وفي أمسية عيد الميلاد كان الأمل بشفائه منعدماً. جلست فرجينيا مع ليونارد بجوار المدفأة في منزلهما في قرية رودميل وبكيا بكاءً مراً. تكلما عن الموت، عن الشيخوخة، عن فقد الأصدقاء. ثم وصلت في يوم الميلاد رسالة هاتفية أنعشت آمالهم. إن ليتون أحسن حالاً إلى حدٍ ما وتحسنه مستمر، فكان الإحساس بالانفراج رائعاً. ظلا ينتظران الأنباء وهما في حالة انفعال ولكنهما يأملان خيراً، وليتون في حالة متقلبة بين التحسن والسوء، ثم شدا الرحال بالسيارة في الرابع عشر من كانون الثاني إلى حيث يقيم ليتون. وجدا المكان حاشداً بأفراد أسرة ستراجي، تسودهم الكآبة ويعكفون على قراءة الروايات البوليسية أو حل الكلمات المتقاطعة تزجيةً للوقت. ألقت بيبا Pippa برأسها على كتف فرجينيا وأجهشت بالبكاء وهي تقول: «إنه مريض جداً، فكيف يمكن له أن يتحسن؟» كان المنزل مليئاً بالممرضات القديرات، الطاعنات في السن، وطقوس التمريض تجري على نحوٍ طيب. كانت كارنغتون تتنقل هناك وهناك بين الموجودين، لا تكاد تعرف أحداً منهم. لم يدخل الزوار على ليتون بل قيل لهم إنه مسرور لمجيئهم.

كان من المقرر إقامة حفلة تنكرية في مرسم فانيسا في الحادي والعشرين من كانون الثاني. فهل تقام؟ أبرق جيمز ستراجي يقول: «ليتون أحسن كثيراً»، فأقيمت الحفلة. أخذ الضيوف يتقاطرون، والضوضاء تتعالى مع الضحك، ولكن فرجينيا ودنكون وفانيسا كانوا قد انتحوا جانباً وهم يذرفون دموعهم بهدوء، فقد علموا أن برقية جيمز كان يجب أن تقول: «أسوأ كثيراً» ـ فقد مات ليتون عصر ذلك اليوم بالذات.

الفصل السابع
١٩٣٢ ـ ١٩٣٤

في الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٢ بلغت فرجينيا سن الخمسين، وقد كتبت ستاً من الروايات حتى الآن، وغدت شهيرة، أما ليتون فقد مات. كانت تحس بالإنهاك المادي والمعنوي. إنها تأسى على فقد صديق قديم، ولعل حزن ليونارد عليه كان حزناً أعمق فصداقته معه أقدم عهداً. كان كلا الزوجين قد شعر على ما أظن بأن العالم قد خسر فناناً لم يجد نفسه قط، ولم يحقق قط آمال معاصريه فيه من خريجي كيمبردج، ولم يكتب قط ذلك الكتاب «الأسمى» الذي كانوا يعتقدون أنه قادر عليه.

وطرحت فكرة لكتابة سيرة حياة ليتون، فاقترحت شقيقاته، أو بعضهن، أن تكتب فرجينيا «شيئاً». ولكنْ، ولتقديم فكرة ما عما كان عليه ليتون حقاً فإن من الضروري، باتفاق الجميع، تناول مغامراته الجنسية تناولاً صريحاً. وبدا ذلك في ذلك الحين مستحيلاً استحالة مطلقة، فسلم الجميع بأن من غير المستطاع كتابة سيرة صادقة له، ولم تشأ فرجينيا أن تكتب شيئاً يجافي الصراحة والصدق.

في هذه الأثناء كانت عقابيل وفاة ليتون تحدث قلقاً وحزناً. كانت كارنغتون كما رأينا قد تزوجت من رالف بارتريدج لا لسببٍ إلا لتتمكن من

الاستمرار في البقاء مع ليتون ؛ وقد ظلت بعد زواجها زميلة مخلصةً له تصاحبه على الدوام. كانت قد تحدثت قبل موته عن اللحاق به ؛ وحين صار الموت على الأبواب حاولت قتل نفسها، ولا ريب أنها ستكرر المحاولة مرة أخرى. وقد اتخذ أوليفر ستراجي، عند تناوله العشاء في منزل الزوجين وولف، رأياً في هذه المسألة ينطوي على إدراك سليم. إنها إذا كانت تريد أن تقتل نفسها حقاً فلماذا يحاول الآخرون إيقافها عما تريد؟ إن لها الحق في التخلص من حياتها. كان أوليفر يرى أن انتحارها أمر معقول جداً.

إن من السهل اتخاذ هذا الرأي ممن ليس على تماسٍ فعلي بالذي يريد الموت. أما رالف فقد كان مصمماً على إنقاذ حياة زوجته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ؛ كان يرى أن من المفيد لها أن تختلط بالناس لا أن تذوي وحيدةً مع الأسى. طلب من الزوجين وولف أن يقوما بزيارتها. وهكذا ففي صباح يوم بارد جميل من آذار استقلا سيارتهما وذهبا إليها في ذلك المنزل الجميل بشرفاته المديدة المطلة على سفوح ويلتشاير. فتحت لهما كارنغتون الباب بسترتها القصيرة وحول عنقها عقد مبروم. كانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان تشحبان بالعذاب. لم تكن تنتظر مجيئهما.

دخلا وكان البيت بارداً، وغرفة ليتون في حالة بالغة من التأنق. أرادت كارنغتون أن تحافظ عليها كما تركها ليتون تماماً، ولكن آل ستراجي حسبوا ذلك أمراً مريعاً. استطاعت أن تقدم للزوجين غداءً جيداً، وانتعشت بصحبتهما قليلاً حتى أنها كانت تطيق الضحك بين حين وحين. اقترح ليونارد أن يخرجوا بعد الغداء للسير على الأقدام. أخذتهما إلى «بستانها» وقالت إن في الأشجار هناك أزهاراً زكية الشذا في الصيف. ثم تركتهما لشأنهما. قالت تريد أن تكتب عدداً من الرسائل. فذهب ليونارد لإصلاح شيءٍ ما في السيارة ؛ وتجولت فرجينيا في الحديقة قليلاً وعادت إلى غرفة الجلوس. وجدتها كارنغتون هناك فعرضت عليها تناول الشاي. صعدا معاً

إلى غرفة ليتون، وهناك انهارت وأجهشت بالبكاء بين ذراعي فرجينيا.

«بكت وقالت إنها كانت فاشلة دائماً. (لم يعد عندي ما أفعله. قمت بكل شيء يريده ليتون. ولكني فشلت في كل شيء آخر. الناس يقولون إنه كان أنانياً جداً نحوي. لكنه أعطاني كل شيء. كنت مخلصة لأبي. وأكره أمي. كان ليتون أباً لي. علمني كل شيء أعرفه. قرأ لي الشعر وقرأ لي اللغة الفرنسية)».

كانت نية كارنغتون واضحة كل الوضوح. ولم تكن نية فرجينيا كذلك، فلم يكن يسعها، هي التي حاولت أن تقتل نفسها مرتين، لا أن تعظها ولا أن تكذب عليها. وهي لا تزعم، ولا تستطيع أن تزعم، أن ما قالته كارنغتون كان خالياً من المعنى.

«قلت إن الحياة تبدو لي أحياناً عبثاً في عبث، ولا جدوى منها، خاصةً حين استيقظ ليلاً وأفكر بموت ليتون. أمسكت بيديها. شعرت أن رسغيها صغيران جداً. بدت مهجورة، لا حول لها ولا طول، كأنها حيوان صغير متروك. كانت رقيقة جداً؛ أحياناً تضحك؛ وتقبلني؛ وتقول إن ليتون قد أحب أصدقاءه القدامى أحسن الحب؛ ولكنه كان سخيفاً مع الشباب، إنما هذا استثناء لا غير. وقالت إنها كانت تغضب لأنهم لم يفهموا عظمته. فقلت إني كنت أعرف عظمته دائماً. فأجابت بأني كنت أحفل كثيراً بأصدقائه الشباب. . . وفي هذا العام الأخير صمم ليتون بينه وبين نفسه أن يودع عمر الشباب ويبلغ أواسط العمر. كان واقعياً. واجه الحقيقة حين أدرك أن روجر سينهاوس لا يمكن أن يكون غلامه المعشوق. وكنا سنذهب معاً إلى مَلَقَةْ ثم أنه كان سيكتب

عن شكسبير. وكان سيكتب مذكراته التي ستستغرق عشر سنوات. إن وفاته مفارقة عظيمة، أليس كذلك؟ كان يظن أنه يتحسن صحياً. قال أشياء كالملك لير عندما كان مريضاً. أردت أن أدخلكِ عليه يوم مجيئك لكني خشيت أن أفعل ذلك، لأن جيمز وبيّبا قالا إن علينا ألا نخاطر بشيء وأن ذلك قد يؤذيه. فقلت لهما طبعاً، طبعاً، وروجر سيأخذ الكتب طبعاً ـ ينبغي له. ماذا قلنا أيضاً، أنا وكارنغتون؟ لم يبق كثير من الوقت. شربنا الشاي مع البسكويت المكسّر. وقفت هي قرب الموقد. ثم قلت: يجب علينا أن نذهب. كانت هادئة جداً. ولم تبد رغبة ببقائنا».

حين همّ الزوجان وولف بالمغادرة أخرجت كارنغتون علبة فرنسية صغيرة، وقالت: «جيمز يقول عليّ ألا أبدد أشياء ليتون. أما هذا فسآخذه. أنا أعطيته له». كانت تبدو فزعةً حذر الخطأ، كالطفل الذي وجِّه إليه كلام قارص. وعند الباب قبّلت فرجينيا مرات عدة.

«قلت لها: ستأتين لزيارتنا في الأسبوع القادم أم لا؟ ـ كما تشائين. قالت: لا أدري، قد آتي وقد لا آتي. وقبلتني مرة أخرى، وودعتني، ودخلت».

في مساء اليوم التالي جاء ستيفن توملين ليزف الأنباء. أطلقت كارنغتون النار على نفسها صباح ذلك اليوم. كانت حتى في هذا أشبه بالفاشلة، فماتت ميتة بطيئة بألم شديد. كان من المستحيل على فرجينيا ألا تشعر أنها مسؤولة إلى حدٍ ما. فقد كان من الخطأ أن تكذب على كارنغتون؛ ولكنْ كان عليها أن تدافع عن الحيَاة بقوة أشد. على أني لا أظن أن هناك حجة كان يمكن لها أن تثني كارنغتون عما أرادته.

كان لا بد من إجراء التحقيق القضائي؛ ولكن الطبيب العدلي كان رجلاً

معقولاً فاعتبر الانتحار حادثاً شخصياً دون أن يدعو ليونارد أو فرجينيا للشهادة. ذهبا بعدئذ وفق خطة سابقة إلى East Anglia للقيام برحلة قصيرة بسيارتهما فأمضيا بضع ليالٍ في كيمبردج وكرومر، وكذلك في آيسويج مع روجر فراي. لاحظت فرجينيا اسم بارتريدج، وهو اسم الزوجية لكارنغتون، على شواهد القبور وفوق دكاكين البقالة. وفي الخامس عشر من نيسان شد الزوجان ولف الرحال إلى اليونان بصحبة روجر فراي وشقيقته مارجري.

«. . . ولكنْ، ما الذي أستطيع أن أقوله بشأن البارتيننون؟ ـ فقد تراءى لي شبحي هناك، حين كنت في الثالثة والعشرين، وتراءت لي حياتي التالية كلها. . .».

لقد تغيّر الكثير من الأشياء هناك، فالريف يبدو أكثر جمالاً، والسكن ألطف سلوكاً، وخانات السكن أكثر نظافةً، ثم ان الفن الأغريقي كان بطبيعة الحال مختلفاً تماماً لوجود روجر وهو يتحدث عنه فيلفت انتباههم إلى الأعمال البيزنطية ويحذرهم من التقبل العاطفي للنحت الكلاسيكي ويمتدح العمارة ويحرص على ألا يفوتهم شيء ذو أهمية.

كتبت فرجينيا إلى فانيسا تقول «من المحتمل جداً أن تنتهي الأمور هنا دائماً بمناكفات ومماحكات ومنازعات، ثم بلعب الشطرنج، وبالخلاف عن جولاتنا القادمة وما إلى ذلك». كان هذا في ظاهره يهدد بالخطر، لا سيما وأن مارجري هي من ذلك النوع من المرأة الميالة إلى الخير والإحسان، وهذا نوع تميل فرجينيا إلى الإعجاب به دون أن توده. لكن الأمر كان على ما يرام؛ فقد شغفت مارجري حباً بفرجينيا وقصت عليها قصة حياتها كاملةً وهي قصة كئيبة جداً ولكنها آسرة. ثم ان مشهد فراي الأخ وفراي الأخت، وهما يعرفان معاً كل شيء عن الفن الإغريقي والعمارة وتراث البلاد وحيواناتها ونباتاتها وجغرافية اليونان وتاريخها وجيولوجية أرضها، كان

مشهداً ساراً تضيف حيويتهما إلى فتنته رغم التوعك المعتاد في صحة روجر. وكان مما يشغلهم كذلك عن المثبطات إقدام روجر المستمر على طرق الدروب الوعرة وتعامله مع البغال العنيدة والذين يقودونها، وهو إلى هذا يزور الأديرة النائية ويتسلق الجبال ويلعب أشواطاً متواصلة من الشطرنج مع ليونارد فيفوز فيها جميعاً ويثير حفيظة زميله في اللعب. كانت فرجينيا تستمتع كذلك برؤية روجر ممسكاً بكراس اللغة اليونانية الحديثة ومعه ليونارد بكراس آخر، وهي ذاتها تتعكز على نتفٍ من اللسان الكلاسيكي عند السؤال عن وجهة الطريق. ثم اشتروا وهم على هذه الحال نعجتين سوداوين مع إناء من اللبن. أما الذي حاز على تقديرها التام فهو روجر بشخصيته الباهرة ؛ وجدته «رجلاً بمنتهى اللطف الإنساني وبمنتهى التعاطف مع الغير ؛ رجلاً لا يقهر» وقد كان روجر بالذات هو مصدر السرور خلال الرحلة بأسرها. أما الباقي فتنبىء به بطاقة بريدية أرسلتها فرجينيا إلى جوليان بيل :

> «رأينا نسوراً وصقوراً شتى، وطيوراً زرقاً وطيوراً من آكلة النحل، ورأينا المعابد والآثار والتماثيل وأثينا وإسبارطة وكورنيثيا ـ ونحن الآن في طريقنا إلى دير. فإلى اللقاء».

لم تجد عند العودة وضعاً مريحاً. فقد كانت الخلافات في مطبعة هوغارث بين جون ليمان وليونارد، بعد صيفٍ من المشاكسات، قد بلغت حداً يبرر إنهاء الترتيب الحالي. ثم ظهر نقدٌ معادٍ في مجلة Scrutiny فتراءى لفرجينيا أنها ستتعرض لهجمات متواصلة في المستقبل. ولكن هذا لا يفسر تماماً ما شعرت به في نهاية شهر أيار بأنها قريبة جداً من أزمة يأس حادة من الأزمات التي تعودتُ على الإصابة بها ولكنها أشد أزمة خلال السنوات العشر الأخيرة». أما أنا فأظن أن صحتها كانت قد ساءت منذ أن بلغت المقاطع النهائية من رواية الأمواج ؛ ولا شك أن المآسي التي حدثت في

الشتاء كانت كذلك من أسباب هذا الخلل النفسي الذي تشكو منه. إنها إذن بحاجة إلى الاستراحة.

والإشكال هو أنها لم تكن تعرف كيف تستريح، أو بالأحرى كيف تستريح إختيارياً. كانت تضطر إلى الاستراحة اضطراراً حين يغلبها ذلك «الصداع» على أمرها بألمه الممض فتستلقي على الأريكة مدة وجيزة، ولكنها كانت على العموم تجد أن من الصعب عليها جداً ألا تفعل شيئاً. كان هناك دائماً كتابٌ يكتب، ورسائل تحرر، ويوميات تسجل، مع عدد كبير من المقالات الصحفية. يضاف إلى هذا أنها كانت بالسليقة ذات حيوية بدنية. إن صورة الأمراض المتواصلة وما فيها من صداع وغضب وقنوط إنما هي صورة صادقة ولكنها قد توحي بصورة أخرى ترافقها هي صورة الكسل والوهن والخمول، وهذه صورة زائفة. إنها لما تزل الآن تعمل في مطبعة هوغارث، وعملها هذا في الغالب هو رزم الكتب. ولكن هذه الممارسة لم تكن منتظمة، أما مسيراتها ـ مسافة سبعة أميال أو أكثر عصر كل يوم قافزةً فوق الحفر، متسلقةً الروابي، متقحمةً الأسلاك الشائكة وألفاف القصب كلما كانت في الريف ـ فقد كانت ممارسة منتظمة لها متعتها في أيام العافية.

على أنه في خلال تلك السنين غدت مسيراتها التي تبدأ من منزلها في قرية رودميل أثقل على النفس وأقل استجابةً للمتعة من تجوالها الطويل في أنحاء لندن. والسبب في هذا بسيط جداً. فقد كان الفساد يدب في أرجاء الريف. كانت تتسلل بمحاذاة الوادي من «لوز» إلى البحر مباني البيوت والمنشئات وساحات سباق الكلاب وغيرها من العمائر الدميمة حتى ساء مشهد ذلك الامتداد الجميل من الأراضي البكر المنخفضة على مدى البصر، وانقلب شاطىء البحر بأسره إلى شيء شبيه بالزريبة، حاشد بمجمعات

وضيعة، قبيحة، تجثم فوق سطح الأرض. ولكن الآتي سيكون، بنظر فرجينيا، أسوأ بكثير. إن آشام، التي كان من الممكن استرداد ملكيتها بألف باوند فقط بعد وقت قصير من استقرارهم في رودميل، قد بيعت الآن إلى شركة لصناعة الإسمنت. وهكذا تفجرت في وسط المنظر الطبيعي للمشارف المعشبة التي يطل عليها المنزل، وفي وسط السفوح الجنوبية الجميلة التي تحس فرجينيا أمامها بالحنين إلى الماضي، أصوات الساحبات والناقلات والحفارات، وقامت الأسكلاّت في كل مكان. إن آشام نفسها قد أمّحت بسقائف الحديد المضلع الكبيرة الأحجام، وتلبد الوادي بغبارٍ أبيض سام، وصار الهواء مثيراً للغثيان، وقَبُحَ العشب، وماتت الأشجار، وتجوفت الرابية ذاتها حتى غدت كأنها ضرس منخوب.

وأمست فرجينيا فريسة لليأس وهي تمر بهذه الأدلة على «التقدم» في مشياتها بعد ظهر كل يوم. حتى أنها استخدمت، حين كتبت إلى أثيل سمايث في كانون الثاني ١٩٣٢، لغة أخشن مما اعتادت على استخدامه في رسائلها، فوصفت الرأسماليين المسؤولين عن تلك الأعمال بأنهم «مأبونين لعناء». أما دنكون وفانيسا فقد وجدا، بما فيهما من شذوذ الرسامين، جمالاً خاصاً في المباني الجديدة في آشام، وحاولت فرجينيا أن تشاطرهما الرأي مداهنةً ؛ قالت «إني أنوي أن أرى المباني وكأنها معابد يونانية». لكن هذا لم يجد نفعاً. أما الذي كان يشيع الاطمئنان فهو اعتقاد مينارد كينز الراسخ بأن شركة الإسمنت هذه شركة غير سليمة كلياً وأنها ستنهار بالتأكيد حتى قبل اكتمال مبانيها (فازدهرت حتى يومنا هذا)، ولولا تفاؤله التام لكان الزوجان وولف قد تركا رودميل منذ ذلك الحين، وكانا يتحدثان دائماً عن الرغبة بمغادرتها.

ولنعد الآن إلى أثيل، فقد أشارت فرجينيا إليها بالذات حين قالت «أنا لا

احب السيدات اللاتي يخرجن أصواتاً عند الشرب ويظهرن نهماً[1]. وكانت أثيل حقاً تعلس طعامها علساً وبشيء من الضراوة فتخرج أصواتاً شتى. ولعل من الجدير بالذكر هنا أن فرجينيا كانت كثيرة الانتقاد لسلوك أصدقائها على مائدة الطعام. ربما كانت حساسيتها في هذا الشأن مرتبطة بوساوسها عن الأكل، وهي وساوس تجعلها تموت جوعاً أيام المرض، وتجعلها في الأيام الأخرى مترددة في تناول طبقٍ ثان من أي طعام. كانت قد عزّرت جورج دكوورث وجوليان بيل وكنغزلي مارتين (محرر مجلة نيوستيتسمان) تغريراً قاسياً في أوقات مختلفة لتناولهم الطعام دون مراعاة الذوق السليم وبكثير من الإقبال الحماسي على ما يقدم أمامهم. يمكننا أن نستنتج من هذا أن إدانة فرجينيا لأثيل لم تكن عقلانية أبداً. وكانت أثيل في ذلك الوقت متحاملة بالتأكيد تحاملاً حقيقياً ضد صديقتها. ذلك أن أثيل كانت لما تزل مغرمة بفرجينيا فمن المحتم أن تصطنع المشاجرات، فكانت فرجينيا تجدها مشاجرات مقرفة ومنفرة ومتعبة أيضاً. فانتبذت أثيل دفاعاً عن نفسها وأعلنت أنها ستقطع صلتها بأثيل، وقد قطعتها كلياً بعض الوقت.

كانت أثيل بمصائبها ومتطلباتها تؤلف الثيمة المتكررة في تلك السنين وتشكل جزءاً مهماً ومنغصاً من حياة فرجينيا. وقد تكرر حدوث الأزمات مراراً، في تموز ١٩٣٢ ثم في شباط ١٩٣٣ وفي أوائل ١٩٣٤، حين

---

(١) «قل لفانيسا إن السبب الذي يجعل أثيل سمايث مقرفة جداً هو جهلها بأصول المائدة. إنها تخرخر فتجري السوائل من فمها من الجانبين؛ إنها تحمحم سروراً ورضا؛ وقد تمخطت من أنفها الأحمر في فوطة الأكل. ثم سكبت الكريمة وما فيها من الكرز الأسود اللذيذ في بيرتها؛ الأحرى بي أن أتناول عشائي مع كلب. إنك تستطيع أن تقول للناس إنهم قتلة ولا تستطيع أن تقول إنهم يأكلون كالخنازير. . . على أنها كانت بعد العشاء آسرة بفتنتها. مشت أربعة أميال. غنّت برامز، فرفعت الخراف أعينها ولم تكن قد أطعمت. هرعنا بها نودعها قبل منتصف الليل». (من رسالة فرجينيا إلى كوينتين بيل في ١٩ أيلول ١٩٣٣).

احتلفت أثيل بعيد ميلادها الخامس والسبعين فأقيم مهرجانٌ ما، سميّ مهرجان أثيل، جرى فيه إحياء حفلات خاصة عُزفت فيها مؤلفاتها الموسيقية، وأقيمت حفلة غداء ذكر فيها سير توماس بيجام أقوالاً مرائية استاءت منها فرجينيا أشد استياء. وقد عُزف القدّاس الذي كانت قد ألفته أمام أفراد من الأسرة المالكة والنبلاء والذوات، فأقامت أثيل بعد انتهاء القداس وليمة تكريماً لهم في أحد المطاعم. أدى ذلك إلى خصومة أخرى. وفي حزيران ١٩٣٤ كتبت أثيل إلى فانيسا فقالت : «الأحرى بي أن أعرف أنها قد أنهت علاقاتها معي» ؛ لكن فرجينيا لم تفعل ذلك. ففي تموز اكتشفت أثيل أنها مدينة إلى ضريبة الدخل بمبلغ ١٦٠٠ باون استرليني فشعرت بخراب بيتها. أثار هذا تعاطف فرجينيا معها مرةً أخرى. هكذا كانت تسير الأمور.

وقد بدا أن أثيل قد نقلت حبها حيناً من الوقت من فرجينيا إلى فانيسا. كانت هذه ستقوم بإعداد الزينة للباليه التي ألفتها أثيل وهي باليه Fête Galante. اعترى ذلك المشروع تقلباً متواصلاً سُجلت تفاصيله برسائل طويلة حافلة بثرثرة لا نهاية لها، فكان ذلك شيئاً مريعاً. أخذت أثيل يومئذٍ تشعر بتعلق عاطفي بفانيسا فتجد أن هيامها لا يقابل بالمثل فتستنكر ذلك. كتبت لها أثيل بلهجة حادة تقول : «أنت كأختك القديسة من بعض النواحي». وكان هذا يعبر عن الحقيقة، ذلك أن كلتا الأختين كانت تضمر الوداد لأثيل ولكنها تزدرد الوداد بجرعات صغيرة، ولا تزدرده بأسره. على أن فانيسا كانت تستطيع التعامل مع أثيل على نحو أفضل من تعامل أختها معها، لكنها كانت عند الضرورة أكثر استعداداً منها لغلق الباب بوجهها بهدوء غلقاً نهائياً.

لنعد إلى عام ١٩٣٢ : ففي بدايته كتبت فرجينيا كراساً عنه «رسالة إلى شاعر شاب»، ويتضمن فحوى محادثات أجريتها مع جون ليمان، وهذا

الكراس صدر ضمن سلسلة الكراسات التي سميت «رسائل هوغارث» وتباع بشلن واحد، ونشر في تموز ١٩٣٢ يحمل الرقم ٨ في السلسلة. ثم ظهر المجلد الثاني من «القارىء العمومي» في تشرين الأول، وأعيد طبعه في تشرين الثاني. كان الإعداد لهذه «الحزمة من المقالات» وتعديلها وتصحيحها يمثل الكتابة الوحيدة التي تولتها خلال الأشهر التسعة الأولى من سنة ١٩٣٢، عدا قليل من الكتابات الصحفية، وقصة تجريبية واحدة. وقد أكملت ذلك المجلد «دون شعور بالفخر ؛ كان ذلك عبارة عن أشغال شاقة انتهت». وعادت مرة أخرى إلى كتابة سيرة الكلب «فلاش» وكانت قد بدأتها في آب ١٩٣١ قبل نشر رواية «الأمواج»، أما عودتها إليها فجاءت بعد انتهائها من العمل على كتاب «القارىء العمومي» ؛ وفي السادس عشر من أيلول أخذت تكتب الفصل قبل النهائي من «فلاش».

كتبت في تشرين الثاني ١٩٣١ إلى جورج رايلاندز تشكره على ملاحظاته الرقيقة بشأن رواية «الأمواج» فقالت :

«. . . أنا ممتلئة بالأفكار عن روايات أخرى، لكنها كلها تنبع متطورةً من (الأمواج). ولئن تبدو هذه الرواية قاحلة وجامدة الحواس ـ ليست إلا فرجينيا تتدلى من أظافر قدميها على حبل السيرك ـ فعليّ أن أتساءل : فيم إذن الاستمرار؟ وبما أني لا أستطيع استئناف الطريق الذي سلكته في (السيدة دالاواي) و (إلى الفنار) فأنا أمام مأزق، وربما أتخذ عهداً بالصمت إلى الأبد. لهذا السبب جاء تشجيعك لي وكأنه رشفة باردة من شمبانيا في الصحراء حيث تقرع أجراس القافلة وتنبح الكلاب وأنا أمتطي ـ أو سأمتطي خلال بضعة أشهر ـ جملي القادم. وهذا لا يعني أنني سأبدأ بخوض مغامرة أخرى من تلك المغامرات المريعة قريباً جداً».

بعد سنة من ذلك وجدت فرجينيا ثيمتها ؛ لكنها ثيمة ليست نابعة من رواية «الأمواج» ومتطورة عنها. والحق أن الرواية الجديدة، وكان اسمها الأول «آل بارغيتر The Pargiters» ستأخذ شكلاً مختلفاً تماماً عن «الأمواج» ؛ إنها ستكون على حد تعبير فرجينيا رواية عن الحقائق، حكاية، قصة تكاد تكون في أسلوبها التقليدي كقصة «الليل والنهار». وهي :

«ستتناول كل شيء، الجنس، التعليم، الحياة. . . إلخ، وتأتي رشيقة، قافزة كالوعل عبر شعابٍ جبلية من سنة ١٨٨٠ إلى (هنا والآن). هذه هي الفكرة على أية حال. وأنا أحس بضرب من الغشاوة والحلم والثمل، فأضع التعابير الخطابية وأرى المشاهد رأي العين وأنا أتجول في شوارع لندن هائمةً منذ العاشر من تشرين الأول.

إن كل شيء يصب ذاتياً في المجرى على نحوٍ عفويّ، كما كان الأمر عند كتابة «أورلاندو». والذي حدث بالطبع هو أنني، بعد الإحجام عن كتابة رواية الحقائق طيلة هذه السنين كلها ـ منذ ١٩١٩ ـ وقصة «الليل والنهار» ميتة الآن ـ أجد نفسي أستمتع متعة لا نهائية بالحقائق وهذا من باب التغيير، فأنا أمتلك كميات من الحقائق لا تعد ولا تحصى. على أني أشعر أحياناً بقوة الرؤيا وهي تجرني إليها، ولكنني أقاومها. أنا واثقة بأن هذا هو الخط الصحيح، بعد (الأمواج) ـ خط رواية (آل بارغيتر) ـ وسيؤدي هذا بصورة طبيعية إلى المرحلة التالية بالانتقال من رواية الحقائق إلى رواية المقالة».

«الإثنين ١٩ كانون الأول

اليوم أنهكت نفسي بالكتابة حتى بلغت حافة الهلاك. وأحمد الله لأني أستطيع أن أتوقف فأرفل بالراحة، وأتملى السفوح، وأدع عجلات عقلي تبرد وتبطىء من سرعتها وتتوقف كلياً ـ

وأنا أناشدها أن تفعل. سأتناول كتابة (فلاش) مرة أخرى لكي أشعر بالراحة وأبرّد نفسي. يا إلهي، لقد كتبت ٦٠٣٢٠ كلمة منذ ١١ تشرين الأول. أظن أن هذا هو أسرع انطلاق أحققه في أيٍّ من كتبي على الإطلاق. . . ».

إن من المستحيل قراءة هذه الكلمات دون الشعور بالألم والشفقة ؛ ذلك أننا نرى فرجينيا فيها تنطلق غافلةً فتجري بحبور وسرعة مارقة، إنما فوق رمال رخوة قد تبتلع من يسير عليها. فمهما يكن تصورنا للنتيجة النهائية لروايتها الجديدة، التي صار عنوانها الآن «السنين»، فإنها كانت من العثرات، وتوشك أن تصبح كميناً يودي بالكاتبة. كانت فرجينيا تقبل في العادة على الكتابة بسرور عند تأليف رواياتها، ولكن إقبالها لم يكن قط بمثل هذه الثقة المشوبة بخفة الروح التي هي عليها الآن ؛ كما لم يحدث لها قط مثل ذلك الإحباط والحيرة والقلق والتعاسة التي آلت إليها.

كان عليها في كانون الثاني ١٩٣٣ أن تتولى أمر «فلاش». وقد فخرت بالعناية التي بذلتها لجعل هذا الشيء التافه يليق بالطباعة، ولكنها كانت تواقة للفراغ منه ـ كانت تريد العودة إلى روايتها الجديدة. وحين عادت إليها جرت كتابتها بلا توقف حتى نيسان.

في آذار ١٩٣٣ عرض على فرجينيا منحها درجة علمية فخرية من جامعة مانشستر ؛ فرفضت تلك الدرجة، كما رفضت قبل ذلك أن تلقي محاضرات في جامعة كيمبردج[1].

---

(١) «إنه مجتمع فاسد فساداً مطبقاً، هذا ما كتبته الآن على لسان ألفيرا بارغيتر في رواية السنين. . . إلخ : والآن عليّ، بصفتي فرجينيا وولف، أن أكتب إلى نائب رئيس جامعة مانشستر ـ فما أسخفني ـ وأرفض منحي الدكتوراة في الآداب. وأن أكتب إلى ليدي سايمون وكانت تستعجل الأمر وتطلب منا المبيت عندها. سأجعل من لغة ألفيرا شيئاً يشبه كلام الجرائد المهذب. ما أغرب هذه المصادفة !» (من «يوميات كاتبة» في ٢٥ / ٣ / ٣٣). وفي آذار ١٩٣٣ رفضت فرجينيا الدكتوراة من جامعة لفربول (المصدر ذاته، في ٣ / ٣ / ٣٩).

كانت محاضرات كيمبردج قد أغرتها أشد الإغراء، فشعرت بما يشبه الأسف بعد أن أرسلت رسالتها بالرفض إلى مدير كلية ترينيتي ؛ ودار في خلدها أنّ لو كان والدها حياً لسُرَّ كثيراً بأن تخلفه إبنته. أما أصدقاؤها فقد رأوا أن رفضها للدكتوراه كان خطلاً ؛ ولكنها شعرت في كلتا الحالتين أن من المخاطر التي يتعرض لها الكاتب الوطيد مجاراته للآلة الأكادمية، وكانت تنوي مهاجمة هذه الآلة بالذات في كتابها التالي. لقد استاءت بعض الشيء حين تولى روجر فراي منصب أستاذ الفن في جامعة كيمبردج.

ولعلها ظلت تشعر بشيءٍ من غيرتها الدفينة التي نهشت قلبها حين رأت أخويها يذهبان للدراسة في كيمبردج وتتخلف هي وراءهما. كان يجري القبول بدخول الفتيات إلى حرم الجامعة ولكنهن كن يعاملن على نحوٍ يخلو من الإنصاف، فقد ظلت الجامعات وقفاً على الذكور إلى حدٍ كبير. غير أن فرجينيا كانت ترتاب كل الارتياب بالنقد الأكاديمي[1]. وقد تمكنت خلال صيف ١٩٣٣ من بحث هذه النقطة مع تي. إس. إليوت. كان الشاعر في هذا الوقت يحاول الانفصال عن زوجته الأولى وهو يعاني الألم، فكانت فرجينيا هي التي تستمع له وتتعاطف معه بشأن متاعبه البيتية، (ولعلها لم تكن متعاطفة على الدوام لأنها كانت تشعر أحياناً أن إليوت يسيء معاملة زوجته فيفيان). على أنه بحلول أيلول ١٩٣٣ كانت تلك المتاعب في طريقها إلى حلٍ معقول، فتمكن المؤلفان من بحث مسائل أخرى. وقد أثار إليوت اهتمام فرجينيا بقوله إنه لم يعد واثقاً تماماً من وجود علم للنقد ؛ وإن

(١) كتبت فرجينيا إلى جوليان بيل (ابن أختها فانيسا) حين تولى مقعد تدريس الإنكليزية في جامعة ووهان Wuhan فقالت : «ولكن لماذا تدريس الإنكليزية؟. . . فكل ما يستطيع المرء أن يفعله هو تصنيف الكتب إلى مجموعات فيزدردها أولئك الفتيان المطاوعون غير الناضجين وهم خائفون. وبعد الازدراد يغلقون تلك الكتب. وهكذا نجعل من الأدب الإنكليزي مسألة أ ب ت ؛ واحد، إثنين، ثلاثة ؛ ونفقد الإحساس به». (١ / ١٢ / ٣٥).

النقاد قد بالغوا في ثقافية شعره وفي علمية شعره، وفهموا بعض الأمور فهماً خاطئاً. اتفقا ـ أو ربما من الأصح القول إن فرجينيا أقنعته بأن يتفق ـ على أن تعليم الإنكليزية في الجامعات هو تعليم غبيّ. وأعتقد كذلك أنها شعرت أن بعض معلمي اللغة الإنكليزية لا يظهرون إلا فهماً قليلاً للغة ولا يستطيعون مناقشة أساطين الإنكليزية الأفذاذ إلا وهم يشعرون بالتعالي.

فإذا كان الأمر كذلك فإن فرجينيا لم تكن إذن منسجمة مع نفسها كلياً، ذلك أنها حاولت في خريف ١٩٣٣ أن تمارس نقداً لفنٍ لم تكن ذات معرفة به. كان الرسام سيكيرت Sickert يقيم معرضاً في لندن فذهبت مع فانيسا لمشاهدته. وسرّها ما رأت. وقد كانت دائماً معجبة بأعمال هذا الرسام، وكانت أعمالاً تبدو لها وكأنها تمثل كل ما ينبغي أن يكون الرسم عليه. اقترحت فانيسا، وهي بدورها شغوفة بسيكيرت، أن على فرجينيا أن تكتب إلى ذلك الفنان ما يجول في ذهنها من أفكار. وقد قال سيكيرت لفرجينيا جواباً عن هذا الاقتراح : «كنت دائماً رساماً أدبياً، فشكراً لله، ومثلي في هذا مثل الرسامين الآخرين الذين يحترمون أنفسهم. فأرجو أن تكون أول من يقول ذلك». أقام لهما كلايف مأدبة عشاء لكي يلتقيا مرةً أخرى ـ فكانت أمسية ناجحة. فقام سيكيرت من مقعده واقفاً، وقد عزّزه النبيذ ولحم الديك الهندي والسيكار والبراندي، ليقبل أيادي السيدات ويغني أغنية فرنسية، ويحكي قصة حياته، ويروي الفكاهات عن روجر فراي، وليقول إنه رسام أدبي، رومانسي، مؤكداً لفرجينيا أنها الشخص الوحيد الذي فهمه.

كانت نتيجة هذا اللقاء صدور كراس صغير عنوانه «وولتر سيكيرت : محادثة» وهو بلا ريب عمل صغير الشأن، وما المتعة فيه إلا في ظهور فرجينيا وهي تتقحم مجالاً غير مألوف. كانت الكاتبة على تحرّجٍ من جسارتها ذاتها في هذا المضمار، وعلى اهتمام بالغ في إيضاح محدوديتها

فيه، ولكنها كانت مع ذلك مصممة على أن تبدي رأيها الخاص بالرسم. كان الذي أعجبها بسيكيرت هو «أدبه» ـ «لن يحدث في زماننا أن نرى أحداً يكتب حياةً كما رسمها سيكيرت»، وأخذت تقارنه كفنان بكتّاب كبار مثل دكنز وبلزاك وغيزينغ Gissing وأرنولد بنيت (الذي سبق أن نددت به). كان من الصعب على فرجينيا أن تختار مقترباً لفن الرسم يناقض كلياً مقترب شقيقتها، وأظنها كانت فزعة إلى حدٍ ما مما ستقوله فانيسا، ولكنها لم تكن تخشى شيئاً من سيكيرت نفسه. فحين ظهر ذلك الكراس في العام التالي جاء الرسام لتناول الشاي مع فرجينيا معتمراً قبعة خضراء، فغنى أثناء تقديم المعجنات بعض الأغاني البذيئة، ودخن سيكاراً وأبدى استغرابه من نقد كلايف وروجر. إنهما لا يميزان بنظره اللوحة من المثلث، في حين أن فرجينيا ملاك سماوي، قائلاً (وهو يقبل يدها) : إن نقدها هو النقد الوحيد الجدير به طوال حياته.

وظهر كتاب «فلاش» في تشرين الأول ١٩٣٣. ونجح الكتاب كما تنبأت له ؛ ولكنها في هذه المرة خشيت من النجاح خشيتها المعتادة من الشجب. فالنقاد إنما سيعجبون بهذا الكتاب لأسباب لا تنصفها ؛ ولن يكون الإعجاب بها إلا بصفتها سيدة تجيد الثرثرة المنمقة. وإذا حكمنا استناداً إلى مقالات العرض التي ظهرت نجد أنها لم تكن مخطئة كثيراً. لهذا شعرت أن مشكلتها ستكون الآن هي كيفية التصدي لهذا النوع من الشعبية التي تحققها السيدات المثرثرات. ومع هذا فلا أظنها كانت ترحب، بما جبل عليه الإنسان من عناد، بتعليق أثيل سمايث التي كتبت إلى فانيسا تقول إن الكتاب جعلها تصرخ ألماً «كأنها كانت ترفس رفساً عند قراءتها للكتاب». على أني أستطيع أن أجزم أن هذا النقد لم يتناه إلى مسامع فرجينيا قط.

إن كتاب «فلاش» يثير الاهتمام من ناحية السيرة الذاتية، ذلك أنه عمل من أعمال الكشف عن الذات. وبما أنه من أقل أعمال فرجينيا قراءةً من الجمهور، على ما أتصور، فقد يكون من المفيد إخبار القارىء بشيءٍ عنه.

إن فلاش هو كلب الشاعرة أليزابيت باريت براوننغ، وهو من الفصيلة السبانيولية (Spaniel) وقد أهدته لها الكاتبة ميتفورد Mitford. ثم سُرق فكان عليهم استنقاذه من مخبأ اللصوص في الطرف الشرقي من لندن، في شارع وايتشابيل Whithechapel الوضيع. وفيما بعد أخذته أليزابيت معها حين هربت مع الشاعر روبرت براوننغ للزواج منه والإقامة في إيطاليا، فقضى هذا الكلب أيامه الأخيرة في فلورنسا. والحكاية هي حكاية فرجينيا نفسها، لكنها حاولت أن تصف شارع ومبول Wimpole وشارع وايتشابيل من وجهة نظر كلب، وأن تخلق روائح كلبية وشهوات شبقية مع عواطف الوفاء.

وكتبت أوتولين مهنئةً فرجينيا قائلةً : «ألا تحضنين كلبك أحياناً؟ أنا أحضن كلبي الحبيب (سقراط) ـ أحضنه ثم أحضنه ـ وأقبله آلاف القبلات من خديه الرقيقين». أما جواب فرجينيا الصادق على هذا السؤال فهو بالنفي. إنها نشأت مع الكلاب في منزل الأسرة، وكان لديها كلابها دائماً، وأحبت كلابها دائماً، ولكنها لم تكن محبة للكلاب بالمعنى الأوسع للكلمة.

والكلب الذي أوحى لها عملها عن فلاش فهو «بنكا»، الكلب السبانيولي أيضاً الذي أهدته فيتا إليها، ثم آل إلى ليونارد. ولكن كليهما «لم يحضنه ثم يحضنه». ألبته. كان ليونارد يشعر نحو الحيوانات شعور النفور، في ظاهره على أية حال. كان تجاهها انضباطياً خشناً، باغتاً، نظامياً، ويحسن الإشراف على كلابه فيجعلها مطيعة ومتعافية وهانئة. كان المرء كلما رأى ليونارد مع كلبٍ من الكلاب وجده في حالة صياح قصيرة يقعي في نهايته الحيوان بسلبية وهو يهرّ فيتحول ليونارد عندئذٍ من عريف عسكري فظ إلى إنسان متمدن جداً.

ولكن موقف فرجينيا أصعب على الفهم. كانت دائماً تمتلك كلباً،

فتصحبه معها حين تخرج إلى مشيتها، وتستطيع السيطرة عليه. وكانت أحياناً تقوم أثناء كلامها بتمسيد أنف كلبها بنكا فتربّت عليه. وهي تفتتن بالحيوانات كلها ولكن محبتها لها كانت غريبة ومتنائية. إنها تريد أن تعرف ماذا يشعر به كلبها، تماماً كما تريد أن تعرف ماذا يشعر به الناس، وكأن الكلاب ليست أكثر غموضاً من أغلب الآدميين. إن كتاب «فلاش» ليس هو بقلم محبٍ للكلاب بقدر ما هو بقلم شخصٍ يتمنى أن يكون كلباً. كانت فرجينيا تتمثل في علاقاتها العاطفية كلها بالحيوان ؛ فهي لفانيسا عنزة وأحياناً قرد، وهي لفيوليت دكنسون ذلك المخلوق الذي نصفه قرد ونصفه عصفور، وهي لفيتا الكلب بوتّو، وهكذا. كانت تلك الشخصيات الحيوانية، البعيدة عن الحسية المادية الإنسانية، ذات أهمية كبرى لها، ولكن أهميتها كأهمية الطوطم لرجل الغاب. كان كلبها تقمصاً لروحها، لا الحيوان الأليف، المملوك. وكان «فلاش» في واقع الأمر درباً من الدروب التي طرقتها فرجينيا، أو تفحصتها في الأقل، هرباً من وجودها الجثماني الإنساني.

بدأ عام ١٩٣٤ باحتفال أثيل الكبير، وفي بداية السنة أيضاً تفجرت قريحة فرجينيا فكتبت مشهد الغارة الجوية في رواية «السنين». أعقب هذا المجهود التزامها للسرير مدة عشرة أيام. بعد ذلك، وفي الخامس عشر من شباط، حدث شجار عظيم بين نيللي التي رفضت رفضاً قاطعاً أن تعدّ للزوجين العشاء فأرغما على الخروج من منزلهما في لندن لتناول عشاءهما في مطعمٍ ما وهما يتميّزان غيضاً. أقسمت فرجينيا أن هذه هي النهاية، وستنهي خدمة نيللي في ٢٧ آذار قبل الانتقال إلى قرية رودميل لقضاء عيد الفصح. قد يحاول ليونارد التدخل لصالح نيللي وكان في الغالب نصيراً لها ولكنه لن يستطيع، لا هو ولا نيللي نفسها، أن يثني فرجينيا عن مرادها. كانت قد أظهرت ضعفاً في مثل هذا الشأن مراراً عدة، أما الآن فقد صممت تصميماً لا رجعة فيه. وكان كلما اقترب يوم المقابلة الأخير إزداد كربها، فهي تعد الأيام عداً وتتحرق للانتهاء من الأمر، غير قادرة على التركيز في كتابة روايتها. وحل اليوم المنتظر. وجرت المقابلة. وكانت شيئاً

تعيساً، ولكن الأمر انتهى أخيراً، وحين عاد الزوجان إلى منزلهما في لندن في العاشر من نيسان كانت نيللي قد غادرته. وقد ظلت تبذل جهودها للعودة عبثاً، حتى عثرت أخيراً على عملٍ لها فانتهت بذلك تلك الرابطة الطويلة، غير الهانئة.

لقد كانت العلاقة بين الطرفين علاقة صعبة ومثيرة للشحناء رغم ما فيها من شيء حقيقي من بعض المودة والتعاطف لدى كلا الطرفين. كان بوسع نيللي أن تخرج أسوأ ما في فرجينيا، لهذا نجدها حين تكتب في يومياتها عن نيللي وهي تخلو من التعاطف وتستشيط غضباً.

ومنذ ذلك الحين أبدلت نيللي في منزل لندن بخادمة نهارية مستمرة هي الخادمة ميبل Mabel، الصامتة، المتصفة بنكران الذات؛ وفي منزل الريف بخادمة أخرى نهارية أيضاً هي لوي أفريست Louie Everest. وقد ظلت هذه في خدمة فرجينيا في آخر يوم من حياتها واتسمت خدمتها بشيء من العلاقة الشخصية ذات المسحة المتبسطة، وهو ما نستنتجه من مزحةٍ رتبتها الخادمة كان من شأنها أن تثير غضب مخدومتها ولكنها كانت تعرف أنها ستسامح عنها كما جرى فعلاً[1]. على أن توتر الأعصاب الآن لا ينشأ عن إقامة الخدم في المنزل بل له أسبابه الأخرى. وقد كانت إقامة نيللي الدائمة مع الزوجين هي التي جعلت من الصعب جداً تدبّر أمرها، فقد كانت تعدّ

---

(١) في برنامج المتنوعات Omnibus الذي يذاع من الإذاعة البريطانية قالت الخادمة أفريست، وهي الآن السيدة لوي ماير، في ١٨ كانون الثاني ١٩٧٠ : «. . . وذات مرة فكرت بأن أمزح مع السيدة وولف بمناسبة كذبة نيسان. . . كانت تعيش في القرية يومئذ سيدة تدير المعهد النسائي، وكان صوتها مرتفعاً دائماً ومن النوع الذي يصدر الأوامر، فيخيف السيدة وولف ويضيق صدرها به. صعدت إلى مكتبها وقلت لها إن تلك السيدة هنا وتريد أن تكلمها عن المعهد النسائي. هرعت تنزل إلى غرفة نومها فمشّطت شعرها ورتبت نفسها ثم جلست في غرفة الطعام فاكتشفت عدم وجود أحد فيها. فضحكت كثيراً وهي تنظر إليّ، ولم أكن أنتظر ذلك أبداً».

فرداً من أفراد الأسرة. إن الحياة بلا خدم مقيمين، وقد ذاق الزوجان مرارتها أيام فقرهما سنة ١٩١٨، هي الآن من أمارات ثرائهما المتزايد. فقد غدا بوسعهما شراء تلك الأنواع من العُدد واللوازم والأدوات التي تجعل من الخدم المقيمين شيئاً لا ضرورة له.

في نهاية نيسان قام الزوجان برحلة إلى أرلندة استغرقت أسبوعين، وكانت رحلة لطيفة وإن كانت أغلب أيامها مطيرة وخالية من الأحداث، وذات صباح فتح ليونارد جريدة تايمز، وهما في ووترفيل Waterville، فرأى فيها كلمة لتأبين جورج دكوورث. كانت قد مضت سنين طويلة منذ أن تخلصت فرجينيا من جورج، لذا فقد وسعها أن تروي عنه بعض الذكريات العاطفية بروح طيبة ؛ لقد كان على أية حال لطيفاً معهم حين كانوا صغاراً. أما مرحلة تمردهم فقد انتهت منذ أمد طويل، تلك المرحلة التي وقف فيها في وجههم وناصر نوع الحياة التي انتبذوها وظنوا أن في دوامها دماراً لهم ولجيلهم.

لم يكن جورج في مفاهيم جيل الشباب من أمثال أبناء فانيسا وبناتها أكثر من مجرد اسم، ولم تكن نظرته للحياة لتمثل تهديداً للحياة أكثر مما يمثله غول خرافي منقرض. ولكنْ، لعل هذا الجيل الجديد يفتقر إلى ما كان لدى أسلافهم من قيم، وقد كان هذا الجيل محظوظاً أيضاً إذ وجد الطريق معبداً فلم يكن عليه مغالبة قواعد الأخلاق الفكتورية. وقد قال مينارد كينز أن الذي يفتقر إليه الجيل هو الدين. ففي كلمة أبداها على العشاء في شقة كلايف في لندن قال كينز : كان من اللطيف محاربة تلك القواعد في ذلك الحين ولكن الألطف الآن هو أن يربّى الناس على التمسك بالعرف المسيحي. فالشباب لا يحصلون من الحياة بقدر ما حصل عليه أسلافهم. إنهم تافهون، وهم في شهواتهم كالكلاب. كان إليوت يجلس إلى الطرف الآخر من المائدة، فوافقه على أقواله، فما كان من فرجينيا إلا أن سألته بأن

يعرّف إيمانه بالله ؛ أخذ الشاعر يراوغها في الجواب كعادته معها في هذا الشأن. وعندما كان العشاء يوشك على الانتهاء جاء جوليان متعثراً فتذكر كينز ما قاله قبل قليل وأضاف أن الشباب لا دين لهم اليوم سوى الشيوعية وهذه أسوأ من عدم الإيمان بشيء، بل أسوأ من الإلحاد. ذلك أنها لم تؤسس إلا على سوء فهم لما جاء به ريكاردو Ricardo في أحسن الفروض. وقال كينز أيضاً إنه لو أتيح له الوقت لتصدى للماركسيين كلياً، بل للاقتصاديين الآخرين جميعهم، عندئذٍ ينتهي الضغط الاقتصادي.

ثم سأل كينز : «قل لي يا جوليان، كيف تعيش بدون التمسّك الأخلاقي؟» فأقر جوليان قائلاً : «نحن نفتقد أخلاقياتكم. ولكني أفضل حياتي من نواحٍ متعددة». «إن الشباب تواقون جداً للنشر، وإنكم تنشرون أسرع مما ينبغي». «هذا لكي نخلق أسماء لنا ولكي نربح ؛ نريد أن ندلي بدلونا قبل أن يغلق الباب». «بل السبب هو أنكم لا تعرفون معنى العزف التقليدي والاستمرارية. كان الأمر مختلفاً في زماننا. كنت أستغرق خمس عشرة سنة لتأليف كتاب واحد. وكنت أريد أن أستغرق وقتاً أطول. ها أنت تكتب وتنشر وأنت بعد في الثامنة عشرة».

وافقه إليوت، ووافقته فرجينيا أيضاً على ما أتصور. ثم تطرق الحديث إلى الأخلاق والمعتقدات عند اليهود، إلى مونتاغو نورمان Montagu Norman والميجر دوغلاس Major Douglas والإيمان الاجتماعي. كان كينز في تلك الأمسية هو المتكلم الأول والأخير. كان في تلك الأيام يعشق التقاليد والاستقرار الأخلاقي والمحافظة، فكان بعض أصدقائه الشباب يجدون كل هذا منفراً جداً، فالتقاليد والمحافظة وتقديس الطقوس العتيقة وحرمتها هي بنظرهم من الأمور غير ذات العلاقة في أحسن الفروض، أما في أسوئها فهي غطاء لشيء شرّير بغيض.

في كانون الثاني ١٩٣٣ أمسى هتلر حاكماً لألمانيا، وفي نيسان من تلك

السنة التقت فرجينيا القائد الموسيقي برونو وولتر. هتف يقول : «ألمانيا هي بلادنا، بلادنا التي أحبها وأحب تقاليدها ومدنيتها. ولكن بلادي الآن شيء مهين ومشين». غير أن فرجينيا لم تتنبه على نحوٍ يثير التصور بشأن ما كان يحدث في ألمانيا إلا بعد أحداث ٣٠ حزيران ١٩٣٤. فحين سُحل الجنرال فون شلايخر وزوجته وآخرون من أسرته وذبحوا ذبحاً دونما مقاضاة وبلا رحمة شعرت فرجينيا كما شعر كثيرون من أبناء هذه البلاد أن ألمانيا قد وقعت فريسة في أيدي السفاكين الذين لا يردعهم حرج أو حرمة أو شفقة، فاستبد بها الفزع لا سيما بعد أن قرأت مقالات في الصحافة البريطانية تمجد الفوهرر باعتباره رجلاً عظيماً وزعيماً حقيقياً.

كانت مجازر الثلاثين من حزيران، بنظر من هم أصغر سناً من فرجينيا من ذوي الحس السياسي، شيئاً مختلفاً. فقد وجدوا فيها مسألة أمل وابتهاج إذ ينقض النازيون بعضهم على بعض فيفتك أولئك الشقاة أحدهم بالآخر فكأنهم يقومون بخدمة مفيدة لم يقوموا بمثلها في حياتهم. أما جيلنا فقد جاءته الصدمة مبكراً في الأسابيع الأولى من استبداد هتلر، بل مثل ذلك، حين أظهرت لنا القتول السياسية في سنة ١٩٣٢ نوع الطينة التي جبل عليها النازيون، وكذلك الكيفية التي تخلى بها الشعب الألماني عن قضية الحرمة الإنسانية بتأييده للقتلة.

غير أن فرجينيا لم تكن في ذلك الحين قلقة حقاً بشأن السياسة. كانت في عام ١٩٣٤ أكثر قلقاً بشأن روايتها، وقد غيّرت اسمها في كانون الثاني إلى «هنا والآن». كانت مرحلة شهر العسل في الكتابة تقترب من نهايتها، مع لحظات تشعر فيها بأنها في «طوفان كلي» على حد قولها، لكنها كانت لحظات قليلة، ومتناقِصة.

كتبت في ٢٧ آب وهي في رودميل : «أحاول أن أبدأ كتابة الكتاب عديم الاسم مرةً أخرى فأجد الأمر يدور حول نفسه برتابة» ؛ ثم كتبت : «ما

أن عدت بعد ثلاثة أيام من المراوحة الرتيبة في مكاني حتى شعرت أنني أطفو مرةً أخرى» ؛ وكتبت في ٢ أيلول :

«لا أظن أنني شعرت بالانفعال أبداً أكثر مما أشعر به الآن بشأن كتابة أي كتاب. . . كتبت البارحة وكأنني، ماذا؟ نسيت الكلمة التي أريدها ؛ خداي يلتهبان ؛ يدي ترتعش. أنا أكتب المشهد الذي تصغي فيه بيغي Peggy إلى كلامهم فتخرج متفجرةً. وهذا الانفجار هو الذي يثيرني جداً. لعله أكثر مما ينبغي. لا أستطيع أن أبلغ حسن التخلص للانتقال إلى كلام إلفيرا Elvira بسهولة هذا الصباح».

ثم جاءها ذلك النبأ الذي كسح كل شيءٍ جانباً.

«مات روجر يوم الأحد. كنت أمشي مع كلايف في الشرفة حين جاءت فانيسا. جلسنا هناك بعض الوقت. ذهبنا يوم الإثنين إلى بيته مع فانيسا. جاءت مارجري فراي. رأت فانيسا هلين أنريب[1] Helen Anrep. سنذهب غداً إلى الجنازة جرياً وراء غريزةٍ ما. أشعر بالدوار ؛ وأنا متخشبة جداً. يقول ليونارد إن البكاء من عادة النساء. لكني لا أعرف لماذا أبكي، وعلى الأكثر مع فانيسا. أنا بمنتهى السخف فلا أستطيع كتابة شيء. رأسي متحجر كلياً. أظن أنني مقبلة الآن على فاقة الحياة ؛ وعلى هذا النقاب الأسود الذي ينسدل على كل شيء. الجو حار ؛ والريح عاصفة. وقد غاب جوهر الأشياء عن الدنيا».

---

(١) كانت هلين أنريب تعايش روجر فراي منذ سنة ١٩٢٦ معايشة الأزواج. أنظر ما قاله روجر عن ذلك في سيرة «روجر فراي» بقلم فرجينيا وولف، ص ٢٥٥.

الفصل الثامن
١٩٣٤ ـ ١٩٣٦

«عزفوا باخ. ثم سار النعش بطيئاً فمرّ من خلال الأبواب، وكانت مفتوحة ثم أغلقت من ورائه. عزفوا مرة أخرى، موسيقى قديمة. وأنا أهوى انعدام الكلمات؛ بدت هلين أنريب فتية جداً بعينيها الزرقاوين وكانت هادئة وسعيدة. وهذا يكفي لكي أتذكرها به. قبلتها من شفتيها في الساحة. ثم جاء دزموند فقال: (ألا يكون من اللطيف أن نمشي في الحديقة؟ آه، إننا نقف فوق جزيرة صغيرة). فقلت: (لكنْ الوضع كان رائعاً جداً). ولأول مرة وضعت يدي على كتفه وقلت له: (أرجو ألا تموت) فقال: (ولا أنت. لقد كان عندنا أروع الأصدقاء)».

كان موت روجر حدثاً في الصميم وأشد تدميراً لفرجينيا من موت ليتون. كان ليتون ماضيها، أما روجر فهو حاضرها. كان ذلك الزمن «زمناً مريعاً» كما عبّرت عنه شخصياً، وأنكى ما فيه أن عليها أن تعاني إحساساً مزدوجاً بالخسارة، خسارتها وخسارة فانيسا الحزينة.

كان قد مضى على انتهاء علاقة فانيسا الغرامية بروجر أكثر من عشرين

سنة ؛ ولكن فانيسا تستطيع أن تجعل من عشيقها صديقاً، وهكذا فرغم فترات القطيعة الأليمة عاد روجر شيئاً فشيئاً إلى حلقة الأسرة على أساس جديد، أسعد حالاً وأقل رومانسيةً. فقد جاء بإسهامه الخاص في محصلة بلومزبيري، جاء بحصيلةٍ كالنبيذ معتقاً غير محلّي، لكنه ثرٌ يثلج الصدر. كان الناس بحضوره ينقلبون إلى وضعٍ أكثر مرحاً وأكثر جدية معاً ؛ أكثر مرحاً لأن هناك شيئاً جذِلاً، متجلياً بالسليقة في طبعه، وأكثر جدية لأن هناك وراء الابتهاج أشياء بعينها تفترض افتراضاً فهي بمنزلة الأمر المفروغ منه : الحاجة إلى الأمانة الثقافية، إلى النزاهة الجمالية، إلى الاحترام لقيم معينة : التسامح، فعل الخير، طيبة النفس. وقد آمن روجر بهذه القيم دائماً كما آمن بها صديقه لويس دكنسون Lowes Dickinson ولكنه آمن بها على نحوٍ أكثر صلابةً دون أن يعتوره ذلك الضرب من الوهن والعجز والتقلب الذي كان يجعل لويس دكنسون آسراً ومنفّراً معاً. كان روجر أكثر إلتصاقاً بالأرض كالمعدن الخام، أكثر حسيّةً في الشهوات، أكثر مرونة، ولكنه كان مع ذلك على حاله من «النقاء» والابتعاد عن الدنيا الفانية.

كان روجر قد مزج بهذه الصفات من المرح والاستقامة موهبةً في الصداقة، وهذه الموهبة هي التي جعلته بالأهمية التي كان عليها لفرجينيا ولبلومزبيري عامةً. وكان ذلك أمراً مثيراً للعجب لأنه لم يكن سهل القياد بالتأكيد، وهو يستطيع أن يفرض إرادته على الآخرين بل يفرضها فعلاً ؛ كان قادراً على قضاء ساعات متواصلة في معرض للرسوم ويبقي على أصدقائه معه طوال تلك الساعات. ولكنه كان أيضاً من شخصيات الفكاهة، فأصدقاؤه يضحكون منه لتفتحه العلمي الذي يصدق تصديقاً أعمى بما يقوله العلم وإن دون سند ثابت، ولبلسمه الشافي الذي يقدمه علاجاً لجميع الأدواء، ولتنبؤاته بزوال الأكوان، ولمخترعاته الخيالية. ولكن استبداده وحماقته ونزعته الخرقاء لم تثقل على أصدقائه ولم تعكر صفو صداقاته. كان يعلم جيداً أن أصدقاءه يسخرون منه، ولكنه كان يضحك

هو نفسه من سذاجته بعد أن يكتشفها بنفسه، كما كان يقر مبتسماً بأنه دكتاتور غير أن إقراره لا يقلل من دكتاتوريته شيئاً. هذا وكانت طاقة روجر في الصداقة طاقة عبقرية تتسع لحمل ما هو أشد من السخرية ثقلاً. لقد أراد طوال حياته أن يكون رساماً. وما أدواره في النقد والتاريخ والمحاضرة إلا أدوار فرضت عليه فرضاً، ولم تكن سوى أقنعة تنكرية سرعان ما يخلعها فيرميها جانباً كلما استطاع العودة إلى الرسم. كان يريد أن يرسم لوحات عظيمة، وأستطيع أن أقول إن أسعد لحظات حياته - إذا تركنا الحب جانباً - كانت تلك التي أمضاها أمام قماشة الرسم، وأن أتعسها كانت تلك التي يقف خلالها أمام لوحته وهي معلقة غير مشتراه، يطاردها إطراء النقاد الواهن كاللعنة، وإدانة أصدقائه المكبوتة التي لا تجري على ألسنتهم. أما فرجينيا فلم تلجأ إلى الإطراء الواهن ولا إلى الإدانة الساكتة ؛ فقد أمسكت بمالج الطين وأخذت تكيل مديحها لروجر فتملجه كتلاً كثيفة، دهنية، كالقشدة، ولم تكن قد استعملت من قبل هذه الأداة في نقدها الأدبي.

«فيا عزيزي روجر، لا تحاول أن تقنعني تحايلاً أنك فاشل محطم، لأن هذا لا يليق بك أبداً ؛ إنني لا أستطيع إخبارك الآن، خجلاً مني، بمدى حبي للصورة التي رسمتها للمنظر الطبيعي في هيلز Heals، ولكن أعرف أني أحب الأشياء الغلط كلها، اللون، الفتنة، العاطفة، القوة الأدبية».

أو مرةً أخرى :

«بوسعي أن أقتفي أثر المغامرات والاستكشافات الكثيرة في لوحاتك، إلى جانب جمالها كرسوم - وبعضها مدهش - إلا أني متحيزة كما تعرف ولست حكماً نزيهاً في هذا. أما الذي حيّرني وأثار إعجابي على أقصى حد هو مغامرات عقلك

الأبدية، المتنقلة هنا وهناك. لا أدري كيف أمكنك الاستمرار في هذا، فأنت تسير إلى الأمام دائماً، ولا تستسلم أبداً ولا تستلقي فتصاب بالخمول والتفاهة والابتذال كالآخرين».

شعر روجر بالعرفان وهو يقرأ كلامها هذا، ولعل مديحها هو الذي حدا به أن يعبّر لها عن أمله بأن تكون هي بالذات كاتبة سيرته ذات يوم، وإن كان قد قال ذلك بين الجد والهزل.

حين جاءت مارجري فراي لتناول الشاي في الثامن عشر من تشرين الثاني لبحث مسألة كتابة السيرة مع فرجينيا كان ذلك أمراً سبق تمحيصه، ولكن كلتاهما كانت ميالة إلى الأخذ باقتراح آخر تكتب بمقتضاه مجموعة من المقالات بقلم أصدقائه، فتصف مارجري شبابه، ويكتب ناثانيل ويد Nathaniel Wedd عن حياته في كيمبردج، ويصف كلايف وسيكيرت أيامه الأخيرة في لندن، ويكتب دزموند وفرجينيا عن موقعه في بلومزبيري، وربما يكتب أنطوني بلانت A. Blunt وجرالد هيرد J. Heard عن سنيّه الأخيرة.

لم يثمر هذا المنهاج شيئاً، ولكن الفكرة بكتابة «سيرة» ظلت باقية. ثم أقيم في شهر تموز ١٩٣٥ معرض تذكاري لرسوم روجر في برستول. طلب من فرجينيا أن تتكلم في الافتتاح ؛ وكانت هذه مهمة ثقيلة، ووجدتها فرجينيا عند انتهائها غير محمودة، ذلك أن أسرة فراي - إبنة روجر وشقيقاته الخمس - لم يرق لهن ما سمعن. وقد أدركت فرجينيا أيضاً أنه إذا كان لا بد من «سيرة» فإن الأقارب سيريدون الإحاطة بكل شيء. عندئذ سألت نفسها «هل لديّ تلك الشجاعة التي لا تقهر» لكتابة كتاب آخر؟ ذلك أن رواية السنين قد أمست الآن كابوساً.

إن الطريقة التي تولت فرجينيا بموجبها هذه المهمة ليست طريقة واضحة تماماً. وكانت هلين أنريب هي التي حبذت أن تكتب فرجينيا السيرة المطلوبة تحبيذاً قوياً، لذا يعود إليها الفضل في ظهور الكتاب. أما مارجري فراي، القيّمة الأدبية، فيبدو أنها كانت مترددة في اتخاذ قرارها. ولكن أظن أن فانيسا كانت قد حبذت الفكرة ؛ هذا في حين كانت أوتولين وجوليان بيل ضدها. ولا أدري بماذا نصح ليونارد إن كان قد نصح بشيءٍ على الإطلاق في هذا الشأن. ولكنه عبّر في وقتٍ لاحق عن رأي مفاده أن فرجينيا قد أخذت على عاتقها مهمة لم تكن مستعدة لها استعداداً حسناً. «. . . إنها لا تستطيع أن تتناول الوقائع والحجج على مدى حجم كتاب كامل إلا بالكتابة ضد الاتجاه العام وإلا بأن تكبح باستمرار شيئاً ما، الأمر الذي كان ضرورياً لعبقريتها الفذة وطبيعياً فيها». وأحسب أن معظم النقاد سيوافقونه على هذا الرأي. هذا وبالإضافة إلى الصعوبات الكامنة أصلاً في الشكل الذي اختارته فرجينيا، شكل السيرة، والمشاكل التي ينفرد بها هذا الموضوع بالذات فيكون عليها التصدي لها.

كان هناك جانب في حياة روجر يحتاج وصفه إلى فنان أو إلى مؤرخ فني. وربما كان من الممكن أيضاً تحقيق هذه المهمة من لدن مؤلف يتجرد عن عواطف ذلك الزمان وأغراضه وطرز حياته. ولكن هذه دراسة لم تزعم فرجينيا أنها تمتلك الأداة اللازمة لها. أما القصة الأخرى التي كان يمكن أن تروى فهي قصة العلاقات الغرامية الفاجعة في حياة روجر، وكانت أحياناً مضحكة. إن جزءاً كبيراً من هذه القصة معروف جيداً لدى فرجينيا، ولكنها لا تستطيع أن تكشف عنه للجمهور. كتبت إلى أختها فانيسا تقول : «كيف لي أن أتناول بقلمي حباً دون أن يجعلنا ذلك نحمّر خجلاً، كلنا دون استثناء؟» فأجابتها فانيسا بشجاعة تقول : «ليتك لا تمانعين في جعلنا جميعاً نحمّر خجلاً. إن ذلك لن يؤذينا أبداً». لكن فرجينيا كانت قد

ولدت سنة ١٨٨٢، ولا أظن أن أحداً أعرفه ممن ولد قبل سنة ١٩٠٠ يستطيع أن يدون ببرود هيام الزنا لشقيقة له[1]. ولكنْ، وعلى فرض أن يمكنها أن تتجاوز تحفظاتها كلياً فإن ذلك سيؤدي إلى ابتئاس شقيقات روجر ابتئاساً عميقاً. بل إن فرجينيا لم تستطع أن تتناول صراحةً، وإنْ باقتضاب، علاقة روجر الغرامية الأخيرة بهلين أنريب إلا بعد إصرار هذه على قول الحقيقة.

كان تأثير هذه الموانع والمحرمات سيئاً على الكتاب. كانت هناك مرحلة حاسمة في حياة روجر تعود أهميتها الكبيرة إلى شخصين إثنين هما سيزان وفانيسا. فأما بشأن سيزان فلا أظن أن بمستطاع فرجينيا أن تصور مشاعر روجر ومشاعر مناهضيه تجاه هذا الرسام. وأما فانيسا فهي تتفهمها وربما كانت تستطيع وصف علاقتها الغرامية مع روجر وصفاً جميلاً، لكنها منعت من ذلك. وهكذا فإنها في نهاية الأمر قد صُدّت بما تعرفه وبما لا تعرفه معاً؛ فإذ بكتابة سيرة روجر، التي كان يرجى لها أن تكون محطة إستراحة بعد رواية السنين، تغدو عذاباً آخر جديداً.

وجاءت الشهور الأخيرة من سنة ١٩٣٤ والشهور الأولى من سنة ١٩٣٥ تحمل معها التعاسة والبؤس، حتى أنها كانت مرحلة دعتها فرجينيا مرحلة «الفراغ الإنساني»، وليس هذا فقط لأن روجر قد مات بل لسبب آخر كذلك. ففي العاشر من آذار ذهب الزوجان وولف بسيارتهما وسط عاصفة ثلجية من رودميل إلى سيزينغيرت Sissinghurst لزيارة فيتا. ما أن استأذنا بالخروج حتى أدركت فرجينيا أن صداقتهما التي اتسمت بالهيام قد

(١) «لو كان بوسعي أن أتنصل عن أقربائي كلهم فلربما كنت قلت أكثر مما قلته ـ ولكنْ كيف يمكن للمرء أن يتخلى عن مشاعره الإنسانية؟ إن هذا من الأسباب التي تبرر عدم كتابة السير. ومع ذلك فلو أن المرء ينتظر ليسمح بمرور الوقت الكافي فإن الانطباعات السيئة تأخذ بالشحوب». (من رسالة فرجينيا إلى ليدي سايمون في ٢٥ / ١ / ١٩٤١.

انتهت. لم يكن هناك من خصام، ولا من برود ظاهر، ولا من مرارة، ولكن العلاقة الغرامية ـ أو كائناً ما يكون الاسم الذي نطلقه عليها ـ كانت قد تبخرت منذ أمد، كما أن ذلك الانفعال الفريد كان قد زال من حياة فرجينيا فخلّف وراءه خواءً وخموداً.

في ذلك الوقت أخذت فرجينيا تعاني من النقد المعادي الموجه لها، وهذا ما كانت تنتظره. فقد هاجمها الأمير ميرسكي Prince Mirsky وفرانك سوينيرتون Frank Swinnerton، الأول باعتبارها بائعة متجولة لمخدرات الرأسماليين، والثاني باعتبارها مثقفة متكبرة ذكية. وقد سبب لها هذان الناقدان ألماً ممضاً؛ ولكن الضربة الأشد كانت تلك التي كالها لها ويندهام لويس Wyndham Lewis فأحدثت جرحاً أعمق وتركت أثراً أطول أمداً.

فقد أعلن عن ظهور كتاب «رجال بلا فن» الذي ألفه لويس في ملحق التايمز الأدبي في ١١ تشرين الأول ١٩٣٤. وأدركت فرجينيا في الحال أن هذا المؤلف سيهاجمها، ولم تكن مخطئة. فقد خصص لها فصلاً نبذها فيه باعتبارها كاتبة لا تستحق الذكر ـ «إنها غير ذات أهمية إلى أقصى الحدود. . .»، «ولم تعد تؤخذ مأخذ الجد اليوم من الجميع». إن هذا النقد لا يهمنا إلا بقدر ما يتعلق بكونه حدثاً نفسانياً في حياة فرجينيا. قرأت الفصل الذي خصها به الكتاب يوم الرابع عشر من تشرين الأول، فاستبدت بها التعاسة في اليومين التاليين. لقد أخذت كلام ويندهام لويس مأخذ الجد بالتأكيد؛ أدركته أنه هزأ «أروع الهزء وأفظعه» من بحثها عن «السيد بنيت وشخصية السيدة براون»، فأخذت تتفكر هل ينبغي لها أن تهتم بهذا النقد الذي لا يستحق الاهتمام، فقررت أن تتجاهله. ما أن واجهت الناقد هكذا حتى اطمأنت نفسها وشعرت بأن ألمها قد انتهى. ولكنه لم ينته، ففي اليوم التالي لقراءتها للفصل صارحت ليونارد بما في فؤادها من عناء وهما يسيران في حدائق كنسنغتون، ثم صارحت أثيل سمايث بذلك أيضاً. كان كلاهما

لطيفاً على شاكلته الخاصة، فكلاهما هوّن الأمر عليها وأدخل الراحة والاطمئنان إلى قلبها، حتى إذا كان الغد شعرت مرة أخرى بأن الألم قد زايلها تماماً. ولكن، ما أن نشرت مجلة «سبكتيتر» في الثاني من تشرين الثاني رسالة من ويندهام لويس يرد فيها على ستيفن سبندر الذي اتهمه بالخبث، حتى عاد الألم يستولي على فرجينيا مجدداً.

والأمر المقلق بشأن نقد ويندهام لويس هو أن نقده لم يكن مجرد نقدٍ ذكيّ، قاسٍ، ومكتوبٍ باقتدار بل إنه نقد عدواني على نحوٍ خاص جداً. ومن المفارقات أن هذه العدوانية إنما تظهر في فقرات لا يمكن وصفها إلا بأنها متهيبة. كان لويس رجلاً متحاملاً، وكان يخيّل له أنه محاصر من آخرين يضطرونه إلى أن يحيا «حياة الطريد». أما فرجينيا فلم تشر إليه قط في ما نشرته من كتابات، على قدر ما استطعت أن استكشف ؛ ولكنها يمكن أن تعتبر بنظر لويس ممثلة لتلك الفئة الخفية القائمة في مخيلته وحدها وهدفها الرئيسي في تصوره هو تدمير ويندهام لويس. والظاهر أنه كان فزعاً من هذه الطغمة الشريرة، وجلاً منها. لذلك نجده هيّاباً من كيل الضربة رغم استعداده لإيقاع الجروح، وحين كالها لفرجينيا حاول أن يتنصل من مسؤولية كلامه ـ «أنا لا أقول ذلك ـ الآخرون يقولون».

ما كان ينبغي لهذه الصفة المتهيبة في نقد ويندهام لويس أن يثير قلق فرجينيا، ولكني أحسب أن ذلك النقد قد أثار قلقها رغم تهيبه. إن النقد بالتدليس أدعى للاحتقار، ولكنه ليس أقل إيذاءً من الإدانة الواضحة الصريحة. إن فكرة وجود عدوٍ لها ينتظر فرصته، ناقدٍ يريد أن يؤذي لا أن يحاجج، أن يسفّه لا أن يحكم، هي فكرة تكوّن باعتقادي عاملاً مساعداً في موقف فرجينيا من النقد، وكان موقفها يكاد يكون هستيرياً ؛ أو بعبارة أدق كانت تلك الفكرة عاملاً مساعداً في موقفها من إمكانيات النقد خلال السنوات الثلاث التالية.

إن النقد المعادي سيتكرر كثيراً منذ الآن. وقد حاولت ألا تكترث له، وحاولت أيضاً أن تنتفع منه، وحاولت أحياناً أن تجيب عنه، ففشلت في المحاولات الثلاث جميعاً. ليس بوسع فرجينيا ألا تكترث حقاً للمدح أو للقدح على السواء (وأحسب أن هذا يصدق على الفنانين كلهم تقريباً، ولكنه يصدق عليها بالتأكيد) ؛ ولم يقدم النقاد شيئاً كثيراً يمكنها استخدامه في الرد عليهم ؛ يضاف إلى هذا أنها لم تكن تحسن الجدال. وكثيراً ما أقنعها ليونارد بألا تسارع بتهور إلى عمود الرسائل في الصحف. إن النقد أمر لا بد من تحمله، كالصداع أو الأرق.

وما لبثت فرجينيا أن أحست في ذلك الحين بأن شهرتها آخذة بالتضاؤل ولم يكن هذا الإحساس قائماً على افتراضٍ غير معقول، هذا ناهيك عن شعورها بخوف شديد بشأن استقبال رواية السنين. يضاف إلى هذا أن فرجينيا كانت قد بلغت مركزاً مرموقاً جعلها هدفاً لمن هب ودب من النقاد الذين يريدون توجيه اللطمات للنظام القائم. حين نشرت فرجينيا بحثها عن «السيد بنيت وشخصية السيدة براون» وجدت في ويلز وبنيت وغالزوورثي خصوماً طبيعيين، وفي فورستر ولورنس وإليوت وجويس وليتون ستراجي حلفاء طبيعيين (وإن مع تحفظات). وقد كان من الممكن في سنة ١٩٢٤ النظر إلى حرب الأحزاب الأدبية على هذا المنوال. ولم يعد هذا ممكناً بعد عشر سنوات. كان ويلز هو الوحيد الباقي الآن من الرعيل الأول، أما جيل الشباب فقد مات منهم لورنس وليتون ستراجي ؛ وانقطع فورستر عن كتابة الروايات ؛ ولم يصدر عن جويس عمل رئيسي منذ سنة ١٩٢٢. أما الروائيون الإنكليز من جيلها، وهم كومتون مكنزي وألدوس هكسلي وجي. بي. بريستلي وهيو وولبول وديفيد غارنيت وروز ماكولي، فلم يكن أحد منهم ماضياً بالثورة قدماً، تلك الثورة التي اعتقدت فرجينيا في سنة ١٩٢٤ أنها وشيكة الحدوث. فوجدت نفسها وحيدة بعد أن فقدت مناصريها ومناهضيها معاً. ولا أظن أن هذا بذاته كان يثير قلقها. ولكنْ، كان من

الممكن اعتبارها رجعية ومناهضة طبيعية للشباب بصفتها الكاتبة الوحيدة الباقية التي خلفتها حركة استنفذت قوة الدفع فيها. أما الشيء الرائع بنظري فلا يتمثل بأنها كانت هدفاً للنقد بل يتمثل بأنه كان نقداً محدوداً ومخفّفاً في أغلب الأحيان. ذلك أن أسلوبها في الكتابة لم يكن من ذلك النوع الذي يثير حماسة الشباب في الثلاثينات. ولا شك أنها كانت تبدو للكثيرين شخصية نحيلة، متباعدة، غريبة، وربما مخيفة بعض الشيء، شاعرة هشة، كأنها من قوارير، في متوسط العمر، شبيهة بالشاعرة الإغريقية سافو -Sap pho إنما بلا منحى جنسي، ولا شك أيضاً أنها كانت تبدو شيئاً غريباً حين كانت الأزمة التي تأخذ بخناق ذلك العقد من السنين تقترب من نهايتها الفاجعة ـ إمرأة كئيبة من ذوات القوم وقد داهمها الإعصار ولكنها لا تقوم إلا بجهدٍ قليل سواءً لمقاومته أو للسير معه. إنها لم تحاول إلا بشيءٍ يقل كثيراً عن محاولة فورستر في الاشتراك بجدال العصر، وهي حين حاولت ذلك جاء اشتراكها شاذاً فلم يخدم غرضاً نافعاً.

هذه صورة تقتضي شرحاً كما سنبينُ في الصفحات التالية. ولكن يمكننا أن نقول إن حال الأدب خلال تلك السنوات كان آخذاً بالتغيّر، وأن عدداً من الفصائل المهمة من الشعراء والروائيين الشباب كان يدعو إلى أدب يقود إلى عملٍ سياسي فعال.

وهنا لعل من الضروري تذكير القارىء بأنه في سنة ١٩٣٣ ـ وهي السنة التي نشر فيها كتاب سيرة الكلب «فلاش» ـ تولى هتلر السلطة في ألمانيا، وكان اليابانيون فيها يجتاحون منشوريا ؛ وفي السنة التالية وقع ما يشبه المرحلة الأولى من ثورة فاشية في فرنسا ؛ وفي سنة ١٩٣٥ غزا الإيطاليون الحبشة، وفي سنة ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية الإسبانية، وفي سنة ١٩٣٧ استولى اليابانيون على شنغهاي وبكين وفي سنة ١٩٣٨ ضم النازيون النمسا أولاً، ثم السوديت. وإذ كان الرجعيون يزدادون قوةً على قوة كان على

الذين يعارضونهم أن ينظروا : هل يجب مقارعة القوة بالقوة؟ أما فرجينيا فإنها تكره العنف، وهي تربطه بالتسلط الرجالي. فهل علينا إذن أن نتراكض هاربين كالعوانس الخائفات أمام السفاكين الفاشيست؟ هذا ولا بد لنا أن نتذكر أن فرجينيا إنما تنتمي إلى العالم الفكتوري، عالم الأمبراطورية والطبقة والامتياز. وكانت موهبتها تختص بتعقب الظلال، وتختص بالأشباح الهامسة التي تقطن العقل وبالغموض الملتوي الذي يسكن الروح، في حين كان المطلوب تلك العبارة المسرعة، الواضحة، التي يمكن أن تصل إلى آذان العاطلين عن العمل أو آذان الموظفين في نقابات العمال.

مع هذا فقد كان نقادها في أوساط اليمين أكثر من نقادها في أوساط اليسار. وكان هناك عدد من الكتاب الشباب يعرفونها معرفة شخصية ؛ فعن طريق جوليان وعن طريق جون ليمان عرفت إشروود وستيفن سبندر وداي لويس، وكانت علاقتها بالشعراء المناوئين للفاشية علاقة ودية، يسيرة، وتنطوي على تقدير صميمي. لهذا لا بد أنهم أدركوا أن موقفها من السياسة كان من النمط الذي يجدونه متعاطفاً، وإن كان نثرها لا يصلح على الإطلاق أن يكون أداة فعالة لنقل الأفكار السياسية.

وقد كانت فرجينيا بالطبع، بمعنى من المعاني، في خضم سياسة الجناح اليساري أمداً أطول من أمدهم. غير أن محاولاتها في التعامل مع الواقع السياسي كانت محيّرة، كما كانت أحياناً تثير السخط في نفسها وفي نفوس العاملين معها كذلك. إني أتذكر اجتماعات كان يعقدها حزب عمال رودميل في تلك السنوات، وذلك الحزب عبارة عن مجموعة صغيرة عملت فرجينيا سكرتيرة لها بعض الوقت، وأتذكر كذلك قنوطي حين كنت أسعى لكي يصدر الحزب قرارات تحث على تشكيل جبهة وطنية، أو تتعلق بأمور أخرى على المستوى نفسه من العجالة والأهمية، فإذا بفرجينيا تحول المناقشة بطريقة من الطرق وتوجهها وجهة أخرى بعيدة فتتطور إلى تبادل إشاعات

القرية وما يجري فيها من اغتياب للناس. إنها كانت في هذا أقرب مني إلى مشاعر الجماهير، إذ كان يمكن وصف تلك القلة التي يعد أفرادها على أصابع اليد بالجماهير. كنت أنا أريد التحدث في السياسة والجماهير تريد الكلام عن زوجة القسيس.

سألتني فرجينيا ذات مرة عند خروجنا من اجتماع من تلك الاجتماعات لماذا اتجهت الأمور في العالم تلك الوجهة الخاطئة جداً في تلك السنين القليلة؟ فأجبتها بما أحسبه جواباً جاهزاً لأي اشتراكي شاب ؛ قلت إن السبب الأساسي هو الأزمة الاقتصادية العالمية وكان انهيار البورصة الأمريكية أوضح أعراضها وأكثرها ضرراً ؛ فأدى ذلك إلى البطالة والثورة والثورة المضادة والقومية الاقتصادية والسياسية، ومن هنا الشيوعية والفاشية والحرب. . . وما هذه إلا آثار السبب الاقتصادي. ظهر على فرجينيا الذهول وظلت حائرة فلا هي توافق على ما قلته ولا هي لا توافق عليه، لكنها رأت أن تفسيري غريب جداً. وأظن أن الأمر بدا لها وكأن ذلك الجانب الفظيع من الكون المتمثل بقوى الجنون، وهي قوى لم تكن قط بعيدة عن وعيها، هو الذي صارت له اليد الطولى مرة أخرى. كان هذا بنظرها شيئاً مستقلاً إلى حدٍ كبير عن مجريات السياسة في العالم وآلياتها. أما الرد على هذا الفزع والعنف فهو يكمن في تحسين حالة الفرد الأخلاقية ؛ ثم لا بد من طرد الغضب وبالتالي طرد الجنون الذي يولده الغضب. وهكذا فقد كانت فرجينيا تميل، على الضد من ليونارد، إلى المسالمة كلياً ؛ غير أنها لم تفصح عن هذا الميل قط في مجال السياسة، ولكنه يمثل رد فعلها الغريزي، وهو رد الفعل الأنثوي إزاء رد الفعل الرجولي، بل «الرجولي المتوحش».

ذهب الزوجان لحضور المؤتمر السنوي لحزب العمال الذي عقد في برايتون في شهر تشرين الأول ١٩٣٥ فشهدا النقاش الشهير الذي احتدم بين أرنست بيفن، ممثلاً للأمن الجماعي، وبين جورج لانسبوري زعيم حركة المسالمين، فمسح بيفن بلانسبوري الأرض. فزع كلا الزوجين من طريقته ـ

«كأنه ضفدعة ضخمة تسحق ضفدعة صغيرة»، كما قالت فرجينيا ؛ ولكنْ فيما ميّز ليونارد بين بيفن وسياسته (وكان يؤيدها على العموم) لم تفكر فرجينيا سوى بالدراما التي سادت الاجتماع وما نشأ عنها من فزع)[1].

حضرت فرجينيا، في كانون الأول من تلك السنة، اجتماعاً للمثقفين المناوئين للفاشية. كانت تلك الاجتماعات وما شابهها من الفعاليات السياسية تثير الكآبة في النفوس في تلك الحقبة ـ فالمظاهرات مثلاً التي يفترض فيها الوحدة والتضامن كثيراً ما انتهت بمنازعات خبيثة بين الشيوعيين والمسالمين. وقد شعرت فرجينيا بإعجاب يشوبه الذهول بكفاية السياسيين وثرثرتهم، ولكنها أحست بالامتعاض الشديد حين وافق ليونارد على الخدمة في لجنة من اللجان السياسية مرةً أخرى. كانت أصلاً قد أثارت لنفسها المشاكل مع أصدقائها ذوي الميول المحافظة حين أعارت إسمها لمعرضٍ مناوىء للفاشية موحى به من الشيوعيين، كما أثارتها مع اليسار لعدم استعدادها للتبشير باستخدام العنف. وكان أن أقنعها سكرتير رابطة الفنانين الدولية، الذي يأسر مخاطبيه بسحره، بكتابة مقال في سنة ١٩٣٦ في صحيفة «ديلي ووركر» لسان حال الحزب الشيوعي البريطاني، فهاجمها محرر الجريدة لما وجده من نقصٍ عندها في الماركسية. إنها لم تكن قادرة على تجنب السياسة كلياً ـ فكيف ذلك وهي تمقت الفاشية التي كانت تمسي أكثر تهديداً يوماً بعد يوم.

غير أن الآلة السياسية كانت تثير سخطها وحيرتها. كان السياسيون يفاتحونها باستمرار ويطلبون استخدام اسمها باعتبارها كاتبة ذائعة الصيت، متعاطفة مع اليسار. كان يتوقع منها مثلاً أن تقدم جواباً فورياً إذا اتصل بها

---

(١) لاحظت فرجينيا كذلك دهاء ليونارد السياسي. فحين وقف المجتمعون يغنون أغنية For he's a jolly good fellow (مشيرين إلى جورج لانسبوري) التفت ليونارد إلى فرجينيا وقال «الآن يستطيعون التخلص منه». (معلومات خاصة بالمؤلف).

أحد الصحفيين هاتفياً ليعرف رأيها بشأن قرار المحكمة العليا الأمريكية في قضية سكوتزبورو (الذي صدر في سنة ١٩٣٥ ويقضي بنقض قرار هيئة المحلفين في ولاية ألاباما وكانت قد تألفت من محلفين بيض وأدانت إثنين من الزنوج اتهما بالاغتصاب) ؛ وكان يطلب منها مراراً وتكراراً أن تعير اسمها إلى منظمات قد تكون أو قد لا تكون من المنظمات التي يسيطر عليها الحزب الشيوعي. كانت في مثل هذه الحالات تلجأ عادةً إلى ليونارد تسأله النصيحة. ولكنها كانت تقنع أحياناً من آخرين بالعمل في بعض اللجان أو بحضور بعض المؤتمرات. وها نحن نجد فورستر يحاول في سنة ١٩٣٥ أن يقنعها وليونارد معاً لحضور اجتماع للمثقفين المناوئين للفاشية في باريس.

«آه يا عزيزتي فرجينيا، تخيلي لو أنك وليونارد تستطيعان الحضور! سيكون في ذلك متعة كبيرة وتحصين ضد الشيوعيين الذين قد يحاولون القيام بأعمال سخيفة! أما أنا فذاهب، وكذلك ألدوس هكسلي، ونحن نحاول إقناع جيرالد هيرد، وهناك أمل حتى بدزموند. سيكون تشارلس مورون موجوداً. أرجو منكما، وألحف بالرجاء، بأن تأتيا وإنْ ليوم واحد. ولا أحسب أن لهذا المؤتمر فائدة تذكر ـ فقد جاوزت الأمور حدها. ولكني لا أشك بأهمية أناس مثلنا في داخل المؤتمر. فنحن أصحاب القول الفصل للمتمدنين».

فشل فورستر في تلك المرة. ولكنها لم تستطع مقاومة مناشداته دائماً، كما يتضح من رسالتها التي كتبتها إلى أثيل سمايث في آب ١٩٣٦ :

«. . . وضغط عليّ فورستر لكي أكون عضوة في لجنةٍ ما ـ وضايقوني لكي أشترك فيها ـ ثمة مراسلات لا تنتهي : رفضت أن أتزحزح، وأخيراً استقلت. لكن الأمر كان شديد

الإزعاج. جن جنون إحدى النسوة، واسمها أليس وليامز.
وحقرني أندريه جيد وغيره من مشاهير الفرنسيين».

غير أن مخيلة فرجينيا لا تلتهب إلا إذا وقعت معضلة في نطاق شخصي. فحين جاءت فتاة يكاد يغمى عليها من الإعياء إلى منزل الزوجين في لندن وتوسلت تطلب قدحاً من الماء ـ لم تكن قد تناولت طعاماً طوال اليوم وهي تتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن عمل ـ مثلت أمامها أهوال البطالة على حقيقتها. أما ما كان يجري من أحداث درامية في أوساط علية القوم فقد كانت تتقبلها بسرور؛ لقد استمتعت مثلاً بأزمة التنازل عن العرش في سنة ١٩٣٦ ما وسعها الاستمتاع.

كان النقاد والسياسيون يلعبون دوراً متعاظماً في وجود فرجينيا؛ فهؤلاء يقطعون عليها سلسلة أفكارها ويقفون حجر عثرة في حياتها المكرسة أساساً لذلك الأمر الذي يزداد تعاسة وهي تحاول كتابة رواية السنين. ولكنْ كان هناك بالطبع مداخلات أخرى بنوعيها اللطيف وغير اللطيف مما يجدر التطرق إليها.

ففي كانون الثاني ١٩٣٥ جرى تمثيل مسرحية «الماء الصافي»[1] Fresh water في مرسم فانيسا، وكانت الأسرة قد بدأت بتأليفها قبل إثني عشر عاماً فأعيدت كتابتها إعادة تامة. وقد أفسد الأداء كلايف وشقيقه كوري Cory فقد كانا يضحكان بين المتفرجين ضحكاً عالياً، متواصلاً كان يغطي

---

(١) «الماء الصافي، مسرحية هزلية بثلاثة فصول»، وهي تعالج الحياة المنزلية لعمة والد فرجينيا، المصورة السيدة كاميرون، ولأصدقائها في جزيرة وايت. ثمة مسودتان: الأولى كتبت في ١٩٢٣، والثانية هي التي مثلت في ١٩٣٥. وتوجد نسخة بخط فانيسا تحتوي بالإضافة إلى النص على قائمة بالممثلين الذين مثلوا الحفلة الأولى والأخيرة في مرسمها. قامت فانيسا بدور السيدة كاميرون، وقام ليونارد بدور زوجها، وجوليان بدور اللورد تنيسون، وأنجليكا بدور إيلين تيري، ودنكون غرانت بدور واطز، وآن ستيفن بدور جون كريغ، وإيف يونغر بدوري الخادمة ماري والملكة فكتوريا».

على الحوار فلا يسمعه أحد.

وفي ربيع ١٩٣٥ قام الزوجان بما أصبح يعرف الآن بالرحلة السنوية إلى الخارج، فذهبا بسيارتهما إلى روما والتقيا هناك بفانيسا وبعض أبنائها. وقد عجبت يومئذٍ شخصياً (وأنا أعجب اليوم) أن يختار ليونارد السفر عن طريق ألمانيا في ذلك الحين.

كان الزوجان يتمتعان بطبيعة الحال بامتيازات الأجانب، وكانا أيضاً يحملان رسالة توصية من الأمير بسمارك من السفارة الألمانية في لندن. وفضلاً عن ذلك كان ليونارد يصطحب معه حيوانه المدعو ميتز (وهو من فصيلة معينة من قرود أمريكا اللاتينية ذات المخالب بدلاً من الأظافر وتربى كالكلاب)، وكان القرد ميتز يشبه المرحوم الدكتور غوبلز شبهاً مذهلاً، فخلق انطباعاً حسناً جداً حتى أن الزوجين لم يضطرا قط إلى استخدام رسالة التوصية التي يحملانها. مع هذا فما كان الأمر بحاجة إلا إلى حادث بسيط من حوادث سوء الحظ لكي تحدث حادثة مفزعة. بل كاد يحدث ذلك حين وجد الزوجان نفسيهما وسط مظاهرة نازية بالقرب من بون. لقد كان عليهما، برأيي أن يحتاطا كثيراً تهيباً من الاعتقال أو القسوة البدنية، لا سيما وأن محض إظهار العداء أو الشراسة أو العجرفة الآرية كان يكفي بذاته لتوجيه ضربة قاضية لفرجينيا. كانت هذه هي المرة الوحيدة، على قدر ما أعرف، التي غامر بها ليونارد بأعصاب فرجينيا مغامرة ليس لها ما يبررها.

غادرا ألمانيا وعبرا الألب سياقةً بسيارتهما إلى فيرونا ومن هناك، عن طريق بولونية وفلورنس وبيروغيا وسيوليتو، إلى روما حيث كانت فانيسا بانتظارهما. قاما معها برحلات إلى فيلاّ ديسته ومونت كاسينو، أما في روما نفسها فهناك الفاتيكان، وهناك سوق السلع المستعملة فكانت فانيسا تشتري منه، ببساطتها، الفخاريات الرخيصة بطمع رائع وتذكّر فرجينيا برحلات شبابهما.

ووصلت إلى فرجينيا بالبريد رسالة من مقر رئاسة الوزارة البريطانية، رقم ١٠ داوننغ ستريت، تقول إن رئيس الوزراء سيسره أن يوصي صاحب الجلالة. . . إلخ كانت هذه الرسالة عرضاً بمنح الكاتبة وسام الشرف المسمى Companion of Honour ولا يتقلده إلا الملك وعدد آخر لا يتجاوز خمسة وستين شخصاً. ونجد في يوميات فرجينيا تعليقاً مقتضباً على هذا الاقتراح يقول «كلا» ببساطة.

بعد عودة الزوجين إلى منزلهما في لندن جاءهما جوليان بيل يجيش بالانفعال؛ فقد عرض عليه مقعد تدريس الإنكليزية في جامعة ووهان في الصين وقبل بالعرض. سيقضي هناك ثلاث سنوات. أسفت فرجينيا لذهابه لكنها استحسنت موقفه؛ فقد مكث جوليان طويلاً جداً في كيمبردج ولندن وهو الآن سيشب عن الطوق، وسيكون الذهاب خيراً له. كان أبناء أختها مصدراً لسخطها خلافاً لشعورها نحو بنات الأخت، وكان سخطها يولد شعوراً بالذنب في نفسها. وكانت سخافات فانيسا بشأن أمر الصغار، وهي سخافات في ظن فرجينيا ذاتها، تثير انزعاجها دائماً. ففي دعوة العشاء التي أقامها الزوجان لا لسببٍ إلا للترويح عن فانيسا أيام حزنها الشديد على فقد روجر أثارت مسألة قصائد جوليان جدلاً تعيساً بين الشقيقتين آذت فيه إحداهما الأخرى في حين كانت إحداهما تريد من الاجتماع أن تسرّي عن الأخرى. وحين أقمت أنا شخصياً معرضاً لرسومي حدث احتكاك مشابه إذ ابتأست فرجينيا لأنها لم تجد ما تقوله لفانيسا إطراءً للمعروضات. إنه لسبب مستديم للابتئاس، هذا الاحتكاك بين الشقيقة العاقر والشقيقة الولود.

في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٥ دونت فرجينيا مرةً أخرى يوميةً باسم «اليوم النموذجي». لعلها كانت تعني بهذه التسمية الهموم والحماقات التي تؤلف حياة المرء، ولا تعني اليوم الطبيعي المعتاد. إنها تشكو في مقاطع أخرى من عدم توفر الوقت لكتابة اليوميات لوجود عدد كبير جداً من «الأيام

النموذجية».

«البارحة، يوم نموذجي: نموذج لسنة ١٩٣٥، فنحن في عشية زواج دوق غلوستر؛ عشية الانتخابات العامة؛ عشية الثورة الفاشية في فرنسا؛ ونحن في معمعان الحرب الحبشية. وبما أن الجو هو جو تشرين المعتدل الدافىء ذهبنا إلى دار الإذاعة البريطانية في الساعة ٣٠ / ٢ ب. ظ إلى حديث يخاطب فيه أحدهم نفسه بهراء لا يضاهى طلبت مني الإذاعة أن أقلده (فكرة طيبة على أية حال لو كان المرء حراً) ووضعتْ إمكانياتها تحت تصرفي: أصوات متنوعة حقيقية للقطارات والفرق الموسيقية؛ تلاطم الأمواج وزئير الأسود والنمور... إلخ. في الساعة الثالثة وصلنا إلى قاعة دورلاند لمشاهدة معرض الكتب، (أقامته سنداي تايمز)؛ مكبرات الصوت تنادي بفضائل الأدب، والأميرة لويزة تقول بعد أن افتتحت المعرض إن الكتب هي أحسن أصدقائنا. قابلنا هناك روز ماكولي العجوز النحيلة وهي تتنقل هنا وهناك كأنها قطة متنسّرة؛ وجيرالد دكوورث تغطي وجهه بثور حمراء كأنه كان قد سقط على الشوك؛ ثم خرجنا فوصلنا البيت الساعة ١٥ / ٥. التلفون يرن: البارونة نوستيز Nostitz قد وصلت المدينة مبكراً، فهل نستقبلها الآن؟ وجاءت أشبه بالمارشال هندنبيرغ، عريضة الوجه، مرصوصة البنيان، بدينة جداً فلا هي تستطيع الدخول في الكرسي ولا الخروج منه؛ قالت: (إن ألمانيا هي أحسن مكان لهتلر - هكذا يقولون، لكني طبعاً لست سياسية؛ وأريد الحصول على شاب ليحاضر عن الشعر الإنكليزي). إنها بطيئة، ومهيبة، ولا بد أنها كانت حسناء، أرستقراطية، وعليها مسحة من جلال التماثيل؛ وروت لنا تجربتها في الهند؛

قـالـت (دخل أحـد الـهنود إلى عـربة القطار في البنغـال، فصاحت إحدى السيدات : هذا هندي ! أخرج وإلا ركلتك بقدمي. فقفز يرمي بنفسه إلى الخارج، ولحسن حظه سقط على زرع والقطار يسير بسرعة بطيئة، ١٥ ميلاً في الساعة. وهتفت فتاة بالحاكم العام : الحرية، العدالة. هذه هي الكراهية للحكم البريطاني. مع ذلك فهو أفضل من الحكم الإيطالي. موسوليني يدفع أجور السفر ومصاريف الفنادق ليضم الناس إلى جانبه. أنتم حلفاؤنا. البريطانيون سيطردون). ثم تلفن فورستر : ما رأيك؟ هل تقابلين جول رومان Jules Romains؟ (وهذه سياسة). في ١ أيار غداء لبحث المسألة الفرنسية. وهكذا نمضي. هذا يوم نموذجي آخر».

هذا «اليوم النموذجي» بدأ في الساعة الثانية والنصف، فيكون النهار الحقيقي، نهار العمل، قد انتهى أصلاً. وكان ذلك النهار يخصص لرواية السنين ؛ ولكنْ كان هناك ما يشغل البال. ففي ١٩٣٥ كانت فرجينيا تقرأ وتدون الملاحظات التمهيدية لسيرة روجر فراي، كذلك كانت تواقة لكتابة «ثلاثة جنيهات» ـ بل تواقة جداً في بعض الأحيان. وفي نيسان ١٩٣٥ قابلت فورستر على سلم مكتبة لندن، فأخبرها أن لجنة المكتبة تبحث في مسألة قبول السيدات فيها. وظنت فرجينيا أنها ستدعى إذن للخدمة فيها. ولكن فورستر خيب آمالها قائلاً إن السيدات مشاكسات، ولا طاقة للجنة بهن وهي لن تعير أذناً صاغية إلى هذا الأمر. غضبت فرجينيا غضباً شديداً أفرغته بزخم جديد في كتابها ذاك الذي كانت تواقة لكتابته وتعد العدة له وكان عنوانه في تلك الآونة «في حالة الشخص المحتقر On Being Despised».

مع ذلك، ورغم انشغال بالها بكثير من الأمور، لم تتوقف طويلاً عن مهمتها في إنهاء روايتها.

كان تاريخ كتابة «السنين» يجري على النحو الآتي : بدأت كتابتها بجذل عظيم في خريف ١٩٣٢ واستمرت دون عائق لغاية حزيران من السنة التالية. عندئذٍ أضحت مجهودات فرجينيا أكثر تقطعاً وعلى نحو نزق. كانت في «طوفان» في حزيران، ومرةً أخرى في تموز ؛ ونشأت صعوبات في آب، مع إعادة ترتيب للقسم الأول بكامله. كتبت في ٢٠ آب : «توقفتُ عن اختراع آل بارغيتر» ؛ ثم بدأت بإعادة الكتابة، ولكنها لم تخطّ كلمة واحدة في تشرين الأول، وأفادت في آخره تقول : «إن رأسي مجهد جداً». غير أنها أنهت القسم الرابع في كانون الأول ثم استهلت سنة ١٩٣٤ بتفجّرٍ آخر من الحيوية الخلاّقة ؛ وفي شباط كانت تعمل على مشهد الغارة الجوية، واضطرت في آذار أن تتوقف عن الكتابة مرة أخرى فقد كانت مسألة الاستغناء عن نيللي معلقةً فوق رأسها فضلاً عن وجود عمال في المنزل للقيام بعمل التزيين الداخلي ؛ وحل شهر أيار فاستطاعت أن تبدأ بالقسم السابع، على الرغم من إصابتها بالأنفلونزا إثر عودتها من أرلندة، وأخذت الأمور تسير على نحوٍ حسن ؛ وفي حزيران فقدت قوة الدفع ثم استردتها مرة أخرى ؛ وفي تموز تمكنت من تدبير «تلك الخصلة الخاصة» في الرواية فاطمأنت نفسها وتهيأت لجهد آخر فوضعت «قليلاً من الماء الصافي» في بئرها. وحين حل شهر آب كانت واثقة من أنها قادرة على بلوغ نهاية الكتاب أخيراً، وعند وفاة روجر كانت تعمل على الفصل الأخير بشيء من الانفعال والحماسة ؛ ثم كتبت الكلمات الأخيرة من المسودة الأولى في ٣٠ أيلول ١٩٣٤.

كانت هذه بداية النهاية ؛ فالتقدم الجاري حتى الآن في رواية السنين لم يكن مغايراً لما جرى في رواياتها الأخرى باستثناء طولها الذريع ؛ قررت

إجراء اقتطاعات جوهرية في المسودة التي شعرت أنها أطول مما ينبغي. كانت الكاتبة قد تزعزعت كثيراً بنقد ويندهام لويس، وعزز ذلك النقد شكوكها بشأن «الكتاب الذي لا إسم له» ؛ وخطر لها أن تعيد صبه على ضوء النقد الذي وجه إلى أعمالها الأخرى. ثم رجعت عن هذه الفكرة ولكنها ظلت مزعزعة فلم تستطع العمل مجدداً حتى تشرين الثاني حين بدأت إعادة الكتابة. وكانت في بداية كانون الأول قد استعادت ثقتها فظنت بكتابها خيراً. ولكن سنة ١٩٣٥ حملت معها الانتكاس. «سأترك الكتابة في الأدب الروائي مدة أسبوعين. إن رأسي مرتبك كالخيوط المشبوكة» (٢٣ كانون الثاني). «سارة Sara هي الصعوبة الحقيقية» (٢٠ شباط). وكتبت بعد أسبوع : «أكتب دون توقف وأعيد الكتابة للمشهد عند البركة المدورة. . . لن ينتهي ذلك قبل آب». كان الأمر كله لا يعدو التنقيح، فوجدت فرجينيا، مثلها في هذا مثل الكثير من المؤلفين، أن هذا القسم هو أشق أقسام الكتابة وأكثرها مدعاة للكآبة. «منذ ١٦ تشرين الأول وأنا لم أخط جملة جديدة واحدة، بل استنسخ فقط وأطبع على الآلة الكاتبة» (٦ آذار). ثم صدر مزيد من النقد العدائي في أواخر ذلك الشهر فكتبت ملاحظة حادة بعض الشيء : «إن الأمر الوحيد الذي يجدر أن أقوم به في هذا الكتاب هو أن أنهيه». لذا فإنها أعادت كتابة الفصل بأسره وهي تحس بشيء من الرضا. «أظن أنني كتبت فعلاً مشهد الغارة فأنهيته في هذا الصباح»، (٢٨ آذار).

كانت الصعوبة التي تواجهها في العمل تؤذيها فتضر بأعصابها وبنفسيتها. ثم أنها أخذت تقاسي من كنغزلي مارتن ما كان يقاسيه ليونارد من أثيل سمايث. كان ذلك الاشتراكي يتصل هاتفياً باستمرار أو يأتي بنفسه ليضع مشاكله بين يدي ليونارد. وكان أكّالاً سمجاً، شأنه في ذلك شأن أثيل، فهو يرمي باللقمة في فمه رمياً ؛ وكان مملاً تستثقله النفس ومبدداً للوقت، أما كيف كان ليونارد يستطيع تحمل الكثير جداً من صحبته فهو ما

لم تستطع تصوره. وحين جاء إلى منزلهما في قرية رودميل في نيسان أصيبت فرجينيا بعد انتهاء زيارته بصداع عنيف اضطرها إلى التخلي عن رواية السنين إلى حين رجوعهما من جولتهما في هولندا وألمانيا وإيطاليا. وعند عودتهما وجدا كلبهما «بنكا» قد مات، فاكتأب ليونارد كثيراً. وأخذت فرجينيا تشتكي من «التقلقل» ـ وهو الاسم الذي تطلقه منذ طفولتها على نوبات الانزعاج العصبي الحاد التي تصاب بها؛ وجدت أن من العسير عليها العودة إلى مزاج الكتابة في روايتها، فتأففت وهي تكتب في ٥ حزيران قائلةً «أتمنى لو أني أموت». وكان لا بد من الحفاوة بأم ليونارد، ثم أن ليونارد نفسه أخذ يتذمر، كأن أسرته ذاتها ليست بالمصاب الكافي، فاشتكى من الطعام الذي تطهوه الخادمة ميبل، واشتكى من عدم اعتنائها بما في الدار (كسرت الغرامافون)، وأخذ ينظر إليها على أنها بديل تعيس للخادمة نيللي. فوقع الانفجار في المنزل بين الزوجين، واتهمت فرجينيا زوجها بأنه رجل متحجر، يخلو من الهموم، وبأنه لا يعرف كيف يتعامل مع الخدم. لم يدم نزاعهما طويلاً ـ لم يحدث أن دامت نزاعاتهما طويلاً ـ لكن هذا النزاع سبب لها الصداع، وبالرغم من ذلك أكملت في ١٥ تموز ما سمّته «إعادة طبع سريعة حد التوحش»، وكانت تقوم في قرية رودميل في آب بطبع مسودة أخرى بمعدل مئة صفحة في الأسبوع وهي تشعر بحيوية متفجرة. في التاسع والعشرين من ذلك الشهر أنهت كتابة يوم إليانور، وهي تحس «بالغصة مرة» وبالنشوة مرةً أخرى كالمعتاد». فكان لا مناص من أن يتعاطى هذا المجهود ثمنه: ففي ٥ أيلول اضطرت إلى التوقف عن العمل؛ «لا أستطيع أن أضخ كلمة واحدة»؛ وفي ٦ منه أعلنت أنها ستغلف مخها بالعشبة الخضراء، تماماً كما غطت بها ساقيها حين وخزتهما أغصان شوكية. لم يحدث لها أن شعرت في الماضي بمثل هذا «الكيس المنفوخ الساخن» في رأسها وهي تعيد كتابة رواية السنين. كانت الرواية طويلة جداً، وكان الضغط الذي تسببه فظيعاً للغاية. كانت قبيل نهاية أيلول

تبذل ما وسعها لتصوير شخصيتي سالي وماغي وهما في غرفة النوم ؛ كان يتراءى لها أن هذه الكتابة هي أصعب ما تولته في حياتها على الإطلاق ؛ لكنها كانت مع هذا ترجو أن تنتهي منها بحلول عيد الميلاد.

وفي خلال الشهرين اللذين قضاهما الزوجان في منزلهما في قرية رودميل لم يكن يمر يوم إلا ومعه ما يشغلهما كزائر يأتي أو رحلة قصيرة تتم. ففي ٣٠ أيلول ذهبت فرجينيا مع ليونارد لحضور افتتاح مؤتمر حزب العمال في برايتون، وكانت نتيجة ذلك أن انشغل فكرها بأفكار جديدة للكتاب الذي سيظهر في النهاية بعنوان «ثلاثة جنيهات»، وكان هذا الانشغال تاماً حتى أنها لم تعد تستطيع التفكير برواية السنين. ولكنْ ما أن عادت إلى لندن حتى استقر حالها وأخذت تقوم بالكتابة على نحوٍ منتظم ووضعت لنفسها هدفاً محدداً : إنها ستسلم المسودة كاملة في شباط. وقد قررت أن يجري صف الحروف لرواية السنين وطبع «البروفات» قبل أن تطلب من ليونارد قراءة المخطوطة. كان هذا شيئاً جديداً، وأسبابه ليست واضحة ؛ لعلها كانت خائفة مما قد يقوله فأرادت أن تكف عنها اللحظة اللعينة أطول مدة ممكنة. كانت بالتأكيد قلقة جداً بشأن الكتاب، وكان هذا القلق يؤدي بدوره إلى توعك صحتها. كتبت في ١٨ كانون الأول : «أمضيت صباحاً سيئاً مع (السنين)»، وكتبت بعد عشرة أيام : «. . . أكاد أكون منطفئة، كأن السخام يلطخني كمريول حاملة الفحم ؛ ذلك هو عقلي ؛ كيف سيكون الأمر عند التنقيح الأخير للصفحات الأخيرة من السنين؟» وبعد يومين : «. . . المسألة لا تتقدم أبداً. لا أستطيع كتابة كلمة واحدة : كثير جداً من الصداع» (٣٠ كانون الأول). التزمت سريرها ثلاثة أيام وحاولت ألا تفكر بشيء وأن تحيا حياة النباتات. كتبت في ٤ كانون الثاني : «إن رأسي كتلة من الأعصاب ؛ وحركة زائفة واحدة تعني قنوطاً جارفاً».

أخذت «حياة روجر فراي» تغدو الآن شيئاً جذاباً في الاتجاه المعاكس؛ كانت تتوق لكتابة هذا الكتاب لكي تتخلى عن عملها الآخر في الأدب الروائي، ذلك العمل المنهك والمهلك معاً. قرأت كثيراً من رسائل روجر. وفي كانون الأول تصدت لنظرياته الجمالية. وصممت على اتباع خطة جديدة تعمل بموجبها على «السنين» حتى الظهر من كل يوم، ثم تنتقل إلى العمل على السيرة لغرض التسلية والاسترخاء. وذات يوم ضبطت نفسها تغش: تعمدت الخطأ في معرفة الوقت فقرأت عقارب ساعتها ورأتها تشير إلى الثانية عشرة بدلاً من الحادية عشرة فسرقت بذلك ساعة كاملة من روايتها. بعد بضعة أيام أعادت قراءة ما كانت قد كتبته فارتاعت: «نادراً ما كنت تعيسة بقدر أكثر من هذه التعاسة الكلية»؛ هكذا كتبت، وكلامها هذا هراء لا طائل تحته. إذ لا بد مما ليس منه بد: استمرت تعمل واستمرت تصاب بالصداع، فسلمت المطبعة في العاشر من آذار ١٣٢ صفحة من مسودة روايتها.

بعد ذلك بدا لها كأن الأمور تسير نحو الأحسن، ولكن هذا الشعور لم يدم إلا بضعة أيام. فقد كان آذار شهراً سيئاً. لقد وصل هتلر إلى الراين وأدركت فرجينيا بغتةً أن كابوس الحرب قد عاد من جديد. أخذت الأزمة الدولية المتعاظمة تفاقم من قلقها الشخصي، الذي أضحى بدوره قلقاً حاداً. تسجل يومياتها التغيرات العنيفة المتقلبة في مشاعرها نحو قيمة روايتها. ففي ١٨ آذار كانت واثقة من أن «السنين» رواية جيدة جداً، وفي ١٩ منه بدت لها رديئة للغاية؛ في اليوم التالي بالذات استعادت رباطة جأشها، وفي اليوم الذي تلاه فقدتها مرة أخرى، وهكذا دواليك. لم يحدث لها قط أن عملت بمثل هذا الجهد الشديد على أي كتاب كتبته، ولم يحدث لها قط، منذ الأيام التي كانت تكمل فيها رواية «رحلة الخروج» فتنزلق سراعاً نحو الجنون، أن جربت مثل هذا القنوط الحاد حين قرأت ما كانت قد كتبته. في ٢٤ آذار أدركت وهي تسير في شارع ستراند أنها بدأت تتكلم مع نفسها

جهاراً. أحست بالهلع يتزايد تدريجياً من إدراكها هذا ولكنها مع ذلك تمكنت من الاستمرار في سيرها وهي تترنح ؛ وفي ٢٩ آذار كتبت للمرة العشرين المقطع المتعلق بإليانور في شارع أوكسفورد، وفي ٨ نيسان أبردت الحزمة الأخيرة من مسودة الآلة الكاتبة من رودميل إلى المطبعة في لندن.

«والآن سيحل موسم الكآبة بعد الضيق والاختناق.

> . . . أما الهول الذي أنتظره بعد هذا اليوم العاصف، خلال هجوعي الروحي ـ ما أشدها هذه الريح الشمالية الباردة التي تهب هوجاء يومياً منذ مجيئنا، فلا يسعني إلا الإسراع عند انتقالي من الفناء إلى الغرفة وقد استبد بي القنوط وأنا لا أكاد أحس بأنفي أو أذنيّ ـ فهو أن عليّ بعد هذا اليوم الأوحد من الارتياح النفسي أن أبدأ من البداية فأستعرض ستمئة صفحة من البروفات الباردة. لماذا يا إلهي؟ لماذا؟ ليس مرةً أخرى، لا. . . لا. . .».

ومع أن ليونارد ما كان له أن يقرأ الرواية في مسوداتها الأولية فقد تسنى له أن يقرأ بعض المسودات الطباعية وهي تصل من المطبعة. أوحى لفرجينيا دون أن يقيد نفسه برأيٍ معين على الإطلاق بأن انطباعه مخيِّب للآمال. ولم يكن هذا الانطباع زائفاً : فقد قرأ ما يكفي لإثارة شكوكه ؛ وأخذ يحس بالفزع حقاً مما ستكون عليه حالة فرجينيا. وكتب دنكون يقول : «الأمر فظيع بشأن فرجينيا. من الأفضل لها جداً لو أن هذا الكتاب ينّحى جانباً. ولهذا فأنا أتساءل لماذا يظن ليونارد أن هذه الفكرة ليست حسنة». كانت الشكوك التي تساور فرجينيا نفسها والشكوك التي تنبأت بأنها ستساور ليونارد أيضاً، كافية لكي تدفعها إلى حافة الإنهيار. لقد سببت لها رواياتها كلها القلق والاكتئاب، ولكن هذه الرواية كانت بطبيعتها بالذات مدمرة لأعصابها. كانت قد رضيت برواية «غرفة يعقوب» كما رضي بها النقاد

فاطمأنت نفسها ؛ وجاءت رواية «السيدة دالاواي» نتيجةً منطقية لذلك الإنجاز، فكان بوسعها بعد أن كتبتها أن تغامر في الاتجاه نفسه، فكتبت «إلى الفنار» و «الأمواج» وكان ذلك تعاقباً طبيعياً، فكل رواية تمهد الطريق للرواية التي تليها. كانت تعرف إلى أين تتجه، وقد تزايدت ثقتها بنفسها، وتزايدت ثقة الجمهور بها ؛ كانت تعرف بأنها تسير على الدرب الصحيح وكان الجمهور يعرف ذلك أيضاً.

غير أن رواية «السنين» كانت شيئاً مختلفاً، خطوة إلى الوراء، أو خطوة في إتجاه آخر على أحسن الفروض. إن من السهل جداً أن يكون هذا الاتجاه خاطئاً، زقاقاً لا ينفذ، فإذا كان الأمر كذلك فسيحزن أصدقاؤها إذن وسيبتهج أعداؤها، وقد أدركت مرة أخرى أن لديها أعداء. عاودها كابوسها القديم، ذلك الكابوس الذي هيمن عليها حين أكملت رواية «رحلة الخروج»، كابوس الملأ الهازىء. وهكذا شعرت بأن الجنون يداهمها وهي تواجه ستمئة صحيفة من «البروفات» الجامدة وتتهيب من حكم ليونارد على الرواية وتعاني العذاب من الصداع المتكرر، المدمر، الذي يشلها ويقعدها عن الحركة.

أخذها ليونارد إلى كورنوول، ونفعتها كورنوول كالعادة بعض النفع. ولكنْ ما أن عادت إلى لندن حتى أمرها طبيبها بالاستراحة في قرية رودميل. تركت يومياتها جانباً مدة شهرين دون أن تمسها إطلاقاً. وخسرت شيئاً من وزنها. ولدينا رسالة منها إلى أثيل سمايث كتبتها في ذلك الحين، في الرابع من حزيران ١٩٣٦، وهي تقدم لنا صورة عما كانت تعانيه :

«. . . لا تصدقي أبداً برسالة مني إذا لم تقل إنها كتبت بعد ليلة استلقيت طوالها مستيقظة وأنا أنظر إلى قنينة (الكورال) وأقول لنفسي : لا، لا، لا، لن أتناولها. من الغريب جداً كيف يكون للأرق قوة تفزعني، حتى الأرق الخفيف،

الموقت. أظن أن هذا مرتبط بتلك الأيام الفظيعة حين كنت لا أستطيع السيطرة على نفسي».

وبعد أسبوع كتبت في يومياتها:

«... أخيراً، وبعد شهرين من مرض كئيب يكاد يكون قاتلاً، اقتربت فيه إلى حافة الهاوية التي لم أبلغها منذ ١٩١٣، شعرت أني في أحسن حال مرة أخرى».

ولكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً. فقد كانت تتولى مهمة تصحيح المسودات ببطء شديد وبألم شديد. كان عليها أن تستريح كثيراً، فهي تضطر إلى التوقف على الدوام، وتحس بالصداع واليأس والفشل إحساساً عميقاً. كتبت إلى أثيل مرة أخرى: «عليّ أن أمعن النظر في الإزعاج المريع الذي أوقع ليونارد فيه ـ على الرغم من أنه ملاك». وسرعان ما ستضع صفات ليونارد الملائكية موضع الاختبار. فأخيراً، وفي الثاني من تشرين الثاني، وبعد آلام ومصاعب سيكون من العبث تدوينها هنا، جرى تصحيح المسودات كلها وسلمت إليه لكي يبدي رأيه. أما فرجينيا نفسها فكانت قد توصلت إلى نتيجة، أو ظنت أنها توصلت إليها، فقد أعادت قراءة «السنين» واستنتجت أنها لا محال تعتبر رواية رديئة. يجب إذن إتلاف المسودات؛ وهذا يعني إهدار زهاء ثلاثمئة من الباونات بعد أن بدّدت أربع سنوات من حياتها. ولكن الأمر الأفضل أن تواجه الوضع صراحةً وتستريح. كل هذا قالته لليونارد، فأجابها بأنها قد تكون مخطئة؛ إنه سيقرأ المسودات ويخبرها برأيه.

لم يستطع ليونارد البدء بالقراءة إلا في آخر النهار، بعد أن عاد إلى المنزل مساءً من جولات متعبة، تافهة. أخذ يقرأ بصمت. وصمت ليونارد مفزع حقاً وقد أفزع فرجينيا بالتأكيد؛ وإذ كان يقرأ إذا بها تغفو فتأخذها سنة محمومة من نوم تعيس. في هذه الأثناء كان ليونارد يشعر بخيبة الأمل

والانفـراج المريح معـاً. إن الكتـاب فـاشل، ولكنْ ليس ذلك الفشل المدمر الذي تحسبه فرجينيا. سيكون من الممكن إذن أن يكذب كذبةً ما ؛ وقد كان واثقاً أنه إذا أخبرها بالحقيقة فستقتل الكاتبة نفسها.

وعلى حين غرة طرح المسودات جانباً وقال : «أظن أن الرواية جيدة على نحوٍ فائق».

الفصل التاسع
تشرين الثاني ١٩٣٦ ـ أيلول ١٩٣٩

في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٦ نوّهت فرجينيا في يومياتها قائلةً :

«. . . كنت على العموم نشطة ومرحة منذ الكشف الرائع الذي كشفه ليونارد تلك الليلة. لقد أفقت الآن من الموت ـ أو من اللا وجود ـ وعدت إلى الحياة! يا لها من ليلةٍ لا تصدق ـ يا له من ثقل انزاح عني!».

ولكنْ، وإن كانت ازدواجية ليونارد قد نجحت في غرضها الرئيسي فإن فرجينيا كانت بحاجة إلى مزيد من التطمين يفوق ما قدمه زوجها ؛ فقد كانت مهزوزة على نحوٍ شديد، ولم تكن عللها مما يمكن أن يعزى ببساطة إلى روايتها وإلى حالتها العقلية التي ولدتها الرواية. كانت تعاني من انتفاخ في الأوردة، ومن إحساس بالسقوط إلى أسفل، ومن شعور بعدم وصول الدم إلى رأسها، ومن استعداد للإصابة بنوع من الغيبوبة أو فقدان الوعي حين تكون بمفردها، وهذه كلها أعراض عزتها إلى التغيير في الحياة، وكانت بلا ريب مصيبة في ذلك.

أخذت ترحب الآن بما يشغل الفراغ ويلهي البال، فيسرها أن تستقبل

لورد روبرت سيسيل لتناول الشاي، ويسرها أن تتناول الغداء مع مدام دي بولينياك de Polignac ومع ناديا بولانغر Boulanger، وتسرها صحبة أثيل سمايث وصحبة دوروثي ويلزلي Wellesley وصحبة الأصدقاء القدامى، وتسرها أزمة التنازل عن العرش وما رافقها من سخافات ؛ بل يسرها أي شيء من شأنه أن ينسيها أنها قد أشعلت بنفسها فتيلاً ستظل ناره سارية في الأشهر القليلة القادمة ثم تتفجر عبوة ناسفة من تحت قدميها حين تعرض رواية «السنين» على الناس. في مثل هذه الظروف يمكن الاستعانة بالعمل وبالمجتمع معاً واتخاذهما مخدّراً، وهكذا اختلطت فرجينيا بكثير من الناس، وعادت أيضاً إلى الكتابة في كتابها الجديد «ثلاثة جنيهات». وبصرف النظر عما يقال في صالح هذا الكتاب أو ضده فقد كان بالتأكيد عملاً علاجياً لها ؛ لا بد لها أن تكتب شيئاً على الدوام ؛ ولكن الكتابة في هذا الكتاب بالذات لم تأت بشيء من ذلك العناء الجمالي الذي يصحب الكتابة في رواياتها دائماً. ولكنها مكنتها من التنفيس عن البخار المحبوس، ومن كيل الصاع صاعين لنفاق الرجال الاستبدادي.

افتُتحت السنة الجديدة بمساوىء الحظ. فقد مات النحات ستيفن توملين في أوائل كانون الثاني، وبعد ذلك بأسبوعين ماتت الآنسة ويست West وهي من مستخدمات مطبعة هوغارث. خلّفت هاتان الميتتان شعوراً بالذنب في نفس فرجينيا ـ فقد أخذت تحس الآن أنها لم تتصرف تصرفاً حسناً حين نحت لها توملين تمثالها، وصارت تستذكر صفات ذلك النحات الطيبة ؛ وشعرت بعد وفاة ويست أنها كان ينبغي لها أن تكون أكثر انفتاحاً مع عمال المطبعة وأكثر اتصالاً اجتماعياً بهم. ولكنّ كارثةً أخطر بكثير أخذت تهددها حين مرض ليونارد في بداية شباط ١٩٣٧. لم يعرف الأطباء أصل ذلك الداء، وهل هو أصابة خطيرة في الكبد، أو في البروستات، أم هو داء السكري. ظل ليونارد هادئاً فالتزم سريره، لا يأكل سوى الرز بالحليب، واستمر كما هو شأنه دائب العمل في السياسة والصحافة وفي المطبعة أيضاً.

أما فرجينيا فلم يكن من السهل أن تظل هادئة ؛ كانت تخشى، إذا نقل ليونارد إلى المستشفى، أن تترك وحيدة في مواجهة أزمة قد تطول، فكيف إذا تطور الأمر إلى أسوأ من ذلك؟ ولكن الأطباء أعلنوا في ١٢ شباط عن شفاء ليونارد الكامل، وكان ذلك بمثابة العفو العام، فذهب الزوجان معاً بسيارتهما إلى قرية رودميل يحدوهما الشعور بانفراج المحنة ويطغى عليهما الجذل. لم تسجل فرجينيا في يومياتها مثل هذه المشاعر منذ أعوام. وبعد ثلاثة أيام نوهت في يومياتها، برضا عن النفس، بأنها كتبت حتى الآن ٣٨ صفحة من كتاب «ثلاثة جنيهات».

«السبت ٢٠ شباط

حين أصعد إلى الطابق العلوي أصد عيني عن المطبعة لأن فيها جميع النسخ من رواية السنين الخاصة بالنقاد، وقد رزمت وأعدّت وسترسل في الأسبوع القادم : هذه هي أيامي الأخيرة من السلام النسبي. ماذا أتوقع من هذا البرود اللزج السائد؟ أظن أن أصدقائي سيتجنبون كثيراً ذكر الرواية ؛ سيحولون الحديث على نحوٍ غريب نحو أمرٍ آخر. وأظن أني أتوقع رعاية دافئة غير قليلة وباحترام من كتاب العروض المتعاطفين ؛ وأتوقع أيضاً صياحاً كالذي يتعالى في هرج الهنود الحمر يصدر عن شماتة المبتهجين الذين سيعلنون بجذل وبأعلى صوت أن هذا هو الهراء المطول لعقل بورجوازي متصنع ويتكلف التواضع، وأن الناس لن تأخذ السيدة وولف مأخذ الجد بعد الآن. أما الذي سأكترث له كثيراً فهو الارتباك الذي سيصيب الموجودين في منزل فانيسا حين أذهب إليهم وأجدهم لا يعرفون ما يقولون. ولكني لن أكترث للعنف كثيراً. وبما أننا لن نغادر حتى حزيران فعليّ

أن أتوقع التعرض للمناوشات طويلاً بما تورثه من اختناق في الصدر. . . سيقولون إن الرواية كتاب متعب؛ وإنها جهد أخير. حسناً، لقد كتبت ما كتبت، وأنا أستطيع البقاء في ظل الكتابة، هذا إذا ثابرت عليها. . .».

«الإثنين ١ آذار

ليتني أستطيع كتابة ما يعتلج في صدري من أحاسيس في هذه اللحظة. إنها فريدة في بابها وغير سارة أبداً. تعود جزئياً إلى مرحلة حياتي التي أمر بها. ثمة إحساس جسدي كأنني أطرق طرقاً خفيفاً في عروقي؛ أشعر بالبرد الشديد؛ بالعقم؛ وبالفزع. كأنني متعرية على دكة عالية في وضح النهار. وحيدة جداً. ليونارد في الخارج مدعواً للغداء. فانيسا عندها كوينتين فلا تريدني. حالتي يائسة. لا مناخ من حولي. ما من كلمات. أشعر بالتهيب، كأن زوبعة من الضحك توشك أن تهب نحوي وعلى حسابي، باردةً، فظيعة. وأنا عاجزة عن صدها؛ ليس عندي حماية. هذا يؤثر على أفخاذي بالدرجة الأولى. أريد أن أجهش بالبكاء ولكنْ ليس عندي ما أبكي من أجله. ثم تسيطر عليّ رعشة شديدة من القلق. أظن أن بوسعي طردها بالمشي. أمشي وأمشي إلى أن أنام. لكني بدأت أكره هذا النوم المفاجىء المخدِّر. لا أستطيع أن أفتح عقلي وأنشره نشراً فأضعه في كتاب بصورة هادئة ولا شعورية. تبدو التوافه الصغيرة التي عندي جافة وهذيانية. وأنا أعرف أن عليّ أن أستمر في رقص هذه الرقصة على آجرٌ حار إلى أن أموت. وأعترف أن هذا على شيء من السطحية. ذلك أن بوسعي أن أتسلل

فأختبىء وأنظر إلى نفسي معروضة بهذا الشكل السخيف وأحس بالسكون التام الموجود تحت الماء، ولكنه نوع من السكون فيه من القوة ما يكفي لرفع الحمل بأسره ؛ وأنا أستطيع بلوغ هذا السكون في بعض اللحظات ؛ ولكنْ اللحظات المكشوفة دون حماية هي لحظات مفزعة. نظرت إلى عينيّ ذات مرة في المرآة فرأيت فيهما فزعاً. الخامس عشر من آذار يقترب ـ وهج ذلك المصباح الأمامي على جسدي الصغير الشبيه بالأرنب يبقي الأرنب مبهوتاً في منتصف الطريق أمام السيارة (أحب هذا التعبير، فأشعر بالثقة)».

«الثلاثاء ٢ آذار

أنا سأنخذل، سيضحكون مني ويسخرون، وسيسخفونني - أقول هذه الكلمات مع أنني استغرقت طيلة الصباح في قسم السيرة الذاتية من كتاب (ثلاثة جنيهات). واستغراقي أصيل. إنه دفاعي العظيم ضد الجنون البارد الذي سيطر عليّ ليلة البارحة. لماذا يبرز فجأةً كالسحاب الممطر فيصب ماءه البارد كله؟ لأنني أقلعت عن كتابة الصور هذا الصباح. ثم أنني فكرت فجأةً وأنا أشاهد مسرحية Le Misanthrope أن (جمعية الكتب) لم توص برواية السنين أبداً. هذا صحيح ؛ لكن هذه الجمعية ليست مرشداً معصوماً. على أية حال، إن أيام الانتظار هذه ثقيلة، وتعذبني. سأكون سعيدة جداً في مثل هذا اليوم من العام القادم، لا ريب عندي في ذلك. ولكني في هذه الأثناء أشقى بين الحين والحين في كتابة أهوالي هنا وما يعتريني من جنون مفاجىء. يعود ذلك جزئياً

إلى مرحلة حياتي التي أمر بها، ما زلت أظن ذلك. وهذه المرحلة لن تكون في الفعل أسوأ منها في التوقع. وأسوأ ما في الأمر أن الكتاب سيعامل بتأدب مخفف باعتباره رواية واهنة فيها كلام متفجر ومتدفق. إن كتبي الأخرى كلها قد أثارت الخصومة ؛ أما هذا فسيطمس ببطء. ولكنْ وبعد أن قلت هذا فهل هناك ما يدعو إلى مزيد من الخوف؟ قد أحصل على الثناء من بعض الناس. والحق أني أرى أن هناك بالتأكيد شيء من الجدية في الرواية. وبوسعي أن أفخر لأنني واجهت الأمر. لقد بعنا خمسة آلاف نسخة قبل النشر، وسنحصل على بعض المال ؛ إني أسهم بقسطي، ولا أنسحب إلى الصمت المفزع. كذلك فإن نفسيتي تثير اهتمامي. أنوي أن أسجل ملاحظات كاملة عن الصعود والهبوط وذلك لمعلوماتي الخاصة. ما أنْ تكلمت على هذا النحو الموضوعي الآن حتى قلّ كثيراً ألمي وخزيي فوراً. وقد أثبتُّ بما يكفي لقناعتي أن بوسعي أن أكتب بغضب، وبتفجر، بل باستغراق أيضاً».

وفي صباح يوم الجمعة، الثاني عشر من آذار، وكانت فرجينيا مستلقية في سريرها، أتاها ليونارد بملحق التايمز الأدبي. كان فيه مقال يعرض الرواية عرضاً مواتياً ؛ وهكذا، ففي وقت لاحق من اليوم ذاته ظهر شيء مماثل في صحيفة Time & Tide ؛ وأضافت الأبزرفر في يوم الأحد عمودين من الإطراء ؛ إذن فقد نجحت رواية السنين، وهذا بقدر ما يتعلق الأمر بالجرائد على أية حال. كان أصدقاء فرجينيا القدامى أقل حماساً ؛ أما مينارد كينز فقد كان الوحيد من بينهم، على ما أعلم، الذي استحسن الرواية استحساناً غير مشروط. لكن مخاوف فرجينيا كانت بدرجة من الشدة، وإطراء الجمهور بدرجة من الضخامة، وانتصار الكتاب - قياساً على النسخ المباعة -

بدرجة من القطعية بحيث لم يسع فرجينيا إلا أن تشعر بالارتياح لانفراج أزمتها. كانت هناك بالتأكيد تنويهات صحفية أخرى غير مواتية؛ لكنها لم تكن شيئاً يذكر بالقياس إلى ما كانت قد توقعته.

تناقلت الأنباء نجاح رواية السنين، حتى أن جريدة نيويورك تايمز أرسلت مندوباً صحفياً لكي يحصل على تفاصيل شخصية؛ اتصل هاتفياً بمنزل الكاتبة في لندن فقيل له إنه يستطيع أن ينظر إلى ذلك المنزل، رقم ٥٢ ـ ميدان تافيستوك، من الخارج إذا شاء. لكن ذلك لم يثنه. فجاء إلى منزل الكاتبة في قرية رودميل يستقل سيارة فارهة، ديملر، ورأته فرجينيا يدخل عليها في غرفة جلوسها ويشرع بكتابة ملاحظاته ببرود. هربت دون أن يلحظها. وفي الحال تخلص ليونارد منه. استشاطت فرجينيا حنقاً من هذا السلوك، وهذا شعور كان سيشعر به غيرها أيضاً على ما أفترض. ولكن رد فعلها كان غريباً. فقد فاضت قريحتها بما يشبه التفجر الهستيري من نثر نصف منظوم، جاء أشبه بالمعارضة الشعرية الهازلة لجيمس جويس (وتقع بأحد وأربعين بيتاً من الشعر الحر).

كان الزوجان قد خططا للقيام برحلة إلى الخارج في أوائل أيار. وحدث قبل مغادرتهما إلى فرنسا أن حققت فرجينيا شيئاً من الرضا عن النفس لأنها أنجزت أمرين. ففي ٢٩ نيسان تكلمت في الإذاعة. ولم تكن هذه إذاعتها الوحيدة لكنها ذات أهمية لأنها الوحيدة التي سجلت. وربما يجدر القول، لمصلحة الأجيال القادمة، إن هذا التسجيل رديء جداً. فقد جرّد صوتها من العمق والرنين؛ وهو يلوح للسامع سريعاً جداً ومسطحاً جداً؛ ولا يكاد يستطيع المرء التعرف عليه. كان صوتها في واقع الأمر جميلاً ـ وإن لم يكن بجمال صوت فانيسا ـ وإنه لمن المحزن ألا يخلّد ذلك الصوت على نحو صحيح.

وفي يوم إذاعتها، وإن كان ليونارد يجرد الموجودات في ستوديو

فرجينيا، بحث الزوجان مرةً أخرى في مسألة مطبعة هوغارث فاستقر رأيهما على أحد أمرين : إما بالتخلي عنها نهائياً أو تغيير تنظيمها تغييراً جذرياً. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستقران فيها على هذا الرأي، لكنهما كانا في هذه المرة مصممين على التنفيذ. إن الهواية البسيطة التي اشتملت على مطبعة يدوية وقبضة من الحروف قد أضحت عملاً كبيراً. لكن المطبعة كانت شيئاً منغصاً لفرجينيا، بل أسوأ من ذلك بكثير. فهي تلزمها بالبقاء في لندن في حين يجب عليها أن تكون في الريف ؛ وهي تضطرها إلى أن تقرأ مسودات في حين يجب عليها أن تكتبها. وكانت كذلك مثاراً للقلق وإنشغال البال، ومصدراً لمنازعات لا تنتهي بين ليونارد وبين الشباب الذين جاء بهم كمدراء متدربين، وبما أن الأمر كان مهماً له عاطفياً فقد كان مصدر انفعال لها.

في تشرين الأول ١٩٣٧ جاءهم الحل من ذاته :

«. . . فجأةً طوّر ليونارد الفكرة بأن يأخذ الشباب من ذوي العقول المطبعة وأن يحولوها إلى شركة تعاونية (جون ليمان، إشروود، أودين، ستيفن سيندر). إنهم جميعاً يغلون بالتذمر والأفكار. وكلهم يريدون بؤرةً ما : مديراً، صوتاً مشتركاً ينطق بإسمهم. وهم يرغبون بأن يديرها ليمان. هلاّ بعنا واسترحنا؟؟».

كان جون ليمان وحده مهتماً بما في مطبعة هوغارث من إمكانيات، حتى أنه نظر في شراء الحصص بأجمعها. ولكن المطبعة كانت في ذلك الوقت قد غدت مشروعاً ضخماً، فلم يستطع ليمان أن يقدم إلا على شراء النصف. اشترى حصة فرجينيا. ولم يكن هذا ترتيباً جيداً، بل كانت فيه عيوب الترتيب القديم كلها، بالإضافة إلى عيب آخر هو أن ليونارد وشريكه الجديد كانا مرتبطان بزواج تجاري لا يسهل الفكاك منه. كتب جون ليمان :

«كانت هناك قيود ومصادمات. . . غير أن وجود فرجينيا يساعد على تخفيض درجة الحمى التي تعترينا فتعيدنا إلى التفاهم الذي كان كامناً حقاً في اختلافاتنا ذاتها». غير أن تلك الخطط والأخطاء كانت في نيسان ١٩٣٧ في طي المستقبل، لذا استطاعت فرجينيا أن تستمتع بالرحلة وهي واثقة من أن عبء المطبعة سيزاح عن كاهلها، وواثقة أيضاً من أن رواية السنين لم تكن فاشلة على أية حال.

ولكنْ، كانت هناك من جهة أخرى أسباب وفيرة للبؤس. فجانيت كيس مريضة ؛ إنها علّمت فرجينيا اللغة اليونانية وكانت إحدى القليلات اللاتي عرفنها معرفة صميمية في فواتح القرن، وظلت صديقة وفية. وكانت تحتضر الآن. كتبت فرجينيا إلى مارغريت لويلين ديفيز تقول «ما من أحد، حتى ولا ليونارد نفسه، يعرف كم أنا مدينة بالفضل لجانيت». أخذت فرجينيا ترسل لها الرسائل، وتزورها، وحين ماتت أخيراً في حزيران ١٩٣٧ كتبت رثاءها في جريدة تايمز. وعندما كان الزوجان وولف في فرنسا في أيار جاءت الأنباء تفيد أن كينز مريض مرض الموت، فكانا وهما يمران بسيارتهما بالمدن الفرنسية ينتظران قراءة خبر وفاته في أية جريدة تقع أيديهما عليها. لكنه شفي، وكان شفاؤه بفضل عناية ليديا به بالدرجة الأولى، ولكن هناك فاجعة أخرى أفظع بكثير كانت قيد الإعداد.

فقد كتب جوليان بيل من الصين في أواخر سنة ١٩٣٦ يقول إنه سيقفل عائداً في الربيع. كان هدفه الرئيسي أن يشترك في السياسة اشتراكاً فعالاً، وسرعان ما اتضح أنه ينوي الذهاب إلى إسبانيا للقتال من أجل الجمهورية. ما أن علمت فرجينيا بذلك حتى كتبت له تتوسل إليه بأن يبقى حيث هو : ولكنْ عبثاً.

وانتهت سعادة فانيسا منذ ذلك الحين. كان مشهد قنوطها المخدّر يضيف إلى هول تلك الأسابيع من ربيع ١٩٣٧ حين كانت فرجينيا تعدّ نفسها جها

استطاعتها لنشر رواية السنين، فشعرت بشيء من الغضب من إبن أختها. كان عليه أن يعلم مدى العذاب الذي يوقعه بالآخرين، ثم انها وجدت من الصعب عليها أن تتعاطف مع حساسية شاب شعر بأنه لا يسعه ترك الآخرين يقاتلون من أجله ؛ بل إنها لم تفهم ذلك الاهتمام وهو يمور في صدر امرىءٍ رأى في الحرب ذاتها شكلاً فنياً يستمتع به لذاته. كان موقف جوليان يبدو لها عصياً على الفهم.

وارتبكت الأمور لأن جوليان تخلّى عن فكرته الأولى التي كانت تقضي بأن يغادر السفينة فيْ مارسيليه ليذهب مباشرةً إلى إسبانيا. عاد إلى إنكلترا في آذار، فاقترح عليه ليونارد القيام بمهمات سياسية أخرى لم يرفضها رفضاً باتاً. ولكنه ما أن عاد إلى الوطن حتى اتضح لفرجينيا في الحال أن شيئاً قد حدث له. فقد شبّ عن الطوق. ثمة سلطة جديدة تحف به، ثمة توتر جديد يسود في نزعته. وما هي إلا أيام حتى أعلن أنه ذاهب إلى إسبانيا، إن لم يكن كجنديّ فكسائقٍ إذن لسيارة إسعاف. أما فانيسا فقد أحسّت أن كوة من الأمل قد ارتج عليها فتواريت، ولكنها ظلت تستمتع بصحبة جوليان ما دام موجوداً فهو الآن طفلها الأعز، وقلبها يغص غصة مريرة. كانت فرجينيا ترى هذا كله ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ؛ وكانت على يقين، شأنها في هذا شأن فانيسا، بأن جوليان إذا ذهب إلى إسبانيا فإنه لن يعود.

وكلتاهما كانت على صواب : فقد غادر جوليان إلى إسبانيا في ٧ حزيران وقتل في ١٨ تموز. ولا يعنينا من هذه المسألة هنا إلا ما يتعلق بفرجينيا. لقد ارتاعت لخسارتها هي بالذات، أما أكثر ما آذاها فهو إلتياع فانيسا. كانت فرجينيا في لندن فشهدت بنفسها نوبات الحزن الصاعقة الأولى التي انتابت شقيقتها، وظلت زائرة يومية تجلس إلى جانب سرير فانيسا وتقدم لها ما تستطيعه من سلوان، وتحاول ما وسعتها مخيلتها أن تجعل من وجود فانيسا شيئاً يمكن تحمله.

وذات مرة تطرقت فرجينيا، وهي تتكلم عما قام جوليان به مع صديق من أصدقاء ليونارد فقالت «إن هناك نوعاً من العظمة تعزّي الإنسان بشكلٍ ما بين حين وحين، ولكن ما أن نرى ما تقاسيه الأم حتى نرتاب بوجود أي شيء من شأنه تخفيف العناء». كان مشهد ذلك التعذيب اليومي المتجدد أمراً يزعزع العقول والنفوس، فكيف بفرجينيا وهي على ما كانت عليه من خلل. ولكن موت جوليان كان، كـموت ثوبي من قبله بثلاثين سنة خلت، تحدياً ارتفعت إلى مستواه وكانت أهلاً له. لم تكن مدركة لمدى تصرفها الحسن، وكانت مفاجأةً لها حين اكتشفت ـ بتاريخ لاحق ـ ما صرحت به فانيسا حين كانت طريحة الفراش، «في حالة غير واقعية» على حد تعبير فرجينيا، بأن صوت أختها كان هو الشيء الوحيد الذي حال بين حياتها وبين الموت.

ظلت فانيسا طيلة شهري آب وأيلول مريضة مقعدة. لم تستطع إلا ببطء شديد أن تعود إلى ما يشبه الحياة الطبيعية، فترسم قليلاً. قالت لفرجينيا «سأكون مرحة، لكني لن أكون سعيدة تارةً أخرى». أخذها الزوجان وولف بسيارتهما إلى جارلستون في أواخر تموز، وانتقلا، هما أيضاً، إلى قرية رودميل لكي تستطيع فرجينيا زيارتها يومياً. ولقد قالت فانيسا نفسها : «إن المعنى الوحيد الذي ينطوي عليه نهاري هو أنني أريد مجيئها». وهكذا ظلت فرجينيا شاهدةً على شقاء لا تستطيع له شفاء. كان عليها أن تمنع نفسها من التفكير بذلك الشقاء كثيراً. أما إذا لم تستطع الذهاب يوماً إلى أختها فإنها كانت تكتب لها، فتعلق فانيسا على ذلك وهي تتسلم القصاصات قائلةً بابتسامة باهتة «هذه رسالة حب أخرى من فرجينيا» ثم تضيف بأسى أنها تجد من الصعب الاستجابة لمودة فرجينيا : «حين تظهر هي عواطفها أنكمش أنا دائماً». وليس هذا لأن مودة فرجينيا ليست بذات بال ـ على العكس. لقد عاونتها فرجينيا بأكثر مما يمكنها التعبير عما تركها ذلك في نفسها، ولكنها غير قادرة على الإفصاح عن امتنانها. كانت تكتب بذلك إلى فيتا

وهي تعلم أن هذه ستحرص على إيصال ما في خطابها إلى وجهته الصحيحة.

ثم استطاعت فانيسا بعد سبعة أشهر من أن تكون أكثر تصريحاً شيئاً ما. فقد تذكرت فرجينيا أن يوم ميلاد جوليان يقع في الرابع من شباط فكتبت لها في ذلك التاريخ سطراً من سطور المحبة. أجابتها فانيسا قائلةً: «ما كنت سأستطيع الاستمرار لولاك»، ثم عبرت عن أسفها لأنها كانت عاطفية على نحوٍ كانت فيها العاطفة تخمد أنفاسها.

حين وفاة جوليان كانت فرجينيا تسير سيراً حسناً في كتابة كتابها «ثلاثة جنيهات»؛ أما الآن فقد غدا ذلك مستحيلاً، فتجولت تكتب سرداً لحكاية ابن أختها وتروي لقاءهما الأخير. وعندما عادت إلى كتابها ذاك مرة أخرى في الخريف وجدته قد أضحى ضرباً من الجدال مع جوليان نفسه، أو ما حسبته بالأحرى كلاماً مثل وجهة نظر جوليان بالذات.

وفي ذلك الخريف بلغت مبيعات رواية السنين مبلغاً كبيراً جداً في إنكلترا، وغدت الرواية كذلك تحتل الموقع الأول في قائمة أعلى المبيعات في الولايات المتحدة. وجدت فرجينيا نفسها للمرة الأولى ثرية حقاً، فكتبت تقول: «إن لدينا المادة للسعادة ولكن ليس لدينا السعادة». لم يكن هناك ما يجعلها تشعر بالسلوان سوى أمرين: التقدم اليسير المتواصل في كتابها «ثلاثة جنيهات»، وليونارد. أحست في تشرين الأول بدافع مفاجىء لقضاء إجازة في باريس. بحثت عن سير القطارات وسألت فانيسا عن الفنادق. ثم قال ليونارد إنه لا يريد الذهاب. اكتشفت أنه إذا لم يصحبها فلا جدوى من الذهاب، وأثار هذا الاكتشاف في نفسها الرضا والاطمئنان. لكأنها أخذت تعشق مرةً أخرى، وكان سرورها غامراً. ولكنْ، حتى الابتهاج الذي ينهل من زواج راسخ سعيد كان ابتهاجاً كرأس الآلهة جانوس ذي الوجهين

المتنافضين. ففي أوائل ١٩٣٨ عاود ليونارد داءه الذي أفزعها أشد الفزع قبل عام واحد. كان الهلع هذه المرة أعظم من سابقه وأطول أمداً، وإن كان انتهى بالنتيجة السعيدة ذاتها. كانت فرجينيا تضيق ذرعاً بالأطباء. وكانت عنايتها بليونارد تثير إعجاب هلين أنريب وكانت على اتصال دائم بالكاتبة (ذلك أن كتابة سيرة روجر كانت قد بدأت بداية جادة) وأثار إعجاب هلين بدوره فخر فرجينيا الصريح بقيامها بما قامت به من أجل ليونارد.

إن هذا الضرُّ قد أتى بضرٍ آخر في أعقابه. فقد كانت فانيسا مبتئسة ابتئاساً لا تكلف فيه حين بدا مرض ليونارد خطيراً، ولكنها ما لبثت أن ضاقت ذرعاً من وصفه لأعراضه المرضية بعد أن كان الخطر قد زال عنه؛ ولا أظن أن فانيسا قد أخفت ضيق صدرها به. إنها كانت في واقع الأمر شديدة الانزعاج من ليونارد في ذلك الحين وطوال عام ١٩٣٨، ففي إبان التحضير للكتاب التذكاري[1] الذي خصص لجوليان كانت فانيسا تواجه باستمرار تحذير ليونارد الذي لم يكن مجانباً للمنطق بشأن الكتاب الذي سينشره هو نفسه، وتواجه كذلك امتعاضه مما سماه، وقد نفد صبره قليلاً، «حب فانيسا للمقابر». والحق أن تلهف فانيسا للاعتراف بعبقرية جوليان، وشك الزوجين وولف بتلك العبقرية، كانا أكثر إثارة للخصام بعد موت جوليان مما كان عليه الأمر في حياته. ومما زاد في الطين بلة أن المنازعات الإدارية المحتومة مع جون ليمان بشأن المطبعة أخذت تنشب الآن، وكان بعضها يخص الكتاب التذكاري فكانت فانيسا تميل إلى الوقوف بجانب جون فيها.

ونشر كتاب «ثلاثة جنيهات» في حزيران ١٩٣٨، وكان هذا الكتاب

---

(١) «جوليان بيل: مقالات وقصائد ورسائل». وقد حرره كوينتين بيل وأسهم فيه كينز وديفيد غارنيت وتشارلس موررون وداي لويس ومورغان فورستر، ونشرته مطبعة هوغارث في سنة ١٩٣٨.

ثمرة عقل غريب جداً، أو ثمرة حالة عقلية غريبة على ما أظن[1]. كانت الكاتبة قد أرادته أن يكون استمراراً لكتاب «الغرفة الخاصة»، لكنه جاء مكتوباً على نحوٍ أقل إقناعاً وأقل مرحاً بكثير. على أنه كان احتجاجاً ضد القمع، احتجاجاً أصيلاً يستنكر الشرور الحقيقية، ولم يذهب وعظ فرجينيا عبثاً في الأوساط التي تحولت إلى تأييد حقوق المرأة. فقد كتبت نساء كثيرات وعبرن عن استحسان حماسي؛ أما أصدقاؤها الأقربون فقد كانوا صامتين، فإن لم يصمتوا فناقدين. فيتا لم تعجب بالكتاب، وكينز أبدى غضبه وازدراءه معاً؛ قال إن الكتاب جدال سخيف، وإنه لم يكتب جيداً. وأما الذي بدا حقاً مجانباً للصواب في الكتاب ـ وأنا أتكلم هنا عن رد فعلي الشخصي في ذلك الوقت ـ فهو محاولة الزج بمسألة حقوق المرأة بالمسألة التي كانت سائدة، المسألة الأكثر إثارة للألم، الخاصة بما يجب علينا أن نفعله لمواجهة التهديد المتعاظم الناجم عن خطر الفاشية والحرب. لقد بدت العلاقة بين المسألتين علاقة واهية، وكانت المقترحات الإيجابية الواردة في الكتاب غير وافية على الإطلاق.

هوجم الكتاب بشدة، والظاهر أن فرجينيا لم تأبه لذلك كثيراً. على أنه كان هناك ناقد واحد أضطرت أن توليه إلتفاتاً، ذلك أنه كان إمرأة، وإمرأة بليغة جداً. كان إسمها أغنيز سميث Agnes Smith وكانت تسكن بالقرب من هدارزفيلد Huddersfield، ومتعطلة عن العمل حين نشر الكتاب. اعترضت برسالة طويلة، قوية، وذرية لأن فرجينيا لم تقل شيئاً عن فئة النساء العاملات. ما جدوى القول بأن على النساء أن يرفضن صنع

---

(١) «. . . إن هذا الكتاب الذي شد من أزري طوال الصيف الماضي، وأسندني في أهوال شهر آب الماضي، وسار بي قدماً، كيف اضمحل كله إلى هراء؟ لكنه يظل، من الناحية المعنوية، عضيداً لي. ويظل بنظري هو بالذات الشيء الذي تمنيت أن أقوله، وإن عبثاً».

(من «يوميات كاتبة» ـ ١٢ / ٣ / ٣٨).

الأسلحة في حين سيسرهن كثيراً الحصول على فرصة لصنع أي شيء؟ إنها هي شخصياً كانت تعيش على إعانة البطالة البالغة خمسة عشر شلناً في الأسبوع، وذكرت في رسالتها أن ابن أخيها، وهو طفل صغير، طلب باكياً قطعة إضافية من الكعك فلما نالها كان معنى ذلك أنها هي ذاتها لم يبق لديها ما تأكله ذلك النهار. ويتضح من رسالة أغنيز سميث التالية أن فرجينيا كانت قد أجابتها وقالت إن كتاب «ثلاثة جنيهات» موجّه على وجه التحديد إلى نساء هن في وضع اجتماعي أكثر حظاً؛ ويبدو أن نبرة ذلك الجواب قد شجّع مراسلتها على أن تكتب لها مرةً أخرى، على أني أظن أنهما لم تلتقيا قط ولكنهما استمرتا تكتبان إحداهما إلى الأخرى، بين حين وحين، حتى نهاية حياة فرجينيا.

ولكن النقد الحق لكتاب «ثلاثة جنيهات» جاء في الأحداث؛ ذلك أن أحداث عام ١٩٣٨ لم تكن تدور حول حقوق المرأة بل حول حقوق الأمم. ففي آذار، حين غزا هتلر النمسا، كتبت فرجينيا نفسها في يومياتها قائلة: «عندما يهضم النمر عشاءه فسيثب مرةً أخرى». كان قد أمسى من الصعب حقاً التفكير بأي شيء سوى خطر الحرب المتعاظم. ولم تكن كتابة سيرة روجر فراي بالشيء الذي يحوّل الانتباه كثيراً.

على أنه في نيسان أوحى لفرجينيا بفكرة كتاب عن إنكلترا والأدب الإنكليزي لعله سيسمى Poyntzet Hall. وفي حزيران، وبعد نشر كتاب «ثلاثة جنيهات» قام الزوجان وولف برحلة إلى سكوتلندة لقضاء إجازة هناك. وكتبت فرجينيا إلى فانيسا:

> «ها نحن في (سكاي)، وهي تشبه أماكن البحار الجنوبية، نائية ومحاطة بالبحر من كل جانب. الناس يتكلمون اللغة الغاليكية، ولا يوجد سكك حديد، ولا صحف لندنية، وعدد السكان قليل جداً. وسكاي بنظري هي بمستوى إيطاليا

أو اليـونان أو بـروفـانـس. لن يصـدق أحـد هذا في لندن. سيكـون وصفي كريهاً لك، فالغرفة تعج بالسياح من أدنبرة وتموج بهم، ويملك أحدهم كلاباً إسبانيولية مثل كلبتي سالي فـقـال : (كل كـلابي مـدربة على القنص حين تسـمع طلقـة البندقية، وعيبها الوحيد أنها لا تحمل الأرانب) ـ على أني لا أستطيع الاستمرار في هذا الكلام ولو أردت. ولكنْ، هنا في مرتفعات بلاد دنكون تنعكس الألوان في بحيرة زرقاء عميقة ساكنة فتتراءى الأشجار الخضراء والبنفسجية في صفحة الماء المحاط بالقصب الأخضر والآيريس البري الأصفر، ومن فوق هذا السماء بأسرها والرابية القرمزية ـ وهذا يكفي. على المرء أن يكون رساماً. أنا ككاتبة أشعر بالجمال الذي يكاد يكون كله لوناً، بالغ الدقـة، متـغـيِّر الأطوار، يجـري فـوق قـلمي كأنك تصبين دورقاً كبيراً من الشمبانيا فوق دبّوس الشعر. لا بد لي هنا من أن أسـجل التـهـاني لدنكون لأنه من سـلالة غرانت. سقنا حـول الجزيرة اليوم، وشاهدنا قلعة دونجيفـان وصادفنا أطفال الشيخ السـابع والعشرين وهـم حمر الرؤوس ؛ وبما أن باب القلعة كان مفتوحاً فقد دخلت ؛ فقالوا لي بأدب إن القلعة مغلقة للزوار ولكن أستطيع رؤية الحدائق. وجدت في البلدة مـخزن لحـوم لقناصـة الطيـور وفـيه ذيلان لقطتين بريتين. يقـال إن النسـور مـوجـودة بكثرة وغـالبـاً ما تحـمل بمخالبها الخراف : الخراف وكلاب Skye Terrier وهما الصناعـتان الـوحيـدتان ؛ والعـجـائز يسكن أكـواخاً مـدورة. الأهالي لا يتجاوز عـددهم المئة ولكنهم جشعون جداً، ولا فائدة من محاولة شراء بأي سعر لأن السعر هو ستة أضعاف السعر في أرضنا الشريفة. مع هذا فأهالي سكوتلندة يأسرون

بفتنتهم ويغنون من أنوفهم كإبريق الشاي. أما القيل والقال
هنا فيدور حول زوجة السيد هامبرو ـ التي غرقت فيLoch
Ness ذات الغول. قال لنا البعض أنهم رأوا ذلك العربيد
بأم أعينهم وهو حيوان يشبه أعمدة البرق المكسورة ويسبح
بسرعة خاطفة. ليس له رأس. ويشاهد باستمرار. على أية
حال ـ بعد أن غرقت السيدة هامبرو أرسلت شركة التأمين
عدداً من الغواصين في أثرها لأنها كانت ترتدي ثلاثين ألف
باون من اللؤلؤ في رأسها. فغاصوا ووصلوا إلى فوهة كهف
شاسع يتدفق منه الماء الحار ؛ كان التيار شديداً جداً والفزع
الذي شعروا به عظيماً جداً، فرفضوا الذهاب بعيداً وقد
اقتنعوا بأن الغول يعيش هناك في تجويف تحت الرابية.
وباختصار، السيدة هامبرو قد ابتلعت. ليس هناك من غريق
أنقذ أبداً، والآن يرفض الأهالي ركوب الزوارق أو السباحة.
هذا ككل القيل والقال هنا. أما أنا فلن أصف اللون».

عاد الزوجان في بداية تموز ليجدا أن كتاب «ثلاثة جنيهات» يروج بيعه كثيراً، واستأنفت فرجينيا عملها في كتابة سيرة روجر ووجدت عملها شاقاً جداً ويتطلب العناية الفائقة ويثير كذلك الخوف في نفسها. وحين عاد الزوجان كان في انتظارهما غول من نوعٍ آخر.

أخذت الحرب في أيلول تبدو محتمة الوقوع، وكانا في ذلك الشهر في قرية رودميل. اتصل كنغزلي مارتين هاتفياً وهو يسعى وراء ليونارد كلما نشبت أزمة كما يسعى الطفل الخجول المزعج وراء مربيته. جاء ذلك النداء في السادس والعشرين من أيلول والمنادي في حالة ذعر وهو يحث ليونارد على العودة إلى لندن. استقل الزوجان سيارتهما واتجها إلى العاصمة في جو ممطر، والرجال يحفرون الخنادق. كان كنغزلي رجلاً متعباً وفي عاطفته

مبالغة، لم يتضح قط لماذا طلب ليونارد هاتفياً، وظلت نداءاته تترى.

ما أن وصلا إلى العاصمة حتى لجأت فرجينيا إلى مكتبة لندن للتنقيب في جريدة تايمز لسنة ١٩١٠ عن المعرض الأول لما بعد الانطباعيين، وكان روجر فراي قد أشرف على إقامته آنئذٍ. وهناك، في الطابق تحت الأرضي، جاء رجل عجوز يكنس الأرض برفق.

«يقولون لنا، يا سيدتي، بأن نجرب أقنعتنا».

«وهل تسلمت قناعك؟»

«كلا، لم أتسلمه بعد».

«وهل ستنشب الحرب؟»

«أخشى ذلك يا سيدتي، ولكني لم أزل آمل ألا تقع.

أنا أعيش بعيداً في بوتني. وقد وضعوا أكياس الرمل هناك؛ الكتب ستنقل كلها؛ أما إذا ضربت قنبلة البيت. . . إسمحي لي أن أكنس تحت مقعدك رجاءً!».

ثم ذهبت إلى «صالة العرض الوطنية»؛ كان أحدهم يحاضر لجمهور كبير عن واتوWatteau. عادت بعد ذلك إلى المنزل. لا بد من وضع الخطط لإخلاء المطبعة. عاد الزوجان بسيارتهما تحت وابل من المطر الغزير إلى قرية رودميل. بدا المكان جميلاً يهنئ بوضع طبيعي بالقياس إلى لندن. في العاشرة والنصف من تلك الليلة جاءهما المأمور المحلي للوقاية من الغارات الجوية وسلمهما قناعين ضد الغازات السامة.

كان الزوجان ينتظران في ٢٨ أيلول نبأ إعلان الحرب، لكنهما سمعا أن السيد تشمبرلين في طريقه إلى ميونيخ؛ وأجريت «التسوية» في اليوم التالي. وعاد رئيس الوزراء يتحدث عن «السلام مع الشرف في حياتنا»، فقال ليونارد «بل السلام بلا شرف مدة ستة أشهر». وعبر ساعي البريد عن هذا

الرأي بالذات على نحوٍ أكثر تطويلاً وهو يقف عند العتبة. وظنت فرجينيا أن هذا الكلام قد يكون صحيحاً، ولكنها شعرت بالارتياح من ذلك التأجيل، إذ سيسعها العمل مرةً أخرى.

غير أن «السيرة» التي كانت منهمكة بها تنطوي على عملٍ لا يسرها. فالوقائع، بنقاوتها وبساطتها، جامدة، ولا تتيح لها كروائية مجال الاستباحة، وهذا إنضباط يثير ضجرها. أما الكتاب الآخر عن الأدب الإنكليزي، وكان يتطور ليغدو رواية بعنوان **Between the Acts**، فهو الشاغل الذي كان يريح بالها الآن ويمنحها أحياناً سرور نهارٍ واحد. ولكنْ لا مناص من كتابة حياة روجر فراي. وتراكمت الصعوبات ؛ فهناك الرقابة الصامتة عليها من شقيقات فراي، وهناك الرقابة عليها من نفسها بالذات، وهناك أيضاً هلين إنريب. كانت فرجينيا تأسف لها، وهي تودها (أغلب الوقت)، لكن هلين يمكن أن تكون متعبة. كانت قد قامت، بتشجيع من فانيسا، بإقناع فرجينيا بأن تصبح من الأمناء الضامنين مالياً لمدرسة جديدة هي «مدرسة التصوير والرسم» (ثم غدت تعرف باسم «مدرسة شارع بوستن»). وما كان هذا الضمان المالي ليقلق فرجينيا في شيء ـ فهي ثرية الآن ـ وما كان ينبغي كذلك أن يقلقها القرض البالغ مئة وخمسون باوناً الذي أقرضته إلى هلين ؛ ولكنه أقلقها.

بدأت حكاية ذلك القرض المؤسفة في تشرين الأول ١٩٣٨ حين تناولت هلين أنريب العشاء في منزل الزوجين وولف في لندن، وكانت فانيسا معهم فاستمتعت بالحكاية كثيراً. بحثت هلين بعد العشاء مع فرجينيا مسألة التقدم في كتابة سيرة روجر ؛ تكلمنا كذلك عن قسوته ـ نعم، كان قاسياً وإن كانت دوافعه حسنة ونظيفة ؛ وبحثنا في أمر القطيعة بين روجر وسير وليم روثنشتاين Rothenstein (وقد قابلته فرجينيا في ما بعد فوجدته رجلاً مقبولاً للغاية). ثم تحول الحديث، لسوء الحظ، نحو موضوع كتاب «ثلاثة

جنيهات». كانت هلين أنريب تفخر بأنها تفصح عما يجول في خاطرها دون مواربة، وكانت تثقل كاهل أصدقائها بالكشف عن نواقصهم بضربٍ من التعالي الزائف، فأخبرت فرجينيا برأيها في كتابها. هذه الصفة التسلطية كانت تسر البعض وتزعج البعض الآخر، وكانت فرجينيا من هذا البعض الآخر. فخاطبت هلين تقول إنها تعرف شخصياً أنها ليست موهوبة إلا في الأدب الروائي أو في النقد؛ أفلا ينبغي لها إذن أن تتخلى عن كتابة سيرة روجر؟ وأخال أن هلين ارتاعت من هذا التطبيق الفوري لانتقادها. وكان الآتي أعظم. فقد أخذت فرجينيا تستدرج هلين عن وضعها المالي فظهر أنها لم تعد تستطيع الوفاء بالتزاماتها. عرضت عليها فرجينيا أن تسدد عنها حسابها المكشوف. ولم تقبل هلين بهذا الاقتراح إلا بعد تردد.

كانت فرجينيا تحاول بهذا أن توازن الكفة في شعورها المثقل بالضيق فأبدت هذه الإيماءة الكريمة؛ ثم أسفت على ذلك في الحال. فقد اكتشفت أن الحساب المكشوف لم يكن كما ظنت بحدود الخمسين من الباونات بل كان يبلغ مئة وخمسين. عندئذٍ استفاقت فيها الأهوال المالية التي كانت تكمن في قلب والدها. لقد ذهبت بعيداً جداً؛ كانت متهورة؛ إنها لا شك ستتحطم. سبّب لها هذا القلق المالي أرقاً كثيراً في ليالٍ متعاقبة. ومع أنها كانت تعلم بلا ريب أن مخاوفها هذه خرقاء، وأن مبيعات رواية السنين من شأنها أن تجعل هذا السخاء مأمون العواقب، فإن ضميرها المالي لم يهدأ له بال إلا بعد أن أعادت كتابة قصة قديمة لها، وهي Lappin & Lapinova، وباعتها إلى ناشر في أمريكا.

في هذه الأثناء كانت هلين نفسها لا تعرف معنى الراحة، ويخيّم عليها الشعور بأن عليها تسديد دينها لفرجينيا. حاولت في سنة ١٩٣٩ أن تقتصد كثيراً لهذا الغرض. وفي ربيع ١٩٤٠ كتبت إلى فانيسا: «لو أنني أستطيع فقط أن أحصل على شيء من النقود لأسدد لفرجينيا ولو قسطاً بسيطاً

لتنفست الصعداء» ؛ وأخيراً، وفي شباط ١٩٤١، تمكنت من توفير (٢٥) باوناً أرسلتها إلى فرجينيا. ولتتويج الخطل في هذه الصفقة ظهر أن إفلاس هلين، كفزع فرجينيا، لم يكن إلا من صنع الخيال. إن الارتباك في حسابات هلين كان كبيراً حتى أنها تصورت عجزاً مالياً لم يكن موجوداً على الإطلاق.

قال دنكون غرانت : «لقد وصلنا إلى مرحلة علينا أن نتوقع فيها وفاة الأصدقاء». وقد بدا لفرجينيا في عام ١٩٣٨ أن هذا القول هو الحقيقة بعينها. فقد ماتت أوتولين في نيسان، وماتت كاكوكس في أيار. لم تؤثر وفاة «كا» بفرجينيا كثيراً، فمنذ سنين وهما إنما تلتقيان لا لتجديد الصداقة بل لتذكّرها فقط. أما خسارة أوتولين فقد تحسست بها على نحوٍ أشد. كتبت فرجينيا رثاءها في التايمز. شعرت كأن العالم قد أملق باختفاء ذلك الكائن الرائع ؛ كان هناك شيء فخم يحف بأوتولين، مع شيء آخر كان يحفها في سنيّها الأخيرة، شيء محبب ومؤثر في النفس.

في نهاية ذلك العام مات جاك هيلز ـ ولكنه كان «من شخصيات الماضي» حقاً ؛ وفي حزيران ١٩٣٩ انتحر مارك غيرتلر. ولم تكن الأحداث العامة من النوع الذي يبدد الكآبة المخيمة على الناس. كان فرانكو قد دخل برشلونة في كانون الثاني ١٩٣٩ ؛ وكان بحلول آذار قد دخل مدريد، كما دخل هتلر براغ في الشهر نفسه. وبدت حياة جوليان كأنها قد ذهبت سدى أكثر من أي وقتٍ مضى. كتبت فرجينيا تقول : «حتى مينارد كينز لا يجد ما يبشر بالخير الآن». كانت إنكلترا ممتلئة باللاجئين. وجاء فرويد لاجئاً وسكن في هامستيد فذهب الزوجان وولف لزيارته. قدم لفرجينيا نرجسة، وتكلم عن هتلر كما كان الجميع يتكلمون يومئذٍ. قال إن الأمر سيستغرق جيلاً من الزمن لكي يتجرع الناس السم. فما الذي سيفعله الإنكليز؟ رأت فيه فرجينيا رجلاً نابهاً، «رجلاً طاعناً في السن، وقد انطوى وتقلص. إنه

نار قديمة يرتعش لهيبها الآن» وهي تقارب الانطفاء.

كانت فرجينيا طوال ذلك الوقت تعمل على كتابة سيرة روجر فأنهت ما سمته «التخطيط الأول» في ١١ آذار ١٩٣٩، وكانت ترجو أن تنتهي من الكتاب بأسره في تموز؛ لكن ذلك لم يتحقق. كتبت في ١٢ تموز «لأول مرة منذ أسابيع. . . عملت بشيء من السرور في كتابة حياة روجر». وفي ذلك الشهر حدثت وفاة أخرى، فقد ماتت أم ليونارد العجوز. لم تتأثر فرجينيا تأثراً عميقاً، ومع هذا أحزنتها الوفاة. كانت تلك العجوز المسكينة سخيفة جداً ومملة جداً، وقد بددت كثيراً من وقت فرجينيا، ومع هذا كانت فرجينيا مفتتنة بها على نحوٍ ما وهي تأسف لها أسفاً عميقاً، ذلك أنها كانت وحيدة وكثيرة الحزن على نفسها وتحاول الإبقاء على صورة خيالية من المودة العائلية وصلة الرحم التي لم يستطع ليونارد التجاوب معها رغم إحساسه القوي بواجب الإبن نحو الوالدين. وقد لعبت فرجينيا لعبة غريبة في علاقتها مع أم زوجها، لعبة لا تمت إلى الواقع بصلة، حاولت فيها كلتاهما أن تمثل الدور غير الملائم أبداً الذي خصها بها القدر.

ولكنْ لم يزل هناك الكثير من الأنس، وهذه حقيقة يجب تقريرها وإن كان من الصعب تصويرها. من الصحيح القول إن يوميات فرجينيا كانت تزداد كآبة، والمآسي الشخصية والأحداث العامة تتعاقب بقوة عارمة، مع هذا نجد أن فرجينيا لم تغلب على أمرها. إن كلتا الأختين لم تكن تسعى إلى الحزن سعياً، ولم تقع فريسة الأسى فتذوي كما ذوى والدهما حين ثُكل. كان أمراً غريزياً في الأختين أن تظلا مرحتين قدر المستطاع، ثم أن الأصدقاء الجدد الذي صادقتهم فرجينيا في الثلاثينات ـ أليزابيت بوين Bowen، شينا سايمون Shena Simon، ستيفن سيندر ـ لم يروا فيها مؤلفة كئيبة عجوز. محبطة في عملها، مثكولة ومهددة. ولم يزل الصوت السائد في المنزل، سواءً في قرية رودميل أو في لندن، هو صوت

الضحك ؛ وربما كان مما يقتضي قسطاً من الشجاعة أن يستمر المرء في الضحك في ذلك الوقت، إنما جرت المحافظة على مظهر المرح، بل على حقيقته أيضاً[1].

في حزيران ١٩٣٩ قام الزوجان وولف برحلة إلى بريتاني. كانت فرجينيا تطمح دائماً إلى زيارة ليروشير Les Rochers لتقديم احترامها لعظيمة تنتمي إلى سلالة عريقة[2]. وقد عادا من تلك الرحلة لمواجهة مسألة الانتقال من دارهما في لندن. كان من المقرر هدم ذلك المنزل لغرض إعادة التعمير في المنطقة. وقد وجدا بيتاً ملائماً في ميدان مكلينبرغ Mecklen-burgh SQ، وفي ٢٥ تموز تركا منزلهما القديم. في الوقت ذاته جرى إكمال الإضافات الجديدة في منزل قرية رودميل. وكان آل بيل يقومون أيضاً في ذلك الحين بإضافات أخرى في منزلهم في جارلستون. ثمة جو عام من أجواء الخلوة والتحصين في الريف، لكي يكون كل شيء مأموناً ومنمقاً قبل هبوب العاصفة.

أمضت فرجينيا أوقاتاً طويلة وهي تسير في أرجاء لندن، وكأنها كانت تودعها، ولم يكن قد تبقى وقت كثير لمثل ذلك. ففي آب تعالى مرةً أخرى «الصوت المجنون الذي انطلق في العام الماضي»، وكان محتماً أن يكون الجواب عليه هذه المرة جواباً متحدياً».

---

(١) كتبت فرجينيا إحدى رسائلها المرحة جداً والباعثة على الضحك كثيراً في ذروة أزمة ميونيخ، وأرسلتها إلى فانيسا. ولسوء الحظ لا يمكن نشر هذه الرسالة في الوقت الحاضر.

(٢) يكاد يكون بحكم المؤكد أن قصة «مدم دي سوفينييه Madame de Se-vigné» كانت قد كتبت في هذه الفترة، وقد نشرت مع مقالات أخرى في «موت الفراشات» في سنة ١٩٤٢.

الفصل العاشر
١٩٣٩ - ١٩٤١

في صباح الثالث من أيلول ١٩٣٩ كانت فرجينيا وليونارد يتجادلان في غرفة جلوسهما الجديدة في الطابق العلوي في منزلهما في قرية رودميل وينتظران أن يخاطب السيد تشمبرلين الأمة. قالت فرجينيا إنهم «هم» الذين يقومون بالحروب ؛ أما «نحن» فنبقى كالعادة خارجاً ولا صوت لنا في مصيرنا. ثم، لنفرض أن الحلفاء ربحوا الحرب - ثم ماذا؟.

أجابها ليونارد : «الأفضل أن نربح الحرب من أن نخسرها». وقد غدا هذا في حقيقة الأمر هو الخيار الوحيد. وأخذت فرجينيا تميل إلى الموافقة على هذا الرأي، ومع ذلك كان من الصعب عليها مواجهة تلك البدائل الأليمة - كما كان من الصعب على الأمة عامةً مواجهتها أيضاً، أما موقف أغلبيتنا فقد رفضنا ذلك مدة تسعة أشهر.

كان أول أثر من آثار الحرب في منزل رودميل ظهور نوع من حالات السلام. فقد أسدلت على النوافذ ستائر التعتيم (ولم يكن تعتيم فرجينيا كفواً فحدثت لها مشكلة مع الشرطة مرة واحدة في الأقل). كانت الأمهات الحوامل، وقد أخلين من العاصمة، ينزلن متهاديات من الحافلات، ولا يلبثن أن يعدن في الحال حزينات إلى لندن ؛ وأطلقت أولى الصفارات أولى

إنذاراتها الزائفة. وعاد الزوجان إلى مهماتهما ومشاغلهما المعتادة، وكانا طوال ذلك الخريف الرائع يمارسان لعبة الـ Bowls في ساحتهم الخضراء المتموجة. ولكن فرجينيا لم تخدعها الأوهام. كانت ترى أن الحرب تبتدىء بدمٍ بارد، وأن آلة القتل تدور بصمت، وصمتها لا يجعلها أقل شناعةً. كانت آلة القتل تعمل بكفاءة في بولندا، وما أن يُغلب البولنديون «حتى يأتي دورنا». وإذ كانت الجرائد والغة في وطنية تتسم بالعنجهية مجّتها فرجينيا كثيراً جاءهم كنغرلي مارتن بإشاعات قاتمة حول الفوضى وعدم الكفاءة والقنوط.

وكانت سيرة روجر لم تزل تقتضي الإكمال، وقد عكّرت تلك المهمة غير المجزية مزاجها طوال الخريف والشتاء، فكانت تلجأ بين الحين والحين إلى كتابة الكتاب الآخر Poyntzet Hall طلباً للراحة، وكانت كتابته تجري بتقطع طوال عام ١٩٣٩. كذلك بدأت تكتب مذكراتها، وهي لسوء الحظ ناقصة.

عندما اندلعت الحرب قررت فرجينيا العودة إلى الصحافة والكتابة في النيوستيتسمان. أقدمت على ذلك لأنها من جهة افترضت أن الحرب ستصيبها وليونارد بالعوز؛ وكذلك لأسباب ليس من السهل فهمها من جهة أخرى. إن الكتابة الصحفية تمثل، على نحوٍ ما، نوعاً من الموقف الوطني، أو في الأقل طريقة لمواجهة الطوارىء، ولو أن من الصعب معرفة الكيفية التي بها سينتفع المجهود الحربي، ناهيك عن دخل الكاتبة الخاص، من تكريس فرجينيا وقتاً لكتابة مقالات عن سير وولتر سكوت أو عن هوراس وولبول. وأظن أن الدافع وراء ذلك كان ببساطة رغبتها في أن تفعل شيئاً مختلفاً. كان الجميع قد وجدوا عملاً جديداً أو كانوا يبحثون عنه، وعليها أن تسير مع التيار. كتب لها تي. إس. إليوت يقول إنه أوشك أن يتوقع رؤيتها في ميدان راسل وهي تنظم السير وقد اعتمرت قبعة من الصفيح كالتي يعتمرها رجال الوقاية من الغارات الجوية.

لم تقع غارات جوية في تلك المرحلة «الزائفة» من الحرب، ولكنها كانت منتظرة، وحين ذهب الزوجان بسيارتهما في تشرين الأول إلى لندن واجهتهما لافتات جدارية كبيرة في ويمبلدون «الحرب بادئة. هتلر يقول: إنها ناشبة الآن» فعلقت فرجينيا قائلةً إن من الحماقة اختيار ذلك اليوم بالذات للقيام بزيارتهما. بدا لها كأنهما يقعان في فخ، ففزعت؛ ولكن فزعها لم يدم طويلاً؛ إذ شعرت في ما بعد أن ثمة وحدة في المشاعر في العاصمة تكفي لدمج مشاعرها بمشاعر الآخرين. بدت لها لندن رزينة وعملية. وكانت في الليل مظلمة وخالية من الحياة الاجتماعية، حتى أنها تساءلت هل ستشهد شخصياً نهاية الحياة الحضرية وبداية الزمن الذي ستقطن فيه الثعالب والذئاب والبوم هذه المدينة المظلمة. ولكن النهار هناك كان يحفل بالظواهر المألوفة. فقد ترأست السيدة سدني ويب ـ «كأنها عروق ورقة متآكلة» ـ مناسبة غداء يعقبه إلقاء الكلمات أقيمت في قاعة واسعة فكتورية الطراز وتقوم على الخدمة فيها الخادمات؛ خصص لكلام فرجينيا عشر دقائق، ومثلها لزوجها؛ وجرى تبادل التعليقات الحادة عن ويلز وشو. قالت السيدة ويب إنها تشكر لفرجينيا دربتها الفكتورية في الأخلاقيات؛ «أجبتها بأننا كنا أخلاقيين في محاربتنا لتلك الأخلاقيات. وقد آن الأوان الآن لخلق الأخلاقيات من جديد». وظلت تلك المرأة الفابية العتيدة سائرة في طريقها فوجدتها فرجينيا كالعادة مثيرة لضيق النفس كثيراً وسرّها أن تتركها وتغادر المكان.

حاولت فرجينيا أن تنظم منزلهما الجديد في ميدان مكلينبرغ وكان في حالة يرثى لها، فالمطبخ صغير جداً والسلالم غير صالحة والأرض غير مفروشة. وكان مستخدمو المطبعة فريسة القلق، والكلبة الإسبانيولية سالي متوعكة. شعرت فرجينيا أنها لا خير فيها وأحست بالتهيّج. وبعد أسبوع واحد من بقاء الزوجين في لندن عادا إلى قرية رودميل وسلامها. وفي الأشهر التي تلت كانا يقصدان لندن بسيارتهما مرة كل أسبوعين لقضاء بضعة أيام، واستمرا على ذلك حتى أصبح المنزل غير قابل للسكن في

أيلول ١٩٤٠.

كانت قد انصرمت سنوات كثيرة منذ أن أمضت فرجينيا هذا القدر من الشتاء في الريف، أي منذ سنة ١٩١٣. وهذه التجربة الجديدة أخذت تثير فيها الاهتمام والانقباض والتجلّي معاً. كانت على نحوٍ ما تحقيقاً لحلمٍ هو حلم الفرار من لندن والتخلص من السيدة كولفاكس وأمثالها ومن المطبعة ومشاكلها، والحصول على فراغ وافر تتفرغ فيه للقراءة والكتابة وتختزل خلاله صحبة الغير إلأهما. وكان ثمة نعمة أخرى إذ لم تعد تشعر، كما كانت تشعر عادةً في الريف، بأنها «خارج الأشياء». لكأن «الأشياء» قد اختفت، أو أنها تركت القرية على أية حال. بل ان فرجينيا كانت في ذلك الحين وكأنها تريد أن تكون «خارج الأشياء». فقد استقر رأيها على أنها بلغت في حرفتها مرحلة تهجرها فيها الشهرة فأمست «خارجية» - وقد يكون هذا خيراً أيضاً، لأنها وهي تعيش في الريف قد تستطيع أن تزعم أنها تحيا حياة حقيقية. ولكن العيش بمعزل عن الغير في الريف قد تكون مثيرة للملل، خاصة إذا كان بين يديك كتاب لا تسير كتابته على ما يرام ولا يبلغ حد الانتهاء. وكان المنزل في رودميل في ذلك الوقت بارداً برداً شديداً فشتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ كان قارصاً[1]. تراكم الجليد في الطرقات فأضحت غير صالحة للسير، وانجمدت الغدران، وشوهدت الثلوج في نهر (أوز)

(١) حين استضيفت مورغان فورستر فيه أحرق سرواله وهو يطلب الدفء عبثاً أمام «الموقد الأنيق» في غرفة نومه هناك. أما في منزل فانيسا في جارلستون فقد كان الكاتب أكثر دفئاً؛ إنما حدث هناك حريق في البيت. فاختفى بهذه الأحداث بنظم أبيات كتبها على قفا منهاج حفلة موسيقية أقيمت في «الصالة الوطنية للرسوم» وأهداها: إلى الموقد الأنيق في الضيعة المضيافة. وهي:

يا رماداً يا خيِّراً يا كريماً! ... يا سطوع النيران شهماً رحيماً!

إن سروالِيَ العزيز قد اسودَّ ... فلن أتّهمْك جرماً عظيما

بل سأثني على شهامة نارٍ ... تحرق المستضيف حرقاً أليما

قبل حرق الضيوفِ والزوّارِ

نفسه وفيه يحصل المد. ثم حدث ذوبان مفاجىء أعقبه انجماد آخر أشد حتى أضحى الريف بأسره مزججاً بثلج ماسيّ أضفى على الدنيا عند الشروق والغروب بهاءً ملوناً لم تشهد له العين مثيلاً.

بعد عيد الميلاد أقيمت آخر حفلات بلومزبيري بمناسبة ميلاد أنجليكا الحادي والعشرين وكان من الممكن الاحتفال به بشيء من التألق إذ لم تكن قد ظهرت بعد آثار الشحة في السلع من جراء الحرب. رقصت ليديا للمرة الأخيرة ورقص دنكون معها، وغنت مارجري ستراجي أغنية «الوتر المفقود»، وقام شاب ألماني من اللاجئين بتقليد الفوهرر، وتفضلت فرجينيا بقراءة قصيدة «وردة الصيف الأخيرة» وكانت تحفظ عدداً كبيراً من أبياتها أو أنها اخترعتها بنفسها. كان المرح يسود الجميع وكلهم يعلمون أن هذه ستكون آخر المناسبات البهيجة.

«أوه، إني لأشعر شعوراً غريباً بالتوتر إذ أقاد إلى ربيع عام ١٩٤٠». هذا ما كتبته فرجينيا في يومية ٨ شباط؛ كانت تشعر أننا نقاد جميعاً إلى محرابٍ ما، محراب التضحية المكلل بأزهار النار. وقد أصيبت في أواخر شباط بالأنفلونزا فلم تشف منها إلا بعد أمدٍ طويل؛ ولكن ليونارد حسبها في حالٍ حسن - معنوياً وعقلياً - يكفي لتحمل نقدٍ شديد جداً لسيرة روجر فراي. قال إن الكتاب تحليل محض وليس تاريخاً، وان هذه الطريقة التي اختارتها طريقة خاطئة، وأنها نظرت إلى الموضوع من زاوية كئيبة ثم جعلته أكثر اكتئاباً بالكثير من المقتبسات التي لا حياة فيها. ولكنه أضاف إن الكتاب، ككل شيء آخر تكتبه، فيه من الأشياء ما لا يمكن أن يصدر إلا عنها، وهي أشياء جيدة جداً. غير أن فرجينيا لم تسجل شيئاً من هذا، فهذه هي سليقتها. كان الحديث أليماً شعرت خلاله كأنها تُنقر بمنقار صلبٍ حاد. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقدم فيها ليونارد نقداً مضاداً على نحوٍ كلي، ولو أنه لم يكن متحمساً كذلك لكتاب «ثلاثة جنيهات». كان عقلانياً، مؤثراً، حاسماً، وقطعياً، فأقنعها بأنها فشلت أو كادت.

لم تكن واثقة من سلامة دوافعه ؛ لعله يتأثر لا شعورياً بافتقاره للتعاطف مع روجر، وبعدم اهتمامه الكافي بشخصيته. لذا قامت بإرسال المخطوطة، أو أجزاء منها، إلى حكمين آخرين هما مارجري فراي وفانيسا وانتظرت حكمهما.

«إنه هو بعينه. . . فلكِ الإعجابنا الغير المحدود»، هذا ما أجابت به مارجري بحماسةٍ للكتاب أكثر من حماستها لقواعد اللغة. وأجابت فانيسا كذلك قائلةً:

> «منذ أن مات جوليان لم أستطع التفكير بروجر. أما الآن فقد أعدته إليّ - ومع أني لا أستطيع إلا البكاء فأنا عاجزة عن شكرك».

وساد عند الكاتبة هذان الحكمان. كان ثناء فانيسا كافياً، فإعادة روجر إلى الذين عرفوه هي قسط كبير مما قصدت إليه. ولئن كان حكم ليونارد أقرب إلى رأي الذين لم يعرفوا روجر فهذه مسألة أخرى. لقد سعدت فرجينيا بالتأكيد بما وردها واطمأن قلبها به. ستستطيع إذن المضي قدماً بالمهمة الكالحة، العسيرة، الخاصة بتصحيح المسودات دون قنوط يذكر، وقد صححتها وأعادتها بالبريد إلى المطبعة في ١٣ أيار.

في العاشر من أيار غزا الألمان بلجيكا وهولندا، وفي الرابع عشر منه استسلم الجيش الهولندي، وفي الثامن والعشرين حذا الجيش البلجيكي حذوه، وفي الرابع عشر من حزيران سقطت باريس.

لم تكن فرجينيا، كما رأينا، تعيش في فردوس المغفلين ؛ فقد كانت تساورها الريب بأن الأمور ستمضي إلى الأسوأ، وأظن أنها رأت في تلك الأحداث استمراريةً للكابوس وتعزيزاً له، وهو الكابوس الذي كان قائماً منذ بضع سنين. وقد ظلت معارضة لفكرة المقاومة المسلحة ؛ وعبّرت عن انتقادها حين أفصح ليونارد عن نيته في الانضمام إلى متطوعي الدفاع المحلي. بدا لها أن من السخف أن يشد زوجها ربطة الزند والنطاق أو يرتدي

البزة العسكرية. ولكن وسواسها نحو العدو لم يجعل من العدو أقل إفزاعاً. كان من المقلق لها أن تجد سخافة الفاشيست الوحشية وإيمانهم المطلق بالهراء الصبياني يتظافران مع العلم العسكري والبسالة العسكرية في أعلى صورهما. كما أنها لم تستطع التأسي بخطب زعمائنا أو بالإحساس الجديد بالاستماتة والتصميم الذي ظهر في نفوس الشعب البريطاني. ومع أنها أعجبت بقول أثيل سمايث : «طبعاً سنقاتل وسننتصر» وذلك بعد يومين من سقوط باريس ولكن هذا القول لم يقنعها ولم يبث في قلبها السلوى. كما لم يؤتها بشيء من هذا ونستون تشرشل نفسه، ولا الخرافات الصحفية المخترعة عن جنود بطوليين، ولا التفاؤل المرح الواهي الذي تبثه الإذاعة البريطانية ويردده السياسيون. لقد كان في هذا كله شيئاً مشوباً بالزيف، إن لم نقل زائفاً كلياً، كما كان هناك جانب قبيح جداً في سلوكنا أيام الطوارىء. كانت فرجينيا تعرف من خبرتها الشخصية أن اللاجئين يعتقلون لا لسببٍ سوى جنسيتهم، كما أن أحد الجنود عاد إلى الوطن يعرج في مشيه من دنكرك إلى رودميل فأتى بحكايات عن الذعر وضعف المعنويات والنهب والسلب وعدم الكفاءة العسكرية بأتعس أشكالها.

ما أن أخذت المعركة تقترب من الجزر وتتزايد احتمالات هزيمتنا حتى باتت فرجينيا تنظر إلى وجودها كأنه وجود غير واقعي، أو في الأقل وجود ذو طابع شنيع ؛ كانت فعالياتها وعواطفها في حياتها اليومية تتناقض كلياً مع الصراع المريع الجاري الذي يتوقف عليه مصيرها. ها هي تستطيع، عند إرسالها مسودات سيرة روجر، أن تتكلم عن «السلام والرضا» وهي تعرف جيداً أن هذا الكلام سيقرع الآذان قرعاً فظيعاً وهو يسمع في اليوم الثالث بالذات من معركة فرنسا ؛ «وهكذا وافتني هنيهة السلام في حالٍ من الخواء المطبق». وبعد أسبوع، وكانت الكارثة قد بلغت ذروتها في الأراضي المنخفضة، جاء دزموند مكارثي وجي. أي. مور للإقامة في منزل رودميل ـ كان دزموند مهلهل الثياب، أشعث الشعر ولكنه فتان ولا ينقطع عن

الكلام أبداً ؛ وكان مور وهو في الخامسة والستين على تأثيره السابق، أو أقل قليلاً، حين أصغت له فرجينيا ستيفن قبل زواجها بتقديس مكبوت عند آل سانغر، وكان كما كان عليه نبيلاً في موضوعيته. قرأ له دزموند The Hound of the Baskervilles وهما في الحديقة قبل الغداء، ثم ذهبوا جميعاً بعد الظهر إلى منزل فانيسا في جارلستون. وهناك بحثوا في سكوت مور الشهير، هو الذي كان متهماً بإسكات جيلٍ بأكمله. أجاب : «لم أشأ أن أكون ساكتاً، إنما لم أكن أجد ما أقوله». إنه، على أية حال، لم يستطع أن يسكت دزموند ألبته، وكان هذا قد أخذ يتحدث إلى قطةٍ كانت تمر، ثم إلى الحصان المصنوع من منشفة الوجه في غرفة ألعاب الصغار. كانت أصداء المدافع تتردد على التلال.

أما الأمر غير الواقعي تماماً فهو سفرة الزوجين وولف مع فيتا إلى بنشيرست Penshurst وكانت سفرة قصيرة للمتعة. زاروا البيت المعروف هناك، بقاعته المخصصة للاحتفالات والولائم، بأثاثه الذي وجده الزائرون مخيباً لآمالهم، بذكرياته عن أليزابيث وأسكس، وبغير ذلك من المتاع كالمزمار الصدفي لليدي بمبروك ومرآة الحلاقة لسدني، بالإضافة إلى ساحات العشب الأخضر الأنيقة وبرك الأسماك الملونة. وجدوا اللورد بنشيرست ثرثاراً، ملولاً، يحز الألم الممض في قلبه، ويتخذ في بلدة تونبريدج Ton-bridge مكاناً لإقامته من أجل هوايته في ممارسة لعب الورق. في ذلك اليوم سقطت باريس.

استُهل شهر تموز بنشر كتاب «روجر فراي» وما رافق ذلك من القلق المعتاد الذي كانت فرجينيا تشعر به كلما نشرت كتاباً. وجاء تموز بالخوف من الغزو أيضاً. وكان الغزو يعني لفرجينيا وليونارد شيئاً أدهى وأمر من الإبادة الجماعية المنتظرة. يقدم ليونارد، في الجزء الأخير من كتب سيرته الذاتية، سرداً لما كان يعنيه التهديد الفاشيستي له آنئذٍ. سأنقل ذلك هنا لأنه

يعطينا الصورة التي كانت ماثلة أمام عيون ليونارد وفرجينيا في تموز ١٩٤٠.

> «إن اليهود يطاردون ويعتقلون ويضربون ويهانون في كل مكان علناً في شوارع المدن. وقد رأيت صورة فوتوغرافية ليهودي تجرّه قوات الصاعقة من دكانٍ في أحد الشوارع الرئيسية في برلين ؛ كانت الأزرار الأمامية لسروال الرجل مفتوحة لكي يرى الناظر أنه مختون فهو بالتالي يهودي. كانت على وجه الرجل تلك النظرة المريعة الناطقة بالشقاء واليأس الفارغين، وهي النظرة ذاتها التي رآها الناس منذ بدء التاريخ الإنساني على وجوه ضحاياهم من المضطهدين الأذلاء وعلى رؤوسهم تيجان الشوك. أما ما هو أبشع في تلك الصورة فهو النظرة التي على وجوه أناس محترمين من الرجال والنساء يقفون على الرصيف متفرجين ضاحكين على الضحية».

هذه إذن هي سمة العدو الذي أضحى النصر منه الآن قاب قوسين أو أدنى، العدو الذي ما أن يحقق الظفر حتى يتحرر من الموانع جميعاً. وحتى لو فرضنا أن هناك، بنظر المتفائل، قيراطاً من الشفقة أو كرم الأخلاق في قلب هذا العدو، فإن من المؤكد خلوّه من ذلك تجاه يهودي اشتراكي وزوجته ؛ إن غرفة الغاز ستكون رحمةً لهما ما بعدها من رحمة. ثمة ميزة في هذين الزوجين، إن صح تسميتها بالميزة، هي معرفتهما لخصمهما معرفةً لا تشوبها الأوهام. ففي الثالث عشر من أيار، وكانت المعركة في أوجها، بحثا في ما بينهما مسألة الانتحار. قررا الانتحار خنقاً بدخان سيارتهما، لذلك احتفظ ليونارد بما يكفي من الوقود لهذا الغرض ؛ ثم حصلا على مقدرا من المورفين من أدريان يكفي أن يكون جرعة قاتلة. كانت فرجينيا تشير باستمرار طوال أيار وحزيران إلى انتحارهما : كيف ومتى. وما أن

أيقنت أن الحرب قد خسرت حتى أيقنت أن الانتحار حاصل لا محالة. لم تكن ترى شيئاً يلوح في أفق المستقبل، فكتبت يومئذٍ : «لا أستطيع أن أتصور أنني سأرى يومي هذا في السنة القادمة».

وهكذا عاشت فرجينيا على شفا الهاوية ثلاثة أشهر متواليات. وفي أواخر تلك المرحلة هيّأ لها القدر شيئاً بدا كأنه يشفيها مما كانت فيه، وإن جاء على شكل أخطار حقيقية وليست متصورة. كانت طوال آب وأيلول تشاهد تلك النتف الغريبة من القتال الجوي وكان ذلك هو كل ما يتبيّنه الناس وهم على الأرض من معركة بريطانيا. لم تكن تلك المباريات الجارية في السماء قابلة لإدراك الناظرين. ثمة وَخْطٌ دقيق حاد من الضياء يدور عالياً ويختفي في الفضاء، تعقبه ريشة كبيرة من الدخان قد تصحبها مظلة أنيقة تنفتح كالنبتة لتحمل إلى الأرض شخصاً ما لا يعرف لحظتئذٍ أانكليزيٌّ هو أم ألمانيّ. على أن الأحداث كانت في بعض الأحيان أشد إثارةً وأكثر قدرة على الفهم؛ فقد يرى المرء طائرة تحلق على ارتفاع واطيء وعليها علامة العدو واضحةً للعيان، وقد يسمع قصف المدافع من بعيد، ولعلعة الرصاص التي تبلبل الذهن، يليها صفير القنابل فانفجارها.

«نزلت الطائرات قريباً من مستوى الأرض. تمددنا تحت الأشجار. الصوت كأن شخصاً بيده منشار ينشر به خشباً في الهواء فوقنا. امتددنا على وجوهنا، أيدينا خلف رؤوسنا. قال لي ليونارد لا تطبقي فكيك على أسنانك. هزت القنابل نوافذ غرفتي. هل ستسقط الغرفة؟ إذا سقطت فستتحطم تحتها معاً. لم أفكر إلا باللاشيء ـ بالتسطح. فقد كان مزاجي مسطحاً. وهذا نوع من الخوف على ما أفترض. هل ننقل الخادمة ميبل إلى الكراج؟ قال ليونارد إن عبور الحديقة مجازفة كبيرة. ثم جاءت طائرة أخرى من جهة نيوهيفن.

الطنين، وصوت المنشار، والأزيز، من حولنا من جميع الجهات. صهل حصان من بعيد. الجو وخم جداً. وجاء الصوت فسألت : هل هو الرعد؟ فقال ليونارد، لا، هذه مدافع، من جهة جارلستون. وخفت الصوت تدريجياً. قالت ميبل في المطبخ : النوافذ تهتز الغارة مستمرة. ثم ابتعدت الطائرات. وأعلنت الصفارة انتهاء الغارة بين الخامسة والسابعة. أسقطت ليلة أمس ١٤٤ طائرة».

كانت هذه التجارب من النوع الذي يدك الأعصاب دكاً دون ريب، وفرجينيا أصلاً لا تتمتع باللياقة النفسية بل هي على حافة الهاوية، ناهيك عن أنها كانت في مركز المعركة، ومع هذا كله أظن أن التأثير كان علاجياً إلى حد كبير. فمنذ أن أخذت تصليها النار بالمعنى الحرفي للكلمة انقطع كلامها عن الانتحار.

إني لأتذكرها وهي تقرأ، في ذلك الوقت، على «نادي الذكريات» سردها لحكاية المكيدة التي دبرت للأسطول البريطاني قبل سنين وشاركت فيها شخصياً ؛ وقد قوبلت بكثير من الضحك والتصفيق، وكان يبدو عليها المرح ولم تكن بالتأكيد انتحارية النزعة. ولا ريب أن الأمر كان مختلفاً حين اتصلت هاتفياً بفيتا في سيزنغهيرت وسمعت صوتها وأصوات القنابل التي تتساقط من حولها، فظنت بعد ذلك النداء أنها لن تسمع صوت فيتا مرة أخرى.

وانتقلت الحرب إلى داخل البلاد ؛ ولم تكن رودميل خارج نطاق الخطر على الإطلاق ولكن لندن باتت هي الهدف الرئيسي الآن. وقد ألحق القصف ضرراً مادياً بفرجينيا وفانيسا معاً، فإذا بذلك يجدد المنافسة القديمة بينهما بأغرب صورها. فحين تهدم ميدان مكلينبرغ قنطت فرجينيا لسببين : كان من المثير للغضب أن يكون منزلها هناك غير قابل للسكن في حين كان

الإبحار لم يزل سارياً بعد في المنزل الآخر في ميدان تافيستوك وقد ظل قائماً لم يمسسه شيء؛ وكان مزعجاً كذلك أن يتحطم مرسم فانيسا كلياً (ومرسم دنكون المجاور أيضاً) حتى بدا ما لحق بنوافذ فرجينيا من تكسير، وسقوفها من تساقط شيئاً تافهاً. وقد شعرت بالارتياح بالتأكيد حين شارك منزل فانيسا مصير منزلها، مع إحساس غريب غامض بالتجلي أحست بمثله فانيسا أيضاً حين أتت على مرسمها النيران. وجاء الزوجان إلى لندن لإصلاح ما يمكن إصلاحه من ضرر ولترتيب نقل مطبعة هوغارث إلى مكان آخر، وهناك عجبت فرجينيا أيما عجب من السيد بريجارد، ذلك المحامي الذي ظل مكتبه في المبنى الذي تسكنه دائماً، لما أبداه من حنان ثابت وزهد صوفي لا يبالي بشيء، كما أنها انفعلت بأشياء أخرى منها ما ذكرته في رسالة إلى أثيل سمايث جاء فيها:

> «... إن الذي أثّر بي كثيراً وهزّ قلبي هزاً في لندن هو مشهد العجائز في النزل وقد علاهن الوسخ بعد الغارة وهن يتهيأن لتلقي غارة أخرى... واهتّز قلبي أيضاً وأنا أرى لندن مدمرة، وهي المدينة التي يهيم بها فؤادي دون المدن الأخرى»(١).

وفوق هذا وذلك حدث إشكال شخصي سخيف، تافه، ولكنه جدير بالذكر لإظهار ما كانت عليه فرجينيا من حالة تتوزع فيها مشاعر بين كوارث الحرب وخزعبلات الحياة الخاصة. كانت هناك دارة مؤثثة للإيجار في رودميل، وهلين أنريب تريد أن تكون قريبة من الأصدقاء، فأخبرتها فانيسا عنها. فهمت فرجينيا من محادثة هاتفية مع أختها أن هلين قادمة للعيش في

---

(١) «حين قصف الألمان لندن وضعت فرجينيا حساباً بخسائرها الجسيمة التي لحقت بها من جراء انخفاض المبيعات في كتبها». (من كتاب «سيرة ليتون ستراَي» بقلم مايكل هورلويد، الجزء الأول، ص ٤٠٤). أما أنا فلم أجد سجلاً لهذه الحسابات الفريدة.

رودميل والسكن هناك سكناً دائماً. وإذا بفرجينيا تنسى في تلك اللحظة أخطار الغزو وتشعر بأن الغزو إنما يأتي الآن من تلك المرأة، وكان ذلك أمراً جهماً ؛ وثارت خصومة أخوية بين الشقيقتين لم يحدث مثيل له منذ سنين. ولكنْ سرعان ما انتهى ذلك كله، فقد اتضح أن هلين لا تنوي على أية حال إلا إقامة قصيرة.

في أيار ١٩٤٠ تحدثت فرجينيا في رابطة العمال الثقافية في برايتون فعبرت عن انزعاجها من بعض الشعر الذي ينظمه مثقفو اليسار. وقد نشرت محاضرتها في ما بعد تحت عنوان «البرج المائل». وقد أثار لها «البرج المائل» كثيراً من المشاكل مع الكتاب اليساريين، وكان ذلك شيئاً طبيعياً منتظراً، ذلك أنها كانت فظة نحو شعرهم، كما كانت مخطئة في رأيها كما أرى. ولكن ما قالته كان كلاماً متفكراً من نواح عدة، وبمثابة الإعلان النهائي لكاتبة ذات تحسس اجتماعي يفصح عن أمور صحيحة كثيرة. ترى فرجينيا في محاضرتها أن تاريخ الأدب الإنكليزي يتكيف على نحو صميمي حميم بالبنية الطبقية الإنكليزية، وأن الحركة اليسارية في الثلاثينات كانت تستمد طبيعتها من مجتمع برجوازي في جوهره. وترى أيضاً أن الكتاب الاشتراكيين الشباب في زمنها لم يستطيعوا تجاوز الحدود الطبقية رغم موقفهم الأديولوجي لذلك دُفعوا بانحراف معين في الرؤية من جراء أصولهم الطبقية، وسيدفعون بذلك دائماً إلا إذا استطاعوا خلق مجتمع غير طبقي.

إن الذي يميّز فرجينيا عن معظم الاشتراكيين الشباب هو قبولها الصريح وغير المشروط بأهمية البنية الطبقية في الأدب. ففيما حاول الآخرون تجاوز الحواجز الطبقية، أو حتى إنكار وجودها، اعترفت هي بها اعترافاً صريحاً، فاعترفت بذلك بأنها هي ذاتها في موضع معزول ضمن مجتمع منقسم. وقد أوضحت في «البرج المائل» أنها لا تعتبر هذه حالة مرغوباً فيها، ولا

تراها حالة يمكن تغييرها بإنكار وجودها. إنها افترقت، باتخاذ هذا الموقف، عن اليسار واليمين معاً.

كانت فرجينيا قد أثارت هذه النقطة بالذات على نحوٍ أوضح في مقال سابق عنوانه "The Niece of an Earl" قالت فيه :

«. . . إن جهلنا بالطبقة الأرستقراطية لا يقارن بالجهل بالطبقات العاملة. إنه لمما يسر البيوتات الكبيرة في إنكلترا وفرنسا أن تدعو إلى موائدها المشاهير، في جميع العصور، لذا كان تاكري ودزرائيلي وبروست على إطلاع عن طراز الحياة الأرستقراطية وأسلوبها يكفي لكي يكتبوا عنها وهم واثقون. وإنه لمن سوء الحظ أن الحياة مكيفة على نحوٍ يجعل من يحظى بالنجاح الأدبي في صعود في الميزان الاجتماعي لا في هبوط فيه، ونادراً ما يعني هذا النجاح تغلغلاً في المجتمع وهو الأمر المرغوب فيه أكثر من غيره. إن الروائي الصاعد لا يكلف نفسه بالمجيء إلى بيت عامل يدوي ليشاركه في طعامه، وإن كتبه لا تجعله على تماس مع الفقراء ولا تسهل مراسلة بينه وبين العجوز التي تبيع علب الثقاب قرب بوابة المتحف البريطاني».

وقد قال أحد النقاد المتعاطفين وكان على صواب :

«إن موضوع فرجينيا في كتاباتها هو العالم الصغير لأناس مثلها، طبقة صغيرة، طبقة محتضرة، . . . طبقة ذات امتيازات موروثة، ودخول خاصة، ومساكن آمنة، وحسيّات مصونة، وأذواق مرهفة. إنها لا تعرف خارج هذه الطبقة إلا القليل جداً».

إن مثل هذا الوضع من شأنه أن يضع حدوداً على الروائي، ولكنْ ثمة نفع في أن يدرك هذا الروائي حدوده.

ولعل هناك من الكتاب من يعتقد أنه يعرف الطبقات الدنيا جيداً، ويعرف كيف يطبع نفسه «في مستوى أبنائها»، فيحبهم حباً أصيلاً طالما كانوا يقومون بالدور الذي ينتظره منهم، ولكنْ ما أن يتغيّر هذا الدور حتى ينقلب حبه إلى كراهية.

كان موقف فرجينيا على نقيض ذلك تماماً. إنها لم تتطلب حباً من الذين هم أدنى منها مرتبةً في السلم الاجتماعي، فلم تشعر بالكراهية حين حُجب الحب عنها. ولم تكن تشعر بالحب نحو البروليتاريا حتى أنها أرادت إلغاءها لكي تلغي بذلك المجتمع الطبقي. إن موقفها الناشىء عن تقييم صحيح لطبيعة المجتمع الذي تعيش فيه قد مكنها من أن تقدم تحليلاً دقيقاً في مقالتها «البرج المائل». ولكنه كان في الوقت عينه موقفاً عقيماً من الناحية السياسية لأنه يتجاهل تلك المودة الاجتماعية التي يتوقف عليها عادةً الفعل السياسي. كان هذا مزعجاً كل الازعاج للذين قاسوا من الاتجاهات السياسية الخاطئة العمياء، من أبناء جيلها. قرأ بنيديكت نكلسون، إبن فيتا، كتابها عن سيرة روجر فراي وهو في الخدمة الفعلية ويحيا حياة الشدة والخطر، فكتب إلى فرجينيا معبراً عن غضبه الشديد. بدا له أن بلومزبيري كانت قد عاشت في فردوس المغفلين مستمتعة باللذائذ الموصلة ومتجاهلةً أولى واجبات المثقف، ألا وهي إنقاذ العالم من حماقاته. إن تلك المهمة التعيسة قد تركت له ولجيله.

ومن الواضح أن فرجينيا كانت قد استاءت من حججه وتأثرت بها معاً. كتبت جوابها بعناية، ولكن الرسالة حين اكتملت جاءت في ضراوتها كرسالته. ثم استرد كلاهما هدوءه في الرسائل التالية وانتهت المراسلة بروح من التسامح إن لم نقل من الاتفاق. وإذا وضعنا جانباً ما عكّر صفو المراسلة

في الابتداء، وتركنا بعض النقاط الخاصة بمنجزات روجر فراي كناقد، نجد أن الجدل كان قد دار حول المسؤولية الاجتماعية لحركة بلومزبيري في سنوات ما بين الحربين. لم تدافع فرجينيا عن بلومزبيري، كما كانت تستطيع أن تفعل، بالتشكيك في صواب استخدام مصطلح «المسؤولية الاجتماعية» في هذا المجال، ولكنها أشارت إلى شيء آخر فقالت لو أن ليونارد وكينز كانا قد انتميا إلى بلومزبيري لكان من الصعب اتهام تلك الفئة باللامبالاة التامة في الشؤون العامة[1] وقد أقامت قضيتها على الرأي القائل بأن الفنانين غير قادرين على التأثير في المجتمع تأثيراً جوهرياً، وبأن هذا يصدق حتى على أعاظم الشعراء: كيتس، شيلي، وردزوورث، أو كوليريدج. كان هذا الدفاع أكثر انطباقاً عليها. لقد حاولت كما رأينا أن تكون نشطة سياسياً؛ وكان الذي يعوزها هو الاقتدار وليس الميل. إنها لم تظهر، إلا في «الغرفة الخاصة» أية قوة إقناعية كبيرة، أما من الناحية السياسية فقد كانت كاتبة أقل تأثيراً بكثير من هارييت بيجار ستاو Harriet Beecher Stowe.

جرت هذه المراسلة في آب ١٩٤٠؛ وكانت معركة بريطانيا تقترب من ذروتها، فأخذت فرجينيا تتحوّل من روحية التخوف إلى روحية السكينة.

لعل سكينتها كانت استهلالاً ضرورياً للعاصفة - وأعني بهذا أن طريقة اشتغال عقل فرجينيا تحتم عليها المرور بمرحلة انتقالية من هول حزيران ١٩٤٠ إلى العذاب النهائي في آذار ١٩٤١، وهي مرحلة تتسم بالتجلي. ويمكن أن تعزى المرحلة السعيدة لذلك الخريف إلى الأحداث العامة مباشرةً.

(١) في مسودة رسالتها المؤرخة ٢٤ آب ١٩٤٠ تشير فرجينيا هذه النقطة وتنوه، دفاعاً عن نفسها، بعملها في كلية مورلي وحركة حق الانتخاب للمرأة والجمعية التعاونية النسوية. وقد حذفت هذه الإشارات من الرسالة التي بعثت بها إلى بنيديكت نكلسون.

كان خطر الغزو مستمراً في آب وأيلول، ولكنْ كان من الواضح أيضاً أن هذه الجزيرة قادرة على المقاومة، وأن العدو لن يستطيع كسب السيادة في الجو بدون نضال هائل ؛ ثم ما لبث أن اتضح أن العدو لن يكسب تلك المعركة على الإطلاق. كان الغزو يؤجل من أسبوع إلى آخر، وظهر بعد ذلك أنه سيؤخر إلى الربيع. إن لندن قد تقصف وتشتعل ولكن ليونارد لن يلزم بخدمة فعلية. وفي نهاية ذلك العام لمعت نجمة شاحبة من نجوم النصر فوق أفريقيا.

وكان من المريح أن تترك الخادمة ميبل العمل فتذهب لتسكن مع أختها. كانت ميبل هي خادمة المنزل في لندن ؛ ولم تلعب قط في حياة فرجينيا دوراً مهماً كالذي لعبته الخادمة نيللي ؛ وكانت شخصية أسهل مراساً وأكثر هدوءاً وأقل إثارة للاهتمام، بل أقل على نحو فظيع. مع هذا سُرَّ الزوجان حين تركت ؛ إنها لم تكن في رودميل إلا لأنه كان من المستحيل أن يطلب من غيرها الإقامة في لندن في ذلك الحين. كان كل ما يحتاج إليه الزوجان في رودميل تقوم به الخادمة لووي Louie التي تسكن في القرية، وكان كلا الزوجين منسجماً معها انسجاماً تاماً (حتى أن هذه الخادمة ظلت في خدمة ليونارد زهاء ثلاثين سنة أخرى حتى وفاته).

استمرت القنابل تتساقط، وقد سقطت إحداها يوم ٢٩ أيلول قريباً جداً من دارهم في القرية. أغلق ليونارد النافذة غلقاً عنيفاً أحدث ضجةً فلعنته فرجينيا، ولكنها حين أدركت السبب خرجت إلى ساحة العشب الخضراء فرأت الطائرة المغيرة وهي تطارد نحو نيوهيفن. غير أن مثل هذه الأمور لم تعد تقلقها. كانت على دراية بأنها تحيا حياة الكسل. ليونارد يأتي إليها بإفطارها وهي في السرير، على عادته منذ أمدٍ طويل ؛ وكانت تقرأ في سريرها صباحاً، ثم تستحم، وترتب مع الخادمة لووي أمور المنزل. بعد ذلك تخرج إلى غرفتها في الحديقة لتكتب روايتها Between the Acts. لم يحدث لها قط أن تدفقت من قلمها رواية من رواياتها بهذه السرعة

وبهذا اليسر. لم يكن هناك من عراقيل أو شكوك أو يأس أو تصارع أو تعديلات. وكان هناك كتاب آخر سمته Anon، ولدينا عدد من مسودات الفصل الأول منه، مع فصلين آخرين كاملين. كان المفروض أن يصبح هذا الكتاب ضرباً من تاريخ الأدب، وهي تكتبه من أجل دنكون لكي تفسّر له ما يرمي إليه الأدب الإنكليزي. وقد أدركتها صعوبة بعينها حين كان عليها أن تشرح شكسبير؛ فعبقريته شاملة، لذا قد يصبح كتابها هذا طويلاً. كانت تتوقف عن الكتابة بين حين وحين للاستراحة فتستمتع بمشاهد المناظر الطبيعية؛ غيّرت موضع منضدتها لكي ترى جانباً آخر من الريف المنبسط، الجميل، الممتد بينها وبين جبل كابورن؛ وغدا هذا المنظر ذاته أكثر جمالاً في تشرين الثاني، فقد سقطت قنبلة على سدة نهر (أوز) ففاضت مياهه على الحقول وتدفقت في حديقتها وشكلت بحراً رائعاً في البر تأمه أسراب الطيور المائية. كان هذا مصدر متعة كبيرة لها. وبعد تملّي مشاهد الطبيعة تشعل سيجارة - «لكي تتأهب على حد تعبيرها - فتبدأ بالكتابة مرة أخرى حتى الظهر. عندئذٍ تتوقف لتطلع على الجرائد، ثم تطبع على الآلة الكاتبة حتى وقت الغداء في الواحدة. كان طعامهم طعام الشظف، فالمواد الغذائية شحيحة جداً، ولكنها كانت تأكل بشهية تامة أيما طعام يتوفر وبلذة أقوى من أي وقت مضى؛ بل إنها اعترفت أنها كانت آنئذٍ تخرج أصواتاً من فمها عند الأكل على النحو الذي استهجنته في الآخرين. كانت فيتا تملك مزرعة فهي تبعث لها بعطايا باذخة؛ شكرتها في تشرين الثاني ١٩٤٠ على النحو التالي:

> ليتني كنت الملكة فكتوريا لكي أزجي لكِ الشكر اللائق...
> لم يحدث أن شعرنا بمثل هذا الشعور المجيد المذهل المتفجر، الذي لن أجيد التعبير عنه. كل ما أستطيع قوله هو أننا بهتنا حين اكتشفنا الزبدة مغلفةً في علبتها. صحت: هذه أوقية كاملة منها. ثم قطعت مكعباً وازدردته. وبعد ذلك أعطيت

حصتنا من التقنين الأسبوعي من الزبدة وهو بحجم ظفري إلى لووي وأنا أحس بالفخر فتلقيت الشكر الجزيل منها. ثم جلست وأكلت الخبز والزبدة وحدهما. فلو أضفت المربّى لكان ذلك بمثابة الكفر بالنعمة. إنك نسيت طعم الزبدة، وسأخبرك ما هو هذا الطعم : إنه شيء بين الندى والعسل. يا إلهي! فبعد كل ما أرسلت من أصواف وغيرها تأتينا يا عزيزتي فيتا زبدتك!!! أرجو أن تهنئي الأبقار عني، والحلاّبة، وبودي أن أقترح تسمية العجل في المستقبل ليونارد (إن كان ذكراً) وإن أنثى ففرجينيا.

تصوري غداءنا غداً! ستأتي بوني غارنيت Bunney Gaar-nett وأنجيليكا : سأضع الصحن بأسره في وسط المائدة وأقول : كلوا كما تشتهون. لا أستطيع التوقف عن هذه النشوة، لأنني لم أر أوقية زبدة منذ عام، وليس عندي شيء آخر أخبرك به. ما من شيء آخر مهم على ما أظن. صحيح، إن كتبنا ستصل غداً كلها من منزلنا المدمر في لندن : كلها ممزقة ورطبة. صحيح، إني عُينت أمينة صندوق للمعهد النسوي. وأريد أن أسألك عن رقوق الفانوس السحري عن إيران ؛ وهل ستأتين وتتحدثين ؛ لكن هذا مجرد تفاهة. القنابل تتساقط بالقرب مني - تفاهات ؛ أسقطت طائرة في المستنقع - تفاهات ؛ لعنة الله على الفيضان - لا، ما من شيءيصلح أن نضفر منه إكليلاً يوضع على صرح يليق بزبدتك.

لم يرسلوا لي قط كتابك من المطبعة، لعنهم الله.

دخل ليونارد الآن. قال : إذا كنت أكتب لك فهل لي أن

أضيف أعمق شكره عن الزبدة.

ف»

كانت فرجينيا تعود بعد الغداء إلى الجرائد لتقرأها بإمعان، ثم تخرج للسير، وربما تقوم ببعض العمل اليدوي فتقطف التفاح وتخزنه، وتعجن العجين وتخبزه. يتبع ذلك الشاي، وبعده قد تكتب بعض الرسائل، ثم عودة إلى الطبع على الآلة الكاتبة، وإلى القراءة، أو كتابة اليوميات. ثم يحين وقت إعداد العشاء وتناوله، فالاستماع إلى شيء من الموسيقى من الأسطوانات، والقراءة أو الإغفاء أو التطريز، حتى يحين وقت النوم.

أخذت تقارن هذه الحياة بحياتها في لندن وما فيها من تلبّك وإحباط ومقابلات ونداءات هاتفية ومواعيد وخدع اجتماعية فتحس أنها سعيدة في القرية، وأنها حرة لا يربطها شيء، «حياة تنتقل من شيء بسيط إلى آخر. فلماذا لا أتمتع بهذه الحياة بعد تلك السنين كلها من الحياة الأخرى».

ليس في مثل هذا الوجود إلا القليل من الحوادث الجديرة بالتسجيل. إن الإقامة المستمرة وضرورات الحرب قرّبت الزوجين كثيراً من الاختلاط بحياة القرية، وقد تمتعت فرجينيا بذلك على العموم، وإن كان في القرية بعض الثقلاء بين الأهالي ممن أخذت تشمئز منهم. ولكنها بدت في تلك المرحلة من اللا صداع وعدم التبرم، من العمل الذي يجري يسيراً لا يعيقه شيء، في حالٍ لا يعكر صفاءه شيء. وطربت حين كتب لها فورستر يطلب منها الالتحاق بلجنة مكتبة لندن، وكانت قد توقعت ذلك ذات يوم، ولكنها ثأرت لنفسها ولجنسها بأن رفضت أن تكون بمثابة «الرشوة» للرأي العام. وسرت حين أرسلت لها ليدي أوكسفورد تمثالاً صغيراً لفولتير مع رسائل سخيفة بعض الشيء كتبتها من أوتيل سافوي أثناء القصف الجوي العنيف. وفي السنة الجديدة استمتعت بذهابها إلى جارلستون وإلى كيمبردج، ومن

الواضح أنها استمتعت أيضاً من زيارة قامت بها إليها أليزابيت بووين E .Bowen

قضت الآنسة بووين يومي ١٣ و ١٤ شباط ١٩٤١ مع فرجينيا في رودميل وقد دونت ذكرياتها عن تلك الزيارة ووصفت فرجينيا وهي جاثية على الأرض ـ كانتا تروفان ستارة مشقوقة ـ :

«جلست على ركبتيها وألقت برأسها إلى الخلف في بقعة من شمس الربيع الباكر، وضحكت بتلك الطريقة المسرفة، المنهكة، الرائعة، الصاخبة. . . فظل ذلك عالقاً في ذاكرتي. لذلك فإني أصاب بالصدمة حين أسمع الناس يعتبرونها إمرأة تسعى للاستشهاد، أو يحسبونها من ذلك النمط الفاجع من أبناء الظلام».

فمتى انتهى الضحك ومتى ابتدأ الظلام؟ من الصعب الإجابة عن ذلك. كانت قد أنهت روايتها «بين الفصول» في ٢٣ تشرين الثاني، ومن شأن ذلك أن يمثل خطراً لها كما كان الأمر كلما أنهت رواية من رواياتها، ولكنها كانت تبدو سعيدة طوال كانون الأول. ثمة مقاطع في يومياتها لكانون الثاني وشباط وآذار تنذر شراً إذا أمعنا النظر فيها. كان ليونارد شديد القلق عليها منذ ذلك الحين، ولكننا لا نجد شيئاً يتعلق بصحتها في يومياته حتى الثامن عشر من آذار، فقد كتب في هذا التاريخ : «فرجينيا بحالة غير حسنة» (على طريقته بالكتابة الرمزية حيث يشير إلى الكلمات بأحرفها الأولى). وبعد ستة أيام، في الرابع والعشرين من آذار، كتبت فرجينيا إلى جون ليمان تقول إنها لا تريد لرواية «بين الفصول» أن تنشر. ومنذ ذلك التاريخ أدرك ليونارد أن حالتها خطيرة جداً.

كان من أعراض الجنون الذي يصيب فرجينيا أنها لا تقر بمرضها العقلي، وكان إقحام هذه المعرفة عليها هو بذاته أمر مثقل بالخطر. ولكن ليونارد

أضحى بحلول السادس والعشرين من آذار على قناعة بضرورة هذه المجازفة وبوجوب إقناعها بزيارة الطبيب. وكان من الأفضل كثيراً لهذا الغرض أن تذهب إلى طبيب تعرفه وتوده. وقد كان للزوجين صديقة طبيبة تمارس الطب في عيادتها في برايتون، وهي أوكتافيا ويلبرفورس Octavia Wil-berforce، وكانت تسكن مع الممثلة إليزابيث روبينز E. Robins وهي من صديقات أم فرجينيا. كانت كلتا هاتين السيدتين مفتتنة بفرجينيا. كانت الآنسة روبينز قد عادت إلى أمريكا سنة ١٩٤٠، أما أوكتافيا فكانت تمتلك مزرعة أيضاً فأخذت توافي فرجينيا بعطايا الزبدة والكريمة إلى قرية رودميل، بعد أن رأتها تزداد نحولاً وشحوباً. وقد قالت فرجينيا إنها تريد أن تكتب صورة قلمية لأوكتافيا وباشرت بشيء من هذا النوع، فأوكتافيا تأتي الآن لتجلس لها - أي لتتحدث معها. حين أتت في الحادي والعشرين من آذار لتناول الشاي أخبرها ليونارد بحقيقة الحال.

كانت أوكتافيا نفسها طريحة الفراش في الأيام الخمسة التالية. اتصل بها هاتفياً في السابع والعشرين من ذلك الشهر وقال إنه أقنع فرجينيا أن تأتي إليها كصديقة وكطبيبة معاً. كان صوت ليونارد ملحفاً، وكانت أوكتافيا في حالة يرثى لها فهي لا تكاد تستطيع حراكاً ولكنها أخفت هذه الحقيقة عن ليونارد بروح بطولية. اتفقا أن يأتي ليونارد بفرجينيا إلى برايتون عصر ذلك اليوم.

كانت المعاينة عسيرة. فقد قالت فرجينيا في الحال إنها لا تشكو من شيء على الاطلاق، وليس هناك ما يبرر خضوعها لاستشارة طبية، وأنها ستمتنع عن الإجابة عن أي سؤال.

قالت أوكتافيا : «كل ما عليك فعله هو تطمين ليونارد»، وأضافت أنها تعرف نوع الأعراض التي تعانيها فرجينيا وطلبت أن تفحصها. بدأت فرجينيا، وكأنها تسير في نومها، بخلع ملابسها ثم توقفت. قالت :

«هل تعديني، إذا نفّذت طلبك وخلعت ملابسي، ألا تأمريني بدخول مصح عقلي؟».

«أعدك أني لن آمرك بالقيام بشيء لا تحسبيه أنت معقولاً. فهل هذا منصف؟».

فوافقت فرجينيا واستمرت المعاينة تتخللها الاحتجاجات. كانت فرجينيا كالطفل الذي يرسل إلى سريره ويجبر على النوم. أخيراً أقرت بمخاوفها، فالماضي سيعود، وهي لن تستطيع الكتابة مرة أخرى. أجابتها الطبيبة أن إصابتها بهذا الإضطراب سابقاً وشفاءها منه أمر ينبغي أن يوحي بالثقة؛ وقالت إذا استأصلتِ زائدتك الدودية فلن يبقى بعدها سوى الندبة؛ إن المرض العقلي يمكن استئصاله بالطريقة نفسها إذا لم تلهبي الجرح بالتفكير فيه.

أخيراً تناولت يد فرجينيا فوجدتها باردةً، نحيلة؛ قالت: «إذا تعاونت معي فأنا أعلم أنني قادرة على مساعدتك، وليس هناك من أحدٍ في أنكلترا أود أن أساعده أكثر منك». عندئذٍ بدت فرجينيا أسعد قليلاً - «كانت مسرورة بتباعد» على حد تعبير أوكتافيا.

بعد ذلك تشاور ليونارد وأوكتافيا على انفراد. ما الذي سيفعلانه؟ هل توضع فرجينيا تحت رقابة ممرضة مدربة؟ قد يكون هذا إجراءً مدمراً. لكنهما شعرا معاً أن المشورة الطبية أثمرت شيئاً. عاد الزوجان إلى رودميل وعادت أوكتافيا إلى الفراش. وكتبت إلى فرجينيا قصاصة لطيفة لتطمينها على قدر الإمكان. في مساء اليوم التالي اتصلت بالمنزل هاتفياً، ولكن الوقت كان قد فات.

ففي صباح الجمعة، الثامن والعشرين من آذار، وكان يوماً بارداً، ألقاً، مشرقاً، ذهبت فرجينيا كعادتها إلى غرفة عملها في الحديقة. وهناك كتبت رسالتين، أولاهما إلى ليونارد، والأخرى إلى فانيسا، فهما اللذان تحبهما

حباً جماً. أوضحت في كلتا الرسالتين أنها تسمع أصواتاً، وأنها تعتقد أنها لن تشفى، وهي لا تريد الاستمرار في إفساد حياة ليونارد. ثم عادت إلى المنزل، وكتبت رسالة ثانية إلى ليونارد :

«أيها الأعز،

أنا واثقة أنني سأجنّ مرةً أخرى. وأشعر أننا لا نستطيع أن نعاني مجدداً شيئاً من تلك الأوقات الفظيعة. إني لن أشفى هذه المرة. بدأت أسمع الأصوات، ولا أستطيع التركيز. لذا فأنا فاعلة ما يبدو لي أنه أفضل شيء أفعله. لقد منحتني أعظم سعادة، وكنت دائماً الشخص الأمثل من جميع الجوانب. لا أظن أن هناك شخصين يمكنهما أن يكونا أسعد منا إلى أن جاء هذا الداء الوبيل. لا أستطيع المقاومة بعد الآن. أنا أعرف أنني أفسد عليك حياتك، ولكني أعرف أنك ستستطيع أن تعمل بدوني. أعرف أنك ستفعل. ألا ترى أنني لا أستطيع حتى كتابة هذه الرسالة على الوجه اللائق؟ أنا لا أستطيع القراءة. والذي أريد أن أقوله هو أنني مدينة بسعادتي كلها لك. كنت صبوراً معي كل الصبر وكنت طيّباً على نحو لا يصدق. أريد أن أقول هذا وهو ما يعرفه الجميع. لو كان هناك أحد ينقذني فهو أنت. لقد زايلني كل شيء إلا الثقة بطيبتك. لا أستطيع الاستمرار في إفساد حياتك بعد الآن.

لا أظن أن هناك شخصين يمكنهما أن يكونا أسعد مما كنا.

«ف»

وضعت هذه الرسالة على رف الموقد في غرفة الجلوس، وفي نحو الساعة الحادية عشرة والنصف تسللت إلى الخارج ومعها عصاها واتخذت

طريقها عبر الحقول نحو النهر. ويعتقد ليونارد أنها ربما كانت قد قامت قبل ذلك بمحاولة أخرى للغرق ؛ إن كان الأمر كذلك فقد تعلمت إذن من فشلها وصممت أن تتقن محاولتها هذه المرة. تركت عصاها على ضفة النهر ودسّت حجراً كبيراً في جيب المعطف. ثم مضت إلى ميتتها، فكانت، كما سبق أن قالت لفيتا، هي «التجربة التي لن أصفها أبداً».

جدول زمني

ملحق الجزء الأول :

١٨٧٨ :	
٢٦ آذار :	زواج لزلي ستيفن من جوليا برنسيب داكوورث. أو ترجمة أخرى : معجم الرجال (راجع ما سبق). سكنا في ٢٢ هايد بارك كيت، كنسغتون حيث ولد صغارهم الأربعة.
١٨٧٩ :	
٣٠ أيار :	ولادة فانيسا ستيفن.
١٨٨٠ :	
٨ أيلول :	ولادة جوليان ثوبي ستيفن.
١٨٨١ :	
أيلول :	لزلي ستيفن يشتري بيت كالاند في سانت آيفز حيث أمضت الأسرة مواسم الصيف من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٤.
١٨٨٢ :	
٢٥ كانون الثاني :	ولادة أديلين فرجينيا ستيفن.
تشرين الأول	لزلي ستيفن يبدأ العمل كمحرر «لمعجم السير القومية».
١٨٨٣ :	
٢٧ تشرين الأول :	ولادة أدريان لزلي ستيفن.

١٨٨٨ :

نيسان : جميع صغار ستيفن يصابون بالسعال الديكي، ويقضون شهر أيار للنقاهة في باث مع جدتهم لأمهم مسز جاكسون.

١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ :

الشتاء : مارغريت (ماج) سايموندز، البالغة عشرين سنة من العمر، تقضي بضعة شهور في ٢٢ هايد بارك كيت.

١٨٩١ :

كانون الثاني : ثوبي يذهب إلى ثانوية إفلين في هيلينغدون.

شباط : [صحيفة] «أخبار هايد بارك كيت» تبدأ بالصدور.

نيسان : لزلي ستيفن يتخلى عن تحرير المعجم.

١٨٩٢ :

كانون الثاني : أدريان يذهب إلى مدرسة إفلين.

٣ شباط : وفاة جي. كي. ستيفن.

٢ نيسان : وفاة مسز جاكسون في ٢٢ هايد بارك كيت.

١٨٩٤ :

شباط : فانيسا وفرجينيا تذهبان للإقامة مع مستر ومسز جي. إف. واطز في ليمنرزليس، غيلفورد.

١١ آذار : وفاة السر جيمس فيتزجيمس ستيفن.

أيلول : ثوبي يذهب إلى كلية كلفتون في بريستول.

١٨٩٥ :

أواسط شباط : مسز لزلي ستيفن تمرض بالأنفلونزا.

١١ نيسان : جورج وستيلا وجيرالد داكوورث يسافرون

للخارج.

٥ أيار : وفاة مسز لزلي ستيفن.

الصيف : أسرة ستيفن تقضيه في فرشووتر بجزيرة رايت. فرجينيا تصاب بأول إنهيار عصبي.

تشرين الثاني : كارولين إميليا ستيفن تقيم في كيمبردج ؛ فانيسا وفرجينيا تقيمان معها مراراً، خاصةً بعد أن يذهب ثوبي إلى كيمبردج في ١٨٩٩.

بيع بيت تالاند في سانت آيفز.

١٨٩٦ :

الصيف : فانيسا تبدأ بالذهاب إلى دروس الرسم.

أسرة ستيفن في بيت هند هيد في هازلمير.

٢٢ آب : ستيلا داكوورث تقبل الزواج من جاك هيلز بعد أن رفضته مرتين.

٢٤ أيلول : أدريان يدخل مدرسة ويستمنستر.

تشرين الثاني : فرجينيا وفانيسا تسافران إلى شمال فرنسا لمدة أسبوع مع جورج داكوورث والخالة مينا.

١٨٩٧ :

٣ كانون الثاني : فرجينيا تبدأ بمسك يوميات منتظمة.

٨ ـ ١٣ شباط : فرجينيا تذهب إلى بوغنور مع فانيسا وستيلا وجاك هيلز.

١٥ شباط : فرجينيا يسمح لها ببدء الدروس ثانيةً.

١٠ نيسان : زواج ستيلا داكوورث من جاك هيلز.

١٢ ـ ٢٨ نيسان : أسرة ستيفن في هوف ؛ الاتصال اليومي بأسرة فيشر.

٢٨ نيسان : العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت ليجدوا ستيلا

مريضة بالتهاب الحجاب الحاجز في بيتها الجديد رقم ٢٤ هايد بارك كيت.

٢ أيار : يعلن عن زوال الخطر عن ستيلا.

٩ أيار : فرجينيا يعاينها الدكتور سيتون ؛ إيقاف دروسها ويوصف لها الحليب والدواء.

٥ حزيران : ستيلا مريضة ثانيةً.

٢٢ حزيران : اليوبيل الماسي للملكة فكتوريا ؛ فانيسا وفرجينيا وثوبي يشاهدون الموكب من مستشفى سانت توماس.

١٨٩٧ :

١١ تموز : فرجينيا محمومة ومريضة.

١٩ تموز : موت ستيلا.

٢٨ تموز ـ ٢٣ أيلول : أسرة ستيفن في أبرشية بنزويك في غلوسترشر.

٢٥ أيلول ـ ٢ تشرين أول : فانيسا وفرجينيا تذهبان مع جاك هيلز لزيارة والديه في قلعة كوربي في كارليل.

تشرين الثاني : فرجينيا تحضر صفوف اليونانية والتاريخ في كلية الملك بلندن.

نيسان : أسرة ستيفن تقضي عطلة عيد الفصح في هوف

٢١ ـ ٢٢ أيار : فانيسا وفرجينيا تزوران قريباتهما في كيمبريدج وغودمانشستر.

٢٥ حزيران : فانيسا وفرجينيا تذهبان إلى كلفتون لزيارة ثوبي.

٩ تموز : فانيسا وفرجينيا وآخرون يذهبون إلى The Fens لصيد الفراشات.

٢٨ تموز : زواج وليام فوغان، ابن خالة فرجينيا، من ماج سايموندز، فانيسا وصيفة العروس.

آب وأيلول : أسرة ستيفن في دار ماندر في رنغهولد.

٢١ أيلول : العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت.

١٧ تشرين أول : بدء الفصل الدراسي في كلية الملك ؛ فرجينيا تدرس اللاتينية مع الآنسة باتر واليونانية مع الدكتور وار.

١٨٩٩ :

١٢ ـ ٢٨ نيسان : أسرة ستيفن في هوف. ثوبي يصاب بذات الرئة.

آب وأيلول : أسرة ستيفن في الأبرشية في ووربويز في هنتنغدوينشر.

٢١ أيلول : العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت.

٣ تشرين أول : ثوبي يدخل كلية ترينيتي في كيمبردج مع ليتون ستراجي وساكسون سدني - تيرنر وليونارد وولف وكلايف بيل.

١٩٠٠ :

آذار : فرجينيا تصاب بالحصبة.

نيسان : عيد الفصح في هوف. فانيسا تذهب إلى باريس لمدة أسبوع في ١٨ نيسان.

١٢ (؟) نيسان : فرجينيا تذهب إلى حفلة البالو لكلية ترينيتي مع ثوبي وفانيسا وآخرين. «معجم السير القومية» يتم بثلاث وستين مجلداً.

٦ تموز : فانيسا وفرجينيا تذهبان مع جاك هيلز إلى هنلي.

٧ تموز :	تذهبان مع جورج داكوورث إلى كرابيت من أجل مزاد للخيول.
آب وأيلول :	أسرة ستيفن في دار فيرتوم في هامشاير. لزلي ستيفن منحرف الصحة.
١٧ أيلول :	العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت.
تشرين أول :	فرجينيا تحضر الصفوف في كلية الملك.
١٩٠١ :	
٤ نيسان :	أسرة ستيفن تقضي أسبوعين في Little Park في Lyme Regis ؛ ماج وزوجها قريبان إذ يقيمان مع أم ماج.
٨ ـ ٩ حزيران :	فانيسا وفرجينيا في كيمبريدج.
١ آب ـ أواسط أيلول :	أسرة ستيفن تذهب إلى Fritham House. في Lyndhurst.
أيلول :	فانيسا تدخل مدارس الأكاديمية الملكية.
تشرين أول :	فرجينيا تباشر هواية تجليد الكتب.
٢٥ ـ ٢٦ تشرين ثاني :	فانيسا وفرجينيا تصحبان أبوهما إلى أكسفورد حيث تلقى دكتوراه فخرية في الآداب.
١٩٠٢ :	
كانون ثاني :	فرجينيا تبدأ دروساً خاصة لتعلم اليونانية مع الآنسة جانيت كيس.
١ نيسان :	لزلي وثوبي وفرجينيا وأدريان ستيفن يذهبون إلى Hindhead Copse في Haslemore ؛ فانيسا وجورج داكوورث يذهبان إلى روما وفلورنسا لثلاثة أسابيع. الرحلة تقطع لمرض لزلي ستيفن.

٢٦ حزيران : لزلي ستيفن يمنح وسام .K.e.B في قائمة التكريم بيوم التتويج.

٣١ تموز : أسرة ستيفن تذهب إلى فريتام. وبينهم كلايف بيل، فيوليت دكنسون التي أصبحت الآن أقرب صديقات فرجينيا وستظل كذلك لسنين.

١٩ أيلول : العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت. أسرة ستيفن تقتني بيانو صغير Pianola.

تشرين الأول : أدريان يدخل كلية ترينيتي، كيمبريدج ؛ ثوبي يعود إليها لسنة أخرى.

١٢ كانون الأول : لزلي ستيفن تجرى له عملية جراحية.

١٩٠٣ :

٦ كانون الثاني : لزلي ستيفن يعود من المستشفى للبيت.

شباط : نظراً لمرضه يتسلم وسامه في البيت.

٣١ تموز : أسرة ستيفن تذهب إلى Nether lampton House في سالزبيري. وزيارات إلى محلات أخرى.

١٨ أيلول : العودة إلى ٢٢ هايد بارك كيت. السر لزلي يموت ببطء.

تشرين الأول : فرجينيا تستأنف دروس اليونانية مع الآنسة كيس ؛ فانيسا في مدارس الأكاديمية الملكية ؛ ثوبي يتهيأ للامتحان لدخول سلك القانون.

١٤ تشرين الثاني : السر لزلي يملي آخر يومية في كتاب Mausoleum Book على فرجينيا.

١٩٠٤ :

٢٢ شباط : وفاة السر لزلي ستيفن.

٢٧ شباط ـ ٢٥ آذار : فانيسا وثوبي وأدريان وفرجينيا مع جورج داكوورث في Manorbier.

١ نيسان : فانيسا وثوبي وفرجينيا وأدريان يذهبون إلى فنيسيا مع جيرالد داكوورث.

١٣ نيسان : أبناء ستيفن يذهبون من هناك إلى فلورنسا، حيث تنضم إليهم فيوليت دكنسون. أدريان يعود إلى كيمبريدج في ٢٠ نيسان ؛ ثوبي يغادر في رحلة مشي. فانيسا وفرجينيا وفيوليت يزرن براتو وسيينا وجنوة.

١ أيار : فانيسا وفرجينيا مع فيوليت يلتحقن بثوبي في باريس حيث يحتفي بهم كلايف بيل وجيرالد كيلي ويلتقون بالليدي بياتريس ثاين. يزورون ستوديو رودان وستوديو كيلي.

٩ أيار : فانيسا وفرجينيا، يصحبهما جورج داكوورث، تعودان إلى ٢٢ هايد بارك كيت.

١٠ أيار : بداية الانهيار الخطير الثاني لفرجينيا ؛ في البداية عالجها الدكتور سافج بعناية ثلاث ممرضات ؛ بعدئذ قضت مع الممرضة تريل حوالى ثلاثة أشهر في منزل فيوليت دكنسون في ويلوين ؛ هناك أصيبت كذلك بالحمى القرمزية.

النصف الثاني من آب : آل ستيفن في Nottinghamshire Teversal لقضاء عطلة الصيف ؛ فرجينيا والممرضة تريل تلتحقان بالأسرة هناك ؛ إنها في دور النقاهة وتستطيع الدراسة قليلاً وتذهب للمشي.

أيلول :	فيوليت دكنسون تقيم في تريفرسال.
١٠ أيلول :	جورج داكوورث يتزوج من الليدي مارغريت هيربرت. فانيسا وثوبي وأدريان يحضرون العرس.
أواخر أيلول :	مارجري سنودون وكلايف بيل يقيمان في تريفرسال.
٨ تشرين أول :	آل ستيفن يعودون الى لندن : فرجينيا وفانيسا تقيمان مع بيّت Booth خلال الانتقال من منزلهم الى ٤٦ ميدان غوردون، بلومزبيري.
١٨ تشرين أول :	فرجينيا تذهب إلى كيمبريدج للبقاء مع عمتها كارولين، إنها تساعد F.W. Maitland في كتابته لسيرة أبيها.
٨ ـ ١٨ تشرين الثاني :	فرجينيا في ٤٦ ميدان غوردون ؛ تبدأ بإرسال المقالات إلى مسز ليتلتون محررة الملحق النسوي للغارديان. ليونارد وولف يتعشى في بيت ستيفن في ١٧ منه قبل الإبحار إلى سيلان.
١٨ ـ ٢٩ تشرين الثاني :	فرجينيا تقيم مع ماج وزوجها في -Liggles wick.
٣ ـ ١٠ كانون الأول :	فرجينيا مع عمتها في كيمبريدج.
١٤ كانون الأول :	أولى منشورات فرجينيا، عرض غير موقع، ظهر في الغارديان.
٢١ كانون الأول :	آل ستيفن يذهبون إلى Bank قرب -Lynd hurst لقضاء الكرسمس.

١٩٠٥ :

٤ كانون الثاني : العودة إلى ميدان غوردون.

١٤ كانون الثاني : فرجينيا «تسرَّح مشافاة» من قبل الدكتور سافج ؛ تباشر بتدريس صف أسبوعي في كلية مورلي.

١٦ شباط : ثوبي ستيفن يبدأ «أمسيات الخميس» في ٤٦ ميدان غوردون.

١ آذار : حفلة تدشين الدار الرسمية في ٤٦ ميدان غوردون

١٥ آذار خدعة «سلطان زنجبار» من قبل أدريان وهوراس كول وآخرين في كيمبريدج.

٢٩ آذار : فرجينيا وأدريان يبحران من لفربول إلى أويورتو بالباخرة، ويصلان في ٥ نيسان ؛ يزوران لشبونة وأشبيلية وغرناطة ؛ في ٢٠ نيسان يأخذان الباخرة من لشبونة ويصلان لفربول يوم أحد الفصح في ٢٣ منه.

٢٤ نيسان : العودة إلى ٤٦ ميدان غوردون.

حزيران وتموز : فرجينيا تزور زيارة قصيرة هربرت وليتيس فيشر في أكسفورد ؛ ومنها إلى كيمبريدج (الحفلة بالوكلية ترينيتي) ؛ منها إلى فرشفيلدز في ساسكس ؛ منها إلى أسرة جورج يونغ في قصر فرموزا في كوكهام.

١٠ آب : كلايف بيل يطلب يد فانيسا وفانيسا ترفض. آل ستيفن يذهبون إلى Trevose View في Carbis Bay (قرب سانت آيفز) لقضاء عطلة

الصيف.

٥ تشرين الأول : العودة إلى لندن.

١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ :

الخريف والشتاء : كل أبناء ستيفن الأربعة في ميدان غوردون : فرجينيا تكتب وتنقد وتعلم في كلية مورلي، ثوبي وأدريان يدرسان القانون. فانيسا تنظم نادي الجمعة. «أمسيات الخميس» مستمرة.

١٩٠٦ :

١٢ ـ ٢٥ نيسان : فرجينيا في غيغليزويك تقيم مع مسز تيرنر قريباً من ماج وزوجها ؛ فانيسا تنضم إليها في ٢١ منه بعد أن رسمت صورة اللورد روبرت سيسيل في Chalwood Gate.

حزيران وتموز : فرجينيا تزور زيارات قصيرة لعمتها في كيمبريدج ؛ لليدي روبرت سيسيل في جيلوود كيت ؛ لفيوليت دكنسون في ولوين ؛ لإيتون لحضور زواج دزموند مكارثي من ماري وار كورنيش في ١٠ تموز.

٣ ـ ٣١ آب : فانيسا وفرجينيا في نورفولك ؛ ثوبي وأدريان يبقيان يومين ثم يعودان إلى لندن ويغادران إلى تريسته في ١٠ آب.

٨ أيلول : فرجينيا وفانيسا وفيوليت دكنسون يغادرن لندن إلى اليونان ؛ يلاقين ثوبي وأدريان في أولمبيا في ١٣ منه. كلهم يذهبون عن طريق كورنيث إلى أثينا، ومنها إلى نوبليا بالمركب للذهاب إلى أبيدوروس وتايرنز ومسين ؛ فانيسا مريضة في

كورنيث في رحلة العودة.

١ ـ ٥ تشرين أول :	فرجينيا وأخواها يزورون الزوجان نويل في Achmetaga ؛ فانيسا تذهب مع فيوليت إلى أثينا حيث هي طريحة المرض لأسبوعين.
٢١ تشرين أول :	ثوبي يعود إلى إنكلترا ؛ الآخرون يذهبون إلى إسطنبول حيث تمرض فانيسا ثانيةً.
٢٩ تشرين أول :	فانيسا وفرجينيا، أدريان وفيوليت يعودون إلى إنكلترا بقطار الشرق السريع فيصلون لندن في ١ تشرين ٢.
تشرين ثاني :	ثوبي وفانيسا كلاهما مريض في الفراش في المنزل.
٢٠ تشرين ثاني :	ثوبي ستيفن يموت بحمى التيفود.
٢٢ تشرين ثاني :	فانيسا توافق على الزواج من كلايف بيل.
كانون الأول :	وولتر هيدلام يعرض أن ينقد كتابات فرجينيا، ويطلب أن يهدي ترجمته لأغاممنون إليها.
٢١ كانون الأول :	فرجينيا وأدريان يذهبان إلى Lano End, Bank لقضاء الكرسمس. فانيسافي Cleave House بويلتشاير مع أسرة كلايف بيل.
٣١ كانون الأول :	فرجينيا وأدريان يذهبان إلى هناك.

١٩٠٧ :

٣ كانون الثاني :	فرجينيا وأدريان يعودان إلى لندن لقضاء ليلة واحدة ثم يزوران زيارة قصيرة بيت بوث في لسترشر.
٧ شباط :	زواج فانيسا ستيفن من كلايف بيل في مكتب

التسجيل بسانت بانكراس.

شباط : فرجينيا تفتش عن منزل. تزور عمتها بين ١٦ ـ ١٨ منه ؛ كذلك تبقى مع فيوليت في ولوين. لقاءات ومراسلات مع وولتر هيدلام.

٢٣ ـ ٢٥ آذار : فرجينيا وأدريان ينامان في منزل فيوليت في ميدان مانشستر بينما يجري النقل إلى ٢٩ ميدان فيتزروي.

٢٨ آذار : فرجينيا وأدريان يذهبان إلى باريس مع كلايف وفانيسا ؛ لقاءات مع دانكان غرانت.

١٠ نيسان : فرجينيا وأدريان يعودان إلى لندن ويتخذان إقامتهما في منزلهما الجديد بميدان فيتزروي.

أيار ـ تموز : فرجينيا تزور زيارات قصيرة كيمبريدج وكليفهاوس.

٨ آب : فرجينيا وأدريان يذهبان إلى Rye لقضاء عطلة الصيف.

٢٦ آب : الزوجان كلايف يذهبان إلى هناك.

٢٦ أيلول : فرجينيا تعود إلى ٢٩ ميدان فيتزروي. تستأنف التدريس في كلية مورلي ؛ وتوافق على أن تجلس [للرسام] فرانسيس دود Dodd ليرسم صورتها.

تشرين أول : فرجينيا تعمل في كتابة روايتها (Melymbro-sia) ؛

كانون أول : هي وأدريان يبدآن «أمسيات الخميس» في ميدان فيتزروي ؛ تذهب إلى أكسفورد، لبعض الوقت لتقيم مع بعض الأصدقاء ؛ وتقرر ترك التدريس.

٢١ كانون أول : بدء «جمعية القراءات المسرحية» في ٤٦ ميدان غوردون : فانيسا وكلايف، فرجينيا وأدريان، ليتون ستراجي وسدني ـ تيرنر ؛ يجتمعون تسع اجتماعات لاحقة لحين ٢٤ أيار ١٩٠٨.

١٩٠٨ :

٤ شباط : ولادة جوليان بيل في ٤٦ ميدان غوردون.

١٧ نيسان : فرجينيا تذهب إلى سانت آيفز ؛ ينضم إليها أدريان في ٢٣ منه والزوجان بيل في ٢٤ منه.

٢ أيار : فرجينيا تعود إلى لندن.

الصيف : فرجينيا وأدريان يتلقيان دروساً بالألمانية من الآنسة دانيال.

٢٠ حزيران : وفاة وولتر هيدلام.

تموز : زيارات نهارية تقوم بها فانيسا لعمتها الليدي ستيفن في غودمانشستر ولفيوليت في ويلوين. تجلس لفرانسيس دود ليرسمها.

١ ـ ١٧ آب : فرجينيا (مع كلبين) تقيم في نزل في ويلز ؛ رحلات إلى Glastonbury و Cheddar ؛ وتقابل مرتين الزوجان بيل في باث.

١٨ ـ ٣١ آب : فرجينيا في نزل بمانوربير ؛ رحلة إلى تنبي. ١٠٠ صفحة تكمل من رواية مليمبروزيا.

٣ أيلول : فرجينيا تذهب مع بيت بيل إلى إيطاليا ؛ يبقون في سييناوبيروغيا ؛ ويزورون بافيا وأسيسي. ويعودون في ٢٤ منه إلى باريس لمدة أسبوع.

١ تشرين أول : العودة إلى لندن. «أمسيات الخميس» في ميدان فيتزروي تبدأ ثانيةً.

٢٧ تشرين أول :	جمعية القراءات المسرحية تستأنف اجتماعاتها بعد انقطاع خمسة أشهر ؛ خمسة اجتماعات خلال الشتاء.
١٢ (؟) ـ ١٧	فرجينا وأدريان في The Lizard مع ليتون ستراجي.
تشرين ثاني :	فرجينيا تقوم بزيارة قصيرة إلى ليدي ستيفن في غودمانشستر.
الكرسمس :	فرجينيا وأدريان في البيت.
١٩٠٩ :	
١٥ كانون الثاني :	الاجتماع الأخير لجمعية القراءات المسرحية لحين إحيائها في ٢٩ تشرين أول ١٩١٤.
أواخر كانون الثاني وأواسط آذار :	لعبة كتابة الرسائل بين فرجينيا و فانيسا وكلايف وليتون ستراجي وولتر لامب وساكسون سدني ـ تيرنر وأدريان.
أوائل شباط :	سبع فصول من رواية مليمبروزيا تقرأ وتنقد من كلايف .
١٣ ـ ١٥ شباط :	فرجينيا تزور بيت فيشر في أكسفورد.
١٧ شباط :	ليتون ستراجي يقترح الزواج من فرجينيا.
نهاية شباط :	آخر زيارات فرجينيا لعمتها كارولين في كيمبريدج.
٢ (آذار) :	فرجينيا تذهب مع بيت بيل إلى The Lizard ؛ تعود إلى ميدان فيتزروي في ٩ منه ؛ يبقى بيت بيل هناك حتى ١٩ منه.
١٩٠٩ :	
٣٠ آذار :	فرجينيا تتعشى لأول مرة مع الليدي أوتولين

موريل.

٧ نيسان : موت العمة كارولين ستيفن ؛ فرجينيا تحضر حرق جثتها في ١٤ منه ؛ تترك تركة بـ ٢٥٠٠ باون.

٢٣ نيسان : فرجينيا تذهب مع كلايف وفانيسا إلى فلورنسا.

٩ أيار : فرجينيا تعود وحدها إلى لندن.

١٥ ـ ١٧ أيار : فرجينيا تذهب إلى كيمبريدج للبقاء مع The Verralls، خطوبة هيلتون يونغ لها.

٢٢ ـ ٢٤ أيار : فرجينيا تبقى مع بيت فيشر فيلد في فورست راو.

الصيف : الليدي أوتولين موريل تأتي إلى أمسيات الخميس.

٦ حزيران ـ ١٦ تموز : أدريان يمسك يوميات.

٥ آب : فرجينيا تذهب إلى بايروث مع أدريان وسدني ـ تيرنر لحضور مهرجان واغنر.

٢٢ آب : يذهبون من هناك إلى دريسون.

٣ (؟) أيلول : فرجينيا وأدريان يعودان إلى لندن.

١٠ ـ ١٣ أيلول : فرجينيا تلتقي ببيت بيل في سالزبري ؛ هي تعود إلى لندن، وهم إلى كليفهاوس.

١٦ أيلول ـ ٢ تشرين أول : فرجينيا في ستودلاند حيث تستأجر عشة قرب نزل بيت بيل في كليفهاوس ؛ مجيء أدريان ؛ وولتر لامب يقيم مع بيت بيل من ٢٣ أيلول.

١٠ تشرين أول : صحيفة The Cornhill تنشر «مذكرات

روائية».

٢٧ـ٢٩ تشرين أول :	فرجينيا تقيم مع بيت جورج دارون في كيمبريدج ؛ وتحضر مسرحية The Wasps ؛ تتغدى وتمضي العصر مع ليتون ستراجي قبل العودة إلى لندن.
٢٤ ـ ٢٨ كانون أول :	فرجينيا وحدها في ليلانت بكورنوول.
١٩١٠ :	
كانون الثاني :	فرجينيا تتطوع للعمل لحركة حق الانتخاب للمرأة.
١٠ شباط :	خدعة الباخرة دريدنوط (خدعة المدرعة).
٢٥ شباط :	روجر فراي يتحدث لنادي الجمعة.
٥ ـ ١٠ آذار :	فرجينيا وكلايف وفانيسا يقومون برحلة غير مقررة إلى ليلانت في كورنوول ؛ فرجينيا مريضة بعد العودة.
٢٦ آذار :	فرجينيا تذهب مع الزوجين بيل إلى نزل في هاريرفيو بستودلاند لثلاثة أسابيع راحة.
١٦ نيسان :	فرجينيا تعود إلى لندن ؛ صحتها تظل قلقة طيلة الصيف.
أوائل حزيران :	فرجينيا وأدريان يزوران جورج داكوورث وزوجته ليوم في شالفونت سانت فايلز ؛ كذلك تذهب مع كلايف بيل ليوم لزيارة بيت يونغ في قصر فرموزا.
٧ حزيران :	فرجينيا تذهب مع بيت بيل وطفلهم والخدم إلى موت هاوس في بلين قرب كانتربري.

٢١ حزيران :	فانيسا تعود إلى لندن وتشاور الدكتور سافج بشأن صحة فرجينيا.
٣٠ حزيران ـ ١٠ آب :	فرجينيا تباشر علاج الاستراحة في المصح الخاص للآنسة توماس في بيرلي بارك بتويكنهام.
١٦ آب ـ ٦ أيلول :	فرجينيا تذهب برحلة مشي إلى كورنوول مع جين توماس.
١٩ آب :	ولادة كوينتين بيل في ٤٦ ميدان غوردون.
٦ أيلول :	فرجينيا تعود إلى لندن.
١٠ أيلول :	فرجينيا تذهب إلى ستودلاند مع سدني ـ تيرنر للالتحاق بكلايف وجوليان بيل؛ فانيسا تصل مع طفلها في ١٣ منه.
١٠ تشرين الأول :	فرجينيا تعود إلى لندن.
١٥ ـ ١٨ تشرين الأول :	فرجينيا تبقى في كورت بليس بأوكسفورد مع بيرسال سميث وآل كوستيللو.
٨ تشرين الثاني :	أول معرض لما بعد الانطباعيين (مانيه وما بعد الانطباعيين)، وقد نظمه روجر فراي، يقام في غرافتون غاليري بلندن.
تشرين الأول ـ كانون الأول :	فرجينيا تستأنف نشاطها لحركة حق التصويت للمرأة؛ تزور الآنسة توماس في تويكنهام؛ تقضي عطلة نهاية الأسبوع مع آل كورنيس في إيتون؛ وأخرى مع فيوليت دكنسون في ويلوين.
٢٤ كانون الأول :	فرجينيا وأدريان يبقيان أسبوعاً في لويز؛ هي تزور سدني تيرنر ووالديه في برايتون؛ الآنسة

	توماس توافيها ليوم ؛ تجد بيتاً لتستأجره في Firle.
١٩١١ :	
١ كانون الثاني :	فرجينيا وأدريان يعودان إلى ٢٩ ميدان فيتزروي خلال كانون الثاني تتسلم بيت تالاند الصغير في فيرل وتبدأ بتأثيثه.
١٩ ـ ٢٣ كانون الثاني :	فرجينيا تبقى في كورت بليس وفي باغلي وود قرب أكسفورد ؛ تلتقي بكاترين (كا) كوكس. فرجينيا وفانيسا في فيرل يكملان التأثيث.
٤ ـ ٦ شباط : نيسان :	فرجينيا في فيرل مع خادمين. إكمال ثمانية فصول رواية مليمبروسيا.
٢٢ نيسان :	فرجينيا تغادر إلى بورصة في تركيا حيث تمرض فانيسا وكانت تسافر مع كلايف وروجر فراي ونورتون.
٢٩ نيسان :	فرجينيا تعود مع الزوجين بيل وروجر فراي بقطار الشرق السريع.
أيار وحزيران :	فرجينيا في الغالب في ٢٩ ميدان فيتزروي، مع زيارات إلى فيرل حيث بقيت معها كاكوكس ؛ وذهبت إلى كيمبريدج لحضور زواج جاك رافيرات [الرسام الفرنسي] من غوين داروين في ٢٧ أيار ؛ وإلى ديربنز في فيلنورد (حيث منزل روجر فراي).
٣ تموز :	ليونارد وولف، بالإجازة من سيلان، يتعشى في بيت بيل في ٤٦ ميدان غوردون ؛ فرجينيا ودانكان غرانت ووولتر لامب يأتون بعد

	العشاء.
تموز :	فرجينيا وأدريان يقرران التخلي عن ٢٩ ميدان فيتزروي لصالح نظام جديد في المعيشة ؛ ينظران في المشاركة ببيت في ميدان بدفورد مع أصدقاء.
٢٠ تموز :	فرجينيا وولتر لامب يقومان برحلة في رجموند بارك ؛ تصريحه بحبه.
٢٢ ـ ٢٥ تموز :	فرجينيا في فيرل ؛ جانيت كيس تبقى يومين.
٢٧ تموز ـ ٩ آب :	فرجينيا تزورفانيسا في غيلفورد حيث تمضي نقاهتها.
١٢ - ١٤ آب	فرجينيا تقيم مع فيليب موريل وزوجته الليدي أوتولين في بيردكومن.
١٤ ـ ١٩ آب :	فرجينيا تقيم في الأبرشية القديمة بفرانشستر مع [الشاعر] روبيرت بروك.
١٩ ـ ٢٦ آب :	فرجينيا في فيرل مع خادمتيها صوفيا ومود.
٢٧ ـ ٣٠ آب :	فرجينيا وكاكوكس يذهبان إلى مخيم في ديفون مع روبيرت بروك و [الاقتصادي] كينز وآخرين.
٣١ آب :	فرجينيا تعود إلى فيرل.
١٦ ـ ١٩ أيلول :	ليونارد وولف ومارجري ستراجي يقيمان مع فرجينيا في فيرل.
١٩ ـ ٢٧ أيلول :	فرجينيا في نزل بستودلاند قرب بيت بيل ؛ ليتون ستراجي وفراي مع أسرته في ستودلاند كذلك.
تشرين الأول :	فرجينيا تدخل في مفاوضات عن دار آشام في

	بدينغهام وعن منزل ٣٨ ميدان برونزويك في بلومزبيري. تذهب إلى الحفلة الموسيقية the kinycycle [لفاغنر] في حدائق كومتينت ؛ وترى ليونارد وولف مراراً.
٤ ـ ٦ تشرين الأول :	فرجينيا تذهب إلى كيمبريدج للبقاء مع بيت كورنفورد.
١١ ـ ١٤ تشرين الأول :	فرجينيا مع فانيسا وأدريان (ودانكان غرانت؟) يذهبون إلى فيرل ؛ يذهبون لرؤية دار آشام وأخذ مقاساته.
١٤ ـ ١٩ تشرين الأول :	فرجينيا تنام في ٤٦ ميدان غوردون أثناء تهيئة بيتها الجديد.
٢٠ تشرين الأول :	فرجينيا تبدأ السكن في ٣٨ ميدان برونزويك، البيت الذي يشارك فيه أدريان، وكينز، ودانكان غرانت، وبعد ٤ كانون الأول ليونارد وولف.
٦ كانون الأول :	فرجينيا تكتب إلى سدني ووترلو أنها لا تستطيع أن تحبه. تذهب إلى فيرل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع فانيسا.
يوم الكرسمس :	حفلة غداء في ٤٦ ميدان غوردون : آل بيل، فرجينيا، ليونارد وولف، كينز، دانكان غرانت. أدريان في مصح.
١٩١٢ :	
١١ كانون الثاني :	ليونارد وولف يأتي من سمرست ليخطب فرجينيا في لندن.
١٣ ـ ١٥ كانون الثاني :	فرجينيا في فيرل.

١٦ ـ ١٩ كانون الثاني : فرجينيا تذهب إلى جزيرة رايت للبقاء مع فانيسا ؛ تمرض عند عودتها إلى لندن.

٣ ـ ٥ شباط : حفلة فرجينيا لتدشين دار آشام، مع أدريان ومارجري ستراجي وليونارد وولف.

٩ ـ ١٢ شباط : حفلة آل بيل لتدشين دار آشام، مع فرجينيا وأدريان ودانكان غرانت وروجر فراي وليونارد وولف.

١٦ شباط : فرجينيا تدخل مصح الآنسة توماس في تويكنهام لعلاج الاستراحة.

٢٨ شباط : فرجينيا تذهب إلى آشام للمزيد من الراحة والهدوء.

آذار : فرجينيا تقضي ثلاثة أسابيع عطل نهاية أسبوع في آشام : واحدة مع فانيسا، وواحدة مع كاكوكس والثالثة في ١٦ منه مع فانيسا وأدريان وليونارد وولف وروجر فراي ومارجري ستراجي.

٩ آذار : فرجينيا تراجع طبيباً نفسانياً هو الدكتور رايت.

نيسان : فرجينيا في الغالب في آشام ؛ من ضيوفها هناك ليونارد وولف وكاكوكس.

٢ أيار : فرجينيا تعود إلى لندن.

٧ أيار : استقالة ليونارد وولف تقبل من وزارة المستعمرات.

٢٩ أيار : فرجينيا ستيفن توافق على الزواج من ليونارد وولف.

ملحق الجزء الثاني :

١٩١٢ :

٤ ـ ٦ حزيران :	فرجينيا متوعكة في الفراش ؛ ولبقية حزيران وتموز منشغلة جداً بتعريف ليونارد لأصدقائها وأقربائها، وبالالتقاء بأسرته، وقد قضت نهايات الأسابيع في آشام منها واحدة في والبزرويك.
١٠ آب :	زواج فرجينيا ستيفن وليونارد وولف في مكتب التسجيل بسانت بانكراس. يذهبان إلى آشام ليومين، ويعودان إلى لندن، ثم يقيمان في نزل بسومرست.
١٨ آب :	ليونارد وفرجينيا يغادران عن طريق دييب لشهر العسل الذي قضي بالترحال في برفانس وأسبانيا ومن ثم بحراً إلى إيطاليا، يصلان البندقية في ٢٨ أيلول.
٣ تشرين أول :	الزوجان يعودان إلى ٣٨ ميدان برونزويك. في ٨ منه يبدأ ليونارد العمل كسكرتير للمعرض الثاني لما بعد الانطباعيين في صالات غرافتون (حتى ٢ كانون الثاني).
أواخر تشرين الأول :	الزوجان ينتقلان إلى شقة في ١٣ نزل كليفورد بلندن ؛ يتنقلان بينها وبين آشام.
كانون الأول :	فرجينيا متوعكة بالصداع، وليونارد مصاب بالملاريا. في آشام بالكرسمس وثانية في أوائل العام الجديد.

١٩١٣ :

كانون الثاني :	ليونارد يشاور الأطباء حول الحكمة من إنجاب فرجينيا للأطفال. هي تقاسي من الصداع والتأرق. هو يبدأ في ١٣ منه بمسك سجل يومي بحالتها الصحية.
٢٥ كانون الثاني ـ ١ شباط :	الزوجان وولف يقيمان في ستودلاند من أجل صحة فرجينيا ويعودان إلى لندن لأسبوعين ثم يقضيان عطلة نهاية أسبوع طويلة في آشام.
٢ ـ ٣ آذار :	الزوجان في ديجلنغ مع بيت Gill.
٩ آذار :	مسودة رواية «الرحلة الخارجية» تسلم إلى جيرالد داكوورث. فرجينيا تذهب مع ليونارد إلى لفربول ومانشستر وليدز ويورك وكارليل ولستر مكان ليونارد يدرس الحركة التعاونية ؛ يعودان إلى لندن في ١٩ آذار ثم يذهبان إلى آشام لقضاء عيد الفصح مع أدريان وسدني ـ تيرنر.
١ ـ ١١ نيسان :	في آشام مع مارجري ستراجي وسدني ـ تيرنر.
١٢ نيسان :	«الرحلة الخارجية» يقبلها داكوورث للنشر.
١٩ نيسان :	الزوجان يذهبان إلى آشام لأسبوعين يعودان إلى لندن ويحضران The Ring في حدائق كوفنت.
١٦ أيار ـ ٢ حزيران :	في آشام ؛ دزموند مكارثي وليتون ستراجي يقضيان معهما عطلة نهاية أسبوع وجانيت كيس تقضي معهما أخرى.
٦ ـ ٨ حزيران :	الزوجان في كيمبريدج، يقيمان بنيوهام مع

قريب فرجينيا مدير المدرسة هناك.

٩ ـ ١٢ حزيران :	الزوجان يذهبان إلى - Newcastle - upon Tyne لحضور مؤتمر التعاونيات النسوية، ويعودان إلى لندن مع مارغرين لويلين ديفيز. فرجينيا متوعكة.
١٩ حزيران ـ ٧ تموز :	الزوجان في آشام (الضيوف).
١٢ تموز :	الزوجان يتناولان الغداء مع بياتريس وسدني ويب خلال إقامتهما لأسبوع في لندن.
١٦ ـ ٢١ تموز :	في آشام ؛ معهما ليتون ستراجي. فرجينيا تزداد توعكاً واكتئاباً.
٢٢ تموز :	الزوجان يذهبان إلى كزويك لمؤتمر الجمعية الفابية ؛ فرجينيا مريضة. يعودان إلى لندن في ٢٤ منه ويراجعان في اليوم التالي السر جورج سافج [طبيب فرجينيا]. فرجينيا تدخل المصح في تويكنهام.
١١ آب :	فرجينيا تغادر المصح إلى آشام.
٢٢ آب :	ليونارد يأخذ فرجينيا إلى لندن لرؤية الدكتور سافج والدكتور هيد ؛ يذهبان في اليوم التالي إلى هولفورد. اكتئاب فرجينيا وأوهامها ومقاومتها للطعام في ازدياد.
٢ أيلول :	كاترين كوكس تنضم للزوجين وولف في هولفورد ؛ في ٨ منه يعودون كلهم إلى لندن.
٩ أيلول :	فرجينيا تراجع الطبيبين ؛ في المساء تحاول الانتحار.

٢٠ أيلول : ليونارد يأخذ فرجينيا إلى ساسكس حيث تبقى إلى تشرين الثاني بإشراف وعناية ليونارد وممرضات.

١٨ تشرين أول : فرجينيا تنقل مع ممرضتين إلى آشام ؛ حالتها تتحسن ببطء.

٣ ـ ٥ كانون أول : ليونارد في لندن يرتب إخلاء شقتهما.

١٩١٤ :

كانون الثاني : فرجينيا تستطيع الآن قراءة وكتابة الرسائل ؛ تتولى الطبع على الآلة الكاتبة لليتون ستراجي الذي يزوره ليونارد في ويلتشاير.

١٦ شباط : آخر ممرضات فرجينيا تغادر.

٧ ـ ١٨ آذار : كل من كاكوكس وجانيت كيس وفانيسا بيل تأتي للبقاء مع فرجينيا في آشام لما كان ليونارد غائباً.

٦ نيسان : الزوجان وولف يذهبان إلى لندن لاستشارة الدكتور كريغ ؛ يقيمان مع جانيت كيس في هامستيد.

٣ ـ ٣٠ نيسان : في كورنوول. (عدة أمكنة).

١ أيار : العودة عن طريق لندن إلى آشام حيث يبقيان طيلة الصيف فيما عدا زيارة واحدة للندن في حزيران (لطبيب الأسنان) وفيما عدا زيارات ليونارد لبرمنغهام وكيزويك لحضور مؤتمرات.

٧ تموز : ليونارد يشتري لفرجينيا دراجة هوائية.

٤ آب : إعلان الحرب.

٦ آب : الزوجان يقضيان ليلة في لندن ثم يذهبان إلى نورثامبرلاند حتى ١٥ أيلول حين يعودان إلى لندن». البحث عن منزل.

٣٠ أيلول : إلى آشام لأسبوع.

٩ تشرين أول : الزوجان في نزل بتويكنهام ؛ وينتقلان في ١٦ منه إلى رجموند.

تشرين ثاني : فرجينيا تشفى على ما يظهر، فتزور

كانون أول : الأصدقاء، وتحضر دروس لتعليم الطهي. الزوجان يقضيان عطلة نهاية أسبوع في عشة ليتون ستراجي بويلتشاير ويقضيان الكرسمس قريباً منه في مارلبورو.

١٩١٥ :

١ كانون الثاني : فرجينيا تبدأ كتابة يوميات.

٢٥ كانون الثاني : يوم ميلاد فرجينيا الثالث والثلاثين ؛ هي وليونارد يقرران شراء مطبعة واقتناء دار هوغارث في رجموند.

١٨ شباط : فرجينيا مصابة بالصداع والتأرق ؛ مرحلة مبكرة لعودة الانهيار العقلي. في ٤ آذار تكون متهيجة وعنيفة فتستدعي الممرضات.

٢٥ آذار : فرجينيا تؤخذ إلى مصح، بينما يتولى ليونارد عملية الانتقال إلى دار هوغارث.

٢٦ آذار : نشر كتاب فرجينيا الأول، «الرحلة الخارجية».

١ نيسان : فرجينيا يؤتى بها إلى دار هوغارث ؛ أربع ممرضات بالخدمة. نيسان وأيار هما أشد شهور جنونها عنفاً وغضباً.

حزيران :	بدء التحسن التدريجي في حالة فرجينيا. بحلول آب يتمكن ليونارد الخروج بها في تجوال أو يدفعها بكرسي متحرك.
١١ أيلول ـ ٤ تشرين ثاني :	الزوجان وولف يعيشان في آشام مع ممرضة واحدة وطباخة وخادمة.
٤ تشرين الثاني :	العودة إلى دار هوغارث. فرجينيا تعود تدريجياً إلى الحياة الطبيعية ؛ الممرضة تترك في ١١ منه.
٢٢ ـ ٣٠ كانون أول :	الكرسمس في آشام ؛ ضيفاهما جيمس ستراجي ونوئيل أوليفر.

١٩١٦ :

كانون الثاني :	فرجينيا تحيا حياة طبيعية نسبياً في دار هوغارث.
١ شباط :	اشتغال نيللي طباخة ولوتّي خادمة عندهم. الزوجان في آشام لأسبوع في شباط.
٦ ـ ١٥ شباط :	فرجينيا تصاب بالأنفلونزا، تذهب بعدها إلى آشام لثلاثة أسابيع. ضيفاهما ليتون ستراجي وسانفر في عيد الفصح.
٥ آذار :	الزوجان يعودان إلى دار هوغارث.
٢٠ ـ ٢٢ آذار :	الزوجان يقيمان مع روجر فراي في دارينز قرب غيلفورد.
٣٠ آذار :	ليونارد تفحصه لجنة الجيش الطبية وترفضه للخدمة.
١٧ ـ ١٩ حزيران :	الزوجان يقضيان نهاية أسبوع في ساسكس مع مستر ومسز سِدني ويب ؛ جورج برنارد شو

ضيف معهما.

٧ تموز : الزوجان يذهبان إلى آشام لحين أواسط أيلول، وتقطع الفترة زيارة إلى فانيسا في ويسيب بسافولك (٢١ ـ ٢٤ تموز) ثم في دار هوغارث في الأسبوع التالي.

١٥ ـ ١٩ آب : جي. إي. مور وبارنيل ستراجي في آشام. وكذلك ضيوف آخرين.

١٦ أيلول : الزوجان يعودان إلى رجموند ويذهبان في ١٨ منه إلى خليج كاربيس.

٢ تشرين أول : العودة إلى دار هوغارث.

٤ تشرين أول : دافيد غارنيت وكارينغتون وباربارة هايلز يقضون ليلة في آشام (بدون دعوة).

١٧ تشرين أول : فرجينيا تحاضر في فرع رجموند للجمعية التعاونية النسوية.

٢٠ ـ ٢٤ تشرين أول : الزوجان في آشام. فانيسا انتقلت حديثاً إلى جارلستون على مسافة أربعة أميال لكنهم لا يستطيعون اللقاء.

٢١ كانون أول : الزوجان يذهبان إلى آشام ؛ كاكوكس تأتي للكرسمس.

١٩١٧ :

٢ كانون الثاني : الزوجان يزوران جارلستون ؛ فرجينيا تقضي الليلة هناك. في ٤ منه يعودان إلى دار هوغارث. فرجينيا تكتب ثانيةً لملحق التايمس الأدبي.

٢٣ آذار : الزوجان يسجلان طلبية لشراء مطبعة.

٣ ـ ١٧ نيسان :	عيد الفصح في آشام. سانغر ومارجري ستراجي هناك.
٢٤ نيسان :	تسليم المطبعة إلى دار هوغارث. الزوجان يبقيان في رجموند لغاية آب، مع زيارات قصيرة إلى آشام وإلى السيد آر. سي. ترافيليان.
تموز :	نشر الكتاب رقم ١ من مطبعة هوغارث. وهو «العلامة على الجدار وثلاثة يهود» [قصتان لفرجينيا].
٣ آب ـ ٥ تشرين أول :	الزوجان في آشام. فرجينيا تدون ملحوظات مختصرة في دفتر يوميات. (الضيوف). بضمنهم كاترين مانسفيلد [القصصية].
٨ تشرين أول :	فرجينيا تبدأ بكتابة اليوميات بانتظام. إيما فوغان تعطي أدواتها لتجليد الكتب إلى فرجينيا.
١٠ تشرين أول :	تأسيس نادي ١٩١٧، ليونارد عضو في اللجنة.
٢٩ تشرين أول :	فرجينيا تذهب إلى آشام مع سدني ـ تيرنر ثم إلى جارلستون بينما يذهب ليونارد إلى بولتون ومانشستر ولفربول.
٢ تشرين ثاني :	العودة إلى دار هوغارث.
١٧ ـ ١٩ تشرين ثاني :	الزوجان يقومان بأول زيارة إلى قصر غارسنغتون وهو منزل السر فيليب والليدي أوتولين موريل ؛ ليتون ستراجي والدوس هكسلي من الضيوف.

١٥ تشرين ثاني : الزوجان يشتريان مطبعة أكبر مستعملة ؛ في ٢١ منه تبدأ باربارة هايلز بالعمل فيها كمساعدة بدوام غير كامل.

١٩ كانون أول : الاجتماع الأول والعشاء لنادي ١٩١٧.

٢٠ كانون الأول : الزوجان يذهبان إلى آشام لعطلة الكرسمس ؛ زيارات إلى جارلستون والعكس بالعكس ؛ كاكوكس تبقى معهما.

١٩١٨ :

٣ كانون الثاني : العودة إلى دار هوغارث. فرجينيا تصفف الحروف، وتكتب لملحق التايمس الأدبي، وتقوم بزيارات متكررة إلى لندن وإلى المكتبات وإلى نادي ١٩١٧.. إلخ.

٨ شباط : فرجينيا في السرير لأسبوع لاصابتها بالأنفلونزا، تذهب مع ليونارد إلى آشام ومن هناك إلى جارلستون في ١١ آذار عائدةً إلى دار هوغارث في ٢ منه.

١٢ آذار : أكثر من مئة ألف كلمة كتبت من رواية الليل والنهار.

٢١ آذار ـ ٥ نيسان : الزوجان في آشام لقضاء عطلة عيد الفصح ؛ ليتون ستراجي عندهما.

١٤ نيسان : هاربيت ويفر تأتي لتناول الشاي في دار هوغارث مع مسودة رواية يوليسيس [جيمس جويس].

أيار : نشر كتاب ليتون ستراجي المعنون «فكتوريون بارزون».

١٦ ـ ٢٨ أيار : الزوجان في آشام ؛ روجر فراي عندهما.

١٥ ـ ١٧ حزيران : الزوجان مع بيت ووترلو في ويلتشاير.

١٠ تموز : النسخ الأولى من قصة «استهلال» لكاترين مانسفيلد، التي طبعتها مطبعة هوغارث، توزع.

٢٠ ـ ٢٢ تموز : الزوجان في تيد مارش مع ليتون ستراجي وكارنغتون.

٢٧ ـ ٢٩ تموز : الزوجان في كازرنغتون مع بيت موريل.

٣١ تموز : الزوجان يذهبان إلى آشام لقضاء الصيف (الضيوف).

٧ تشرين أول : العودة إلى دار هوغارث ؛ في ١٣ منه يزورهم فيشر مع أنباء إنهاء الحرب.

١١ تشرين ثاني : يوم الهدنة ؛ المدافع تعلن السلام.

١٥ تشرين ثاني : تي. اس. إليوت يأتي إلى دار هوغارث ؛ أول لقاء مع فرجينيا.

٢١ تشرين ثاني : فرجينيا تكمل رواية «الليل والنهار». تطبع قصة «حدائق كيو» ؛ زيارات متكررة إلى كاترين مانسفيلد في غيلفورد، مع روجر فراي.

٢٠ كانون أول : فرجينيا تذهب إلى آشام ؛ ليونارد يأتي في اليوم التالي.

٢٥ كانون أول : ولادة أنجليكا بيل في جارلستون ؛ في ٢٨ منه يؤتى بجوليان وكوينتين بيل إلى آشام.

١٩١٩ :

١ كانون الثاني : الزوجان وولف يعودان إلى دار هوغارث مع جوليان وكوينتين بيل.

٢ كانون الثاني :	فرجينيا تخلع سناً وترقد بالتالي في الفراش أسبوعين ؛ في ٩ منه يرسل أولاد بيل إلى بيتهم في ميدان غوردون.
كانون ثاني ـ آذار :	مشاكل إدارة منزلية في جارلستون ؛ فرجينيا ترسل نيللي للمساعدة.
٢٦ شباط :	وفاة الليدي ريتشي (العمة آني).
٢٨ شباط :	الزوجان يذهبان إلى آشام ؛ ينذران من المالك بمغادرة المنزل.
٤ آذار :	فرجينيا تقضي ليلةً في جارلستون وتعود في اليوم التالي إلى دار هوغارث. طبع «قصائد» تي. اس. إليوت.
١ نيسان :	رواية «الليل والنهار» تسلم إلى جيرالد داكوورث.
٢٥ نيسان :	الزوجان يذهبان إلى آشام لعشرة أيام ؛ البحث عن منزل في المنطقة.
٧ أيار :	فرجينيا تستأجر ثلاث عشش في كورنوول. داكوورث يقبل «الليل والنهار».
١٢ أيار :	مطبعة هوغارث تنشر «حدائق كيو» لفرجينيا و «الناقد في الميزان» لجي. ام. موري و«قصائد» لتي. اس. إليوت.
٢٧ أيار :	الزوجان يذهبان إلى آشام ؛ البحث عن منزل.
٢ حزيران :	ليونارد يعود إلى لندن ؛ فرجينيا تذهب إلى جارلستون لقضاء الليلة ؛ في اليوم التالي تشتري البيت المدور في لوز وتعود إلى دار هوغارث.
٢١ ـ ٢٣	فرجينيا تقيم في غارزسنغتون لقضاء نهاية

حزيران :	الأسبوع. (الضيوف).
٢٦ حزيران :	الزوجان يذهبان إلى لوز لمشاهدة البيت المدور ومنها إلى آشام ؛ في ٢٧ و٢٨ منه يكشفان على دار الراهب.
١ تموز :	مزاد بيع دار الراهب، في رودميل ؛ يشتريه بيت وولف بـ ٧٠٠ باون.
١٩ تموز :	توقيع معاهدة السلم.
٢٩ تموز :	الزوجان في آشام لقضاء آب كله ؛ (الضيوف).
١ أيلول :	الزوجان ينتقلان إلى دار الراهب في رودميل.
٦ تشرين أول :	الزوجان يعودان إلى دار هوغارث.
٢٠ تشرين أول :	«الليل والنهار» تنشر من داكوورث.
٨ ـ ١٠ تشرين ثاني :	الزوجان في تيدمارش مع ليتون ستراجي وكارنغتون ؛ سدني ـ تيرنر هناك أيضاً.
١ ـ ١٩ كانون أول :	ليونارد مريض بالملاريا.
٢٠ ـ ٢٧ كانون أول :	فرجينيا مريضة بالأنفلونزا.
٢٩ كانون أول :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب.

١٩٢٠ :

٨ كانون الثاني :	العودة إلى دار هوغارث.
١٨ كانون الثاني :	فرجينيا تذهب إلى غيلدفورد لقضاء ليلة واحدة مع روجر فراي.
٧ ـ ٩ شباط :	الزوجان يذهبان إلى ألدبورن لقضاء نهاية الأسبوع مع (كا) ويل أرنولد ـ فورستر.

٢١ شباط ـ ١ آذار :	الزوجان في دار الراهب.
٤ آذار :	الاجتماع الأول لنادي الذكريات.
٢٥ آذار ـ ٧ نيسان :	الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح ؛ ومن ٣٠ نيسان ـ ٤ أيار ؛ ولنهاية الأسبوع الأخير من أيار.
١١ أيار :	ليونارد يعرض عليه الترشيح عن حزب العمال للمنطقة الانتخابية للجامعات الانكليزية مجتمعةً.
٧ حزيران :	فرجينيا تذهب إلى لندن ؛ تتناول الشاي مع كلايف بيل، والعشاء مع فانيسا ؛ حكاية «ماري المجنونة» وركبة الباص المشهودة إلى ووترلو.
٢٤ ـ ٢٨ حزيران :	الزوجان في دار الراهب.
٢٢ تموز :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لشهرين. في ٢ وفي ٢٣ آب تذهب فرجينيا إلى لندن لزيارة كاترين مانسفيلد (لقاؤهما الأخير).
٢٨ آب :	كارنغتون ورالف بارتريدج يقضيان معهم نهاية الأسبوع ؛ الأخير يدعى للانضمام إلى المطبعة.
أيلول :	ليتون ستراجي يبقى في دار الراهب عدة أيام وتي. اس. إليوت ليلة واحدة. فرجينيا تكتب رواية «غرفة يعقوب».
١ تشرين أول :	الزوجان يعودان إلى دار هوغارث. رالف بارتريدج يبدأ العمل بدوام غير كامل في المطبعة في ٦ منه.

٢٢ كانون أول :	الزوجـان يذهبـان إلى دار الراهب لقضـاء الكرسمس.
١٩٢١ :	
٢ كانون ثاني :	العـودة إلى دار هوغـارث حـيث يقـومـان بسفرتين : إلى وودكوت (فيليب وولف) ومنها إلى تيد مارش (ليتون ستراجي) في ٢٨ ـ ٢٩ منه ؛ وإلى دار الراهب في ٢٢ ـ ٢٨ شباط.
٧ أو ٨ آذار :	نشر كتاب «الاثنين أو الثلاثاء».
١٦ ـ ١٨ آذار :	فرجينيا تصحب ليونارد إلى مانشستر لحضور اجتماع لاقرار ترشيحه.
٢٣ ـ ٣١ آذار :	الزوجان في زينور.
نيسان :	نشر كتاب «الملكة فكتوريا» لليتون ستراجي.
٢٢ ـ ٢٥ نيسان :	الزوجان في دار الراهب.
١٨ أيار :	دزموند ومولي مكارثي وروجر فراي يتناولون العشاء في دار هوغـارث ؛ حـديث دزمـوند يسجل كتابةً.
٢١ أيار :	زواج رالف بارتريدج من دورا كارنغتون.
حزيران ـ تموز :	فـرجينيا متـوعكة ؛ لا تكتب يوميـات من ٧ حـزيران إلى ٨ آب. الزوجـان في دار الـراهب من ١٨ حزيران إلى ١ تموز ؛ ويعودان إلى هناك في ٢٨ تموز.
آب ـ أيلول :	فرجينيا في دور النقاهة ؛ غير قادرة على العمل أو على استقبال الزوار لحين أواسط أيلول. تي. اس. إليـوت يبـقى عندهم في ٢٤ ـ ٢٥ أيلول.

٦ تشرين أول : العودة إلى دار هوغارث.

٤تشرين ثاني : كتابة الكلمات الأخيرة من «غرفة يعقوب».

تشرين ثاني : سفرات إلى دار الراهب في ٥ منه، ولزيارة فيليب وولف ثم لزيارة ليتون ستراجي في ١٩ منه.

١ ـ ٣ كانون أول : ليونارد يذهب بأشغال سياسية إلى مانشستر وديرهام.

٢٠ كانون أول : الزوجان في دار الراهب لقضاء الكرسمس.

١٩٢٢ :

٢ كانون الثاني : العودة إلى دار هوغارث.

كانون ثاني ـ شباط : فرجينيا مصابة بالأنفلونزا في ٧ كانون ثاني، وانتكاسة في ٢٢ منه فتصبح معقدة طيلة شباط ؛ يزورها كلايف بيل تكراراً.

٢٥ شباط : الدكتور فرغسون يوصي أن يعاين فرجينيا أخصائي بالقلب ؛ درجة حرارتها عالية باستمرار طيلة آذار.

٧ ـ ٢٧ شباط : الزوجان في دار الراهب.

أيار : حرارة فرجينيا وقلبها لا يزالان يثيران القلق. تخلع ثلاثة أسنان.

٢٧ ـ ٢٩ أيار : الزوجان يذهبان إلى تيد مارش لزيارة ليتون ستراجي، وكارنغتون وبارتريدج ؛ [الناقد] فورستر هناك.

٢ ـ ١٠ حزيران : الزوجان في دار الراهب ومنها يذهبان إلى برايتون لحضور مؤتمر التعاونيات برئاسة مارغريت لويلين ديفيز.

تموز : فرجينيا تكمل «غرفة يعقوب» ؛ القلق بشأن رئتيها.

١٥ ـ ١٧ تموز : فرجينيا في غارزنغتون.

١ آب ـ ٥ تشرين أول : الزوجـان في دار الراهب. في ٩ آب ترى فرجينيا أخصائياً في لندن الذي لا يجد أثراً لمرض السل لكنه يشخص جراثيم ذات الرئة في حنجرتها. (الضيوف في المنزل بضمنهم إليوت). مسألة صندوق الزمالة لإليوت يجري بحثها.

٢٧ تشرين أول : نشر رواية غرفة يعقوب من مطبعة هوغارث.

٤ ـ ٥ تشرين ثاني : الزوجان في تيدمارش مع ليتون ستراجي ؛ مستقبل بارتريدج والمطبعة قيد البحث إلى نهاية العام.

١٧ تشرين ثاني : الانتخابات العامة ؛ ليونارد يفشل في كسب مقعد جامعي.

١٤ كانون أول : الزوجان يتناولان العشاء مع كلايف بيل ؛ أول لقاء مع بيتا ساكفيل ـ ويست (زوجة هارولد نكلسون).

٢١ كانون أول : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس.

١٩٢٣ :

١ كانون الثاني : العودة إلى دار هوغارث.

٩ كانون الثاني : وفاة كاترين مانسفيلد.

١٥ كانون الثاني : فرجينيا مريضة في الفراش وحرارتها عالية ؛ متوعكة لبقية الشهر. في ٢٩ منه تأتي

مارجوري جود للعمل في المطبعة بدوام كامل ؛ بارتريدج يترك في ١٤ آذار.

٣ ـ ٥ شباط : الزوجان يذهبان إلى كيمبريدج لقضاء نهاية الأسبوع ؛ يتعشيان في [مطعم] كينغ King، ويشاهدان [مسرحية] Depidus Rex ويزوران نيوهام ويتعشيان مع كينز.

شباط ـ آذار : مجلة The Nation يعاد تنظيمها ؛ فرجينيا تحاول أن يسند التحرير الأدبي إلى إليوت ؛ وهذا التحرير يعرض على ليونارد فيقبله في ٢٣ آذار.

٢٧ آذار : الزوجان يذهبان إلى إسبانيا عن طريق باريس، فيصلان غرناطة في ٣١ منه. يقيمان مع جيرالد برينان في يغين Yagen من ٤ ـ ١٣ نيسان، ثم يسافران على مراحل عائدين إلى باريس. ليونارد يعود إلى البلاد في ٢٤ نيسان. وتتبعه فرجينيا في ٢٧ منه. ليونارد يبدأ العمل في مجلة النيشون.

٢٥ ـ ٢٧ أيار : الزوجان في دار الراهب.

٢ ـ ٣ حزيران : الزوجان في كارزينغتون ؛ ليتون ستراجي هناك أيضاً ؛ «٣٧ شخصاً لتناول الشاي» بضمنهم اللورد دافيد سيسيل، وإي بساكفيل ـ ويست ومسز اسكويث.

أواخر حزيران : فرجينيا تعتزل مهمتها في تحضير متكلمين لفرع رجموند للجمعية التعاونية النسوية.

١ آب ـ ٣٠ أيلول : الزوجان في دار الراهب. (الضيوف). فرجينيا تكتب المسودة الأولى [الرواية] Fresh water

وورواية الساعات (مسز دالواي).

تشرين ١ ـ تشرين ٢ : فرجينيا تبحث عن منزل في لندن.

كانون الأول : الزوجـان في دار الراهب من ١ ـ ٣ منه وثانيـةً من ٢١ منه.

١٩٢٤ :

١ كانون الثاني : العودة إلى دار هوغارث.

كانون ٢ ـ آذار : فرجينيا تجد المنزل رقم ٥٢ ميدان تافستوك، في بلومزبيري وتنتقل إليه في ١٣ ـ ١٥ آذار.

١٧ ـ ٢٨ نيسان : الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح.

٩ ـ ١٠ أيار : الزوجـان في تيـد مـارش مع ليـتون سـتـراجي وبارتريدج وزوجته.

١٧ ـ ١٩ أيار : الزوجان في كيـمبريدج ؛ يتغـديان مع جـورج رايلاندز في مطعم كنغ ؛ تبحث خطة إنضـمامـه للمطبعة. فرجينيا تحاضر لجماعة «الهراطقـة» عن الأدب الروائي الحـديث (البـحث المسـمى أمسترنبيت ومسز براون).

٥ ـ ٩ حزيران : قضاء عطلة الأحد الأبيض في دار الراهب.

٢٨ ـ ٢٩ حزيران : الزوجان في كـارزنغتـون ؛ الضيـوف بضـمنهـم إليوت.

٢ تموز : رايلاندز يبدأ العمل في المطبعة.

٤ تموز : فرجينيا تأخذها فيـتا إلى نول ؛ تلتـقي اللورد ساكفيل وآخرين.

٣٠ تمـوز ـ ٢ تشرين ١ : الزوجان في دار الراهب ؛ فرجينيا تكتب رواية مسز دالواي. الزوار بضمنهم فيتا.

٨ تشرين ١ :	إكمال مسز دالواي. الزوجان يزوران ستراجي في بيته الجديد، دار هام سيري، قرب هنغرفورد.
٣٠ تشرين ١ :	نشر بحث «مستر بنيت ومسز براون».
٢٥ تشرين ٢ :	ريلاندز يقرر ترك المطبعة في نهاية السنة ؛ خلفه، أنغوص ديفيدسون يبدأ العمل في ١٠ كانون ١.
٢٤ كانون ١ :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب. أكنس تقضي الكرسمس معهم هناك.
١٩٢٥ :	
٣ كانون الثاني :	العودة إلى ميدان تافستوك ؛ الزوجان يبقيان هناك لغاية ٢٦ آذار مع قضاء عطلة نهاية أسبوع واحدة في دار الراهب من ٦ ـ ٨ شباط. أنغوص ديفيدسون يعمل في مطبعة هوغارث.
٢٢ كانون الثاني :	فرجينيا مريضة وفي الفراش لحوالى أسبوعين.
شباط :	مارجري جود تترك المطبعة ؛ برناديت مرفي تأتي.
٦ شباط :	فرجينيا ترسل المسودات الطباعية لمسز دالواي لجاك رافيرات ؛ يموت في ٧ آذار.
٢٦ آذار ـ ٧ نيسان :	الزوجان يذهبان إلى كاسيس ويقيمان في فندق.
٩ ـ ١٣ نيسان :	عطلة عيد الفصح في دار الراهب.
٢٣ نيسان :	نشر كتاب «القارىء العمومي».
٢ ـ ٣ أيار :	الزوجان في كيمبريدج ؛ يلتقيان بالعديد من قدامى الأصدقاء.

١٤ أيار : نشر رواية مسز دالواي. فرجينيا تفكر برواية «إلى الفنار».

أيار ـ تموز : فرجينيا غارقة في حياة اجتماعية في لندن، مع قضاء عطلتي نهاية أسبوع في دار الراهب وعطلة في Thorpe - le - soken مع أدريان وكارين ستيفن.

تموز : برناديت مورفي تترك المطبعة ؛ مسز كارترايت تأتي.

٤ آب : زواج كينز [الاقتصادي] من ليديا لوبوكوفا [راقصة الباليه الروسية].

١٥ آب ـ ٢ تشرين ١ : الزوجان في دار الراهب. انهيار فرجينيا في ١٩ آب في جارلستون، وتبقى متوعكة طيلة العطلة لا ترى إلا القليل من الزوار.

تشرين ١ ـ تشرين ٢ : فرجينيا متوعكة وغير ذات نشاط في ميدان تافستوك.

٧ تشرين ثاني : موت ماج فوغان.

٢ كانون أول : فرجينيا تذهب للباليه ؛ أول ليلة تقضيها خارج المنزل في شهرين.

١٧ ـ ٢٠ كانون أول : فرجينيا تقيم مع بيتا في لونغ بارن قرب سفن أوكس ؛ ليونارد ينضم إليهما في ١٩ منه.

٢٢ ـ ٢٨ كانون أول : الزوجان مع بيت بيل في جارلستون [لوجود بنّائين في دار الراهب] ؛ فيتا تتغذى هناك يوم ٢٦ منه.

١٩٢٦ :

٨ كانون ثاني : فرجينيا تصاب بالحصبة الألمانية في ميدان

	تافستوك وتظل متوعكة لبقية الشهر ؛ تبدأ ثانيةً بكتابة رواية إلى الفنار. فيتا تذهب لإيران.
٦ ـ ٨ شباط :	الزوجان في دار الراهب.
١٦ آذار :	كتابة ٤٠ ألف كلمة من رواية إلى الفنار.
٢٤ آذار :	ليونارد يستقيل من وظيفته كمحرر أدبي لمجلة النيشون. عشاء «أدبي» فاجع مع روز ماكولي.
١٣ ـ ١٨ نيسان :	الزوجان يذهبان إلى Iwerne Minster ؛ وكتب الرحلات في دورسيت.
٢٩ نيسان :	فرجينيا تكمل القسم الأول من رواية إلى الفنار وتبدأ بكتابة القسم الثاني فتكمله في ٢٥ أيار.
٣ ـ ١٢ أيار :	الاضراب العام.
٢٧ ـ ٣٠ أيار :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب الذي أجريت فيه تحسينات.
١١ ـ ١٥ حزيران :	فرجينيا في دار الراهب ؛ ليونارد يبقى يومين وفيتا اليومين التاليين.
٢٦ ـ ٢٧ حزيران :	الزوجان في كارزنغتون ؛ (الضيوف).
٢٣ تموز :	الزوجان يذهبان إلى دورجستر لزيارة توماس هاردي. [الروائي الشهير].
٢٧ تموز :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب ؛ فرجينيا منهكة فتستريح. قلة قليلة جداً من الزوار ؛ بينهم روز ماكولي وستيفن توملين [النحات الذي نحت لفرجينيا تمثالاً نصفياً]. فرجينيا في حالة اكتئاب.
١٤ تشرين أول :	الزوجان في كيمبريدج.
٤ تشرين ثاني :	الزوجان يتناولان العشاء مع اج. جي. ويلز

	لملاقاة أرنولد بنيت ؛ يذهبان في اليوم التالي إلى لونغ بارن لقضاء نهاية الأسبوع مع فيتا.
٢٢ ـ ٢٨ كانون أول :	الزوجان يقضيان الكرسمس مع بيت آرنولد ـ فورستر في كورنوول.
١٩٢٧ :	
كانون ثاني :	فرجينيا تكمل «إلى الفنار». هي وليونارد في دار الراهب من ٥ إلى ٩ منه ؛ هي من ١٥ ـ ١٧ منه في لونغ بارن وتزول نول ؛ في ٢٩ منه تعود فيتا إلى ايران. الزوجان ينظران في فكرة الذهاب إلى أمريكا ويرفضانها.
٩ شباط :	فرجينيا تجعّد شعرها.
٢٥ ـ ٢٧ شباط :	الزوجان في دار الراهب.
أواسط آذار :	فرجينيا تتصور فكرة The Jessamy Brides.
٣٠ آذار ـ ٢٨ نيسان :	الزوجان يقضيان أسبوعاً مع بيت بيل في كاسيس ثم يسافران إلى باليرمو وسايراكيوس ونابولي وروما حيث يبقيان أسبوعاً.
٣٠ نيسان :	فانيسا تكتب لفرجينيا تصف لها الفراشات في كاسيس.
٥ أيار :	نشر رواية إلى الفنار.
١٨ ـ ١٩ أيار :	فرجينيا تزور أكسفورد مع فيتا ومنها تذهب إلى دار الراهب لقضاء نهاية الأسبوع.
أوائل حزيران :	فرجينيا تلزم الفراش أسبوعاً لاصابتها بالصداع ؛ تذهب إلى دار الراهب لأسبوع ؛ في ١٦ منه تحضر تقديم جائزة هاوثورندن إلى فيتا.

٢٩	الزوجان مع بيت نكلسون وآخرين يسافرون إلى يوركشاير ليشاهدون الخسوف الكلي للشمس. فرجينيا تقضي عطلتي نهاية أسبوع مع فيتا في لونغ بارن. الزوجان يشتريان سيارة سنجر Singer. فرجينيا تذيع من الإذاعة.
ـ ١ آب :	فرجينيا تقيم مع أثيل ساندز ونان هدسون قرب دييب ؛ وتلتقي J.E. Blanche.
ـل :	الزوجان في دار الراهب. (الضيوف). سفرات متعددة بالسيارة.
، أول :	فرجينيا تبدأ كتابة «أورلاندو» باعتباره «نكتة». الزوجان يعودان إلى ميدان تافستوك في ٦ منه.
، ثاني :	كلايف بيل يرسل إلى فرجينيا القسم الأول من كتاب «الحضارة». مراسلات مع اي. ام. فورستر عن الفن والحياة.
، أول :	أنغوص ديفيدسون يترك مطبعة هوغارث.
ون أول :	الزوجان يذهبان إلى جارلستون لقضاء الكرسمس ؛ ومن هناك إلى دار الراهب في ٢٧ منه.
:	
ن الثاني :	العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تكتب «بأورلاندو». في ١٤ ـ ١٥ منه تبقى في لونغ بارن. في أواخر الشهر في السرير مصابة بالصداع، ومرة أخرى بالأنفلونزا في أواسط شباط.
١ آذار :	الزوجان في دار الراهب. إكمال «أورلاندو» في

١٧ آذار.

٢٦ آذار : الزوجان يعبران القنال إلى دييب ويسوقان إلى كاسيس فيصلاها في ٢ نيسان. يقيمان في بيت الكولونيل تيد Teed قرب بيت بيل ودانكان غرانت. يبدآن رحلة العودة في ٩ نيسان فيصلان لندن في ١٦ منه.

نيسان ـ حزيران : فرجينيا تمنح جائزة Femina Vie Heureuse. الزوجان يقضيان آخر عطل نهايات الأسبوع بأشهر نيسان وأيار وحزيران في دار الراهب. الزوجان يزوران جانيت كيس في ليندهيرست.

٢٤ تموز : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب. فيتا تبقى يومي ٢٩ و٣٠ منه؛ (الضيوف). يشتريان الأرض المجاورة للدار.

٢٤ أيلول : فرجينيا وفيتا تسافران إلى باريس وسوليو وفيزيلي وأوكسير، وتعودان إلى دار الراهب في ١ تشرين الأول.

٢ تشرين أول : الزوجان يعودان إلى ميدان تافستوك.

١١ تشرين أول : نشر «أورلاندو».

٢٠ تشرين أول : الزوجان مع فيتا وفانيسا وأنجليكا بيل يذهبون إلى كيمبريدج. في هذا الأسبوع والذي يليه تقرأ فرجينيا في الكليات النسوية ورقتين تعدلان لتصبحا كتاب «غرفة المرء الخاصة».

٩ تشرين ثاني : قضية رواية «بئر الوحدة» تنظر في محكمة شارع بو.

. فرجينيا وفانيسا تنظمان سلسلة حفلات. في ١٠ تشـــرين ثاني يذهب بيت وولوف إلى كيمبريدج لمشاهدة ليديا لوبوكوفا تمثل ؛ في ٢٤ ـ ٢٥ هما في رودميل حيث يشتريان عشة ؛ هناك ثانيةً في ١٥ ـ ١٦ كانون أول. البدء بطبع طبعة ثالثة من أورلاندو.

، أول : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب. ريتشارد كنيدي يأتي ليلة واحدة.

ثاني : العودة إلى ميدان تافستوك.

ن ثاني : الزوجان يسافران إلى برلين وتنضم إليهما في ١٨ منه فانيسا وكوينتين بيل ودانكان غرانت. هارولد نكلسون في السفارة هناك ؛ فيتا في برلين كذلك.

١ كانون رحلة العودة عن طريق هارويج ؛ فرجينيا تقاسي من تأثير حبوب سومنيفين فتمرض لعدة أسابيع ؛ تؤثر عليها أيضاً ضوضاء ماكنة الضخ قرب ميدان تافستوك.

فرجينيا تكتب المسودة النهائية لكتاب «غرفة المرء الخاصة» وتفكر بشأن رواية «الفراشات».

يسان : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب ؛ وثانيةً أواخر الشهر ويضعان الترتيبات لبناء غرفتين جديدتين.

يار : إلى دار الراهب، ومرة أخرى في الأحد الأبيض في ١٧ ـ ٢٣ منه.

٣٠ أيار :	الانتخابات العامة. الزوجان يسوقان إلى رودميل للتصويت ؛ يعودان في اليوم التالي عن طريق لونغ بارن إلى ميدان تافستوك.
٤ ـ ١٤ حزيران :	الزوجان يذهبان إلى كاسيس بالقطار لأسبوع ؛ فانيسا ودانكان غرانت هناك.
١٩ ـ ٢٣ حزيران :	الزوجان في دار الراهب. فرجينيا مصابة بالتهاب الحنجرة والصداع.
تموز :	في دار الراهب في ٥ ـ ٨، ١٢ ـ ١٤، ٢٠ ـ ٢٣ منه.
٢٧ تموز ـ ٦ تشرين ٢ :	في دار الراهب ؛ (الضيوف). فرجينيا تشكو من صداع متقطع ومن السويداء. زيارات إلى لونغ بارن لزيارة فيتا وإلى وورتنغ لزيارة أم ليونارد.
أيلول :	هارولد نكلسون يستقيل من الخدمة الدبلوماسية.
٣٠ أيلول :	الزوجان يحضران مؤتمر حزب العمال في برايتون.
٢٤ تشرين ١ :	نشر كتاب «غرفة المرء الخاصة».
٢٠ تشرين ٢ :	فرجينيا تذيع من الإذاعة. الزوجان ينزعجان من موسيقى الرقص في فندق مجاور في Worburn Place ويتخذان إجراءً قانونياً.
٢١ كانون أول :	إلى دار الراهب ؛ غرفة نوم فرجينيا الجديدة جاهزة. يستقبلان بيت كينز وفيتا.

١٩٣٠ :

٥ كانون ثاني : الزوجان يعودان إلى ميدان تافستوك. في ١٥ منه فرجينيا تتعشى مع هنري هاريس في ميدان بدفورد للالتقاء برئيس الوزراء. . الخ في ١٨ منه تذهب إلى حفلة أنجليكا بيل في ٨ شارع فيتزروي. في ٣١ منه تتقرر القضية ضد الفندق لصالح بيت وولف.

٩ شباط : موت سي. في. سانغر. عند العودة بعد البقاء يومين في دار الراهب يمرض ليونارد وتعقبه فرجينيا التي تصاب بارتفاع درجة الحرارة بتقطع لبقية الشهر.

شباط : بحث خطط لاصدار صحيفة دورية فيما بين بيت وولف وبيت بيل وروجر فراي وريموند مورتايمر (لا تتحقق).

٢٠ شباط : أول لقاء لفرجينيا مع أثيل سمايث التي تصبح من الآن فصاعداً زائرة مستمرة.

١ ـ ٨ آذار : الزوجان في دار الراهب ؛ ومرة أخرى من ٢١ ـ ٢٤ منه. فرجينيا تكتب رواية «الأمواج».

٣١ آذار : مسز كارترايت تترك مطبعة هوغارث.

نيسان : الزوجان في دار الراهب ؛ وثانيةً في عيد الفصح.

٢٩ أيار : فرجينيا تكمل المسودة الأولى من «الأمواج».

٤ ـ ١١ أيار : الزوجان يقومان بجولة في سومرست، ديفون، وكورنوول لترويج بيع الكتب، ويعودان عن طريق هامشاير إلى دار الراهب. نيللي [الطباخة] مريضة طيلة الشهر وتدخل المستشفى

في ٢٩ منه.

٥ ـ ١٠ حزيران : الزوجان في دار الراهب ؛ هناك ثانيةً في ٢٠ ـ ٢١ منه. فرجينيا تعيد كتابة «الأمواج» ؛ كثيرة الاتصال بفيتا وأثيل سمايث وتزورهما.

تموز : الزوجان في دار الراهب٤ ـ ٦، ١٢ ـ ١٤، ومن ٢٩ منه. يقومان بزيارات قصيرة إلى كيمبريدج وإلى ووكينغ لرؤية أثيل وإلى لونغ بارن لرؤية فيتا.

آب ـ أيلول : في دار الراهب. ليونارد يسوق إلى لندن مرة في الأسبوع تقريباً، تصحبه فرجينيا أحياناً. (الضيوف) بضمنهم أثيل وفيتا. في ٢٩ آب يغمى على فرجينيا في الحديقة فتمرض لعشرة أيام. غرفة نومها الجديدة تصبح غرفة الجلوس. في ١٠ أيلول يذهب الزوجان إلى قلعة سيسنغهرست حيث بيت فيتا الجديد، ليوم واحد.

١ تشرين أول : الزوجان يتغديان عند بيت بيل للقاء جورج ومارغريت داكوورث.

٤ تشرين أول ـ كانون ١ : العودة إلى ميدان تافستوك. أربع عطل نهاية أسبوع تقضى في دار الراهب. فرجينيا منهمكة في حياة إجتماعية بلندن فتتعشى مع الليدي روندا والليدي كولفاكس. . الخ فضلاً عن رؤيتها لقدامى الأصدقاء والأقرباء.

٢٣ كانون أول : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس ؛ فرجينيا مريضة في الفراش من ٢٤

ـ ٣٠ منه.

١٩٣١ :

٧ كانون ثاني : العودة إلى ميدان تافستوك. نيللي تعود للعمل كطباخة وخادمة منزل.

١٢ كانون ثاني : فرجينيا تقابل جون ليمان، الشريك المقبل في مطبعة هوغارث ؛ يبدأ العمل فيها في ٢١ منه، فيما تخطب فرجينيا في جمعية الخدمات النسوية.

٢٣ ـ ٢٥ كانون ثاني : الزوجان في دار الراهب. من الآن فصاعداً تقر بيتهما على قضاء نهاية الأسبوع بين واحدة وأخرى في رودميل مع قضاء عطل أطول نوعاً ما في الفصح والأحد الأبيض والكرسمس وشهري آب وأيلول بكاملهما.

٧ شباط : فرجينيا تدون نهاية رواية الأمواج.

١٤ ـ ١٥ شباط : الزوجان يسوقان مع فانيسا إلى كيمبريدج لمشاهدة مسرحية Faery Queen لـ Purcell ؛ يرون [الناقد] فورستر هناك وآخرين.

٢٧ شباط : فرجينيا تذهب إلى سيسينغهرست لقضاء ليلة واحدة مع فيتا.

٢٨ ـ ٢٩ آذار : الزوجان يسوقان إلى ليبهوك للبقاء مع سدني وبياتريس ويب.

٢ ـ ٩ نيسان : الفصح في دار الراهب.

١٦ ـ ٣٠ نيسان : الزوجان يتجولان في غرب فرنسا بالسيارة.

٣ أيار : العودة إلى ميدان تافستوك بعد أن قضت فرجينيا يومين في دار الراهب.

٢١ ـ ٢٨ أيار : الأحد الأبيض في دار الراهب بعد أن قضت فرجينيا يومين في الفراش تعاني من الصداع وتلام أثيل سمايث عليه.

تموز : فرجينيا تجلس [للنحات] ستيفن توملين لينحت لها رأساً.

١٧ ـ ١٩ تموز : الزوجان في دار الراهب. فرجينيا تنهي تصحيح وإعادة طبع «الأمواج» على الآلة الكاتبة فيقرؤها ليونارد ويصرح أنها آية أعمالها.

٢٥ ـ ٢٦ تموز : الزوجان في أور Oare مع سدني ومارجري ووترلو.

٣٠ تموز : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الصيف. فرجينيا تبدأ بكتابة «فلاش» وتصحح المسودات الطباعية للأمواج ؛ بضعة أيام من الصداع. (الزوار) بضمنهم فيتا.

١ تشرين أول : العودة إلى ميدان تافستوك. ليونارد يذيع ستة أحاديث أسبوعية في الإذاعة.

٨ تشرين أول : نشر رواية الأمواج.

٢٤ تشرين ثاني : فرجينيا مصابة بالصداع، وتضطر أن تظل دون نشاط لشهر.

٢٢ كانون أول : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس. ليتون ستراجي مريض مرضاً خطيراً.

١٩٣٢ :

١٠ كانون ثاني : العودة إلى ميدان تافستوك.

١٤ كانون ثاني : الزوجان يسوقان إلى هام سبراي لزيارة ليتون

ستراجي الذي هو مريض جداً بحيث لا يستطيع استقبالهم ؛ غداء مع أخته.

٢١ كانون ثاني : موت ليتون ستراجي.

٣١ كانون ثاني : فرجينيا تنهي كتابة «رسالة إلى شاعر شاب» ؛ وتعمل على كتابة «القاريء العمومي : السلسلة الثانية».

شباط : فرجينيا تدعى لإلقاء محاضرات [مقعد] كلارك في كيمبريدج، لكنها تعتذر.

١٠ آذار : الزوجان يسوقان إلى هام سبراي لرؤية كارينغتون، التي تقتل نفسها في اليوم التالي.

١٢ ـ ١٥ آذار : الزوجان يسوقان إلى كيمبريدج لمشاهدة هاملت مع جورج رايلاندز ؛ ثم إلى محلات أخرى، ويقضيان ليلة مع روجر فراي في إيسويچ.

٢٣ آذار ـ ٣ نيسان : الفصح في دار الراهب ؛ الزوجان يزوران فيتا في قلعة ساسينغهيرست وأثيل سمايث وموريس بارنغ في روتنغدين. معمل إسمنت يشاد في آشام.

١٥ نيسان : الزوجان مع روجر ومارغريت فراي يغادران إلى اليونان عن طريق باريس والبندقية ويصلان أثينا في ٢٠ منه ؛ العودة بقطار الشرق السريع عن طريق بلغراد ويصلان دار الراهب في ١٢ أيار.

١٥ أيار : العودة إلى ميدان تافستوك. مباحثات عن تنظيم مطبعة هوغارث ؛ جون ليمان ليبقى كمستشار، والآنسة سكوت جونسون كمديرة، مع ثلاثة كتاب.

حزيران ـ تموز : فرجينيا منهمكة بحياة إجتماعية حافلة، وتذهب إلى دار الراهب بين عطلة نهاية أسبوع وأخرى.

١ تموز : نشر «رسالة إلى شاعر شاب» ؛ في ١١ منه يكمل «القاريء العمومي ـ السلسلة الثانية».

٢٦ تموز : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب. جو من أجواء آب الحارة جداً : في ١١ آب يغمى على فرجينيا من الحرارة فتتوعك لعدة أيام. (الضيوف) بضمنهم الشاعر إليوت وزوجته فيتا وأثيل.

٢٥ ـ ٢٦ آب : الزوجان يزوران أدريان ستيفن وزوجته ويعودان إلى دار الراهب مروراً بميدان تافستوك.

٣١ آب : جون ليمان يترك مطبعة هوغارث.

تشرين أول : الزوجان يعودان إلى ميدان تافستوك ؛ يحضران في ٣ ـ ٥ منه مؤتمر حزب العمال في لستر.

١٣ تشرين أول : نشر «القاريء العمومي : السلسلة الثانية». فرجينيا تبدأ «بتخيّل» رواية السنين.

١ تشرين ثاني : قلب فرجينيا «يسرع النبض»، مما يحدد فعاليتها.

٢٠ كانون أول : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس ؛ كينز وزوجته يأتيان للغداء والشاي يوم الكرسمس.

١٩٣٣ :

٢ كانون الثاني : الزوجان يذهبان إلى لندن ليلة واحدة لحضور

حفلة فانيسا.

١٥ كانون الثاني : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تصحح «فلاش».

شباط : فرجينيا تأخذ دروساً لتعلم الإيطالية مرتين في الأسبوع.

آذار : فرجينيا تعرض عليها الدكتوراه الفخرية من جامعة مانشستر وترفضها.

١٣ ـ ٢٣ نيسان : الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح.

٥ ـ ٢٧ أيار : الزوجان يمران بالسيارة عبر فرنسا ذاهبين إلى إيطاليا.

٢٨ أيار : العودة من دار الراهب التي وصلاها اليوم السابق إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تكتب في رواية السنين.

١ ـ ٧ حزيران : الأحد الأبيض في دار الراهب.

حزيران ـ تموز : الزوجان نشطان جداً ومنهمكان بحياة اجتماعية ؛ تجدد العلاقة الصحيحة مع الليدي أوتولين موريل التي تشجعها فرجينيا على كتابة ذكرياتها.

٢٧ تموز : إلى دار الراهب لقضاء الصيف. فرجينيا منهمكة كلياً وفي الفراش في أوائل آب. (الزوار) بضمنهم فيتا وأثيل وإليوت. فرجينيا تستأنف الكتابة في رواية السنين.

أوائل أيلول : نادي الذكريات يجتمع في بيت كينز بتيلتون ؛ فورستر مع بيت وولف ؛ في ٢٤ منه يأتي ١١ شخصاً للشاي في دار الراهب.

٣ ـ ٤ تشرين ١ : مؤتمر حزب العمال في هاستنغز ؛ ليونارد يحضر يومي المؤتمر وفرجينيا تحضر يومه الأول.

٥ تشرين ١ : نشر «فلاش» ؛ الزوجان يذهبان لسيسينغهيرست لقضاء النهار.

٧ تشرين ١ : العودة إلى ميدان تافستوك. الزيارات كل أسبوعين إلى دار الراهب مستمرة. زيارات إلى أمكنة أخرى.

١٥ كانون ١ : فرجينيا تتعشى مع كلايف بيل للقاء وولتر سيكيرت.

٢١ كانون ١ : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لثلاثة أسابيع. بيت كينز وفيتا وأولادها يأتون يوم الكرسمس.

١٩٣٤ :

٧ كانون ثاني : الزوجان يذهبان إلى لندن لقضاء النهار؛ ليونارد يذهب لجنازة أخته كلارا.

١٤ كانون ثاني ـ نهاية آذار : العودة إلى ميدان تافستوك. استمرار الزيارات كل أسبوعين لدار الراهب. فرجينيا تشكو من الصداع. تنهي في شباط «وولتر سيكيرت : محادثة» وتعود للعمل على روايتها. فانيسا ترسم صورتها.

٢٨ آذار : [الطباخة] نيللي تترك خدمة بيت وولف أخيراً. يذهبان إلى دار الراهب لأسبوعين لقضاء عيد الفصح. فورستر يأتي عندهم لحضور نادي الذكريات في تلتون في اجتماع يوم ٨ نيسان.

٢٢ نيسان : الزوجان يسوقان إلى دار الراهب ومنها إلى إيرلندة ؛ يزوران أليزابيت بووين في بووينز

كـورت ؛ يقـرآن في ووترفـيل يوم ١ أيار وفـاة جورج داكوورث.

٩ أيار : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تصاب بالأنفلونزا وتلزم الفراش أسبوعاً يذهبان بعده إلى دار الراهب لقضاء الأحد الأبيض. تمرض ثانيةً في لندن فيعودان إلى دار الراهب لأسبوع آخر. يحضران أوبرا بيغارد في غليندبورن.

١١ حزيران : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تدرس الفرنسية مرتين في الأسبوع مع جاني بوزي ؛ تعود للكتابة في رواية السنين.

٢٥ تموز : ليونارد يقتني حيوان marmoset.

٢٦ تموز : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الصيف. ميبل تباشر باعتبارها طباختهم الجديدة، ولووي كخادمة نهارية. (الزوار).

٩ أيلول : موت روجر فراي ؛ الزوجان يحضران جنازته في ١٣ منه.

٣٠ أيلول : فرجينيا تنهي المسودة الأولى من «السنين» وتتوعك لعدة أيام.

٧ تشرين أول : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا مكتئبة بشأن روايتها وبشأن انتقاصات ويندهام لويس.

٢٠ـ٢١ تشرين أول : الزوجان يذهبان إلى مؤتمر مكتب البحث للفابيين في ميدستون. في ٢٥ منه ينشر «وولتر سيكيرت : محادثة». فرجينيا تلتقي بالشاعر يتيس في منزل الليدي أوتولين موريل.

١٢ تشرين ثاني : فرجينيا تبدأ بإعادة كتابة «السنين».

٢١ كانون أول : الزوجـان يذهبـان إلى دار الراهب لقـضـاء الكرسمس. الجو مطير جداً.

١٩٣٥ :

٢ كانون ثاني : موت فرانسيس بيريل Birrell.

١٣ كانون ثاني : الزوجان يعودان إلى ميدان تافستوك.

١٨ كانون ثاني : مسرحية فرجينيا Fresh water تمثل أمام أصدقاء في مرسم فانيسا.

شباط ـ نيسان : البقاء بين أسبوع وأسبوعين في دار الراهب. فرجينيا تصحح «السنين» وترى الكثير من الناس.

١٨ ـ ٢٤ نيسان : عيد الفصح في رودميل.

١ أيار : الزوجان يغادران إلى أوروبا برحلة بالسيارة. يقضيان أسبوعاً في هولندا وثلاثة أيام في ألمانيا ويعبران ممر بريز إلى إيطاليا. وفي ١٣ منه ؛ يصلان روما في ١٦ منه ويجدان فانيسا وأنجليكا وكوينتين بيل هناك ؛ يبدآن بالعودة في ٢٤ منه سياقةً عبر فرنسا ويصلان دار الراهب في ٣١ منه.

٢ حزيران : العودة إلى ميدان تافستوك لغاية ٦ منه ثم يذهبان إلى دار للراهب لقضاء الأحد الأبيض. زيارتان إلى بلدة غليندبورن.

٢ تموز : فرجينيا تذهب لقضاء ليلة مع بيت تويدز موار في كرستوولدز.

١٢ تموز : الزوجان يسوقان إلى برستول حيث تفتتح فرجينيا معرضاً لرسوم روجر فراي.

٢٤ تموز : «عشاء المصالحة» لجون ليمان.

٢٥ تموز : الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء الصيف. (الضيوف) بضمنهم أقرباء ليونارد والشاعر إليوت. يقومان بزيارات نهارية إلى لندن وغيرها.

٢٩ آب : جوليان بيل يغادر إلى الصين. جو عاصف بصورة استثنائية.

أيلول : فرجينيا تقرر تسمية روايتها بـ «السنين» ؛ إنها تعيد كتابتها.

٣٠ أيلول ـ ٢ تشرين ١ : الزوجان يحضران مؤتمر حزب العمال في برايتون ؛ يستمعان لهجوم بيفن على لانسبري.

٥ تشرين ١ : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تقرأ رسائل روجر فراي وتدون ملحوظات لاحتمال كتابة سيرته.

١٤ تشرين ٢ : الانتخابات العامة. الزوجان يصوتان في رودميل ويأخذون مصوتين إلى مركز الاقتراع في باجام.

٢٠ كانون ١ : إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس. مطر شديد.

١٩٣٦ :

١ كانون ٢ : فرجينيا في الفراش تشكو الصداع ؛ ثلاثة أيام سيئة.

٨ كانون ٢ : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تجري تعديلات في رواية السنين وتقرأ من أجل كتابة

حياة روجر فراي.

٢٠ كانون ٢ :	وفاة الملك جورج الخامس. إعتلاء إدوارد الثامن العرش.
٢٤ ـ ٢٦ كانون ٢ :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب ومنها إلى كانتربري حيث يحاضر ليونارد في الرابطة الثقافية للعمال.
٩ شباط :	الزوجان يحضران اجتماعاً [لحركة] اليقظة، وهي منظمة للمثقفين المناهضين للفاشية، وذلك في بيت أدريان ستيفن.
شباط :	فرجينيا تعمل حثيثاً، وهي متوعكة، وتحد من مواعيدها الاجتماعية.
آذار :	الزوجان يذهبان لمشاهدة ليديا لوبوكوفا تمثل في [مسرحية] لإبسون Ibsen. ثمة انشغال عام بالوضع السياسي المتفاقم. قسم من رواية السنين يرسل إلى الطابع لكن القسم الأعظم لا يزال يعدل ويعاد طبعه على الآلة الكاتبة.
٣ نيسان :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء عيد الفصح. فرجينيا ترسل آخر حزمة من مسودات «السنين» إلى الطابع في ٨ منه، وتنهار فتلزم الفراش وتبقى في رودميل شهراً لا تتمكن أن تفعل شيئاً.
٣ أيار :	العودة إلى ميدان تافستوك؛ فرجينيا تذهب ليفحصها الدكتور رنديل. ثم يذهب الزوجان برحلة بالسيارة في الغرب الجنوبي. العودة إلى لندن في ٢٢ منه.

٢٣ أيار :	فرجينيا تبدأ العمل ثانيةً ـ لا يسمح طبيبها بأكثر من ٤٥ دقيقة في اليوم.
٢٩ أيار ـ ١٠ حزيران :	الزوجان يعودان إلى دار الراهب إتباعاً لتوصية الطبيب.
١٠ ـ ٢٥حزيران :	العودة إلى لندن للتجربة لمدة أسبوعين. فرجينيا تصحح المسودات الطباعية «للسنين» مع معاناة عظيمة.
٢٥ ـ ٣٠حزيران :	الزوجان في دار الراهب. بعد قضاء أسبوع آخر في لندن يعودان هنا ويبقيان حتى تشرين أول. فرجينيا متوعكة جداً ؛ لم تكتب يوميات.
من ٢٣ حزيران إلى ٣٠ تشرين أول ؛	قلة من الزوار ـ في الأغلب أقارب ليونارد ليلعبوا معه باولز Bowls.
١١ تشرين أول :	العودة إلى ميدان تافستوك ؛ فرجينيا تبدو بحالة أحسن كثيراً ؛ تذهب في ١٩ منه لقضاء ليلة مع أثيل سمايث في ووكنغ، وتبدأ باستقبال الضيوف وبالخروج.
٢ تشرين ثاني :	فرجينيا قانطة ؛ ليونارد يقرأ مسودات رواية السنين ويطمئنها ؛ تنهي العمل منها في ٣٠ منه.
تشرين ثاني :	تشارلس مورون صديق روجر فراي في لندن ويلتقي بالزوجين. فرجينيا تبدأ كتابة «ثلاثة جنيهات».
كانون أول :	أزمة التنازل عن العرش ؛ الملك إدوارد يتنازل يوم ١٠ منه.
١٧ كانون أول :	الزوجان يذهبان إلى دار الراهب لقضاء

الكرسمس. بيت كينز يتناولون الغداء يوم عيد الميلاد.

١٩٣٧ :

١ ـ ٤ كانون ٢ : آن وجوديث ستيفن في دار الراهب. في ٨ منه يتناول الزوجان الشاي مع أليزابيث روبينز وأوكتافيا ويلبرفورس في برايتون.

٩ كانون ٢ : جنازة ستيفن توملين.

١٦ كانون ثاني : العودة إلى ميدان تافستوك. في ٢١ منه تموت مديرة مطبعة هوغارث المس ويست.

شباط : فرجينيا تكتب «ثلاثة جنيهات» ؛ ليونارد متوعك ويرى أخصائياً ؛ في ٢٢ منه يعطى تقرير بالصحة التامة.

١٢ ـ ١٥ آذار : الزوجان في دار الراهب. جوليان بيل يعود من الصين منتوياً الالتحاق بالفرقة الدولية بإسبانيا.

١٥ آذار : نشر رواية السنين.

٢٥ آذار ـ ٤ نيسان : الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح. في ١ نيسان يسوقان إلى مينستيد في نيو فورست لرؤية جانيت كيس التي تحتضر.

٢٩ نيسان : فرجينيا تتكلم من الإذاعة.

٧ ـ ٢٥ أيار : الزوجان يجوبان جنوب غرب فرنسا بالسيارة، ويزوران بيت جورج صاند في نوان Nohant. مينارد كينز مريض بصورة خطيرة.

٢٩ أيار ـ ٦ حزيران : الزوجان في دار الراهب.

٦ حزيران : عشاء توديعي لجوليان بيل في ٥٠ ميدان غوردون ؛ يغادر في اليوم التالي ليتولى سياقة

سيارة إسعاف في إسبانيا.

حزيران ـ تموز : فرجينيا نشطة ثانيةً واجتماعية ؛ قضاء بعض عطل نهايات الأسبوع في دار الراهب.

١٥ تموز : وفاة جانيت كيس.

٢٠ تموز : وصول الأنباء بوفاة جوليان بيل في ١٨ منه.

٢٩ تموز : الزوجان يأخذان فانيسا بسيارتهما إلى جارلستون ثم يذهبان إلى دار الراهب حتى تشرين أول. فرجينيا معينة دائمة لشقيقتها والأسرة. (الضيوف) بضمنهم الشاعر إليوت. زيارات نهارية لمحلات أخرى. فرجينيا تكتب «ثلاثة جنيهات».

١٠ تشرين أول : العودة إلى ميدان تافستوك. فرجينيا تنهي في ١٢ منه «ثلاثة جنيهات».

تشرين ١ ـ كانون ١ : الزوجان يذهبان مرة كل أسبوعين إلى دار الراهب ؛ ١٢ ـ ١٣ تشرين ثاني في كيمبريدج حيث يتكلم ليونارد في الاتحاد. فرجينيا متوعكة في بداية كانون أول وقلقة عن صحة ليونارد.

٢٢ ـ ٢٩ كانون ١ : الزوجان في دار الراهب لقضاء الكرسمس ؛ ليونارد مريض ولذا يعود إلى لندن ويفحص في مستشفى في ٣١ منه.

١٩٣٨ :

١ ـ ١١ كانون ٢ : ليونارد يلزم الفراش ؛ نتيجة فحص العيّنات «طبيعي».

١٤ ـ ٢٣ كانون ٢ : إلى دار الراهب لنقاهة ليونارد.

٢٤ كانون ٢ : فرجينيا مريضة بالحمى في ميدان تافستوك.

١ آذار : جون ليمان يشتري حصة فرجينيا في المطبعة.

١٢ آذار : هتلر يغزو النمسا.

١٤ ـ ٢٤ نيسان : الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح. موت الليدي أوتولين موريل في ٢١ منه. فرجينيا تكتب في سيرة روجر فراي وتفكر برواية (بين الفصول).

١٤ ـ ١٥ أيار : الزوجان يذهبان إلى هازلير للبقاء مع راي وأوليفر ستراجي.

٢٢ أيار : وفاة كاكوكس.

١ ـ ١١ حزيران : الزوجان في دار الراهب. نشر «ثلاثة جنيهات» في ٢ حزيران.

١٦ حزيران ـ ٢ تموز : الزوجان يذهبان بالسيارة إلى إسكتلندا والجزر الغربية.

٢٨ تموز : الزوجان في دار الراهب لقضاء الصيف. (الضيوف) بضمنهم فيتا وفورستر. زيارات أسبوعية إلى لندن ولقضاء ليلة واحدة (٢٦ ـ ٢٧ أيلول) خلال أزمة ميونيخ.

١٦ تشرين أول : العودة إلى ميدان تافستوك ؛ الزوجان يذهبان إلى دار الراهب كل أسبوعين.

٢٠ كانون أول : إلى دار الراهب لقضاء الكرسمس. ثلج. في ٢٤ منه يموت جاك هيلز ؛ كذلك يموت حيوان ليونارد «ميتز». إلى تلتون وجارلستون يوم عيد الميلاد.

١٩٣٩ :

١٥ كانون الثاني : العودة إلى ميدان تافستوك. الزوجان يذهبان مرتين في الشهر إلى رودميل لنهايات الأسبوع.

٢٨ كانون الثاني : الزوجان يزوران فرويد في هامستيد.

٢ آذار : فرجينيا تتكلم في معرض لتصاميم أغلفة الكتب في المدرسة المركزية للفنون والصناعات اليدوية.

٦ ـ ٢٤ نيسان : الزوجان في دار الراهب لقضاء عيد الفصح. فرجينيا متوعكة.

٢٥ أيار : في دار الراهب لقضاء الأحد الأبيض.

٥ ـ ٢٠ حزيران : الزوجان يذهبان إلى فرنسا لـلتجوال بالسيارة في بريتاني ونورماندي.

٢٢ حزيران : العودة إلى ميدان تافستوك.

٢ تموز : وفاة أم ليونارد.

٢٥ تموز : الزوجـان يذهبـان إلى دار الراهب لقـضـاء الصيف.

١٧ آب : إلى لندن لنقل مطبعة هوغارث إلى ٣٧ ميدان مكلينبـرغ ؛ في ٢٤ منه ينقلون مـقـتنيـاتهم الشخصية إلى هناك ويعودون إلى رودميل جو الأزمة يسود في لندن.

١ أيلول : ألمانيا تغزو بولندا ؛ في ٢٣ منه تعلن إنكلترا الحرب.

أيلول : كتاب مطبعة هوغارث يبقى كل واحد منهم يومين أو ثلاثة في دار الراهب. (الضيوف).

١٣ ـ ٢٠ تشـرين ١ : الزوجان يقيمان في ميدان مكلينبرغ. من الآن فصاعداً يسكنان دار الراهب، فيذهبان عادةً إلى

لندن مرة في الأسبوع، أحياناً لقضاء النهار، وأحياناً للبقاء بضعة أيام.

تشرين ١ ـ كانون ١ : في دار الراهب. اجتماعات منتظمة لفرع رودميل لحزب العمال تعقد هناك ـ (الضيوف) إليوت. . الخ.

١٩٤٠ :

٦ كانون ٢ : حفلة لأنجيليكا بيل في جارلستون ؛ (الضيوف) بضمنهم بيت وولف وبيت كينز. . . الخ.

١٢ ـ ١٣ كانون ٢ : إي. أم. فورستر يقيم في دار الراهب.

شباط : جون ليمان عندهم ليومين ؛ يذهبان إلى لندن مرتين. فرجينيا مريضة في ٢٤ منه بالأنفلونزا لكنهــا تذهب في ٢٦ منه إلى لندن وتلزم الفراش.

٢ آذار : العودة إلى دار الراهب. مسودة «حياة روجر فراي» ترسل إلى مارجري فراي وإلى فانيسا. فرجينيا في غالب الوقت مريضة وفي السرير لغاية ٢١ منه. مارجري فراي تبقى في دار الراهب في ٢٧ ـ ٢٨ منه.

٩ نيسان : الغزو الألماني للنرويج والدانمارك.

٢٣ ـ ٢٤ نيسان : فيتا في دار الراهب.

٢٧ نيسان : فرجينيا تحاضر في الرابطة الثقافية للعمال في برايتون (المحاضرة : البرج المائل).

١٠ أيار : ألمانيا تغزو هولندا وبلجيكا.

١٨ ـ ٢١ أيار : دزمـوند مـاكـارثي وجي. اي. مـور في دار الراهب.

١٠ حزيران :	إيطاليا تدخل الحرب.
١٤ حزيران :	الزوجان يزوران ينهرست مع فيتا ؛ باريس تسقط بيد الألمان.
١٧ ـ ٢٠ حزيران :	الزوجان في لندن ؛ أدريان ستيفن يزودهما بجرعة قاتلة من المورفيا.
٢٥ ـ ٢٧ حزيران :	أليزابيت بووين في دار الراهب.
١٥ ـ ١٦ تموز :	سان جون وجيريمي هاجسون في دار الراهب.
٢٣ تموز :	فرجينيا تقرأ على المعهد النسوي في رودميل سردها لمقلب الباخرة دريد نوط.
٢٥ تموز :	نشر كتاب «روجر فراي : سيرة حياة».
آب ـ أيلول :	معركة بريطانيا ؛ غارات جوية يومية. (الضيوف في دار الراهب). نادي الذكريات يجتمع في جارلستون في أيلول. هيلين أنريب في رودميل.
١٠ أيلول :	الزوجان يسوقان إلى لندن ؛ ميدان مكلينبرغ قد قصف، ومنزلهم قد تضرر ضرراً جسيماً ولا يستطيعون وصوله.
٢٣ أيلول :	نقل مطبعة هوغارث إلى هرتفوردشاير.
١٨ تشرين ١ :	الزوجان يسوقان إلى لندن لقضاء النهار ؛ يشاهدان ٥٢ ميدان تافستوك مخرباً أطلالاً.
٧ تشرين ٢ :	فرجينيا ترفض طلب فورستر ليرشحها إلى لجنة مكتبة لندن.
٤ كانون ١ :	الأثاث والكتب تصل من منزلهم في ميدان مكلينبرغ للخزن في دار الراهب وفي القرية.
١٤ كانون ١ :	تسليم آلات الطبع لمطبعة هوغارث إلى دار

الراهب.

١٩٤١ :

١ كانون ٢ :	الدكتورة أوكتافيا ويلبرفورس تتناول الشاي في دار الراهب ؛ إنها الآن تأتي مراراً من برايتون جالبةً معها الكريمة. . الخ.
١١ ـ ١٣ شباط :	الزوجان يسوقان إلى لندن ويذهبان بالقطار إلى كيمبريدج حيث يزوران بيرنيل ستراجي وجورج رايلاندز ؛ كذلك يزوران مطبعة هوغارث.
١٣ ـ ١٥ شباط :	أليزابيت بووين في دار الراهب.
١٧ ـ ١٨ شباط :	فيتا في دار الراهب.
٢٦ شباط :	فرجينيا تكمل رواية (بين الفصول).
٨ آذار :	إلى برايتون ؛ ليونارد يحاضر في الرابطة الثقافية للعمال، وفرجينيا تجاهد القنوط.
١٨ آذار :	ليونارد يتطيّر من حالة فرجينيا المتفاقمة.
٢٧ آذار :	الزوجان يذهبان إلى برايتون طلباً لمشورة الدكتورة ويلبرفورس حول وضع فرجينيا.
٢٨ آذار :	فرجينيا وولف تغرق نفسها في نهر أوز Ouse.

قائمة بإنتاج فرجينيا وولف

1. The Voyage Out (1915)
2. The Mark on the Wall (1917)
3. Kew Gardens (1919)
4. Night & Day (1919)
5. Monday & Tuesday (1921)
6. Jacob's Room (1922)
7. Mr Bennett & Mrs Brown (1924)
8. The Common Reader (1925)
9. Mrs Dalloway (1925)
10. To the Lighthouse (1927)
11. Orlando: A Biography (1928)
12. A Room of One's Own (1929)
13. The Waves (1931)
14. Letter to a Young Poet (1932)
15. The Common Reader: Second Series (1932)
16. Flush: A Biography (1933)
17. Walter Sickert: a Conversation (1934)
18. The Years (1937)
19. Three Guineas (1938)
20. Roger Fry: A Biography (1940)
21. Between the Acts (1941).

A Dinner Party at 46:

Here we have the first entertainment: which comprised, reading from left to right, Mrs Bell, Lytton Strachey, Lord Robert Cecil, Mrs Humphry Ward, the Quaker, & the poet Yeats. Such an assembly had so rarely got together, & seldom sprung apart. Now they did both. "Ha" said Mrs Ward.

"Hum" said the Quaker.

"Huh!" said Lord Robert

& "Tosh!" said Lytton.

The Poet Yeats was not desirous to make a single remark, but grinding his teeth, & stamping his feet produced a sound which was expressive of considerable mental equipment in a congealed condition.

أنموذج من خط فرجينيا وولف

١٩٢٥



.فرجينيا ستيفن، ١٩٠٣



السيدة لزلي ستيفن مع فرجينيا، ١٨٨٤



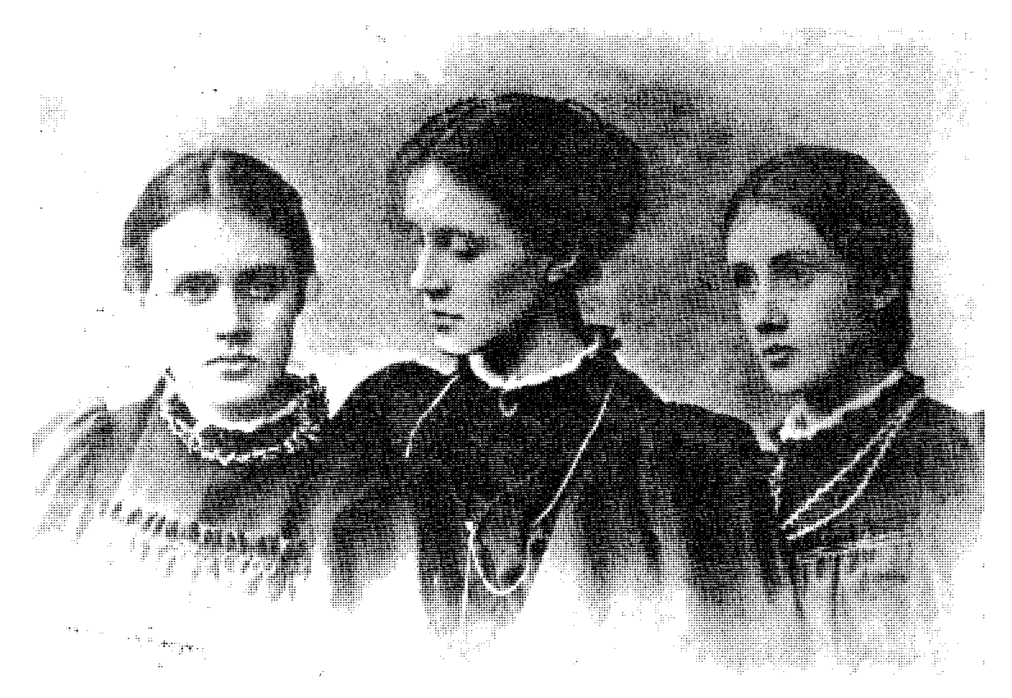
لزلي ستيفن



فرجينيا وفانيسا في سانت آيفز، ١٨٩٤

الطاهيه صوفي فاريل مع الخادمات والكلاب



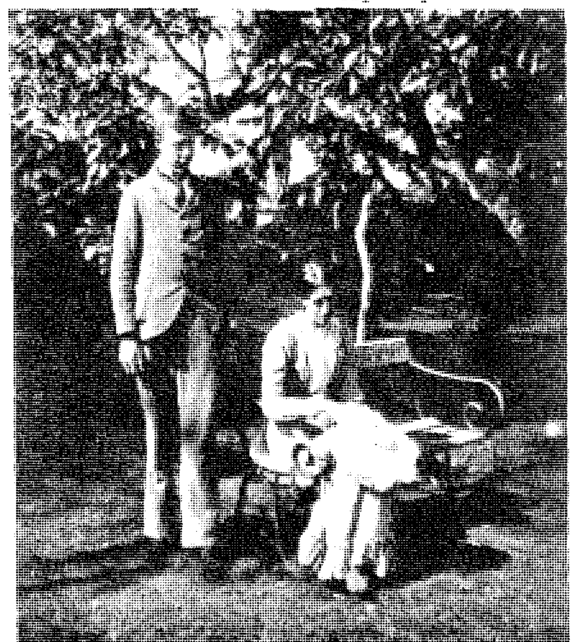


فانيسا وستيلا وفرجينيا، ١٨٩٦

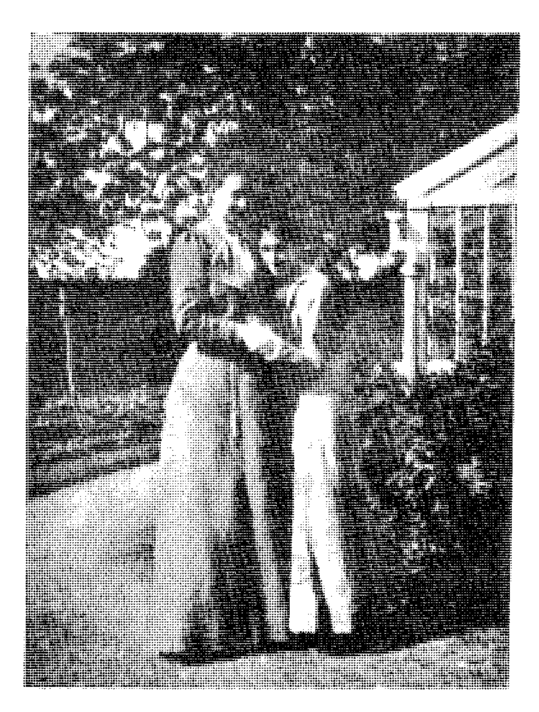
جاك هيلز



سيلا دكوورث



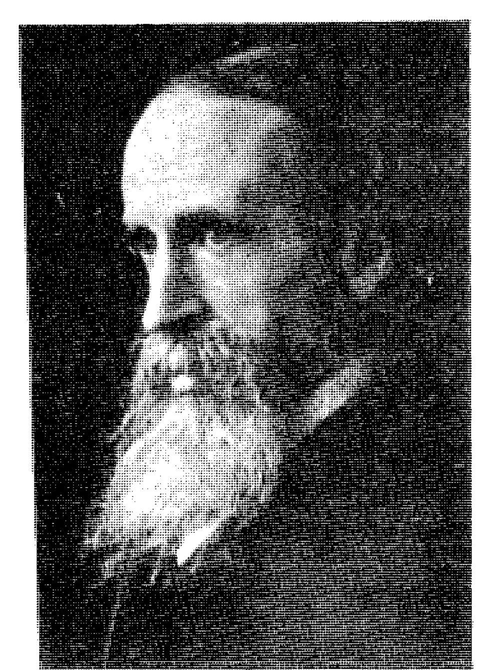
أدريان وفرجينيا، ١٩٠٠



فيوليت دكنسون وفرجينيا، ١٩٠٦



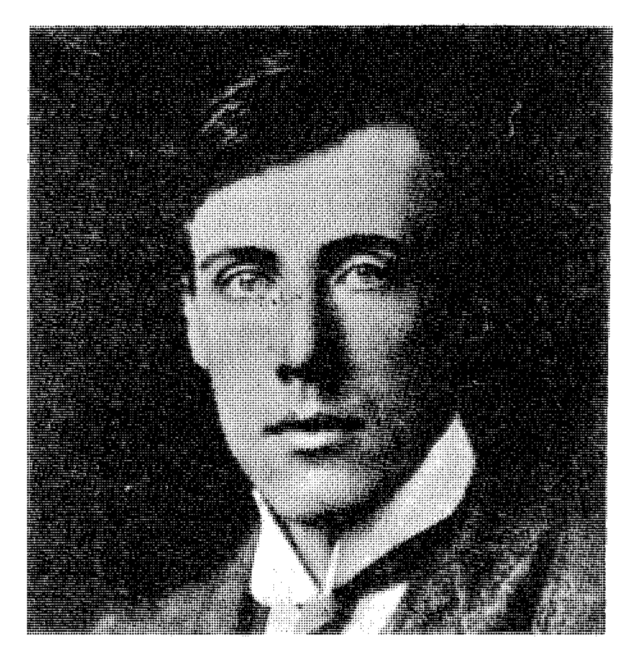
جيمز وليتون ستراجي، ثوبي وادريان وفرجينيا ستيفن، والكلب كورث



سیر لزلی ستیفن، ۱۹۰۲



فانیسا ستیفن



ثوبي ستيفن



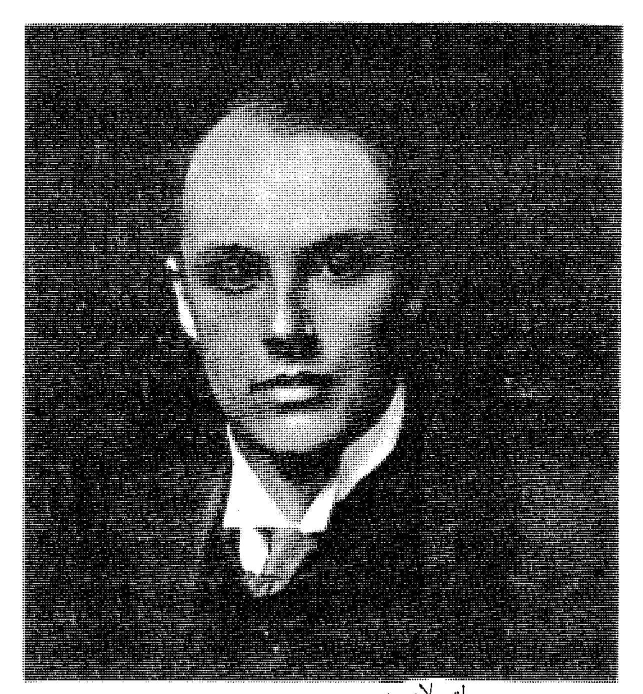
الليدي بياتريس ثاين



الليدي روبرت سيسيل

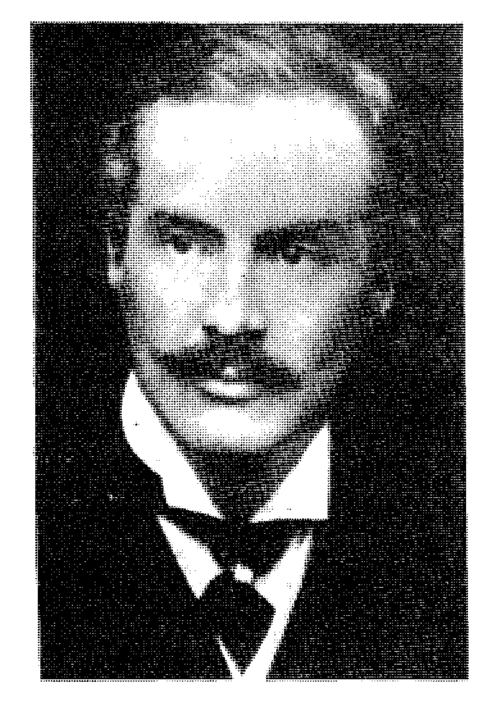


فيوليت دكنسون


وولتر لامب


أدريان أمام منزل فرجينيا في ميدان فيتزرروي

جورج دکوورث



ماج فونجان





كلايف بيل، ١٩٠٦



ليتون ستراجي بريشة دانكون غرانت

امبراطور الحبشة وحاشيته

من اليسار إلى اليمين، الواقفون : غاي ريدلي، هوراس كول أدريان ستيفن، دانكون غرانت. الجالسون : فرجينيا ستيفن، أنطوني باكستون.





كارولين أميليا ستيفن

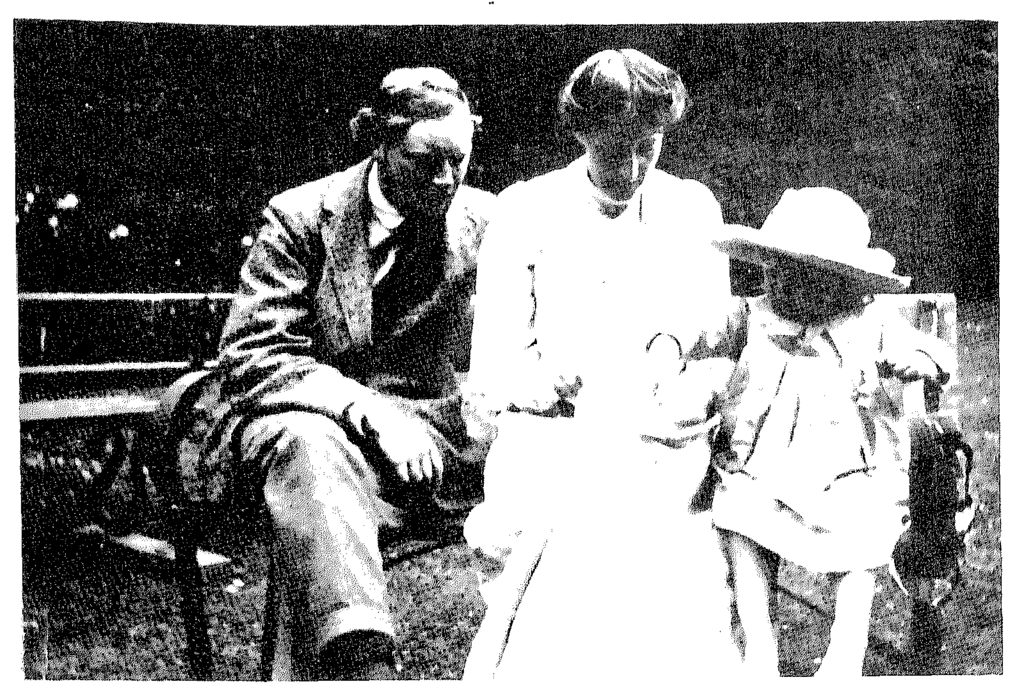
روجر فراي





فرجينيا ستيفن

كلايف، فرجينيا، جوليان في بلين، ١٩١٠





ساكسون، كلايف، فرجينيا مع جوليان في ستودلاند، ١٩١٠



منزل آشام



فرجینیا ولیونارد وولف



فرجينيا وولف

ليديا لوبوكوفا، ١٩٢٠





ليدي أتولين موريل بريشة سايمون بازي



كارنغتون مع رالف بارتريدج بصحبة ليتون ستراجي في هام سيراي ١٩٣٠



روجر فراي ودزموند مكارثي وكلايف بيل في جارلستون، ١٩٣٣



دنكون غرانت ومينارد كينز وكلايف بيل، ١٩١٩



فانيسا بيل في ١٩١٤



كاكوكس في آشام ١٩١٤



فرجينيا وولف ١٩٢٥

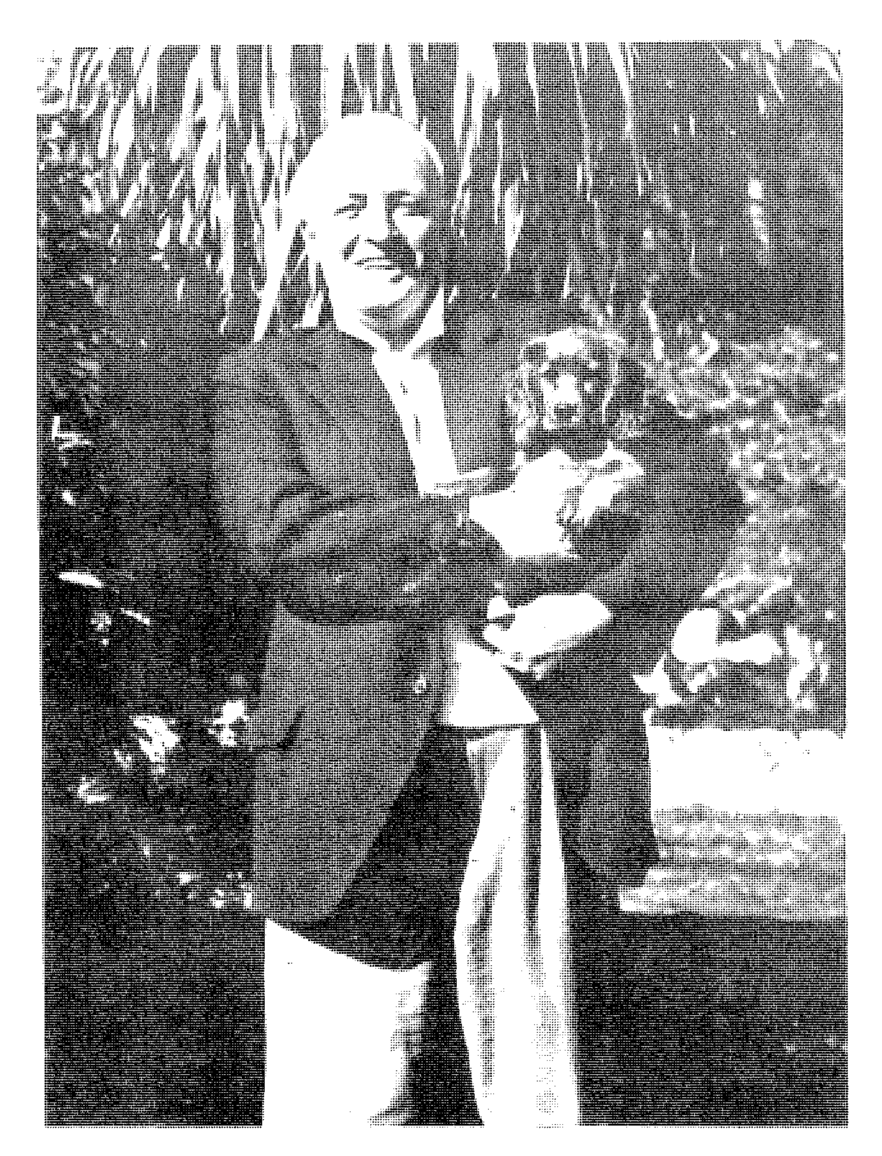


فيتا ساكفيل - ويست ١٩٢٦

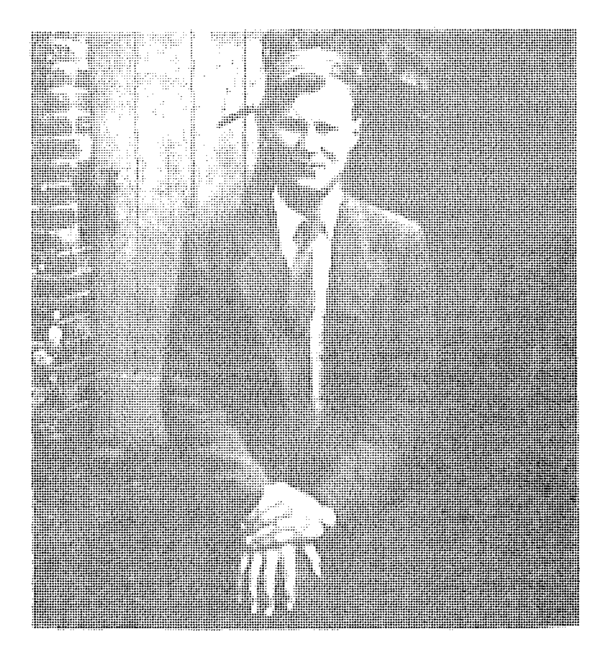


تمثال فرجينيا وولف للنحات ستيفن توملين، ١٩٣١

فرجينيا وأنجيليكا بيل، ١٩٣٢



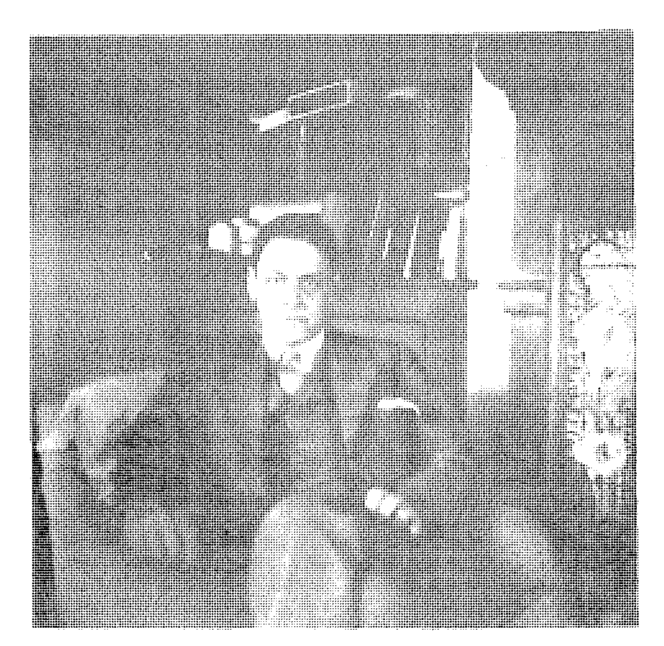
هیو وولپول



جوليان بيل، ١٩٣٢

ليونارد وفرجينيا في كاسيس، ١٩٢٨





تي. إس. إليوت



مورغان فورستر



أنغوس ديفيدسون



جورج رايلاندز